وفى علم الأصول يُقسِّمون العلم إلى : علم دراية ، وعلم رواية ، فعلم الرواية كالذى يحفظ القرآن الكريم بالقراءات السبع أو العشر أو الأربعة عشر ، ومع ذلك ربما لا يعرف تفسيره ؛ لأن علْمه بالقرآن علْم رواية فحسب ، أما الذى تخصص فى تفسيره ومعرفة معانيه وأحكامه ، فهذا العلم يُعَدُّ علْم دراية ، فالدراية إذن علْم بالتفصيل ، والرواية علم بالإجمال الكلى .

ومن حكمته تعالى أن يكون حَفَظة القرآن ليسوا من العلماء - إلا فيما نَدُر - لأن العالم إذا ما وقف حفظه عند كلمة معينة ربما دعاه علْمه إلى التصرُّف فيها بلفظ آخر ، كما فى (فتبينوا ، فتثبتوا)[1] مَثلاً ، أما الذى حفظ القرآن روايةً فحسب ، فإذا وقف أمام كلمة ناسياً لها ، فإنه لا يتجاوزها حتى يفتح الله عليه بما نسيه ، وبذلك حفظ الله كلامه .

ونلحظ أن هذا الفعل جاء بصيغة المضارع ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] وجاء بصيغة الماضى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ .. (١٤)﴾ [المرسلات] ولكل منهما مدلول ، فساعةَ يقول سبحانه ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. (١٧)﴾ [الشورى] يعنى : لا وسيلةَ إلى أنْ يُعْلمك أحد بها أبداً ، لا فى الحال ، ولا فى الاستقبال . أما ﴿وَمَا أَدْرَاكَ .. (١٤)﴾ [المرسلات] فتدل على أنه نفى أنْ يعلمه أحد قبل الآن ، ومن الممكن أنْ نعلمه نحن .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨)﴾ [المدثر]

وقال : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾ [المرسلات]

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا .. (٩٤)﴾ [النساء] .

وقال : ﴿ الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) ﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿ الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) ﴾ [القارعة]

وقال : ﴿ فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) ﴾ [البلد]

وقال : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ (٩) وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ (١٠) نَارٌ حَامِيَةٌ (١١) ﴾ [القارعة]

وقال : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩) ﴾ [الانفطار]

وقال : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٣) ﴾ [القدر]

وهكذا فى كل (وَمَا أَدْرَاكَ) تعنى : أنك لم تَكُنْ تعرفه من قبل ، لكن سيخبرك الله به ، أما صيغة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ .. (٦٣) ﴾ [الأحزاب] فتعنى أن هذا الشيء المبهم سيظل كذلك مُبْهماً لا يطلعك الله عليه ، ومن هذه الأمور وقت قيام الساعة ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) ﴾ [الأحزاب]

ولم يخبر الحق سبحانه عن وقتها ؛ لأن الإبهام قد يكون أوضح البيان ، فالله تعالى أبهم عنَّا ساعة الموت ، فلا يدرى أحد منا متى يموت ، وهذا الإبهام جعلك تنتظره فى كل لحظة من لحظات حياتك ، فالحقيقة أنه بهذا الإبهام أوضحه كل الإيضاح .

كذلك أبهم الله مثلاً ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان ؛ لأنه سبحانه لا يريدك مُتعبِّداً ليلة واحدة ، إنما يريدك مُتعبِّداً طوال هذه العشر لتستزيد من الثواب وتحب العبادة لذاتها لا لمجرد الثواب عليها .

وكذلك أخفى الله تعالى عنا وقت الساعة ، لكى نتوقعها فى كل وقت ، وننتظرها كل لحظة ، وهذا أدْعى للاستقامة والخوف من المعصية ، ومن أدراك أنْ تقومَ الساعة وأنت على معصية الله ، إذن : الإبهام هنا عَيْن البيان .

وهو مقصد من مقاصد الحق سبحانه ؛ ليشيع الحكم فى كُلِّ زمان ، وإلا لو عرف الإنسانُ أجَله لسار فى الدنيا كما نقول (على حَلِّ شعره) يُعربد فيها كما يشاء ، ثم يتوب قبل الموت ؛ لذلك لم يجعل الله تعالى للموت سبباً ، فحين لا ترى سبباً قُلْ مات لأنه يموت ، وصدق مَنْ قال : والموت من دون أسباب هو السبب .

ورحم الله شوقى حين قال فى الموت :

فى الموْت ما أعْيَا وفى أسْبابه ... كُلُّ امْرِى رهن بطىِّ كتَابه
أسَد لَعَمْرك مَنْ يموتُ بظُفْره ... عنْد اللقاء كمَنْ يموتُ بنَابه
إنْ نامَ عنكَ فكُلُّ طبٍّ نافعٌ ... أوْ لَم يَنَمْ فالطبُّ مِنْ أذْنَابه

وكثيراً ما نرى المريض يموت بسبب حقنة أعطاها له الطبيب ، أو عملية جراحية غير مُوفَّقة .

وصدق مَنْ قال :

سُبْحانَ مَنْ يرثُ الطبيبَ وطبَّه ... ويُرى المريضَ مصَارعَ الآسينَا

لكن مع ذلك ، يجعل الله لها علامات لُطْفاً بنا ورحمة ، علامات

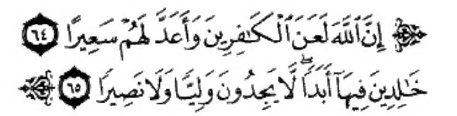
صغرى وعلامات كبرى ؛ لذلك يقول سبحانه عن الساعة : ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا .. ⑮﴾ [طه]

يعنى : قاربْتُ أنْ أزيل خفاءها بالعلامات الصغرى ، والعلامات الكبرى ، لأنها أصبحتْ قريبة ، وقلنا : إن الهمزة فى (أخفيها) همزة إزالة يعنى : أزيل خفاءها ، مثل همزة (أعجم) تقول : أعجم الكتاب أى : أزال عُجْمته وإبهامه بوضع النقط على الحروف ، ومنه سُمِّيتْ الكتب التى تُوضِّح معانى المفردات : معاجم .

وقد تكون الإزالة بالتضعيف مثل (قشَّرت البرتقالة) يعنى : أزلْتُ قشْرتها .

فمعنى ﴿وَمَا يُدْرِيكَ .. ⑰﴾ [الشورى] أى : لا أحدَ سيخبرك بها ولا أنا ، وكما ضَنَّ الحقُّ بعلمها على الخَلْق جميعاً فقد ضَنَّ على نبيه وحبيبه محمد ، ولو كان مُخبراً بها لأخبر نبيه ، حتى ولو سراً بينه وبينه ، دون أنْ يُبلِّغ الناسَ بها ، لكن أبداً لا هذه ولا هذه ؛ لذلك كان سيدنا رسول الله إذا سُئِلَ عن الساعة قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل »[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :



﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٠) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه فى حديث جبريل أنه قال لرسول الله ﷺ وهو فى هيئة رجل : يا رسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ﷺ : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل ».

لعنهم يعنى : طردهم من رحمتـه تعالى ، وأبعدهم أى : فى الدنيا ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) ﴾ [الاحزاب] يعنى ناراً تستعر وتتأجج وتتوهج ، وهذا فى الآخرة فى الـيوم الذى قال الله فـيه : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وهذه النار المتأججة بـاقية دائمة لا تنتهى ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (٦٥) ﴾ [الاحزاب] وسمـعنا بعض العلماء يقولون عن الأبدية أنهـا ذُكِرَتْ فى كل الآيات التى تحدثتْ عـن نعيم الجنة ، لكنها لم تُذكـر فى عذاب الكفار يوم القيامة .

وصاحب هذا القـول لم يستقرىء كـتاب الله جيداً ، فقـد ذُكر هذا اللفظ : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا .. (٦٥) ﴾ [الاحزاب] فى موضعـين : أحدهما هذا الذى نحن بصدده ، والآخـر فى سورة الجن فى قوله سبـحانه : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) ﴾ [الجن]

وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده أن يأتى لفظ التأبيد فى كل آيات الجنة ، ولا يأتى إلا فى مـوضعـين لأهل النار ، ذلك لأن رحمـة الله سبقـتْ غضبـه ، فاقتـضى ذلك أنْ يُبشِّـر المؤمنين بتـأبيد النعيم ودوامه .

أما فى جزاء الكافرين ، فيقول : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا .. (٦٥) ﴾ [الاحزاب] ولا يذكـر لفظ التـأبيد ، لعـل ذلك يُحنِّن قلوب هؤلاء ، ويعطفـهم إلى طريق الله الرحيم بهم .

وذكر لفظ التأبيد فى هاتين الآيتين ليحقق المبدأ ويُقرِّره فحسْب ، ومن رحمته تعالى أن تسبق رحمته فى البشارة ، وتتلطف بالنذارة .

فهذه الحـكمة الإلهية مقـصودة ، وكانت تُؤتى ثمارهـا المرجوة ،

فكانت باباً لإيمان الكثيـرين من الكفار ، وسبق أنْ ذكرنا قصـة سيدنا إبراهيم ـ عليـه السـلام ـ لما جـاءه ضيف وطـرق بابه ، فسـأله عن دينه ، فلمـا علم أنه غـير مـؤمن أغلق البـاب فى وجهـه ، فانصـرف الرجل ، لكن سرعـان ما عاتب الله تعـالى نبيـه إبراهيم فى ذلك وقال له : يا إبراهيم ، لقـد وَسعتُه طوال حـياته فى مُلكى وهو كـافر بى ، أتريد أنْ يُغيِّر دينه فى ليلة تستضيفه فيها .

فهـرول إبراهيم ـ عليه السلام ـ حـتى لحق بالرجل ، وأعاده إلى ضيافـته ، فقال الرجل : ألم تـردَّنى عن بابك منذ قليل ؟ قال : بلى ، ولكن عـاتبنى ربى فـيك ، فـقـال : نِعْم الربُّ رَبٌّ يعـاتب أوليـاءه فى أعدائه ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

وهم فى خلودهم فى النار ﴿ لاَّ يَجِـدُونَ وَلِيًّـا وَلا نَصِيـراً (٦٥) ﴾ [الأحزاب] أى : مالكاً يتولَّى أمرهم ﴿ وَلا نَصِيراً (٦٥) ﴾ [الأحزاب] ينصرهم أو يدافع عنهم .

﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) ﴾

بعد أن ذكـر الحق سبحـانه الأبدية التى ستكون للـكفار فى النار يذكر وَصْفاً للحالة التى سيكونون عليها فى النار ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ .. (٦٦) ﴾ [الأحزاب] التقليب مـعناه تغيـير الأمر وتصـريفه من حال إلى حال ، ومنه قـوله تعالى : ﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) ﴾ [آل عمران]

يعنى : أسفارهم ونشاطهم فى حركة التجارة بين الشام واليمن ، وما يترتب على هذه الحركة من أموال وثروات .

فقوله : ﴿ يوم تقلب وجوههم في النار .. (٦٦) ﴾ [الأحزاب] أي : تقلبهم الملائكة ، فكلما نضج جانب قلبوهم على الجانب الآخر كما نُقلِّب نحن (سيخ الكباب) على النار لتستوعبه كله ، فيتم نُضْجه .

وخَصَّ الوجه ، لأنه سمة الإعلام بالشخص ، وأشرفُ أعضائه وأكرمها ، ومنه أُخذتْ الوجَاهة والوجيه ، وكلها تدل على الشرف ، ونظراً لأنه أشرف الجوارح ، فالجوارح كلها تحميه وتدافع عنه ، وسبق أنْ قُلْنا : لو أن سيارة أسرعتْ بجوارك ، ولطختْ ثيابك ووجهك بالوحل مثلاً ، ماذا تفعل ؟ أولاً : تنشغل بوجهك وتزيل ما أصابه من أذىً ، ثم تلتفت إلى ثيابك .

ولتعلم أهمية الوجه ومنزلته ، اقرأ قوله تعالى : ﴿ أفمن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة .. (٢٤) ﴾ [الزمر] فمنْ شدَّة العذاب يتقيه بوجهه الذي هو أشرف أعضائه .

أو : أن معنى التقليب من عذاب إلى عذاب ، وقد أعطانا الحق سبحانه صوراً متعددة لوجوه الكافرين في النار ، والعياذ بالله ، فقال مَرَّةً : ﴿ ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة .. (٦٠) ﴾ [الزمر]

وقال : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة[1] (٤٠) ترهقها قترة[2] (٤١) أولئك هم الكفرة الفجرة (٤٢) ﴾ [عبس]

وقال : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة[3] (٢٤) تظن أن يفعل بها فاقرة (٢٥) ﴾ [القيامة]

---

(١) الغبرة : ما دقَّ من التراب ، قال تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة (٤٠) ﴾ [عبس] أي : عليها غبار وتراب كناية عن الذل والشقاء . [القاموس القويم ٢/٤٧] .

(٢) القترة : شبه دخان يغشى الوجه من شدة الكرب . [القاموس القويم ٢/١٠٠] . والقترة : غبرة يعلوها سواد كالدخان . [لسان العرب ـ مادة : قتر] .

(٣) بسر : أظهر العبوس ونظر بكراهية وكلح وتغيَّر ، وقوله تعالى : ﴿ ووجوه يومئذ باسرة (٢٤) ﴾ [القيامة] كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد . [القاموس القويم ١/٦٦] .

فالوجه هنا لا يأخذ صورة واحدة ، إنما يأخذ ألواناً متعددة وأحوالاً شتى ، تدلُّ على تنوع ما يتعرضون له من العذاب والإيلام ، والوجه هو الدليل الأول على صاحبه ، والمترجم عمَّا بداخله ، فحين يتغير لك صاحبك مثلاً تلحظ ذلك على وجهه ، فتقول : ما لك تغيَّر وجهك من ناحيتى ؟ أو لماذا تقلَّب وجهُكَ عنى ؟

وهؤلاء حالَ تقلُّب وجوههم فى النار ، يقولون : ﴿ يَـٰلَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاْ (٦٦) ﴾ [الأحزاب] وهم الذين كانوا بالأمس يُؤذون الله ، ويؤذون الرسول ، ويؤذون المؤمنين .

كلمة ﴿ يَـٰلَيْتَنَا .. (٦٦) ﴾ [الأحزاب] كلمة تمنٍّ ، وهو لَوْن من الطلب تتعلق به النفس وتريده ، لكن هيهات ، فهو عادةً يأتى فى المُحَال ، وفى غير الممكن ، كما جاء فى قول الشاعر :

ألاَ ليْتَ الشباب يَعُودُ يَوْماً فَأُخبرهُ بما فَعَل المشيبُ

وقول الآخر :

لَيْتَ الكَواكِبَ تَدْنُو لِى فَأَنظمُهَا عُقُودَ مَدْحٍ فَمَا أَرْضَى لكُمْ كَلمى

فالشباب لا يعود ، والكواكب لا تدنو لأحد ، لكنها أُمنية النفس ، كذلك هؤلاء يتمنَّوْنَ أنْ لو كانوا أطاعوا الله وأطاعوا رسول الله ، لكن هيهات أنْ يُجدى ذلك ، فقد فات الأوان .

ثم يذكر الحق سبحانه المقابل ، فهم ما أطاعوا الله وما أطاعوا رسول الله ، لكن حجتهم :

﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ (٦٧) رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾

السادة : جمع السيد ، وهو الآمر المنفِّذ على غيره ، ولا يغير عليه أحد . والكبراء : هم الذين يأخذون منازل فى قومهم ، على قَدْر ما يُؤدُّون لهم من خدمات ، فسيد القوم أو كبير القوم لا يتبوأ هذه المنزلة من فراغ ، إنما من مواهب وإمكانات تؤهله لهذه المنزلة ؛ لذلك لا يجد غضاضة فى أنْ يقول له الناس : يا سيدى . لأنه دفع ثمن هذه السيادة وهذا هو السيد الحقيقى .

وقد تُؤخَذ السيادة بالقوة والجبروت والقهر ، دون أن يُقدِّم السيدُ شيئاً يَسُودُ به قومه ، وهذا تلصُّص على السيادة يبغضه الناس ؛ لذلك فإن الشرع الإسلامى لم يغفل هذه السيادة الحقيقية ، ولم يغفل وجاهة الناس ومنزلتهم ، فقيَّم ذلك كله مالياً فى شركة سماها شركة الوجوه[1] ، فرأس مالى فى الشركة أموال ، ورأس مالك وجاهتك ومحبة الناس لك ومنزلتك فى المجتمع .

والناس يُحبُّون هذه السيادة الحقَّة التى أخذها صاحبها بحقها ؛ يحبونها لأنهم ينالون خيرها ، وينتفعون بها على خلاف السيادة المسروقة التى أخذها صاحبها عُنْوةً ، فهم لا يستفيدون منها بشىء ، بل هى سيادة تضرُّهم ، وتأكل خيراتهم .

لذلك قلنا فى العبودية : إنها كلمة نكرهها ، إنْ كانت عبودية بشر لبشر ؛ لأنها عبودية تعطى خير العبد لسيده ، إنما العزّ كله فى أنْ تكون العبودية لله تعالى ، حيث يأخذ العبد خَيْر سيده .

وتأمل كيف كانت العبودية شرفاً وتكريماً لسيدنا رسول الله حينما

---

(١) شركة الوجوه : هى أن يشترى اثنان فأكثر من الناس دون أن يكون لهم رأس مال اعتماداً على جاههم وثقة التجار بهم ، على أن تكون الشركة بينهم فى الربح فهى شركة على الذمم من غير صنعة ولا مال ، وهى جائزة عند الحنفية والحنابلة ؛ لأنها عمل من الأعمال ، وأبطلها الشافعية والمالكية ؛ لأن الشركة إنما تتعلق بالمال أو العمل ، وهما هنا غير موجودين . قاله الشيخ سيد سابق فى « فقه السنة » (٣/ ٢٩٦) .

خاطبه ربه بقوله : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا .. ۝١﴾ [الإسراء] فعبودية محمد ﷺ هي التي أوصلته إلى هذه المنزلة التي لم يصل إليها بشر سواه .

وصدق الشاعر[1] حين قال :

حَسْبُ نَفْسِي عِزّاً بأنِّي عَبْدٌ ... يَحْتفِي بِي بلاَ مَوَاعِيدَ رَبُّ

هُوَ فِي قُدْسِه الأعَزِّ ولَكِنْ ... أنَا ألْقَى مَتَى وأيْنَ أُحِبُّ

فإنْ أردْتَ أنْ تقابل ربك ، فالأمر في يدك ، فأنت تحدد مكان المقابلة وزمانها وموضوعها ، في الشارع ، في البيت ، في العمل ، في المسجد مجرد أنْ تتوضأ وتقول : الله أكبر تصبح في حضرة ربك ، ثم أنت الذي تُنهي المقابلة إنْ شئتَ ، وربك عز وجل لا يملُّ حتى تملُّوا . فأيُّ عزٍّ فوق هذا ؟

في حين أنك إنْ أردتَ أنْ تقابل رئيساً مثلاً أو وزيراً فَدُون هذا اللقاء عقبات ومصاعب ، وليس لك من أمر هذا اللقاء شيء ، فهو الذي يحدد لك الزمان والمكان ، حتى ما تقوله ، وهو الذي يُنهي المقابلة .

أنت في عبوديتك لله تعالى ، ربُّك هو الذي يطلبك لحضرته ، ويغضب إنْ دعاك ولم تُجِبْ ، فنعْم الرب ربُّك ، ونعْمتْ العبوديةُ عبوديتُك له سبحانه .

وهنا يُلْقي الكفار باللائمة على سادتهم وكبرائهم ﴿إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ ۝٦٧﴾ [الأحزاب] ويريدون الانتقام منهم ، وأنْ يُنفِّسوا عن أنفسهم بأنْ يروهم في العذاب جزاءَ ما أوقعوهم في الشرك ، وزيَّنوا لهم المعصية .

فيقولون : ﴿رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ .. ۝٦٨﴾ [الأحزاب] أي :

(١) من شعر الشيخ رحمه الله .

عذاب مضاعف ؛ لأن ضلالهم كان كذلك مُضَاعفاً ، فقد ضلُّوا في أنفسهم ، وأضلُّوا غيرهم .

وفي موضع آخر يحكي لنا القرآن قول الكافرين يوم القيامة : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

وفي آيات كثيرة يحكي لنا القرآن حوارات تدور بين الكافرين ، يُلْقي كل منهم التهمة على الآخر ، كما حكى عن إبليس قوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ولم يكتفوا بمضاعفة العذاب لسادتهم ، إنما طلبوا لهم اللعن ، واللعن الكبير ﴿ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب] فاللعن لأنهم ضلُّوا في ذواتهم ، وينبغي أن يكون كبيراً ؛ لأنهم أضلوا غيرهم .

ونلحظ هنا أن كل نداء للرب - تبارك وتعالى - يأتي دائماً بغير أداة النداء ، لماذا ؟ قالوا : لأن النداء له أدوات تختلف باختلاف المسافة بينك وبين المنادى ، والنداء طلب الإقبال ، فإنْ كان المنادى بجوارك تقول : محمد افعل كذا ، فإنْ كان بعيداً عنك تقول : أمحمدُ ، والأبعد منه : يا محمد ، والأبعد : أيا محمد ، وهذه الأدوات مبنية على مَدِّ الصوت بحسب المسافة .

إذن : ماذا تقول حين تنادي ربك وإنْ لم تكُنْ أنت قريباً من الله ، فالله قريب منك ؟ لا تستخدم أداة النداء لا للقريب ولا للبعيد ، لذلك ورد في القرآن لفظ (ربّ) منادى في خمس وستين آية بدون أداة

نداء ، أولها قول سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

إلى قول نوح ـ عليه السلام ـ : ﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. (٢٨) ﴾ [نوح]

ويكفي في هذا القُرْب قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) ﴾ [ق]

لذلك لما سُئل سيدنا رسول الله ﷺ : أقريبٌ ربُّنا فنناجيه ؟ أم بعيد فنناديه[1] ؟ فأنزل الله : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة]

إذن : فالله تعالى قريب منا بالفعل ، وإنْ حدث بعد فمنك أنت ، وأكثر ما يكون العبد قُرْباً من الله حين يكون مضطراً ، حتى إنْ كان بعيداً عن الله قبل الاضطرار .

وفي آيتين فقط من كتاب الله نُودي الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ بأداة النداء (يَا) الأولى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) ﴾ [الفرقان]

والأخرى : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ .. (٨٨) ﴾ [الزخرف]

وهذان الموضعان حكاية عن كلام النبي ﷺ ، فلماذا لم تأت أداة النداء إلا من محمد ﷺ في نداء ربه ؟

---

(١) أورده السيوطي في أسباب النزول (ص ٣٠) وعزاه لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي الشيخ وغيرهم من طرق من حديث معاوية بن حيدة قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ ، فقال : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فسكت عنه ، فأنزل الله ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ .. (١٨٦) ﴾ [البقرة] .

قالوا : لأن سيدنا رسول الله كان شديد الحرص على هداية قومه ونُصْرة دعوته ، حتى خاطبه ربه بقوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ ﴾ [الشعراء]

وقد مَرَّ رسول الله بمواقف صعبة لدرجة جعلَتْه يستبطيء نصر الله ، فالله تعالى أنزل عليه : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٥١) ﴾ [غافر] ومع ذلك زلزل رسول الله والذين آمنوا معه كما قال سبحانه : ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ.. (٢١٤) ﴾ [البقرة] فخاف ﷺ أن يكون بعُد عن ربه ، وهذا البُعْد ما هو إلا مظنَّة من رسول الله ، أو اتهام للنفس .

فلما ذهب ﷺ يدعو ربه ويشتكي إليه أنَّ قومه هجروا القرآن نادى ربه من منزلة البعيد ، فقال : (يا رب) وكأنه ﷺ ظنَّ في نفسه التقصير أو الفشل في مهمته ورأى أن ذلك يُبعده عن ربه ، لكن أنصفه ربه وأكَّد نداءه ، بل وأقسم به ، فقال الحق سبحانه : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ(٨٩) ﴾ [الزخرف]

أي : أقسم بقولك يا محمد : ﴿ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) ﴾ [الفرقان] والحق سبحانه يُقسم بما يشاء على ما يشاء ، يُقْسم بالملائكة وبالجماد ، يقسم بالنبات ، لكن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لم يُقْسم بأحد من الخَلْق إلا برسول الله في قوله تعالى : ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ﴾ [الحجر]

أي : وتعميرك ، أو وحياتك يا محمد .

وكما أقسم سبحانه بحياة نبيه محمد أقسم بقوله ، فقال سبحانه : ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) ﴾ [الزخرف]

ثم يخاطب الحق سبحانه عباده المؤمنين ، فيقول تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الذين آذوا الله ، وآذوا رسول الله ، وآذوا المؤمنين دَلَّ على أن المسألة ليست تعصُّباً لمحمد ، إنما هذا مبدأ سائد في كل رسل الله ، وليس معنى منع إيذاء محمد أن تؤذوا غيره من إخوانه الرسل ، فقال سبحانه : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب]

وموسى ـ عليه السلام ـ كانت له في رحلة دعوته علاقتان : علاقة مع الفراعنة ، وعلاقة مع بني إسرائيل ، ولم يكُنْ موسى ـ عليه السلام ـ رسولاً إلى الفراعنة ، إنما أُرسل إلى بني إسرائيل ؛ لذلك قال موسى وهارون لفرعون : ﴿ إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [طه] فهدفه تخليص بني إسرائيل من استعباد فرعون .

أما دعوته لفرعون إلى الإيمان بالله وإظهار المعجزة أمامه لعله يؤمن ، فجاءت على هامش دعوته الأساسية لبني إسرائيل ، ومع ذلك لم يَسْلَم موسى عليه السلام من إيذاء فرعون ، فقال عنه ﴿ سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [غافر]

وقال : ﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الشعراء]

وقال . ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الزخرف]

وطبيعي أنْ يُؤْذَى موسى عليه السلام من فرعون ، وقد جاء ليبطل ألوهيته المزعومة ، لكن كيف يُؤْذَى من بني إسرائيل ، وهو الذي جاء لينقذهم من قبضة فرعون ، ومما كانوا فيه من العذاب والاستعباد ؟

قال العلماء : إن بني إسرائيل آذوا موسى حين آذوا مَنْ بعثه ، الله سبحانه وتعالى ، فقالوا له : ﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً .. (١٥٣) ﴾ [النساء]

وقالوا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ .. (١٨١) ﴾ [آل عمران]

وآذَوْا موسى حين قالوا معترضين على ما رزقهم الله من المنِّ والسَّلْوى ، فقالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ..(٦١) ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن المنَّ هو سائل يشبه العسل ، يتساقط مثل الندى في الصباح من الأشجار ، والسَّلْوى طائر يشبه السُّمان يسوقه الله إليهم دون تعب منهم ، لكنهم قوم لا يؤمنون بالغيب ، ولا يريدون هذا الطعام الجاهز ، فهم يريدون شيئاً محسوساً يزرعونه ، ويُعدونه بأنفسهم .

ثم آذَوْا موسى عليه السلام في شخصه ، حين اتهموه بقتل أخيه هارون حين صَعَدَا الجبل[1] ، ومات هارون هناك ، فقالوا : إن موسى حقد على أخيه فقتله ، فجعل الله الملائكة تحمل جسد هارون وتمرُّ به

---

(١) هذا القول قاله علي بن أبي طالب فيما أخرجه ابن أبي حاتم وذكره ابن كثير في تفسيره (٣/ ٥٢٠) في تفسير الآية ، قال : « صعد موسى وهارون الجبل ، فمات هارون ، فقال بنو إسرائيل لموسى عليه السلام : أنت قتلته ، كان ألين لنا منك ، وأشد حياء فآذوه من ذلك فأمر الله الملائكة فحملته فمروا به على مجالس بني إسرائيل فتكلمت بموته ، فما عرف موضع قبره إلا الرخم ، وإن الله جعله أصم أبكم »

على بني إسرائيل وهو سليم لا جُرْحَ فيه ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. (٦٩) ﴾ [الأحزاب]

وقال آخرون : بل اتهموا موسى عليه السلام بمرض في جسده ؛ لأنه عليه السلام كان شديد الحياء ، ستِّيراً ، يحتاط في ستر نفسه عند استحمامه وعند قضاء حاجته ، فقالوا : ما فعل ذلك إلا لعيب يريد أنْ يستره .

ومنهم مَنْ قال : به برص . ومنهم مَنْ تجرأ واتهمه بعيب في أعضائه التناسلية ، فشاء الله أنْ يبرئه مما قالوا ، فنزل ذات يوم النهرَ ليستحم ، فأمر الله حجراً فأخذ ثيابه بعيداً عنه ، فجرى موسى عليه السلام خلف الحجر وهو يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر فرأوه مُبرأ من العيوب التي اتهموه بها[1] .

أو : أن قارون لما حصلتْ الخصومة بينه وبين موسى عليه السلام استأجر امرأة بغياً ، وقال لها: اتهمي موسى على مَشْهد من الناس ، فشاء الله أنْ يجتمع الناس وتنطق هي وتقول : قارون فعل كذا وكذا ، فبرَّأه الله بذلك[2] .

---

(١) عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلاً حيياً ستيراً لا يُرى من جلده شيء استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب جلده : إما برص ، وإما أدرة ، وإما آفة . وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر ، فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً . فذلك قوله ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ .. (٦٩) ﴾ [الأحزاب] . أخرجه البخاري في صحيحه (٦/٤٣٦) .

(٢) أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٤٣٦) وعزاه لابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس أنهم اتهموه بالزنى وأتوا بالمرأة وقالوا لها : ما تشهدين على موسى ؟ فقال لها موسى عليه السلام : أنشدك بالله إلا ما صدقت . قالت : أما إذ نشدتني بالله فإنهم دعوني وجعلوا لي جُعْلاً على أن أقذفك بنفسي ، وأنا أشهد أنك بريء ، وأنك رسول الله . فَخَرَّ موسى ساجداً يبكي .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب] فينفى عنه العيب ، ثم يُثبت له الوجاهة والشرف .

﴿ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأحزاب] وأىُّ وجاهة بعد أنْ أظهر الله براءته ، وبيَّن كذب أعدائه ، فالوجاهة هيئة تدل على أنه مقبول الرجاء ، مقبول الدعاء ، لا يجرؤ أحد أنْ يرميه بعيب بعد ذلك ، ولا أنْ يتهمه بذنب لم يفعله ؛ لأنهم علموا أن لموسى رباً يحميه ، ويدافع عنه .

ومن عدالته سبحانه وتعالى مع خَلْقه أن مَنْ يُرْمَى بذنب لم يفعله يُعوِّضه عنه بأنْ يستر عليه ذنباً فعله ، ولا يفضحه به ، فواحدة بواحدة ، إلا شيئاً واحداً كان مع موسى ـ عليه السلام ـ فحين لقى جواب الله ، فكأنه غرَّه كرم ربه معه فقال : يا رب ما داموا قالوا فىَّ كذا وكذا ، أسألُكَ ألاَّ يُقال فىَّ ما ليس فىَّ ، فقال : يا موسى ، أنا لم أفعل ذلك لنفسى ، فكيف أفعله لك ؟ والمعنى أنهم يقولون فى حَقِّ الله تعالى أكثر من ذلك .

إذن : أبقى الله الكفر ليطمئن كل مَنْ أُنكر جميله ، وكأنه يقول له : لا تحزن فأنا الخالق ، وأنا الرازق ، ومع ذلك كفروا بى وأنكروا الجميل .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾

سبق أن تكلمنا عن معنى التقوى ، وهى أن تجعل بينك وبين الله وقاية ، فالحق سبحانه له صفاتُ جمال ، وصفات جلال : صفات الجمال الفضل والرأفة والمغفرة والغِنَى والنفع .. إلخ وصفات الجلال : الجبار المنتقم ذو البطش .. إلخ فالتقوى أنْ تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية تقيك منها لأنك لستَ مطيقاً لبطش الله وانتقامه .

ومع ذلك يقول أحد العارفين : احرص على معيتك مع الله ، نعم لأنك حين تجعل بينك وبين صفات الجلال وقاية تقترب من صفات الجمال .

أما إذا اشتبه عليك قوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ .. (١١٢) ﴾ [المائدة] وقوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ .. (١٣١) ﴾ [آل عمران] فاعلم أن النار جند من جنود غضب الله ، فمن يتقى اللهَ يتقى النارَ ، فلا تعارضَ إذن .

ومعنى ﴿ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) ﴾ [الأحزاب] أى : قولاً صادقاً يُوصل للحق ، وكلمة سديد من سداد السهم ، حين يصيب هدفه ولا يُخْطئه ، وهدفك أنْ تنعم بذات الله فى الآخرة ، وأنْ تنفض الأسباب التى فى الدنيا ، وتعيش مع المسبِّب سبحانه .

فأنت فى الدنيا حين تريد أن تأكل مثلاً انظر إلى الطعام الذى أُعدَّ لك ، كم أخذ من وقت وإمكانات وأموال .. إلخ ، أما فى الآخرة ، فمجرد أنْ يخطر الشىء على بالك تجده بين يديك ، إذن : هذه معية يجب أنْ تحرص عليها كلَّ الحرص .

ثم يذكر لنا الحق سبحانه نتيجة القول السديد ﴿ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١) ﴾ [الأحزاب] أى : فى الآخرة ، ووصف الفوز بأنه عظيم ؛ لأنك فى

الدنيا تأخذ عطاء الله بأسباب الله ، أما في الآخرة فتأخذ عطاء الله من ذات الله ، وليس هناك أعظم من هذا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ ﴾

العَرْض : إدارة معروض على معروض عليه ، كما نرى مثلاً في العرض العسكري ، حيث تمر نماذج من الجيوش والأسلحة أمام القائد ، ومنه قوله تعالى في قصة سيدنا سليمان عليه السلام : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ[1] الْجِيَادُ ﴿٣١﴾ ﴾ [ص]

ومنه قولك : عرضتُ على فلان الأمر يعني : أطلعتُه عليه ، ليرى فيه رأيه يقبل أو لا يقبل ، فالعرض تخيير لا إلزامَ فيه .

فالحق سبحانه يقول : عرضت الأمانة على خَلْقي كلّ خَلْقي ، ومنه الإنسان والحيوان والجماد والنبات لأرى مَنْ منهم سيقبل تحمُّلها ، ومَنْ سيرفض ، إذن : معنى العَرْض أن هناك مَنْ سيقبل ، وهناك مَنْ سيرفض .

لذلك قُلْنا : من الخطأ : أن نقول : إن الأرض والسماء والجبال .. إلخ مُسَيَّرة مقهورة ، بل يجب أنْ نُعدِّل العبارة فنقول هي مقهورة باختيارها ؛ لأن الله حين عرض عليهن الأمانة أبيْن أن يحملنها وأشفقْنَ

(١) صفن الجواد : قام على ثلاث أرجل وثنى الرابعة وهذا يدل على كرمه . [القاموس القويم ٣٧٩/١] وهو قول مجاهد . ذكره ابن كثير في تفسيره (٣٢/٤) . وقال إبراهيم التيمي : كانت عشرين فرساً ذات أجنحة ، رواه ابن جرير

منها ، وقالت : نخرج من باب الجمال ، فاختارتْ ألاَّ تكون مختارة .

ومعنى الأمانة فى عُرْفنا هى المال ، أو الأشياء النفيسة التى تخشى عليها الضياع ، فتُودعها عند مَنْ تلتمس فيه أنه يحافظ عليها لحين حاجتك لها ، وليس لك أنْ تأخذ ممَّنْ ائتمنته صكاً ، ولا أنْ تُحضر شهوداً ، وإلا ما أصبحت أمانة ، إذن : ليس عليها إثبات إلا أمانة مَنْ أخذها ، فإنْ شاء أقرَّ بها وأدَّاها ، وإنْ شاء أنكرها .

فالأمانة إبعاد النفس بأن تكون مختارة فى الفعل وغيره ، فإنْ كانت مقهورة بصكٍّ ، أو بشهادة شهود لم تُعَدْ أمانة .

والأمانة التى عرضها الحق سبحانه على خَلْقه هى أمانة الاختيار فى أنْ يكون مختاراً فى أنْ يؤمن أو يكفر ، فى أنْ يطيع أو يعصى ، فكل ما عدا الإنسان رفض التحمُّل ؛ لأنه لم تأخذه الحمية وقت العَرْض والتحمُّل ، مخافة أنْ يأتى وقت الأداء ، فلا يجد له ذمة .

وفَرْق بين وقت التحمُّل ووقت الأداء ، فمَنْ يلاحظ وقت التحمل فقط يُقدِم عليها ويقبلها ، لكن مَنْ يلاحظ مع التحمُّل الأداءَ يرفض ، فربما مع حُسْن النية والرغبة فى الأداء تتغير الظروف ، أو تتغير الذمة ، أو يطرأ عليك ما يُحوجك لها ، فتمتد إليها يدك ، فيأتى وقت الأداء ، فلا تستطيع .

كل أجناس الوجود ما عدا الإنسان أبَوْا ، أنْ يحملوا الأمانة واختاروا القهر والتسيير للخالق عز وجل ؛ لأن الإنسان كما وصفه ربه ﴿ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

كذلك وصل عباد الله الصالحين إلى منزلة العبودية لله حين وجَّهوا اختيارهم حَسْب مراد ربِّهم ، فالله أعطاهم الاختيار فى الإيمان أو الكفر فآمنوا ، وأعطاهم الاختيار فى الطاعة وفى المعصية فأطاعوا ، فوجَّهوا اختيارهم إلى ما أحبَّ ربهم ، فصاروا من عباده المقربين .

فكأنك إذن تنازلتَ عن اختيار نفسك فى حرية الحركة ، فصرْتَ كالسموات والأرض والجبال حين تنازلن عن اختيارهن لاختيار ربها ووصلْتَ - مع أنك مختار - إلى أنْ لا تختار إلا ما وضعه الله لك منهجاً .

هنا يحلو للبعض أنْ يقول : كيف عُرِضَتْ الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وهى جمادات ، وكيف لها أنْ تأبى ؟ ... إلخ نقول : أنت أدخلتَ نفسك في متاهة ، وهل كان العرض منك أنت حتى لا تفهمك الجمادات ؟ أم كان العرض من ربها وخالقها ؟

ساعة ترى فعْلاً يحدث منك ويحدث من الله ، إياك أنْ تعزل الحدث عن فاعله ، والله يقول : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك]

فهو سبحانه خالقها ، وهو الذى يخاطبها ، ولم تنكر ذلك ، وقد علَّم الله بعض رسله مثلاً لغة الطير فعرفها وتفاهم معها ، كما قال سبحانه عن نبيه سليمان أنه قال : ﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل]

وقال ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل]

وقال عن تسبيح الجبال مع سيدنا داود عليه السلام ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ] فالجبال ، نعم تُسبِّح فى كل حال ،

لكنْ الذى امتاز به سيدنا داود أنْ يوافق تسبيحُه تسبيحَ الملائكة ، وكأنهم جميعاً فرقة ينشدون نشيداً واحداً .

إذن : الخالق سبحانه هو الذى يخاطب ما يشاء من خَلْقه ، ولو علَّمك أنْ تخاطب الجمادات لخاطبتها ، وتأمل مثلاً قصة الهدهد وسيدنا سليمان حين ذهب إلى أهل سبأ ، ووجدهم يعبدون الشمس من دون الله ، وكيف أنه كان على فقه تام بقضية التوحيد .

فأرِحْ نفسك وانْسبْ الفعل إلى فاعله وأنت تستريح ، ولك فى تصرفات حياتك أُسْوَةٌ ، فأنت مثلاً لو دخل عليك ولدك مُمزق الثياب ، يسيل منه الدم ، قبل أنْ تسأله عن شيء تسأله : مَنْ فعل بك هذا ؟

لا بُدَّ أن تحدد الفاعل أولاً ، فعليه ستبنى حكمك وقرارك ، فإنْ كان الفاعل ابنَ الجيران مثلاً تقيم الدنيا ولا تُقعدها ، وإنْ قال لك عمِّى فلان ضربنى تهدأ أعصابك ، وتقول للولد : لا بُدَّ أنك فعلتَ شيئاً استحق العقاب ، ولو ذهبتَ إلى عمه لعرفتَ فعلاً أن الولد ارتكب خطأ ، إذن : الفعل الواحد يمكن أنْ يكون سيئاً ، ويمكن أن يكون حسناً ، المهم مَن الفاعل ؟

وآياتُ القرآن يساند بعضها بعضاً ، وتسعفنا فى هذه المسألة ، فالذى قال ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ .. (٧٢)﴾ [الأحزاب] قال ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. (٤٤)﴾ [الإسراء]

فكل شيء فى الوجود كله مُسبِّح ، فدلَّ هذا على أن الموجودات لها دلالة عن ذاتها ، وتستطيع أنْ تبين عما فى مرادها ، ونعجب من بعض العلماء حين يقول : هذه دلالة حال ، لا دلالة مقال ، وهذا القول يرده قوله تعالى . ﴿وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ..(٤٤)﴾ [الإسراء]

ونحن نفهم تسبيح الدلالة ، ونراه في انسجام جزئيات الكون ونظامه البديع ، والحق يقرر أننا لن نفهم هذا التسبيح . إذن : هو تسبيح مَقال على الحقيقة لا يعرفه إلا مَنْ عرَّفه الله . ولِمَ نستبعد تسبيح الكائنات ، ونحن نرى لبعض الطوائف والمهن (شفرات) وإشارات لا يفهمها غيرهم ، وفي اللغة الواحدة يمكن أن تسمع كلمات لا تعرف معناها ، فضلاً عن اختلاف اللغات بين الجنسيات المختلفة .

فإذا كنتَ لا تعرف بعض المعاني في لغتك ، وإذا كنت لا تعرف لغات الآخرين وهم من بني جنسك ، فلماذا تنكر أنْ يكون للأجناس الأخرى في الوجود لغات يتعارفون عليها ، ويُعبِّرون بها ؟

ثم أكُلّ اللغات ووسائل الفهم منطوقة ؟ أليستْ هناك مثلاً لغة الإشارة ، يتعارف عليها البعض ، ويفهم بها ؟ ومع ذلك هناك قَدْر مشترك ومنطق في الدلالة يتفق عليه الجميع في كل اللغات ويتفاهمون به ، كما يتفاهم الخُرْس مثلاً ، كما أن هناك أشياءَ تتفق فيها كل الطباع كالضحك والبكاء ، فليس هناك ضحك عربي ، ولا بكاء فرنسي مثلاً .

ومعنى حَمْل الأمانة أي : القيام بها وتطبيقها ، كما جاء في قوله تعالى في معنى الحَمْل : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .. ۝ ﴾ [الجمعة]

فقد حملوها كمنهج وحفظوا ما فيها ، لكن لم يحملوها بمعنى : لم يُطبِّقوا هذا المنهج ، فصار مثلهم عند الله كمثل الحمار الذي يحمل الكتب ، وهو لا يستفيد مما فيها ، وهذا في حَدِّ ذاته ليس ذمّاً للحمار ، وليس اتهاماً له بالغباء كما يدَّعي البعض ، فالحمار ليس شغله الفهم إنما الحَمْل . فحسب ، فمَنْ حمل منهجاً دون أنْ يستفيد

به فهو شبيه الحمار في هذه المسألة ، وهذه خصوصية للحمار ـ أنه يحمل ما لا يفهم .

والحمار في أمور أخرى يفهم ويؤدي مهمته على الوجه الذي ربما عجز عنه الإنسان ، فمن المعروف عن الحمار أنه إذا ذهب إلى مكان فإنه لا ينساه ولا يضل عنه ولو بعد فترة ، وربما يضلّ الإنسان طريقه الذي سار فيه منذ فترة ، أما الحمار فلو تركتَ له حرية الحركة لذهبَ بك إلى نفس المكان . إذن : مَن الغبي ؟

لذلك فالبعض يسأل : إذن لماذا يتهمون الحمار بالغباء ؟ قالوا : لأنهم كلَّفوه بما لم يُكلِّفه الله به ، فالحمار خُلِق للحمل ، وأنت تريده على درجة من الفهم ربما تفقدها في الإنسان العاقل .

وسبق أنْ قُلْنا : إنك إذا أردتَ من الحمار أنْ يقفز فوق قناة مثلاً أوسع من إمكاناته ، فإنه لا يطاوعك أبداً فمهما ضربته لا يُقدِم على القفز ، فإنْ كانت في مقدوره نظر إليها وكأنه يُقدِّر اتساعها بالضبط ، ثم يقفز دون أنْ تجبره ، وهذا التصرف تصرف مَنْ يحسب العواقب جيداً ، ويفهم ما يفعل .

إذن : الشيء لا ينفصل عن مهمته ، ولا يطلب منه فوق ما هُيِّيء له ، ومثَّلنا لذلك بعود الحديد ترى جماله في استقامته ، فإنْ أردته خُطَّافاً مثلاً فجماله وأداؤه لمهمته لا يتم إلا بعوَجه ، وساعتها لا تستطيع أنْ تقول عنه إنه مُعْوج ؛ لأن هذا العوج هو عَيْن الاستقامة لمهمته .

لذلك قلنا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ١٩ ﴾ [لقمان] ليس ذماً لصوت الحمار ؛ لأن صوت الحمار جعله الله عالياً هكذا ؛ لأنه يعيش في بادية ، وغالباً ما يستتر خلف مرتفع

أو حجر أو شجرة أو يبتعد مسافة طويلة عن صاحبه ، فجاء صوته بهذه الهيئة ليدل عليه ويُرشد صاحبه إلى مكانه .

إذن : فالصوت العالي يكون مُنكراً إذا لم يكُنْ له مهمة ، وإذا استُعمل في غير موضعه ، والشيء قد يكون مختلفاً ، لكن مهمته تكون متحدة .

مثلاً ، الدم الذي به حياة الإنسان إذا تجلط داخل أوعيته يؤدي إلى شلل العضو ، ويحتاج إلى أدوية تعيد له سيولته ، وفي المقابل إذا زادت سيولة الدم أدى ذلك إلى نزيف ، وإذا حدث جُرْح مثلاً لا يندمل ؛ لأن الدم لا يتجلط ولا يسدّ أماكن خروجه ، إذن : تجلُّط الدم مطلوب خارج الأوعية ، وسيولة الدم مطلوبة داخل الأوعية . إذن : لكل منهما حكمة في مكانه .

ومعنى : ﴿ وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] أي : خِفْنَ وقت التحمل مخافة أنْ يأتي وقت الأداء فلا يؤدي ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ .. (٧٢) ﴾ [الأحزاب] لما عنده من فكر واختيار ومحاولة ، لكن قد يأتي فكره بالضرر .

وقلنا : إن الإنسان يأكل مثلاً حتى يشبع ، ثم يُعرض عليه الحلو والبارد ، فتمتلىء بطنه حتى التخمة وحتى المرض ، في حين أن الحمار أو الجاموسة مثلاً لا تأكل عوداً واحداً فوق الشِّبع ؛ لأنها محكومة بالغريزة التي لا تعرف التصرف في الأشياء ، وميزة الحيوان في هذه الغريزة وفي عدم تصرفه .

لذلك وصف الإنسان هنا بأنه ﴿ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب] وهذه صيغة فَعُول الدالة على المبالغة في الظلم والمبالغة في الجهل . وقد يُعقل الظلم للغير ؛ لأن الظالم يظن أنه يستفيد منه . أمّا أنْ يظلم المرءُ

نفسه بأنْ يمنعها خيراً ، أو يجلب لها ضُراً ، فهذا ما لا يُعقل ودليل الغباء .

فحين يتكاسل عن الطاعة لشهوة نفس موقوتة يمنعها خيراً باقياً ، ومتعة لا حدودَ لها ، فهو عدو لنفسه ؛ لذلك قال العلماء : إن نفس الإنسان هى أعدى أعدائه ؛ لأن العدو إنْ كان من خارجك تستطيع أنْ تراه ، وأنْ تحتاط له ، أمّا إنْ كان من داخلك فأمره شاقّ .

وقد بيَّن الحق سبحانه أن أعظم الظلم الشرك بالله ، فقال سبحانه : ﴿ إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان] وهذا الظلم أيضاً لا يعود ضرره على الله تعالى ، إنما يعود على المشرك بالله ؛ لذلك وصف الإنسانَ بعد الظلم بأنه جهول ؛ لأنه يظلم نفسه ، وهذا يدل على الجهل وعدم العلم ، والجهول هو الذى يقع فى الخطأ ويعدل عن الحق عن جهل ، فالوصف هنا يدل على الحكمة الأدائية ﴿ إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا (٧٣) ﴾

أولاً . يلفت أنظارنا أن الآية السابقة ذُيِّلَتْ بقوله تعالى ﴿ إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب] وذُيِّلَتْ هذه الآية بقوله سبحانه ﴿ وكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣) ﴾ [الأحزاب] فكأن وصف (ظَلُوماً) قابله (غَفُوراً) ، و (جَهُولاً) قابله (رَحيماً) .

فالحق سبحانه غفور لمن ظلم ، ورحيم لمن جهل ، فالنسق

القرآني مظهر من مظاهر رحمة الله ، والله سبحانه وتعالى عَلم عنه ممَّنْ آمن به أنه غفور رحيم ، لكن لا ينبغي أنْ تغرَّك صفات الجمال في ربك - عز وجل - فتُقدم على الذنب وتظلم ، اعتماداً على أنَّ ربك سيغفر وسيرحم .

لذلك قالوا في قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانفطار] أن الذي غَرَّ الإنسان بربه فعصاه أو كفر به اعتماده على أن ربه كريم ، فصفة الكرم في الله هي التي أغرَتْ بعصيانه .

وكأن الحق سبحانه لقَّنَ الإنسان الجواب عن هذه المسألة ، فإنْ سُئل : ما غرَّك بربك ؟ يقول : كرمه ، وعندنا في الفلاحين يسأل أحدهم الآخر : لماذا لا تطمئن في صلاتك ، وتنقرها هكذا أرأيتَ لو كان عليك (شلن) لواحد هل يصلح أن تعطيه (شلناً ممسوحاً) ؟ فردَّ عليه الرجل : والله لو كان كريماً لقَبِله .

وفي الآية دقيقة أخرى في قوله تعالى : ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب] فهل كان عَرْضُ الأمانة والتكليف للناس ليُعذبهم ؟ هل التعذيب مقصود لله في الحكم ؟

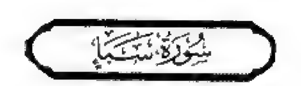
قالوا : لا ؛ لأن اللام هنا ﴿ لِيُعَذِّبَ .. ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأحزاب] لام العاقبة ، فالحق سبحانه جعل التكليف ليتبعه الناس ولا يعذبون ، فاللام دلَّتْ على النتيجة ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴿٨﴾ ﴾ [القصص]

فساعة التقطه آل فرعون التقطوه عليه السلام ليكون قُرَّة عَيْن لهم ، لا ليكون عدواً ، لكن الذي حدث أنه صار عدواً وحَزَناً ، فاللام ليست للتعليل ، إنما لام النتيجة والعاقبة ، وهي أن تفعل الشيء لمراد عندك ، ثم تأتي العاقبة لتدلَّ على غباء الذي فعل .

وقوله : ﴿ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] سبق أنْ عرَّفنا النفاق ، وقلنا : إن النفاق أشدُّ من الكفر ؛ لأن الكافر كان منطقياً مع نفسه ؛ لأنه كفر بقلبه وبلسانه . يعني : وافق لسانه ما في قلبه ، أما المنافق فغير منطقي مع نفسه ؛ لأنه اعتقد شيئاً ونطق بخلافه : أخفى الكفرَ وأظهر الإيمانَ فهو مُشتَّت الفكر ؛ لذلك استحق أنْ يكون أعدى الأعداء ، وأن يكون في الدَّرْك الأسفل من النار ، ويكفي ما فيه من خداع وتمويه ، فهو بظاهره معك ، وفي حقيقته هو عدوك .

ونلحظ أيضاً في هذه الآية أن الحق سبحانه أراد أنْ يفصل فصلاً تاماً بين جزاء المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، وبين جزاء المؤمنين والمؤمنات ، فالأسلوب البشري يقتضي أن يقول بعدها: ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] ويتوب على المؤمنين والمؤمنات .

لكن السياق القرآني هنا لم يعطف التوبة على العذاب وفصل الفعلين بتكرار الفاعل الصريح ، وهو لفظ الجلالة فقال ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] وقال ﴿ وَيَتُوبَ اللَّهُ .. (٧٣) ﴾ [الأحزاب] ليفصل هذا عن هذا ، ويعزله بحكم خاص به ؛ لأن لله تعالى - كما ذكرنا - صفات جلال ، تختص بالكافرين والمنافقين ، وصفات جمال تختص بالمؤمنين ، ولكل من النوعين سياق خاص مستقل .


سورة سبأ



(سورة سبأ)[1]

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١ ﴾

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ۝١ ﴾ [سبأ] جملة قائلُها الحق سبحانه ، فهل قالها لنفسه أم قالها ليُعلِّمنا نحن أنْ نقولها ؟ قالها ليُعلِّمنا . والحمد أنْ تأتى بثناء على مستحق الثناء بالصفات الجميلة . ومقابله : الذم ، وهو أنْ تأتى لمستحقٍّ الذم بالصفات القبيحة ، وتنسبها إليه .

وأنت قد تحمد شيئاً لا علاقةَ لك به ، لمجرد أنه أعجبك ما فيه من صفات ، فاستحق فى نظرك أنْ يُحمد ، كأن تحمد الصانع على صَنْعة أتقنها مثلاً ، وإنْ لم تكُنْ لك علاقة بها .

---

(١) سورة سبأ هى السورة رقم (٣٤) فى ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٥٤ آية ، نزلت بعد سورة لقمان وقبل سورة الزمر ، وهى السورة رقم ٥٧ فى ترتيب النزول ، قال القرطبى فى تفسيره (٥٥٢٧/٨) : « مكية فى قول الجميع ، إلا آية واحدة اختلف فيها ، وهى قوله تعالى : ﴿ ويرى الذين أوتوا العلم .. ۝٦ ﴾ [سبأ] فقالت فرقة : هى مكية ، والمراد المؤمنون أصحاب النبى ﷺ قاله ابن عباس . وقالت فرقة : هى مدنية ، والمراد بالمؤمنين من أسلم بالمدينة ، كعبد الله بن سلام وغيره . قاله مقاتل » .

إذن : فالحمد مرة يكون لأن المحمود فيه صفات تستحق الحمد ، وإنْ لم تَصلْ إليك ، فكيف إذا كانت صفات التحميد والتمجيد والتعظيم أثرها واصلَ إليك ؟ لا شكَّ أن الحمد هنا أوجب .

لذلك نقول : كل حمد ولو توجَّه لبشر عائد في الحقيقة إلى الله تعالى ؛ لأنك حين تحمد إنساناً إنما تحمده على صفة وهبها الله له ، فالحمد على إطلاقه ولو لمخلوق حَمْدٌ لله .

وكلمة ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ①﴾ [سبأ] وردت في القرآن ثمان وثلاثون مرة ، وخُصَّتْ منها في فواتح السور خمس مرات : في الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر .

والحق سبحانه بدأ بالحمد ؛ لأنه بدأ خَلْقه من عدم فله علينا نعمة الخَلْق من عدم ، ثم أمدَّنا بمقومات الحياة فوفَّر لنا الأقوات التي بها استبقاء الحياة ، ثم التناسل الذي به استبقاء النوع ، هذا لكيان الإنسان المادي ، لكن الإنسان مطلوب منه حركة الحياة ، وهو يعيش مع آخرين فلا بُدَّ أنْ تتساند حركاتهم لا تتعاند ، لا بُدَّ أن تنسجم الحركات وإلا لتفانى الخَلْق .

وهذا التساند لا يتأتَّى إلا بمنهج يُحدِّد الحركات ، ويحكم الأهواء ، وإلا لجاء واحد يبني ، وآخر يهدم . هذا في الدنيا ، أما في الحياة الآخرة فسوف يُعدُّنا لها إعداداً آخر ، ويعيدنا إلى خير مما كنا فيه ؛ لأننا نعيش في الدنيا بالأسباب المخلوقة لله تعالى ، أما في الآخرة فنعيش مع المسبِّب سبحانه مع ذات الحق .

نحن في الدنيا نزرع ونحصد ونطبخ ونخبز ونغزل .. إلخ ، هذه أسباب لا بُدَّ من مزاولتها ، لكنك في الآخرة تعيش بكُنْ من المسبِّب ، في الدنيا تخاف أنْ يفوتك النعيم أو تفوته أنت ، أما في الآخرة

فنعيمها بَاقٍ لا يزول ولا يحول ، في الدنيا تتمتع على قَدْر إمكاناتك ، أما في الآخرة فتتمتع على قَدْر إمكانات ربك .

فالحق سبحانه أوجدنا من عدم ، وأمدنا من عُدْم ، ووضع لنا المنهج الذي يحفظ القيم ، ويُنظِّم حركة الحياة قبل أنْ تُوجد الحياة ، فقبل أنْ يخلقك خلق لك كالصانع الذي يُحدِّد مهمة صنعته قبل صناعتها ، وهل رأيتم صانعاً صنع شيئاً ، ثم قال : انظروا في أيِّ شيء يمكن أن يستخدم ؟

لذلك قال تعالى : ﴿ الرَّحْمَـٰنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ ﴾ [الرحمن] فالمنهج المتمثل في القرآن وُضِع أولاً ليحدد لك مهمتك وقانون صيانتك ، قبل أنْ تُوجَد أيها الإنسان .

والمتأمل لآيات الحمد في بدايات السور الخمس يجد أنها تتناول هذه المراحل كلها ، ففي أول الأنعام : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ ﴾ [الأنعام]

تكلَّم الحق سبحانه عن بَدْء الخَلْق ، ثم قال : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ .. ۝٢ ﴾ [الأنعام] وهذا هو الإيجاد الأول .

ثم في أول الكهف يذكر مسألة وَضْع المنهج والقيم : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۝١ ﴾ [الكهف]

هذا هو القانون الذي يحكم الأهواء ، ويُنظِّم حركة الحياة لتتساند ولا تتعاند .

وفي أول سورة سبأ التي نحن بصددها يذكر الحمد في الآخرة : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ .. ۝١ ﴾ [سبأ] وحين تنظر إلى الحمد في الآخرة تجده حمداً

مركباً مضاعفاً ؛ لأنك في الدنيا تحمد الله على خَلْق الأشياء التي تتفاعل بها لتعيش بالأسباب ، لكن في الآخرة لا توجد أسباب ، إنما المسبِّب هو الله سبحانه ، فالحمد في الآخرة أكبر حَمْداً يناسب عَيْشك مع ذات ربك سبحانه .

وفي أول فاطر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ .. ① ﴾[فاطر]

نحمد الله على القيم ، وعلى المنهج الذي وضعه لنا الحق سبحانه بواسطة الملائكة ، والملائكة هم رسل الله إلى الخَلْق ، ومنهم الحفظة ، ومنهم المدبِّرات أمراً التي تدبر شئون الخَلْق ، ومنهم مَنْ أسجدهم الله لك .

ثم جاءت أم الكتاب ، فجمعت هذا كله في : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② ﴾ [الفاتحة] والربّ هو الخالق الممدّ ﴿ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ ﴾ [الفاتحة] أي : في الآخرة ، ثم ذكرت وجوب السير على المنهج ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ ⑦ ﴾ [الفاتحة]

ولأنها جمعتْ البداية والنهاية ، والدنيا والآخرة سُمِّيت فاتحة الكتاب ، وسُمِّيت المثاني ، وسُمِّيت أم القرآن .

فقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ① ﴾ [سبأ] علَّمنا الله تعالى أن نقولها ؛ لأن الناس مختلفون في المواهب ، وفي الملَكات ، وفي حُسْن الأداء ، وفي صياغة الثناء ، فلا يستوي في الحمد والثناء الأديب والأميُّ الذي لا يجيد الكلام ؛ لذلك قال الله لنا : أريحوا أنفسكم من هذه المسألة ، وسوف أُعلمكم صيغة يستوي فيها الأديب الفيلسوف مع راعي الشاة ، وسوف تكون هذه الصيغة هي أحبَّ صيغ الحمد إليَّ ، هذه الصيغة هي ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. ① ﴾ [سبأ]

لذلك جاء في الحديث قول سيدنا رسول الله في حمد ربه ، والثناء عليه : « سبحانك لا نحصي ثناءً عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[1] فحين أقول خطبة طويلة في حمد الله والثناء عليه ، وتقول أنت : الحمد لله لا أقول لك قصَّرت في حمد ربك ، وكأن هذه الصيغة وتعليمها لنا نعمة أخرى تستحق الحمد ؛ لأنها سوَّتْ الجميع ، ولم تجعل لأحد فضلاً على أحد في مقام حمد الله والثناء عليه .

وحين تحمد الله على أن علَّمك هذه الصيغة ، بماذا تحمده ؟ تحمده بأن تقول الحمد لله . إذن : هي سلسلة متوالية من الحمد لا تنتهي ، الحمد لله على الحمد لله ، ومعنى ذلك أنْ تظل دائماً حامداً لله ، وأنْ يظلَّ الله تعالى دائماً وأبداً محموداً .

كما قُلْنا : إن اختلاف المواقيت في الأرض واختلاف المشارق والمغارب إنما جُعلَتْ لتستمر عبادة الله لا تنقطع أبداً في كل جزئيات الزمن ، ففي كل لحظة صلاة ، وفي كل لحظة الله أكبر ، وفي كل لحظة أشهد ألا إله إلا الله ، وفي كل لحظة أشهد أن محمداً رسول الله... إلخ لتظل هذه الألفاظ وهذه العبادات دائرة طوال الوقت ، فالكون كله يلهج بذكْر الله وعبادة الله في منظومة بديعة ، المهم مَنْ يُحسن استقبالها ، المهم صفاء جهاز الاستقبال عندك .

وقوله سبحانه ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ .. ①﴾ [سبأ] بيَّنَّا أن الحمد في الآخرة أكبر وأعظم من الحمد في الدنيا ؛ لأنك في الدنيا تعيش بالأسباب ، أما في الآخرة فتعيش مع ذات المسبِّب سبحانه ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥٨/٦ ، ٢٠١) ومسلم في صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

فى الدنيا نعيم موقوت ، وفى الآخرة نعيم باق ، فى الدنيا فناء ، وفى الآخرة بقاء ؛ لذلك قال سبحانه عن الآخرة : ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس]

وقال سبحانه حكايةً عن المؤمنين فى الآخرة : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝٧٤﴾ [الزمر]

وقالوا : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ..۝٤٣﴾ [الأعراف]

فإنْ قُلْت : فما وجه الحمد فى أن الله تعالى يملك السموات والأرض ؟ نقول : فَرْق بين أنْ يخدمك فى الكون مَا لا تملك ، وبين أنْ يخدمك ما تملك ، فالعظمة هنا أنك تنتفع هنا بما لا تملك ، فالسموات والأرض ملْك لله ، ومع ذلك هى فى خدمتك أنت ، وليست العظمة من أنْ يخدمك ما تملكه .

لذلك قالوا لأحد الناس : لماذا لا تشترى لك سيارة ؟ قال : والله الإخوان كثيرون ، وكلهم عندهم سيارات ، وكل يوم أركب سيارة واحد منهم ، ولا يغرمنى هذا شيئاً . إذن : انتفاعك بما يملك الغير أعظمُ من انتفاعك بما تملك أنت ، وملْك الله جُعل لصالحنا نحن ، وهذه تستحق الحمد ، فاللهم لا تحرمنا نعمك .

ملحظ آخر أن الحق سبحانه يريد أن يُطمئنَ العبادَ ، فمُلْك السموات والأرض لله وحده ، ولو كانت لغيره لمنعنا منها ، فكأن ربك يقول لك : اطمئن فهذا ملْكى وأنا ربك ولن أتخلى عنك أبداً ، وليس لى شريك ينازعنى ، فيمنع عنك خيراتى ، فأنا المتفرِّد بالملْك والسلطان .

لذلك ، فالحق سبحانه حين يقول للشيء : ﴿ كُن فَيَكُونُ (٤٧) ﴾ [آل عمران] ما قال (كُنْ) إلا لأنه سبحانه يعلم أنه لا يستطيع ألاَّ يكون ، والدليل قوله تعالى عن الأرض ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾ [الانشقاق] أي : أصغتْ السمع ، وحَقَّ لها ذلك ، فما قال سبحانه لشيء كُنْ إلا وهو واثق أنه لا يخرج عن أمره .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن الحق سبحانه حين طلب منا أنْ نشهد أنه لا إله إلا هو شهد بها لنفسه أولاً ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ .. (١٨) ﴾ [آل عمران] وهذه شهادة الذات للذات ، ولذلك تصرَّف سبحانه في الملك تصرُّف مَنْ لا شريكَ له ، فلم يقُلْ شيئاً أو يحكم حكماً ، ثم خاف أنْ ينقضه أحد أو يعدله .

ثم شهدتْ بذلك الملائكة ، ثم شهد بذلك أولو العلم من عباده ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

فشهادة الله شهادة الذات للذات ، وشهادة الملائكة شهادة المشهد ، وشهادة أُولي العلم شهادة العلم والدليل .

ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قال : ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١) ﴾ [سبأ] فكرَّر الاسم الموصول (ما) ولم يقُلْ له ما في السموات والأرض ، كما جاء في قوله سبحانه في التسبيح : مرة : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١) ﴾ [الجمعة]

ومرة : ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٤) ﴾ [الحشر]

وفَرْق بين التعبيرين ؛ لأن هناك خَلْقاً مشتركاً بين السماء والأرض ، وهناك خَلْق خاص بالسماء ، وخَلْق آخر خاص بالأرض ،

فإنْ أراد الكل قال : ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٢٤) ﴾ [الحشر] ، وإنْ أراد الاختلاف كلاً في جهته ، قال ﴿ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (١) ﴾ [سبأ]

والسموات والأرض ظرف لما فيهما من خيرات ، والذى يملك الظرف والمكان يملك المظروف فيه ، فالحيز هنا مشغول .

ثم يقول سبحانه تذييلاً لهذه الآية ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) ﴾ [سبأ] الحكيم : هو الذى يضع الشيء في مكانه وموضعه المناسب ، ولا يتأتى هذا إلا لخبير يعلم الشيء ، ويعلم موضعه الذى يناسبه ؛ لذلك قال سبحانه ﴿ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) ﴾ [سبأ] الذى لديه خبْرة بدقائق الأشياء وبواطنها .

ثم أراد سبحانه أنْ يعطينا نموذجاً لهذه الحكمة ولهذه الخبرة ، فقال سبحانه :

﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) ﴾

معنى ﴿ يَلِجُ .. (٢) ﴾ [سبأ] يدخل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ .. (١٣) ﴾ [فاطر] يعنى : يُدخل كلاً منهما في الآخر . فزيادة الليل تنقص من النهار ، وزيادة النهار تنقص من الليل ؛ لذلك نرى اختلاف المواقيت .

لكن ، ما الذى يدخل في الأرض - في حدود ما تراه أنظارنا - ؟ هناك أشياء تدخل في الأرض لا دَخْلَ لنا بها كماء المطر مثلاً حين ينزل من السماء ، نأخذ منه حاجاتنا ، ويتسرَّب منه جزء في باطن الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [الزمر]

ويدخل فى الأرض الحبة التى نزرعها ، فينشأ عنها الاقتيات الذى يضمن لنا بقاء الحياة ، وهذا الاقتيات يأتى من مضاعفة الحبة إلى أضعاف كثيرة ، كذلك يدخل فى الأرض الميِّت الذى نستودعه الأرضَ بعد أنْ يموت ، ولك أنْ تلحظ وجه الشبه بين الحبة تزرعها ، والميت تدفنه في ضوء قوله تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥) ﴾ [طه]

فكما أن الحبة أنبتتْ سبع سنابل ، فى كل سنبلة مائة حبة ، كذلك يجب أنْ نقيس المتواليات الذهنية فنقول كذلك حين أدخل أو أدفن فى الأرض بعد الموت : أخرج بحياة أخرى أكثر نماءً من حياتى فى الدنيا ، وأكثر خَيْراً فضلاً عما سترَتْه الأرض من سَوْءاتى .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ .. (٢) ﴾ [سبأ] ما الذى ينزل من السماء ؟ ينزل منها المطر لاستبقاء الحياة ، وبالماء حياة كل شىء حى ، هذا فى مادة تكوينك ، أما فى حياتك الروحية فتنزل الملائكة بالقيم وبالمنهج الذى به تحيا الأرواح والقلوب ، وتنزل الملائكة المدبِّرات أمراً ، التى تدبر شئون الخلائق ، والتى قال الله فيها : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[1] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد]

والبعض لا يفهم معنى الآية ، فيقول : كيف تحفظه الملائكة من أمر الله ؟ يريدون أن أمر الله ينبغى أنْ يُنفذ ، فكيف يحفظونه منه ؟

---

(١) المعقبات : ملائكة الليل والنهار ، لأنهم يتعاقبون ، فكأن ملائكة النهار تحفظ العباد ، فإذا جاء الليل جاء معه ملائكة الليل وصعد ملائكة النهار ، فإذا أقبل النهار عاد من صعد ، وصعد ملائكة الليل ، كأنهم جعلوا حفظهم عُقَباً أى نُوَباً . [لسان العرب - مادة : عقب]

والمعنى : يحفظونه حفْظاً صادراً من أمر الله ، ليس تطوُّعاً من عندهم[1] .

والحق سبحانه يُرينا قدرته في إنزال المطر حينما نُجرى عملية تقطير الماء في المعامل والأجزاخانات ، انظر كم يتكلف كوب الماء المقطر ، وكم يأخذ من الوقت والجهد ، أما المطر فتُقطِّره لك قدرة الله دون أنْ تشعر أنت به ، فحرارة الشمس تُبخِّر الماء الذى يُكوِّن السحب ، ثم تسوقه الرياح إلى حيث شاء الله له أنْ ينزل ، ومن حكمته تعالى أنْ جعل ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ماءً لتتسع مساحة البخر ، فيكفى المطر حاجة الأحياء .

ومثَّلْنا لهذه الظاهرة بكوب الماء الذى تتركه لمدة شهر ، فلا ينقص إلا عدة سنتيمترات ، أما إنْ سكبْتَه فى أرض الحجرة فإنه يجفّ قبل أنْ تغادرها ، لماذا ؟ لأنك وسَّعْتَ المساحة التى يتبخر منها الماء .

وماء المطر هو الماء العَذْب الزلال الذى يشرب منه الإنسان والحيوان والطير ، ونسقى منه الزرع ومشارف الأرض ، وما تبقَّى يسلكه الله فى جوف الأرض لحين الحاجة إليه ، فالمطر آية من آيات الله الدالة على قدرته تعالى .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. ۝ ﴾ [سبأ] أى : يصعد ، وقد أشار القرآن إلى هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ .. ۝ ﴾ [فاطر] أى : تصعد آثار التكليف المنهجى من الله تعالى .

---

(١) عن ابن عباس : ذلك الحفظ من أمر الله بأمر الله . أخرجه أبو الشيخ . وعنه أيضاً : بإذن الله . أخرجه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم . وعن سعيد بن جبير : حفظهم إياه بأمر الله . أخرجه ابن جرير . وذكر هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور (٦٦٢/٤)

لكن نلحظ فى أسلوب ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. ②﴾ [سبأ] استخدام حرف الجر (فى) ولم يَقُلْ يعرج إليها ، نعلم أن الحرف يدل على معنًى فى ذاته ، لكن هذا المعنى لا بُدَّ له من ضميمة شىء إليه ، ليعطى معنى يفهم ، فالحرف (فى) يدل على الظرفية ، كما تقول : ماء فى الكوب ، أمَّا لو قلت (فى) مستقلة بذاتها ، فإنها لا تدلُّ على شىء .

والعلماء حينما استقبلوا كثيراً من الأساليب وجدوا بها حروفاً ظَنُّوا أنها زائدة ، أو أنها بمعنى حرف آخر ، كما قالوا فى معنى : ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ②﴾ [سبأ] أن (فى) هنا بمعنى (إلى) ، لكن لماذا عدل الأسلوب عن (إلى) إلى (فى) ؟ إذن : لا بُدَّ أنها تحمل معنى الظرفية .

وللتوضيح نذكر ما قُلْنا فى قوله تعالى : ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ⑦١﴾ [طه] البعض قال أى : على جذوع النخل ، وهذا فَهْم غير دقيق عن الله ؛ لأن (فى) هنا تعطينى المعنيين : معنى (على) ومعنى (فى) .

فالتصليب صَلْب شىء على شىء ، وهذا المعنى تؤديه (على) ، لكن فيه قصور ، فإنْ أردتَ (على) فحسب ، فينبغى أنْ تقول : لأصلبنكم على جذوع النخل تصليباً قوياً ، بحيث تدخل أجزاء المصلوب فى المصلوب عليه . إذن : المعنى الكامل للتصليب لا تؤديه إلا (فى) .

خُذْ مثلاً عود كبريت وضَعْه على يدك ، أو على أصبعك ، والْفُفْ عليه خيطاً خفيفاً ، فى هذه الحالة الخيط فقط يثبت العود ، أما إذا

شددتَ عليه الخيط بقوة ، فإن العود يدخل في الجلد حتى يكاد يختفي بداخله ، هذا هو التصليب المراد أنْ تشدَّ المصلوب على المصلوب عليه بقوة بالمسامير أو الحبال أو نحوه .

لذلك قال سبحانه : ﴿فِي جُذُوعِ النَّخْلِ .. (٧١)﴾ [طه] ولم يقُلْ على جذوع النخل ؛ لأن (في) أدَّتْ معنى الاستعلاء والظرفية معاً .

كذلك في ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا .. (٢)﴾ [سبأ] ولم يقُلْ : وما يعرج إليها ؛ لأن إلى لا تؤدي المعنى المطلوب ، فـ (إلى) تدل على الغاية ، كما تقول : سافرت من القاهرة إلى الإسكندرية . والسماء ليست هي غاية صعود الكَلِم الطيب ، إنما غايته ومنتهاه إلى الله عز وجل ، وما السماء إلا طريق يُوصل إلى المنتهى الأعلى ، وسبق أنْ قُلْنا : إن السماء هي كل ما علاك .

وهذا المعنى لحرف الجر واضح كذلك في قوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣)﴾ [آل عمران] فاستخدم (إلى) لأن المغفرة هي غاية ما يَسْعى إليه المؤمن ويسارع .

وقال : ﴿أُولَـٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (٦١)﴾ [المؤمنون]

ولم يقل : إلى الخيرات ؛ لأن الخيرات ليست هي الغاية ، إنما هي مراتب يترقَّى فيها المؤمن ويتعالى ، كلما وصل إلى خير تطلَّع إلى أخْيَر منه ، فكأن الخيرات ظرف يسير فيه لا إليه .

كذلك لما تكلَّم الحق سبحانه عن الذين كذَّبوا الرسل ، قال : ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ .. (٩)﴾ [إبراهيم]

البعض يقول : أي : إلى أفواههم ، لا لأن (في) تحمل معنى المبالغة في رَدِّ المنهج الذي جاء به الرسل ، فالمعنى أن الرسل حينما

جاءوا بالمنهج لم يقبله المكذِّبون وقالوا لهم : وفروا عليكم كلامكم ، يعني : لن يُجدى معنا شيئاً ، وجعلوا أيديهم داخل الأفواه ، وعَضُّوا عليها من الغيظ مما سمعوا من الرسل ، وهذا المعنى لا تؤديه لفظة : إلى أفواههم .

ثم هو سبحانه : ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝ ﴾ [سبأ] صفة الرحيم أي : الذي يمنع وقوع الضُّرِّ بدايةً ، كما قال سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. ۝ ﴾ [الإسراء]

كلمة ﴿ شِفَاءٌ .. ۝ ﴾ [الإسراء] تعني : أنه أصابك مرض نشأ من الغفلة ، فجاء القرآن ليُذكِّرك ويُنبِّهك ويشفي نفسك من هذه الغفلة ، فإنْ لم توجد الغفلة كان القرآن رحمة تمنع حدوث الداء من البداية . و (رحيم) صيغة مبالغة من الرحمة .

كذلك ﴿ الْغَفُورُ ۝ ﴾ [سبأ] صيغة مبالغة من المغفرة ، والحق سبحانه كثيراً ما يؤكد على هذه الصفة ؛ لأنه سبحانه خلق الإنسان ، ويعلم أنه لن يسير دائماً على الصراط المستقيم ، ولا بُدَّ أن ينحرف يوماً ما عن المنهج القويم ؛ لذلك قال ﴿ يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ .. ۝ ﴾ [المائدة]

وقلنا : إنه لولا صفة الرحمة والتوبة والمغفرة لتمادى المذنب في الذنوب ، ويئس أنْ يعود إلى الطريق المستقيم ، وهذا الذي أسميناه (فاقد) وبه يشقى المجتمع كله ، لكن إنْ عرف أن له رباً يغفر الذنب ويقبل التوبة ، فإنه يُقبل عليها ويتوب ولم لا ، وقد تكفَّل الله له بمغفرة ذنوبه إنْ تاب وأناب ؟

إذن : شرع الله التوبة ليرحم الخَلْق كلهم ، ويُقدِّم لهم جميلاً ،

فحين يتوب على المذنب يرحم المجتمع من شره ، ويرحمه هو من آثار ذنوبه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا .. (١١٨)﴾ [التوبة] أي : شرع لهم التوبة ليفتح لهم مجال التراجع وطريق العودة إلى الله ، حتى لا يكون هناك شراسة وتمادٍ في الشر ، ولا ينقلب المذنب إلى طاغوت .

وحين نتأمل قوله تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] نجد صدر الآية ورد بنفس اللفظ في موضعين ، لكن العَجُز مختلف ، ففي آية : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾ [إبراهيم] وفي الأخرى : ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨)﴾ [النحل]

عندما وقف بعضهم عند هذه الآية اعترضوا ، فقالوا : كيف تُعَدُّ النعمة ، وهي واحدة ؟ ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤)﴾ [إبراهيم] والرد : أن النعمة التي تراها واحدة في ظاهرها في طَيِّها نِعَم شتى ، وقد وَضُح لنا هذا بعد أنْ تقدَّمت العلوم وظهر علم عناصر الأشياء ، فالتفاحة مثلاً تراها في ظاهرها نعمة واحدة ، لكن علم العناصر يُبيِّن لنا أن بها نِعَماً شتى ، وعناصر وفوائد مختلفة ، فهي نعمة في طَيِّها نِعَم .

والنعمة تقتضي : نعمة ، ومُنْعِماً ، ومُنْعَماً عليه ، فالنعمة في ذاتها من الكثرة بحيث لا تُعَدُّ ولا تُحصى ؛ لذلك استخدم كلمة (إنْ) الدالة على الشك ، ولم يقل مثلاً : إذا عددتم نعمة الله ؛ لأن هذا مجال لا يطمع فيه أحد ، ونِعَم الله ليست مظنة الإحصاء .

لذلك لم يُقْدِم أحد على محاولة عَدِّ نِعَم الله حتى بعد أنْ وُجدت جامعات وكليات متخصصة في الإحصاء ، حاولت إحصاء كل شيء إلا

هذه المسألة ؛ لأن الإقبال على العَدِّ والإحصاء يعنى إمكانية الوصول إلى إحصاء المعدود .

أما من حيث المـنْعَم عليه وهو الإنسان ، فهو ظَـلُوم كفار ، ظلوم لنفسه ولغيره ، كفَّار بالنعمة ، ولو آخذناه بذلك لحرمناه هذه النعمة ، والذى حماه من هذا الحرمان أن المُنـعِم عليه غفور ورحيم ، وهذا إذا نظرنا إلى المنعم سبحانه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾

هنا أيضاً يُحـدِّثنا عن الساعة ، ففى آخـر الأحزاب ﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الأحـزاب] وهنـا ينكرونهـا ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ .. ﴿٣﴾ ﴾ [سبأ] أى : القيامة .

فلمـاذا ينكرونها ؟ نعم ينكرونهـا ؛ لأنهم أسرفـوا على أنفسـهم ، وتمادوا فى غَـيِّهم ، ولن تكون القـيامـة فى صالحهم ؛ لذلـك يهربون منها بالإنكار والتكذيب . حـتى إخوان هؤلاء المكذبين ممَّنْ يحـبون أن يستدركـوا على كلام الله يقولون : إذا كان الله قـد قدَّر كل شىء على العبد ، فقدَّر الطاعة ، وقدَّر المعصية ، فلماذا يعذبه على المعصية ؟

والملاحظ ، أنه لم يقُلْ أحـد منهم فى المقابل : ولماذا يثـيبه على

الطاعة ؟ مما يدل على أن هذه الوقفة خاطئة وغير منطقية ، وأنهم يخافون العقاب ، وصاحب هذه المقولة ما قالها إلا لأنه واثق من كثرة سيئاته ، ومن مصلحته أن يُكذِّب بالقيامة وينكرها ، كالذى قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف]

فكثرة سؤالهم عن الساعة وإنكارهم لها يدلُّ على خوفهم منها ، بل هم مرعوبون من مجرد تصديقها ؛ لأنهم يعلمون جيداً أنهم إن استتروا عن الناس فلن يستتروا من الله ، وإنْ عَمُّوا على قضاء الأرض فلن يُعَمُّوا على قضاء السماء ، ولن تنفعهم فى القيامة حجة ولا لباقة منطق ، ولا تزييف للحقائق .

لذلك قال ﷺ : « إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إلىَّ ، ولعلَّ أحدكم أن يكون ألحنَ[1] بحُجَّته فأقضى له ، فمَنْ قضيتُ له من حقِّ أخيه بشيء فلا يأخذه ، فإنما أقْطع له قطعةً من النار »[2] .

فالقاضى يحكم بالحجة وبالبيان ، ويمكن للمتكلم أنْ يُضلِّل القاضى ، وأنْ يأخذ حقَّ الآخرين ظلماً ، كما يفعل بعض المحامين الآن ، هذا فى الدنيا ، أما فى الآخرة فأنت فى محكمة قاضيها الحق سبحانه وتعالى .

---

(١) ألحن بحجته ، أى : أفطن لها وأجدل . وقال ابن الأثير : اللحن الميل عن جهة الاستقامة . يقال : لحن فلان فى كلامه إذا مال عن صحيح المنطق . [لسان العرب ـ مادة : لحن]

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٥٨ ، ٢٦٨٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٧١٣) من حديث أم سلمة رضى الله عنها بهذا اللفظ . وفى لفظ آخر أن رسول الله ﷺ قال « إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيتُ له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فليأخذها أو ليتركها » .

إذن : هؤلاء ينكرون القيامة ؛ لأنها اللغز الذى يُحيِّرهم ، والحقيقة التى تقضُّ مضاجعهم وتُرعبهم ، الحقيقة التى تزلزل جاههم ، وتقضى على سيادتهم ، وإنْ أمنوا فى الدنيا لما لهم من جاه وسيطرة ، ففى القيامة سيأتون كما قال تعالى ﴿ولَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ .. (٩٤)﴾ [الأنعام]

وكثرة سؤالهم عن الساعة له نظير فى العالم الحديث وفى عالم الاقتصاد ، فمثلاً ترى الرجل كلما جلس مع عالم سأله عن رأى الدين فى فوائد البنوك ، حتى إنه ليسأل فى ذلك ألفَ عالمٍ ، فلماذا لا يكتفى بقول واحد منهم ؟ لأنه يريد أنْ يسمع رأياً على هواه يقول له : إن فوائد البنوك حلال ، فهذه مسألة شائكة تشغل الكثيرين ، لكن ما دامت قد حاكتْ فى الصدر ، فهى من الباطل الذى قال عنه سيدنا رسول الله : « والإثم ما حاك فى الصدر ، وخشيتَ أنْ يطلعَ عليه الناسُ »[1] .

ثم يرد الحق سبحانه على إنكارهم للساعة ، فيقول مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ .. (٣)﴾ [سبأ] يعنى : قُلْ بملء فيك (بلى) وبلى نفى للنفى السابق فى قولهم ﴿لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ .. (٣)﴾ [سبأ] وحين ننقض النفى ، فإننا نثبت المقابلَ له ، فمعنى (بلى) أى : أنها ستأتى .

ثم لا يكتفى الأسلوب بذلك ، إنما يؤكد هذه القضية بالقَسَم ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ .. (٣)﴾ [سبأ] فالحق سبحانه يُعلِّم رسوله أنْ

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٨٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٥٥٣) كتاب البر والصلة من حديث النواس بن سمعان قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم ؟ فقال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك ، وكرهتَ أن يطلع عليه الناس »

يحلف بذاته سبحانه وهو مطمئن أنها ستأتيهم ، والحق سبحانه لا يُلقِّن رسوله يميناً كاذباً ، والحق سبحانه صادق دون حلف ، فما بالك حين يحلف لك ؟

وقوله تعالى بعدها ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ .. (٣)﴾ [سبأ] فيه إشارة إلى أننا لا نخبر بالساعة ولا نحلف على إتيانها من فراغ ، إنما بما عندنا من علم الغيب ، فهى لا بُدَّ آتية ، ليس هذا فحسب ، إنما سنُواقيكم فيها بإحصاء كامل للذنوب ، كبيرها وصغيرها ، ظاهرها وخَفِيِّها ، فعالِم الغيب لا يخفى عليه شيء مهما استتر ، ومهما كنتَ بارعاً فى إخفائه عن الناس .

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣)﴾ [سبأ] لا يعزب : لا يغيب عن علمه .

والحق سبحانه فى جمهرة الآيات يضرب المثل لصغَر الأشياء بالذرة ، وهى الهباءة التى نراها فى شعاع الشمس ، ولا نراها فى الظل لصِغَر حجمها ، إذن : كَوْنُك لا ترى الشيء لا يعنى أنه غير موجود ، بل هو موجود ، لكن ليستْ لديك آلة البصر الدقيقة التى تستطيع رؤيته بها ، والعين المجردة لا ترى كلَّ الأشياء ، لكن حزمة الضوء القوية تساعدك على رؤية الأشياء الدقيقة ؛ لذلك قالوا : إن الضوء والذر أحكم مقاييس الكون .

لذلك يستخدم المهندسون هذه الظاهرة مثلاً فى استلام المبانى ، والتأكد من دقة تنفيذها ، فالحائط الذى يبدو لك مستوياً مستقيماً لو تركتَه عدة أيام لكشفَ لك الغبار عَمَّا فيه من نتوءات وعدم استواء ؛ لأن الغبار والذرات تتساقط عمودياً ، كذلك الضوء حين

تُسلِّطه على حائط يكشف لك ما فيه من عيوب ، مهما كانتْ دقيقة لا تراها بالعين المجردة .

ولأن الذرة كانت أصغر ما يعرفه الإنسان ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [النساء]

لكن ، هل ظلَّتْ الذرة هي أصغر ما في الكون ؟ حينما انهزمت ألمانيا في الحرب العالمية الأولى لم تقبل الهزيمة ، وأبَتْ أنْ تكون مغلوبة فصممتْ على أنها تثأر لنفسها ، فاشتغل كل فرد فيها في اختصاصه ، وكان مما أنجزوه عملية تحطيم الجوهر الفرد أي تحطيم الجزء الذي لا يتجزأ ، وهذه أول فكرة في تفتيت الذرة يعرفها العالم .

وهذه العملية نشاهدها نحن في عصارة القصب مثلاً ، وهي أن تُدخل عود القصب بين أسطوانتين ، فكلما ضاقت المسافة بين الأسطوانتين زادت عملية العصر وتفتيت العود ، كذلك عملت ألمانيا أسطوانة تحطيم الجوهر الفرد .

وعندها قال الذين يحبون أن يستدركوا على كلام الله : ذكَر القرآن أن الذرة هي أصغر ما في الكون ، وها نحن فتتنا الذرة إلى أجزاء ، ولو ألمَّ هؤلاء بكل القرآن ، وقرأوا هذه الآية : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ [سبأ] لعرفوا أن القرآن احتاط لما سيأتي به العلم من تفتيت الذرة ، وأن في كلام الله رصيداً لكل تقدم علميٍّ .

وتأمل الدقة الأدائية هنا ، فقد ذكر الذرة ، وهي أصغر شيء عرفه الإنسان ، ثم ذكر الصغير عنها والأصغر بحيث مهما وصلنا في تفتيت الذرة نجد في كلام الله رصيداً لما سنصل إليه .

وقال : ﴿ لا يَعْزُبُ .. ③ ﴾ [سبأ] لا يغيب ﴿ عَنْهُ مِثْقَالُ .. ③ ﴾ [سبأ] مقدار ﴿ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ .. ③ ﴾ [سبأ] لشمول كل ما في الكون ﴿ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ .. ③ ﴾ [سبأ] أى : أصغر من الذرة ﴿ وَلا أَكْبَرُ .. ③ ﴾ [سبأ] من الذرة .

ولقائل أنْ يقول : إذا كان الحق سبحانه يمتنُّ علينا بمعرفة الذرة ، وما دَقَّ من الأشياء ، فما الميْزة فى أنه سبحانه يعلم الأكبر منها ؟

قالوا : هذه دقيقة من دقائق الأسلوب القرآنى ، فالشيء يخفى عليك ، إما لأنه مُتناهٍ فى الصِّغَر ، بحيث لا تدركه بأدواتك ، أو لأنه كبير بحيث لا يبلغه إدراكك ، فهو أكبر من أنْ تحيط به لكبره ، إذن : فالحق سبحانه مُسلَّط على أصغر شيء ، وعلى أكبر شيء لا يغيب عنه صغير لِصغَره ، ولا كبير لكِبَره .

والحق سبحانه لا يحيط علمه بما فى كَوْنه فحسب ، بل ويُسجِّله فى كتاب مُعْجِز خالد ، وفَرْق بين الإخبار بالعلم قوْلاً وبين تسجيله ، فإذا لم يكُنْ العلم مُسجَّلاً فلَكَ أن تقول ما تشاء ، لكن حين يسجل يصير حجة عليك .

لذلك نرى الحق سبحانه حين يعطينا قضية فى الكون يحفظها مع القرآن ، وأنت لا تحفظ إلا ما فى صالحك ، وما دام الحق سبحانه يحفظها فهذا يعنى أنها واقعة لا محالة ، وإلا ما سجَّلها الحق سبحانه وحفظها ، فهو سبحانه يعلم تمام العلم أنه لا يكون فى مُلْكه إلا ما علم ، إذن : كتب لأنه علم ، وليس علِم لأنه كُتب . ومَن الذى أمر بكتابته ؟ علمه سبحانه إذن : فالعلم أسبق .

لكن ، لماذا عندما سألوا عن الساعة أو أنكروها ذكَّرهم الله بعلمه لكل صغيرة وكبيرة ، فقال : ﴿ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٣) ﴾ [سبأ]

قالوا : ذكر لهم الحق سبحانه إحاطة علْمه بكل شيء ؛ ليلهيهم عن التفكير في أمر الساعة ، ويشغلهم بذنوبهم ، وأنها محسوبة عليهم لا يخفى على الله منها شيء ، وعندها سيقولون : ليتنا ما سألنا ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ .. (١٠١) ﴾ [المائدة]

إذن : سألوا عن الساعة ، فأخذهم إلى ساحة أخرى تزعجهم وتزلزلهم كلما علموا أنَّ علْم الله تعالى يحيط بكل شيء في السموات وفي الأرض .

فالمسألة ليست مجرد (فنطزية) علم ، إنما سيترتب على هذا العلم جزاء وحساب ، فقال سبحانه :

﴿ لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾

عجيب أنْ يُوصف الرزق ذاته بأنه كريم ، فالكريم صفة الرازق الذي يهبُكَ الرزق ، فما بالك إنْ كان الرزق نفسه كريماً يذهب إليك ويعرف مكانك ، كما قال الشاعر[1] :

تَحرَّ إلى الرِّزْق أسْبَابَهُ ... وَلاَ تَشْغَلَنَّ بعدَهَا بَالكَا
فَإنَّكَ تَجْهَلُ عُنْوانَهُ ... ورِزْقُكَ يعرفُ عُنْوانَكَا

---

(١) من شعر الشيخ يغفر الله له

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ سَعَوْ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾

السعى هو المشى الحثيث وقطع المسافة ، فما معنى ﴿ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا .. ۝٥ ﴾ [سبأ] ألم تسمع قولهم : سعى فلان بفلان عند السلطان مثلاً ؟ والمراد : أنه نَقَل إلى السلطان ما يُغضبه وما يُحزنه من هذا الشخص ، وهذه التى نسميها فى العامية وبين الموظفين (ضربه زُنْبَة) هى هنا بنفس هذا المعنى .

﴿ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا .. ۝٥ ﴾ [سبأ] يعنى : ضربوا فيها (زُنَب) وألَّبوا الناس عليها ليزهد فيها مَنْ كان مُقبلاً عليها ، ويخرج منها مَنْ كان فيها ويتملَّص منها ، سعَوْا فى آيات الله وهى القرآن ليبطلوه وليصرفوا الناس عنه ، لماذا ؟ لأنهم واثقون من أثر القرآن فى القلوب ، فلو أعطاه الناسُ آذانهم لابد وأنْ يؤثر فيهم ويجذبهم إلى ساحة الإيمان ، فتنفعل به قلوبهم ، وتلهج به ألسنتهم .

وهؤلاء هم الذين قالوا : ﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۝٢٦ ﴾ [فصلت] ولو كان القرآن كلاماً عادياً غير ذى أثر لَمَا نَهوْا عن سماعه ، ولما شوَّشوا عليه ، وخافوا من سماعه .

ومعنى ﴿ مُعَاجِزِينَ .. ۝٥ ﴾ [سبأ] مفردها مُعَاجِز : اسم فاعل من عَاجَزَ مثل : قَاتَلَ ومقاتل ، وعاجز مثل نافس ، والمنافسة الأصل فيها التسابق فى التنفس ، وقد رُوى أن سيدنا عمر وسيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما مرَّا ببحيرة ، فقال عمر : هيا بنا نتنافس يعنى :

نغطس تحت الماء ، لنرى أيّنا أطول نَفَساً من الآخر ، ومعروف أن طول فترة الغطس تدل على قوة التنفس وسلامة الرئة ، وأنها تحتوى مخزوناً أكبر من الهواء ، ثم أُطلقت المنافسة على كل مسابقة .

ومثل نافس : عَاجَزَ يعني : حاول كُلٌّ من الطرفين إثبات عجز الآخر . تقول : عاجزني يعني : جعلني أفعل فعلاً أعجز عنه ، فكأنهم يريدون بسعيهم في آيات الله أنْ يُثبتوا عجزها ، وأن يُعجزوا الدعوة أنْ تبلغ مداها ، ويُعجزوا رسولَ الله أنْ يتمم رسالته ، ويُعجزوا منهج الله أن يصل إلى خلق الله .

لكن يُعاجزون مَنْ ؟ يُعاجزون الله ؟ كيف وهو سبحانه الذى أرسل الرسل ، وتكفَّل بنصرتهم وعدم التخلِّي عنهم ، وما كانت الحروب والقتال بين الرسل والمكذبين إلا سبباً يأتي من خلاله نصر الله ، كما قال سبحانه : ﴿ **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ** (١٤) ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه : ﴿ **وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ** (١٧١) **إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ** (١٧٢) **وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ** (١٧٣) ﴾ [الصافات]

إذن : مَنْ سيُعاجزون ؟ ربما يُقبل أنْ يُعاجزوا رسول الله ﷺ أو يُعاجزوا المؤمنين ، أما الحق سبحانه فهو الغالب القادر ، وهل يستطيع أحد أنْ يُعجز الله ، ويتغلب عليه سبحانه ، فيجعله عاجزاً ، وهو سبحانه القادر الغالب ؟

فمعنى ﴿ **سَعَوْا فِي آيَاتِنَا ..** (٥) ﴾ [سبأ] أي : وضعوا المكايد والعراقيل في طريقها ؛ ليفسدوا أمر الدعوة ، وحتى يردُّوها على رسول الله في فمه الذى قالها ﴿ **مُعَاجِزِينَ ..** (٥) ﴾ [سبأ] حالة كونهم

معاجزين ، يعني : يسيرون مع خالقهم في مضمار واحد ، الله يريد أنْ يُعجزهم ، وهم يريدون أنْ يُعجزوا الله ، وأنْ يكونوا في مكان القدرة الإلهية العليا ؛ ليثبتوا أن الدعوة باطلة .

ثم يُبيِّن سبحانه جزاء هؤلاء المعاجزين : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾ [سبأ] الرِّجز والرُّجز هو الحمْل الثقيل ، وأصله الذنب ، وما يترتب عليه من عقوبة ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ ﴾ [المدثر] أي الذنب الكبير ، أو العقوبة المترتبة عليه ، والمعنى : لا تفعل الذنب ، ولا ما يؤدي للعقوبة ، وإذا هجرتَ الذنب لا تأتي العقوبة .

وقد وُصف العذاب هنا بأنه ﴿ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝٥ ﴾ [سبأ] والعذاب يُوصَف مرة بأنه أليم ، ومرة بأنه مهين ، ومرة بأنه عظيم ، وهي أوصاف تدل على معَانٍ مختلفة لحال واحدة ، فهو أليم أي يؤلم صاحبه ، فإنْ كان جَلْداً يدعي التحمُّل فله عذاب مهين يُهينه ، ويحطُّ من كرامته ، وهو الذي يتعالى أو يظنُّ نفسه عظيماً .

والعذاب المهين ليس بالضرورة أن يكون مؤلماً ، فمن الناس مَنْ يؤلمه التوبيخ والتقريع ، فإنْ أردتَ ضخامة العذاب من حيث القدر ، فهو عذاب عظيم .

إذن : إنْ أردتَ الإيلام فهو عذاب أليم ، وإنْ كان قليلاً في قدره ، وإنْ أردتَ التحقير والإهانة فهو عذاب مهين ، وإنْ أردتَ ضخامة العذاب فهو عذاب عظيم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦ ﴾

هنا تثبيت لسيدنا رسول الله ﷺ ، فكأن ربه - عز وجل - يقول له : يا محمد لا تيأس من هؤلاء الذين سَعَوْا فى آياتنا معاجزين ولا تهتم ، فإن الذى جعل من الكفرة مَنْ يسعون بالفساد ويُعاجزون خالقهم جعل أيضاً لك مَنْ ينصر دعوتك ويؤيدك من الذين يؤمنون بآيات الله ، ويعلمون أنها الحق ، وأن ما يقوله هؤلاء هو الهراء ، وهو الباطل .

فكما أثبتَ لهم سَعْياً فى الباطل ومعاجزة أثبتَ للمؤمنين العلم بآيات الله وتصديقها والاعتراف بأنها الحق ، وطمأن رسول الله أن هؤلاء لن يفسدوا عليك أمرك ، ولن يُطفئوا نور الله ، كما قال سبحانه:

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) ﴾ [الصف]

وقال : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) ﴾ [التوبة]

فقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ .. (٦) ﴾ [سبأ] أى : يشهدون لك بأنك على الحق ، وأنك جئتهم بمنهج هو الحق ، ويهدى إلى صراط مستقيم . إذن : فَضَعْ هؤلاء قبالة الذين سَعَوْا فى آياتنا معاجزين ، واعقد مقارنة بين هؤلاء وهؤلاء .

فالكفار الذين سَعَوْا فى آياتنا بالفساد مُجرَّدون عن معونة القدرة ، بل إن القدرة ضدهم ولهم بالمرصاد ، أما الذين أوتوا العلم وشهدوا لرسول الله ، فهم مُؤيَّدون للقدرة الإلهية ، والقدرة معهم تساندهم ، فأىُّ الكفَّتين أرجح ؟

ومعنى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ[1] أُوتُوا الْعِلْمَ ۝٦ ﴾ [سبأ] الذين أوتوا العلم من المؤمنين بمحمد ﷺ الذين صدَّقوه وصدَّقوا معجزته ورسالته . أو : الذين أوتوا العلم من أهل الكتاب اليهود أو النصارى ، فالمنصفون منهم يعلمون صدْق رسول الله ، ويعرفونه كما يعرفون أبناءهم وهم الذين ذهبوا إلى يثرب قبل بعثة رسول الله ينتظرون بعثته ، وكانوا يستفتحون به على الذين كفروا يقولون : لقد أظلَّ زمن نبي جديد نتبعه ونقتلكم به قَتْل عاد وإرم ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ .. ۝٨٩ ﴾ [البقرة]

لذلك يقول القرآن فى جدال الكافرين : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ .. ۝٤٣ ﴾ [الرعد] أى : رداً عليهم ﴿ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .. ۝٤٣ ﴾ [الرعد] أى : الله الذى أرسلنى بالمعجزة ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ۝٤٣ ﴾ [الرعد] أى : من اليهود والنصارى ، أهل التوراة والإنجيل .

والعلم : هو كل قضية مجزوم بها ، وهى واقعة وعليها دليل ، وغير ذلك لا يعتبر علْماً ، فالقضية إنْ لم يكُنْ مجزوماً بها فلا تدخل فى العلم ، إنما هى فى الشك ، أو فى الظن ، أو فى الوهم ، فإنْ كانت القضية مجزوماً بها ، لكن ليس لها واقع ، فهذا هو الجهل .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : ليس الجاهل هو الذى لا يعلم ، إنما الجاهل الذى يعلم قضية منافية للواقع . أما الذى لا يعلم فهو الأميٌّ خالى

---

(١) فى تأويل الذين أوتوا العلم هنا قولان :

– هم أصحاب محمد ﷺ . قاله قتادة فيما ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٧٤) وقاله ابن عباس فيما ذكره القرطبى فى تفسيره (٨/٥٥٣٠) .

– هم المؤمنون من أهل الكتاب . قاله مقاتل فيما ذكره القرطبى ، وقاله الضحاك فيما ذكره القرطبى .

قال القرطبى : وقيل : جميع المسلمين ، وهو أصح لعمومه

الذِّهْن تماماً ؛ لذلك يقبل منك ما تقول ، على خلاف الجاهل الذى ينبغى عليك أنْ تثبت له خطأ قضيته أولاً ، ثم تقنعه بما تريد .

فإنْ كانت القضية مجزوماً بها ولها واقع ، لكن لا تستطيع أنْ تُدلِّل عليها ، فهى تقليد كالولد الذى نلقنه مثلاً ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢﴾ [الإخلاص] فيحفظها كما هى ، لكن لا يستطيع أنْ يقيم الدليل عليها ، فهو إذن مُقلد لمن يثق فيه وفى إخلاصه له ، كأبيه أو مُعلمه ، فإنْ وصل الولد إلى مرحلة يستطيع فيها أنْ يُدلِّل على صدْق هذه القضية فقد وصل إلى مرتبة العلم .

والعلم وإنْ كان أنواعاً كثيرة ، إلا أنه يمكن حَصْره فى العلم الشرعى والعلم الكونى : العلم الشرعى أو علم الشرع ، ومصدره السماء يُبلِّغه رسول بمعجزة ، ولا دَخْلَ لأحد فيه ، وليس للبشر فى علم الشرع إلا النقل والرواية ، والبلاغ من الرسول ، وهذا العلم هو الذى يُحدِّد لنا الحلال والحرام ، وقد جاء العلم الشرعى لا ليتدخل فى العلم الكونى ، إنما جاء ليضبط الأهواء المختلفة ؛ لذلك يختلف الناس فى هذا العلم .

أما العلم الكونى فهو العلم الذى يبحث فى أجناس الوجود كلها : فى الجماد ، وفى النبات ، وفى الحيوان ، وفى الإنسان ، فهذا العلم يقوم على نشاط العقل ، ولا يختلف الناس فيه ؛ لأنه مادىٌّ يعتمد على البحث والتجربة والملاحظة ؛ لذلك يتنافس فيه الناس ، وربما سرقوه بعضهم من بعض .

وبهذا العلم الكونى يُرَقِّى الإنسان حياته ، فالخالق عز وجل أعطاك كل مُقوِّمات الحياة وضرورياتها ، وعليك إنْ أردتَ رفاهية الحياة أنْ تُعمل عقلك وفكرك فى معطيات الكون من حولك لتكتشف ما لله تعالى

فى كونه من أسرار وآيات تُرقّى بها حياتك .

ففى الماضى ، كان الإنسان مثلاً إذا أراد الماء يذهب إلى النهر أو إلى البئر ، فإنْ عَزَّ عليه الماء طلب السُّقْيا من الله ، وتوجَّه إليه بالدعاء ولا شىء آخر ، فلما تطورتْ الوسائل وتوصَّل الإنسان إلى خواصِّ الماء واستطراقه من أعلى إلى أسفل ، واستحدث الخزانات والمواسير ، وصار يستقبل الماء فى بيته بمجرد فَتْح صنبور المياه أصبح إذا انقطعت عنه المياه لا يقول : يا ربِّ اسقنى . إنما يبحث عن سبب انقطاعها ، أهو فى (ماسورة) كُسِرت ؟ أم أن الكهرباء انقطعت فعطلتْ موتور الرفع ؟ أم أن محطة المياه تعطلت ؟ .. إلخ .

إذن : كلما تقدمتْ الحضارة ووسائل المدنية بَعُدت الصِّلات بيننا وبين الله .

وهذا العلم الكونى الذى يقوم على الفكر وإعمال العقل لا دَخْلَ للسماء فيه ، ويستوى فيه المؤمن والكافر ، فمَنْ سعى إليه وأخذ بأسبابه أعطتْه الأسباب ؛ لذلك وجدنا معظم الاختراعات والاكتشافات جاء بها علماء كفرة لا يؤمنون بالله ، كالكهرباء والتليفون والتلغراف وغيرها .

فمعنى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ⑥ ﴾ [سبأ] أى : العلم الشرعى ، وهم الذين آمنوا بك وصدَّقوك بالمعجزة على أنك رسول الله ، وأن ما جئتَ به هو الحق ﴿ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ .. ⑥ ﴾ [سبأ]

وكذلك الذين أوتوا العلم الكونى لهم دَوْر فى تصديق الرسل وتأييدهم بما أوتوا من العلم الكونى الذى يدلُّ على الله ، وإذا كان القرآن كتابَ الله

المقروء ، فالكون بأجناسه المختلفة كتاب الله المشاهد المنظور .

واقرأ إنْ شئت قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا .. (٢٧)﴾ [فاطر] هذا هو النبات ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ[1] بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ[2] (٢٧)﴾ [فاطر] وهذا هو الجماد ﴿وَمِنَ النَّاسِ .. (٢٨)﴾ [فاطر] الإنسان ﴿وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ .. (٢٨)﴾ [فاطر] أى : الحيوان ﴿مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ .. (٢٨)﴾ [فاطر]

ثم يختم الحق سبحانه بقوله : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨)﴾ [فاطر] أىّ علماء ؟ علماء الكون الذين يبحثون فى أجناسه المختلفة وقوانينه العلمية والاجتماعية والصحية .. إلخ .

وهؤلاء العلماء يخشوْنَ الله ؛ لأنهم يشاهدون أسراره فى كونه ، ويُطْلعون الناس عليها ، فهم جُنْد من جنود الدعوة إنْ آمنوا يؤيدون قدرة الله ، بل ويستشهد علماء الشرع بكلامهم ، ويُظهرون قدرة الله فى الكون من خلال نظرياتهم العلمية ، إذن : للعلم الكونى مهمة كبرى فى مجال الدعوة إلى الله .

لكن ، مَن الذى يرى منْ هؤلاء ـ علماء الشرع ، أو علماء الكون ـ أن الذى جاء به محمد هو الحق ؟

إنْ قُلْنا علماء الشرع فقد شهدوا لرسول الله وصدَّقوه ، سواء من المؤمنين برسالته ، أم من علماء أهل الكتاب ، وإنْ قلنا علماء الكون

---

(١) الجدة من الشيء : الجزء منه يخالف لونُه لونَ سائره . ومعنى الآية : أى من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/١٢٨] .

(٢) الغربيب : شديد السواد وجمعه غرابيب ، ووصف الغرابيب بأنها سود للتوكيد . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

فقد شهدوا هم أيضاً لرسول الله وأيَّدوه بما لديهم من أسرار قدرة الله . والدليل أننا كنا نتحدث فى قوله تعالى : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ[1] عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ ﴾ [سبأ]

قُلْنا : إن الذرة هى الهباءة المتناهية فى الصِّغَر ، والتى لا تُرَى بالعين المجردة إلا فى شعاع الشمس ، هذا هو كلام الحق سبحانه ، فأعطنى من العلم الكونى ما يثبت هذا الكلام ، وما يقنعنى بأن الله تعالى يعلم كل شىء ، ولا يخفى عليه حتى الذرة فى السموات ولا فى الأرض .

نقول : مَن الذى خلق السموات والأرض وما فيهن ؟ لا أحد يستطيع أن يقول غير الله . كما قال سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] أى : الكفار ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان] ، وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

لا أحد يجرؤ أنْ يقول غير هذا ، مع أن الكفرة والملاحدة كثيرون ، لكن لم يدَّعِ أحد أنه خلق شيئاً ، كيف والناس يقفون عند أتفه الأشياء ، فيُؤرِّخون لها ويُخلِّدون اسم صانعها أو مخترعها ، لو سألت تلميذ الابتدائية : مَن اكتشف الكهرباء ؟ يقول لك : أديسون . مَنْ أول مَنْ صعد إلى القمر ؟ يقول لك : كذا وكذا .

فكيف نعرف هؤلاء ونصنع لهم التماثيل ونكرمهم ، ولا نسأل أنفسنا : مَنْ خلق الشمس ، مَنْ خلق القمر ؟ مَنْ أجرى الهواء .. الخ ، وهذه مقومات الحياة وأساسياتها ، وليست ترفاً كالأخرى .

---

(١) يعزب : يغيب ، فلا يغيب عن علمه سبحانه شىء . [لسان العرب ـ مادة : عزب] .

إذن : قضية الخَلْق هذه ساعةَ تُعرض لا بُدَّ أنْ يتمثل لك قوله تعالى ﴿ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ .. (٢٥٨) ﴾ [البقرة] يعنى : لا يملك إلا أن يقول : الله .

تذكرون أننا قلنا : إذا قال الحق قولاً ، وقال البشر قولاً يجب أن ينطمس قول البشر أمام قول الله ؛ لأن البشر حين يُقنِّنون يُقنِّنون حسب ما يرى من أحداث ، ولا يحسب حساباً لما سيطرأ ، وما يُستجد ؛ لذلك تأتى قوانين البشر عاجزة قاصرة تحتاج دائماً إلى تعديل .

كذلك ، فى مسألة الإضاءة نرى البشر يضيء كل منهم بيته مثلاً حَسْب إمكاناته وقدراته ، فإذا جاء نور الله أُطْفِئت كل الأنوار ، ومن هذه المسألة نأخذ الدليل على مسألة الذرة التى نحاول أنْ نثبت عِلْم الله لها من خلال العلم الكونى .

فنحن الآن فى المسجد ، والمسجد مُضاء ، ونرى كل شيء ، فهل ترون الآن غباراً فى جو المسجد ؟ لا ، مع أننا فى النور ، لكن ماذا لو جلستَ بجوار شباك مثلاً يدخل منه شعاع الشمس ؟ لا شك أنك سترى هذا الغبار المتطاير فى الجو .

إذن : هذا الغبار لا تراه إلا فى ضوء الشمس ، فنور البشر لا يكشف الغيبَ ، إنما يكشفه نور الله المتمثل فى ضوء الشمس ، فإذا كانت الشمس المخلوقة لله تعالى بيَّنَتْ لنا ما خَفِى عنَّا ، أيعجز خالق الشمس سبحانه أنْ يعلم ما غاب عنَّا ؟

هذه إذن رسالة العلم الكونى ، أنْ يُثبت لنا ما يؤيد الدعوة ، وأن ما جاء به الرسول حق .

مسألة أخرى توضح مكانة العلم الكونى ومنزلته فى الدعوة ، هذه المسألة تجسدها فى قوله تعالى عن عذاب الكفار يوم القيامة . ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء]

هكذا قال الله تعالى ، وهكذا نقلها القرآن لنا لم يخبرنا شيئاً عن مراكز الألم والإحساس ، وكنا لا نعلم شيئاً عنها ، حتى جاء علماء وتخصَّصوا فى وظائف الأعضاء ، وبعد بحوث وتجارب توصَّلوا إلى أن الجلد هو المسئول عن الإحساس ، فقد لاحظ الألمان أن المريض حين نعطيه حقنة مثلاً لا يشعر بالألم إلا بمقدار ما تنفذ الإبرة من طبقة الجلد ، فأخذوا من ذلك أن الجلد هو محلُّ الإحساس ، وليس المخ أو النخاع الشوكى كما قال البعض .

أخذ علماء الشرع هذه القضية ، وجعلوها دليلاً على قول الحق سبحانه : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا .. (٥٦) ﴾ [النساء] لماذا يا رب ؟ ﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .. (٥٦) ﴾ [النساء] فالجلد محل الإذاقة ، وهكذا ساعدنى العلم الكونى فى إثبات صدق القرآن الكريم ، وأنه حق .

كذلك نفعنا العلم الكونى فى إثبات كروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس ، فالحق سبحانه أخبرنا أن الليل والنهار خِلْفة أى : يخلف كل منهما الآخر ، وهذا واضح لنا الآن فى تعاقب الليل والنهار ، لكن ماذا كان أول الخَلْق لو أن النهار خُلِق أولاً يعنى . خُلِقت الشمس مواجهة للأرض ثم غابت ، فجاء الليل ، فالنهار فى هذه الحالة ليس خِلْفة لليل ، لأن النهار جاء أولاً لم يسبقه ليل فليس خِلْفة .

وعليه فلا بُدَّ أن تكون الأرض خُلِقت على هيئة كروية ، ما قابل الشمس منها يكون النهار فيه ، وما لم يقابل الشمس يكون الليل

فيه ، فهما معاً في وقت واحد ، فلما دارت الشمس تعاقب الليل والنهار ، وخلف كل منهما الآخرَ ، فلا تتأتى هذه الخِلْقة إلا بكُروية الأرض .

فقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ۝٦ ﴾ [سبأ] أي : العلم الشرعي المنزَّل من أعلى ، أو العلم الكوني القائم على البحث والمشاهدة . وقوله ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ۝٦ ﴾ [سبأ] سواء كان علْماً شرعياً ، أو علماً كونياً يدل على أن العلم إيتاءٌ ، فليس هناك عالم بذاته ، إنما العلم إيتاء من الله حتى في علم الكونيات لذلك لم يقل علموا ، إنما ﴿ أُوتُوا الْعِلْمَ .. ۝٦ ﴾ [سبأ]

لذلك قالوا : إنْ كان العلمُ نعمةً من الله ، فكذلك النسيان قد يكون نعمة ، وجندياً يخدم الإنسان ، فنحن نعرف مثلاً (الخميرة) التي تخمر العيش ، إذا وجدت رغيف العيش (مبلّط) يعني : وجهه ملتصق بظهره ترده للبائع وتطلب الرغيف (القابب) هذا ما تفعله (الخميرة) في رغيف العيش تجعل الهواء يدخل بين ذرات العجين ، فحين تُدخله النار يتمدد هذا الهواء فيُحدث فاصلاً بين وجه الرغيف وظهره .

وهذه الخميرة هي التي تعطي للعيش طعمه المميز ، فهل تعرف من أين جاءت هذه الفكرة ؟ جاءت نتيجة نسيان ، فيُروى في هذه المسألة أن امرأة عجنتْ العجين ، ثم انشغلت عن خَبْزه بعض الوقت ونسيته ، فلما تذكرتْ جاءتْ إليه وخبزته كما هو ، فوجدتْ هذا الفرق بين العجين حين يُخبز سريعاً ، وحين يُترك حتى يختمر ، وكانت هذه بداية فكرة الخميرة ، وكأن كل قطعة خميرة نأكلها الآن هي في الحقيقة جزء من خميرة هذه المرأة .

كذلك يقال في سبب شواء اللحم أن الإنسان أولاً كان يأكل اللحم

نيئاً ، وقد ذبح رجل شاة بالليل ، وأوقد ناراً يستدفيء بها ، فجاء ذئب ينازعه الشاة ، فدخل معه في معركة ، فوقعت قطعة لحم في النار ، فلما خلص من الذئب شَمَّ رائحة الشّواء فأعجبته ، ومن هنا عرف الإنسان كيف يشوى اللحم .

إذن : الحق سبحانه يهدى خَلْقه ولو بالنسيان ، ولو بالمصادفة ، فالعلم حتى الكونى منه إيتاء من الله ، وكل قضية كونية لا يعطيك الله علمها مباشرة ، يعطيك المقدمات التى تُوصِّل إليها ، وتهدى إلى معرفتها .

وكنا ونحن نتعلم الهندسة ندرس كتاباً اسمه (هول ونايت) نتعلم كيف نبرهن على صحة النظرية ، فمثلاً النظرية المائة نبرهن عليها بما ثبت فى النظرية التسعة والتسعين وهكذا ، فحين تسلسل هذه المسألة نصل إلى النظرية ، رقم واحد ، كيف نبرهن على صحتها ؟

قالوا : البرهان عليها بدهية فى الكون ، فكأن كلَّ علم وصل إلينا أصله بدهية مخلوقة لله تعالى ، إذن : فالعلم سواء أكان شرعياً أو كونياً إيتاء من الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ .. (٢٨٢)﴾ [البقرة] يعنى : يلهمكم ويرشدكم إلى الأشياء ولو بالمصادفة ، وسبق أنْ قُلْنا : إن لكل سر فى الكون ميلاداً ، إما أنْ يأتى نتيجة بحث الإنسان ، فإنْ لم يبحث الإنسان فيه كشفه الله له ولو بالمصادفة ، كما اكتشف الإنسان مثلاً البنسلين .

لذلك يقول سبحانه فى العلم الكونى : ﴿اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة]

فمعنى ﴿إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥)﴾ [البقرة] أى : يأذن سبحانه بميلاد

هذا الشيء ، فإنْ شاء سبحانه أعطاك علمه نتيجة بحثك وأنت تبحث وإنْ لم يكُنْ هناك بَحْث أعطاك العلم مصادفة .

أما العلم الذي استأثر الله به فهو غيب لا يحيط به أحد ، كما قال سبحانه : ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧)﴾ [الجن] هذا هو العلم الذي لا دَخْل لأحد فيه ، أما العلم الكوني فله زمن ، وله ميلاد يُولَد فيه .

ونلحظ في أسلوب الآية أن المفعول الثاني للفعل (يرى) جاء على صورة الضمير المنفصل ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ .. (٦)﴾ [سبأ] ولم يقل الحق فقط إنما ﴿هُوَ الْحَقَّ .. (٦)﴾ [سبأ] وهذا الضمير المنفصل يعني أن غيره ليس حقاً ، فالحق هو الذي أُنزل على رسول ، وما عداه ليس حقاً ، وكأنها خاصية لم تُعْط إلا له ﷺ .

ومثلها قوله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء] فلم يَقُلْ : الذي خلقني يهديني ؛ لأنها تحتمل أن يهديك غيره ، إنما ﴿هُوَ يَهْدِينِ (٧٨)﴾ [الشعراء] قصرت الهداية عليه سبحانه وتعالى ، ومثلها ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠)﴾ [الشعراء] فقصر الإطعام والسُّقْيا والشفاء على الله سبحانه وتعالى ؛ لأنك قد تظن أن أباك هو الذي يُطعمك ويسقيك ، وهو مجرد سبب ومُناول عن الله .

وكذلك قد تظن أن الشفاء بيد الطبيب ، وما الطبيب إلا معالج ، والشفاء من الله ، لكن تأمل حين تكلم سبحانه بعدها عن الموت والحياة ، قال : ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١)﴾ [الشعراء] ولم يأت بالضمير المنفصل هنا ، لماذا ؟ لأن الموت والحياة لم يدَّعها أحد غير

الله ، فليست مظنة المشاركة ، والكلام هنا عن الموت لا عن القتل ، وهناك فَرْق بينهما سبق أنْ أوضحناه .

إذن : قوله تعالى : ﴿هُوَ الحقَّ .. (٦)﴾ [سبأ] دلَّتْ على أن الحق واحد ، هو ما أنزل الله ، وما عداه باطل ، ولا يجتمع حقَّان في مسألة واحدة ، إلا إذا كانت الجهة مُنفكة كأن تقول مثلاً والله أنا ودعت فلاناً اليوم في المطار وسافر إلى كذا ، فيقول آخر : بل لم يسافر وأنا رأيتُه اليوم في بيته ، وعندها يتهم كل واحد منكما الآخر بالكذب فأسرعتَ إلى التليفون واتصلتَ بهذا الرجل ، فقال لك : نعم لم أسافر فقد طرأ لي طارىء ، فرجعت من المطار . إذن : فالخبران صادقان ، لكن الجهة منفكة .

والحق هو : الشيء الثابت الذي لا يتغير ولا يُنكر ، وكيف تنكر الحق وأنت حين تريد أنْ تؤيد نفسك في شيء تقول : هذا حقي يعني لي ولا ينازعني فيه أحد ، فالدَّعْوى التي تقيمها أن هذا حقك .

والحق إلى جانب أنه أمر ثابت فهو ينفعك ، فله إذن ميزتان أو حجتان : الأولى أنه الحق الثابت وغيره باطل ، والأخرى أنه يعود عليك نفعه ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد (٦)﴾ [سبأ] ، فإذا لم تقبل الحق لذاته وتتعصب له ، فاقبله لما يعود عليك من نفعه ، فهذان الأمران هما من حيثيات التمسك بالحق .

ومعنى ﴿العزيز .. (٦)﴾ [سبأ] هو الذي لا يُغلب ولا يُقهر ، ومنه قولنا : عزَّ عليَّ كذا يعني : لم أقدر عليه ، وفلان عزيز يعني لا يقهره أحد ، فصفة العزة صفة ترهيب ، فحين تُعرض عن هذا الحق فاعلم أنك تعصي عزيزاً لا يُقهر ، يغلب ولا يُغلب .

ثم يتبعها سبحانه بصفة من صفات الترغيب ﴿الحميد (٦)﴾

[سبأ] بمعنى المحمود على ما يُعطى من النِّعَم ، فهى تُرغّبك فى المزيد من نعَم الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [سبأ] معلوم أن القول يحتاج إلى قائل ، وإلى مقول له ، القائل هم الذين كفروا ، قالوا : لمن ؟ قالوا بعضهم لبعض وهم يتسامرون ، أو قال المتبوع منهم لتابعه الذى يقلده . أما قولهم فهو ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ ﴾ [سبأ]

ويلفت أنظارنا فى هذا القول أنهم وصفوا سيدنا رسول الله ﷺ بكلمة (رجل) ، وهى نكرة قصدوا بها الاستهزاء والاستنكار والتقليل من شأنه ﷺ .

وهذا فى حد ذاته يدل على غبائهم وتغفيلهم ، فهم أنفسهم الذين وصفوه بأنه رسول الله حين قالوا كما حكى القرآن عنهم : ﴿ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون] فدلَّ ذلك على غبائهم .

وهم أيضاً الذين قالوا - لما فتَر الوحى عن رسول الله - إن ربَّ محمد قلاه[1] ، وهذا عجيب منهم ، فعند المحنة والسوء يعترفون أن لمحمد رباً .

(١) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ ، فقال المشركون ودع محمداً ربُّه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢)

وقولهم ﴿ يُنَبِّئُكُمْ .. ۝ ﴾ [سبأ] من النبأ ، ولا يُطلَق إلا على الخبر الهام وليس مطلق الخبر ، فمثلاً حين أقول لك : أكلتُ اليوم كذا وكذا ، وذهبتُ إلى مكان كذا لا يُعَدُّ هذا نبأ ؛ لأنه خبر عادى ، أما النبأ فخبر عجيب وهام وعظيم ، كما جاء فى قول الله تعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝ ﴾ [النبأ]

ومعنى ﴿ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ۝ ﴾ [سبأ] التمزيق : إبطال الكل عن أجزائه ، وإبعاد الأجزاء بعضها عن بعض ، فمثلاً أنا أجلس الآن على كرسى ، هذا الكرسى كُلٌّ مكوَّن من أجزاء : خشب ومسامير وغراء وقطن وقماش .. إلخ ، فتمزيق هذا الكل أن أفصل هذه الأجزاء عن بعضها ، فينهدم هذا الكل إلى أجزاء .

وينبغى هنا أن نُفرِّق بين الكل والكلى : الكل مكوَّن من شىء كثير ، لكنه مختلف فى الحقيقة ، فالخشب غير المسمار غير الغراء غير القماش ، فكل جزء له تكوينه الخاص .

أما الكلى فيُطلق على أشياء كثيرة منفصلة ، إلا أنها متفقة فى الحقيقة ، كما نقول مثلاً : إنسان بالنسبة للأفراد شىء كلى ؛ لأن الإنسان يُطلق على كل المجموع ، بحيث يُقال عن كل فرد : إنسان ، إنما فى الكل لا أقول الخشب كرسى .

هذا هو التمزيق ، فماذا أضافت ﴿ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ۝ ﴾ [سبأ] ؟

أى : تمزيقاً شديداً يُمزِّق الكل ، ويمزِّق الجزء ، إذن : التمزيق له مراحل وصور ، فمعنى ﴿ مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ۝ ﴾ [سبأ] استقصاء لأصغر شىء يصل إليه الممزَّق ، وهذا التمزيق نشاهده فى تحلل الميت وتفكُّك أجزائه وعناصره ، حتى تذهب فى الأرض ، لا يبقى لها أثر .

ومن ذلك قولهم : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ.. (١٠) ﴾ [السجدة]

فمعنى ﴿ ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ .. (١٠) ﴾ [السجدة] أى : ذهبنا فيها وغبْنا فى متاهتها .

والتمزيق له أسباب متعددة ، فمَنْ يموت ويُدفن تمزّقه الأرض ، ومَنْ يموت محروقاً تمزّقه النار ، وربما تذروه الرياح وتتبعثر ذراته ، ومَنْ تأكله الحيوانات والطير .. إلخ .

ومع هذا التمزيق والتفتيت والبعثرة تستطيع قدرة الله أنْ تعيد الإنسان من جديد ، واقرأ : ﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَـٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) ﴾ [ق] يستبعدون البعث ، فيردّ القرآن عليهم ﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ .. (٤) ﴾ [ق] يعنى : لا تستعجبوا ، فكل ذرة تبعثرتْ نعلمها ، ونعلم مكانها ، ونقدر على إعادتها ﴿ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) ﴾ [ق] يعنى : ليس مجرد علم ، إنما علم مُسجَّل محفوظ ، لا يناله تغيير ولا تبديل .

وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) ﴾ [سبأ] الخلق الجديد أنْ يُعاد الشيء إلى أصل تكوينه ، كالذى يقلب البدلة مثلاً فتصير جديدة ، لماذا ؟ لأنه أعاد تكوينها من جديد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ (٨) ﴾

هذا القول كسابقه يحتاج إلى قائل ومقول له ، ويصح أنْ يكون

قائله هو القائل الأول الذى قال ﴿ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ .. (٧) ﴾ [سبأ] ويصح أن يكون الآخر الذى سمع القائل الأول فردَّ عليه :
﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ .. (٨) ﴾ [سبأ]

معنى ﴿ أَفْتَرَىٰ .. (٨) ﴾ [سبأ] من الافتراء ، وهو تعمُّد الكذب ﴿ أَم بِهِ جِنَّةٌ .. (٨) ﴾ [سبأ] أى : جنون يعنى : كلامه هراء ، لا وزن له ، ولا يُقال له صدق ولا كذب . لكن لماذا اتهموا رسول الله بأن به جِنَّة بعد أن اتهموه بالكذب والافتراء ؟

قالوا : لأن هذا اتهام كذب ، والكاذب دائماً يخاف أنْ يُفتضح أمره ، وينكشف كذبه ؛ لذلك يحاول أنْ يجعل لنفسه مخرجاً حين يثبت كذبه ، فقالوا ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ .. (٨) ﴾ [سبأ] فإذا ما ثبت صدق رسول الله ، وأنه ليس كاذباً ولا مفترياً وجد المتهم له مخرجاً فقال : والله أنا لا أدرى أهو مُفْتر أم به جِنَّة ، وما دام ثبتَ صدْقه ، فهو به جِنَّة .

وعجيب أن يصف كفار مكة رسول الله بالكذب والافتراء على الله ، وهو واحد منهم ، ما عرفوا عنه إلا أنه الصادق الأمين ، وما جرَّبوا عليه كذباً قط ، وما رأوْه يوماً خطيباً ولا شاعراً ، وهم أهل الفصاحة وفرسان الكلمة ، لا يَخْفَى عليهم تذوُّق اللغة وفَهْم الأساليب العربية ، فكان عليهم أنْ يعقلوا أولاً قبل أنْ يُوجِّهوا لرسول الله هذا الاتهام .

ثم ، هل تأتى البلاغة ؟ وهل يأتى النبوغ بعد سنِّ الأربعين ؟ معلوم أن النبوغ يأتى فى أواخر العقد الثانى أو أوائل العقد الثالث من العمر ، ورسول الله ﷺ لَبثَ فيهم أربعين سنة قبل أنْ يُبلِّغهم عن الله كلمة واحدة .

لذلك يخاطبهم القرآن ، ويجادلهم بالحجة ، فيقول على لسان سيدنا رسول الله : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ ⦗١٦⦘ ﴾ [يونس] يعني : تدبَّروا الأمر واعقلوه ، فأنتم أهل البلاغة واللسان الفصيح ، ومنكم الخطباء والشعراء ملأوا الدنيا كلاماً ، فهل رأيتم مني شيئاً من هذا ؟

إذن : الذي قال ﴿ أَم بِهِ جِنَّةٌ .. ⦗٨⦘ ﴾ [سبأ] احتاط لنفسه ، فحين يظهر صدْق رسول الله يقول هو : أنا قُلْت : إنه إما كاذب ، وإما مجنون .

ثم يردُّ الحق على هؤلاء : ﴿ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ ⦗٨⦘ ﴾ [سبأ] كلمة (بَلْ) تفيد الإضراب عما قبلها ونفيه ورفضه ، ثم إثبات ما بعدها ، فهي تنفي أن يكون رسول الله مفترياً ، وتنفي أن يكون مجنوناً ؛ لأن رسول الله ما جرَّبتُمْ عليه كذباً من قبل ، وما رأيتم عليه علامة من علامات الجنون ؛ لأن المجنون لا يُحمد على فعل ، ولا يُذَم على فعل ، ولا يُوصَف بصدق ولا كذب ، وقد سبق أن مدحتم رسول الله فقلتم عنه « الصادق الأمين » .

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ⦗١⦘ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ⦗٢⦘ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ⦗٣⦘ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ⦗٤⦘ ﴾ [القلم] وهل يُوصَف المجنون بأنه على خلق عظيم ؟ هل يُوصَف المجنون بالأدب أو الوفاء أو غيرها من خصال الخلق الحميد ؟

فكيف إذن تصفون رسول الله بالجنون ، وقد شهدتم له بسيدة الخصال الحميدة في النفس البشرية وهي الأمانة ، وكنتم تأتمنونه

على أشيائكم ، وتضعونها عنده ؟ لذلك خلَّف رسول الله الإمام علياً وراءه بعد أنْ هاجر ليرد الودائع والأمانات إلى أهلها(١) .

وبعد أن أبطل الحق سبحانه كذبهم على رسول الله يقرر ما يستحقونه على ذلك من العذاب ﴿ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) ﴾ [سبإ] في العذاب لأنهم اتهموا رسول الله بالكذب والافتراء على الله ، ورسول الله لم يكذب ، ولم يفْتَرِ على الله ، وهم في الضلال البعيد ؛ لأنهم وصفوا رسول الله بالجنون ، وهو شيء مُخِلٌّ بتكوينه إنما لم يكذب ، إذن : العذاب مقابل الاتهام بالافتراء على الله ، والضلال البعيد مقابل اتهامه ﷺ بالجنون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا(٢) مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩) ﴾

الهمزة هنا للاستفهام . والمعنى : كيف يقولون هذا ويغفلون عن

---

(١) قال ابن إسحاق : لم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر . أما علي فإن رسول الله فيما بلغني أخبره بخروجه وأمره أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع ، التي كانت عنده للناس ، وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يُعلم من صدقه وأمانته ﷺ [سيرة ابن هشام ٢/٤٨٥] .

(٢) الكسفة : القطعة وجمعها كِسْف وكِسَف . وكسف السحاب : قطعه . [لسان العرب - مادة : كسف] .

آيات الله فى كونه ، وهى ظاهرة لهم غير مطموسة عليهم ؛ لأنهم يعيشون فى بادية سماؤها مكشوفة لهم ، ليستْ ذات عمائر تحجب عنهم آيات الله كأهل المدن مثلاً ، قلَّما يَروْن الشمس أو القمر ، وإذا حدث كسوف أو خسوف لا يدرون به إلا من أخبار الصحف .

أمَّا أهل البادية فيعيشون فى صحراء شاسعة ، وتبدو لهم صفحة السماء ، أنيسهم الشمس بالنهار ، والقمر والنجوم بالليل ، وهم ينظرون إلى هذه الآيات ويتأملونها ؛ لذلك قال الرجل العربى[1] وهو يتأمل الكون من حوله وهو على الفطرة : سماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج[2] ، وبحار ذات أمواج ، القدم تدل على المسير ، والبعرة تدل على البعير ، أفلا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

إذن : كيف وآيات الحق واضحة أمامكم - تتهمون رسول الله وتغفلون عن آيات الله ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. (٩) ﴾ [سبأ] معنى ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ .. (٩) ﴾ [سبأ] أمامهم ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ .. (٩) ﴾ [سبأ] وراءهم ، ويمكنك أن تزيد يمينهم وشمالهم ؛ لأنك أينما سرْتَ فى هذه الاتجاهات فلن تجد إلا السماء ، حتى لو قمت تحتهم وحاولتَ أنْ تخترق الأرض فلا بُدَّ أن تصل فى النهاية إلى سماء فى الجهة الأخرى ، لكنه لم يقل تحتهم ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يخترق الأرض إلى نهايتها .

---

(١) هو . قس بن ساعدة بن عمرو ، من بنى إياد ، أحد حكماء العرب ، ومن كبار خطبائهم فى الجاهلية ، كان أسقف نجران ، كان يفد على قيصر الروم زائراً فيكرمه ويعظمه ، طالت حياته ، وأدركه النبى ﷺ قبل النبوة ، ورآه فى عكاظ وسئل عنه بعد ذلك فقال : يُحْشَر أمة وحده . [الأعلام للزركلى ٥/١٩٦] .

(٢) الفج : الطريق الواضح الواسع . وجمعه فجاج . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا .. (٣١) ﴾ [الأنبياء] أى طرقاً واسعة واضحة . [القاموس القويم ٢/٧٢] .

ثم أىُّ عظمة فى خَلْق السماء بهذا الاتساع وهى بلا عمد ؟ إنك لا تستطيع إقامة خيمة مساحتها عدة أمتار إلا بأن تثبتها بالحبال والأوتاد وترفعها بالأعمدة ، ولو هبَّتْ عليها الريح اقتلعتْ أوتادها وأعمدتها وهدمتها على مَنْ فيها ، فكيف تمرُّ على آيات الله فى السماء وفى الأرض دون أن تتأملها ؟

ثم يقول سبحانه : ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ .. (٩)﴾ [سبأ] كما خسفها بقارون ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ .. (٩)﴾ [سبأ] كما نزلت الصاعقة من قَبْل على المكذِّبين للرسل و (كسفاً) جمع كسفة أى : قطعة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٩)﴾ [سبأ] آية يعنى : عبرة وعظة لكل عبد يحاول أنْ يرجع لربه .

فكأن الحق سبحانه جعل فى كونه هذه الآيات لتُذكِّر كل غافل ، وتردَّ كل كافر ، وتعطفه إلى أنْ يرجع إلى ربه ، ولو رجع الكافر إلى ربه لَقَبِلَه .

إذن : الحق سبحانه خلق الخَلْق ، ويريد أن يسعدهم ، لكن لا بُدَّ أنْ نختبر مَنْ يستحق السعادة ، وأنْ نُميز مَنْ أطاع منهج الله ومَنْ عصاه .

لذلك يقول النبى ﷺ : « مَثَلى ومَثَلكم كرجل أوقد ناراً فأخذ الذباب والفراش يتهافت عليها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تفلَّتون منى »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٥) من حديث جابر بن عبد الله ، واتفق عليه البخارى فى صحيحه (٦٤٨٣) ومسلم (٢٢٨٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . ومعنى (آخذ بحجزكم) أى : آخذ بمعاقد أزركم وسراويلكم . الحجزة : هى معقد الإزار ، ومن السراويل موضع التكة .

فالحق سبحانه يفتح لعباده - حتى الكافرين منهم - باب الأمل ليعودوا إلى ساحته ، وقد ورد عن رسول الله أنه قال : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم وقع على بعيره وقد أضلَّه في فلاة »[1] ففتح بالتوبة وبالإنابة باب الرجوع إليه ، وخاصة إذا اكتملتْ للإنسان الوسائل الداعية للتوبة من تقدُّم السن أو المرض .. إلخ .

مما يبعد الإنسان عن مَظَانّ الشهوات ، ويدعوه لأنْ يُقبل على الله ويصلح ما فسد من علاقته بربه وخالقه ، حتى إذا ما عاد إليه يوم القيامة عاد طاهراً من ذنوبه ؛ ذلك لأن الخَلْق خَلْقه ، وصَنْعته ، والصانع يريد لصنعته الخير والسعادة .

وسبق أنْ ذكرنا الحديث الذي يُوضِّح أن السماء والأرض والجبال والبحار تمردَّتْ على ابن آدم ، واستأذنت ربها - تبارك وتعالى - أن تفتك به . فقالت السماء : يا رب ائذن لي أن أسقط كسَفاً على ابن آدم ، فقد طَعِم خيرك ، ومنع شكْرك .. إلخ ، فماذا قال الحق سبحانه لها ؟ قال : دعوني وما خلقتُ ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم[2] .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه . وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » .

(٢) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/ ٩٢) من قول بعض السلف ولفظه : « ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء كُفّا عن عبدي وأمهلاه ، فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ، ولعله يتوب إليَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى[1] مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ[2] ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

بعد أن فتح الحق سبحانه باب التوبة لعباده ، وأعطاهم الأمل حتى الكافرين منهم ، وبعد أنْ فعلوا برسول الله ما فعلوا ، وسعَوْا في آيات الله معاجزين ما يزال الحق سبحانه رحيماً بهم ، حريصاً عليهم ، فيلفت أنظارهم إلى واسع رحمته .

وكأنه سبحانه يقول لهم : لا تستكثروا أفعالكم وذنوبكم أمام رحمة الله ، ولا تصدَّنكم هذه الذنوب عن التوبة والعودة إلى الله ، وإنْ كنتم أذنبتُم ، فمن الرسل مَنْ حدثت هفوة من بعضهم مع أنهم أنبياء ، فكأن الحق سبحانه مع هذا كله يلتمس لهم عذراً .

لذلك ذكر بعدها حكاية سيدنا داود : ﴿ ولقدْ آتيْنا داوُود منَّا فضْلاً .. ﴿١٠﴾ ﴾ [سبأ] وفي موضع آخر بيَّن ما كان من أمر سيدنا داود : ﴿ وظنَّ داوُودُ أنَّما فتنَّاهُ فاستغفر ربَّهُ وخرَّ راكِعًا وأناب ﴿٢٤﴾ ﴾ [ص]

إذن : لا تخجلوا أنْ تُنيبوا إلى الله ؛ لأن سيدكم الذى أعطيته

---

(١) أوبى معه : أى رددى الذكر والتسبيح مع داود عليه السلام . [القاموس القويم ٤٢/١] . وقال ابن كثير فى تفسيره : « التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن تُرجِّع معه بأصواتها » .

(٢) السرد : نسج حلقات الدرع وإحكام صُنْعها . قال ابن كثير فى تفسيره (٥٢٧/٣) : « لا تُدِقّ المسمار (أى : لا تجعله رفيعاً) فيقلق فى الحلقة ، ولا تغلظه فيفصمها ، واجعله بقدر »

كذا وكذا لمَّا حدثتْ منه هفوة استغفر وخَرَّ راكعاً وأناب ، يريد سبحانه أنْ يُحنِّن قلوبهم ليعودوا إلى أحضان ربهم .

كذلك سيدنا سليمان حدثتْ منه هفوة ، فابتلاه الله وعاقبه ، فتاب واستغفر ، واقرأ : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا .. (٣٤) ﴾ [ص] والجسد يعني : أنه أصبح لا يستطيع الحركة في ذاته ﴿ ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) ﴾ [ص] فماذا كان من أمره بعد أن استغفر ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) ﴾ [ص]

لذلك يُقال : إن سيدنا سليمان ركب البساط مرة ، فداخله شيء من الزَّهْو أو الإعجاب ، فمال به البساط ، فقال له : اعتدل يا بساط ، فقال : أُمرنا أنْ نطيعك ما أطعتَ الله[1] . والمعنى : أنك ما سخَّرتنا ، إنما سخَّرنا اللهُ لك .

ومعنى (الفضل) الشيء الزائد ، وقد أعطى الله داود عليه السلام نِعَماً كثيرة لم يُعْطِها لكثير من الأنبياء ، أعطاه الاصطفاءَ

(١) لم أقف على هذا الأثر فيما وصلت إليه يدي من مراجع ، ولكن لو أخضعنا هذا الأثر لما ورد في القرآن وفي السنة لتيقنا أنه غير صحيح والله أعلم . قال تعالى : ﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ .. (٣٦) ﴾ [ص] . قال ابن عباس : مطيعة له حيث أراد . [الدر المنثور ١٨٩/٧] . وبهذا انتفى أن تكون الريح قد ردَّت عليه أمراً . أما الزهو والإعجاب الذي تملَّك سليمان حينئذ ، فيرد عليه ما رواه سلمان بن عامر الشيباني قال : بلغني أن رسول الله ﷺ قال : « أرأيتم سليمان ، وما أعطاه الله تعالى من ملكه ، فلم يكن يرفع طرفه إلى السماء تخشعاً حتى قبضه الله تعالى » [أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد] . وأخرج ابن أبي حاتم نحوه عن ابن عمر قال . قال ﷺ : « ما رفع سليمان طرفه إلى السماء تخشعاً حتى قبضه الله تعالى » [أورد هذه الآثار السيوطي في الدر المنثور ١٨٩/٧] . والله تعالى أعلى وأعلم

وأعطاه المنهج ، وزاده نعمة أخرى خاصة به ، وهي أنه ألان له الحديد ، كما قال سبحانه : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. (١١) ﴾ [سبأ]

وكلمة ﴿ مِنَّا .. (١٠) ﴾ [سبأ] دلتْ على أن النعمة ليست من ذاتك ، إنما من الله ، فتقديم الجار والمجرور هنا أفاد قصْر النعمة على المنعم سبحانه ، ومثلها الجار والمجرور في قوله تعالى في قصة سيدنا موسى عليه السلام : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي .. (٣٩) ﴾ [طه]

كأن الحق سبحانه يقول لنبيه موسى عليه السلام : لقد أخذك آل فرعون ، والتقطوك من اليم في وقت كانوا يقتلون فيه الأطفال ، وقد جئتَهم في صورة تدعو إلى الشك ، لكنهم أحبوك ، ورأوا فيك قرَّة عَيْن لهم ، وأنت وقتها أسمر اللون ، كبير الأنف ، جعد الشعر يعني : ليس فيك ما يلفت النظر ، لكن تذكَّر أنِّي ألقيتُ عليك محبة مني أنا ، فأحبوك .

والفضل من الله يأتي الناس جميعاً ، لكن الرسل لهم نِعَم متميزة، وفضل أعظم في صورة معجزات . ويُبيِّن الحق سبحانه فضله على نبيه داود بقوله : ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ]

(يا جبال) نداء ، فالله ينادي الجبال ؛ لأنها تسمع وتعي هذا النداء ﴿ أَوِّبِي .. (١٠) ﴾ [سبأ] يعني : رجِّعي معه ما يقول وما يقرأ من الزبور أو من الذكر ، وهذا دليل على أنه يفهم قول الجبال ، وأنها تفهم قوله ، وتُردِّد خلفه ، إذن : للجبال منطق ولغة أفهمها اللهُ نبيَّه داود .

وقد تناولنا مسألة تسبيح الجمادات لـمَّا تعرضنا لقوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] ورددنا قول مَنْ قال إنه تسبيح الحال لا تسبيح المقال ؛ لأن

الله قال ﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء] وما دام قد حكم سبحانه أننا لا نفقه تسبيحهم ، فهو تسبيح بالقول .

والذين قالوا بتسبيح الدلالة استعظموا أنْ يكون للجبل كلام ولغة وتفاهم ، لكن هل للجبل كلام معك أنت ؟ للجبل كلام مع ربه وخالقه الذي قال : ﴿ أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

إذن : ما دَخْلُك أنت في هذه المسألة ؟ ولماذا تنكرها ؟

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. (١٣) ﴾ [الرعد] فجمع بين تسبيح الرعد وهو جماد وتسبيح الملائكة ، وهم أعلى أجناس المخلوقات ، وأين وجه الدلالة في تسبيح الملائكة ؟ فلماذا العجب ، وقد ثبت أن لكل شيء لغةً تناسبه ، وقد رأينا لغة للهدهد ، ولغة للنمل .. إلخ .

فعظمة سيدنا داود أنه فهم لغة الجبال ، وسمع تسبيحها ، ووافق تسبيحُها تسبيحَه ، كذلك ﴿ وَالطَّيْرَ .. (١٠) ﴾ [سبأ] يعني : يا طير أوِّب مع داود ، وردِّد معه التسبيح .

﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ] وهذه معجزة أخرى لسيدنا داود ، وإذا قال الله عدة أشياء ، ثم حدث في الواقع أنه صدق في واحدة ، ألاَ أُصدِّقه في الأخرى ؟

فإذا قال سبحانه ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ] فلا بُدَّ أن نُصدِّق بذلك ، وأن نعتقد أن الحديد صار في يد سيدنا داود مثل طين الصلصال الذي يُشكِّله الأطفال كيفما أرادوا[1] ، لأن البعض يرى أن ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ] يعني علَّمه الله أن النار تذيب الحديد ،

---

(١) أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) ﴾ [سبأ] قال : ليَّن الله له الحديد ، فكان يسرده حلقاً بيده يعمل به كما يعمل بالطين من غير أن يُدخله النار ، ولا يضربه بمطرقة . [أورده السيوطي في الدر المنثور ٦٧٦/٦]

ولو أن الأمر كذلك فليس فيه معجزة ، ولا ميزة على غيره من الناس.

وللحديد ميزات عدة ، وأنواع مختلفة ، وتتوقف مدى أهميته على مدى صلابته ، ولأهميته أنزله الله من عَلٍ كما أنزل الكتب ؛ لذلك تكلم سبحانه في سورة الحديد عن الرسل مثل موسى وعيسى - عليهما السلام - وتكلم عن إنزال الكتب ، وقال عن الحديد : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد]

ومعلوم أن الإنزال يأتي من جهة العلو ، فالحق سبحانه أنزل الكتب ينطق بها الرسل لهداية المهتدي الذي يسمع ، وأنزل الحديد لردع العاصي وزَجْره ، ففي الحديد بأس شديد في وقت الحرب ، ومنافع للناس في وقت السلم .

لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحديد] ينصره في أيِّ شيء ؟ ينصره في الحديد ، وفي استخدامه وقت الحروب . وسيدنا داود - عليه السلام - آتاه الله ، وأنزل عليه هذا وهذا : الكتاب للهداية ، والحديدَ للحرب .

لذلك قال له : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ] يعني : دروعاً واسعة ، وهي عُدة الحرب يلبسها الجندي على مظانِّ الفتك ، وخاصة على الصدر ؛ لأن بداخله القلب والرئتين ، ولم يقُلْ له اعمل فأساً ولا محراثاً مثلاً ؛ لأن هذه لمنافع الأرض ، والله يريد ما يحمي المنهج ويزجر العاصي .

وكانت الدروع قبله تُصنع ملساء يتحرك عليها السيف ويتزحلق ، وربما أصاب منطقة أخرى من الجسم ، وكانت تُصنَع على قدر ما يحمي الصدر ، فعلَّمه الله أنْ تكون واسعة لتحمي أكبر قدر ممكن من الجسم . فقال ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ .. ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ]

وعلَّمه كذلك أن تكون على شكل حلَق متداخلة ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١)﴾ [سبأ] يعنى : أحكم تداخل هذه الحلَق بعضها فى بعض ، حتى إذا ما نزل عليها السيف ثبت على إحداها ولم يتحرك .

وكان درع الإمام على ـ كرَّم الله وجهه ورضى الله عنه ـ ليس لها ظهر ، فقالوا له : ألاَ تتخذ لدرعك ظهراً ؟ فقال : ثكلتنى أمى ، إنْ مكَّنْتُ عدوى من ظهرى[1] .

فتأمل أن الله تعالى لم يُعلِّم نبيه داود أولاً وسائل السلم ، إنما علَّمه أولاً وسائل الحرب وإعداد العُدة لمن نقض كلمة الله ، وحاد عن منهجه ، علَّمه أنْ يُعد له ما استطاع من قوة .

ومعنى : ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١)﴾ [سبأ] اجعلها بتقدير دقيق وإحكام فى النسج ، قال العلماء : السرد : الحلَق التى يتكون منها الدرع ، وبها خروق تُوضع فيها المسامير التى تثبت الحلَق بعضها إلى بعض .

فمعنى ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١)﴾ [سبأ] يعنى : لا تجعل الخُرْق واسعاً ، لا يثبت فيه المسمار ، ولا تجعله ضيقاً فيغلق المسمار الحلقة ، وقال آخرون : ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١)﴾ [سبأ] يعنى : اعمل منها على قدر ما تحتاج ، ولهذا المعنى قصة :

يُرْوى أن سيدنا داود ـ عليه السلام ـ كان يأكل من بيت مال

(١) أورد هذا الخبر ابن قتيبة الدينورى فى كتابه « عيون الأخبار » (١٢١/١) ، قال : كان درع على ـ رضى الله عنه ـ صدراً لا ظهر له ، فقيل له فى ذلك ، فقال : إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا يُبْق .

المؤمنين ، لأنه المتولِّي لأمرهم ، فأنزل الله ملَكاً في صورة رجل ، وجعل الناس يسألونه : كيف يعيش داود ؟ فقال . فيه كثير من خصال الخير ، إلا أنه يأكل من بيت المال ، فلما بلغتْ هذه الكلمةُ داود غضب وتألم لها وبكى ، ثم قال : يا ربِّ لم جعلْتَ فيَّ هذه المسألة ؟ فعلَّمه الله صناعة الدروع ليعيش منها[1] .

فكان يصنع الدرع بأربعة آلاف[2] يعيش منها حتى تنفد ، فيصنع درعاً آخر وهكذا ، فلما أمره الله بصناعة الدروع قال ﴿ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ .. (١١) ﴾ [سبأ] يعني : اجعلها على قَدْر حاجتك ، ولا تبالغ فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) ﴾ [سبأ] كأن الحق سبحانه يقول لنبيه داود : تذكَّر حين تعمل ما طُلِب منك أنِّي بصير بعملك مُطلع عليه ، وهذه التذكرة لنبي مأمون على التصرف ، فما بالك بنا نحن ؟

إننا نلاحظ العامل يتقن عمله طالما يراه صاحب العمل ، فإنْ غاب عنه أهمل العمل وغشَّه ، فالله يحذرنا من هذه المسألة .

هكذا ورد أمر سيدنا داود في هذا الموضع مختصراً ، وإنْ كانت له قصص في مواضع أخرى .

---

(١) ذكره الحافظ ابن عساكر في ترجمة داود عليه السلام من طريق إسحاق بن بشر عن أبي إلياس عن وهب بن منبه . قال ابن كثير في تفسيره (٥٢٧/٣) بعد إيراد الأثر « إسحاق بن بشر فيه كلام » .

(٢) قاله ابن شوذب فيما أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم . قال كان داود عليه السلام يرفع في كل يوم درعاً فيبيعها بستة آلاف درهم . ألفين له ولأهله ، وأربعة آلاف يطعم بها بني إسرائيل الخبز الحواري (أي الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض) [أورده السيوطي في الدر المنثور ٦٧٦/٦]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ(١) وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) ﴾

يعني : كما آتينا داود منّا فضلاً ، وكان من هذا الفضل أنْ أوّبَتْ معه الجبال ، وألنَّا له الحديد ، كذلك كان من فضل الله على ولده سليمان أنْ طوَّعنا له الريح ، وجعلناها تأتمر بأمره .

وسبق أنْ بينَّا أن كلمة الريح إنْ وردت مفردة ، فهي في الشر والعذاب ، وإنْ جاءت جمعاً دلَّتْ على الخير والرحمة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ [الذاريات] وقال : ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) ﴾ [الأحقاف]

وفي الرياح قال : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وبيان ذلك ، أن الريح إنْ كانت مفردة تُعَدّ ريحاً مدمرة ؛ لأنها تأتي من ناحية واحدة ، والذي يقيم الأشياء ويحفظ توازنها أن الرياح تحيط بها من كل جانب فتستقيم ، فالذي يدعم ناطحات السحاب مثلاً الهواء الذي يحيط بها ، فإنْ أفرغتَ الهواء من ناحية منها انهارتْ نحو هذه

(١) القطر : النحاس . قاله ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم فيما أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٦٧٧) . وقال عكرمة : أسال الله تعالى له القطر ثلاثة أيام يسيل كما يسيل الماء . أخرجه ابن المنذر .

الناحية ؛ لذلك كانت الريح الواحدة من جنس العذاب ، والرياح من جنس الرحمة ، ألاَ ترى الأعاصير تدمر ؛ لأنها تأتي من جهة واحدة ؟

لكن ، هل سخَّر الله تعالى لسليمان الرياح ؟ أَمْ سخَّر له الريح ؟ قالوا : لم تُسخَّر لسليمان الرياح كلها ، إنما ريحاً مخصوصة وظَّفها له وطوَّعها لأمره ، وهذه الريح أعطتْ سليمان عليه السلام عِزَّة ومنعة ، بحيث لا يَقْوَى أحد على مواجهته أو التصدى له .

لذلك كان هو ـ عليه السلام ـ النبى والملك الذى لم يحاربه أحد ، ولم يجرؤ أحد على منازعته مُلْكه ولا نبوته . كيف وفى يده من القوة ما لم يتوفر لغيره ، فسلطانه سلطان قَهْر إنْ أراد شيئاً أذعن الجميع لإرادته .

أما نبينا محمد ﷺ ، فجاءت دعوته لاستمالة القلوب ، لا لإرغام القوالب ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤)﴾ [الشعراء]

ومعنى : ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ .. (١٢)﴾ [سبأ] الغدو : السير أول النهار ، والرواح : العودة آخر النهار ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ .. (١٢)﴾ [سبأ] أى : أذبْنا له النحاس ، كما ألَنَّا لأبيه الحديد ، فهذه واحدة من الأفضال التى خصَّ الله بها سيدنا سليمان ، تذكرون قصة السد الذى بناه ذو القرنين ، فلما انتهى من بنائه قال : ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا (٩٦)﴾ [الكهف] يعنى : نحاساً مُذَاباً ، بحيث لا يستطيع أحد أنْ ينقبه .

ثم يذكر الحق سبحانه أمراً آخر مما خصَّ به سليمان عليه السلام : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ .. (١٢)﴾ [سبأ] ومعنى ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ .. (١٢)﴾ [سبأ] أن المسألة كلها تسخير من الله لنبيه سليمان ، وليس أمراً ذاتياً من عنده .

لذلك قال : ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا .. (١٢)﴾ [سبأ] أي : يميل ، أو ينحرف عنه ، أو يعصاه ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢)﴾ [سبأ] فأمْر سليمان للجن من باطن أمْر الله ، ومَنْ يَعْصِ أمره كأنه عَصَى أمرنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣)﴾

المحاريب : جمع محراب ، ويُطلق على القصر الفخم الواسع ، وعلى المكان الذي يتخذه الناس للعبادة ، ومنه قوله تعالى : ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا .. (٣٧)﴾ [آل عمران]

والتماثيل : جمع تمثال ، وهو ما يُنحت من الحجر مثلاً ، أو يُصوَّر على هيئة إنسان ، أو حيوان ، أو طائر .. إلخ . وفي مسألة التماثيل بالذات يطرأ سؤال : أيمتنُّ الله على نبيه سليمان بأن الجن تصنع له التماثيل مع ما عُرِفَ عنها من أنها رمز للإشراك بالله ، وقد حطمها الأنبياء ونهَوْا عن عبادتها من دون الله ؟

قالوا : حُطِّمت التماثيل لَمَّا اتخذها الناس للعبادة والألوهية ، وكانت من قبل لا تتخذ للعبادة ، بل للخدمة[1] ، وللدلالة على الإهانة

(١) على ذكر الخدمة هنا لابد أن أورد ما أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى (وتماثيل) قال : اتخذ سليمان عليه السلام تماثيل من نحاس فقال : يا رب ، انفخ فيها الروح فإنها أقوى على الخدمة ، فنفخ الله فيها الروح ، فكانت تخدمه ، وكان اسفيديار من بقاياهم . [ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦٧٩/٦]

والإذلال ، ألم ترَ في الآثار القديمة كرسياً أو مائدة تقوم على هيئة مجموعة من الأسود مثلاً ؟

وحتى الآن توجد قصور تقوم شُرفاتها على هيئة رجل مُنْحَنٍ يحمل الشرفة بدلاً من الخرسانة التي نصنعها نحن الآن . إذن : كانت التماثيل تدل على الإذلال والإهانة ، فلما عُبِدت أُمِرنا بتحطيمها وتحريمها .

وقوله : ﴿ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ .. (١٣) ﴾ [سبأ] الجفان : جمع جَفْنة ، وهي القصعة المعروفة ﴿ كَالْجَوَابِ .. (١٣) ﴾ [سبأ] كالحوض الواسع الكبير ، وهذا كناية عن كرمه وكثرة إطعامه الطعامَ ﴿ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ .. (١٣) ﴾ [سبأ] أي : قدور ثابتة لكبرها ، فهي لا تُرفع ولا تُحرَّك من مكان لآخر لعظَمها .

لذلك حدَّثنا في سيرة سيدنا رسول الله ﷺ عن ابن مطعم قال : كان لرسول الله ﷺ جفنة (قصعة طعام) كنت أستظل بها في اليوم القائظ في مكة ، وهذا دليل على سعتها وكبَرها وكثرة من يُطْعمون منها[١] .

ولما بنى الملك عبد العزيز آل سعود الرياض جعل بها قُدوراً للطعام ، وكان القدْر يسع الجمل يقف بداخله ، وأذكر أنني أول ما ذهبت إلى مكة دخلت المبرَّة[٢] ، فوجدت بها قدوراً واسعة ، فوقفتُ في إحداها فوسعتني .

ومعنى ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا .. (١٣) ﴾ [سبأ] أي : شُكْراً لله

---

(١) مما ورد في هذا ما أخرجه أبو داود في سننه (٣/٣٤٨) من حديث عبد الله بن بسر قال : كان للنبي ﷺ قصعة يقال لها الغراء يحملها أربعة رجال . وأخرجه أيضاً أبو الشيخ الأصبهاني (حديث ٦١٤) طبعة الدار المصرية اللبنانية .

(٢) مبرّة وزارة الأوقاف المصرية لخدمة الفقراء ، وكانتا اثنتين : واحدة في مكة ، والأخرى في المدينة المنورة ، كما كان هناك سبيل في منًى .

على نعمه ، لا لتقوتوا أنفسكم فحسب ، إذن : فربُّك يُعلِّمك : لا تعمل على قدر حاجتك فحسب ؛ لأن في مجتمعك مَنْ لا يقدر على العمل ، فاعمل أنت أيها القادر على قَدْر طاقتك ، وخُذْ لنفسك ما يكفيك ، وتصدَّق بما فاض عنك لغير القادرين . ومعلوم أن شكر النعمة يقيدها أي يديمها بل ويزيدها ، كما قال سبحانه : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

أو : المعنى ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا .. ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ] أن أقدركم على العمل حتى تعولوا مَنْ لا يقدر على العمل ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ] يعني : قليل من الناس مَنْ يقابل نعمة الله بالشكر .

لذلك رُوِي أن سيدنا عمر - رضي الله عنه - سمع في الطريق رجلاً يقول : اللهم اجعلني من القليل ، فتعجَّب عمر من دعوة الرجل ، ولم يفهم معناها ، فسأله عنها ، فقال الرجل ، سمعت الله يقول : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ] وأنا أرجو أن أكون منهم ، فقال عمر متعجباً : كل الناس أعلم منك يا عمر[1] !؟

فمن الناس مَنْ عنده مَلَكة التقاط المعاني وتوظيفها ، من ذلك ما يُحكَى من أن رجلاً كان يسير في سوق البطيخ في بغداد وهو صائم في يوم حار ، فمرَّ برجل يبيع شراباً مثل العرقسوس مثلاً ، وينادي : غفر الله لمن شرب مني ، فمال إليه وقال له : اسْقني ، فقال له صاحبه : تذكر أنك صائم ، فقال : والله لقد رجوتُ دعوته .

رجل آخر كان يسعى بين الصفا والمروة ، والمسعى زمان - أنتم لم تروْهُ - كان عبارة عن شارع به دكاكين وبيع وشراء وحركة قبل

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن إبراهيم التيمي ، وقد أورده السيوطي في الدر المنثور (٦/٦٨٢) ، والقرطبي في تفسيره (٨/٥٥٤٦) غير معزوّ .

أنْ يُطوَّر بهذا الشكل الحالى ، وكان به رجل يبيع الخيار وينادى : العشرة بريال يا خيار ، فسمعه رجل يسعى ، فقال متعجباً : إذا كان الخيار العشرة بريال ، فَبِكم يكون الأشرار ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ[1] فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

قلنا : إن من الأشياء التى سخَّرها الله لسليمان ليحقق له مُلْكاً لا ينبغى لأحد من بعده أنْ سخَّر له الريح وسخَّر له الجن يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل .. إلخ .

وتسخير الجن يعنى : أن الله سبحانه وتعالى سخَّر له أخفَّ الخَلْق حركة وأخفها وهم الجن ؛ لأن للجن طبيعة مخصوصة ؛ لذلك قال الله عنهم : ﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[2] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأعراف]

ولهم أيضاً خفَّة فى مزاولة الأعمال بأن يقصروا زمنها ، وأنْ يكثروا حملها ، والدليل على ذلك أن سليمان ـ عليه السلام ـ حينما طلب عرش بلقيس ، وكان فى سبأ قال لجلاَّسه : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النمل] فلم يتكلم أحد من الإنس ؛ لأن

---

(١) المنسأة : العصا الغليظة ، قال الفراء : هى العصا العظيمة التى تكون مع الراعى ، يقال لها المنسأة ، أخذت من نسأت البعير أى : زجرته ليزداد سيره . [لسان العرب ـ مادة : نسأ]

(٢) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المتناصرون . [القاموس القويم ٢/٩٨].

سليمان قيَّد الإتيان بزمن فوق قدرة البشر ، وقد طلب سليمان العرش بعد أنْ علم أن قوم سبأ قد خرجوا وهم فى الطريق إليه ، ويريد مَنْ يحضر عرش بلقيس قبل أن يصلوا إليه .

حتى الجن لم يتعرض لهذه المهمة جِنِّيٌّ عادى ، إنما عفريت من الجن ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ .. (٣٩) ﴾ [النمل]

وكلمة (عفريت) تعنى : أنه الماهر من الجن ، الشاطر الذى يأتى بما لا يأتى به غيره من بنى جنسه ، وهذا يدل على أن الجن منهم العفريت الماهر ومنهم (اللبخة) يعنى : مثلنا تماماً . وما زلنا فى لغتنا العامية نقول : فلان عفريت يعنى : ماهر يجيد ما لا يجيده الآخرون .

لكن ، كان فى مجلس سليمان مَنْ هو أمهر من العفريت وأكثر منه خبرة وخفَّة ، إنه الذى أُوتى قَدْراً من العلم ﴿ قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل]

فإنْ كان العفريت سيأتى بعرش بلقيس قبل أنْ يقوم سليمان من مقامه ، وربما أقام سليمان فى مقامه هذا ساعة أو عدة ساعات ، لكن الذى عنده علم من الكتاب تعهد بأنْ يأتى به ﴿ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل] وارتداد الطَّرْف لا يحتاج إلى زمن طويل ، فالطرف[1] يطرف فى الدقيقة الواحدة عدة مرات .

لذلك صوَّر الحق سبحانه سرعة الاستجابة لهذا الفعل ، فقال

---

(١) الطرف : جانب العين ، ويطلق على العين وعلى البصر . وقوله تعالى : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ .. (٤٠) ﴾ [النمل] أى : بصرك ، أى : مقدار غمضة العين وفتحها . [القاموس القويم ١/ ٤٠٠]

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠) ﴾ [النمل]

ولم يتعرَّض السياق لتفاصيل الإتيان بالعرش ، ولم يذكر حتى أن سليمان أمره بالإتيان به ، بل : ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ .. (٤٠) ﴾ [النمل] هكذا مباشرة ؛ لأن الفعل نفسه لم يستغرق وقتاً ، وكذلك جاء التعبير سريعاً مباشراً .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يعلم أن الجن كانوا يَسْتَرقون السمع قبل بعثة محمد ﷺ ، أما بعد بعثته ﷺ فقد منعهم الله من استراق السمع ، فقال سبحانه : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾ [الجن]

وهذه واحدة من ميزات رسالته ﷺ ، فقبل رسول الله صينَ سر السماء جلُّه ، وبعده ﷺ صينَ سرُّ السماء كلُّه . قبل رسول الله كان الجن يصعدون في السماء يسترقُون السمع ، ويلتقطون بعض كلام الملائكة ، ثم يوحونه إلى أوليائهم من شياطين الإنس[1] ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. (١٢١) ﴾ [الأنعام]

---

(١) عن أبي هريرة قال : إن نبي الله ﷺ قال « إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا : قال الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مُسْتَرق السمع ـ ومُسْتَرق السمع هكذا بعضه فوق بعض ، فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء » . أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٣٨٠ ، ٥٣٧ بشرح ابن حجر) ، وابن ماجه في سننه (١/ ٦٩) والترمذي مختصرا (٥/ ٣٦٢) وقال : حسن صحيح .

ثم يخبرون الناس بما علموا ، ويدَّعُون أنهم يعلمون الغيب ، وفعلاً تأتى الأحداث كما أخبروا ، فسيغشُّون الناس ويخدعونهم ويفتنونهم ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يفضح الجن فى هذه المسألة ، فقال :

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ .. (١٤)﴾ [سبأ] أى : على سليمان ، وكلمة (قَضَيْنَا) تعنى : أن الموت قضاء ، لا مندوحة عنه ، ولا يترتب على سبب من مرض أو كِبَر أو غيره ، وكما قُلْنا : والموت من دون أسباب هو السبب ، يعنى : مات لأنه يموت .

لذلك يخاطب الحق سبحانه الأحياء ، بما فيهم سيدنا رسول الله بقوله : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠)﴾ [الزمر] ويخاطبه هو ﷺ أولاً قبل أنْ يخاطب أمته بهذه الحقيقة .

ومعنى (ميِّت) أى : تؤول إلى الموت ، فنحن ونحن أحياء ميِّتون أى : سنموت ، أما الذى مات بالفعل فيسمى (مَيْت) بسكون الياء ، كما قال الشاعر :

* ومَا الميْتُ إلاَّ مَا إلَى القَبْرِ يُحْمَلُ

لذلك ، فإن العلماء لما أعطونَا صورة حسِّية للموت قالوا : مع حياتك التى بدأت انطلق معها سهم الموت إليك ، فعُمْرك بمقدار وصوله إليك ، فنحن - وإنْ كنا أحياء - ميتون .

وقوله تعالى : ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ .. (١٤)﴾ [سبأ] أى : دلَّ الجن ، فضمير الغائبين فى (دَلَّهُم) يعود على معلوم من السياق الأول فى : ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ .. (١٢)﴾ [سبأ]

قالوا فى قصة سيدنا سليمان عليه السلام أنه كان يعبد الله

ويشكره بمقدار ما أنعم عليه وما أعطاه من الملْك ، فمع كل هذه النِّعم كان يقضي الأسبوع والشهر لا يأكل إلا الخشكار[1] ، وهي (الردة) التي نعرفها ، وهي آخر درجة في الدقيق ، والتي نسميها في الفلاحين السِّن ، وهو طعام الفقراء والعبيد ، أما السادة والأغنياء فيأكلون الدقيق الفاخر أو (نمرة واحد) .

وسبحان الله ، أظهر العلم الحديث أن الفائدة في هذا السنّ الذي يأكله الفقراء ، لدرجة أنه أصبح يُوصَف كدواء ، ويجعلونه الآن على هيئة أقراص كعلاج لبعض الأمراض ، حتى أن أهل الرفاهية الذين عاشوا على الدقيق الفاخر وتغذَّوْا طوال حياتهم على الخبز السياحي والقطايف .. إلخ . يأتي الواحد منهم في أواخر حياته فيُحرِّم عليه الطبيب كل هذه الأنواع ولا يجد له دواء إلا في السنِّ وفي الردة التي ما ذاقها طوال حياته ، وكأنها معادلة لا بُدَّ أنْ تتم بين الأغنياء والفقراء .

وهذه البحوث التي أظهرت لنا أهمية (الردة) تلفتنا وتُفهمنا معنى قول الله سبحانه وتعالى وقسمه : ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ۝١٢﴾ [الرحمن]

كذلك كان سيدنا سليمان يعبد الله واقفاً ، لا على هيئة مريحة ، فكان يشق على نفسه شكراً لله ، ويقف عابداً لله حتى يتعب ، فيراوح بين قدميه ، ثم يستعين بالعصا يتكىء عليها من شدة تعبه .

---

(١) وردت هذه الكلمة في لسان العرب (الخُشْار والخُشَارة) يقال : الخشارة والخشار من الشعير ما لا لُبَّ له . (يقصد الردة أي القشرة) والخشار أيضاً : الرديء من كل شيء [لسان العرب ـ مادة : خشر]

وقد قضى الله عليه الموت ، وهو على هذه الهيئة ، فلم يكتشف الجن موته ، وظلوا يعملون بين يديه ويجتهدون خوفاً منه عليه السلام[1] .

وأراد الحق سبحانه أن يُنهى بموت سليمان مسألة شغلتْ الجن والإنس ، هى قضية علم الجن للغيب ، أراد سبحانه أن يفضح الجن ، وأنْ يُظهر عجزهم عن علم الغيب ، فالغيب لا يعلمه إلا الله .

مات سليمان واقفاً متكئاً على عصاه ، وظل على هذه الحالة حتى سلَّط الله على عصاه دابة الأرض ، كما قال سبحانه ﴿ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ .. (١٤) ﴾ [سبأ]

البعض يفهم أن ﴿ دَابَّةُ الأَرْضِ .. (١٤) ﴾ [سبأ] الأرض التى تقابل السماء ، لكن المراد الدابة التى تَقْرض كما نقول : قرض الفأر كذا وكذا ، وفعلها قرض يقرض قَرْضاً . مثل : ضرب يضرب ضرباً ، وهذه الدابة هى العتة التى تصيب الخشب وتأكله .

هذه الدابة أو العتة ظلتْ تنخر فى العصا حتى اختلَّ توازن سليمان عليه السلام ، فسقط على الأرض ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) ﴾ [سبأ] أى : ما مكثوا وما ظلُّوا فى العذاب المهين . ومعنى خَرَّ . سقط بلا نظام ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل]

فالخرور انهيار بلا نظام وبلا ترتيب ، وعندها فقط علم الجن

---

(١) أخرج عبد بن حميد عن قتادة : كانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون من الغيب أشياء ، وأنهم يعلمون ما فى غد ، فابتلوا بموت سليمان عليه السلام ، فمات فلبث سنة على عصاه وهم لا يشعرون بموته وهم مُسخَّرون تلك السنة ، ويعملون دائبين . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٦/٦٨٤] .

بموت سليمان ، وكذلك الإنس ، وعلموا أنهم لا يعلمون الغيب ، ولو علموا الغيب لاكتشفوا موته ، وما لبثوا في العمل ، وفي التعب والعذاب طوال هذه المدة[1] ، عندها انكشف أمرهم ، وعُلم كذبهم وادعاؤهم معرفة الغيب .

وقوله تعالى : ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾ [سبأ] يدل على أن الجن يتعب من العمل ويطرأ عليه ما يطرأ على كل حيٍّ من تعب وإجهاد .

والمنْسأة هي العصا من الفعل نَسَأ بمعنى أخَّر ، وسُمِّيَتْ العصا منسأة ؛ لأن الإنسان يزجر بها الهوام والحيوانات الضارية التي تؤذيه ويؤخرها عنه ويبعدها ويُردعها ؛ لذلك سميت منسأة .

وسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ قال في عصاه لما سأله ربه : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨)﴾ [طه]

وقد أطال موسى الحديث مع الله ؛ لأن الله تعالى آنسه أنْ يطيل حين قال له ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ (١٧)﴾ [طه] ولم يقل له مثلاً : ما بيدك ؟ ثم مَنِ الذي يخاطبه ربه ولا يطيل الحديث معه سبحانه وتعالى ؟ ومع ذلك تدارك موسى أمره ، فقال مُجملاً ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (١٨)﴾ [طه]

ونفهم من قوله تعالى : ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤)﴾ [سبأ]

---

(١) أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال لبث سليمان عليه السلام على عصاه حولاً بعدما مات ، ثم خر على رأس الحول ، فأخذت الإنس عصا مثل عصاه ، ودابة مثل دابته ، فأرسلوها عليها فأكلتها في سنة . (الدر المنثور ٦/٦٨٣]

أن العمل الذى كانوا فيه كان عملاً شاقاً وفيه إهانة لهم ؛ لأن الجن يظنون أن لهم خيرية على الإنس ، وأنهم جنس تسامى على البشر ، بدليل قول أبيهم من قبل : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢) ﴾ [الأعراف]

فمن الإهانة لهم ، ومن العذاب أنْ يُسخَّروا لواحد من الإنس ، ويعملون له ، ويأتمرون بأمره ، فالعمل الذى كانوا يعملونه لسليمان إنْ لم يكُنْ مُرهقاً لهم بدنياً فهو مرهق نفسياً ، ولم لا وقد سخَّرهم مَنْ هو أدنى منهم - على حسب ظنهم .

ولسائل أنْ يسأل : كيف يكون فى العذاب المهين مَنْ يخدم نبياً ويعاشره ؟ نقول : هذه الشبهة جاءتْ من كلمة الجن ، ففهمنا أن الجن كلهم كانوا مُسخَّرين لسليمان ، والحقيقة أن الجنَّ سُمِّى كذلك ؛ لأنه مستور الفعل لا نراه ، والذى سخر من الجن هم الشياطين ، كما قال سبحانه : ﴿ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) ﴾ [ص]

وقال : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَٰلِكَ .. (٨٢) ﴾ [الأنبياء] وهؤلاء هم أصحاب العذاب المهين ، أما مؤمنو الجن فلم يكونوا مُسخَّرين .

وكلمة (خَرَّ) بمعنى سقط توحى بأن كرامة الإنسان فى روحه ، وفى السر الذى وضعه الله فيه ، فهذا سليمان نبى الله بجلالة قدره ومكانته عند ربه يقول عنه ﴿ فَلَمَّا خَرَّ .. (١٤) ﴾ [سبأ] وكأنه جماد سقط على الأرض ؛ لأن الروح حينما تفارق الجسد يصير كالجماد ، كالعصا وكالحجر .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الروح ساعة تُسلَب من الجسد أول ما ينسى ينسى اسمه مهما كان عظيماً ، ويقولون : الجثة ثم إذا ما وُضعَتْ فى النعش يقولون : الخشبة .

سبحان الله ، لم يَعُد لهذه المادة أية صفة ، بل ويسارع الأهل والأحبة إلى الخلاص منها ودفنها بأسرع ما يمكن ، ولو بقيتْ عندهم لا يتحملها أحد منهم ، لما يطرأ عليها من تغيُّر ورائحة يتأذى منها أقرب الأقارب .

ثم يُحدِّثنا الحق سبحانه عن سبأ وأهلها ، فيقول تعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

ينقلنا الحق ـ تبارك وتعالى ـ من قصة سليمان عليه السلام إلى أهل سبأ ، فما العلاقة بينهما ؟ المتأمل في سور القرآن وآياته يجد بينها ترابطاً وانسجاماً ، والمناسبة هنا أن سيدنا سليمان كانت له أبرز قصة في الإيمانيات والعقائد مع بلقيس ملكة سبأ ، فبينهما إذن علاقة ، وهذه النقلة لها مناسبتها .

وقصة سليمان والهدهد وبلقيس قصة مشهورة ، وبها دلالات إيمانية عظيمة في العقيدة ، وفي بيان أن الحيوان عنده دراية بالعقيدة ، وبأسرار الله في كونه .

و (سَبَأ) عَلَم على رجل اسمه عمرو بن عامر ، ويُلقِّبونه بمزيقباء وأبوه (ماء السماء) وقد سأل كرَّة بين نسيك[1] رضي الله

---

(١) صوابه : فروة بن مُسَيْك المرادي ، له صحبة ، يعد في الكوفيين وأصله من اليمن يكنى أبا سبرة ، وفد على النبي ﷺ فاستعمله على مراد ومذحج وزبيد ، وكانت وفادته هذه عام تسع أو عشر للهجرة ، واستعمله عمر على صدقات مذحج ، ثم سكن الكوفة وكان من وجوه قومه . [باختصار من الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني ترجمة رقم ٦٩٧٥ ، وذكر له سؤاله رسولَ الله ﷺ عن سبأ] .

عنه سيدنا رسول الله عن سبأ فقال : (كذا وكذا ....) وكان له عشرة أولاد هم : أزد ، وكِنْدة ، ومَذْحج ، وأشعريون ، وأنمار ، وغسان ، وعاملة ، ولَخْم ، وجُذَام ، وخثعم[1] .

وقد كوَّن كل واحد منهم قبيلة كبيرة . ستة من هؤلاء ذهبوا إلى اليمن ، وأربعة ذهبوا إلى الشام ، الذين ذهبوا إلى اليمن عاشوا فى خيرها الوفير ، فيُروى أن بلقيس لما رأتْ ماء المطر يسيح فى الوديان وتتشرّبه الأرض ، فلا يستفيدون به ، فكَّرت فى بناء سد بين جبلين يحجز ماء المطر ، وجعلت به عيوناً كالتى عندنا فى القناطر الخيرية مثلاً ، تفتح عند الحاجة وتعطى الماء بقدر ؛ لذلك زاد الخير والنماء في اليمن ، حتى سُمِّيت اليمن الخصيب واليمن السعيد .

إلا أن عرافة عندهم أو امرأة حكيمة ذات رأى قالت لسبأ هذا : إن السد سيخرب ويُغرق ماؤه اليمن فاخرج منها ، وفعلاً خرج سبأ إلى الحجاز والشام ، حيث ذهب الغساسنة إلى الشام ، والمناذرة إلى العراق ، وأنمار إلى المدينة ، وأزد إلى عمان فى الأردن .

واسم سبأ بعد أنْ كان علَماً على شخص تعدَّى إلى أنْ صار اسماً لقبيلة ، ثم اسماً للمكان الذى يسكنونه .

وقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [سبأ] أى : المكان الذى يسكنونه ، والمكان الذى يعيش فيه الإنسان يُسمَّى (سكن) أو (بيت) أو (منزل) ، ولكل منها معنى . والسكن هو المكان الذى يتخذه الإنسان ليسكن إليه وليطمئن فيه ، ويرتاح من حركة الحياة والعمل ، والإنسان لا يسكن إلا فى مكان تتوفر فيه

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٣٢٢٢) ، وأبو داود فى سننه مختصراً (٣٩٨٨) كتاب الحروف والقراءات من حديث فروة بن مسيك رضى الله عنه .

مُقوِّمات الحياة والأمن .

لذلك فإن سيدنا إبراهيم عليه السلام لما وضع زوجته وولده عند البيت دعا ربه : ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم]

فقد كان هذا المكان جَدْباً لا زرع فيه ولا ماء ، ولا مُقوِّم من مقومات الحياة إلا الهواء ومعنى ﴿أَسْكَنتُ .. (٣٧)﴾ [إبراهيم] أى : وطَّنْتهم فى هذا المكان .

أما المنزل فهو المكان تنزل فيه مرة أو عدة مرات ، ثم ترحل عنه لا تقيم فيه إقامة دائمة ، فهو كالاستراحات التى تُجعل للطوارىء ، ولا يقيم فيها أهلها إلا عدة أيام فى السنة كلها .

ومن ذلك ما رُوِى أن سيدنا رسول الله ﷺ لما نزل ببدر سأله الصحابى الجليل الحباب بن المنذر[1] : يا رسول الله ، أهذا منزل أنزلكه الله ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : « بل هو الرأى والحرب والمكيدة » قال : إذن لا أراه لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نُغَوِّر (نفسد) ما وراءه من القُلُب ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله ﷺ : « لقد أشرت بالرأى »[2] .

---

(١) هو : الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى الخزرجى ، شهد بدراً ، وكان يكنى أبا عمر. قال ابن سعد ، مات فى خلافة عمر وقد زاد على الخمسين . [الإصابة لابن حجر ترجمة رقم ١٥٤٧] وذكر له أبياتاً من الشعر .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٢٥٩ ، ٢٦٠) وعزاه لابن إسحاق أنه حُدِّث عن رجال من بنى سلمة

إذن : السكن فيه دوام واستقرار ، أما المنزل فهو استراحة ، إنْ شئتَ نزلتَ به ، وإنْ شئتَ رحلتَ عنه .

أما البيت فيُلاحظ فيه البيتوتة ، والإنسان لا ينام نوماً مريحاً إلا في مكان يأمن فيه على نفسه وعلى ماله ، فإن الخائف وكذلك الجوعان لا ينام .

ومن السكن قوله تعالى في بني إسرائيل : ﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) ﴾[الإسراء]

أخذ أحد المستشرقين هذه الآية ، وجعلها دليلاً على أن الأرض كلها مُباحة لليهود ، كيف وهم في الأرض ، وأنت حين تريد هذا الأمر تقول : اسكن القاهرة ، اسكن طنطا مثلاً ، فتعين لي مكاناً ، لكن ﴿ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء] لها معنى آخر ، هو التقطيع الذي قال الله عنه : ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

يعني : ليس لهم وطن مخصوص ، وسوف يتساحون في الدنيا كلها ، ولن يتمكن أحد من ضربهم والقضاء عليهم ، وهم على هذه الحالة من التقطيع ، حتى يأتي أمر الله ، ويجمعهم في مكان واحد ، وعندها سيسهل القضاء عليهم .

ومعنى كلمة ﴿ آيَةٌ .. (١٥) ﴾ [سبأ] نقول : فلان آية في الكرم ، وفلان آية في الأدب ... إلخ ، والمراد شيء عجيب نادر الوجود ، والحق سبحانه حدثنا عن أنواع ثلاثة من الآيات : آيات كونية مثل : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ .. (٣٧) ﴾ [فصلت] ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ .. (٣٩) ﴾ [فصلت]

وآيات بمعنى معجزات وخوارق للعادة ، تأتي على أيدي الرسل

لتـؤيدهم وتثبت صـدْقهم فى البـلاغ عن الله ، كمـا فى قوله تعـالى :
﴿ اسلُكْ يدكَ فِي جيْبِك تخْرُجْ بيْضاء مِنْ غيْرِ سُوءٍ .. (٣٢) ﴾ [القصص]

ثم تُطلق الآيات على آيـات الكتاب الحـاملة لأحكام الله فى القـرآن الكريم ، وهذه كلها ـ سـواء كانت آيات كـونية ، أو معجزات ، أو آيات القرآن ـ كلـها عجـائب ، وإن كانت هذه العـجائب واضـحة فى الآيات الكونية وفى المعجزات ، فـهى أيضاً واضحة فى آيات الكتاب الحكيم ، فالقرآن عجيبة فى تنظيم حياة النـاس بدليل أن الكافر به سيُضطر إلى الأخذ بأحكامه والانصياع لقوانينه ، لا على أنها دين ، ولكن على أنها قوانين حياة .

وسـبق أنْ مـثَّلْنـا لذلك بأحكـام الطلاق التى طـالمـا نقـدوها وهاجموها ، واتهـموا دين الله ـ ظلماً وجهلاً ـ بالقـسوة ، ثم بعد ذلك نراهم يلجـئـون إليه ، ولا يـجدون حـلاً لبـعـض مـشكـلاتهم إلا فى الطلاق وفى الرجـوع إلى أحكام الله ، مع أنهم غـير مـؤمنين به ، وهذا منتهى الغَلَبة لدين الله أن يرجع إليه الكافـر به ، إنها غلبـة الحق وغلبة الحجة .

وسبق أنْ قُلْنا : إن أحد المستشرقين سألنا فى سان فرانسيسكو قال : فى القرآن ﴿ هو الَّذِى أرْسل رسُوله بِالْهُدى ودِينِ الْحقِّ لِيُظْهِرهُ على الدِّينِ كُلِّهِ ولوْ كرِه الْمُشْرِكُون (٩) ﴾ [الصف]

وبعـد أربعـة عشـر قـرناً من الزمـان ما زال فى الدنيـا يهـودية ومـسيـحيـة وبوذية ... إلخ ، وهذا الكلام يدل على عـدم فَهْم لمـعنى الآيات ، فليـس المـراد ﴿ لِيُظْهِـرهُ على الدِّينِ كُلِّه .. (٩) ﴾ [الصف] أن يصـبح النـاس جـمـيـعـاً مـؤمنين ، بدليـل قـوله تعـالى ﴿ ولوْ كـرِه الْمُشْرِكُون (٩) ﴾ [الصف]

إذن : فالدين سيظهر ظهور حجة وظهور غلبة على تقنياتهم ، وسوف يطرأ عليهم من مشكلات الحياة ما لا يجدون له حلاً إلا فى شرع الله ، وهذا هو الظهور المراد فى الآية .

ثم يوضح الحق - تبارك وتعالى - ماهية الآية التى كانت لسبأ فى مسكنهم ، فيقول سبحانه : ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. (١٥) ﴾ [سبأ] وما دام الله تعالى وصف هاتين الجنتين بأنهما آية ، فلا بُدَّ أن فيهما عجائب ، وأنهما يختلفان عن الجنَان التى نعرفها .

وقد حدَّثنا العلماء عن هذه العجائب فقالوا عن هاتين الجنتين : لا تجد فيهما عقرباً ، ولا حية ، ولا ذباباً ، ولا برغوثاً ... إلخ ، فإنْ طرأ عليهما طارىء ، وفى جسمه قُمَّل فإنه يموت بمجرد أنْ يدخل إحدى هاتين الجنتين[1] ، وهذه كلها عجائب فى الجنتين .

ونلحظ هنا أن الآية مفرد والعجائب كثيرة ؛ لأن كلمة آية تُطلَق على الجمع أيضاً ، ومن ذلك قوله تعالى فى سيدنا عيسى عليه السلام . ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] ولم يقل آيتين ، قالوا : لأن الأمر العجيب الذى جمعهما واحد ، فعيسى عليه السلام وُلِد من لا ذكورة ، وأمه حملتْ وولَدتْ كذلك من لا ذكورة ، فالآيتان آية واحدة .

ومعنى : ﴿ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ .. (١٥) ﴾ [سبأ] يحتمل أنْ يكون لكل واحد منهم جنتان ، واحدة عن اليمين ، والأخرى عن الشمال ،

---

(١) أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد رضى الله عنه فى قوله - ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ .. (١٥) ﴾ [سبأ] قال : لم يكن يُرى فى قريتهم بعوضة قط ، ولا ذباب ، ولا برغوث ، ولا عقرب ، ولا حية ، وإن الركب ليأتون فى ثيابهم القمل والدواب ، فما هو إلا أن ينظروا إلى بيوتها فتموت تلك الدواب ، وإن كان الإنسان ليدخل الجنتين ، فيمسك القفَّة على رأسه ، ويخرج حين يخرج وقد امتلأت تلك القفة من أنواع الفاكهة ، ولم يتناول منها شيئاً بيده . [أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦/٦٨٧)] .

وبيته في الوسط . ويحتمل أن تكون الجنتان لأهل سبأ جميعاً ، بمعنى أنها جنان موصولة عن اليمين ، وجنان موصولة عن الشمال وَصْلاً لا يُميِّز بسور ولا حائط[1] ، مما يدل على أن الأمن كان مستتباً بينهم ، وقد شاهدنا مثل هذا في أمريكا ، حيث الحقول والمزارع ممتدة متصلة لا يفصلها إلا مجرد سلك بسيط .

وقوله سبحانه ﴿ كُلُوا من رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٥) ﴾ [سبأ] كيف نفهم ﴿ كُلُوا من رِّزْقِ رَبِّكُمْ .. (١٥) ﴾ [سبأ] والناس جميعاً يأكلون من رزق الله ؟ قالوا : الناس يأكلون من رزق الله بالأسباب ، إنما هذا رزق الله مباشرة بلا أسباب ؛ لذلك يقول تعالى في موضع آخر ﴿ كُلُوا من طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٨١) ﴾ [طه]

فليس كل الرزق طيباً للأكل ، إنما هنا ﴿ كُلُوا من رِّزْقِ رَبِّكُمْ .. (١٥) ﴾ [سبأ] أي : كله طيب ، وكله حلو ، فالفاكهة في هاتين الجنتين لا يصيبها عطب ، ولا يطرأ على ثمارها ما يطرأ على الثمار من فساد ؛ لذلك سيقول سبحانه في آخر الآية : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) ﴾ [سبأ]

ونعرف أن البساتين مؤونة الخدمة فيها قليلة ؛ لذلك ترى الفلاح حين يضيق بزراعة الأرض وأجور العمالة يلجأ إلى زراعة الحدائق والبساتين المثمرة ؛ لأنها أقلّ تكلفة ، ولا تحتاج إلى رعاية كثيرة إلا وقت الإثمار .

---

(١) ورد في الجنتين عدة أقوال ، منها :
- أن الجنتين كانتا بين جبلين باليمن . قاله قتادة .
- إحدى الجنتين عن يمين الوادي والأخرى عن شماله . قاله سفيان .
- لم يُرد جنتين اثنتين ، بل أراد من الجنتين يمنة ويسرة . قاله القشيري . أوردها القرطبي في تفسيره (٨/٥٥٥٢) وقال : أي كانت بلادهم ذات بساتين وأشجار وثمار ، تستر الناس بظلالها .

والحق سبحانه يقول في غير هذا الموضع : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة] فأثبت لهم عملاً وحرثاً ، إنما المسألة هنا في هاتين الجنتين ، فهي عطاء من الله بلا عمل وبلا أسباب ، فالله سبحانه هو الزارع ، وقد خصَّها بالجو اللطيف ، لا حرَّ ولا قَرَّ ، ولا سآمة ، ولا مخافة ، ولا زهد في نعمة من النعم لتكرارها .

إذن لا عمل لهم في حدائقهم ينتج ما يستمتعون به ، إنما عملهم أنْ يشكروا المُنعِمَ سبحانه ليزيدهم من الخيرات ، وشكْر النعمة هو حكمة العبد مع مولاه ؛ لذلك قال سبحانه عن لقمان : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ .. (١٢) ﴾ [لقمان] ما هذه الحكمة ؟ ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ .. (١٢) ﴾ [لقمان] لأن شكر النعمة يزيدها .

وقوله سبحانه : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. (١٥) ﴾ [سبأ] يعني : تعطيك طيب الأشياء بدون منغصات فيها ؛ لأن هناك أشياء تعطيك طيباً تهنأ به ، لكنها تتعبك وتُنغِّصك فيما بعد .

أما هذه البلدة فما فيها طيب تأكله هنيئاً مريئاً ؛ لأنها رزق الله بدون أسباب من العباد ، لكن حين يتدخل العباد في عطاء الله تظهر في النعم متاعب ومُنغِّصات ، وهذا ما نعاني منه الآن بسبب التدخل في المزروعات بالمواد الكيماوية والمبيدات الحشرية ، التي أفسدت علينا حياتنا ، وجاء ضررها أكثر من نفعها حتى أصبحنا نعزو كل الأمراض إلى تدخّلنا في عطاء الله ، ولو تركنا الارض تُروى بماء السماء كما كان في البداية لَذُقْنا الخير بلا مُنغِّصات ، فمن الضروري أن نتأدب مع الله في عطائه .

لذلك تجد كثيراً من المترفين والمثقفين وأهل العلم والفلاسفة

يحبون الخروج من ضوضاء المدن وتلوث هوائها ومياهها وما فيها من صخب ويخرجون إلى الريف أو البرارى ، يهربون من الآثار الضارة للحضارة الحديثة إلى الخلاء ، حيث يعيش راعى الأغنام ، حيث الطبيعة كما خلقها الله ، وحيث الفطرة السليمة التى لم يتدخل فيها البشر .

تذكرون فى الماضى ، كنا نقاوم دودة القطن مقاومة يدوية طبيعية ، فلما تقدمت العلوم جاءوا بمادة (دى دى تى) للقضاء على دودة القطن ، لكن هذه المادة السامة أماتتْ كل شيء فى الحقول ، قضَتْ على الأسماك فى الترع والمصارف ، وقضتْ على (أبى قردان) صديق الفلاح ، ولوَّثت الماء والمزروعات ... إلخ . أما دودة القطن فهى الوحيدة التى أخذت مناعة ، وأصبحت كما قلنا (كييفة) دى دى تى .

أما سبأ فكانت ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [سبأ] بكل ما فيها من طيب الماء والهواء والتربة لم يُصبْها تلوث من أىِّ نوع ، وإذا كانت البلدة نفسها طيبة ، فما بالك بما علَيها ؟

وفى الآية طلبان ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [سبأ] وفيها تحذير : إياك أنْ تغتر بالنعمة ، وتظن أنها أصبحت ملكاً لك ، وتنسى المنعم بها عليك . إياك أنْ تكون كالذى قال الله فيه ﴿ كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

إياك أن تظن أنك أصيل فى هذه المسألة ، وظلّ دائماً على ذكْر بأن المنعم هو الله ، وأن ما أنت فيه هو من عطاء الله ، ثم بعد ذلك عليك أن تشكره سبحانه ؛ لأن الشكر قيد النعم .

وفى موضع آخر ، تكلم الحق سبحانه عن شكر النعمة فقال : ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ] والحمد لله أنه سبحانه لم يقُلْ :

وقليل من عـبادى الشاكـر ، وتعلمون أن الشكور صيغة مبـالغة من الشكر ، أو الشكور هو الذى يشكر على النعمة ، ثم يشكر الله على أن ألهمه أنْ يشكر على النعمة ، فكأنه قدَّم الشكر مرتين .

ثم لم يَقْصُر النعمة على أهل سـبأ في الدنيا وحَسْب ، إنما تعدَّت نعمته عليهم إلى الآخرة ، ففي الدنيا ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ .. (١٥) ﴾ [سبأ] وفى الآخرة ﴿ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) ﴾ [سبأ] يعنى : يتجاوز عنكم إنْ حدثت منكم زَلَّة أو هفوة .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه النتيجة وردَّ فعْلهم ، فيقول :

﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ[1] وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ[2] قَلِيلٍ (١٦) ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) ﴾

قوله تعالى ﴿ فَأَعْرَضُوا .. (١٦) ﴾ [سبأ] أى : عن المأمور به ، وهو ﴿ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ .. (١٥) ﴾ [سبأ] فلم يأكلوا من رزق الله ، إنما أكلوا من سعـيهم ومهارتهم ـ على حـدِّ زعمهم ـ وهذه أول الخيبة ، ثم لم يشكروا الله على هذه الـنعم ؛ لأن النعم أترفتهم فنسوا شكرها .

وفَرْق بين ترف وأترف ، نقول : ترف فلان أى تنعَّم . لكن أترف

---

(١) العـرم : السيل الشديد أو المطر الشـديد أو السـد يعـترض مـاء الوادى ، أو أنه اسم وادٍ بعينه. [القاموس القويم ٢/١٧] .

(٢) الخمط : كل نبات فيه مرارة وحموضة تعافه النفس . والأثل : شجر طويل مستقيم الخشب كثير الأغصان أوراقـه دقيقـة وثمره حب أحمر مُرٌّ لا يؤكل . والسدر : شـجر النبق وهو شجر ذو أشواك ، له ثمر فيه حلاوة قليلة

فلان ، أى : غرَّته النعمة ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا .. ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء]

فلا بأس أنْ تتنعم ، لكن المصيبة أن تُطغيك النعمة ، وتغرّك ، وأول طغيان بالنعمة أن تنسبها إلى نفسك فتقول : بمجهودى وشطارتى كالذى قال : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص] ثم أنْ تنسى المنعم ، فلا تشكره على النعمة .

وفى موضع آخر لخَّص لنا الحق سبحانه هذه القضية فى قوله سبحانه ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]

وقال فى قوم سيدنا نوح عليه السلام : ﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الجن]

إذن : صيانة النعمة بشكرها والاعتراف بها كلها منسوبة إلى المنعم سبحانه ، وحتى نحن على مستوى البشر نقول : فلان هذا حافظ للجميل ، فنزيده ولا نبخل عليه بجميل آخر وآخر ، فما بالك بالحق سبحانه وتعالى ؟!

وكلمة الإعراض تُعطى شيئاً فوق الإهمال وفوق النسيان ؛ لأن الإعراض أنْ تتصرف عن مُحدِّثك وتعطيه جانبك كما تقول لمَنْ لا يعجبك حديثه (اعطنى عرض كتافك) .

إذن : الإعراض تَرْك متعمَّد بلا مبالاة ، أما السهو أو النسيان أو الخطأ أو عند النوم ، فهذه كلها أمور مُعْفىً عنها ، قد رفعها الله عنَّا رحمة بنا ، فربُّك عز وجل لا يعاملك إلا على اليقظة والانتباه وتعمد الفعل .

واقرأ إنْ شئتَ قول ربك : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾ [طه]

لماذا ؟ لأن الإعراض فيه شبهة عدم اعتناء بالأمر ، فالنكبة فيه أشدُّ على خلاف أنْ تكون معتنياً بالأمر ، وبعد ذلك تتهم نفسك لأىِّ سبب آخر .

ويقول تعالى أيضاً فى الإعراض : ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٥١) ﴾ [فصلت] وسوف يأتى الجزاء على قدر الإعراض ، كما بيَّن الحق سبحانه فى قوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ .. (٣٥) ﴾ [التوبة]

كما نقول : أنت ربيتَ مَنْ سيقتلك فيما بعد ، كذلك هؤلاء كنزوا الأموال ليتمتعوا بها قليلاً فى دنيا فانية ، ثم يلاقون تبعة ذلك يوم القيامة ، نار تكوى جباههم وجنوبهم وظهورهم ، حتى يتمنى الواحد منهم ـ والعياذ بالله ـ لو أنه قلَّل منها حتى يُقلل من مواضع الكىِّ .

وتأمل هذا الترتيب : جباههم وجنوبهم وظهورهم ، فسوف تجده نفس ترتيب الإعراض عن المحتاج الذى سأل صاحب المال فى الدنيا ، فأول ما يراه يشيح عنه بوجهه ، ثم يعطيه جانبه ، ثم يدير إليه ظهره ، فيأتى الجزاء من جنس العمل وبنفس تفاصيله .

فماذا كانت نتيجة هذا الإعراض ؟ يقول تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ .. (١٦) ﴾ [سبأ] أى : بعد أن انهار سدُّ العرم ، فسال ماؤه ، فأغرقهم ، ومن العجيب أن الله تعالى جعل من الماء كل شىء حى ،

لكن إذا أراده سبحانه وسيلة هلاك أهلك ، وبه أهلك اللهُ قومَ نوح ، وبه أهلك فرعونَ وجنوده ، وهذا من طلاقة قدرة الله ، حيث يوجه الشيء للحياة فيُحيي ، وللهلاك فيُهلك .

وبعد أنْ أفزعهم سيل العرم لما أرادوا الإقامة بعد ذلك أقاموا في أماكن لا ماء فيها ، فإذا أرادوا الماء جلبوه من الآبار بالقِرَب ، وكأن الماء أحدث لديهم (عقدة) .

وهذه القضية القديمة لها عندنا قصة حديثة : كنا ونحن في الأزهر نلبس (القفاطين) و (الكواكيل) ، وكان لنا زميل حالته رقيقة ، وكان لا يملك إلا (كاكولة) واحدة لبسها حتى بليت وتمزقت ، فكان يمدّ يده من وقت لآخر إلى مكان القطع ويحاول أن يداريه ، حتى صارت عادة عنده ، ثم رزقه الله بأخ له توظف واشترى له (كاكولة) جديدة ، فلما لبسها صارت يده تمتد إلى نفس الموضع ، وتحاول ستر القطع الغير موجود في الجديدة ، فقال له أحد الزملاء : ما لك ؟ فقال : القديمة رعباني .

والسيل : أن يسيل الماء على وجه الأرض بعد أنْ تشربت منه قَدْر حاجتها ، فما فاض عليها سال من مكان لآخر ، والحق سبحانه يعلمنا : قبل أنْ نبحث عن مصادر الماء لا بُدَّ أنْ نبحث عن مصارفه حتى لا يغرقنا ، واقرأ : ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى .. ﴿٤٤﴾﴾ [هود]

فالأمر الأول للأرض أنْ تبلع الماء وتتشرَّبه ، ثم يا سماء أمسكي ماءك ؛ لذلك إذا تشبَّعت الأرض بالماء نقول : الأرض (عنَّنت) يعني : امتلأت بالمياه الجوفية ، فإنْ كانت أرضاً زراعية لا تُخرج زرعاً ، وإن كانت في المدن أضرَّت بالمباني ، وفاضتْ في الشوارع وكسرت

المواسير ... إلخ ، ويعرف أهمية الصرف مَنْ يتعاملون مع الأرض .

وسيل العَرِم منسوب إلى العرم ، وله إطلاقات متعددة ، فالعرم هي الحجارة التي تُبنى بها السدود ، أو هو الجُرْذ (الفأر) الذي نقب السد[1] ، وأحدث به فجوة نفذ منها الماء ، فوسَّعها وجعلها عيناً .

وقد رأينا ما فعله الماء في تحطيم خط بارليف ، حيث هدى الله أحد مهندسينا جزاه الله خيراً إلى فكرة استخدام ضَخِّ الماء بقوة لإزالة الساتر الترابي الذي كان عقبة في طريقنا للاستيلاء على هذا الخط المنيع وتحطيمه ، وفعلاً كانت فكرة أدهشتْ العالم كله .

والعَرِم جمع مفرده عرمة مثل لَبِن ولبنة ، لكن اللبن هو الطوب (النيِّ) أو الطين ، أما العرم فهو الطوب المتحجر .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ] من صفاتهما أنهما ﴿ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ] يعني . أبدلهم الله بالجنتين السابق وصفهما بجنتين أُخْريين ، لكن ثمارهما ﴿ أُكُلٍ خَمْطٍ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ] يعني : ثمر مُرّ تعافُه النفس ، وأشجارهما ﴿ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [سبأ]

والأثل : هو شجر الطرفاء ، وهو قليل النفع لا ثمر له ، والسدر : هو شجر النبق المعروف ، وهو شجر قليل الفائدة . فكيف يُسمى هذا جنة ؟ قالوا : سماها الحق جنة على سبيل التهكم ، وإلا فليس في الجنة مثل هذا الشجر . ونلحظ أن الحق سبحانه رحيم بهم حتى في العقاب ، فلم يجعلها خاوية لا شيء فيها .

ثم يقرر الحق تبارك وتعالى أن ما نزل بهم ليس ظلماً لهم ، إنما

---

(١) قاله الزجاج وابن الأعرابي . وقال مجاهد وابن نجيح : العرم ماء أحمر أرسله الله تعالى في السد فشقَّه وهدمه . وعن ابن عباس أيضاً : العرم المطر الشديد . [تفسير القرطبي ٨/ ٥٥٥٤] .

جزاء ما فعلوا ﴿ذَلِكَ .. (١٧)﴾ [سبأ] يعني : ما سبق ذكْره من الأكل الخمط والأثل والسدر ﴿جزيناهم .. (١٧)﴾ [سبأ] أي : جزاءً لهم ﴿بما كفروا .. (١٧)﴾ [سبأ] والكفر ستْر النعمة ، وهؤلاء ستروا نعمة الله حين ظنوا أنهم يأكلون من جَهْدهم وسعيهم وملكهم ، وستروا نعمة الله حين لم يلتفتوا إلى المنعم سبحانه ولم يشكروه ، فما أطاعوا في ﴿كُلُوا من رِزْقِ ربكم .. (١٥)﴾ [سبأ] وما أطاعوا في ﴿واشْكُرُوا له .. (١٥)﴾ [سبأ]

ثم يُنزه الحق سبحانه نفسه بهذا الاستفهام التقريري : ﴿وهَلْ نُجَازِي إلاَّ الْكَفُورَ (١٧)﴾ [سبأ] وجاء بالكفور وهي صيغة مبالغة ، ولم يقل سبحانه : الكافر ، وهذا من رحمته سبحانه بعباده ، فهو سبحانه لا يجازي منهم إلاَّ الكفور أي : المُصرّ على الكفر المتمادي فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨)﴾

هذه نعمة أخرى يمتنّ الله بها على أهل سبأ ، فمعنى ﴿وجعلنا بينهم .. (١٨)﴾ [سبأ] بين أهل سبأ ﴿وبين القُرى الَّتي باركْنَا فيها .. (١٨)﴾ [سبأ] والمراد بلاد الشام التي قال الله فيها في قصة الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذي أسْرَىٰ بعَبْده لَيْلاً مّنَ الْمَسْجد الْحَرَامِ إلَى الْمَسْجد الأَقْصَا الَّذي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لنُرِيَهُ منْ آيَاتنَا إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾ [الإسراء]

والقرى جمع قرية ، وهي اسم لمكان متواضع البناء ، به مقومات الحياة الضرورية ، فإذا نزلْتَه وجدت به قِرًى يعني طعاماً وشراباً .

ونعلم أن أهل اليمن كانوا أهل تجارة بين اليمن والشام ، فجعل الله لهم في طريق تجارتهم ﴿قُرًى ظَاهِرَةً .. (١٨)﴾ [سبأ] يعني : متقاربة متواصلة ، كانت بمثابة استراحات في الطريق مثل (الرست) وذلك لبُعْد المسافة بين اليمن والشام في رحلَتَي الشتاء والصيف ، فأراد الحق سبحانه أنْ يُيسِّر لهم تلك الرحلات ، وأنْ يقطعوها بلا مشقة .

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ .. (١٨)﴾ [سبأ] يعني : جعلنا سيرهم على مسافات متقاربة ، فالقرى الظاهرة لهم في سيرهم والقريبة منهم بحيث يمرون بها ويرونَها على طريقهم بلا مشقة ، قرى مُوزَّعة على مسافات الطريق ، بحيث كلما ساروا مسافة وجدوا قرية على سابلة الطريق .

وهذا يعني أنهم سيأمنون ، لا يخيفهم شيء ، وأنهم لا يحتاجون لحَمْل زاد ، فالقرى التي يمرون بها تكفيهم مؤنة الطريق ، ويجدون بها حاجتهم ، وهذا أيضاً يعني أنهم لن يحتاجوا إلى دواب كثيرة للحمل .

والسير أي في الصباح ويقال كذلك للغدوة والروحة ، ثم يُؤنسهم الحق سبحانه بهذا الأمر ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨)﴾ [سبأ] بحيث يسير في الغدوة إلى مكان يقيل فيه ، ويسير في الرواح إلى مكان يبيت فيه يعني : محطة للقيلولة ومحطة للبيتوتة . وهذا السير في ظل أمن وأمان ضَمنه لهم الحق سبحانه ، فلا يروعهم شيء لا من الناس ، ولا من الوحوش .

وحين نقارن بين قوله تعالى هنا ﴿آمِنِينَ (١٨)﴾ [سبأ] وبين قوله تعالى عن قريش : ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤)﴾ [قريش] نجد أن الأمن يتوفر بالإطعام والأمان من الخوف ، وهنا قال

﴿آمِنِينَ ⑱﴾ [سبأ] ولم يقُل من خوف ؛ لأن معنى ﴿آمِنِينَ ⑱﴾ [سبأ] أى : الأمن التام آمنين من الخوف ، وآمنين من الجوع ؛ لأنه لم يُذكر مع ﴿آمِنِينَ ⑱﴾ [سبأ] متعلق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⑲﴾

تأمل هذا التعنت وهذا البطر لنعمة الله ، حيث لم يعجبهم أنْ قارَبَ الله لهم بين القرى ، فطلبوا ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. ⑲﴾ [سبأ] يعنى : افصل بين هذه القرى بصحارٍ شاسعة ، بحيث لا يستطيع السفر فيها إلا الأغنياء والقادرون الذين يملكون المطايا القوية القادرة على الحمل[1] .

إذن . نظرتهم فى هذه المسألة نظرة اقتصادية كلها جشع وطمع ، فهم يريدون أنْ يحرموا الفقراء وغير القادرين من السفر للتجارة معهم ، فحين تتقارب القرى وتكثر الاستراحات على طول الطريق ، فلا يكاد المسافر يتجاوز قرية إلا بدَتْ له الأخرى من بعيد ،

(١) وذلك مثل قول بنى إسرائيل عندما بطروا نعمة الله بإنزال المن والسلوى عليهم دون مجهود منهم ، فقالوا ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ .. ⑹①﴾ [البقرة] ، فكان عقابهم ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ⑹①﴾ [البقرة] .

فهذا يُسهِّل السفر على الفقراء الذين يركبون الدواب الضعيفة ، فوسائل الامتطاء تختلف حسب قدرات الناس ، فواحد على جواد ، وواحد على ناقة ، وواحد على حمار .

وقُرْب المسافات بين القرى شجَّع الفقراء على السفر لرحلة الشام ؛ لذلك طلب هؤلاء أنْ يباعد الله بين هذه القرى فهو مطلب جَشِع أناني ؛ لذلك قال تعالى بعدها : ﴿ وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ .. ⦗١٩⦘ ﴾ [سبأ] نعم ظلموا أنفسهم ؛ لأنهم حرموها من الراحة التى جعلها الله لهم ، وظلموا أنفسهم لأنهم أرادوا أنْ يحتكروا هذه التجارة ، وألاَّ يخرج إليها غيرهم من الفقراء ، أو ظلموا أنفسهم لأنهم أثبتوا لها عدم اكتمال الإيمان ؛ لأن الإيمان لا يكتمل للمؤمن حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وهؤلاء يحبون أنْ يستأثروا بالنعمة لأنفسهم ، ويحرموا منها غيرهم .

لكن ، كيف تكون المباعدة التى طلبوها فى طريق تجارتهم؟ عرفنا من علم الهندسة أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فاستقامة الطريق تُيسِّر الحركة فيه ، وتقلِّل الوقت والمجهود ، والمباعدة لا تكون إلا بتحطيم بعض هذه القرى لتبعد المسافة بينها ، أو بأنْ يلتوى الطريق ، أو يدور هنا وهناك .

فكانت نتيجة هذا الجشع والبطر ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⦗١٩⦘ ﴾ [سبأ] أى : أحدوثة يتحدث بها الناس أو (حدوتة) تُحكى ، كما لو وقع مجرم فى أيدى رجال الشرطة ، فجعلوه عبرة لغيره حتى تحاكَى الناس به ، كذلك أهل سبأ جعلهم الله عبرة لغيرهم حتى صارت سيرتهم مثلاً يُضرب ، يقولون فى المثل العربى الدال على التفرُّق : تفرقوا أيدى سبأ ، يعنى : تفرقوا بعد اجتماع كما تفرَّق أهل سبأ .

ومعنى ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⦗١٩⦘ ﴾ [سبأ] أي : التمزيق والتفريق بكل أنواعه وطرقه ، بحيث يتناول التمزيق كل الأجزاء مهما صغرت ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ .. ⦗١٩⦘ ﴾ [سبأ] يعني : فيها عبر وعظات يستفيد منها العاقل في حياته .

﴿ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ⦗١٩⦘ ﴾ [سبأ] صبار وشكور من صيغ المبالغة ، صبَّار مبالغة من الصبر ؛ لأن هؤلاء ظلموا الفقراء واضطهدوهم ، وأرادوا أنْ يقطعوا عليهم سبيل النعمة ، وأن يستأثروا به لأنفسهم وقد تكرر منهم ذلك ؛ لذلك لم يقل لكل صابر ؛ لأنهم تحملوا من الأذى ما يحتاج إلى صبر كثير .

وسبق أنْ قُلْنا : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم لضَنَّ عليه بالظلم ، ويكفي المظلوم أن الله تعالى سيكون في جانبه يوم القيامة .

ومن الغباء أن الظالم حين يتنبه إلى ظلمه وتهدأ شِرَّته وعصبيته يريد أنْ يُكفِّر عن ظلمه ، فيسعى في أبواب الخير ، ويبني مسجداً مثلاً أو مدرسة ... إلخ يظن أن له ثوابها ، والحقيقة أن الثواب لمن ظلمهم وأخذ أموالهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ⦗٤٧⦘ ﴾ [الأنبياء]

وقال أيضاً ﴿ شَكُورٍ ⦗١٩⦘ ﴾ [سبأ] يعني : كثير الشكر لله أنْ أقْدره على أن يصبر ؛ لذلك قالوا : ما صبرت وإنما صبَّرتاك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ⦗٢٠⦘ ﴾

معنى ﴿ وَلَقَدْ .. (٢٠) ﴾ [سبأ] توكيد باللام مرة وبقد أخرى ﴿ صَدَّقَ .. (٢٠) ﴾ [سبأ] حقق وأكد ﴿ عَلَيْهِمْ .. (٢٠) ﴾ [سبأ] على أهل سبأ وأمثالهم ممَّن اتبعوه ﴿ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ .. (٢٠) ﴾ [سبأ] ما ظَنُّ إبليس ؟ ظنُّه أن شهوات البشر ستُمكِّنه من إغوائهم ، ونحن نعلم قصته لمَّا أمره الله بالسجود لآدم فأبَى وقال مهدداً : ﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] وقال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص] وكان لا يزال فيه بقية من حياء ، فقال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ [الحجر]

فظنُّ إبليس أنه قال : لقد أغويتُ أباهم وقدرْتُ عليه حين أغويته ، فأكل من الشجرة مع أنه كان أول الخَلْق وأقواهم ، وقد كلَّفه الله مباشرة وكلَّفه بشيء واحد ، وهو أنْ يأكل من كل ثمار الجنة ، عدا هذه الشجرة ، ومع ذلك قدرْتُ عليه . إذن : فأنا أقدر على ذريته ؛ لأنهم أقلُّ منه قوةً ، وقد كلَّفهم الله تكليفاً غير مباشر ، وكلَّفهم بتكاليف متعددة ، فأنا أقدر عليهم من قدرتي على أبيهم .

وهذا الظن من إبليس ليس علْماً للغيب ، إنما هو قياس قاس ذرية آدم على أبيهم ، فإذا كان آدم هو المخلوق الأول الذي خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته وكلَّفه مباشرة ولم يُكلِّفه إلا بأمر واحد ، ومع ذلك قدرْتُ عليه فأنا على ذريته أقدر ، هذا قياس لم يصل إليه إبليس ولايةً ولا كرامةً ؛ لذلك سماه ظناً .

فلما قدر إبليس على ذرية آدم وأغواهم بالفعل قال : ظني جاء في محله ؛ لأنهم بالفعل اتبعوه ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ .. (٢٠) ﴾ [سبأ] ثم يأتي هذا الاستثناء ﴿ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) ﴾ [سبأ] فجاء هذا الاستثناء مطابقاً للاستثناء الأول ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ [الحجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ ﴾

لما أغوى إبليس بنى آدم هل لهم عذر فى هذا الإغواء ؟ وهل الذنب هنا ذنب إبليس ؟ الحق سبحانه يخبر عنه وعنهم هذا الخبر فى سياق قصة سبأ : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [سبأ] ، وقد التقط إبليس هذه العبارة وجعلها حُجَّة له يوم القيامة ، فإذا قال له البشر يوم القيامة : أنت سبب ضلالنا وغوايتنا قال : ﴿ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى : لا تلومونى ولا تظلمونى ، فقد كنتم (على تشويره) منى ، وليس لى عليكم من سلطان : لا سلطان قوة أقهركم بها وأجبركم على طاعتى ، ولا سلطان حجة أقنعكم به ، والفرق بين سلطان القهر وسلطان الحجة أنك تفعل مع الأول وأنت غير راض فأنت مُكْره ، أمّا مع سلطان الحجة والمنطق فإنك تفعل ما يُطلَب منك عن رضا واقتناع .

وربنا عز وجل حذرنا من إبليس ووسوسته ونزغه ، وعلمنا أننا لن نقهره إلا بالله خصوصاً بهذه (الروشتة) التى قال الله فيها : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [فصلت]

مجرد أنْ تُذكِّره بالله يخنس ويهرب ويتراجع ، فهو يقدر عليك

وحدك ، فـإنْ لجأتَ إلى ربك خـاف وفَرَّ ؛ لأنه لا قدرةَ له ، ولا كـيد مع ذكر الله ، لذلك قـال بعض العارفين : قل هذه الكلمة بقـوة وكأنك تراه وتصرعه .

فـمـاذا نفعل إنْ جـاء لأحـدنا وهو يقـرأ القـرآن ؟ قـالوا : يقطع قراءته ، ويقول بصوت أعلى وبأسلوب مـغاير لقراءته : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . وقد حـاولنا أن نُقرِّب هذا الـمعنى لأذهان الناشـئة فقلنـا : لو أن أحد الأغنياء مـثلاً يجلس فى (الشـرفة) ليـلاً ، فرأى لصاً يحاول دخول بيتـه ، فقام من مكانه ، وقال (إحم) ماذا يصنع اللص ؟ يهرب ، فإنْ قال فى نفسه لعلـها مصادفة ، ثم عاد فى الليلة التى بعدها ، فـتنبَّه له صـاحب البيت ، وقال (إحم) عـندها يفرّ بلا عودة ، فصاحب البيت متنبه غير غافل .

كذلك ، قَوْل أعوذ بالله من الشيطان الرجيم يُفزع الشيطان ويطرده ، فإنْ عاد إليك مرة ومرة فقُلْ كلما شعرت بوسوسته ونزغاته : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، عندها سيعلم أنك (فـقسته) ، وأنه لا مدخل له إليك .

وقد عرف الشيـطان حين جادل ربه من أين يدخل على ابن آدم ، فقال : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] فهو كما ذكرنا ، لا يقعد فى خـمارة مثلاً ، إنما يقـعد فى المسجـد ، فهو يعلم أنك فى عبادة ، وكُل مُناه أنْ يُفسد عليـك عبادتك ، ألاَ تراه يُذكِّرك فى الصـلاة ما نسيتَ من مهـمات الحياة ، وعلى المؤمن أنْ يقدِّر مـوقفه بين يدى الله ، وألاّ ينشغل بأى شىء وهو فى حضرة ربه .

فالصلاة هى الصراط المـستقيم الذى سيقعـد لك الشيطانُ عليه ؛ لذلك علَّمـنا فـقـهاؤنا ـ رحـمـهم الله ورضى الله عنهـم ـ أنْ نغيظ

الشيطان ، فإذا وسوس لك في الصلاة بحيث لا تدرى ، أصليتَ ركعتين أم ثلاثاً ، فاعتبرها ركعتين وابْنِ على الأقل ، كذلك في الوضوء وأمثاله من العبادات ، لتغيظه وتُيئسه منك .

وظاهرة السهو في الصلاة في الحقيقة ظاهرة صحية في الإيمان ، فلا تُمرض نفسك بها ، وكُنْ قوىَّ الإيمان وتشجَّع على هذا العدو ، وقُلْ له : لن أعطيك الفرصة لتفسد علىَّ لقائى مع ربى ، قل هذا (واشخط شخطة إيمان) فإنك تحرقه ، وإن عاد فَعُدْ ، واعلم أن كيد الشيطان كان ضعيفاً ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (٧٦) ﴾ [النساء]

فلا قدرة له عليك ما دُمْتَ في معية الله ، وما دُمْتَ ذاكراً لله ، عندك تنبُّه إيمانى ، وتنبُّه عقدى .

وسبق أنْ حكينا قصة الإمام أبى حنيفة لما جاءه رجل يستفتيه ويقول : يا إمام ، لقد كنتُ أخفيتُ مالاً في مكان في الصحراء ، وعلَّمته بحجر ، فجاء السيل فطمسه حتى ضللتُ مكانه ، فضحك الإمام وقال للرجل بما لديه من خبرة وتمرُّس وملَكة في الفتيا : يا بنى ليس في هذا علم ، لكنى سأحتال لك ، اذهب بعد أنْ تصلى العشاء ، فتوضأ وضوءاً جديداً بنية أنْ يهديك الله إلى ضالتك وصلِّ لله ركعتين ، ثم أخبرنى ماذا حدث .

فعل الرجل ما أوصاه به الإمام ، فجاءه إبليس ليفسد عليه صلاته وقال له : إن المال في مكان كذا وكذا ، فراح فوجد المال ، ثم عاد إلى الإمام فأخبره فقال : والله لقد علمتُ أن الشيطان لا يدعك تُتم ليلتك مع ربك .

إذن : فَثِق بكلمة (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) وقُلْها بقوة

إيمـان ، أيقول الله قَـوْلة يأتي واقع الحـياة من المـؤمن به ليكذبهـا ؟ وجَرِّبها أنت بنفسك .

وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ .. (٢١) ﴾ [سبأ] ما دام أنه ليس لإبليس سـلطان على بنى آدم ، وما دام أنهم على (تشـويرة) منه ، فـلا بُدَّ أنْ إيمانـهم غيـر راسخ ، وأنهم نَسُـوا حكماً من أحكام الله ؛ لأنه سـبـحانه حـذرهم منه ووصف لهم طريقة التغلب عليه فلم يفعلوا .

فكانت غواية إبليس لهم ﴿ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ .. (٢١) ﴾ [سبأ] أى : علْم وقـوع ، وإلا فـالحق سـبـحـانه يعلم ما سيكون منهـم أزلاً ، لكن لا بُدَّ أنْ يحدث منهم الفعل لتقـوم الحجة عليهم كالمعلم الذى يرى على تلميذه علامات الفشل ، فيحذره ، فحين يدخل الامتحـان ويرسب فيه يأتى يعاتب أسـتـاذه أنه بشَّره بالرسوب فيـقول المعلم : وهل أمـسكتُ بيدك ومنعتُك من الإجـابة ، لقد حكمتُ عليك من خلال المقدمات التى رأيتها منك .

ومع ذلك كـان من المـمكن أنْ يغشَّ هذا التلمـيـذ فى الامـتحـان وينجح رغم مـا قـاله المـعلم ؛ لأن علمـه علْمٌ ناقص ، أمـا علم الحق سبحانه فعلْم تام . إذن : فعلْم الوقوع ألزم للحجة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) ﴾ [سبأ] حفيظ صيغة مبالغة من الحفظ ، فالله تعالى حفيظ على الكنوز وعلى الأرزاق وعلى العلم وعلى كل شىء ، كـما قـال سبـحـانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر] وما دام الله تعالى هو الحفيظ ، فلا أحدَ يستطيع أنْ يخل بهذه القضية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) ﴾

ينتقل الحق سبحانه إلى قضية عامة ، هي قضية هؤلاء القوم الذين يعبدون غير الله ويجادلهم ، ليُظهر لهم فساد مسلكهم وبطلان عبادتهم دون الله ، وقد ردَّ هؤلاء فقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر]

ونقول أولاً : ما هي العبادة ؟ العبادة أنْ يطيع العابدُ أمرَ معبوده ونهيه ، فإذا كان الكفار يعبدون الشمس أو القمر أو الأصنام ... إلخ بماذا أمرتهم هذه الآلهة ؟ وعن أي شيء نهتْهم ؟ ماذا أعدَّتْ هذه الآلهة لمن عبدها من الثواب ؟ وماذا أعدتْ لمن كفر بها من عقاب ؟

إذن : أنتم كاذبون في كلمة نعبدهم ، وإذا كنتم تعبدونهم ليقربوكم إلى الله زُلْفى ، فلماذا لا تتوجهون بالعبادة إلى الله مباشرة ؟ فكيف تعبدون آلهة بلا منهج ولا عمل لها فيمن عبدها ، ولا عمل لها فيمن كفر بعبادتها ؟

وهذه المخلوقات التي يعبدونها من دون الله مخلوقة لله مُسخَّرة له سبحانه مُسبِّحة ، وهي بريئة من هذا الشرك ولا ترضاه ، بل هي أعبد لله منهم ؛ لذلك نطقتْ الأحجار على لسان هذا الشاعر[1] وقالت :

---

(١) الشيخ رضي الله عنه من قصيدة في الهجرة النبوية .

عَبَدُونَا ونَحْنُ أَعْبَدُ لله ... مِنَ القَائمينَ فى الأسْحَارِ
تَخِذُوا صَمْتَنا علَيْنا دَليلاً ... فَغَدَوْنَا لهم وقُودَ النَّارِ
قَدْ تجنَّوا جَهْلاً كَمَا قَدْ ... تَجنَّوْه على ابْنِ مَريمَ والحَوارى
للْمغَالى جَزَاؤُهُ والمُغَالَى ... فيه تُنْجِيه رَحْمَةُ الغَفَّارِ

فالحق سبحانه يناقشهم فى هذه المسألة : ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ** .. (٢٢) ﴾ [سبأ] ادعوا هذه الآلهة المدَّعَاة ، لكنهم لم يدْعُوا ، لعلمهم أن آلهتهم المزعومة لن تجيب ؛ لذلك أكمل الله لهم وأظهر لهم النتيجة : لو دعوتم هذه الآلهة ، فإنهم ﴿ **لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ** .. (٢٢) ﴾ [سبأ]

فعلام إذن تعبدونهم ، وهم لا يملكون شيئاً ، ولم يصنعوا لكم معروفاً ، ولا قدَّموا لكم خدمة ﴿ **وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا** .. (٢٢) ﴾ [سبأ] أى : فى السموات والأرض ﴿ **مِن شِرْكٍ** .. (٢٢) ﴾ [سبأ] يعنى : مع الله ، أى ليس لهم مع الله شركة فى مسألة الخَلْق ﴿ **وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ** (٢٢) ﴾ [سبأ] يعني : لم يعاونوا الله حين خلق السموات والأرض ، والظهير هو المعين القوى ، ومنه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ **وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ** (٤) ﴾ [التحريم]

والظهير من الظهر ، وهو أقوى الأعضاء في الحمل ، وفى الدفع ، فالظهير : الذي يعاونك ويساندك بكل قوته .

والذين يدعون من دون الله آلهة يُحاجُّون بأشياء متعددة أولاً : الحق سبحانه وتعالى خلق الإنسان ، وجعله خليفة له في الأرض ، وخلق له مُقوِّمات حياته قبل أنْ يخلقه ، وتركه يرتع فى نعمه ولم يُكلِّفه بشيء حتى سنِّ البلوغ والنضج ويبلغ الإنسان سنَّ النضج

حين يصبح قادراً على إنجاب مثله .

وسبق أنْ مثَّلْنا ذلك بالثمرة ، فهى لا تنضج ، ولا يحلو طعمها فى مذاق الإنسان ، إلا إذا استوتْ بذرتها ، بحيث إذا زُرِعَتْ أنبتت مثلها ، وهذا من لُطْف الله بنا ، وإلا لو حلَتْ الثمرة قبل نضج بذرتها لأكلنا الثمار مرة واحدة ، وانقطع نوعها بعد ذلك .

ويشاء الخالق سبحانه أن يجعل للتكاثر النسلى فى الإنسان تكاثراً نسلياً أعظم منه فى الخيرات بما يمثل احتياطاً واسعاً يُؤمِّن حاجة الإنسان ، فحبة البطيخ الواحدة تنتج شجرة بها عدة ثمار ، بها مئات البذور ؛ لأننا نزرع بعضها ونتسلى (بقزقزة) الكثير منها .

والحق سبحانه أخذ علينا ميثاق الذرِّ ، والبشر جميعاً فى ظهر آدم عليه السلام ، وأشهدهم على أنفسهم قبل أنْ تتأتى لهم شهوات النفس المعارضة لمنهج الله ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ .. (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

وهذا العهد فطرىٌّ فى النفس الإنسانية ، وما جاءت الأديان إلا لتنفضَ عن هذه الفطرة غبار الغفلة وغبار الشهوات ؛ لذلك لم يأت الرسل لتأسيس دين ، إنما للتذكير بهذا العهد القديم : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (٢١) ﴾ [الغاشية]

لذلك ، فالإنسان منا حين تتناوبه الأحداث ، وتعزّ عليه الأسباب ، ولا يرى مُنقذاً ، ترده هذه الفطرة إلى القوة الخفية التى ستنقذه ، فتجده يقول مستنجداً ومستغيثاً : يا هوه يعنى يا هو ، وهو ضمير غيبة ، إنما أشد إعلاماً من الاسم الظاهر ، لماذا ؟ لأنك حين تقولها

لا تنصرف إلا لغائب عن عينك واحد هو الله .

لذلك قال سبحانه : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص] ولم يقُلْ : قُلْ الله أحد ؛ لأنه لا يخطر ببالك حين تقولها إلا الله خصوصاً في الشدة ، وحين تعزّ عليك الأسباب ، فلا يسعفك إلا ربك ، كما قال سبحانه : ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ .. ۝٦٧﴾ [الإسراء]

وفي الشدة والضيق لا يكذب الإنسان على نفسه ولا يخدعها ، فترى حتى الكفار عند الشدة يقولون : يا رب ، وتردُّهم الفطرة إلى الله الحق .

لكن ما دام الإيمان الفطرى بهذه القوة ، ما الذى يطمسه فى النفس الإنسانية ؟ قالوا : تطمسه الشهوات حين تتحرك فى اتجاه مخالف لمنهج الله ، فالمنهج يهدف إلى تهذيب الشهوات والغرائز والحدّ من عنفوانها ، ولا يُعَدُّ هذا تعدياً عليها ، وإلا فلماذا خلقها ؟

لا بُدَّ أن لها مهمة ، فالغريزة الجنسية مثلاً جُعلتْ لبقاء النوع ، ولم تُجعَل للشراسة والعربدة فى أعراض الآخرين ، كذلك جعل الله الغضب غريزة ولها مهمة ، فالحق أباح لك أنْ تغضب حين تُستغضب .

لذلك قالوا : مَن استُغضب ولم يغضب فهو حمار ، ومع ذلك يأمرنا ربنا بالحلم ، ويقول سبحانه : ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا .. ۝٨﴾ [المائدة] يعنى : لا يُخرجك الغضب عن حَدِّ الاعتدال ، ولا يدعوك إلى الظلم ، فالحق سبحانه لا يكبت فيك هذا

---

(١) لا يجرمنكم شنآن قوم . أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل . أى . التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم ، أى : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١٢١/١] .

الشعور ، لكن يقيده حتى لا نطغى بسببه .

وقصة سيدنا عمر فى هذا الموضوع وضعت لنا المبدأ ، فيُروى أن سيدنا عمر - رضى الله عنه - رأى قاتل أخيه زيد بن الخطاب فى المعركة ، فانصرف عنه ، فذكَّروه : هذا قاتل أخيك ، فقال : وماذا أفعل به ، وقد هداه الله للإسلام ، فكأن الإسلام بَرَّد نار الثأر فى نفسه ، والإسلام كما علمنا يجُبُّ ما قبله[1] .

كذلك الإسلام يجبُّ الغضب - فلما واجه عمر قاتل أخيه قال له : يا هذا أدرْ وجهك عنى ، فإنى لا أحبك - قالها عمر بما عنده من غريزة الغضب - فقال الرجل : أو عدم حبك لى يمنعنى حقاً من حقوقى ؟ قال : لا . قال : إنما يبكى على الحب النساء[2] ، يعنى : لا يهمنى تحب أم تكره ، المهم أن حقى محفوظ .

كذلك حب الاستطلاع غريزة ، جعلها الله فى الإنسان ليكشف بها أسراره فى الكون ، فلا تجعلها تلصُّصاً على أعراض الناس وأسرارهم .

إذن : ما جاء الدين ليكبت الغريزة أو ليقضى عليها ، إنما جاء ليعلو بها ويُهذِّبها ، ويقف بها عند حدِّ الاعتدال والمهمة التى خلقت

---

(١) عن عمرو بن العاص أنه حين جاء ليسلم قال : يا رسول الله ، إنى أبايعك على أن تغفر لى ما تقدم من ذنبى ولا أذكر وما تأخر ، فقال رسول الله ﷺ يا عمرو ، بايع فإن الإسلام يجبُ ما كان قبله ، وإن الهجرة تجبُّ ما كان قبلها . قال : فبايعته ثم انصرفت . أخرجه أحمد فى مسنده (١٩٩/٤ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

(٢) قد ورد فى هذا المعنى عدة روايات ، منها ما قاله عمر بن الخطاب لطليحة الأسدى : قتلتَ عكاشة بن محصن لا يحبك قلبى . قال طليحة : فمعاشرة جميلة يا أمير المؤمنين ، فإن الناس يتعاشرون على البغضاء . [عيون الأخبار لابن قتيبة ٩/٣] ونقل ابن قتيبة (١١/٣) أن بعض الخلفاء قال لرجل : إنى لأبغضك . قال : يا أمير المؤمنين ، إنما يجزع من فقد الحب المرأة ، ولكن عدل وإنصاف .

من أجلها ؛ لذلك قلنا : إن الإسلام يجمع للمؤمن في بعض المواقف بين الشيء ومقابله كما في قوله سبحانه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

ورحم الله الإمام علياً ـ رضي الله عنه ـ حين قال[١] :

لَئِنْ كُنْتُ مُحتَاجاً إلى الحِلْمِ إنَّني ... إلى الجَهْلِ في بَعْضِ الأحَايينِ أحْوَجُ

وَلِي فَرَسٌ للحِلْمِ بالحِلْمِ مُلْجَمٌ ... ولِي فَرَسٌ للجهْلِ بالجَهْلِ مُسْرَجُ

فَمَنْ رَامَ تَقْويمي فَإنِّي مُقَوَّمٌ ... ومَنْ رامَ تَعْويجي فَإنِّي مُعْوَجُّ

فالشدة مطلوبة ولها موضعها ، والذلة مطلوبة ولها موضعها ، إذن : الموقف الإيماني هو الذي يصنعك ، والمنهج إنما جعله الله لتستقيم به أمور الحياة ، فإذا كلَّفك الله بشيء يصادم شهوة في نفسك ، فلا تقلْ إن الشرع صادم شهوتي ، بل خُذْها من باب الكرم الواسع ، وقُل وصادم شهوات الآخرين من أجلي ، فالشرع حين قال لك : لا تسرق وأنت واحد قال للملايين : ألاَّ يسرقوا منك .

وحين تصطدم الفطرة السَّوية والتديُّن الطبيعي بشهوات النفس يبحث الإنسان عن تديُّن يُرضي شهواته ويُشبع غرائزه ، فهو يريد أنْ يكون متديناً ، وفي الوقت ذاته يريد ألاَّ تُقيِّد شهواته ، فماذا يفعل ؟ يلجأ إلى عبادة آلهة بلا منهج وبلا تكاليف ، ومن هنا عبد الناسُ غير الله ، ودَعْك ممن عبدوا الأشجار والأحجار ، وتأمل الذين عبدوا الملائكة مثلاً ، هل أمرتهم بشيء أو نهتهم عن شيء ؟

لذلك الحق سبحانه يقول : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ..

(١) أورد هذه الأبيات ابن قتيبة الدينوري في كتابه « عيون الأخبار » (٢٨٩/١) ولكن عزاها لمحمد بن وهيب وليس للإمام علي .

(٢٢)﴾ [سبأ] ولو بحثنا مسألة الشركاء بالعقل لظهر بطلانها وكذبها ، فإذا كان لله تعالى شركاء ، ومعه سبحانه آلهة أخرى ، فأين هم ؟ أدرَوْا بأن الله تعالى استبدَّ بالألوهية ، وشهد بها لنفسه ، وأعلنها صراحة من دونهم ؟ إنْ كانوا على دراية بذلك ، فلماذا تركوه سبحانه يستبد بالألوهية ؟ وإنْ كانوا لم يدروا بذلك فهم آلهة نيام ، وفي كلتا الحالتين لا يستحقون هذه الألوهية .

لذلك الحق سبحانه يمسُّ هذه القضية مساً جميلاً ، فيقول : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء] يعني : لو كان صحيحاً وجود آلهة مع الله لَذَهبوا إليه ليناقشوه ، لماذا استبدَّ بالألوهية من دونهم ، أو لَذَهبوا إليه ليتقوه ، وليتقربوا إليه .

وأرقى ما يعبد المشركون يعبدون الملائكة ، وكان عبادتهم أصبحتْ قريبة من عبادة الله ، والله يقول عن الملائكة : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [الأنبياء]

ويردُّ القرآن عليهم : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ .. (٥٧) ﴾ [الإسراء]

فهؤلاء الملائكة الذين تعبدونهم من دون الله هم أنفسهم يتقربون إلى الله ويتوسَّلون إليه ، الأقرب منهم يتوسَّل إلى الله ، ويحب أن يكون أكثر قُرْباً ، فإذا كان الأقرب هو الذي يبتغي الوسيلة والقرب ، فما بالك بالقريب ؟ وما بالك بالبعيد والأبعد ؟

إذن : أنتم أغبياء بعبادتكم الملائكة ، وهل تظنون أن خَلْقاً من خَلْق الله كالملائكة يرضى أنْ تعبدوه من دون الله ، أو يقبل أنْ يشفع لك عند الله ، هذا سَفَه في التفكير .

فالحق سبحانه وضع شروطاً للشفاعة ، فقال : ﴿ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً (١٠٩) ﴾ [طه]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ (٢٣) ﴾

قال العلماء: يُشترط للشفاعة شرط في المشفوع له أن يكون من أهل التوحيد ، وشرط في الشافع أنْ يُؤذن له بالشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. (٢٥٥) ﴾ [البقرة] فلا يقوم الشافع فيشفع مباشرة ، إنما ينتظر أنْ يُؤذَن له بها ، وهنا يضطرب المشفوع له ويفزع ، ويكون قلقاً : يا ترى أيُؤذن للشافع ؟ أم تُرَد شفاعته ؟

لذلك يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ .. (٢٣) ﴾ [سبأ] يعني . أُزيل عنها الفزع فالتضعيف في (فُزِّع) أفاد إزالة الحدث المأخوذ منه الفعل ، كما نقول (مرَّضه) يعني : أزال مرضه و (قشَّر البرتقالة) يعني : أزال قشْرتها ... إلخ .

﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ .. (٢٣) ﴾ [سبأ] أي : قال القول الحق ، وأذن بالشفاعة لمن ارتضى .

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ.. (٢٣) ﴾ [سبأ] ولم يقُلْ تُقبل الشفاعة ؛ لأن هدف الشافع أن تنفع الشفاعةُ المشفوعَ له ، فإذا ما ذهب ليشفع له قال له المشفوع عنده : أنا لا أرضى أنْ تشفع

للمشفوع له . فالذى انتفى نَفْع الشفاعة لا قبولها ، فَفَرْق بين أنْ توجد الشفاعة ، وبين أنْ تنفع الشفاعة .

وفى سورة البقرة آيتان فى الشفاعة صدرهما واحد ، لكن العَجُز مختلف ، ففى الأولى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٨) ﴾ [البقرة]

والأخرى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (١٢٣) ﴾ [البقرة]

وهاتان الآيتان من المواضع التى وقف أمامها المستشرقون ، وظنوا فيها مأخذاً على كلام الله ، فالمعنى واحد حتى اللفظ هو هو ، لكن فى الأولى قدَّم ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ .. (٤٨) ﴾ [البقرة] وفى الأخرى قدَّم ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ .. (١٢٣) ﴾ [البقرة] وفى الأولى قال ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ .. (٤٨) ﴾ [البقرة]

وهذا الاعتراض منهم نتيجة عدم الفهم عن الله ، فالآيتان تتحدثان فى الشفاعة عن نَفْسين . الأولى : النفس الشافعة . والأخرى : النفس المشفوع لها ، الشافع له موقف مع الله ، والمشفوع له ، له موقف قبل ذلك ؛ لأنه لم يأتِ بالشافع إلا لأنه لم يقدر على إنهاء المسألة بنفسه ، فالضمير يعود فى الآية الأولى على الشافع ، وفى الأخرى على المشفوع له ، كيف ؟

المعنى هنا : لا تجزى نفسٌ شافعة عن نفس مشفوع لها ، النفس الشافعة هى التى يُقبل منها الشفاعة ، والنفس المشفوع لها هى التى تنفعها الشفاعة ، إذن : الآية الأولى تخصُّ الشافع ؛ لأنه يذهب ليشفع

فلا يُقبل منه ، فيعرض أنْ يدفع هو العدل ، ويكون كفيلاً فيما على المشفوع له ، فلا يُقبل منه أيضاً .

أما الآية الأخرى فهى فى المشفوع له ؛ لأنه يعرض أن يدفع ما عليه أولاً فلا يُقبَل منه عدل ، فيبحث عمَّنْ يشفع له .

وسُمِّيت شفاعة ؛ لأن الشَّفْع يقابل الوتر ، وصاحب الحاجة الذى يطلب الشفاعة واحد ، فإذا انضم إليه الشافع ، فهما اثنان يعنى شفع .

ثم يقول سبحانه فى ختام الآية : ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سبأ] علىٌّ أنْ يُناقَش فى أى قرار يتخذه ، وكبير يعنى أكبر من الشافع ، وأكبر من المشفوع له . فالحق سبحانه قال الحقَّ ونطق به ، وهذا يعنى أنه وقف بجانب الحق ، فلم يعبأ بشافع مهما كانت منزلته ، ولا بمشفوع له مهما كانت ذلَّته ورقَّته ؛ لأنه سبحانه هو العلىُّ الكبير .

وبعد ذلك يعود الحق سبحانه إلى مناقشة المسألة مناقشة عقلية ، فيقول :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

أى : قُلْ لهم يا محمد : مَنْ يرزقكم من السموات والأرض ؟ لكن إذا كان محمد هو المستفهم منهم ، فمَنْ يجيب ؟ بالطبع هم لن يجيبوا ؛ لذلك أجاب الله (قل الله) فهذه حقيقة لا يستطيعون مجابهتها ، ولو اعترفوا بها لَقُلْنا لهم إذن : لماذا لم تؤمنوا بالله وهو رازقكم ؟

أيليق بكم أنْ تكفروا به وهو الرازق ، وتؤمنوا بآلهة أخرى لا تنفعكم ولا تضركم ؟ فاعترافهم بهذه الحقيقة يلزمهم الحجة ، ويقيم عليهم الدليل على سَفَه تفكيرهم ، وكأن الحق سبحانه أراد أنْ يُعفيهم من هذا الحرج ، فأجاب بدلاً منهم .

والحق سبحانه يسألهم هذا السؤال ؛ لأن الإجابة لن تكون إلا على وَفْق مراده سبحانه وتعالى ، كما لو اشتريتَ مثلاً (بدلة) لشخص ما وفي موقف من المواقف أنكر جميلك ، فتقول له : مَن الذي اشترى لك هذه (البدلة) ؟ أنت لا تسأل هذا السؤال إلا وأنت واثق أن الإجابة ستكون في صالحك ، وأنه لا يستطيع الإنكار ، فلو أنكر ستقول له : تعال إلى التاجر الذي اشتريتها منه لنرى مَن الذي اشتراها ، فأنت إذن تملك إقامة الدليل عليه إنْ أنكر .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ]

الهدى : هو الدلالة على الخير والطريق إليه ، والضلال : أنْ تضلَّ عن الخير والدلالة إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى]

والهدى والضلال من المتناقضات في الدين ، والمتناقضان لا يجتمعان أبداً ، فلا بُدَّ أنْ يكون واحد على هدى والآخر على ضلال . كثيرون لا يفهمون الفرق بين الضد والنقيض ، الضد شيء يضادّ شيئاً ، لكن لا ينفيه ، كما تقول مثلاً : الشيء الفلاني أحمر أم أخضر ؟ فيقول لك : لا أحمر ولا أخضر إنما أبيض ، إذن : الضِّدان لا يجتمعان وقد يرتفعان معاً ، لا هذا ولا هذا ، بل شيء آخر . أما النقيضان فإن ارتفع واحد ثبتَ الآخر ، كما هنا في الهدى والضلال .

فمعنى ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ] إنْ كان أحدنا على الهدى فلا بُدَّ أنْ يكون الآخر في الضلال ، ولا ثالث لهما ، والحديث هنا عن منهج خير في جانب الإيمان ، ومنهج شرٍّ في جانب الكفر ، فرسول الله يقول لهم : نحن وأنتم على طرفي نقيض ، نحن نقول لا إله إلا الله وندعو إلى الخير ، وأنتم تكفرون بالله وتدعون إلى الشر ، ومع ذلك لا أحكم لي بالهدى ، ولا عليكم بالضلال ، بل أقول : أنا وأنتم على النقيض ، إنْ كان أحدنا على الهدى فالآخر في الضلال .

بالله عليكم ، هل رأيتم حِجَاجاً أرقّ من هذا الحِجَاج ؟ فرسول الله لم يحكم لنفسه وللمؤمنين معه بالهدى رغم وضوحه في جانبهم ، ولم يحكم على الكفار بالضلال رغم وضوحه في جانبهم ، ومثال ذلك ، لو حلف رجلان على شيء واحد أمام رجل أعمى أيقول لواحد : أنت صادق ، وللآخر أنت كاذب ؟ لا ، بل يقول : واحد منكما صادق ، والآخر كاذب ، فهذا حكم أوَّلي لا يُلزِم أحداً .

لكن ، حين تبحث القضية يتضح لك مَنْ على هدى ومَنْ في ضلال ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ] كلمة ﴿ لَعَلَىٰ هُدًى .. (٢٤) ﴾ [سبأ] على تفيد الاستعلاء ، كأن الهدى لا يستعلي عليك ، وإنما تستعلي أنت على الهدى وتكون فوقه ، كأنه مطية تُوصِّلك للخير المطلوب وللطريق المستقيم ، فساعةَ تقرأ (عَلَى) فاعلم أن هناك مكاناً عالياً ، وهناك ما هو دون هذا .

وتأمل مثلاً قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد] فالمغفرة تعلو الظلم ؛ لأن الظلم يقتضي أنْ تُعاقب ، فتأتي المغفرة فتعلو عليه وتمحو أثره ، وبعض المفسرين يرى أن

(على) هنا بمعنى (مع) أى مع ظلمهم[1] ، والمعية لا تستقيم هنا ؛ لأنها تسوِّى بين الظلم والمغفرة وتجعلهما سواء ، فكيف تتغلب المغفرة على الظلم بهذا المعنى ؟ إذن : لا بُدَّ أن تكون المغفرة على الظلم ، لا مع الظلم .

كذلك فى قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم] فقال ﴿عَلَى الْكِبَرِ .. (٣٩)﴾ [إبراهيم] لأن الكِبَر كان يمنعه أنْ ينجب ، فالحق سبحانه خرق له هذه القاعدة ، وأعطاه إسماعيل وإسحاق على كِبَره[2] ، وقلنا : إن الكِبَر هو أقوى الأحداث التى يتعرَّض لها الإنسان ؛ لذلك قال سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨)﴾ [مريم]

والعُتُو يعنى : الجبروت والقوة ، أما الكِبَر فضعْف وهُزَال وعدم قدرة على أبسط الأشياء مهما قاومه بالغذاء وبالفيتامينات ، فلا شىء يَقْوى عليه أو يمنعه ؛ لذلك إذا تعددتْ الداءات فى الجسم فلا مرجع لها إلا الكِبَر ، والإنسان بعد سنِّ السبعين والثمانين يشتكى كل شىء فى جسمه ؛ لذلك يسمونها أمراض الشيخوخة . يعنى : لا سببَ لها إلا كِبَر السن .

إذن : نقول ﴿لَعَلَىٰ هُدًى .. (٢٤)﴾ [سبأ] أى : أن الهدى سيكون مطيتك التى توصلك إلى الجنة وإلى النعيم ، أما الضلال فقال ﴿فِى ضَلَالٍ .. (٢٤)﴾ [سبأ] وكأنها ظلمة تحيط بالضالِّ وهو يتخبط فيها ،

---

(١) ذكره جمال الدين بن هشام الأنصارى فى كتابه « مغنى اللبيب » (١٢٦/١) أن على تأتى حرفاً بمعنى « المصاحبة كمع نحو ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (١٧٧)﴾ [البقرة] ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦)﴾ [الرعد] » .

(٢) قال ابن عباس : كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما وُلد له إسماعيل ، وجاءه إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة [تفسير القرطبى ٣٧١٣/٥] فبين إسماعيل وإسحاق ١٢ عاماً .

لا يدرى أين يذهب ، ومعنى ﴿ مُبِينٍ (٢٤) ﴾ [سبأ] واضح بيّن .

﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾

هذا تلطف آخر وارتقاء فى حِجَاج الكفار يُظهر مدى حرص سيدنا رسول الله ﷺ على أنْ يستلَّ الضغينة من نفوس الكفار ، وتأمل : ﴿ لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا .. (٢٥) ﴾ [سبأ] فيجعل رسول الله الإجرام فى جانبه هو ولم يُسَوِّ هذه المرة بين الطرفين ، كما قال هناك ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ .. (٢٤) ﴾ [سبأ] إنما وصف فعْله بالإجرام وقال عن الكفار ﴿ وَلا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) ﴾ [سبأ] ولم يَقُلْ تجرمون .

وفى الآية دقيقة أخرى ، هى ورود (أَجْرَمْنَا) بصيغة الماضى ، كأن الإجرام حدث بالفعل ، أما هم فورد الفعل (تَعْمَلُونَ) بصيغة المضارع ؛ ليدل على أنه لم يحدث منهم بعد ، وهذا تلطف آخر ، وارتقاء فى النقاش ، وتودُّد إلى الخَصْم علَّه يرعوى ، فيفرح الله بتوبته وعودته إلى رحابه .

وهذا الأسلوب الجدلى فى الآيتين لا يتأتَّى إلا من المجادل القوى الحجة الذى لا تنزله عنها زَلَّة سابقة من خَصْمه . ومثل ذلك قولنا فى المناقشة : سلَّمنا جدلاً بكذا وكذا ، ونرضى لأنفسنا بالأقل ، لماذا ؟ لأنك تعلم أنك على الحق ، وقوة الجدل لديك تجعلك على ثقة بأن البحث فى المسألة سينتهى لصالحك .

لكن ، مع ذلك كيف يأمر الحق سبحانه نبيه ﷺ أنْ ينسب الإجرام إلى نفسه ؟ قالوا : لأن الجُرْم يختلف باختلاف المخاطب به ، كما قالوا : حسنات الأبرار سيئات المقربين .

ثم تنتهي الآيات إلى خلاصة هذه القضية في قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾

المعنى : لن نطيل معكم النقاش والحجة ؛ لأننا نتكلم بالحق وأنتم تتلاعبون بالباطل ، فالخلاصة معكم أنْ يفصل اللهُ بيننا وبينكم في محكمته الإلهية ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بيننا رَبُّنَا .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ] أي : يوم القيامة ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بيننا بالْحَقِّ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ] أي : يحكم ويقضي ، وفي بعض بلادنا حتى الآن يقولون للقاضي : الفتاح ﴿ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سبأ] أي : الذي يحكم عن علم كامل ، ولا تَخْفَى عليه خافية .

وسُمِّي الحكم فَتْحاً ؛ لأنه يفتح شيئاً عن شيء ويحدث فُرْجة بينهما ، فكأنهما كانا متشابكين ، بحيث يلتبس الحق بالباطل ، وكأنها معركة ، فيأتي الحكم فيفضُّ هذا الاشتباك ، وفَضُّ الاشتباك هذا هو الفتح ، ولا يفتح بين الحق والباطل إلا الله .

﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

الحق سبحانه يأمر نبيه ﷺ : قُلْ لهم : أروني الذين أشركتم مع الله ، وهو ﷺ يراهم بالفعل ، يرى أصنامهم التي يعبدونها من دون الله ، فما فائدة ﴿ أَرُونِي .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [سبأ] ؟ قالوا : لأنه حين يطلب منهم هذا المطلب يعلم أنهم يَسْتحون أنْ يشيروا إليها ، ولا يجرؤون على ذلك ؛ لأنهم يعلمون أنها أحجار صمَّاء ، لا تضر ولا تنفع .

ومعنى ﴿ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ .. (٢٧) ﴾ [سبأ] من الإلحاق ، وهو أنْ نأتى بشيء جديد تُلحقه بشيء ثابت ، فكأن ألوهية الله هى الألوهية الحق الثابتة ، وآلهتهم الجديدة طارئة عليها ، ليست أصيلة ، فالإيمان ثابت وأصيل وفطرىٌّ فى النفس الإنسانية ، أما هذه الآلهة فمُحْدثة طارئة باطلة ، لذلك ينفيها بقوله ﴿ كَلاَّ .. (٢٧) ﴾ [سبأ]

ثم يُضرب عن هذا الكلام السابق ليثبت الألوهية لله وحده ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ﴾ [سبأ] و (بل) تفيد الإضراب عما قبلها وإثبات الحكم لما بعدها ، فالإله الحق هو الله .

وفى موضع آخر ، يناقشهم الحق سبحانه : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢) ﴾ [الأنبياء] ونعلم من دراساتنا النحوية أن (إلاَّ) أداة استثناء ، تفيد إخراج ما بعدها من حكم ما قبلها ، وأن المستثْنَى بعدها منصوب ، كما تقول : حضر الطلاب إلا محمداً .

فلو طبَّقْنا هذه القاعدة على هذه الآية لَكَان المعنى : لو كان فيهما آلهة خارج منها الله لَفَسدتا ، لكن لو كان فيهما آلهة والله معهم لم تَفْسدا . هكذا منطق الآية إذا أُخذَتْ (إلاَّ) على أنها أداة استثناء للإخراج ، إنما (إلا) هنا ليست حرفَ استثناء ، بل هى اسم بمعنى (غير)[1] ، بدليل أن ما بعدها وهو لفظ الجلالة مرفوع وليس منصوباً على الاستثناء ، فالمعنى : لو كان فيهما آلهة غيرُ الله لفسدتا .

وقوله : ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ .. (٢٧) ﴾ [سبأ] جاء هنا أيضاً بضمير الغيبة (هُوَ) ، ومعلوم أن ضمير الغيبة لا يأتى إلا إذا سبقه مرجع ، تقول : جاءنى على فأكرمتُه ، إلا مع الله سبحانه وتعالى ، فإن هو تسبق المرجع ﴿ بَلْ هُوَ اللَّهُ .. (٢٧) ﴾ [سبأ] لماذا ؟ قلنا : لأنه ضمير لا ينصرف إلا لغائب واحد هو الموجود الأعلى سبحانه .

---

(١) ولما كانت إلا بمعنى غير أُعْرِب الاسم الذى بعدها (الله) إعراب غير فرفع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾

معنى ﴿أَرْسَلْنَاكَ .. ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ] أي : جعلناك رسولاً ﴿إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ] كلمة كافة تبين منزلة الرسول الخاتم ، فقبل بعثة سيدنا رسول الله كان الرسول يُبعث لقوم مخصوصين ، كما قال سبحانه وتعالى : ﴿وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿٤٩﴾﴾ [آل عمران]

ذلك ، لأن البشر لما تكاثروا كما قال سبحانه : ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً .. ﴿١﴾﴾ [النساء] تفرَّقوا في أنحاء الأرض هنا وهناك ، والعالم لا يزال في طفولة فطرته ، ليس فيه ارتقاءات للقاء بين هذه الجماعات ، فكانت جماعات منعزلة ، لا اتصال بينها ، ولكل بيئة منها داءاتها - فهؤلاء يُطفِّفون الكيل والميزان ، وهؤلاء يعبدون الأصنام ... إلخ فيأتي الرسول إلى قوم مخصوصين ليعالج داءهم لا علاقة له بغيرهم .

أما سيدنا رسول الله ، فكان هو الرسول الخاتم المبعوث للناس كافة ؛ لأن الله تعالى علم أزلاً أنه سيأتي على التقاء مع الدنيا كلها ، وعلى اتصال بين الجماعات التي كانت مُتفرِّقة ، وها نحن الآن نعيش عالم القرية الواحدة ، وما يحدث في أقصى بلاد الدنيا نسمعه ونراه في وقته ، وما دام العالم التقت مجتمعاته وقاراته ، فالداءات واحدة ؛ لذلك جاء رسول واحد ليعالج كل الداءات في كل المجتمعات ، هذا

معنى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. (٢٨) ﴾ [سبأ]

ومعنى أنه ﷺ خاتم الرسل أنه مشهود له ، وليس شاهداً لغيره ، فقد أخذ الله تعالى العهد على الرسل ، أنه إذا جاء محمد يشهدون له فشهدوا له جميعاً ، أما هو ﷺ فلم يشهد لأحد ؛ لأنه لم يأتِ بعده رسول .

قال العلماء في كلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] يعني : للناس جميعاً ، ففي موضع آخر يقول تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. (١٥٨) ﴾ [الأعراف]

يعني : لم تَعُدْ هناك خصوصية ، لا زمانية ولا مكانية . وحين نتأمل كلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] نجد لها مناسبة في واقع لغتنا ، استقر على ألسنة العامة : نشاهد الخياط مثلاً حين يخيط ثوباً يُعمل المقصَّ في القماش ، فيقطعه إلى لُحمة وسُدة ، لكن تخرج خيوط الثوب من خلال أطرافه كما تقول القماش (بينسِّل) فيجمع الخياط هذه الأطراف بعضها إلى بعض ، بحيث تكون أطراف القماش إلى الداخل ، وهذه العملية تسميها (كفكفة) القماش ، أو تسميها الآن (السَّرْفلة) .

ومن ذلك كلمة (كَافَّة) يعني : جَمْع شتات الناس في كل زمان ومكان ، بحيث لا يخرج منهم جنس ولا جماعة ، ولا يشذّ عن منهجه أحد .

وعندنا في الفلاحين نبات ينمو على حوافّ القنوات اسمه النجيل ، وهو غير الحشيش المعروف ، والنجيل لا يرتفع عن سطح الأرض ، وتتشابك عيدانه وجذوره بحيث يمنع هذه الحوافّ أن تنهار ، أو يسقط منها الردم فيسدّ القناة ، فكأن النجيل أدى مهمة هي كفّ

الردم ومنعه أنْ ينهار يعني : كفَّ جنساً أن يشرد عن مهمته .

وكلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] من كفَّ الشيء يكُفُّه ، فهو كافٌّ ، وزيدت تاء التأنيث للمبالغة ، كما في عالم وعلاَّم وعلاَّمة ، لذلك يقول ربنا عن نفسه سبحانه : ﴿ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٧٨) ﴾ [التوبة] فإنْ قُلْتَ : لماذا لم يَقُلْ علاَّمة ؟ نقول : لأن علْم الله تعالى لا يترقى بلاغة وقلَّة .

فمعنى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ .. (٢٨) ﴾ [سبأ] يعني : تكفُّهم وتمنعهم عن كل شر يفسد الصلاح في الأرض ، وهذه هي مهمة المنهج الذي جاء به سيدنا رسول الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا .. (٥٦) ﴾ [الأعراف]

إذن : كلمة ﴿ كَافَّةً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] إما وَصْف للناس بمعنى جميعاً ، وإما وَصْف لرسول الله بمعنى كافٌّ للناس عن الشر ، والتاء للمبالغة .

ومعنى ﴿ بَشِيراً وَنَذِيراً .. (٢٨) ﴾ [سبأ] من البشارة ، وهي أنْ تخبر بخير لم يأْتِ أوانه بعد ، ويقابلها النذارة ، وهي أن تخبر بشرٍّ لم يأْت أوانه بعد ، فميْزة البشارة أنها تخبرك بالخير القادم لك لتأخذ بأسبابه وتُقبل عليه وتجتهد في سبيله ، وأنت مشتاق إليه ، كذلك النذارة تحذرك من الخطر المقبل لتنصرف عن أسبابه وتدفعه عنك .

ومثال ذلك : المعلم الذي يُبشِّر التلميذ المجتهد بالنجاح والتفوق ، وينذر المهمل بالفشل والرسوب ، لماذا ؟ لأنه يريد من المجتهد أنْ يزيد في اجتهاده ، ومن الكسول المهمل أنْ يترك الكسل والإهمال ليتفوَّق هو الآخر .

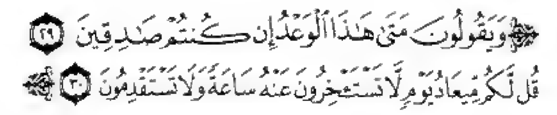
وقوله سبحانه : ﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٢٨) ﴾ [سبأ] أي :

لا يعلمون أنك الرسول الخاتم ، أو الرسول الذى جاء ليمنع الشر عن البشرية كلها ويصلح حركتها . وما دام أكثر الناس لا يعلمون ، فمعنى ذلك أن القلة هى التى تعلم ، وهذه القلة العالمة هى خميرة الخير فى الوجود ؛ لذلك نرى الناس مهما بالغوا فى الإلحاد ، وفى الخروج عن منهج الحق لا بُدَّ أن تخرج من بينهم هذه القلة التى تتمسك بالحق وتسعى إليه وتنادى به ، فهى موجودة فى كل زمان ومكان وإنْ قَلَّتْ

لذلك يقول سيدنا رسول الله ﷺ : « الخير فىَّ وفى أمتى إلى يوم القيامة »[1] .

إذن : لا بُدَّ أنْ تبقى فينا هذه القلة كنماذج وخليَّات للخير ، ولاستبقائه بين الناس مهما أظلمتْ الدنيا من حولهم .

ثم يقول الحق سبحانه :


﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

المتأمل فى كتاب الله يجد الحق - سبحانه وتعالى - لم يجعل القرآن أبواباً منفصلة ، هذا للصلاة ، وهذا للزكاة ، وهذا للربا ... إلخ إنما يخلط هذه الأحكام فى نسق رائع ، ومزيج مشوِّق ، يراوح بين الأساليب ، فلا يملُّ منه قارئه ، ولا يزهد فيه .

القرآن ليس كتابَ قانون ، يُفرد فصلاً لكل جريمة ، إنما يتناول

---

(١) قال ابن حجر العسقلانى : لا أعرفه ، ولكن معناه صحيح . ذكره القارى فى « الأسرار المرفوعة » (٤٥٧) وكذا السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٠) ، والعجلونى فى كشف الخفاء (٤٧٦/١) .

الجريمة بأسلوب فسريد ، فيذكر الجريمة ويُفظِّعها ويبين أثرها ، حتى إذا ما قرر العقوبة عليها تجد هذه العقوبة طبيعية تتقبلها النفوس ؛ لأن صاحب العقوبة يستحقها .

يقول تعالى حكاية عن الكافرين : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا الْوَعْدُ .. (٢٩) ﴾ [سبأ] والوعد لا يكون إلا بالخير ، والوعيد يكون بالشر ، وعجيب أنْ يسمى الكفار القيامة وَعْداً ، فكان ينبغي أنْ يقولوا متى هذا الوعيد ، أو : أن الله تعالى لوى ألسنتهم ليقولوا كلمة الحق ، فهو بالفعل وَعْد حق من الله ، وإنْ كان في حقهم وعيداً .

والوعد من الله فيه أشياء كثيرة ، خاتمته البعث والحساب ، ثم الجنة أو النار . لكن هل وَعْد الله لا يتحقق إلا في الآخرة ؟ قالوا : لا بل يرونَ شيئاً منه في الدنيا ، وإلا لو تركهم الله سالمين إلى أنْ يعاقبهم في الآخرة لاستشرى فسادهم ، ولَعربد غير المؤمنين دون رادع لهم .

لذلك من حكمته تعالى أن يُعجِّل لهم شيئاً من وعده ، فيرونَه في الدنيا ، كما قال تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] وفعلاً ، جاء يوم بدر وهزمهم الله ، وقُتل منهم مَنْ قُتل ، وأُسر منهم مَنْ أُسر ، فكما صدقت فيهم المقدمات ، فسوف تصدق المتواليات في الآخرة .

لذلك يخاطب الحق نبيه ﷺ بقوله : ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

فمَنْ لم يتحقق فيه وَعْد الله في الدنيا وتشاهده بعينيك ، فموعده الآخرة ، وإلا فهناك من الكفار مَنْ مات قبل بدر ، ولم يشهدوا انتصارات المسلمين وفتوحاتهم ، ولم ينلْهم شيء من عقاب الدنيا .

وقولهم : ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ .. (٢٩) ﴾ [سبأ] استبطاء للعذاب .

ثم يأمر الله تعالى نبيه أنْ يرد عليهم : ﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ [سبأ] هو يوم النصر عليهم ، كما في يوم بدر ، حيث أذاقهم الله الذلة والهوان والموت ، وقضى على جبروتهم ، أو هو يوم القيامة .

والذي ضرب لكم هذا الميعاد هو القادر على إنفاذه ، وليست هناك قوة تمنعه سبحانه أنْ يفي بما وعد ، أو حتى يُؤخّره لحظة واحدة ، وهو سبحانه العليم بأن الآيات الكونية لا تشذ عما أراد سبحانه .

وسبق أنْ بيَّنا أن البشر حين يَعِدُون لا يملكون أسباب الوفاء بوعودهم ، لذلك علَّمنا ربنا - عز وجل - أنْ نحتاط لذلك ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

لأن الله يحب لعبده أن يكون صادقاً ، فحين يعلق فعْله على مشيئة الله يُعفي نفسه من الكذب وإخلاف الوعد حين عدم الوفاء خاصة ، وهو لا يملك عنصراً واحداً من عناصره ، إذن : اطرح المسألة على مَنْ يملك كل هذه العناصر ؛ لذلك نُسمِّي الوعد من الناس وَعْداً ومن الله الوعد الحق يعني : الذي لا يتخلف أبداً .

ومعنى ﴿ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) ﴾ [سبأ] أنه : ميعاد مضبوط ، وكأن الحق سبحانه يريد بذلك أنْ يستقبل الإنسانُ كلَّ المعطيات التي منحه الله ، وأنْ تظل دائماً في ذهنه لا يغفل عنها .

وجاء (يَوْمٍ) نكرة مبهمة ، والإبهام هنا هو عَيْن البيان ، كما

سبق أنْ أوضحنا ، فحين يبهم اللهُ مثلاً أجلَ الإنسان يظل دائماً متذكراً له ، ينتظره في أي وقت ، ويتوقعه في كل نفَس ، وفي كل لحظة دون أنْ يربطه بمرض أو غيره ، فالموت من دون أسباب هو السبب .

ثم يقول الحق سبحانه :[1]

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ[2] وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

قولهم ﴿ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [سبأ] يدل على لجلجتهم ، ففي موضع آخر حكى القرآن عنهم قولهم : ﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف] ومعنى هذا أن القرآن لا غُبارَ عليه ولا اعتراضَ ، الاعتراض على مَنْ نزل عليه القرآن ، كذلك من الغباء قولهم : ﴿ إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] فاعترفوا أنه جاء بالهدى .

ومثله قولهم : ﴿ لا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المنافقون]

---

(١) يريد كفار قريش . وقال ابن جريج . قائل ذلك هو أبو جهل بن هشام . ذكره القرطبي في تفسيره (٥٥٧١/٨)

(٢) قال القرطبي في تفسير الآية (٥٥٧١/٨) : « قيل : إن أهل الكتاب قالوا للمشركين صفة محمد في كتابنا فسلوه ، فلما سألوه فوافق أهل الكتاب قال المشركون لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى أنزل قبله من التوراة والإنجيل بل نكفر بالجميع وكانوا قبل ذلك يراجعون أهل الكتاب ويحتجون بقولهم ، فظهر بهذا تناقضهم وقلّة علمهم » .

صحيح ، الباطل لجلج ، يتخبط هنا وهناك فى تفكير مُشوّش ليس له سيال واحد ، وهذا التخبط يكشف ما هم عليه من الباطل ، وقلنا : إن المحقق الماهر هو الذى يصل إلى الحقيقة من خلال مناقشة المتهم مناقشة تُوقعه دون أن يدرى ، ذلك لأن المتكلم بالحق يحكي واقعاً على هيئة واحدة ، فمهما أعدْتَ عليه السؤال يُجب إجابة واحدة .

أمّا الكاذب فلا يحكي واقعاً ، إنما يحكي كذباً واختلاقاً لا بُدّ أن ينتهي بتضارب فى أقواله ، كالكذاب الذى جاء يحكي للناس يقول : رجعت من (البندر) ليلة العيد الصغير ، وكانت الدنيا (قمر ظهر).

وقديماً ، قال العربى : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذكوراً . يعنى : تذكر ما سبق أنْ قُلْته ، ذلك لأنه لا يستند إلى واقع .

ومعنى ﴿ **وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ** .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى . الكتب السابقة على القرآن كالتوراة والإنجيل .

بعد أن قالوا هذا الكلام أراد الحق سبحانه أن يُقطع الرد عليهم فقال : ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ** .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : يا محمد ﴿ **إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ** .. (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : بين يدى الله ، ينتظرون الفصل والحساب .

تعلمون أن (لَوْ) أداة شرط تحتاج إلى جواب ، هذا الجواب حُذف من سياق الآية ليدلَّ على التهويل والتفظيع . وتقديره : ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم .. لرأيتَ أمراً عظيماً ، وهذا الأسلوب تذهب فيه النفس كلَّ مذهب ، وتتصور ألوان العذاب والذلة التى يعانيها الكفار فى هذا الموقف بين يدى الله عز وجل ، فحَذْف الجواب هنا أبلغ من ذكره .

كنا نرى (زمان) الرجل الظالم أو المتجبر أو (البلطجى) الذى يجلس طوال النهار على القهوة ، والناس تخدمه ، وتقضى له حاجته اتقاء شره ، لكن ساعة يقع فى أيدى العدالة وتأخذه الشرطة ، وأنتم تعلمون ما تفعله الشرطة بالمجرمين ، ساعتها يفرح الناس فيه ويتندَّرون به : لو رأيتم ما حدث لفلان ؟ يعنى : حدث له أمر عظيم يناقض جبروته الذى كان يمارسه على الناس ويكسر شوكته .

إذن : حُذف الجواب لنأخذه نحن على المحمل المخيف ؛ لأنه لو حكى واقعاً لجاء على لون واحد وهيئة واحدة .

لذلك ؛ وقف المستشرقون معترضين على قوله تعالى فى وصف شجرة الزقوم : ﴿ طَلْعُهَا[1] كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الصافات] يقولون : نحن لم نر شجرة الزقوم ، ولم نَرَ رؤوس الشياطين ، فكيف يُشبِّه القرآن مجهولاً بمجهول ؟

نعم ، ينبغى فى التشبيه أنْ نُشبِّه المجهول بالمعلوم ، والخفى بالجلى ، لكنّ هؤلاء يحاولون تصيُّد أخطاء أو مآخذ على كتاب الله ، وهيهات لهم ذلك ، وكل اعتراضاتهم على كلام الله تأتى من عدم فَهْم للآيات وعدم وجود الملَكة العربية وعدم الإلمام بلغة القرآن وأساليب العرب ، فهذا النهج فى التشبيه نهجه العربى القديم حين قال[2] :

---

(١) الطلع : نَوْر النخلة الذى هو أصل ثمارها ويكون صغير الحجم أبيض منظماً منضوداً . [القاموس القويم (١/٤٠٥)] قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٠) : « هذا تبشيع لها وتكريه لذكرها . قال وهب بن منبه : شعور الشياطين قائمة إلى السماء ، وإنما شبهها برءوس الشياطين لأنه قد استقر فى النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر » .

(٢) هو : امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندى ، شاعر جاهلى ، أشهر شعراء العرب ، يمانى الأصل ، مولده بنجد عام ١٣٠ ق . هـ ، كان أبوه ملك أسد وغطفان ، قال الشعر وهو غلام ، جعل يُشبب ويلهو ويعاشر صعاليك العرب فأبعده أبوه إلى حضرموت وهو فى نحو العشرين من عمره ، طاف قبائل العرب بعد أن طلبه المنذر ملك العراق ، حتى ولاه قيصر الروم إمارة فلسطين ، فرحل إليها ، ولما كان بأنقرة ظهرت فى جسمه قروح ، فأقام فيها إلى أن مات عام ٨٠ ق . هـ عن ٥٠ عاماً . [الموسوعة الشعرية – المجمع الثقافى ٢٠٠٣ - CD]

أيَقْتُلني والمشْرَفيُّ مُضَاجِعي ومَسنُونة زُرْق كأنياب أغْوالِ[1]

هكذا رأى العربى القديم أن أسنَّة الرماح كأنياب الأغوال ، فهل رأى أحد الغول ؟ إذن : القرآن عربى ، وخاطب العربَ بأساليبهم ، فيكفى لتبشيع الصورة أن تحاول أنت أنْ تتخيل صورة الغول أو صورة الشيطان لتذهب نفسُك فى بشاعتها مذاهب شتَّى مخيفة مُفْزعة ، بدليل أننا إذا قلنا لرسامي الكاريكاتير فى العالم كله : ارسموا لنا صورة الشيطان ، فسوف يرسمها كل واحد منهم حَسْب رؤيته هو ، وستأتى صور مختلفة بعضها عن بعض ؛ لأن أحداً منهم لم يَرَ الشيطان ، إنما تخيَّله .

تُرَى ، لو حدد القرآن شكل شجرة الزقوم وقال لك : إنها مثل كذا أو كذا ، أيعطيك هذا التشبيه بشاعة أكثر مما أعطتْكَ رؤوس الشياطين ؟ هكذا ربَّبَ الحق سبحانه هذا المعنى .

ثم تستمر الآية فى وصف موقف هؤلاء الظالمين بين يد الله تعالى، ويا ليتها تنتهى عند الذلة والانكسار ، إنما ﴿ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : يتجادلون ويتناقشون ، يرمى كل منهم باللائمة على الآخر ، ومعنى (يرجع) من المراجعة ، فواحد يقول ، والآخر يردُّ كلامه ويُنكره ، وفى القرآن مواضع كثيرة تحكى هذه المراجعة بين الأتباع والمتبوعين ، وهنا نموذج منها :

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا (٣١) ﴾ [سبأ] يعنى : الضعفاء والمقلدين ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا (٣١) ﴾ [سبأ] وهم السادة الكبار المتبوعون ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) ﴾ [سبأ] فيكفى من عظمة القيامة أنْ يقف المستضعف

---

(١) البيت من بحر الطويل . ذكره له ابن سلام الجمحى فى « طبقات فحول الشعراء » ، وياقوت الحموى فى « معجم الأدباء » .

أمام القوى ويراجعه ويواجهه - مع أن كلاهما خائب خاسر - ذلك لأن الضعف كان فى الدنيا والاستكبار والتبعية ، أما الآن وفى ساحة الحساب فقد تساوتْ الرؤوس ، وها هم الضعفاء يقولون لأسيادهم ﴿ لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) ﴾ [سبأ]

وما دامت المسألة مراجعة ، كُلٌّ يُرجِع إلى الآخر قوله ، فلا بُدَّ أنْ يرد الذين استكبروا ، وأنْ يراجعوا الذين اسْتُضْعفوا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾

يرد الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾[سبأ] يعنى : ما منعناكم عن الهدى ، وما حُلْنا بينكم وبين الإيمان ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) ﴾ [سبأ] يعنى : بطبيعتكم ، فقد وجدتم طريقنا سهلاً ، وعبادتنا لا تكليف فيها ولا مسئولية ، ليس فيها صوم ولا صلاة ولا زكاة ، ولو فكرتم وأعملتُم عقولكم ما تبعتمونا .

وهذا هو نفسه منطق الشيطان حين يناقش أولياءه يوم القيامة ، ويقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

الفعل أصرخ يُصرخ فهو مُصرخ ، اسم فاعل للذى يصرخ ويستجير بغيره لينقذه من أمر فوق طاقته وإمكاناته ، فإنْ أنقذه

يُقال : أصرخه يعني : أزال صراخه والمفعول منه مُصْرَخ به ، والمعنى في قول الشيطان : إنني لا أستطيع أن أزيل صراخكم ، وأنتم لا تستطيعون أن تزيلوا صراخي ، فالمسألة انتهت ، ولا ينفع أحداً ولا ينقذه إلا عمله الصالح .

ثم يردُّ الذين استُضْعِفوا ويُرجِعون القول إلى الذين استكبروا مرة أخرى ، يقولون :

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ(١) لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٣٣﴾

هذا استمرار في المراجعة والحوار ، كُلٌّ يلقي بالمسئولية على الآخر ، فلما اتهموهم بالإجرام ، وأنهم انساقوا خلفهم طمعاً في تدين خفيف ، لا تكاليف فيه ، ولا منهج يقيد شهواتهم ردَّ المستضعفون ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۝٣٣﴾ [سبأ] يعني : المكر الذي ينشأ في الليل ، والمكر الذي ينشأ في النهار ، حيث قضيتم الليل والنهار تُلِحُّون علينا وتلعبون في آذاننا حتى اتبعناكم .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٨/٥٥٧٢) : « أسروا الندامة : أي أظهروها وسر من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء والإبداء . وقيل : أي : تبينت الندامة في أسرار وجوههم . وقيل : الندامة لا تظهر ، وإنما تكون في القلب ، وإنما يظهر ما يتولد عنها » .

﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا (٣٣) ﴾ [سـبـأ] يعنـى : شـركاء ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ (٣٣) ﴾[سبأ] فالندامة تعتصرهم ، ومع ذلك لا يجهـرون بها ولا يُبْدونها حتى لا يشـمت بهم الآخرون ، وفَـرْق بين أنْ يندم الإنـسـان وبـين أنْ تُلجِـئـه الـظروف ، لأنْ يعلن الندم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾[سبأ] الأغلال : القيـود ، ومعنى ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) ﴾[سبأ] تنبيه للمؤمنين الذين يسمعون هذا الكلام وهذا الجزاء : إياكم أنْ تأخذكم بهؤلاء رِقَّة على حالهم فى الآخرة ، وانظروا إلى ما فعلوه فى الدنيا من إجرام ؛ لتعلموا أن الله تعالى عادل لا يظلم الناس ، ولكن الناسَ أنفسهم يظلمون .

ومـثـال ذلك قـوله تعـالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) ﴾ [المطففين] إلى أنْ قال سبحانه : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

ذلك لأن الجريمة حين ينتهى وقـتها ، وتهـدأ آثارها ينسى الناسُ بشاعتها ، ولا يذكرون إلا بشاعة العقاب عليها ، أو ترقَّ للمجرم قلوب الذين لم يشهدوا جريمته ؛ لذلك يُذكِّرنا الحق سبحانه بعدله ، وأنَّ هذا الجزاء جزاء وفـاق ، فلا تأخذكم بالمجرمين رأفـة ، ولا ترحموهم فى هذا الموقف المخزى الذليل ، وضَـعُوا عـقوبتهم أمـام جريمـتهم يوم كذَّبوا الرسل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا[1] إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) ﴾

نلحظ في هذه الآية أنها ذكرتْ النذارة ، ولم تذكر البشارة ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحديث عن قرية استشرى فيها الفساد بحيث لم يَعُدْ لها إلا النذارة ، فهؤلاء قوم كذَّبوا الرسل ، ووقفوا من الدعوة موقفَ العداء والمكابرة . أما البشارة فتكون في عموم الدعوة ، والحديث هنا عن دعوة خاصة بهؤلاء المكذبين .

ومعنى ﴿ فِي قَرْيَةٍ (٣٤) ﴾[سبأ] أي : في أهل قرية ، والقرية اسم للمكان ، أو أن الله سبحانه جاء بالمكان وإنْ كان يريد المكين ؛ لأن المكان كجماد مُسبِّح لله ، فيفرح بالمؤمن المسبِّح فيه ، ويحزن ويضيق بالكافر الذي يقيم فيه ؛ لذلك يقول العربي القديم : فلان نبا به المكان يعني : المكان كرهه ، ولما قالوا لرجل حكيم : أدريتَ أن فلاناً باع أرضه ؟ قال : بل باعَتْه أرضه .

وقوله ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا (٣٤) ﴾[سبأ] جمع مُتْرف وترف يترف أي : تنعَّم . أما أترف فتعني أن النعمة أطغَتْه وفتنته ، فالحق سبحانه لم يمنع عبده أنْ يتمتع بنعمه ، المهم ألاَّ تُطغيه النعمة .

وقد يكون الترف والتنعُّم استدراجاً من الله للعبد ، وإملاءً له ، ومَدّاً له في النعمة حتى يَطْغى بها ، وتأمل مثلاً قول الله تعالى :

---

(١) قال قتادة : مترفوها هم جبابرتهم ورؤوسهم وأشرافهم وقادتهم في الشر . أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم ، فيما نقله السيوطي في الدر المنثور (٧٠٤/٦) .

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ (٤٤) ﴾[الأنعام] ولم يقُلْ لهم يعني ليس هذا الفتح في صالحهم مع أنه في ظاهره نعمة ﴿ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا (٤٤) ﴾[الأنعام] وتعوَّدوا النعمة وألفوها ﴿ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً .. (٤٤) ﴾ [الأنعام]

لذلك ، ليس من الصواب قولُكَ لأخيك : فتح الله عليك والصواب : فتح الله لك . واقرأ : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا (١) ﴾ [الفتح] ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا .. (٢) ﴾ [فاطر]

وحكوْا لنا عن سياسي كبير كان له خصم ، ففوجئوا بأنه أصدر قراراً بترقية هذا الخَصْم إلى منصب كبير ، فتعجبوا : كيف يُرقى خصمه ؟ فقال : أرفعه إلى منزلة عالية ، حتى إذا سقط منها كان السقوط مؤلماً ، وسبق أنْ قُلْنا : إذا أردتَ أنْ تُوقع عدوك لا توقعه من فوق الحصيرة مثلاً .

ومن الاستدراج بالنعمة والترف قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) ﴾ [الإسراء]

البعض يخطيء فَهْم هذه الآية ، فيقول . ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا (١٦) ﴾ [الإسراء] أن الفسق مترتب على الأمر . والله سبحانه لا يأمر بالفسق ، ولا يأمر بالفحشاء ، وإنما يأمر بالطاعة والعبادة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ (٥) ﴾[البينة] وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ...(٩٠) ﴾[النحل] فالمعنى : أمرنا مترفيها بما يأمر الله به ، فما كان منهم إلا أنْ فسقوا فيها أي : فسقوا في الأمر ، إذن : الفسق ليس مترتباً على الأمر ، وإنما على مخالفة الأمر .

الحق - سبحانه وتعالى - حين يعرض قضية الترف والإتراف يقول : أنا أنعمتُ على عبادي نعماً يتنعَّمون بها ، إنما كنتُ أريد أنْ

يستقبلوا هذه النعم بالشكر ، وأنْ يُعدوا النعمة إلى غير المنعَّمين ليحصل في المجتمع المسلم التكافل الاجتماعي المطلوب ، ولينزع هذا التكافل الغلّ والحقد من قلوب الفقراء على الأغنياء .

فالفقير إذا رأى الغني ينتفع بآثار النعمة ، ويتمتع بها دونه . يحقد عليه ، ويتمنى زوال نعمته ، فإنْ ناله منها شيء أحبَّ الغني ، وسأل الله له المزيد ، هذا من ناحية الفقير .

أما من ناحية الغنيِّ ، فالحق سبحانه يعلم أن الإنسان عامة مطبوعٌ على النفعية لذاته وحب الخير لها ؛ لذلك عامله الحق سبحانه بهذا المنطق ، منطق النفعية حين يعطيه جزاءَ ما أنفق ، ويثيبه على ما يفعل من الخير ، قال له : الحسنة بعشر أمثالها ، غُضّ طرفك عن المحارم في الدنيا أمتعك بالحور العين يوم القيامة .. الخ

لذلك يقولون : إن التدين نفعية عالية ، فأنت مثلاً ما آثرتَ الفقير على نفسك ، وما أعطيتَهُ ما في جيبك إلا لأنك تريد من الله تعالى أضعاف ما أعطيت . إذن : أنت حتى في تجارتك مع الله تحب النفع لنفسك .

والحق سبحانه يعطي الغني وصاحب الهمة العالية الذي يكدح ويتعب ويُكوِّن الثروة ، يعطيه حقه ، ويحترم جهده وعرقه ، ويحترم مشاعره النفعية ، فحين يسأله يسأله جزءاً من ماله ، لا ماله كله ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ[1] تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) ﴾ [محمد]

(١) يحفكم : يلح عليكم ، ويكثر ويلح في الطلب والسؤال . وقال قتادة : علم الله في مسألة الأموال خروج الأضغان ، أخرجه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن المنذر فيما أورده السيوطي في الدر المنثور (٥٠٥/٧)

ويحببهم في الإنفاق بنفس هذا المنطق : ﴿ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ .. (٣٨) ﴾ [محمد]

إذن : مسألة الإنفاق هذه تُخرج ضغْن[1] الغني، كما أخرجتْ ضغْن الفقير ، فهي تُحدث استطراقاً إيمانياً ، واستطراقاً اقتصادياً في المجتمع ، فصاحب المال يحمد الله على النعمة ، ولا يبخل بها على الفقير ، والفقير يحمد الله أنْ جعل النعمة في يد مَنْ يجود بها عليه ، وهكذا يحدث التوازن في المجتمع .

نعود إلى ما كُنَّا بصدده من قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) ﴾ [سبأ] لماذا أنتم كافرون بما جاء به الرسل ؟

الحق - تبارك وتعالى - يريد من العباد ألاَّ يستعلي قوي على ضعيف ، وألاَّ يستعلي غني على فقير ، وألاَّ يستعلي عالم على جاهل ، إنما يريد أن يعمَّ الخير ، فمَنْ كانت عنده خَصلْة من خصال الخير عدَّاها إلى غيره .

أما هؤلاء فقد اختاروا الكفر ، واطمأنوا إليه ؛ لأن النعمة أطغتهم وأترفتهم ، فمالوا إلى البذخ وإلى المظالم حتى عَشقوا هذا كله ، فلما جاء الدين ليُعدِّل من سلوكهم صادموه ، وحاولوا طمسه والقضاء على دعوته ؛ لأنهم ألفوا السيادة ، وألفوا الطغيان ، ولا يريدون أنْ تُسلب منهم هذه السيادة . وإلا لو أن العالم كان مستقيماً متوازناً ما كانت هناك حاجة للرسل ، إذن : ما جاء رسول إلا بعد أنْ عَمَّ الفساد وطَمَّ .

---

(١) الضِّغن : الحقد والعداوة والبغضاء . والجمع أضغان ، وكذلك الضغينة وجمعها الضغائن . (لسان العرب مادة : ضغن) .

وسبق أنْ قُلْنا : إن الحق سبحانه خلق في النفس الإنسانية مناعة إيمانية نتيجة الفطرة الأولية ، لكن الشهوات وتقاليد الظالمين تطمس هذه الفطرة ، فتحتاج إلى مُذكِّر يعيدها إلى الطبيعة والفطرة التي خلقها الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [الغاشية] يعني : ليس بادئاً .

والحق سبحانه يُبيِن أن الناس أمام الخير والشر أنواع ثلاثة ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر]

فالظالم لنفسه هو الذي يفعل السيئة ، ولا يلوم نفسه ، ولا يندم على سيئته ، ولا يتوب منها ، فهو يظلم نفسه ؛ لأنه يحرمها الجزاء والنعيم الأبدي . والمقتصد هو الذي يتردد بين الحسنة والسيئة ، فإنْ فعل سيئة تذكَّر ولام نفسه وتاب ، ثم يفعل الحسنة لتُكفِّر السيئة ، وهؤلاء قال الله فيهم :

﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [التوبة]

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر] يُراد به أمة محمد ﷺ ؛ لأن الميراث يعني أن الموروث ينتقل من السابق إلى اللاحق . فأمة محمد ورثتْ الرسل جميعاً في كل أمورهم الخيرية ، وتكفَّلَتْ بأن تردع الشر في كل نواحيه ، وبذلك ورثوا الرسالات كلها ؛ لأنهم يأمرون بالمعروف وينهوْن عن المنكر ، كما قال سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴿١١٠﴾ ﴾ [آل عمران]

وقال تعالى أيضاً : ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة]

فالرسول يشهد انه بلَّغكم ، وأنتم تشهدون أنكم بلَّغتم مَنْ بعدكم ، رسولكم فوَّضه الله فى أنْ يُشرِّع لكم ، وفوَّضكم أنتم فى أنْ تحملوا منهجه من بعده ؛ لذلك انقطعتْ الرسالات بعده ﷺ ؛ لأن أمته ستقوم بمهمة الرسالة ، وهذا دليل على أنها أمة ، الخيرية فيها باقية إلى قيام الساعة .

وقولهم : ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ] بم أُرسل الرسلُ ؟ أُرسلوا أولاً بقضية التوحيد ، وأنه لا إله إلا الله ، أرسلوا بالبلاغ عن الله ، أرسلوا بمعجزات ، أُرسلوا بأحكام ومناهج تحكم حركة الحياة . فهؤلاء كفروا بهذا كله لأنهم يريدون أنْ يعيشوا فى ترفهم وظلمهم ، وأنْ يستبدوا كما يشاؤون .

لكن قولهم ﴿بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ ﴿٣٤﴾﴾ [سبأ] دلَّ على غبائهم ؛ لأنهم لم يقولوا مثلاً بما جئتم به ، أو بما ادعيتموه ، إنما بما أُرسلتم به ، فهم يعترفون بأنهم مُرسَلُون ، فهذه كلمة الحق ساقها الله على ألسنتهم ، كما ساقه على ألسنتهم فى قولهم : ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ ﴿٧﴾﴾ [المنافقون] وقولهم لما فتر الوحى عن رسول الله : إن رب محمد قلاه[1] .

إذن : هم يعترفون لرسول الله بالرسالة ، والمرسل لا يُرسَل من مثله ، إنما من جهة أعلى ، فالرسالة ليست من عند محمد : ﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

---

(١) عن جندب بن عبد الله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون ودّع محمداً ربُّه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

(١٦)﴾ [يونس] لكن ، ما علة هذا الكفر ؟

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾

قلنا : إن الدين إنما جاء ليُحدث توازناً في المجتمع واستطراقاً عقدياً واقتصادياً واجتماعياً ، فمنطق هؤلاء الذين كفروا بالرسل أنهم ليسوا في حاجة إلى هذا كله ، فعندهم المال والأولاد ، وعندهم كل مُتع الحياة .

﴿وَقَالُوا .. (٣٥)﴾ [سبأ] أي : في حيثيات كفرهم ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وأَوْلاداً (٣٥)﴾ [سبأ] بل أكثر من ذلك يأخذهم غرورهم إلى أن يقولوا : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾ [سبأ] لماذا ؟ يقولون : لأن الله ما كان ليعطينا هذا النعيم في الدنيا ، ويضنَّ علينا في الآخرة .

لكن نقول لهم : أنتم واهمون ، فَفَرْق بين عطاء الألوهية وعطاء الربوبية ، الله تعالى أعطاكم بعطاء الربوبية الذي يشمل الجميع المؤمنَ والكافر ، والطائع والعاصي ، أما عطاء الألوهية فتكليف ، فالله يعطيكم في الدنيا بعطاء الربوبية ، ويعاقبكم في الآخرة بمقتضى الألوهية .

وهذه الحيثية منهم : ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً (٣٥)﴾ [سبأ] حجة عليهم لا لهم ، فمن أين لكم هذا الخير ؟ ثم إن كثرة الأموال كان يجب أنْ تحملكم على نواحي الخير ، وكثرة الأولاد كان ينبغي أنْ تجعلوا منهم (عزوة) لكم على الحق ، إذن : كفركم بعد هذه النِّعَم دليل على أنكم استخدمتموها في الباطل وفي الظلم والطغيان .

وما أشبه قولهم : ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥)﴾ [سبأ] بقول صاحب

الجنة : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾[الكهف] وهذا بَطَر بنعمة الله وغرور بها ، فليس بين الله تعالى وبين أحد من خَلْقه قرابة ولا نسب ، لينعم في الدنيا وينعم في الآخرة بلا عمل ، فهؤلاء فتنهم المال ، وفتنتهم الذرية ؛ لذلك يقول سبحانه محذراً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ (١٤) ﴾ [التغابن]

والحمد لله أنه قال (مِنْ) ، فهي تفيد التبعيض ، يعني : ما يزال في بعض الأزواج وفي بعض الأولاد عنصر الخير موجود .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾

أي (قُلْ) رداً عليهم في اغترارهم بكثرة الأموال والأولاد : ﴿ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ (٣٦) ﴾ [سبأ] يبسط : يُوسع الرزق بكرمه ، ويقدر : يعني : يضيقه على مَنْ يشاء بحكمته تعالى . والرزق لازمة من لوازم الربوبية التي خَلَقَتْ ، والتي استدعت الإنسان للوجود ، فلا بُدَّ أن تضمن له مقومات حياته .

لكن الرازق سبحانه لا يرزق الناس جميعاً (بمسطرة) يعني بالتساوي ؛ لأن الله تعالى يريد أن تكون المجتمعات متعاونة متكافلة ، ولو أن كل إنسان كان عنده ما يكفيه ما احتاج أحد إلى أحد ، وما حدث في المجتمع هذا الترابط وهذا الاتصال الجماعي .

وسبق أنْ أوضحنا أن ترابط المجتمع لا بُدَّ أنْ يكون ترابط

حاجة ، لا ترابط تفضّل ، فلو فرضنا أننا جميعاً تخرّجنا في الجامعة ، أو أخذنا الدكتوراة ، فمن (يكنس) الشوارع ، ومن يمسح الأحذية ؟ لو جعلنا هذه الأعمال تفضّلاً من بعضنا ما قَبِلها أحد .

وقلنا : إن الرجل المتعجرف أو المتكبر أو الباشا لو عاد إلى بيته فوجد به رائحة كريهة فسأل فقالوا : المجارى بها كذا وكذا لا شكّ أنه لن يهدأ له بال حتى تنتهى هذه المشكلة ، وربما ركب سيارته ، وذهب بنفسه إلى السباك ليُخلّصه من هذه المشكلة .

نقول فى هذه الحالة : إن السباك فاضل على الباشا فى هذا الوقت ، لأن الله أعطاه قدرة على نفسه لا يملكها الباشا أو حامل الدكتوراة ، وهذا السباك ما تحمَّل مثل هذا العمل إلا لحاجته إليه وإلا ما قَبِلَه .

لذلك أحسن الشاعر[1] حين قال :

النَّاس للنَّاسِ من بَدْوٍ وحَاضرةٍ
بَعْضٌ لبعْضٍ وإنْ لم يَشْعُروا خَدَمُ[2]

وهذه الخدمة تقوم على التداول ، فالحق سبحانه لم يجعل ذرية كلها خادمة ، وذرية مخدومة ، إنما أنت خادم فى شيء ومخدوم فى شيء آخر ، وهكذا كلنا خادم ، وكلنا مخدوم ، ليعلم الإنسان أياً كان

---

(١) الشاعر هو : أبو العلاء المعرى ، وهو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى ، شاعر وفيلسوف ، ولد عام (٣٦٣ هـ) ومات عام (٤٤٩ هـ) فى معرة النعمان عن ٨٦ عاماً ، عمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة ، كان يحرم إيلام الحيوان ، ولم يأكل اللحم خمساً وأربعين سنة . أشهر كتبه « رسالة الغفران » . [الموسوعة الشعرية - المجمع الثقافى ٢٠٠٣ - CD] - العصر الفاطمى .

(٢) لفظ البيت كما فى الموسوعة الشعرية :

والناس بالناس من حضر وبادية ... بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

والقصيدة من بحر البسيط .

أنه ابن أغيار ، وأن سيادته ليست ذاتية فيه ، فإنْ كان هو الأعلى عليه أنْ يُقدر هذا العلو ويعمل له ليظل على علُوه ، فإنْ رأى الأدنى منه فلا يحقره ، بل يُقدِّر له مهمته في خدمته ، وأنه سيحتاج إليه في يوم ما في عمل لا يقدر هو عليه .

لذلك يقول تعالى : ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ..(٧١)﴾ [النحل] كثيرون يظنون أن الرزق هو المال ، إنما الرزق كلمة عامة يُراد بها كل ما ينتفع به الإنسان ، والحق سبحانه فضَّل بعضنا على بعض في هذه الأشياء ، لكن أيَّ بعض فضَّل ؟ وأيُّ بعض فضَّل عليه ؟ أنت مُفضَّل فيما لك فيه موهبة ، ومفضَّل عليه فيما لا موهبةَ لك فيه ، وهكذا يتكاتف المجتمع ويتكامل ، ويرتبط ارتباطَ حاجة لا ارتباطَ تفضُّل .

وتأمل قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥)﴾ [الفجر] وشكراً ، وكثَّر الله خيرك أنْ نسبتَ الإكرام لربك ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦)﴾ [الفجر] فيقول الحق (كَلاَّ) يعني : أنت كذاب في هذا القول ؛ لأن بَسْط الرزق ليس دليلاً على التكرم ، ولا تضييقه دليل إهانة . وإلا كيف يكون بَسْط الرزق دليلَ التكريم ، والناس فيما يُرْزَقون لا يكرمون به اليتيم ، ولا المسكين ، ويأكلون التراث أكلاً لما .

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠)﴾ [الفجر]

إذن : على الإنسان أنْ يتأدب مع الله فيما صنع ؛ لأن الله يعلم كيف يرزق ، وهو سبحانه يريد أنْ يجعل من الناس أُسْوة للناس ، فالغني الذي افترى بماله يُبقيه الله حتى يرى فيه الفقير المفْترَى

عليه ، يرى فيه عقاب الله ليعلم أن لله تعالى ألوهية ، ولله تعالى قيومية ، لا يفلت الظالم من عقابها في الدنيا قبل الآخرة . وهذا المعنى خاطب الله به نبيه فقال : ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧)﴾ [غافر]

ثم إن مسألة الرزق لا تتوقف على مهارة ، أو شطارة ، أو علم ، فهناك مَنْ سعى للرزق وزرع واجتهد ، لكن عند الحصاد جاءتْه جائحة اجتاحت زرعه فأهلكتْه ، وكأن الحق سبحانه يقول لنا : إياك أنْ تفطن إلى ألوهية الأسباب ، وتغفل ألوهية المسبب .

والرزق مقسوم لصاحبه ، وإنْ حمله غيره ، فالجنين في بطن أمه غذاؤه من تكوينها ومن دمها ، لكن هذا الدم وإنْ حملتْه الأم ليس رزقها ، بدليل أنه إذا حدث الحمل توافر هذا الدم لغذاء الجنين ، فإنْ لم يحدث الحمل نزل منها هذا الدم في عملية الحيض ، ولم تنتفع به الأم ، لماذا ؟ لأنه ليس رزقها هي ، وهذا يساعدنا في فهم قوله تعالى : ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ (٣١)﴾ [الإسراء]

لذلك قالوا : ليس كل ما تملك رِزْقاً لك ، إنما رزقك ما انتفعتَ به، فالشيء يكون في ملكك وفي حوزتك تظن أنه لك ، ثم يضيع منك ، أو يُسرق أو يُؤمَم أو تُصيبه جائحة .. إلخ بل أكثر من ذلك قد يكون طعاماً وتأكله بالفعل ، ويتمثل في جسمك دماً يجري في عروقك ، ثم يسيل منك بسبب جرح ، أو عملية جراحية مثلاً : إذن : هذا الدم ليس رزقاً لك .

فالمؤمن ينبغي أنْ يطمئن إذن إلى عملية الرزق ، ويعلم أنها بقيومية الله التي ترزق المؤمن والكافر ، وأن الرزق مقسوم لك ، مُسمَّى باسمك ، فلا يأخذه غيرك مهما كان ، فإنْ بُسط لك فاحمد

الله ، وإن قَتَّر وضَيَّق عليك فاعلم أنها بحكمة الله ، واقرأ :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾ [الحجر]

ثم تُختم الآية بقوله تعالى :﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [سبأ] فالأكثرية لا يعلمون حكمة الله في تفاوت الأرزاق ، وهذا يعني أن قلة منهم هم الذين يعلمون ، فاللهمَّ اجعلْنَا من هذه الأقلية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ (٣٧) ﴾

الكلام هنا مُوجَّه إلى الكفار الذين ظلموا بأموالهم وأولادهم ، فمثل هذا المال ، ومثل هؤلاء الأولاد لا يكونون أبداً زلفى ، ولا قربى إلى الله ، لكن إن استغل هذا في مرضاة الله وفي سبيل الله وفي أبواب الخير فهو من أعظم القربات .

المال يُنْفَق منه في نواحي الخير ، والأولاد يُربوْن التربية الصالحة ليكونوا أسوة خَيْر في مجتمعهم ، لذلك استثنى الله تعالى فقال : ﴿ إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا (٣٧) ﴾[سبأ] أي : فيما أعطاه الله من نعمة المال ومن نعمة الأولاد .

﴿ فَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا (٣٧) ﴾[سبأ] وهكذا فتح الله الباب للنعمة ، حين تُستغل في مرضاة الله ، فليس كل الأموال ولا كل الأولاد نعمة ، فالمال قد يجرُّ صاحبه إلى الهلاك ، ويلقي به في النار، والأولاد الذين ظننتَ أنهم لك عِزْوة وقوة قد تنقلب هذه العِزْوة عليك .

ورأينا كثيرا من الذين يبحثون عن هذه العزْوة في الباطل ، لكن يريد الله أنْ يُذلَّهم بما فتنوا ، يذهب الرجل مثلاً فيخطب لولده بنت أحد الأعيان ، أو الأغنياء ، أو أحد أصحاب المناصب ، ويفرح بهذا النسب ويفخر به ، لكن أضمنتَ أنك سترضى هذه البنت ؟ وأنك لن تختلف معها في يوم من الأيام ؛ لذلك كثيراً ما تنقلب هذه العزْوة وهذا الجاه على صاحبنا ، فيُذله الله من حيث ظنَّ هو العزة والكرامة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأُولَـٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ ﴿٣٧﴾ ﴾[سبأ] لا يأتي الضعف إلا في جزاء الحسنة ، أما السيئة فلا تُضاعف ، إنما يكون الجزاء بمثلها ، وهذا من رحمة الله تعالى بنا ، وقال ﴿ الضِّعْفِ ﴿٣٧﴾ ﴾[سبأ] ولم يقُلْ الأضعاف ؛ لأن (الضعف) اسم جنس يصلح للقليل وللكثير ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر] فاستثنى (الذينَ) وهي جمع من المفرد (الإنْسَانَ) لأنه اسم جنس.

والضِّعْف أي : مضاعفة الحسنة ، أو مضاعفة الصدقة ، ومن معاني الضِّعف أنك إذا وزنتَ الأصل الذي أنفقتَه وجدته ضعيفا بالنسبة لما أخذتَ عليه من الجزاء .

وليست المضاعفة هي نهاية العطاء عند الله ؛ لأن الحديث النبوي الشريف أكمل هذه المسألة ، فقال ﷺ : « الحسنة بعَشْر أمثالها إلى سبعمائة ضِعْف »[1]

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (كتاب الصيام - باب فضل الصيام) حديث رقم ١٦٤ وكذا ابن ماجه في سننه (١٦٣٨) ، وأحمد في مسنده (٢/٤٤٣ ، ٥١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال ﷺ « كل عمل ابن آدم يضاعف ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله »

فالله تعالى يُضاعف لمن يشاء على قَدر النيات في العطاء والبَذْل ، فواحد يعطي وفي نفسه أنه أعطى وبذل من ماله ومن جهده ، وآخر يعطي ويؤمن أنه مجرد مُناول عن الله ، فالمال عنده مال الله ، والعطاء من الله .

ومن صور العطاء ما تعلَّمناه من السيدة فاطمة ، فرُوى أن سيدنا رسول الله دخل عليها فوجدها تجلو درهماً لها ، فسألها رسول الله عنه فقالت : لأنني نويت أنْ أتصدق به ، وأنا أعلم أنه يقع في يد الله قبل أنْ يقع في يد الفقير .

ثم إن المتصدق بمجرد أنْ يُخرج الصدقة من يده تخرج قيمتها من قلبه ، ولا يتتبعها ، ولا تتعلق نفسه بها ، أما حين يُقْرض قرضاً ، فإن نفسه لا تنساه وتتعلق به ، وكلما تحركتْ نفسه لطلب القرض صبر عليه ، فكان له الثواب على قَرْضه كلما صبر عليه .

لذلك أثار المستشرقون ضجة حول مسألة الجزاء على الصدقة وعلى القرض ، وادعَوْا تضارب الآية والحديث في هذه المسألة ، ففي الحديث قال ﷺ : « مكتوب على باب الجنة : الحسنةُ بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر »[1]

والحق سبحانه يقول : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ..(٢٤٥)﴾ [البقرة]

وبالجمع بين الاثنين يكون القَرْض حين يُضَاعف بعشرين لا بثمانية عشر ، والحمد لله فتح الله لنا ما أُغْلِق من هذه المسألة ، فقُلْنا :

---

(١) عن أبي أمامة صدى بن عجلان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « دخل رجل الجنة فرأى مكتوباً على بابها : الصدقة بعشر أمثالها ، والقرض بثمانية عشر » رواه الطبراني والبيهقي كلاهما من رواية عتبة بن حميد (الترغيب والترهيب للمنذري ٢/ ٣٤) .

لو أن رجلاً تصدَّق بدينار مثلاً ، فالله يجازيه الحسنة بعشر أمثالها ، لكن هل أعاد إليه الدينار الذى دفعه ؟ لا ، إنما ذهب الدينار مقابل العشرة ، إذن : أخذ فى الواقع تسعة ، فحين تُضاعف تساوى ثمانية عشر .

نعود إلى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا (٣٧) ﴾ [سبأ] فى مواضع كثيرة من كتاب الله يجمع الله بين الإيمان والعمل الصالح ، لماذا ؟ لأنهما جناحان لا يتم العمل إلا بهما معاً ، فالعمل الصالح بلا إيمان هَبَاء لا قيمةَ له كأعمال الكفار الخيرية التى يأخذون الجزاء عليها فى الدنيا شهرةً وتكريماً وتخليداً لهم ، لكن لا نصيبَ لهم فى ثواب الآخرة ، كذلك لا قيمة للإيمان إنْ لم يُترجم إلى عمل صالح .

﴿ فَأُولَـٰئِكَ (٣٧) ﴾[سبأ] أى : الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) ﴾[سبأ] الغرفات جمع غرفة ، وهى المكان الذى يُبْنى عادة أعلى البيت ، وتكون خاصة للاستقرار الذاتى ، لذلك نرى حتى الآن فى بناء الڤيلات مثلاً يجعلون الدور الأرضى للاستقبال العام وللطعام ، فإنْ أراد صاحب البيت أنْ يرتاح يصعد إلى الدور العلوى الذى جُعل للاستقلالية والخصوصية.

وللإنسان خصوصيات ، حتى داخل بيته وبين أولاده ، فإذا كان صاحب البيت مثلاً في غرفة نومه ، فله الحرية أن يلبس ما يشاء ، أو حتى يجلس فيها عرياناً ، فإنْ أراد أنْ يخرج إلى الصالة تهيَّأ لها وارتدى الملابس التى تناسبها ، فإنْ أراد أنْ يخرج إلى الشارع تهيَّأ أيضاً له بما يناسبه من ملابس ، كذلك النادى ، أو مكان اجتماع القوم ، لكُلٍّ زى خاص وسَمْت خاص .

ولهذه الاستقلالية والخصوصية جعل الناس الآن غرفة للبنين ، وغرفة للبنات ، فإنْ لم تَكُنْ هناك سَعَة فى المكان جعلوا سريراً للولد ، وسريراً للبنت .

فالحق سبحانه يحفظ لعبده قَدْره، ويحفظ له هذه الخصوصية، وهى خصوصية آمنة لا يُنغص أمنها فزع ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)﴾ [سبأ]

﴿وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ[1] أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)﴾

نقول: سعى فلان بفلان عند السلطان، يعنى: بوشاية وبإفساد، وهؤلاء سَعَوْا فى آيات الله ليصرفوا الناس عنها، ويشغلوهم عن سماعها.

ومعنى: ﴿مُعَاجِزِينَ (٣٨)﴾ [سبأ] مفردها مُعاجز، والمعاجزة مفاعلة يعنى: واحد يعاجز الآخر أى: يريد أنْ يُعجزه، إذن: المعاجزة معركة، لكن إياكم أنْ تظنوا أنها بين مؤمنين وكافرين، أو بين الرسل والمكذِّبين لهم، لا إنما هى معركة عالية، فالذين يُعاجزون يُعاجزون الله فى آياته ليبطلوها، وليضعوا العقبات فى طريقها، ومهما كان كيدهم فلن يعجزوا الله، ولن يُفلتوا منه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٥١)﴾ [سبأ]

وهنا يقول: ﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)﴾[سبأ] ومعنى محضرون أنهم يحضرون رغماً عنهم، فهى اسم مفعول من حضر، فهم يُجَرُّون ويُشدُّون كالمقبوض عليهم، ومنها كلمة (مُحضر) وهو الذى يُحضر المتهم رغماً عنه.

---

(١) المعاجز: من يحاول أن يعجز غيره. وأعجزه: جعله عاجزاً عن نيله وأفلت منه فلم يقدر عليه. [القاموس القويم ٢/٧، ٨]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

قلنا : يبسط يعني يُوسِّع ، ويقدر يعني : يُضيق ، وقد ورد هذا المعنى قبل عدة آيات ، لكن هنا يضيف لفتة جديدة ، فيقول سبحانه بعدها مباشرة ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سبأ] وكأن الحق سبحانه يلفت أنظارنا إلى أن الخَلْق جميعاً خَلْقه وعباده ، وهو قادر سبحانه أنْ يعطي الجميع ، وأنْ يُوسِّع على الجميع ، لكن يريد أنْ يتحابَّ الخَلْق ، وأنْ يتكافل الناس ؛ لذلك وسَّع على بعضهم ، وضيَّق على بعضهم ، ثم أشار لمن وسَّع عليه ولوَّح له بجزاء الإنفاق ، لينفق على أخيه الذي ضُيِّق عليه .

وهذه الآية تعطينا ملخصاً لاقتصاد العالم كله ؛ لأن معنى الاقتصاد موازنة المصروفات بالواردات ، فالمصروفات لمصروف له ، والواردات لوارد عليه ، إذن : لا بُدَّ أن يكون في المكان الواحد فئة تعطي وفئة تأخذ ، لا بُدَّ أنْ يكون فيها فقراء وأغنياء ، لذلك الحق سبحانه لم يترك بَسْطة الغني هكذا حرة ، كذلك لم يترك تقتير الفقير، بل جعل لهذا مَبْذلاً ، ولهذا مصدراً .

فبعد أن أخبر سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سبأ] حكمها فقال ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سبأ] فالحق سبحانه يراعي مبدأ النفعية لصاحب المال ، ويراعي

حب الأغنياء للمال ؛ لذلك يطمئنهم على أموالهم ، ويتكفَّل هو سبحانه بأنْ يخلفها لهم .

والحق سبحانه بسط الرزق للأغنياء وهم يحبون المال ولكنه يقول لهم : إذا أُحلْت على غني فاتبع ، يعني : إنْ كان لك دَيْن عند فقير فأحالك بدينك إلى غني قادر على السداد فتحوَّل ؛ لأنك لا تضمن متى سيُوسِّع الله على الفقير ليُسدِّد ما عليه .

وهكذا طمأن اللهُ الأغنياءَ بأنّ أموالهم لن تنقص بالإنفاق ؛ لأنها أحيلت إلى الله وتكفَّل هو بالسداد .

لذلك يعلمنا رسول الله ﷺ فيقول : « ليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيْتَ ، أو لبستَ فأبليْتَ ، أو تصدقْتَ فأبقيْتَ »[1]

ولما أُهديَتْ لرسول الله ﷺ شاة تصدَّقَتْ بها السيدة عائشة ، وأبقَتْ لرسول الله كتفها ؛ لأنها تعلم أنه يحب الكتف ، فلما عاد رسول الله سألها : ماذا صنعت بالشاة يا عائشة ؟ قالت : ذهبتْ كلُّها إلا كتفها ، فقال ﷺ : « بل بقيَتْ كلها إلا كتفها »[2]

لماذا ؟ لأنه مال تحوَّل إلى ذمة الله ، وقد تعهد الله بأنْ يُخلفه ، وما بالك إنْ كان الإخلاف من الله القائل : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴿٨٦﴾ ﴾ [النساء]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٢٤، ٢٦) ، ومسلم في صحيحه (٢٩٥٨) كتاب الزهد ، والترمذي في سننه (٢٣٤٢) وصححه ، ولفظ الحديث عند مسلم : « يقول ابن آدم : مالي مالي ، قال : وهل لك يا بن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٥٠) والترمذي في سننه (٢٤٧٠) من حديث عائشة ، قال الترمذي : حديث صحيح ، ولفظ أحمد أن عائشة قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ، ما بقي إلا كتفها . قال : « كلها قد بقي إلا كتفها » .

وأنت حييتَ الله في الفقير بتحية فلا بُدَّ أن يردَّها لك بأحسن منها ، بل ويُضاعفها لك أضعافاً كثيرة بما يفوق الحَصْر والعَدَّ ، ومثَّلْنا لذلك بالحبة يزرعها الفلاح ، فتُعطي سبع سنابل ، في كل سنبلة مائة حبة ، فإذا كان هذا عطاء الأرض المخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق عز وجل ؟

فقوله تعالى : ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ] يريد سبحانه أنْ يُطمئن الغنيَّ بأن ماله لن ينقص ، ويُطمئن الفقير بأنه لن يتخلَّى عنه ، ولن يتركه للفقر ، بدليل أنه سبحانه اقترض من أجله ، فقال تعالى : ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة] فالله يقترض من الخَلْق للخَلْق ، وهو قادر سبحانه أن يُوسِّع على الجميع ، إنما الهدف أنْ يتعايش الناس بوداد المعونة ، وأنْ يحب الغنيُّ الفقيرَ ، ولا يحقد الفقير على الغني .

لذلك تُختم الآية بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ] قال سبحانه خير الرازقين ؛ لأن الرازق : كل مَنْ يمدُّ لك يده بما تنتفع به، وعليه فأبوك بالنسبة لك رازق ، والذي يعولك ويتكفَّل بك رازق ، كذلك ربُّك عز وجل رازق ، لكن فَرْق بينهما ، فأبوك رازق ؛ لأنه يأتي لك بالرزق ، لكن إنْ سألته من أين هذا الرزق يقول : من عند الله ، فهو سبب ومناول ، أما الحق سبحانه فهو خالق الرزق ؛ لذلك قال ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ]

وسبق أنْ أوضحنا : إذا رأيتَ صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، فلكلٍّ ما يناسبه . إذن : حيثية الخيرية هنا أنه تعالى هو الرازق ، وهو خالق الرزق ، وهو الذي يُيسِّر لك أسبابه حتى يصل إليك .

وقالوا : خيرية الله في الرزق ناشئة من ثلاث مسائل : **الأولى** أنه سبحانه لا يُؤجِّل الرزق لوقت الحاجة إليه ، إنما خلقه لك قبل أنْ يخلقك ، وأعدَّ لك مُقوِّمات الحياة قبل أنْ يستدعيك إليها . **الثانية** : أنه لا يحاسبك على ما رزقك . **الثالثة** : لا يطلب منك ثواباً على ما وهبك .

لهذا كله كان الحق سبحانه وما يزال خير الرازقين ، وتأمل مثلاً فرعون لما ربَّى موسى عليه السلام امتنَّ عليه ، فقال : ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨)﴾ [الشعراء]

والمعنى : كان ينبغي عليك يا موسى أنْ تُجاملنا ، وتحفظ جميلنا عليك ، وألاَّ تصادمنا هذا الصدام .

ومثل ذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩)﴾ [يونس]

وقوله تعالى : ﴿.. فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

في هذه الآيات كلها ، الحق - تبارك وتعالى - راعَى مواهب الخَلْق وقدَّر حركتهم الإيجابية في الحياة ؛ لذلك أثبتَ لهم صفة من صفاته وهي الخَلْق ، ومعنى الخَلْق إيجاد شيء لم يكُنْ موجوداً ، فالإنسان يُعَدُّ خالقاً حين يصنع من الرمل (الكريستال) مثلاً ، والحق سبحانه لا يضنُّ عليه فيسميه خالقاً ، لكن إنْ كان الإنسان خالقاً ، فالحق - سبحانه وتعالى - أحسن الخالقين ، لماذا ؟

قالوا : حيثيات هذه الخيرية في عملية الخَلْق من عدة وجوه . منها : **أولاً** : أن الإنسان يَخلق من مادة موجودة ، أما الخالق سبحانه فيخلق من لا شيء من العدم . **ثانياً** : صنعة الإنسان تظل على حالة واحدة ، فلا تنمو ولا تتكاثر ، أما خَلْق الله ففيه حياة ، فهو يتغذَّى وينمو ويتكاثر .. الخ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

المعنى : واذكر يوم يحشرهم جميعاً ، واليوم ظرف للحشر وللجمع يوم القيامة ، لكن لماذا يذكر رسول الله هذا اليوم ؟ قالوا : هنا إشارة لسيدنا رسول الله ﷺ أن الله لم يَنْسَه وما تركه ، ولا تخلى عنه ، بدليل أنه سينتقم له من أعدائه ومُكذِّبيه في هذا اليوم ، وكأن الله يقول له : سترى ماذا سنفعل بهم ، كما قال سبحانه في آخر المطففين : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [المطففين]

وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾[سبأ] معلوم أن الكفار عبدوا آلهة كثيرة ، فلماذا خَصَّ الملائكة هنا بهذا السؤال ؟ قالوا : لأنهم أعلى الأجناس التي عُبِدَتْ من دون الله وأقربهم إلى الله ؛ لذلك قالوا عنهم : بنات الله ، فهم يظنون أنَّ الملائكة لهم كلمة عند الله ، ويمكن أنْ يشفعوا لهم أو يدافعوا عنهم إنْ عبدوهم ؛ لذلك ذكر هنا الملائكة ، ولم يذكر الشجر والحجر الذي عُبِد من دونه سبحانه .

لكن ، لماذا وُجِّه السؤالُ للملائكة المعبودين ، ولم يُوجَّه للعابدين الذين أشركوا ؟ لماذا لم يُوبِّخهم الله ويُقرِّعهم على عبادتهم دون الله ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه أراد أنْ يسمع المشركون من الملائكة أنفسهم الردَّ ؛ لتكون الحجة عليهم أبلغ .

يقول سبحانه للملائكة : ﴿أَهَـٰؤُلَاءِ ۝٤٠﴾[سبأ] المشركون ﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٤٠﴾[سبأ] فأول ردِّهم ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ ۝٤١﴾ [سبأ] يعني : تنزيه لك يا رب أنْ يُعبد سواك ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۝٤١﴾ [سبأ] يعني : نحن في ذِلّية عبوديتنا لك يا رب أعزُّ وأكرم من كونهم يعبدوننا ﴿بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ ۝٤١﴾ [سبأ] يعني : ما عبدونا ، إنما عبدوا الجن ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾ [سبأ] فلماذا عبدوا الجن[1]؟ ولماذا كان أكثرهم يؤمن بالجن ؟

الجن هو الجنس الذي يقابل الإنس ، وسُمِّي الجن ؛ لأنه مستور عنَّا ، يرانا ونحن لا نراه ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۝٢٧﴾ [الأعراف]

والذين عبدوا الجن لم يعبدوهم جميعاً ، إنما عبدوا الشياطين منهم ، وعبدوهم لأنهم يطيعونهم ، وأكثرهم كانوا بالجن مؤمنين ، لماذا ؟ لأن الجن كانوا يَسْترقون السمع ، فيلتقطون بعض الأخبار والحقائق ، ثم يُوحُونها إلى أوليائهم من شياطين الإنس فيأخذها هؤلاء ويخبرون الناس بها على سبيل أنهم يعلمون الغيب ، إلا أنهم كانوا يدسُّون في هذه الحقائق الكثير من الباطل ، ثم تأتي بعض الأحداث موافقة لما أخبروا به ، فيُفْتَن الناس بهم ، ويظنون أنهم يعلمون الغيب .

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٥٥٧٩/٨) « أن حيّاً يقال لهم بنو مُليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن ، ويزعمون أن الجن تتراءى لهم ، وأنهم ملائكة ، وأنهم بنات الله » . ولكن أورد أبو يحيي زكريا الأنصاري سؤالاً في كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن» (ص ٣٤٥) « إن قلت : كيف قالت الملائكة في حق المشركين ذلك ، مع أنه لم يُنقل عن أحد منهم أنه عبد الجن ؟ » ثم قال : « معناه أنهم كانوا يطيعون الشياطين فيما يأمرونهم به من عبادة غير الله تعالى . فالمراد بالجن الشياطين ، على أن الكرماني جزم بأنهم عبدوا الجن أيضاً » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله سبحانه ﴿فَالْيَوْمَ (٤٢)﴾[سبأ] أى : يوم القيامة ﴿لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ (٤٢)﴾[سبأ] أى : الملائكة ومَنْ عبدوهم من المشركين ﴿نَفْعًا وَلا ضَرًّا .. (٤٢)﴾ [سبأ] فإنْ كانوا يظنون أنهم الملائكة ، وأنهم عباد مُكْرمون ، وأن لهم منزلة عند الله ؛ لذلك سيشفعون لهم فأفهموهم : أنكم لا تشفعون إلا لمن ارتضى ولا تشفعون ابتداءً ، بل تنتظرون أنْ يُؤذَن لكم في الشفاعة ، ثم أنتم أيها الملائكة تستحُونَ أنْ تكونوا شفعاء لمن عبد غير الله ؛ لأن إخلاصكم في عبوديتكم لله تعالى يمنعكم أنْ تناصروا هؤلاء أو تشفعوا لهم .

ومثل هذا الموقف شاهدناه مع سيدنا رسول الله ﷺ ، حيث كان الذين آمنوا بالله وكفروا برسالته مُقدَّمون عنده على مَنْ كفروا بالله ، فعصبية محمد ﷺ لربه أكثر من عصبيته لنفسه .

وقوله تعالى : ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)﴾[سبأ] هذه الآية من المواضع التى وقف أمامها المستشرقون يظنون أن بها مأخذاً على كلام الله ، قالوا : القرآن يقول فى سبأ ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)﴾ [سبأ] ويقول فى السجدة : ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)﴾ [السجدة]

فهل كذَّب الكفار بالنار ، أم كذَّبوا بالعذاب ؟ ونقول : منهم مَنْ كان يُكذِّب بوجود النار أصلاً ، وهؤلاء قال الله لهم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ

التى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢)﴾ [سبأ] لأن تكذيبهم مُنصَبٌّ على النار ، والاسم الموصول (التى) يعود إلى النار .

أما الذين آمنوا بوجود النار ، لكن ينكرون أنْ يُعذَّبوا بها قال الله لهم ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)﴾ [السجدة] لأن تكذيبهم للعذاب لا للنار ؛ لذلك جاء الاسم الموصول (الذى) العائد إلى العذاب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٤٣)﴾

معنى ﴿يَصُدَّكُمْ (٤٣)﴾ [سبأ] : أى : يصرفكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ (٤٣)﴾ [سبأ] وهذا دليل على أن عبادتهم ما دون الله كان مجرد تقليد للآباء ، وهم بقولهم هذا لم يأتوا بجديد ، فقد أخبر الله عنهم بهذا ، وهم ما يزالون فى عالم الذرّ يوم أخذ عليهم العهد والميثاق :

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣)﴾ [الأعراف]

بعد أنْ قالوا فى رسول الله قالوا فى القرآن . ﴿مَا هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى (٤٣)﴾ [سبأ] الإفك : قَلْب الشىء عن موضعه أو قلب الحقائق ، ومن هنا سُمِّى الكذب إفكاً ؛ لأن الكذب أنْ تقول قضية يناقضها

الواقع ، والصدق أنْ تقول قضية يؤيدها الواقع ، فحين تقلب الحقيقة فإنك تُغيِّر الواقع .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النجم] فالمؤتفكة هى القرى التى قلبها الله ، وجعل عاليها سافلها ، ومنه أيضاً قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الأنعام] يعنى : كيف تُصرفون عن الحق، وتقلبونه إلى الباطل .

ولَيْتهم وقفوا فى وصف القرآن عند هذا الوصف ، إنما زادوا ﴿ مُّفْتَرًى ﴿٤٣﴾ ﴾ [سبأ] أى : متعمد .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾[سبأ] معنى ﴿ إِنْ هَـٰذَا ﴿٤٣﴾ ﴾ [سبأ] ما هذا الذى جاء به محمد ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ ﴾[سبأ] وعجيب أنْ يصفوا ما جاء به محمد بالسحر ؛ لأن السحر تخييل لأعين الناس ، وليس ما يفعله الساحر حقيقة ، إنما هو توهم ؛ لذلك قُلْنا : هناك فَرْق بين السحر الذى جاء به السحرة وعصا موسى عليه السلام .

كان سحرهم كما قال تعالى : ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [الأعراف] وقال ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ ﴾ [طه] مجرد تخيُّلات لا حقيقة . إنما لَمَّا ألقى موسى عصاه صارت حيَّة حقيقية ، ولو لم تنقلب حية حقيقية ما خاف منها موسى ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ ﴾ [طه]

ولو لم تكن حية حقيقية ما آمن لموسى كبار السحرة ، فالقرآن يحكى عنهم أنهم بمجرد رؤيتهم لها قالوا : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ ﴾ [طه] يعنى المسألة ليست من موسى ، إنما من الله .

إذن فأين ما جاء به محمد من السحر ؟ وإذا كان محمد ساحراً

سحر المؤمنين به كما تقولون ، فلماذا لم يسحركم أيضاً وتنتهى هذه المسألة ؟ ومعلوم أنه لا خيار للمسحور مع الساحر . إذن : هذا القول منهم كذب على سيدنا رسول الله وعناد ومكابرة لعدم قبول الحق الذى جاء به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ ﴾

كأن الحق سبحانه يسأل : من أين جاءوا بهذا الكلام ، وبهذه الاتهامات ، هل آتيناهم كُتباً يدرسونها ، ويعلمون منها ذلك ؟

ويجيب سبحانه ﴿ وما آتيناهم من كتب يدرسونها ﴿٤٤﴾ ﴾[سبأ] كذلك ﴿ وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴿٤٤﴾ ﴾[سبأ] يعنى . رسول يخبرهم بهذا . إذن : من أين جاءوا به ؟

يقول سبحانه :

﴿ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

المعنى : أن ما قالوه فى رسول الله ، وفيما جاء به من الهدى تكذيب كما كذَّب السابقون ، فهو سنة مُتبعة وطبيعة فى المرسَل إليهم حين يأتى دين جديد ليُخرجهم عن طغيانهم واستبدادهم ويقضى على سيادتهم واستعبادهم للناس ؛ لذلك لا بُدَّ أنْ يصادموا الدين ويُكذِّبوا الرسل ، لتظلَّ لهم وسائل الطغيان ووسائل الفساد .

فمعنى ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (٤٥)﴾[سبأ] الأمم السابقة الذين كذَّبوا إخوانك الرسل السابقين ، فلستَ يا محمد بدْعاً فى ذلك .

﴿وما بلغوا معْشَارَ ما آتيْنَاهُمْ (٤٥)﴾[سبأ] يعنى : الأمم السابقة التى كذَّبت رسلها ما بلغتْ فى الرسالة وفى المنهج والحجة والبينة معشار ما آتيناك ؛ ذلك لأن سيدنا رسول الله ﷺ جاء بالدين الوافى والمنهج الكامل الذى لا يمكن الاستدراك عليه .

أو : أن المعنى ﴿وَمَا بَلَغُوا (٤٥)﴾[سبأ] أى : كفار مكة الذين كذَّبوا رسول الله ﴿معْشَارَ ما آتيْنَاهُمْ (٤٥)﴾[سبأ] يعنى : ما آتينا الأمم السابقة من القوة ، فالذين كذَّبوا الرسل من الأمم السابقة كانوا أكثر قوة ، وأكثر نفوذاً ، وأكثر حضارة من كفار مكة ، وأين هم من عاد وثمود وفرعون ؟

واقرأ قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١)﴾ [الفجر]

فأين قوة كفار قريش من قوة هؤلاء الذين يُضرب بهم المثل فى : القوة ، والبطش ، والجبروت ، والطغيان ؟ ومع ذلك أصابهم من بأس الله ما أصابهم .

والمعشار أكثر من العشير ، والعشير أكثر من العُشْر ، فإذا أردتَ العشرات تقول عُشر ، وإذا أردت المئات تقول عَشير ، وإذا أردتَ الآلاف تقول معشار[1] .

---

(١) مقصد فضيلة الإمام - رحمه الله - أن العُشْر جزء من عشرة ، أما العشير فهو جزء من مئة ، أما المعشار فهو جزء من الألف . فمراد الآية ﴿وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ (٤٥)﴾ [سبأ] أى : ما بلغوا جزءاً من ألف جزء مما أعطيناه وآتيناه للأمم السابقة ، فالمراد به المبالغة فى التقليل ، وهذا يتوافق مع ما قاله القرطبى فى تفسيره (٥٥٨١/٨) ونقله عن الماوردى . [عادل أبو المعاطى] .

وقوله تعالى : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٥) ﴾[سبا] يعني : انظر كيف كان أَخْذي للمكذِّبين ، فلم أتركهم دون عقاب ، إنما أخذتهم أَخْذ عزيز مقتدر ، ومعنى ﴿ نَكِيرِ (٤٥) ﴾[سبا] يعني : إنكاري عليهم بالتدمير والعقاب ، وإنكاري عليهم على قَدْر ما كانوا هم منكرين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٤٦) ﴾

بعد أنْ أعطاهم الحق سبحانه درساً وعبرة بمَنْ سبقهم من المكذبين يعود ليخاطبهم من جديد ، فيقول لنبيه ﷺ : ﴿ قُلْ ﴾ يعني : لهم ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ (٤٦) ﴾ [سبا] الوعظ ليس إنشاءَ حكم ، إنما هو تذكير بحكم سبق ونسيه الناس ، فالواعظ يُبيِّن للناس أموراً يعرفونها ويؤمنون بها من الدين ، لكن أنْستهم الشهوات والغفلة هذه الأمور ، فهو مُذكِّر بها ، والعِظَة لا تكون إلا من مُحبٍّ لك حريص على مصلحتك .

لذلك فالحق - تبارك وتعالى - يعطينا نموذجاً للوعظ في قصة لقمان حين يعظ ولده . ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ .. (١٣) ﴾ [لقمان]

ومعنى ﴿ بِوَاحِدَةٍ (٤٦) ﴾ [سبا] يعني : موعظة واحدة فيها كل الآحاد ، واستخدم السياق ﴿ إِنَّمَا (٤٦) ﴾ [سبا] الدالة على القصر يعني : لا أعظكم إلا بواحدة ، ما هي ؟ ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ (٤٦) ﴾ [سبا] يعني : إياك

أنْ تقوم لشهوة نفسك ، أو لسيادة تحافظ عليها ، إياك أنْ تقوم وأنت تريد الاستعلاء على هذا النبى ، إنما يكون قيامك لله ، يعنى : تتجرد عن هواك ، وتتجرَّد عن شهواتك وعن تعصُّبك .

وما دُمْتَ تتودد إليهم أنْ يقوموا لله فلا بُدَّ أن لله تعالى مكانة فى قلوبهم ، وهو سبحانه فى بالهم بدليل : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ (٢٥)﴾ [لقمان]

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧)﴾ [الزخرف]

إذن : كانوا يؤمنون بأن الله تعالى هو خالقهم ، وهو خالق السموات والأرض ؛ لأن هذه المسألة من الوضوح بحيث لا ينكرها منكر ، مهما بلغ من الكفر والإلحاد ، لماذا ؟

لأن مسألة الخَلْق لم يدَّعها أحد لنفسه ؛ لأن الدعوى إنما تكون عند وقوع لبس بباطل يمكن أن يكون له رواج ، لكن هذه المسألة واضحة ، لا لَبْسَ فيها . ومهما بحثوا فلن يجدوا خالقاً لهم وللكون من حولهم إلا الله ؛ لذلك يجادلهم بالمنطق فى هذه المسألة فيقول : أنتم أمام أمرين : إما أنكم خلقتم هذا الخَلْق ، أو أنكم خُلِقْتم من غير خالق .

فالأولى مردودة ؛ لأن أحداً لم يَدَّع الخَلْق ، والأخرى مردودة ؛ لأن أتفه من السماء والأرض ، وأتفه من الإنسان لا بُدَّ له من صانع يصنعه ، فالحذاء الذى تلبسه فى قدميك ، أليس له صانع ؟

إذن : السماء والأرض والإنسان لا بُدَّ أن لهم صانعاً على قدر عظمهم ، وكيف ينكرون هذه المسألة وهم يعترفون بعضهم لبعض بأبسط الأمور ، ويعرفون صاحبها ويفخرون به ، ففلان كان يئد البنات ، وفلان كان عنده جفنة طعام يأكل منها كذا وكذا من

الضِّيفان ، وفلان كان أشجع العرب .. إلخ وكَثُر في شعرهم قولهم : أنا ابن فلان ، وأنا ابن فلان .

إذن : مسألة الخَلْق هذه لا يجرؤ أحد منهم على أنْ ينكرها ، وما داموا يعترفون لله تعالى بالخَلْق ، فعليهم أنْ يقوموا لهذا الإله الذي أقروا له بالخلق ، وأنْ يُخلصوا في قيامهم له ، فلا يكون في بالهم أحد سواه ، وعندها ثِقُوا تماماً أنكم ستصلون بهذا القيام إلى الحق ؛ لأنه لا يُضبِّبُ الحق في عقول الباحثين فيه إلا هوى النفس ، كما قال سبحانه :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ (٧١)﴾ [المؤمنون]

والقيام المراد هنا لا يشترط فيه الجماعة ولا الجماهيرية ؛ لأنه قيام للتفكُّر ، فينبغي أنْ يكون ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ..(٤٦)﴾ [سبأ] مثنى : يعني : اثنين اثنين ، وفرادى : واحداً واحداً ، بحيث يختلي كُلٌّ مع نفسه ليفكر في أمر محمد بواقعية وتجرُّد : كيف كان بينكم ، وكيف كانت سيرته وأخلاقه ، وهل جرَّبتم عليه كذباً ، أو سحراً ، أو كهانة ؟ وهل سبق له أنْ ادَّعَى ما ليس له ؟ هل رأيتم عليه قبل بعثته علامة من علامات الجنون ؟ ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ (٤٦)﴾ [سبأ]

وهذا التفكُّر في حال رسول الله يحتاج إلى موضوعية ؛ لذلك اختار أنْ يتفردوا به ، إما مثنى مثنى ، وإما فرادى ، فالإنسان حين يكون بمفرده ، فلا يوجد له نظير ينهزم أمامه ، ولا نظير يهيجه على غير الحق ، فرأيه في هذه الحالة يكون أقرب للصواب .

والمنفرد إنْ تفكَّر وصل إلى الحق ؛ لأنه لن يغشَّ نفسه ، ولن يخدعها ، ولن يستكبر أنْ يعود للحق ، أما إن كانوا جماعة فلا بُدَّ أن يحاول كل منهم أنْ يثبت حجته ، ولو اضطر للكذب وللخداع كما

نراهم في مثل هذه المواقف ، كُلٌّ يحلف أنه على الحق وغيره على الباطل .

فكأن الحق بهذه الطريقة في التفكير يحمينا ويعصمنا من غوغائية الجماهيرية في الحكم ، هذه الغوغائية التي نشاهدها مثلاً في المظاهرات ، حيث يهتف كُلٌّ بما يريد ، فتختلط الأصوات ، وتتداخل الهتافات ، فلا تستطيع أنْ تميزها .

لذلك لما تكلم شوقي رحمه الله عن موقعة (اكتيوم) بين كليوباترا وخصومها وقد هُزِمَتْ فيها ، إلا أن أبواقهم صوَّرَتْ الهزيمة على أنها نصر ، وأخذتْ الجماهير الغوغائية تُردِّد ما يقولون ، فقال شوقي :

اسْمعِ الشعْبَ دُيُونُ .·. كَيْفَ يُوحُون إليْه
مَلأَ الجوَّ هتَافاً .·. بحياتَيْ قَاتليْه
أثَّر البهتانُ فيه .·. وانطَلى الزُّور عليْه
يَا لَهُ من بَبْغاء .·. عقلُه في أُذُنيْه!!

فالحق يُعلِّمنا كيفية التفكُّر مثنى أو فرادى ، ويحمينا من الغوغائية .

وهذه المسألة تأخذنا إلى اعتراض المستشرقين على قوله تعالى :

﴿ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) ﴾ [الأنبياء]

ووجه اعتراضهم : إذا كان الله تعالى يمتنُّ علينا بعلم ما نكتم ، فما الميزة في علم الجهر ، وكلنا يعلم الجهر ؟ ونقول : الخطاب هنا للجماعة ، فالحق سبحانه يعلم ما تكتمون جميعاً وما تعلنون ، إن اختلطت أصواتكم وتداخلت فهو يعلمها ، ويرد كلَّ صوت إلى

صاحبه ، وعلْم الجهر المختلط أعظم من علم المكتوم ؛ لأن المكتوم يمكن أنْ تكون له أمارات تدل عليه ، أمّا علم الجهر المختلط ، فيصعب أنْ تُميِّز بعضه من بعض .

كذلك إنْ كانوا مثنى مثنى ، فالاثنان كما نقول : الرأى والرأى الآخر ، ولو انهزم أحدهما أمام الآخر فهزيمته مستورة ؛ لذلك دائماً ما نسمع من يقول لخصمه : أريد أن أجلس أنا وأنت على انفراد . لأنكما طرفا المسألة ولا يوجد طرف ثالث يُسبِّب لواحد منكما إحراجاً ، أو إذلالاً ، يتسبب فى تغيُّر مسلكك أمامه .

ومعنى ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ] ليس القيام الذى يقابله القعود ، إنما مَنْ قام بالأمر يعنى : فعله وأدَّاه ، وإنْ كان قاعداً ، ومن ذلك نقول : فلان يقوم بأمر فلان ، أو فلان يؤدى وظيفة فلان . أى : يقوم بها .

ومعنى ﴿ مَا بِصَاحِبِكُم ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ] يعنى : رسول الله ﷺ ﴿ مِّن جِنَّةٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [سبأ] جنون ؛ لأنهم قالوا على رسول الله أنه مجنون ، وعجيب منهم وهم أعرف الناس به ، أنْ يصفوه بالجنون ، وهم لم يَرَوْا عليه علامة من علامات الجنون ، ولم يصنع شيئاً مخالفاً لمجتمعه الذى عاش فيه ، بل كانوا قبل البعثة يقولون عنه : الصادق الأمين ، فكما ظهر كذبهم فى قولهم (ساحر) ، كذلك ظهر كذبهم فى قولهم (مجنون) .

ولو خَلاَ الواحد منهم إلى نفسه ، ثم تفكَّر فى شخص رسول الله لوصل بنفسه إلى الحق ، ولو أدار فى عقله هذه الاتهامات لوجد أن رسول الله ﷺ برىء منها ، وما دام منفرداً فى هذا التفكُّر ، فلن يخجل أبداً أنْ يعود إلى الحق ؛ لأنه لن ينهزم أمام أحد .

وقد تناول القرآن الكريم كل افتراءاتهم على رسول الله ، وأظهر بطلانها ، فقال تعالى : ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة]

وقال : ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير]

والحق - سبحانه وتعالى - هنا لم يذكر لنا نتيجة التفكُّر والبحث مثنى وفرادى ؛ لأنه معلوم وواضح ، إلا أنه قال عنه ﷺ : ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ [سبأ]

شيء آخر : هل آمن الناس كلهم برسول الله بعد أن سمعوا منه قرآناً مُعْجزاً لنقول : إن القرآن هو المعجزة التى تثبت صدْق الرسول؟ نقول : لا ، إنما منهم مَنْ لم يؤمن بعد أن سمع القرآن ، ومنهم مَنْ آمن قبل نزول القرآن ، وبمجرد أنْ قال محمد : إنى رسول الله . وأولهم السيدة خديجة ، والصِّدِّيق أبو بكر ، فما حيثية إيمانهم برسول الله ؟ وما المعجزة التى عرفوا بها صدْقه ؟ حيثيته ومعجزته عند هؤلاء سيرته ﷺ فيهم أولاً ، فهى كافية لأنْ يؤمنوا به إنْ قال : أنا رسول الله إليكم . أما القرآن فهو معجزة وتحدٍّ لمن جحد .

لذلك نرى سيدنا رسول الله يُذكِّر قومه بهذه السيرة بينهم ويتخذها حجة له ، فلما بُعث صعد إلى الصفا ، ونادى فى القوم ، فلما اجتمعوا حوله قال : « أرأيتم لو حدثتكم أن خيلاً وراء هذا الوادى جاءت لتُغير عليكم ، أكنتم مُصدِّقى ؟ » قالوا : ما جرَّبنا عليك منْ كذب ، فقال « أنا رسول الله إليكم » فقالوا لتوِّهم : أنت كذاب تبّاً لك ، ألهذا جمعتنا ؟[1] .

---

(١) عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء] خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا (جبل بمكة) فاجتمعوا إليه . قال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مُصدقى ؟ قالوا : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . قال أبو لهب : تباً لك أما جمعتنا إلا لهذا ؟ فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾﴾ [المسد] . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٣٠٧) ، ومسلم فى صحيحه (٣٥٥) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٨/٧٣٨ - فتح البارى) .

ورُوِى في إسلام سيدنا عبد الله بن سلام ، وكان أحد أحبار اليهود أنه لما اطمأنَّ قلبه للإيمان بعد ما رأى من أوصاف رسول الله التي ذُكِرت في كتبهم ، وتأكَّد أنه رسول الله ذهب إليه وقال : يا رسول الله لقد شرح الله صدري للإيمان ، وتعلم يا رسول الله أن اليهود قوم بُهْتٌ ، فإذا أسلمتُ قالوا فيَّ ما ليس فيَّ ، فادْعُهُمْ يا رسول الله ، واسألهم عني ، وسوف أعلن إسلامي أمامهم بعد أنْ تسمع رأيهم فيَّ ، وفعلاً دعاهم سيدنا رسول الله وسألهم : ما تقولون في ابن سلام ؟ قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحَبْرنا وابن حَبْرنا ، وجمعوا له كل أوصاف المدح ، عندها قال ابن سلام : أما وقد قالوا فيَّ ما قالوا : أشهد أنك رسول الله ، فقالوا : بل أنت شرُّنا وابن شرِّنا[1] .

فقال : ألم أقُلْ لك يا رسول الله أنهم قوم بُهْت ؟

ونلحظ أن الذين صادموا رسول الله في أول البعثة ، والذين اتهموه بالكذب من أهله وأقرب الناس إليه ، وعمه هو الذي قال له : تباً لك ألهذا جمعتنا ؟ وهنا موطن حكمة وحجة في بعثة سيدنا رسول الله ، جعلها الله ليعلم الناس أن مكانة قريش وسيادتها في الجزيرة العربية لم تكن هي التي صنعت رسالة محمد ليسودوا بها العالم ، فأعدى أعدائه كانوا من قريش ، ولم يجد رسول الله نُصْرة في مكة ، إنما كانت نصرته في يثرب .

لذلك سبق أن قلنا : إن الإيمان بمحمد هو الذي خلق العصبية

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/١٦٥ - فتح الباري) والبيهقي في دلائل النبوة (٢/٥٢٧ - ٥٢٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه . وفي بعض ألفاظ الحديث أنهم قالوا أولاً : « ذاك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا » وفي لفظ آخر : « خيرنا وابن خيرنا ، وسيدنا وابن سيدنا » .

لمحمد ، لا أن العصبية لمحمد هى التى خلقتْ الإيمان به ﷺ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧) ﴾

الأجر : هو الجُعل مقابل عمل ، وهذه العبارة قالها كل الرسل ، فقد علَّمهم الله أنْ يقول الواحد منهم لقومه : ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) ﴾ [الشعراء] كأنه فى طىّ هذا الأسلوب ، أنه لو كان هناك تقييم منصف لكنتُ أستحق أجراً على رسالتى ودعوتى ؛ لأننى أجلب لكم بالهداية نفعاً كبيراً ؛ لأنه ليس صفقة فى هذه الدنيا الفانية ، إنما نفعاً باقياً فى حياة خالدة باقية .

لكن الواقع أننى لا آخذ أجرى منكم ، إنما آخذه من الله ؛ لأن العمل الذى أقوم به أكبر من أنْ تُقوِّموه بثمن ، والحق - سبحانه وتعالى - هو الذى يُقوِّم عملى ، وأنا واثق أنه سبحانه سيعطينى ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ (٤٧) ﴾ [سبأ]

ومعنى : ﴿فَهُوَ لَكُمْ (٤٧) ﴾[سبأ] يعنى : إنْ كنتُ أخذتُ منكم أجراً ، فسوف أعمل لكم بهذا الأجر ، أو سيعود جزاؤه عليكم .

وسبق أنْ قلنا : إن كل الرسل قالوا هذه العبارة إلا رسولين اثنين لم تَأْت هذه العبارة فى سياق كَلامهما ، هما : سيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى عليهما السلام ، مما يدل على أن هذه المسألة مبنية بحكمة كبيرة عالية ، فلماذا إبراهيم وموسى بالذات من بين كل الرسل؟

قالوا : لأن سيدنا إبراهيم عليه السلام أول ما واجه المخالفين واجههم فى عمه[1] ، فلما صادمه عمه ، ورفض دعوته اعتزله ، واكتفى بأن يدعو له ، وليس من المعقول أنْ ينتظر أجراً من عمه ؛ لذلك لم تأت فى كلامه مسألة الأجر هذه .

كذلك موسى - عليه السلام - كانت أول دعوته لفرعون ، الذى قال له : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الشعراء] يعنى : إنْ كان يستحق أجراً على دعوته لفرعون ، فسوف يستحى أن يطلب منه الأجر ، وقد تربَّى فى بيته ، وفى رعايته .

وكلمة ﴿ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ﴿٤٧﴾ ﴾[سبأ] تحتمل معنيين : أننى أخذتُ أجراً وأعطيته لكم ، أو أنا من الأصل لم أسألكم أجراً ، ثم تختم الآية بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ ﴾[سبأ] يعنى شاهد علينا جميعاً ، ويعلم ما قاسيته فى سبيل دعوتكم إلى الحق ، ويعلم ما فعلتموه معى من عناد وتعنُّت ، وهو سبحانه سيُعْلى أجرى على قدر معاناتى وما تحملتُه فى سبيل هدايتكم ، والأخذ بأيديكم إلى ساحته .

وإذا كان الإنسان إنْ عمل عملاً لا بُدَّ أنْ يكون له حَظٌّ منه ومَغْنم ومنفعة ، فرسول الله لم يسألكم حتى الأجر على العمل ، فبأىِّ شىء تتهمونه بعد ذلك ؟

---

(١) يذهب فضيلة الشيخ رحمه الله إلى أن آزر هو عم إبراهيم عليه السلام وليس أباه . وقد اختلف فى اسم أبى إبراهيم ، فالنسابون والمفسرون على أن اسم أبيه « تارح » وبعضهم قال « تارخ » . وبعضهم قال . إنهما اسمان له كما لكثير من الناس وكما كان ليعقوب عليه السلام فهو إسرائيل أيضاً . والبعض قال . إن تارح اسم وآزر لقب . وقيل : إن آزر هو اسم للصنم الذى كانوا يعبدونه . انظر تفسير القرطبى (٣/ ٢٥٤٤) ، وابن كثير فى تفسيره (٢/ ١٤٩) . وقصص الأنبياء لابن كثير (ص ١٠٤) ، ولسان العرب (مادة أزر) ، وقصص الأنبياء لعبد الوهاب النجار (ص ٩٢ - ٩٦) .

بعد ذلك أراد الحق سبحانه أنْ يُوضِّح لنا أمراً يتعلق بالحق الذى جاء به رسول الله ، فالكفار كانوا يعترضون على شخص رسول الله ، بدليل قولهم : ﴿ءأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِن بَيْنِنَا .. ⑧﴾ [ص]، وقالوا : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ㉛﴾ [الزخرف]

فهم يعترفون بالقرآن ويعلمون أنه ذكْر ، وأنه لا غبارَ عليه ، المشكلة أنه نزل على هذا الرجل بالذات ، ولم ينزل على واحد منهم من عظماء القوم ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يقول إن إنزال مناهج الله للأرض لا بُدَّ أنْ تنزل على مصطفًى يصطفيه الله ، لا مصطفًى يصطفيه الخَلْق ، فلا معنى لقولهم : ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ㉛﴾ [الزخرف]

لذلك يردُّ الحق سبحانه عليهم بالحجة : ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ㉜﴾ [الزخرف]

وقال سبحانه : ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ⑫④﴾ [الأنعام]

ورحمة الله هي ما ينتفع به الناس ، إما فى الدنيا ، وهذه رحمة تشمل المؤمن والكافر ، وإما رحمة فى الآخرة ، وهذه للمؤمن دون الكافر ، وهذه الرحمة الأخروية دائمة باقية فى نعيم لا يفوتك ولا تفوته ، فإذا كنتُ أقسم لكم أرزاقكم ومعيشتكم فى الحياة الدنيا ، فكيف أكِلُ إليكم اختيار مَنْ يرحمكم فى الآخرة ؟ هل أقسم لكم الرحمة الموقوتة ، وأترك لكم الرحمة الباقية ؟

ثم ينحو القرآن معهم منحًى آخر بعد أنْ وعظهم وتودَّد إليهم ، فيقول سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩) ﴾

لك أنْ تلحظ هنا حدة الأسلوب ، خلافاً للآيات السابقة التي كانت تعظهم وتتودد إليهم ، وكأن الحق سبحانه يقول لهم : لا تظنّوا أننا سنظل نتودد إليكم ، أو أنكم الذين ستسيِّرون المراكب ، فالدين سيُظهره الله رغم عنادكم ، والحق سيعلو رغم كفركم .

فقال سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ أي : رداً عليهم ﴿ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ (٤٨) ﴾[سبأ] فبعد أنْ أعطاكم الفرصة ، وبعد أنْ طال تمردكم ، فالآن ربي سيقذف بالحق ، كما قال سبحانه في موضع آخر ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [الأنبياء]

والقذف : الرمي بشدة ، وهي كلمة تُوحي بالعنف والقوة ، إنْ جاءت من البشر ، فما بالك إنْ كان القذف من الله ، والمقذوف من الله هو الحق ، والحق كما قلنا هو الشيء الثابت الذي لا يتغير .

والقذف لا بُدَّ أنْ له غرضاً وغاية ، ومَنْ أراد أنْ يقذف شيئاً عليه أنْ يُحدِّد المسافة لقريب أم لبعيد ، فإن كان لقريب فقلَّما يخطيء القاذفُ المقذوفَ ، وإنْ كان القذف لهدف بعيد فاحتمال الخطأ أكثر ، وهكذا كلما بَعُدَتْ المسافة ؛ لأن معنى القذف تحديد موضع لتصل القذيفةُ إليه ، وتصيب الغايةَ المقصودة منها .

وعندما يكون الموضع قريباً ، فالتغيرات التي ستطرأ عليه قليلة ؛ لأن زمن وصول القذيفة إليه قصير ، على خلاف الهدف إنْ كان بعيداً فهو عُرْضة لأنْ يتغير ، فتختلف مثلاً زاويته بسبب الريح ،

أو الأعاصير أو خلافه ؛ لذلك نحتاج في هذه الحالة إلى أجهزة وحسابات دقيقة تحسب بُعْد الهدف وقوة المقذوف ، وقوة الريح أي : تتصادم معه وغير ذلك من حسابات السرعة والزمن ، كالذي يرمي الطير مثلاً وهو في الهواء ، لا بُدَّ أنْ يغير نقطة التنشين لتناسب حركةَ واتجاه الطائر .

ولا أقْدَر على هذه العملية من علاَّم الغيوب سبحانه ، الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ؛ لذلك جاء الحق سبحانه بالصفة التي تناسب الدقة في هذه العملية ، فقال : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) ﴾[سبأ] ، فهو سبحانه أولاً يقذف بالحق ، وقذيفته سبحانه لا تخطىء هدفاً ؛ لأنه تعالى علاَّم الغيوب .

والحق الذي يقذف الله به هو المنهج الذي أنزله من السماء يقذفه لغاية وهي الرسالة ، كما قال سبحانه : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

إذن : القاذف هو الله ، والمقذوف الحق ، وهو الشيء الثابت الذي لا يتغير ، والغاية المقصودة هي وصول الرسالة إلى مَن اختاره الله لها ، وهذه العملية لا تخطىء ؛ لأن القاذف عالم بكلِّ غيب يؤثر على مسار المقذوف ، فالحق لا بُدَّ أنْ يصل إلى صاحبه المختار له والمصطفى لحمله ، لا إلى سواه .

لذلك هذه الآية تردُّ على هؤلاء الذين يقولون : إن الرسالة أو الوحي أخطأ ، فنزل على محمد بدل أنْ ينزل على فلان[1] ، فهذا تخبُّط لا سند له .

---

(١) من هؤلاء طائفة من طوائف الشيعة ، وهم أصحاب العلباء بن ذراع الدوسي ، وكان يفضل علياً على النبي ﷺ ، وزعم أن محمداً بُعِث ليدعو إلى علي فدعا إلى نفسه (الملل والنحل للشهرستاني ٢/ ١٧٥).

وكلمة ﴿الْغُيُوبِ (٤٨)﴾[سبأ] هنا تدل على كثرة المؤثرات التى يمكن أن تعترض القذيفة ، فتحُول بينها وبين هدفها ، وهذه المؤثرات لا يعلمها إلا الله .

فإنْ قلت : الفعل يقذف جاء فى صيغة المضارع الدال على الحال والاستقبال ، يعنى : أن الحق سبحانه عمله أنه يقذف بالحق إلى الرسل ، فهل قذفه إلى رسول الله ؟

تأتى الإجابة فى قوله تعالى فى الآية بعدها :

﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ .. (٤٩)﴾[سبأ] يعنى : قذفه بالفعل فى صورة القرآن الذى نزل على محمد الذى اختاره الله للرسالة ولحمل منهجه إلى خَلْقه لينظم به حركة حياتهم ، وإذا كان الحق الواضح الثابت قد جاء وظهر ، والذى قذفه علام الغيوب ، فما موقف الباطل المقابل له ؟ لا بُدَّ أنه يتراجع ، ولا يستطيع الصمود أمام قوة الحق .

﴿وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩)﴾[سبأ] فلا يبدىء فى الأولى ، ولا يعيد فى الأخرى ، يعنى : كما نقول : لا فى العير ولا فى النفير (لا يهش ولا ينش) ، هذا إذا كان للباطل وجود أو ثبات ، إنما الباطل ما هو إلا خيال بعيد فى أذهان أصحابه لا وجودَ له .

والحق - سبحانه وتعالى - يعطينا صورة حسِّية للحق والباطل، فيقول سبحانه : ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ..(١٧)﴾[الرعد] يعنى : كل وادٍ يحوى من الماء على قدر اتساعه ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا (١٧)﴾[الرعد]

والزَّبَد هو القشّ والفتات الذى يحمله الماء ، وهو تافه لا نفعَ فيه ، يأتى الهواء فيزيحه هنا وهناك ، وتبقى صفحة الماء نقية لينتفع الناس به .

ومعنى رابياً : طافياً على السطح ، وفى هذا إشارة إلى أن الباطل لا نفعَ فيه ، ولا بقاءَ له مهما علا ، وأن وجوده كوجود هذا الغثاء ، الذى لا قيمةَ له ، ولا فائدة منه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠ ﴾

نلحظ أنه ﷺ نسب الضلال إنْ حدث إلى النفس ، ولكنه ﷺ نسب الهداية إلى الله وإلى الوحى المنزَّل عليه ؛ لأن الله إذا أنزل منهجاً هادياً لإنسان مختار ، ومجال الاختيار أنْ تُوجد بدائل يختار العقل منها ؛ لأن العقل لا مهمة له فى الأمر الواحد الذى ليس له بديل ، فمثلاً : تقول أريد أنْ أسافر إلى الفيوم ، فلا تجد إلا طريقاً واحداً ، فلا عملَ للعقل والاختيار هنا ، لكن تقول : أريد أنْ أسافر إلى الإسكندرية ، فتجد طريقين : الزراعى وصفته كذا وكذا ومميزاته كذا وكذا ، والصحراوى وصفته كذا ومميزاته كذا .

والله تعالى خلق كونه كله مختاراً ، إلا فى الأمور القضائية القدرية ، فقد جعلها الله قهرية لا اختيارَ للإنسان فيها ؛ لأن تدخُّلَه فيها يفسدها .

ولا تظن أنك وحدك مختار فى الكون ، فكُلُّ ما حولك من السماء والأرض مختار أيضاً ، إلا أن السماء والأرض والجبال اختاروا مرة واحدة ، ثم سحبوا اختيارهم الكلىَّ على كل الجزئيات التى تأتى بعد ، واقرأ فى ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢)﴾ [الأحزاب]

فالجمادات اختارت من البداية أنْ تكون مقهورة لله عز وجل ، وأبَتْ تحمُّل هذه الأمانة ، أما الإنسان فتحملها وقال : أستطيع بعقلي أن أختار بين البدائل ، وفاته أنه أدرك وقت التحمُّل ، ولم يدرك وقت الأداء ، وما يطرأ عليه من عوارض وشهوات ووسوسة شيطان .. إلخ ؛ لذلك وصفه الحق سبحانه بأنه كان ظلوماً جهولاً ، يعني : ظلُوماً لنفسه ، جهولاً بالعواقب .

والمنهج الذي وضعه الحق سبحانه منهج عام ، وُضع للمؤمن وللكافر ، فالله هدى ودلَّ الجميع إلى طريق الخير ، وترك الجميع مختاراً ، فمنهم مَن اختار شهوات نفسه في الدنيا ، ورأى أنْ يتمتع بها ، ويحدث ما يحدث بعد ذلك ، ومنهم مَنْ تأمل هذا المنهج ، فوجده من مُطاع بمعجزة ، وهذه المعجزة خرقت نواميس الكون ، فهو - إذن - منهج من عليم قادر وإله أعلى ، اختار هذا المنهج لصلاح الخَلْق .

والإنسان عموماً يحب الخير لنفسه ، لكن يختلف الناس في فهمهم للخير ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً (١١)﴾ [الإسراء]

ويقول سبحانه :﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧)﴾ [الأنبياء]

وكأن الحق سبحانه يقول للإنسان : لا تعجل في دعائك ، وارْضَ بما اختاره لك ؛ لأن حكمك وفَهْمك للخير على قَدْر علمك بالخير ، لكن أنا أعلم منك به ، وأعلم منك باستقبالك لهذا الخير وأثره فيك .

لذلك قلنا : إننا نسمع كثيراً مَنْ يقول : أنا أصلى وأسير على منهج الله ، ومع ذلك دعوتُ فلم يُسْتَجب لى ، نقول : لأنك دعوتَ بالخير بفهمك أنت للخير ، لكن ربك أعلم منك بالخير لك ؛ لذلك لم يُجِبْ دعاءك .

وكثيراً أيضاً ما نسمع أمَّاً تدعو على ولدها الوحيد فى ساعة غضب تقول : (إلهى أشرب نارك ، إلهى يجيينى خبرك) بالله ، لو أن الله أجاب دعاءها ، ماذا كانت تقول فى ربها ؟ إذن : عدم إجابة الله لك فيما تدعو أحياناً هو عين الخير لك ، لأنه يعلم حمق دعائك ، وهو رب لا يرضى لك بآثار هذا الحمق : لذلك يُعدِّل لك ما أخطأتَ فيه .

أمر آخر فى هذه المسألة ، فقد يكون الدعاء بخير حقيقى ، لكن جاء هذا الدعاء من غير مضطر ، إنما جاء كما نقول (بغددة) ، والحق تبارك وتعالى وعد بإجابة المضطر إذا دعاه ، فقال سبحانه ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ (٦٢)﴾[النمل] فلو كنتَ مضطراً لأجابك ؛ لأن المضطر استنفد كل الأسباب الموهوبة له من الله ، وعجزَتْ قوته ، فلجأ إلى الله المسبِّب سبحانه ، وأغلبنا يدعو الله عن غير اضطرار .

إذن : حين لا يُجاب دعاؤك ، فاعلم أنه دعاء بشرٍّ تظنه أنت خيراً ، والخير فى ألاَّ يجيبك الله ، أو أن دعاءك عن غير اضطرار .

نعود إلى كلامنا عن المنهج الذى وضعه الله لهداية الناس جميعاً ، ونقول : الذى آمن بهذا المنهج واهتدى به يعينه الله ويزيده هداية ، كما قال سبحانه : ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)﴾ [محمد] والذى انصرف عنه وضلَّ كذلك يزيده الله من الضلال ، ويختم على قلبه ، بحيث لا يدخله إيمان ، ولا يخرج منه كفر ، ذلك لأنه تعالى رب يعين عبده على ما أحب ، ويزيده مما يريد .

إذن : طالما هناك اختيار في قبول المنهج فلا بُدَّ أن توجد هداية ، ويوجد ضلال ، الهداية تجلب الخير والثواب ، والضلال يجلب الشر والعقاب ، هنا الحق سبحانه يُوضِّح لنا أن الضلال يُنسب إلى النفس ، أما الهداية فتُنسب إلى الله وإلى منهجه ، وقد قال سبحانه في موضع آخر : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴿٧٩﴾﴾ [النساء]

وقال سبحانه قبلها : ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴿٧٨﴾﴾[النساء] لماذا ؟ لأنه سبحانه جعل الطريقين ودلَّ الجميع ، فإنْ نظرتَ إلى الفعل فالله هو الذي أمدَّك ، كما قال سبحانه : ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَٰؤُلاءِ وَهَٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴿٢٠﴾﴾ [الإسراء]

فالله أعطاك مثلاً اللسان تنطق به كلمة التوحيد ، أو تنطق به كلمة الكفر والعياذ بالله ، فاللسان لم يَعْصك ، لا في هذه ولا في تلك ، فمَن الذي أعطاك حرية الاختيار ؟ الله ، لذلك قلنا : لم يكفر كافر قهراً عن الله ، أما عدم رضائه عنه ، فهذا موضوع آخر .

لذلك قلنا : الرجل الذي أعطى لابنه جنيهاً مثلاً - وهو قوة شرائية - وقال له : اذهب إلى السوق واشتر به ما تريد ، لكن يُرضيني أنْ تنفقه في شيء نافع ، فالذي أعطاه القوة الشرائية أبوه ، والذي ترك له الخيار أبوه ، وهو قادر أنْ يحجر عليه ويسلبه هذه القوة ، وهذا هو الاختيار .

كذلك الحق - تبارك وتعالى - يريد أن يذهب الإنسانُ إليه وهو مختار ، وهو قادر ألاَّ يذهب ، يريد أن يذهب العباد إليه عن حب ، وعن رغبة ، وعن إيمان ، لا عن قهر وجبروت ؛ لأنه سبحانه - كما سبق أن قُلْنا - يريد قلوباً تخشع ، لا قوالب تخضع .

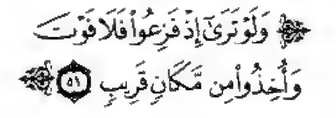
فقوله تعالى : ﴿قُلْ إن ضَلَلْتُ (٥٠)﴾[سبأ] يعنى : أنا وأنتم سواء فى هذه المسألة ؛ لأن الضلال نتيجة للسيئات التى تقترفها النفس ، فهى سبب الضلال ﴿قُلْ إن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي (٥٠)﴾[سبأ] أما الهداية فمن الله ؛ لأنها بسبب منهج الله ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي(٥٠)﴾ [سبأ]

لكن النبى ﷺ متفق وأمته فى نسبة الضلال إلى النفس ، لكن يختلف عنهم فى الهداية ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي (٥٠)﴾[سبأ] فالهداية جاءته ﷺ من الله مباشرة قبل أنْ يبعث له رسولاً بالرسالة ، وقبل أنْ ينزل عليه وحى السماء ، أما هداية الأمة فبواسطة الرسول الذى يُبلِّغ منهج الله ويأتى بالمعجزة .

فهداية رسول الله كانت بدايةً لما اختاره الله رسولاً على هذا الوضع من الهداية ، ثم أنزل عليه المنهج لهداية الأمة .

وقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)﴾[سبأ] سميع أى : يعرف مطلوبى ، ويسمع منى كل نَفَس ، وهو سبحانه مع سمعه قريب منى لا يبطىء علىَّ فى الإجابة ؛ لأن الفعل من الله تعالى لا يحتاج إلى علاج ومزاولة ، إنما الفعل من الله بكُنْ .

ثم يرجع الحق سبحانه إلى رسوله ﷺ ليُسلِّيه :



قوله تعالى : ﴿وَلَوْ تَرَىٰ (٥١)﴾[سبأ] أسلوب شرط ورد عدة مرات فى القرآن الكريم ، وتلحظ أن السياق لم يذكر له جواباً ، واقرأ :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ (٣١) ﴾ [سبأ]

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا .. (٢٧) ﴾ [الأنعام]

فالجواب هنا محذوف ؛ لأنه معلوم من السياق ، فالتقدير هنا : ولو ترى يا محمد إذ فزعوا يوم القيامة لرأيتَ شيئاً عظيماً وأمراً عجيباً يريح قلبك ، وينتقم لك جزاءَ ما كذَّبوك وعاندوك ، وقد ورد هذا المعنى أيضاً في قوله تعالى : ﴿ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

فالذين طغَوْا وتجبَّروا في الدنيا ، وصادموا كلمة الحق ، وكانوا عُتَاة وفراعنة تراهم في الآخرة حين يصيبهم فزعها (بسابس) قططاً وأرانب .

ومعنى ﴿ فَلَا فَوْتَ (٥١) ﴾ [سبأ] لا مهربَ ولا نجاةَ لهم ؛ لأن الإنسان قد يفزع ويخاف من شيء ، لكن يستطيع الهرب منه ، أو ربما ينقذه أحد ، أما هؤلاء فسوف يفزعون دون منقذ ودون مهرب ولا مفر ، وهذا يشفي صدرك وصدور المؤمنين الذين أوذوا معك في سبيل نشر دعوة الحق .

فكما وقفوا في وجه دعوة الله سيقفون يوم القيامة موقفَ الذلة والمهانة ، وتأمل : ﴿ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ (٣١) ﴾ [سبأ] ﴿ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ (٢٧) ﴾ [الأنعام] ﴿ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ (٣٠) ﴾ [الأنعام] يعني : ينتظرون أنْ يُؤذَن لهم ليرَوْا ماذا سيقول شفعاؤهم الذين عبدوهم من دون الله ، لكن يُفاجأون بأن شفعاءهم وكبراءهم يسبقونهم إلى النار ، ويتقدمونهم إلى العذاب كما تقدَّموهم في الضلال .

لذلك يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ﴾[مريم] وقال عن فرعون : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ [هود]

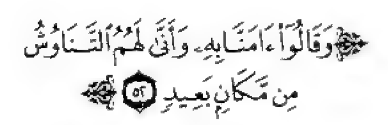
وهكذا يُيئِّسهم الله من النجاة ؛ لأنهم كانوا ينتظرون هؤلاء الشفعاء وهؤلاء الرؤساء ليدافعوا عنهم ، فإذا بهم يتقدمونهم إلى العذاب .

وهذه الوقفات التي ذكرناها للكفار يوم القيامة ، كل وَقْفة منها لها ذلة ، وكل وَقْفة لها فزعة ، وكل وقفة عذابٌ في حدِّ ذاتها ، وكأن الحق سبحانه يقول لنبيه : لو رأيت وقفاتهم وفزعهم لَشَفى غليلك ، ولعلمتَ أننا استطعنا أنْ نجازيهم بما يستحقون .

وسبق أنْ مثَّلْنا لهذا الموقف بواحد (فتوة) أو (فاقد) يُذِل أهل بلده ويُخيفهم ، فالكل يخافه ويجامله ويتقي شرَّه ، وفي إحدى المرات قبضتْ عليه الشرطة وساقوه في السلاسل ، فترى أهل البلدة فرحين يتغامزون به ، ونسمع فعلاً في مثل هذا الموقف مَنْ يقول (لو شفتْ اللي حصل لفلان) ، والمعنى : رأيتَ أمراً عجيباً لا يُتخيَّل في الذهن .

ومعنى : ﴿ وَأُخِذُوا ﴿٥١﴾ ﴾ [سبأ] أهلكوا ﴿ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ ﴾ [سبأ] هو موقف القيامة ومكان الحساب . يعني : لم يترك لهم الحق سبحانه بحبوحة ، إنما أخذهم من الحساب إلى النار .

ثم يقول الحق سبحانه :



سبحان الله ، فبعد أنْ فعلوا برسول الله وأتباعه ما فعلوا ، وبعد أنْ فزعوا وحاق بهم العذاب يعلنون الإيمان ويقولون﴿ آمَنَّا بِهِ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سبأ] ، وما أشبه هذا بإيمان فرعون لما أدركه الغرق ﴿قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس] فردَّ الله عليه ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس] يعني : هذا وقت لا ينفع فيه إيمان .

وهنا يردُّ الحق عليهم إيمانهم ، فيقول : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ[1] ﴿٥٢﴾ ﴾ [سبأ] أي : تناول الإيمان ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سبأ] كلمة(أنَّى) يعني: كيف لهم الإيمان الآن ، وهم في موقف الموت أو البعث ، فقد كان الإيمان قريباً منهم في الدنيا ، أما الآن فهو أبعد ما يكون عنهم .

لذلك استخدم السياق أداة الاستفهام (أنَّى) ولها معنيان : بمعنى كيف الدالة على التعجُّب يعني : هذا أمر غريب وعجيب منهم ، وتأتي (أنَّى) بمعنى من أين كما جاء في قول سيدنا زكريا للسيدة مريم : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَـٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا ﴿٣٧﴾ ﴾ [آل عمران]

يعني : من أين لك هذا الرزق ؟ لذلك ينبغي لولي الأمر أن يتعلَّم من هذه الآية إذا رأى عند أهله شيئاً لم يأتِ لهم به أن يسألهم من أين جاءوا به ، وكيف وصل إلى بيته ، وهذا احتياط واجب ؛ لأن هذا الشيء قد يكون تسللاً أو استمالة إلى معصية .

وترد السيدة مريم على هذا السؤال ﴿ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ

---

(١) التناوش : التناول من قرب . والمعنى : كيف يستطيعون تناول الإيمان وهم قد أخذوا للعذاب أخذاً لا فوت منه ولا مهرب ، وبذلك صاروا في مكان بعيد جداً عن الإيمان وعن قبول الاعتذار ، وقد بَعُد وقت التناوش ، فلا أمل في تناول أي خير لهم . [القاموس القويم ٢/٢٩٢]

اللَّهِ ﴿٣٧﴾ [آل عمران] ثم تذكر حيثية ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران] يعني : إياك أنْ تحسب المسائل بقدرتك ، فتقول : من أين أتتك فاكهة الصيف في الشتاء ، أو فاكهة الشتاء في الصيف ؟ لأن هذا عطاء الله وقدرته .

وكأن هذا القول من السيدة مريم قد نبَّه سيدنا زكريا إلى قضية غفل عنها ، فهزَّته هذه الكلمة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]

عندها قال في نفسه إذن : لماذا لا أدعو الله أنْ يرزقني الولد بعد أنْ بلغتُ من الكبر عتياً وامرأتي عاقر ، فعطاء الله لا يخضع للأسباب ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران]

وهكذا استفاد سيدنا زكريا من هذه القضية العقدية التي نبهته لها السيدة مريم ، وفعلاً استجاب الله له وأعطاه ولداً ، بل أكَّد ذلك بأنْ سمَّاه له ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران]

وهذا تسجيل للبُشْرى وتأكيد لها ، ومن ذلك ما رُوِي عن سيدنا أبي بكر ، فقبل أنْ يموت أوصى السيدة عائشة بخصوص الميراث من بعده ، فقال لها : إنما هما أُختاك وأخَواك . في وقت لم يكُنْ لها إلا أخوان هما : عبد الرحمن ومحمد ، وأخت واحدة هي السيدة أسماء، لكن بعد موت الصِّدِّيق ولدتْ زوجته بنت خارجة[1] بنتاً فصدقتْ وصية

(١) هي : حبيبة بنت خارجة بن زيد الخزرجية ، زوج أبي بكر الصديق ووالدة أم كلثوم ابنته التي مات أبو بكر وهي حامل بها فقال : ذو بطن بنت خارجة ما أظنها إلا أنثى فكان كذلك، تزوجت إساف بن عتبة بن عمرو بعد وفاة أبي بكر . [انظر : الإصابة في تمييز الصحابة (٤٨/٨)] .

الصِّديق ، وهو - رضي الله عنه - لم يكُنْ علم الغيب ، إنما علِّم ، وأنطقه الله بذلك ، لأنه لا يعلم ما في الأرحام إلا الله ، فلا أحد يعلم ما في الأرحام بذاته ، إنما يُعلَّم من الله .

وقد ورد عن سيدنا رسول الله أنه قال لأهل المدينة : « المحيا مَحْياكم ، والممات مماتكم »[1] فبيَّن ﷺ أنه سيموت في المدينة ، والله تعالى يقول : ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان]

فرسول الله ﷺ لم يكُنْ يعلم غيباً ، إنما علِّم الغيبَ من علاَّم الغيوب سبحانه ؛ لذلك لا نقول فلان عالم غيب ، إنما مُعلَّم غيب.

لذلك كثيراً ما نرى بعض أهل الصلاح أو الذين كشف الله عنهم الحجاب يرى السيدة الحامل فيقول لها سَمِّ هذا الولد محمداً ، وفعلاً تلد ولداً ، وتسميه محمداً ، هذا تسجيل للبُشْرى وإلهام من الله وتعليم لمن اختارهم الله لهذا العلم .

والناس حين يُسمون يختارون الاسم الذي يُتفَاءل به ، فيقولون : سعيد ، ذكي .. إلخ تفاؤلاً أن يكون الولد بالفعل سعيداً أو ذكياً ، لكن أتملك أن يكون الاسم على مُسمَّاه ؟ لا لا أحد يملك أنْ يكون ولده كما يريد ، لكن إذا كان المسمِّي هو الله سبحانه فهو وحده القادر على تحقيق المسمَّى .

لذلك لما وهب لسيدنا زكريا الولد وسماه (يحيى) لم يفطن الناس إلى هذه التسمية ، وأنها من الله تعني أن هذا الولد سيحيا ولا يموت ، فالله سماه يحيى ليحيا ، وفي هذه التسمية إشارة إلى أنه سيموت شهيداً ، فتتصل حياة الدنيا بحياة الشهادة ، ولو فطن قاتلوه إلى هذا المعنى ما قتلوه .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٨٠) رواية (٨٦) كتاب « الجهاد والسير » أنه قال للأنصار في حديث طويل : « أنا محمد عبد الله ورسوله ، هاجرت إلى الله وإليكم ، فالمحيا محياكم والممات مماتكم » .

لذلك لما ذهبنا لزيارة قبر سيدنا حمزة قلنا هناك:

أَحَمْزَةَ عَمَّ المصْطَفى أنتَ سَيِّدٌ عَلى شُهَداء الأرْضِ أجمعِهمْ طُرَّا
وحَسْبُكَ من تِلْكَ الشهادة عِصْمةٌ من المْوتِ في وَصْلِ الحياتَيْنِ بالأُخرى

وهذه القضية العقدية التي استفاد منها سيدنا زكريا فطلب من الله الولد ، استفادت منها السيدة مريم بعد ذلك حين حملت بلا ذكورة ، فتذكرت ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران] فاطمأن قلبها .

فكلمة (أنَّى) في قوله تعالى : ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢)﴾ [سبأ] هي بمعنى كيف ، ومثلها قول السيدة مريم لما بُشِّرت بعيسى : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ (٢٠)﴾ [مريم]

ومثل قوله تعالى : ﴿أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا (٢٥٩)﴾ [البقرة] فالسؤال هنا عن كيفية الإحياء ، وهي مسألة لا تُقال إنما تُشاهد ، ألم نقرأ قول سيدنا إبراهيم :﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (٢٦٠)﴾ [البقرة]

وللمستشرقين اعتراض على هذه الآية . يقولون : كيف يخاطب الله أبا الأنبياء إبراهيم ويقول له ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن (٢٦٠)﴾[البقرة] ويقول هو ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي (٢٦٠)﴾[البقرة] . وهل الإيمان إلا اطمئنان قلب إلى عقيدة ما ؟

ونقول : الإيمان خلاف الاطمئنان هنا ، فالإيمان بأن الله يحيي الموتى موجود عند إبراهيم ، فهو لم يسأل : أيوجد إحياء للموتى من الله أم لا يوجد ؛ لأنه يؤمن بقدرة الله على إحياء الموتى ، إنما يسأل عن كيفية ذلك . فالاطمئنان المقصود على الكيفية ، بدليل أن الله تعالى

أظهر له آية عملية وتجربة حسِّية فى مسألة ذبح الطير ؛ لأن الكيفية كما قلنا لا تُقَال إخباراً إنما تُشَاهد .

فالحق سبحانه ينكر على الكفار تناولهم للإيمان فى هذا الوقت ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) ﴾ [سبأ] التناوش تناول الشيء بيُسْر ، وهم يريدون تناول الإيمان في آخر لحظة ، وبعد فوات أوانه وضياع فرصته ، يريدون إيماناً بلا تكاليف ، وأنَّى لهم ذلك ، وهم أبْعد ما يكونون عن الإيمان ؛ لأن محل الإيمان فى الدنيا ، فهذا القول منهم أشبه بقول أصحابهم الذين قالوا : ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ (٣٧) ﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ (٥٣) ﴾

يعنى : عرض عليهم الإيمان وهم فى بحبوحة الدنيا وسعتها ، فكفروا به ، والدنيا هى محلُّ الإيمان ومحلُّ التكاليف والأوامر والنواهى ، فلما وقفوا موقف الموت أو البعث تمنَّوا الإيمان وقالوا آمنا وهم فى هذا ﴿ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) ﴾[سبأ] يعنى : يتكلمون بالظن فيما لا عِلْم لهم به ، يريدون أنْ يصلوا إلى غرضهم ، وهو أنْ ينجوا من العذاب ، لكن يأتى هذا القذف بالظن أيضاً من مكان بعيد ، يعنى فى غير محله ، وفى غير وقته ، والقرآن هنا أثبت لهم قَذْفاً ، كما أثبت للحق سبحانه قَذْفاً ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ (٤٨) ﴾[سبأ] . لكن شتَّان بين الاثنين .

قذف هؤلاء من مكان بعيد ، والقَذْف من بعيد قَذْف لا يصيب الهدف ، وهم فى قَذْفهم لا يعلمون الغيب ، ولا يعلمون المؤثرات التى تؤثر على المقذوف ، أما الحق سبحانه فيقذف وهو سبحانه علاَّم الغيوب الذى لا يغيب عن علمه شىء .

﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

نقول : حُلْتُ بين الخصمين يعنى : فصلْتُ بينهما ، وجعلتُ بينهما حائلاً ومانعاً من الاشتباك حتى لا يبلغ كل منهم أشُدَّه فى المعركة ، أو ينال مراده من خَصْمه ، فالحق - سبحانه وتعالى - جعل حائلاً ومانعاً بين هؤلاء وبين ما يشتهون .

والاشتهاء طلب شهوة النفس من غير ارتباط بمنهج ، لكن ما الذى كان يشتهيه الكفار ؟ كانوا يشتهون أنْ يطمسوا دعوة الحق ، فلم يُمكّنهم الله من طمسها ، كما قال سبحانه :﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة]

وقال سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الصف]

وهم يشتهون انطماس الدعوة ؛ لتبقى لهم سيادتهم التى نهبوها على حساب الضعفاء ، ولتظل لهم المكانة والتصرُّف ، كذلك يَشْتهون انطماس الدعوة حتى لا تقف مناهج الله عقبةً أمام شهوات نفوسهم .

ومعلوم أن الإنسان تحاربه نفسه قبل أن يحاربه الشيطان ، لذلك قال النبى ﷺ فى رمضان : « إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة ،

وغُلِّقت أبواب النار ، وصُفِّدت[1] الشياطين[2] » ومع ذلك تحدث في رمضان ذنوب وجرائم . إذن : هذه الذنوب وهذه الجرائم ليست عن طريق الشيطان ، إنما من طريق النفس ، كأن الله تعالى يريد أنْ يفضح العاصين الذين يتهمون الشيطان ، ويُلْقون عليه تبعة كل ذنوبهم . إذن : ليس الشيطان وحده هو وسيلة الضلال والغواية ، إنما هناك النفس الأمَّارة بالسوء .

وسبق أنْ أوضحنا كيفية التفريق بين المعصية من طريق الشيطان والمعصية من طريق النفس ، وقلنا : إذا وقفْتَ أمام معصية بعينها لا تتحول عنها مهما عَزَّتْ عليك أسبابها ، فاعلم أنها من شهوات النفس ؛ لأن النفس تريد شيئاً بعينه ، أما الشيطان فإنْ عزَّت عليك معصية أخذك إلى أخرى ، المهم أن تعصي الله على أيِّ وجه ، وبأية طريقة .

فقوله تعالى : ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٤﴾﴾[سبأ] دلَّ على أن المسألة بالنسبة لهم كانت شهوةَ نفس ، لا مدخلَ للشيطان فيها ، لماذا ؟ لأنهم كفروا بالله وفرغ الشيطان منهم ، وإلا ماذا يريد منهم بعد ذلك ، فلم تَبْقَ إلا شهوات النفس فاشتهوا أنْ يطمسوا الدعوة ، وأنْ يذلوا مَنْ آمن ويجعلوه عبرةً لمن يفكر في الإيمان ، لكن حال الله بينهم وبين ما أحبوا ، وسارت الدعوة على خلاف ما اشتهوا ، فمن ذُلَّ وضُرِب وأُهين من المؤمنين ثبت على إيمانه ، ومَنْ كان يفكر في الإيمان لم يَرْهَبْهُم ، ولم يخف مما فعلوه بإخوانه المؤمنين .

---

(١) صفدت : أي شُدَّت وأوثقت بالأغلال . والأصفاد هي الأغلال وقيل : القيود . [لسان العرب - مادة : صفد] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٢٥٧) ، ومسلم في صحيحه (١٠٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

فإنْ قلت : كيف أسلم اللهُ المؤمنين الأوائل لأنْ يعذبهم الكفار ، وأنْ يُهينوهم ويُخرجوهم من أرضهم ؟ نقول : كان هذا لحكمة عالية أرادها الحق سبحانه ، وهيَ أنْ يُمحِّص إيمانَ المؤمنين ، بحيث لا يثبت على إيمانه إلا قوى العزيمة الذي يصبر على تحمل الشدائد ، فهؤلاء هم الذين سيحملون منهج السماء ودعوة الحق إلى العالم أجمع ، فلا بد أن يكونوا صفوة تختار دين الله وتضحى فى سبيله بكل غالٍ ونفيس .

لذلك أراد سبحانه أنْ تتزلزل هذه الدعوة في بدايتها عدة مرات، وأن ترى بعض الفتن التي تُغربل الناس ، وتُخرِج المؤمنين في جانب ، والمنافقين في الجانب الآخر ، وهذا ما حدث بالفعل في مسألة الإسراء والمعراج مثلاً ، وفي رحلة الطائف ، كلها فتن تُمحِّص المؤمنين .

لقد ضيَّق الكفارُ على المؤمنين الخناقَ ، حتى جلس رسول الله يفكر في أمرهم ويفتش في رقعة الأرض المعاصرة له ، أيها تناسب أصحابه ، ويأمنون فيها على أرواحهم وعلى دينهم ، فلم يجد ﷺ إلا الحبشة ، فقال لأصحابه : « اذهبوا إلى الحبشة ، فإن بها ملكاً لا يُظْلَم أحد عنده »[1].

وفعلاً كان النجاشي عند ظن رسول الله ، فأكرم المؤمنين ، ورفض أنْ يُسلِّمهم إلى وفد قريش : لذلك كافأه رسول الله بأنْ وكله

---

(١) عن أم سلمة أنها قالت : « لما ضاقت علينا مكة ، وأوذى أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم ، وكان رسول الله في منعة من قومه ومن عمه لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه ، فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه » حديث طويل أخرجه البيهقي فى دلائل النبوة (٢/ ٣٠١) ، وابن هشام في السيرة بنحوه (١/ ٣٢١).

في أن يُزوِّجه من أم حبيبة[1] ، وكانت لهذه الزيجة حكمة ، فالسيدة أم حبيبة هاجرت مع زوجها إلى الحبشة ، لكنه تنصَّر هناك ، وظلَّتْ أم حبيبة على إيمانها ، فدلَّ ذلك على صدْق إيمانها ، وأنها ما هاجرت لأجل زوجها ، إنما هاجرت لله ورسوله ، فكافأها رسول الله هذه المكافأة .

فالكفار اشتهوا إيذاء رسول الله وإيذاء المؤمنين مجاهرةً ، فلم يصلوا من ذلك إلى شيء ، فاشتهوا التآمر على رسول الله وقَتْله ، ودبروا له مؤامرة لقتله ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال] فخيَّب الله سَعْيهم ، وخرج رسول الله من بين شبابهم وفتيانهم ، وهو يحثُو التراب على وجوههم ، ويقول : « شاهت الوجوه»[2]

والله يقول : ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [يس]

وهكذا حالَ الله بينهم وبين ما يشتهون من المجاهرة ومن المؤامرة ، فحاولوا أنْ يسحروا رسول الله ، بأن يكيدوا له بطريقة خفية فَسَحره لبيد بن الأعصم[3] ، واستعانوا في ذلك بإخوانهم من شياطين الجن ، كما قال سبحانه : ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ

---

(١) هي : رملة بنت أبي سفيان ، صحابية ، من أزواج النبي ﷺ وهي أخت معاوية ، كانت من فصيحات قريش ، ومن ذوات الرأي والحصافة ، تزوجها رسول الله بعد أن تنصَّر زوجها وهما في الحبشة عام ٧ هجرية . توفيت بالمدينة عام ٤٤ هـ عن ٦٩ عاماً بعد ٣٤ عاماً من وفاة الرسول . [الأعلام للزركلي ٣/٣٣] .

(٢) ورد قول رسول الله هذا في حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد في المسند (١/٣٦٨)، وكذلك في غزوة حنين في صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد في مسنده (١/٢٨٦) والدارمي في سننه (٢/٢١٩) من حديث أبي عبد الرحمن الفهري .

(٣) لبيد بن الأعصم يهودي من بني زُرَيق ، وكان قد أسلم نفاقاً ، وقد كان ساحراً ، وقد جاءه اليهود فقالوا له : يا أبا الأعصم ، أنت أسحرنا ، وقد سحرنا محمداً فلم تصنع شيئاً ، ونحن نجعل لك جُعْلاً على أن تسحره لنا سحراً ينكؤه ، فجعلوا له ثلاثة دنانير ، انظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني (١٠/٢٢٦)

﴿لِيُجَادِلُوكُمْ ١٢١﴾[الأنعام] لكن خيَّب الله مسْعاهم في السحر أيضاً ، ولم ينالوا من رسول الله ، ولا من منهج الله ، وكأن الله تعالى يقول لهم : وفّروا على أنفسكم ، فرسول الله معصوم من الله ، كما خاطبه سبحانه بقوله . ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ٦٧﴾ [المائدة]

وقوله سبحانه : ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ٥٤﴾ [سبأ] يعني هذه القضية ليست خاصة بكفار مكة ، إنما هي سنة مُتبعة في الأمم السابقة ، ومعنى ﴿بِأَشْيَاعِهِم ٥٤﴾[سبأ] بأمثالهم من الكفار في الأمم السابقة .

والأشياع : جمع شيعة ، وهم الجماعة المجتمعة على رأي يقتنعون به ، ويدافعون عنه ، سواء أكان حقاً أم كان باطلاً ، فقوله تعالى هنا : ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ٥٤﴾ [سبأ] دلَّ على أنهم كانوا على باطل ، أما قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ٨٣﴾ [الصافات] فهذه على الحق .

والمعنى : أنهم أُخذوا كما أُخذ أمثالهم من الكافرين مع الفارق بين الحالتين ، فقبل رسول الله كانت السماء تتدخل مباشرة لتدافع عن دين الله وعن نبي الله ؛ لذلك حدثتْ فيهم الزلازل والخسْف والصيحة والمسخ .. إلخ .

فالأمم السابقة لم تكُنْ مأمونة على أنْ تدفع عن دين الله بسيفها، أما أمة محمد ﷺ فقد استأمنها الله على هذه المهمة ، فحملتْ السيف ودافعتْ عن دينها ؛ لذلك أكرم الله هذه الأمة ، فلم يحدث فيها خَسْف، ولا مَسْخ ولا إغراق . مما حدث لسابقيهم .

لذلك لما يئس نوح عليه السلام من هداية قومه دعا عليهم :

﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا[1] (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح]

أما سيدنا رسول الله فجاءه الملك يعرض عليه الانتقام من كفار قومه ، فيقول : لا ، لعل الله يُخرج من أصلابهم مَنْ يقول لا إله إلا الله . وفعلاً آمن منهم كثيرون أمثال : خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل ، وكما كانوا ألدَّ أعداء الإسلام صاروا قادته الفاتحين .

وقد تألم المسلمون كثيراً ؛ لأن هؤلاء نجوْا من القتل ، وهم لا يدرون أن الله تعالى كان يدخرهم للإسلام ، فصار خالد سيف الله المسلول ، وعمرو أعظم القادة الفاتحين ، ويكفى شهادة لعكرمة[2] أنه ابن أبي جهل ، وأنه لما ضُرِب ضربة قوية في موقعة اليرموك احتضنه خالد وهو يعاني سكرات الموت ، فقال : يا خالد ، أهذه ميتة تُرضي عنى الله ورسوله ؟

حتى الذين ظلُّوا على كفرهم من قوم رسول الله كانوا فى صالح الإسلام ، فمثلاً أبو لهب وهو عم رسول الله ، وهو الذى قال له : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ، وهو الذى قال عن رسول الله لما مات ولده

---

(١) يقال : ما بالدار ديَّار ، أي ما بها أحد . والداريُّ : الملازم لداره لا يبرح ولا يطلب معاشاً . [لسان العرب - مادة دور] .

(٢) هو : عكرمة بن أبي جهل بن هشام المخزومي القرشي ، من صناديد قريش في الجاهلية والإسلام . كان هو وأبوه من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وأسلم عكرمة بعد فتح مكة ، وحسن إسلامه ، فشهد الوقائع وولي الأعمال لأبي بكر ، واستشهد في اليرموك عام ١٣ هـ وكان عمره ٦٢ سنة . [الأعلام للزركلي ٤/٢٤٤] . وذكر ابن سعد في طبقاته (٩/٤٠٨) : « قُتل يوم أجنادين شهيداً » .

إنه أبتر[1] يعني مقطوع الذرية ، لأن أولاد البنات يُنسبون إلى آبائهم ، كما قال الشاعر[2] :

فَإنَّمَا أُمَّهَاتُ القَومِ أوْعِيَــةٌ مُسْتَوْدَعَاتٌ وللأحْسابِ آبَاءُ[3]

ومن العجيب أن أبا لهب قدَّم للإسلام كما قدَّم خالد وعمرو وربما أكثر ، كيف ؟ لأن الله جعله حجة على صدْق كلام الله ، وعلى صدْق رسول الله فيما بلَّغ عن ربه ، فلما قال لرسول الله : تباً لك ، ألهذا جمعتنا ؟

ردَّ الله عليه : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ [المسد]

فحكم الله عليه وهو ما يزال في سَعَة الدنيا ، وما يزال مختاراً حراً قادراً على إعلان إيمانه ولو نفاقاً ، ومع ذلك لم يجرؤ أنْ ينطق بكلمة التوحيد ، ولو نطق بها لكان له أن يقول : إن القرآن كاذب ،

---

(١) قال عطاء في قوله تعالى : ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر] : نزلت في أبي لهب وذلك حين مات ابن لرسول الله فذهب أبو لهب إلى المشركين فقال : بتر محمد الليلة (ابن كثير ٤/٥٥٩) وليس هذا الابن هو إبراهيم ، فإن إبراهيم ولد لرسول الله من مارية بالمدينة المنورة وليس بمكة والأقرب أنه القاسم .

(٢) هو : محمد بن هارون الرشيد العباسي يلقب بالأمين العباسي ، خليفة عباسي ، ولد في رصافة بغداد عام ١٧٠ هـ ، بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه (١٩٣ هـ) بعهد منه ، خلفه أخوه المأمون بعد عامين ، كان شجاعاً أديباً رقيق الشعر مكثراً من إنفاق الأموال سيء التدبير ، يؤخذ عليه انصرافه إلى اللهو ومجالسة النُّدَماء . مات عام ١٩٨ هـ [الموسوعة الشعرية] .

(٣) البيت من قصيدة للأمين العباسي ، من بحر البسيط ، يقول فيها :

لا تحقرن امرءاً من أن تكون له أم من الروم أو سوداء عجماء
فإنما أمهات القوم أوعية مستودعات وللأحساب آباء
فَرُبَّ مُعْربة ليست بمنجبة وربما أنجبت للفحل سوداء

وها أنا أشهد ألا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسـول الله . وهكذا أقام الله من هذا الكافر المعاند دليلاً على صدْق كلامه ، وصدْق رسوله .

ثم تُختم السورة بقوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ (٥٤)﴾[سبأ] كانوا في شك من أمر رسول الله ، ونُصْرته عليهم ، وعدم تخلِّي ربه عنه ، مع أنهم كانوا على اتصال بأهل الكتاب ، وأهل الكتاب يقرأون كتبهم على هؤلاء الكفار ويستفتحون بها عليهم ، وقد علموا منها أن عاقبة الصراع بين الرسل وأقوامهم على مَرِّ موكب الرسالة كانت للرسل ؛ لأن الله تعالى ما كان ليرسل رسولاً ثم يُسلمه أو يتخلى عنه .

وهذه قضية ذُكرت في الكتب السابقة كما ذُكرت في القرآن في أكثر من موضع ، وإن كانت الكتب السابقة قد ضاعت أو حُرِّفت فالقرآن هو كتاب الله الباقي الذي تكفَّل الله بحفظه ، فهو يُتلَى كما أُنزل إلى يوم القيامة ، وفيه يقول الله تعالى : ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (٥١)﴾[غافر]

وقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾[الصافات]

لذلك سبق أنْ قلنا . إنْ هُزِم الإسلام في معركة مع غيره فاعلم أن شرط الجندية الإيمانية قد اختلَّ ، ولو نصرهم الله مع اختلال شرط الجندية فيهم ما قامتْ للإسلام قائمة بعدها ، وهذا الدرس تعلمناه في أُحُد ، لما خالف الرماة أمر رسول الله ونزلوا من على الجبل يريدون الغنائم ، مع أن رسول الله ﷺ حذَّرهم من هذا ، وقال

لهم : لا تتركوا أماكنكم مهما حدث[1] ، فلما تركوا أماكنهم التفَّ عليهم الكفار ، وكادوا يهزمونهم .

وإنْ كان التحقيق أن الكفار لم ينتصروا في أُحُد ؛ لأن المعركة (ماعت) ، ولو انتصر المسلمون مع هذه المخالفة لهَانَ عليهم أمر رسول الله بعد ذلك ، ولقالوا . لقد خالفنا أمره في أُحد وانتصرنا ، إذن : نقول : الذي هُزِم في أُحد هو مَنِ انخذل عن جندية الإيمان ، أمَّا الإسلام في حدِّ ذاته فقد انتصر .

إذن : كانوا في شكٍّ من الغاية التي ينتهي إليها رسول الله ، والشك هنا في رسول الله لأن لديهم قضيةً عقدية هي الإيمان بوجود الله ، وأنه سبحانه الخالق لكل شيء ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴿٨٧﴾﴾ [الزخرف]

والشك يعني عدم الجزم وعدم اليقين ، وبيَّنا ذلك بأن نسَبَ الكلام في الكون ست ، لكل ثلاث منها اتجاه ، فالكلام بداية علَّم الله سبحانه آدم الأسماء كلها ليتفاهم بها مع غيره ، فالكلام يقتضي متكلماً ومُخاطباً ، ولا بُدَّ أن يكون المخاطب على علم بمدلول الكلام ، بدليل أن العربي لا يفهم الإنجليزي ، ولا الإنجليزي يفهم العربي ، لا بُدَّ من علم بالتواضع في اللغة ليفهم كل منهما عن الآخر .

والكلام المفيد هو الجملة التي يحسُن السكوت عليها ، بأن تعطي

---

(١) ذكر ابن هشام في السيرة النبوية (٣/ ١٠) أن رسول الله ﷺ أمَّر على الرماة عبد الله ابن جبير ، والرماة خمسون رجلاً فقال له : « انضح الخيل (ادفعهم عنا) بالنبل لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قِبَلك » ، ولكنهم خالفوا أمر رسول الله عندما رأوا كفار قريش ينهزمون فنزلوا ليجمعوا الغنائم والأسلاب ، وفطن خالد ابن الوليد لهذا ، وقد كان كافراً في جيش الكفار ، فأغار على المسلمين وأعمل فيهم الطعن آمناً من نبل الرماة .

معنى مفيداً ، فلو قُلْت مثلاً (محمد) فهى مفردة من مفردات اللغة لا تعطى معنى إلا بنسبة ، فتقول : محمد كريم ، فأسندتَ الكرم إلى محمد ، وهذا معنى تام ، يحسُن السكوت عليه .

وإسناد الكرم لمحمد هو مُعتقد المتكلِّم به ، فإنْ كان لهذا الكلام وجود بالفعل بأن وُجد شخص اسمه محمد ، وصفته الكرم ، فهذا الكلام المعتقد جازم بالحكم والحكم واقع ، فإنْ كان المتكلم غير جازم بالحكم ، متردداً فيه فهذا شك ، فالشك فيه نسبة متأرجحة بين النفى والإثبات بحيث تتساوى الكفتان ، فإنْ رجحت واحدة فهى ظن ، والأخرى المرجوحة وهم .

إذن : كم نسبة للكلام غير المجزوم به ؟ ثلاث : الشك والظن والوهم . أما الكلام المجزوم به فإنْ كان له واقع ، وتستطيع أنْ تدلل عليه فهو علم ، وإنْ لم تستطع أنْ تُدلل عليه فهو تقليد ، وإنْ جزمتَ به وليس له واقع فهذا جهل ، وهذه الثلاث نسَب الكلام المجزوم به : علم ، وتقليد ، وجهل .

إذن : الكفار جازمون معتقدون فى أن الله هو الخالق ، لكنهم شاكُّون فى مسألة البلاغ عن الله ، وأنها جاءت على لسان محمد ﷺ ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾[سبأ] الشك ذاته يُوقع فى الارتياب والقلق .


سورة فاطر

سورة فاطر[1]



﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ[2] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) ﴾

تعرَّضنا للسور التي بُدئت بالحمد لله ، وهي : الأنعام ، والكهف ، وسبأ . وهنا في فاطر ، والحمد في كل منها له معنى وله مناسبة ؛ لأن الإنسان احتاج إلى إيجاد من عدم ، ثم وسائل إبقاء في الحياة الدنيا ، ثم احتاج إلى إيجاد بعد البعث ، وأيضاً وسائل إبقاء في الآخرة .

فسورة الكهف تعرضت لحمد الله على المنهج ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ

---

(١) سورة فاطر سورة مكية في قول الجميع . قاله القرطبي في تفسيره (٨/٥٥٩٠) وهي السورة رقم (٣٥) في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها (٤٥) آية ، نزلت بعد سورة الفرقان وقبل سورة مريم ، فهي السورة رقم (٤٢) في ترتيب النزول ، وتسمى أيضاً سورة الملائكة لذكرهم فيها .

(٢) الفاطر : الخالق ، والفَطْر : الشق عن الشيء ، والفطر : الابتداء والاختراع . قال ابن عباس : كنت لا أدري ما ﴿ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١) ﴾[فاطر] حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي : أنا ابتدأتها . [تفسير القرطبي ٨/٥٥٩٠] .

عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ .. ① ﴾[الكهف] ؛ لأن المنهج هو وسيلة الاستبقاء للإنسان ، فلولا أن المنهج يُبيِّن للناس الحق والباطل لتفانى الخَلْق ، وما استقامتْ لهم الحياة ، أما سورة سبأ فتعرضت لحمد الله على نعمه في الدنيا وفي الآخرة .

وهنا في فاطر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً ① ﴾[فاطر] ؛ فذكرتْ الحمد على وسائل الإبقاء كلها ، المادي منها المتمثل في مُقوِّمات الحياة المادية ، والمعنوي منها المتمثل في منهج الله .

والحمد على إطلاقه لله تعالى ، حتى إنْ توجه للبشر ، فمردُّه إلى الله ؛ لأنك حين تحمد البشر تحمده على شيء قدَّمه لك ، هذا الشيء ليس من ملْكه في الحقيقة ، ولا من ذاته ، إنما هو من فيض الله عليه ، فهو مناول عن الله ، وإنْ قدَّم لك عملاً فإنما يقدِّمه بالطاقة التي خلقها الله فيه ، وبالجوارح التي انفعلتْ بخَلْق الله فيه ، إذن : فالحمد بكل صيغة راجع إلى الله تعالى .

ثم يأتي بحيثية من حيثيات حَمْد الله ، فيقول ﴿ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ① ﴾[فاطر] ومعنى فاطر السموات والأرض : خالقها ومُبدعها على غير مثال سابق يُحتذى به ، وهذه مسألة تستحق الحمد ؛ لأن الله تعالى كرَّم الإنسان الخليفة في الأرض ، فسَوَّدهُ على سائر الأجناس وكرَّمه بالعقل الذي يختار بين البدائل .

وبعد ذلك بيَّن سبحانه إنْ كان خَلْق الإنسان مُعْجزاً ، وإنْ كان هو السيد المخدوم من جميع الأجناس ، فإنَّ خَلْق السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس وأعظم ؛ لذلك لما تكلم سبحانه عن حمد الله ذكر أكبر المخلوقات وأعظمها ، وهي السموات والأرض .

والسماء هي كل ما علاك ، لذلك تُطلق على السحاب ، فهو السماء التي ينزل منها المطر ، كما قال سبحانه ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١﴾ [القمر] ، وليست هذه هي السماء المقابلة للأرض .

والله تعالى يقول في خلق السموات السبع : ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝٣﴾ [الملك] يعني : ليس بها فتوق أو شقوق ، فكيف إذن تنزل الملائكة ومسكنهم السماء ، كيف ينزلون إلى الأرض ؟

قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤﴾ [القدر]

الحق سبحانه يُقرِّب لنا وظيفة الملائكة ، وأنها خاصة بالسماء صعوداً وهبوطاً ، فقال في آية فاطر ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ ۝١﴾[فاطر] فعملهم إذن في السماء ، لكن كيف يَنْفُذون من السماء ، وليس بها فتوق ولا شقوق ، قالوا : ينفذون ؛ لأن طبيعتهم الملائكية الشفافة تسمح لهم بذلك ، فالإنسان مثلاً خُلق من طين ، والطين له جرْم ومادة لا تمكنه أنْ ينفذ من شيء .

أما الجن فقد خلقه الله من النار ، وللنار أيضاً جرْم ومادة ، لكن ألطف وأشفّ من الطين ؛ لذلك ينفذ الجن من الأشياء المادية ، بدليل أنك لو جعلتَ مثلاً تفاحة خلف جدار ، فإنك لا ترى شكلها ، ولا تحسُّ طعمها ولا رائحتها ، لكن لو أوقدتَ ناراً خلف هذا الجدار فإنك بعد قليل تُحسّ بحرارتها في الجهة الأخرى ، وهكذا ينفذ الجن كما تنفذ الحرارة .

أما الملائكة فهي أرْقى الأجناس وأعلاها ، خلقها الله من نور ، وهو ألطف وأشفّ من الطين ومن النار ؛ لذلك لا يحتاج النور إلى منافذ ، أرأيتم مثلاً الأشعة التي تخترق الجسم وتعطينا صورة كاملة

لما بداخله كالقلب أو غيره ؛ هكذا الملائكة تنفذ لا يحجزها شيء .

وقوله سبحانه ﴿جَاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً (١)﴾[فاطر] الملائكة جنس من المخلوقات ، قال الله عنهم : ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧)﴾ [الأنبياء] والملائكة أقسام : فمنهم العَالُون ، وهم المهيَّمون في الله ، ولا عملَ لهم إلا عبادته سبحانه ، وهؤلاء لا يدرُونَ شيئاً عن هذا الكون ، ولا صلةَ لهم به ؛ لذلك لما أبَى إبليس أنْ يسجد لآدم كما أمره الله ، قال الله له : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

ومن الملائكة قسْم له علاقة بالإنسان ، وهؤلاء هم الذين أُمروا بالسجود لآدم ، وكأن الله تعالى يقول لهم : هذا المخلوق هو الذي ستكونون في خدمته ، ومنهم : المعقبات ، كما قال سبحانه ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ (١١)﴾[الرعد] يعني : يحفظونه حفْظاً صادراً من أمر الله ، وإلا فالملائكة لا تمنع عن الإنسان أمراً قضاه الله عليه .

إذن : حفْظهم لنا حفْظ من باطن حفْظ الله لنا ؛ لذلك يقولون مثلاً (العين عليها حارس) ، ونرى مثلاً من يسقط من الطابق الثالث أو الرابع ، ولا يصيبه مكروه ؛ لأن الله سبَّب له أسباب النجاة ، وحفظته الحفظة .

ومن هؤلاء المدبرات أمراً ، الذين قال الله عنهم : ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)﴾[النازعات] وهم الذين يُدبِّرون أمور الخَلْق بأمر الله ، ومنهم الكتبة الذين يكتبون الأعمال : ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١)﴾ [الانفطار]

هؤلاء الملائكة جعلهم الله ﴿رُسُلاً (١)﴾[فاطر] إما إلى الرسل من البشر يحملون إليهم منهج الله ، وإما رسلاً منه سبحانه لمهامهم التي

تتعلق بهذا الكائن الإنساني . ثم وصفهم فقال : ﴿أُولِي (١)﴾ [فاطر] أصحاب ﴿أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ (١)﴾ [فاطر] وهذا الوصف دلَّ على صلة الملائكة بالجو والسماء ، ومهمة الصعود والهبوط ، وهذه الأجنحة ليس لها نظام ثابت ، بل منهم مَنْ له مثنى ، ومَنْ له ثلاث ، ومَنْ له رُبَاع ، بل ويزيد الله في ذلك ما يشاء ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ (١)﴾ [فاطر]

وكأن الخالق سبحانه يقول لنا : إنْ كنتم لم تروْا إلا جناحين للطائر ، فلا تتعجبوا ولا تنكروا أنْ يكون للملَك أكثر من ذلك ؛ لأنه خَلْق الله الذي يزيد في الخَلْق ما يشاء ، والذي له سبحانه طلاقة القدرة ، فخَلْق الله ليس عملية ميكانيكية أو قوالب تُصَبُّ على شكل واحد ، وخَلْق الله ليس مخبزاً آلياً يُخرج لك الأرغفة متساوية .

وتتجلى طلاقة القدرة في الخَلْق منذ خَلْق الإنسان الأول آدم عليه السلام ، فإنْ كانت مسألة التناسل تقوم على وجود ذكر وأنثى ، ومن هذه جاءت جمهرة الناس ، فطلاقة القدرة تخرق هذه القاعدة في كل مراحل القسمة العقلية لها ، فالله خلق آدم عليه السلام من لا أب ولا أم ، وخلق حواء من أب بلا أم ، وخلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب .

فما دام أن الذي يزيد في الخَلْق هو الله ، فلا تتعجب ولا تُكذِّب حين تسمع الحديث النبوي ، قال ﷺ : « رأيتُ جبريل وله ستمائة جناح »[1] صدِّق ؛ لأنك لستَ مسئولاً عن الكيفية ، إنما عليك أنْ تُوثِّق

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤١٢ ، ٤٦٠) من حديث ابن مسعود في تفسير قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤)﴾ [النجم] قال قال رسول الله ﷺ : « رأيتُ جبريل وله ستمائة جناح ينتشر من ريشه التهاويل والدر والياقوت » . وقد قوَّى ابن كثير إسناده في تفسيره (٤/٢٥١) .

الكلام : صدر من الله أو لم يصدر ، صَحَّ عن رسول الله أو لم يصح ، كُنْ كالصِّدِّيق لمَّا حدثوه عن الإسراء والمعراج وقالوا : إن صاحبك يقول كذا وكذا ، فقال الصِّدِّيق : « إنْ كان قال فقد صدق»[1].

لذلك ، فالذين يبحثون في عِلَل الأحكام عليهم أنْ يَدَعُوا البحث فيها ، ويكفي أنْ يُوثِّقوا مصدرها ، فإنْ كانت من الله فعليَّ أن أفعل لمجرد أن الله أمرني بذلك ، فَعِلَّة الحكم أن الله أمر به ، فهمتُ حكمته أو لم أفهم .

ونرى بعض العلماء يحرصون على استنباط الحكم من كل عبادة من العبادات ، فيقولون مثلاً : شرع اللهُ الصومَ ليدرك الغنيُّ ألمَ الجوع ، فيعطف على الفقير ، وهذا يعني أن الفقير لا يصوم ، فالأقرب أنْ تقول : أصوم ؛ لأن الله أمرني بالصوم .

فأنت مثلاً لا تسأل الطبيب لماذا كتب لك دواء كذا وكذا ، بل تترك له هذه المهمة ، وما عليك إلا أنْ تتناول الدواء ، ولا يسأل الطبيب ، ولا يناقشه في هذه المسألة إلا طبيب مثله ، لكن هل هناك مُسَاوٍ لله فيسأله : لماذا فَرَض علينا كذا أو كذا ؟

فقوله سبحانه ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۝ ﴾[فاطر] دليل على طلاقة القدرة التي لا يعجزها شيء ، ومن طلاقة القدرة أنْ ترى الطويل والقصير ، ولا تكاد تُفرِّق بين قامات الناس وهم جلوس ؛ لأن منطقة الصدر والبطن متقاربة الطول ، إنما تُفرِّق بينهم حال الوقوف ؛ لأن

---

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (٥/٤٠١٢) وتمامه أنه قيل له : أتصدقه قبل أن تسمع منه ؟ فقال : أين عقولكم ؟ أنا أصدقه بخبر السماء ، فكيف لا أصدقه بخبر بيت المقدس ، والسماء أبعد منها بكثير .

معظم الطول في السيقان والأوراك ؛ لذلك تنظر إلى رجلين وهما جالسان ترى طولهما واحداً ، فإنْ قاما ظهر الفارق ، وهذا يسمونه (الحيتر)[1]

من طلاقة القدرة اختلاف الخَلْق في الشكل ، وفي اللون ، وفي الطباع ، وفي الذكاء ؛ لذلك من وقت لآخر نرى طفلاً برأسين ، أو بيد فيها ستة أصابع ، أو دابة بخمسة أرجل ، من طلاقة القدرة أن ترى هذا وسيماً معتدل الصورة ، متناسق الأعضاء ، كهؤلاء الذين تنطبق عليهم شروط القبول مثلاً في الكليات العسكرية أو البوليس ، وترى آخر جبهته نصف وجهه ، أو أنفه كذا وكذا .. إلخ . هذا جريء القلب ، وهذا رعديد جبان ، هذا فصيح اللسان ، وهذا عَيي لا يكاد ينطق ؛ لذلك يقول سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .. (٢٢)﴾ [الروم]

من طلاقة القدرة أنه سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا (٥٠)﴾ [الشورى]

من طلاقة القدرة أنْ يؤلف الله سبحانه بين الأجناس المتباعدة تآلُفَ مصلحة وانتفاع ، ففي السودان مثلاً بيئة تعيش فيها التماسيح ، ورغم ما عرفناه من شراستها إلا أن الله ألَّف بينها وبين الطيور ، فجمعتهم مصالح مشتركة : التمساح يخرج إلى البَرِّ ثم يفتح فَاهُ ، فيأتي الطائر ويدخل فم التمساح ، ويُنظف له أسنانه ويتغذَّى على بقايا طعام التمساح ويخلِّصه من الفضلات ، فإذا أحسَّ الطائر

(١) الحيتر : القصير ، وكذلك البَحْتَر . والحبترة : من أسماء الثعالب . [لسان العرب – مادة حبتر] .

بقدوم الصياد صوّت ليحذر التمساح ، فتسرع إلى الماء ، سبحان الله الذى خلق فسوّى ، والذى قدّر فهدى .

إنك تتعجب من طلاقة القدرة حين ترى عنق الزرافة أو الجمل ، وعنق الدب مثلاً ، فكُلٌّ له ما يناسبه .

تذكرون أنه عندما تكلم العلماء عن الحواس ، قالوا : الحواس الخمس . واحتاطوا للأمر وللزيادة فقالوا : الخمس المعروفة ، وبالفعل عرفنا بعدها حواسَّ أخرى ، كحاسة البَيْن التى نعرف بها مثلاً سُمك القماش ، وعرفنا حاسَّة العَضَل التى نعرف بها ثقل الأشياء .

كما أن أعضاء الإنسان وحواسَّه تؤدى مهمتها مع اختلافها من شخص لآخر ، فنحن جميعاً نرى بالعين ، ونسمع بالأذن ، ونشُم بالأنف وهكذا ، لكن ألم تسمع : فلان هذا يسمع دبة النملة ، وروى لنا التاريخ عن شخصيات كانت ترى لمسافات بعيدة على غير المعتاد[1] ، هذا كله زيادة فى الخَلْق ، يختصُّ الله بها مَنْ يشاء .

لذلك يقول الشاعر :

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الحُظُوظَ   فَلا عتَابَ ولاَ مَلاَمَه

أَعْمَى وأَعْشَى ثُمَّ ذُو   بَصَرٍ وزَرْقَاء اليَمَامَه

وزرقاء اليمامة يُضرب بها المثل فى حدة البصر ، فيقولون : أبصر من زرقاء اليمامة .

---

(١) هى : الزرقاء ، من بنى جديس ، من أهل اليمامة ، مضرب المثل فى حدة النظر وجودة البصر . قالوا : إنها كانت تبصر الشىء من مسيرة ثلاثة أيام . وذكروا من أخبارها أن حسان بن تبع الحميرى لما أقبلت جموعه تريد غزو «جديس» رأتهم الزرقاء وأنذرت جديساً ، فلم يصدقوها ، فاجتاحهم حسان . [الأعلام للزركلى ٣/٤٤]

ويُلخِّص الشاعر[1] قصة فتاة منحها الله هذه الزيادة في البصر ، فقال :

وَاحْكُمْ كحُكْمِ فَتَاةِ الحيِّ إذْ نظرَتْ ∴ إلى حمام شِراعٍ وَارد الثَّمَدِ[2]

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا ∴ إلى حمامتنا أو نصفه فقد

وكان عندها حمامة واحدة ، فتمنَّتْ أنْ ينضم هذا السرب ونصفه إلى حمامتها ، وبذلك سيكون عندها مائة :

فَعَدوه فَألْفَوْهُ كما حكمَتْ ∴ ستّاً وستِّين لَمْ تنقُصْ ولم تزد[3]

فتأمل هذه الفتاة تنظر إلى سِرْب الحمام وتعده ، وتضيف إليه نصفه ثم تضيف حمامتها ، فيكون لديها مائة حمامة ، هذه قوة في البصر ، وقوة في الملاحظة .

كذلك حاسة الشم فيها عجائب مما يزيده الله في هذه الحاسة عند مَنْ شاء أن يزيده ، والمثال الواضح لحاسة الشم وتمييز الروائح عند كلب البوليس مثلاً ، وحاسة الشم قوية أيضاً عند الذين يبيعون الروائح والعطور ، فأنت تقول رائحة طيبة ، لكن قليل مَنْ يميز بين هذه الروائح ، أما بائع الروائح فرغم امتلاء أنفه بهذه الروائح الطيبة إلا أنه يستطيع أن يُميِّزها فيقول لك . هذه رائحة ورد ، وهذه رائحة

---

(١) الشاعر هو : النابغة الذبياني ، زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري ، أبو أمامة ، شاعر جاهلي ، من الطبقة الأولى ، من أهل الحجاز ، كانت تُضرب له قبة من جلد أحمر بسوق عكاظ فيقصده الشعراء فتُعرض عليه أشعارهم ، كان حظياً عند النعمان بن المنذر ، عاش عمراً طويلاً ، توفي عام ١٨ ق . هـ [الموسوعة الشعرية].

(٢) البيت من قصيدة للنابغة الذبياني ، من بحر البسيط ، عدد أبياتها خمسون بيتاً مطلعها : يا دار مية بالعلياء فالسند . و « الثمد » هو الماء القليل الذي لا مادّ له . وقيل : هو الذي يظهر في الشتاء ويذهب في الصيف .

(٣) لفظ هذا البيت كما في كتاب « أدب الكتاب » لأبي بكر الصولي (توفي عام ٣٣٥ هـ) :

فحسبوه فألفوه كما زعمت ∴ تسعاً وتسعين لم ينقص ولم يزد

فكملت مائة فيها حمامتها ∴ وأسرعت حسبة في ذلك العدد

قل ، وهذه كذا ، وهذه كذا ، فإنْ خُلط له عدة أنواع يقول لك : هذا مخلوط .

أما سيدنا يعقوب عليه السلام فقد تميَّز فى هذه الحاسة بصورة عجيبة ، وتعلمون أنه ابتلي بفقد ولده يوسف - عليه السلام - حين رماه إخوته فى البئر ، وانتهى الأمر به إلى أنْ صار على خزائن مصر كلها ، وجاءه إخوته يطلبون الميرة[1] إلى أن أعطاهم قميصه ليجعلوه على وجه أبيه فيرتد له بصره ، العجيب هنا أنه لما فصلت العير يعنى : خرجت من مصر وعن حيزها السكاني لأن المنطقة السكنية تكثر الروائح فيها وتختلط ، فلما خرجوا بقميص يوسف خارج المدينة ، قال يعقوب عليه السلام - وهو آنذاك - بأرض فلسطين . ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف] ، لأن فى قميص يوسف شيئاً من رائحته .

ومع تقدُّم العلم عرفنا أن الرائحة هى أقوى الآثار الدالة على الإنسان ، وأن للرائحة بصمة كبصمة اليد أو بصمة الصوت ؛ لذلك حتى فى لغتنا العامية نقول (مش ح اخللى لفلان ريحه) ، وكأن الرائحة هى آخر أثر يمكن أنْ يتبقَّى للإنسان فى المكان .

كذلك يزيد الله فى الخلق مَا يشاء فى حاسة الذوق ، وبعض الناس حرفته وعمله أنه ذوَّاقة يذوق الطعام ، ويزيد الله فى الخَلْق ما يشاء فى حاسة اللمس ، وكلنا رأى الصراف فى البنك بمجرد أنْ تلمس أصابعه العملة يعرف جيِّدها من زائفها .

كل هذه المعانى نفهمها من قوله تعالى : ﴿يَزِيدُ فِى الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ

---

(١) الميرة : الطعام يمتاره (يجلبه) الإنسان . قال ابن سيده : الميرة جلب الطعام . والميَّار : جالب الطعام . [لسان العرب - مادة مير]

(١)﴾[فاطر] ثم تختم الآية بما يُطمئن القلوب إلى هذه الطلاقة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)﴾[فاطر] هذه هي العلة ، يعني : لا تتعجب ، فهي قدرة الله التي لا يُعجزها شيء ، وشيء هذه تعد جنس الأجناس ؛ لأنها تشمل من الذرَّة إلى المجرَّة ، وهو سبحانه يقول للشيء كُنْ فيكون ، فكأنه موجود في علم الغيب ينتظر الأمر بأن يظهر .

وبعضهم قال : (يَزِيدُ فِي الحَلْقِ) بالحاء[1] ، والمراد : جمال وعذوبة الصوت[2] ؛ لأن الصوتَ وسيلةٌ لنقل خواطر المتكلم إلى السامع ، وهذه يكفي لها أيُّ صوت ، فإنْ كان الصوت جميلاً عَذْباً ، فهذه زيادة وفضل من الله.

ومن أغرب ما رواه لنا تاريخ العرب[3] ، ويُعَدُّ دليلاً على الزيادة في الخَلْق ، والمواهب التي يختصُّ الله بها مَنْ يشاء ما رُوِي عن نزار ابن معد بن عدنان ، وقد رزقه الله أربعة من الأولاد هم : مُضَر ، ومن قبيلته جاء سيدنا رسول الله ﷺ ، وربيعة ، وإياد ، وأنمار ،

---

(١) لم أقف على هذه القراءة ، ولكن قال الشوكاني في تفسيره (فتح القدير) (٢٢٨/٤) : « المعنى أنه يزيد في خلق الملائكة ما يشاء ، وهو قول أكثر المفسرين ، واختاره الفراء والزجاج . وقيل . إن هذه الزيادة في الخلق غير خاصة بالملائكة ، فقال الزهري وابن جريج : إنها حُسْن الصوت . وقال قتادة : الملاحَة في العينين والحسن في الأنف ، والحلاوة في الفم . وقيل : الوجه الحسن . وقيل : الخط الحسن ، وقيل : الشعر الجعد ، وقيل : العقل والتمييز . وقيل : العلوم والصنائع ، ولا وجه لقصر ذلك على نوع خاص بل يتناول كل زيادة » .

(٢) قال الزهري وابن جريج : يعني حسن الصوت . وقال قتادة في معنى الآية : الملاحة في العينين ، والحسن في الأنف ، والحلاوة في الفم . [تفسير القرطبي ٥٥٩٦/٨] . وقاله أيضاً ابن عباس فيما أخرجه عنه ابن المنذر . [الدر المنثور للسيوطي ٤/٧] والاصح هو أنه يزيد في خلق املائكة ما يشاء من أجنحة وغيرها

(٣) ذكر هذه القصة بطولها الإمام ابن الجوزي في كتابه « الأذكياء » (ص ١٧٤) ، وابن حجة الحموي في « ثمرات الأوراق في المحاضرات » (٢٤٩/١) .

فلمـا أحسَّ نزار بدُنُوِّ أجله جـمع أولاده الأربعة وقـال لهم . أريد أنْ أدلَّكم على تركتكم منى قبل أن أموت : القبة الحمراء لمضر ، والفرس الأسود والـخبـاء الأسود لربيـعة ، والشـمطاء لإياد ، ومجلس القـوم وندِّيه لانمـار . وإن اختلفـتم فاذهبـوا إلى الأفـعى الجرهمى بنجـران يُفسِّر لكم كلامى.

فلمـا مات نزار اخـتلف أولاده ، فذهبـوا إلى الأفعى الجـرهمى ، وهم فى طريقهم إلى نجـران - وكانت من أرض اليمن - رأى مُـضَر فى ناحـية الطريق مـرعىً رعَتْ فيه إبـل ، وفى الجانب الآخـر مرعى أحسن منه لـم يُمَسّ ، فقال : إن الجـمل الذى رعى هنا أعور . فـقال ربيعة : وهو أزور يعنى : أعرج . وقـال أنمار : هذا الجمل أبتر يعنى مقطوع الذيل . وقال إياد : وإنه لشرود .

وبينما هم على هذه الحـال قابلهم رجل ينشُد بعيـره يقول : هل رأيتم بعيراً شرد منى ؟ فقـال مضر : أهو أعور ؟ قال : نعم ، قال : وأزور؟ قال : نعم ، قال : وأبتر ؟ قال : نعم ، قال : وشرود ؟ قال : نعم ، هو شرود ، وأنتم أخـذتموه ، فاحتكموا إلى الأفـعى الجرهمى ، لأنهم كـانوا على مقـربة من نجران ، فلمـا سألهم قـالوا : ما أخـذنا الجمل .

فقال : إذن كيف وصـفتموه لصاحبـه هذا الوصف ؟ قال مُضَر : لما رأيتُه رعى جـانباً دون الآخر عرفتُ أنه أعور ، وقال ربيـعة : لما رأيتُ أثر خُفِّه على الأرض وجدت اليُمْنى سليمة البصمة على الرمال ، والأخرى غـير ذلك ، فـعرفتُ أنه أزْور ، وقال إياد : رأيـت بَعْره فى مكان واحـد ، فـعرفت أنه أبـتر ، ولو كـان له ذيل لفـرَّق بَعْـره هنا وهناك ، فقـال أنمار : لمـا رأيتُه يأكل من أمـاكن متـفرقـة عرفْتُ أنه

شرود . فقال الأفعى الجرهمي : خلُّوا سبيلهم ، فتلك فراسة يهبها الله لمن يشاء .

ثم سألهم : مَنْ أنتم ؟ فقالوا : نحن أولاد نزار بن معد بن عدنان ، وقد أوصانا أبونا إذا اختلفنا أنْ نحتكم إليك ، ثم قَصُّوا عليه مقالة أبيهم ، فقال : القبة الحمراء التي لمضر . أعطوه كل شيء أحمر كالدنانير والنُّوق الحمر ؛ لذلك سُمِّيت مضر الحمراء بعد أن صار مُضَر علَماً على القبيلة .

وقال : والفَرَس الأدهم [(١)] والخباء[(٢)] الأسود لربيعة يعني : أعطوه كل شيء فيه سواد ، والشمطاء لإياد : أعطوه رُذَال[(٣)] المال و(المدعبلات) من الغنم . أما أنمار فله الفضة البيضاء والمجلس .

وبعد أن فسَّر لهم وصية أبيهم أراد أنْ يكرمهم ، فأمر كهرمانه أن يذبح لهم ذبيحة ، ويُعد لهم طعاماً وشراباً ، وعلى مائدة الطعام جلسوا يتحدثون ، وهو يتأمل فراستهم ، فقال ربيعة : ما رأيتُ أطيب من هذا اللحم ، لولا أن أمه غُذِّيَتْ بلبن كلبة ، فلما شربوا من الشراب قال مُضَر : شراب طيب لولا أنْ كَرْمته زُرِعت على قبر ، ثم قال أنمار : هذا الرجل من سَرَاة القوم وهو سيد ، إلا أنه ليس ابن أبيه ، فقال إياد : والله ما رأينا كلاماً أحسن من كلامنا بعضنا مع بعض .

---

(١) الدهمة : السواد . والأدهم . الأسود ، يكون في الخيل والإبل وغيرهما . [لسان العرب - مادة : دهم]

(٢) الخباء من وبر أو صوف ، وهو من بيوت الأعراب ، دون المظلة ، وهو على عمودين أو ثلاثة ، وقد يستعمل في المنازل والمساكن ، ومنه الحديث : أنه أتى خباء فاطمة وهي في المدينة ، يريد منزلها . [قاله ابن منظور في لسان العرب - مادة خبا] .

(٣) الرذال : هو الرديء من كل شيء . والرذال : ما انتُقي جيده وبقي رديئه ، والأرذل من كل شيء : الرديء منه . [لسان العرب - مادة : رذل] .

ثم قام الأفعى الجرهمى واستدعى الراعى الذى ذبح لهم الشاة ، وسأله : ما هذه الشاة التى ذبحتَها لنا ؟ فقال له : ماتت أمها بعد ولادتها ، ولم يكُنْ عندنا شياه مرضعة ، فأرضعتُها من كلبة ، ثم سأل كهرمانه عن الشراب فقال : هو من العنبة التى زرعْتَها على قبر أبيك ، فلم يَبْق إلا أنْ يسأل عن نسبه إلى أبيه ، فذهب إلى أمه وقال لها : يا أمى ، أخبرينى مَنْ أنا ؟ ومَنْ أبى ؟ فأحسَّتْ الأم أنه سمع شيئاً فقالت له : لقد كان أبوك مَلِكاً مطاعاً ، وذا نعمة ومال ، إلا أنه لم ينجب ، فخشيتُ أنْ يذهب هذا المُلْك وهذا المال إلى غيره ، فحدث ما حدث .

عندها عاد إلى ضيفانه وقال لهم : لم تعودوا فى حاجة إلىَّ ، وإنما يصبح الناس جميعاً فى حاجة إليكم . فإنْ سألتَ الآن : وكيف عرف هؤلاء ما عرفوا ؟ نقول : إنها فراسة وقوة ملاحظة تدخل تحت هذه الآية ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۝١﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢﴾

ما دام أنه - سبحانه وتعالى - هو الخالق ، فمقتضى الخَلْق أنْ يوفر الله للمخلوق ما يصلحه ، فهو أولاً يحتاج إلى رحمة فى بقاء حياته ؛ لذلك يُنزل سبحانه المطرَ فيحيى الأرضَ بالنبات ليزرع الإنسان ويأكل ويشرب ، وهذا قوام حياته المادية ، ثم يوفر له أيضاً قوامَ حياته الروحية المعنوية ، فيُنزل عليه ما يحفظ قيمه ، وما يُنظم

حياته بأدب مع غيره ، وهذا هو المنهج الذى قال الله فيه ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف]

وهذه الرحمة إنْ أرادها الله بعبد ، فلا أحدَ يمنعها عنه ﴿مَا يَفْتَحِ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] يعنى : يعطي ويمنح ﴿فَلا مُمْسِكَ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] فلا مانع ولا حابس لها ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] لا معطى ﴿لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] أى : من بعد الله .

وتأمل الأسلوب القرآنى فى ﴿مَا يَفْتَحِ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] مقابلها يغلق ، لكن الحق سبحانه لم يَقُلْ : وما يغلق ، إنما ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] لماذا ؟ قالوا : لأن المغلَق ربما تمكَّن أحد من فتحه بالحيلة أو بالقوة ، أما ﴿مَا يُمْسِكْ ﴿٢﴾﴾ [فاطر] فلا أحدَ يستطيع أنْ ينال شيئاً أمسكه الله .

ومن معانى هذا الفتح وهذه الرحمة : الرسالة التى خَصَّ الله بها سيدنا رسول الله ؛ لذلك قال الكفار ﴿لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف]

وقالوا : ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ﴿٨﴾﴾ [ص]

فردَّ الله عليهم :﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف]

يعنى : تأدبوا مع الله ، فهو الذى قسم لكم أمور الدنيا وأمور المعايش ، أيترك لكم ولأهوائكم أنْ تُقسِّموا الوحى ، وأنْ تجعلوه ينزل على مَنْ تهوون ؟

والفتح : إزالة حاجز بين شيئين ، ومنه حسيٌّ كما نفتح الباب

أو الشنطة مثلاً ، كما ورد في القرآن : ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ (٦٥) ﴾ [يوسف]

وقد يكون الفتح أمراً معنوياً كالفتح بالخير ، أو بالرحمة كالوحي الذي اختص الله به سيدنا رسول الله ﷺ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ (٧٦) ﴾ [البقرة] يعني : من الوحي الموجود في التوراة من صفة النبي ﷺ ، هذا فَتْح معنوي بالخير وبالبركة .

ومن معاني الفتح : الفصل وفَضّ الإشكال بين الخصوم ، كما في قوله سبحانه . ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) ﴾ [الأعراف]

وعلَّة قوله تعالى : ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا .. (٢) ﴾ [فاطر] ، لأنه سبحانه واحد لا شريك له ، ولا إله غيره ، فلو كان معه إله آخر لكان له رأي آخر ، أمَّا الحق سبحانه وحده فيتصرف في مُلْكه تصرُّف مَنْ لا شريكَ له ، وإلا فكيف يثق بأنه حين يقول للشيء كُنْ فيكون أن الشيء يطيعه ؟

فالله يقول هذا الأمر ، وهو يعلم أن الشيء سيطيع ، فلا أحدَ يستطيع أنْ يقول له لا تطع ، لذلك أول مَنْ شهد بالألوهية والوحدانية الواحدة هو الله سبحانه ، شهد بها لنفسه سبحانه ، فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ (١٨) ﴾ [آل عمران] وهذه شهادة الذات للذات ، لذلك أقبل على الأشياء بكُنْ فكانت ، وسمعت ، وأطاعت ، ونفذت .

واقرأ : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ (١) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (٢) ﴾ [الانشقاق] يعني : سمعتْ بوعي وحَقّ لها أنْ تسمع ، وأن تطيع ؛ لأنه ليس لها إله آخر يعارضها إنْ أطاعتْ .

وبعد أنْ شهد الحق سبحانه لنفسه شهادة الذات للذات شهدتْ بذلك الملائكةُ شهادةَ المشاهدة ، ثم شهد أولو العلم شهادةَ التدليل :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

ثم تُذيِّل الآية بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾[فاطر] نعم ، مادام أنه تعالى إله واحد لا شريك له ، يرسل رحمته لمن يشاء ، ويمسك عَمَّنْ يشاء فهو عزيز ، والعزيز هو الذى لا يُغْلَب ولا يُمَانع ، لكن هذه العزة وهذه الغلبة ليست صادرة عن بطش أو ظلم أو جبروت ، إنما صادرة عن حكمة ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) ﴾ [فاطر] فهو سبحانه حكيم فى عطائه ، حكيم فى منعه ، والحكمة ـ كما قلنا ـ هى وَضْع الشىء فى موضعه المناسب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ (٣) ﴾

الحق سبحانه يمتنُّ على عباده ويُذكِّرهم بنعمه عليهم ، ويذكر أول هذه النِّعم ، وهى نعمة الخَلْق من عدم ، وأراد سبحانه أنْ يبرز لهم هذه المسألة إبرازاً يشاركه – سبحانه وتعالى – فيه ، فلم يأت الأسلوب فى صورة الخبر : أنا خلقتكم . إنما جاء فى صورة الاستفهام ليقولوا هم ويُقرُّوا ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ (٣) ﴾ [فاطر]

ومعلوم أن الخبر عُرْضة لأنْ يُكذَّب ، أمّا الاستفهام فلا تستطيع أن تكذبه ، وأنت لا تستفهم عن شيء فعلْتَه إلا إذا كنتَ واثقاً أن الإجابة ستأتي على وَفْق مرادك ، فحين ينكر شخصٌ جميلَك لا تقول له : فعلتُ لك كذا وكذا ؛ لأنه ربما كذَّبك ، إنما تقول : ألم أُقدِّم لك كذا يوم كذا ؟ حينئذ لا يستطيع إلا أن يُقرَّ بجميلك ، فلن يجد إجابة عن سؤالك إلا الإقرار .

كذلك الحق سبحانه يُقرِّرهم بنعمه ليكون الإقرارُ حجةً عليهم ويسألهم ، وهو سبحانه أعلم ﴿ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] ثم يذكر هو سبحانه النتيجة ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] ولم يقولوها هم: لأنهم (مربوكون) وكان المنطق : ما دام هو سبحانه الخالق الرازق فعليهم أنْ يؤمنوا به ، وقالها سبحانه بصيغة الغائب ﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] ولم يقُلْ إلا أنا ، كأنه سبحانه هو الشاهد في هذه المسألة ، كأنه يتكلم عن الغيب .

وقوله ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ ﴾[فاطر] يعني : كيف بعد هذا تُصرفون عن توحيده وعن الإيمان به ، وتُؤفكون من الإفك ، وهو قَلْبُ الشيء عن موضعه وصَرْفه عن محله ، ومن ذلك المؤتفكة ، وهي القرى التي أهلكها الله ، فجعل عاليها سافلها ، وقَلَبها على وجهها .

والإفْكُ أيضاً بمعنى الكذب ؛ لأنه يقلب الحقيقة ، فكأن الحق سبحانه يقول لهم : كيف تقلبون الحقائق ؟ وكيف تصرفون خَلْق الله ورزْق الله إلى غيره سبحانه ؟ يعني : قولوا لنا علّة ذلك .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن الوحدانية والألوهية أراد أنْ يتكلم سبحانه عن مُرْسَل الألوهية إلى الخَلْق :

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾

هذه تسلية لسيدنا رسول الله ، كما خاطبه ربه بقوله : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴿٩﴾ ﴾ [الأحقاف] لستَ أول رسول يُكذِّبه قومه ، فمن قبلك كذَّبوا ، وهذا أمر طبيعي ؛ لأن السماء لا ترسل رسولاً إلا حين يعمُّ الفساد ، ويفتقد الناسُ الوازعَ والرادع ، لا من النفس للنفس ولا من المجتمع .

وقلنا : إن الخالق سبحانه جعل في النفس الإنسانية رادعاً ذاتياً يردعها حين تخرج عن منهج ربها ، وهي النفس اللوامة ، فإنْ توارتْ هذه النفس وغلبتْ عليها النفس الأمَّارة بالسوء جاء دور المجتمع الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فإنْ فسد المجتمع فلا بُدَّ أنْ يأتي رسول جديد بمعجزة جديدة ليجدد للناس ما غفلوا عنه من دين الله .

وكونُ رسالة محمد هي الخاتمة ، فلا رسول بعده ، هذه شهادة لأمته أنها سيظل فيها الخير ، وستظل مأمونة على دين الله .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤﴾ ﴾[فاطر] أي : في الآخرة ، فمَنْ كذَّبك من قومك إمَّا أنْ يأخذه الله في الدنيا كما أخذ المكذِّبين من الأمم السابقة ، وإما أنْ يُؤخِّر له العذاب في الآخرة .

بعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن الأصل الثالث من أصول التشريع ، فبعد أنْ تحدث عن الألوهية والوحدانية ، وتحدَّث عن الرسول ، يتحدث عن المسألة الثالثة التي اختلفوا فيها ، وهي البعث والحَشْر والحساب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٥﴾ ﴾

يعنى : وعده حَقٌّ فى أنكم ستُردُّون إلى الله فى الآخرة ، فيحاسبكم ويُجازيكم ، المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ، وهذا مبدأ معروف ومعمول به فى كل المجتمعات ، حتى البدائية منها ، وحتى الملاحدة يعملون بهذا المبدأ ، فيعطى المُجدَّ ويعاقب المقصِّر ، بل بعض هؤلاء يضعون قوانينَ للثواب والعقاب أصرم وأشدّ من قوانين الله ، مثل قوانين الإعدام والشنق ومصادرة الأموال .. إلخ .

والمجتمع لا يستقيم أمره إلا بهذا المبدأ ، فإن اختلَّ تطبيقه فَسَد المجتمع ، وأُحْبط الأفراد ، وعمَّتْ الفوضى ، ولم لا والمحسن لا يأخذ ثمرة إحسانه ، والمجرم لا يُعاقب على جريمته ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ نربى فى الناس وازعَ الرغبة فى الخير ، والرهبة من الشر ؛ ليزداد المحسن فى إحسانه ، ويرعوى المسيء عن إساءته .

وكيف لا يُقبل هذا المبدأ فى عالم مليء بالمظالم والتعديات والبطش والجبروت ، ثم لا يأتى الوقت الذى ينال فيه كُلٌّ ما يستحقه ؟

لذلك كثيراً ما أذكر ما دار بيننا وبين الشيوعيين الذين ينكرون مسألة البعث والحساب ، فكنتُ أقول لهم : لقد أخذتم أعداءكم وقتلتموهم ، وصادرتم أموالهم ، وفعلتم بهم الأفاعيل ؛ لأنهم فى نظركم غيَّروا مقاييس العطاء ، فما بال مَنْ فعلوا هذا وظلموا ، لكنهم أفلتوا منكم ، ولم تَطُلْهم أيديكم بعقاب ؟

وما بال الظالمين قبلكم وبعدكم ؟ أليس من الصواب القوْلُ بموعد

يجمع هؤلاء جميعاً للحساب ، حيث ينال كل منهم جزاءه ؟ أليس هذا الجزاء يسعدكم ويُثلج صدوركم حين ترونَ الظالم يُؤخذ بظلمه .

إذن : كان عليكم أنْ تؤمنوا بهذا اليوم ، لا أنْ تنكروه وتكفروا به، وهو يقوم على نفس المبدأ الذى تنادون به أنتم .

لذلك تلحظ أن النداء هنا لكل الناس : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ (٥)﴾[فاطر] أى : وعده بالقيامة والبعث والحساب ، فهذه مسألة يُخاطب بها كل الناس ، ووَعْد الله حَقٌّ ؛ لأن الوعد يأخذ حقيَّة من الواعد ، ومن قدرته على إنفاذ وعده ، ومَنْ أقدرُ من الله ؟

إذن : ينبغى أن نثقَ فى الوعد إنْ جاء من الله سبحانه ، ولا نثق فى وعد مَنْ لا قدرةَ له فى ذاته .

وسبق أنْ بيَّنا أن الإنسان يَعد وينوى الوفاء وقت الوعد ، لكنه لا يملك أسباب الوفاء ، فربما طرأ عليه طارىء ، أو تغيَّرت الظروف ، فحالتْ بينه وبين الوفاء بوعده ؛ لذلك يُعلمنا ربنا أدباً عالياً فى هذه المسألة فى سورة الكهف ، فيقول سبحانه : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ..(٢٤)﴾ [الكهف] فتعليق فعلك على مشيئة ربك يُعفيك من الكذب إنْ عجزْتَ عن الوفاء ، فلكَ أن تقول : نويتُ الوفاء ، لكن الله لم يشأ .

لذلك لا يُوصَف وعد بالحقية إلا وعد الله ؛ لأنه سبحانه وحده الذى يملك كل أسباب الوفاء بوعده . ولا يعوقه عن الوفاء شىء ، ولا يمانعه أحد .

وما دام أن وعد الله حَقٌّ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا (٥)﴾[فاطر] لا تخدعنَّكم ؛ لأن الناس طبائع ، منهم مَنْ يغتر بثناء الناس عليه ،

ومنهم مَنْ يغتر في ذاته ، وهذا هو الذى تغره الحياة الدنيا بشهواتها ، فيعيش فيها بلا تكاليف وبلا التزامات ، كما فعل الكفار حين عبدوا الحجارة ، لأنها آلهة بلا تكاليف .

لذلك يحذرنا ربنا : لا تخدعنكم الدنيا عن شيء آخر أعلى منها هو الآخرة ، ويكفى ذماً لهذه الحياة أن الله تعالى سماها دُنْيا ، والمقابل للدنيا حياة عليا هى الآخرة ، فالمعنى : لا تخدعنكم الدنيا عن مطلوب الله الذى يؤهلكم لحياة أخرى عُلْيا .

وسبق أنْ بيَّنا أن الدنيا بالنسبة للإنسان هى مدة بقائه فيها ، لا عمر الدنيا كله ، وعمرك فى الدنيا رغم قصَره هو عمر مظنون ، ونعيمك فيها على قدر حركتك فيها ، أما عمرك فى الآخرة فمتيقن ، ونعيمك فيها على قدر إمكانات الله ، وأنت مهما بلغتَ من نعيم الدنيا يُنغِّصه عليك أنْ يزول ، إما أن تتركه أنت وتموت ، أو يتركك هو فتظل فى الدنيا رغم غناك وتمتعك بها ، مُؤرَّقاً مشغولَ البال خائفاً من فوات النعمة ، أما فى الآخرة فالنعمة باقية دائمة ، لا مقطوعة ولا ممنوعة . إذن : إنِ اغتررتَ بالدنيا فأجْرِ هذه المقارنة .

لذلك ، لما تكلَّم الحق سبحانه عن هذه الحياة وصفها بأنها دُنْيا ، ولما تكلم عن الآخرة قال ﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت] فمعنى الحيوان أى : الحياة الحقيقية الباقية التى لا يهددها موتٌ ولا فناء ، فيجب - إذن - أنْ تتنبه ، وأنْ تختار البديل الأرجح والأنفع لك ؛ لذلك نقول للذين اعتمدوا على الله وعاشوا فى كَنَف الله وعلى منهج الله نقول : إنهم عرفوا كيف يسوسون حياتهم ، فأخذوها من أقصر الطرق ، ونَصِف هؤلاء بالمكر ، والمراد المكر العالى المكر الحسن .

وفى موضع آخر ، يُبيِّن الحق سبحانه لنا حبائلَ الدنيا ووسائل

غرورها ، فيقول سبحانه : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ (١) وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾ [آل عمران]

وقوله سبحانه :﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) ﴾[فاطر] أي : الشيطان . فالخداع والغرور إما أن يكون من النفس ذاتها بدون مؤثر خارجي ، وإما أنْ يوجد شيطان سُوء يغرُّك ويُوسوس لك ، إذن : أنت أمام عدوين ، إما الدنيا بشهواتها ، وإما الشيطان بهَمْزه ونَزْغه ، وقد حذرنا ربنا منه ، فقال : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

تعني : تنبه لهذا العدو ، وكُنْ منه على حذر ، فعداوته لك مُسْبقة منذ أبيك آدم ، وكُرْهه لك واضح مُعْلَن ، فينبغي أنْ يكون لك معه موقف ؛ لذلك يقول تعالى بعدها :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾

ما دام أنه عدو لك مُعْلَن العداء ، فلا يجوز لك أنْ تهادنه أو تستكين له وتطيعه ؛ لأنك حين تطيعه يستمرئ عداوته ضدك ، إذن : لا بُدَّ أنْ تعاديه ، وأنْ تُوقفه عند حدِّه ، كيف ؟ أضعف الإيمان أنْ لا تطيعه ، فإنْ أردتَ أن تكون أقوى منه فانتقم منه وغظْه بأنْ

---

(١) الخيل المسومة ، أي : المرسلة للرعي أو المعلّمة بعلامات . [القاموس القويم ١/٣٣٧]
وقال ابن عباس : المسوّمة الراعية والمطهمة الحسان . وقال مكحول : المسومة الغرة والتحجيل . والمطهَّم من الخيل : الحسن التام ، كل شيء منه على حدته فهو بارع الجمال.
[قاله ابن منظور في لسان العرب - مادة : طهم] .

تتجه إلى مقابل ما يطلب منك ، فهو يأمر بالسوء ، فافعل أنت الحسن يأمرك بالشر ، فاجتهد فى الخير ، وكأنك تسخر منه وتُلقِّنه درساً لا يملك بعده إلا أنْ ينصرف عنك ؛ لأنك وظَّفْتَ عداوته لصالحك وانتفعتَ بها ، وهذا ما يغيظه .

وتستطيع أنْ تأخذ بهذا المبدأ مع أىِّ عدو آخر ، سواء أكان من شياطين الإنس أو شياطين الجن ، تستطيع أن تجعل من عداوته لك حافزاً على الخير وعلى عشق كل ما هو جميل ، فالعاقل مَن استفاد من عدوه أكثر من استفادته من صديقه .

وصدق القائل[1] :

عِدَاىَ لَهُمْ فَضْلٌ علىَّ ومِنَّةٌ ... فَلا أذهب الرحمَنُ عنِّى الأعَاديا

هُمُوا بَحَثُوا عَن زَلَّتى فَاجْتنبْتُها ... وهُمْ نافَسُونِى فاكتسبْتُ المَعَاليا

فالمؤمن الحق يستطيع أن يستفيد من عداوة أعدائه فى نواحٍ كثيرة ، فهو مثلاً يعمل ويجتهد ليتفوق على عدوه ، لا أنْ يتكاسل حتى يكون دونه منزلةً ومرتبةً ، يجتنب المعايب وأفعال السوء حتى لا يعطى لعدوه فرصة أنْ يشمت فيه .. إلخ

كذلك نقول : إن بعض الصفات المذمومة فى الناس فيها جوانب خير لو تأملناها ، فالبخيل مثلاً مكروه من الجميع ، لكن حين تتأمل وضعه تجده هو الذى يُعين الكريم على كرمه ، كيف ؟ رأينا كثيراً فى القرى هذا النموذج . رجل كريم لا يساعده دَخْله على القيام

---

(١) القائل هو أبو حيان الأندلسى ، وهو محمد بن يوسف بن على ، ولد ٦٥٤ هـ ، سمع الحديث بالأندلس وإفريقية والإسكندرية ومصر والحجاز من نحو ٤٥٠ شيخاً ، كان صدوقاً حجة سالم العقيدة من البدع ، توفى بالقاهرة عام ٧٤٥ هـ عن ٩٠ عاماً . والبيتان من قصيدة له فى ديوانه ، وهو ينتمى إلى العصر المملوكى

بمتطلبات هذا الكرم وتبعاته من السماحة والبذل والعطاء والمجاملة .. إلخ ، فكان كل فترة يبيع قطعةَ أرض لينفق منها ، فلمَنْ يبيع الكريم أرضه إذا لم يكن هناك البخيل الممسك ؟ فكأن البخيل يعين الكريم على كرمه .

وإذا كان الكريم يأسرك بكرمه وتدان له بجميله ، فليس للبخيل جميل عليك ، ولست أسيراً له في شيء ؛ لذلك عَبَّر الشاعر عن هذا المعنى ، فقال :

جُزِىَ البخيلُ عَلَيَّ صالحةً ... مِنِّي لخفَّته على ظَهْري

يعني : ليس له جميل عندي يجعلني عبداً لإحسانه .

ومعنى ﴿ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا (٦) ﴾[فاطر] أن تشحن كل طاقاتك وكل مواهبك لتربِّي فيك المناعة اللازمة ضد إغراءاته ووسوسته لك بالسوء ، فإنْ أردتَ الارتقاء في مناهضته ، فزِدْ من الحسنات التي يكرهها ، فإنْ جاءك في الصلاة ليفسدها عليك فَغِظْه بأنْ تخشع فيها ، وتزيد في تحسينها .

﴿ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾[فاطر] يعني : أصبح له حزب وجماعة يحاول أنْ يُكثِّرها ؛ لذلك قال تعالى في موضع آخر: ﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) ﴾ [المجادلة]

ومعنى حزب : جماعة تعصَّبوا لفكرة يعملون من أجلها في مقابل جماعة أخرى لهم مناهضات ، ويعملون هم أيضاً لفكرة تخدمهم .

والعلَّة في أنه يدعو حزبه ليكونوا كثرة فيكثر المتخبطون في منهج الله والخارجون عنه في مقابل حزب الإيمان والطاعة ، هذه هي العلة .

أما قوله تعالى ﴿ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾[فاطر] فاللام هنا لام العاقبة ومعناها : أنك تريد الشيء لعلة ، لكن تنتهي إلى علَّة أخرى ضد مطلوبك .

وقوله : ﴿ مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) ﴾[فاطر] دلَّ على أن بينهم وبين النار أُلْفة ، وأنها تريدهم وتعشقهم حتى صارتْ بينهما مصاحبة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) ﴾

بعد أن ذكر الحق سبحانه حزبَ الشيطان يذكر الحكم عليه ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٧) ﴾[فاطر] وفي المقابل ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) ﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾

الأسلوب في ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ (٨) ﴾[فاطر] أسلوب استفهام ، لكن لم يذكر المقابل له ، وتقديره هل يستوي ، ومَنْ لم يُزين له سوء عمله ؟

والحق سبحانه لم يذكر جواباً لأنه معلوم ، ولا يملك أحد إلا أن يقول لا يستويان ، لأن الناس منهم مَنْ يعمل السيئة ، ويعلم أنها سيئة ، ويكتفي بها لا يتعداها ، ومنهم مَنْ يتعدَّى فيفعل السيئة ويدَّعي أنها حسنة ، وهذا مصيبته أعظم لأنه ارتكب جريمة حين فعل السيئة ، وارتكب جريمة أخرى حين ادعى أنها حسنة ، هذا معنى : ﴿ فَرَآهُ حَسَنًا (٨) ﴾[فاطر] ، وهذا اختلال في الرؤية وضلال .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ (٨) ﴾[فاطر] وهذه الآية وقف عندها كثيرون ، يقولون : إنْ كان الله هو الذي يهدي ، وهو الذي يُضل . فلماذا يُحاسب الإنسان ؟ ولا بُدَّ لتوضيح هذه المسألة أنْ نُبين معنى يهدي ويُضل . يهدي يعني : يدلُّه على طريق الخير ويرشده إليه ، وهذا الإرشاد من الله لكل الناس ، فمَنْ سمع هذا الإرشاد وسار على هُدَاه وصل إلى طريق الخير ، فكان له من الله العون وزيادة الهدى ، كما قال سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

أما الذي أغلق سمعه فلم يسمع ولم يَهْتَد فضَلَّ الطريق وانحرف عن الجادة ، فأعانه الله أيضاً على غايته ، وزاده ضلالاً ، وختم على قلبه ليكون له ما يريد ، فلا يدخل قلبه إيمانٌ ، ولا يخرج منه كفر ، وهؤلاء قال الله فيهم : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (١٠) ﴾ [البقرة]

لذلك يقول تعالى عن قوم ثمود : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ (١٧) ﴾ [فصلت]

فمعنى ﴿ هَدَيْنَاهُمْ ﴾ يعني : دللناهم وأرشدناهم لطريق الخير ،

ولكنهم رفضوا هذه الدلالة وعارضوا الله فضلُّوا فأضلهم الله . يعنى : زادهم ضلالاً .

وسبق أنْ أوضحنا هذه القضية وقلنا : هَبْ أنك تريد أنْ تذهب إلى مكان ما ، ووقفتَ عند مفترق الطرق لا تدرى أيهما يُوصلّك إلى غايتك فذهبتَ إلى رجل المرور تسأله أين الطريق ، فدلَّك عليه فشكرته وعرفتَ له جميله ، فلما رآك مُطيعاً له ، شاكراً لفضله قال الله : لكن أمامك فى هذا الطريق عقبة سأسير معك حتى تتجاوزها ، هكذا يعامل الحق سبحانه المهتدين : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

وقد خاطب الحق سبحانه نبيه ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ (٥٦) ﴾ [القصص] وخاطبه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى] فأثبت له ﷺ الهداية بمعنى الإرشاد والدلالة ، لكن نفى فى حقِّه الهداية بمعنى المعونة على الهدى ، فالذى يُعين هو الله .

ثم إن الحق سبحانه لم يترك هذه المسألة هكذا ، إنما بيَّن مَنْ يهديه ومَنْ يُضلُّه ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧) ﴾ [المائدة] وقال :﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ [الصف] وأىُّ هداية للإنسان بعد أنْ كفر بالله ، وفَسَق عن منهجه ، وأفسد فى البلاد ، وظلم العباد ؟

وقوله تعالى : ﴿ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ (٨) ﴾ [فاطر] يعنى : لا تُهلك نفسك حسرة على عدم إيمانهم ، وهذا المعنى شرحه الحق سبحانه فى قوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) ﴾ [الكهف]

فرسول الله ﷺ كان حريصاً على هداية قومه ، يألم أشدَّ الألم حين يشرد أحد منهم عن طريق الإيمان ؛ لذلك قال تعالى عن نبيه محمد : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

ثم يقول سبحانه مُسلِّياً رسوله ﷺ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨) ﴾ [فاطر] يعني : لا تَخْفى عليه خافية من أفعالهم ، وسوف يجازيهم ما يستحقون من عقاب على قَدْر ما بدر منهم من إعراض ، فاطمئن ولا تحزن .

بعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى بعض الآيات الكونية الخاصة بنعمه سبحانه على الخَلْق ، فيقول تعالى :

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) ﴾

معنى : يرسل الرياح يعني : يحركها ، وبتحريك الرياح يتم استيعاب خير الوجود كله ، ألاَ ترى أن الريح إذا سكنتْ يتضايق الإنسان ويحاول تحريكها بنفسه بيده أو بالمروحة مثلاً ؛ لأن حيِّزك في التنفس لا يتم إلا بتحريك الهواء ، وتغيير ثاني أكسيد الكربون ليحل محلَّه الأكسوجين ، ولا تتم هذه العملية إلا بتحريك الهواء ؛ لذلك يقولون : إذا لم يمرّ عليك الهواء فمُرَّ أنت عليه . يعني : حرِّكه أنت .

ونتيجة حركة الرياح إثارة السحب ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا (٩) ﴾ [فاطر] يعني : تُهيِّجه وتُحركه من أماكنه ، بحيث يذهب بعد تجمُّعه إلى حيث أراد الله أنْ ينزل المطر ، إذن : حركة السحاب ليست ذاتية ، وإنما

تابعة لحركة الرياح ، وهذه المسألة تساعدنا في فهم قوله تعالى :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٨٨) ﴾ [النمل]

فالجبال التي نحسبها ثابتة هي في الحقيقة تمر وتتحرك كحركة السحاب ، وكما أن السحاب لا يمر بذاته ، إنما بحركة الرياح ، كذلك الجبال لا تمر بذاتها ، إنما بحركة الأرض والجبال ثابتة على الأرض كالأوتاد ؛ لذلك تتحرك بحركتها : ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ (٨٨) ﴾ [النمل]

البعض لم يفطن إلى حركة الأرض التي تتبعها حركة الجبال ، فقال في قوله تعالى : ﴿ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ (٨٨) ﴾ [النمل] أن هذا في الآخرة ، لكن أين هي الجبال في الآخرة والله يقول عنها : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ[1] (٩) ﴾ [المعارج] ثم ، كيف يمتنُّ الله عليها ويحتج ببديع صُنْعه في حركة الجبال في الآخرة ، حيث لا تكليف ، ولا موضع لتحنين القلوب وعَطْفها إلى الإيمان .

هذا عن حركة الرياح ، أما عن سكونها ، فيقول تعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ[2] عَلَىٰ ظَهْرِهِ (٣٣) ﴾ [الشورى] والمراد : السفن التي تُسيِّرها الرياح ، فإنْ قُلْتَ : فهل يظل لهذه الآية هذا المعنى بعد التطور الذي طرأ على السفن ، وبعد أنْ تلاشتْ القلاع وحَلَّ محلها الآلات التي تُسيِّر السفن دون حاجة إلى حركة الهواء ؟

---

(١) العهن : الصوف المصبوغ بأي لون أو بألوان مختلفة . قال تعالى : ﴿ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) ﴾ [المعارج] كالصوف ذي الألوان المختلفة . [القاموس القويم ٢/ ٤٠] .

(٢) ركد الماء والريح : هدأ وسكن . وركدت السفينة : هدأت بعد اضطرابها ، أو سكنت حركتها لسكون الريح التي تسيِّرها . [القاموس القويم ١/ ٢٧٤]

نقول : نعم ستظل الآية تحمل هذا المعنى إلى ما شاء الله ؛ لأن الاختراعات الحديثة لم تفاجىء خالقها عز وجل ، ومَنْ قال : إن الريح هو الهواء ؟ الريح هو القوة أياً كانت ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الأنفال] يعني : قوتكم أيّاً كانت قوة هواء ، أو قوة كهرباء ، أو قوة بخار ومحركات .. الخ

ونلحظ في أسلوب هذه الآية أن الفعل ﴿ أَرْسَلَ ﴿٩﴾ ﴾ [فاطر] جاء في صيغة الماضي ، لكن (تثير) في صيغة المضارع ، ولم يقل سبحانه : فأثارت سحاباً ، قال : أرسل يعني : أمر أنْ ترسل ، فهذه مسألة انتهت وفُرِغ منها ، أما إثارة السحاب وتحريكه فمسألة مُتجدِّدة مستمرة في كل لحظة ، فناسبها المضارع الدال على الحال والاستقبال .

أو : أن المعنى ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴿٩﴾ ﴾ [فاطر] جاء في الماضي ؛ لأن الكلام عن الغيب ، والاسم الظاهر غيب وهو لفظ الجلالة ، ثم انتقل من الغيب في ﴿ أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ﴿٩﴾ ﴾ [فاطر] إلى مقام المتكلم ، فقال ﴿ فَسُقْنَاهُ ﴿٩﴾ ﴾ [فاطر] كأن الله يلفتك بالنعمة إلى غيب هو الله تعالى ، فحين تستحضر أنه الله الذي فعل أصبحتَ أهلاً لمكالمة الله لك .

ومثال ذلك ما قُلْنا في سورة الفاتحة : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ ﴾ [الفاتحة] هذا كله غيب إلى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة]

ولم يقُلْ : إياه نعبد لينقلك من الغيب إلى الخطاب المباشر معه سبحانه ؛ لأنك أصبحتَ أهلاً لأنْ تخاطبه ويخاطبك بعد أنْ آمنتَ بالحيثيات الأولى في ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾ [الفاتحة]

ومعنى ﴿ فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ (٩) ﴾[فاطر] يعني : سُقْنا السحاب ، أو سُقْنا الماء بعد نزوله في جداول وأنهار إلى الأرض التي لا نَبْتَ فيها ، والتي يمكن أن تنتفع به ، وهذا أدلّ على قدرة الله ، وتأمل مثلاً ماء النيل الذي يروي السودان ومصر أين نزل ؟ وهذا دليل على أن رزقك سيأتيك مهما بَعُد عنك مصدره .

فإذا ما استقر الماء في الأرض كانت النتيجة ﴿ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (٩) ﴾[فاطر] يعني : أحييناها بالنبات ، ثم يجعل الحق سبحانه من نِعَم إحياء الأرض الميتة دليلاً على نعمة أخرى موصولة في الآخرة ، فيقول سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ النُّشُورُ (٩) ﴾[فاطر] يعني : البعث يوم القيامة وإحياء الموتى من قبورهم .

فَخُذْ مما تشاهد من إحياء الأرض الميتة دليلاً على صدق ما غاب عنك ، فكما أن الماء ينزل على الأرض الميتة فيُحييها ، كذلك حين تنزل الروح على مادة الإنسان المدفونة في الأرض يحدث لها النشور والبعث ، وتدبّ فيها الحياة .

وسبق أنْ بيَّنا أن العلماء لما حللوا جسم الإنسان وجدوه مُكوَّناً من ستة عشر عنصراً ، أولها : الأكسوجين ، وآخرها : المنجنيز ، وهي نفسها عناصر التربة التي ينمو فيها النبات .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾

التأبِّي على الرسالات تأبٍّ على أن يكون المؤمن الذى يُكلَّف بتكليفات تبَعاً لرأى غيره وطَوْع أمره ، والرسول ما جاء إلا ليقول لنا (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) ، وبعض الناس يرى فى هذه الطاعة خَدْشاً لكرامته وعزته ، فهو يريد أنْ يكون الأعلى الذى لا يأمره أحد ولا ينهاه ، وهؤلاء الذين تتحدث عنهم الآية يريدون أن تكون لهم العزَّة فى نفوسهم .

والحق سبحانه وتعالى - هنا يُصحِّح لهم معنى العزة ويُبيِّن غباءهم ، فيقول سبحانه : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ﴿١٠﴾ ﴾ [فاطر] أى : العزة الحقيقية لا المدَّعاة : ﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] فالعزة الحقيقية ألاَّ تكون مغلوباً ولا مقهوراً لأحد ، وهذه العزة لا وجودَ لها إلا فى رحاب الله ، فمهما بلغ الإنسانُ فى الدنيا من القوة والجبروت لا بُدَّ أنْ يُغلب ، ولا بُدَّ أنْ يقهره الموت ، فإنْ كنتَ مُغْرماً بعزة لا تزول ، فهى فى جنب الله .

لذلك فالله تعالى يُعلِّمنا الحكمة ، فيقول : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لا يَمُوتُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الفرقان] يعنى : أنا أعلم بك وأعلم بضعفك ، وأنك فى حاجة إلى مَنْ تتوكل عليه ليقضى لك الأمور التى فوق طاقتك ، فإياك أنْ تلجأ إلى غيرى ، فأنا الباقى الذى لا يموت ، فإنْ توكلْتَ على

ضعيف مثلك ، فربما مات قبل أنْ يقضى لك حاجتك ، كذلك مَنْ أراد العزة فليكُنْ في حضن الله يعتزُّ بعزَّته ، ويتقوَّى بقوته ، ومَنْ كان في حضن الله يخلع الله عليه من صفاته ويفيض عليه .

لذلك سيدنا رسول الله يعطينا هذا الدرس ، وهو في الغار ، ومعه الصِّدِّيق - رضى الله عنه - فيقول الصِّدِّيق : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا ، فيقول سيدنا رسول الله وهو واثق بربه : « يا أبا بكر ما بالك باثنين الله ثالثهما »[1] وحكي عنه القرآن قوله :

﴿ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا (٤٠) ﴾ [التوبة]

فهذه الطمأنينة التي ملأتْ قلب رسول الله منشؤها معية الله له ولصاحبه ، وهذه المعية تقتضى أنْ يخلع الله عليهما من صفاته سبحانه ، فإذا كان الله تعالى لا يُرى ، فمَنْ كان في معيته كذلك لا يُرى.

ومعنى ﴿ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠) ﴾[فاطر] يعنى . كل ألوان العزة ، وهذه المسألة من المسائل التي تكلَّم فيها المستشرقون ، يلتمسون فيها مأخذاً على كلام الله ، يقولون : إن الله يقول﴿ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا (١٠) ﴾[فاطر] وفي آية أخرى ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (٨) ﴾ [المنافقون]

ولا تعارض بين الآيتين ؛ لأن العزة في الأصل لله ، وعزَّة الرسول من التحامه بالعزيز ، وعزة المؤمنين من التحامهم بعزيز العزيز ، فهي عزة موصولة من الله تعالى لمَن اعتزَّ به ، وأول مَن اعتزَّ بالله رسوله ، ثم المؤمنون به .

---

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه (٤٦٦٣) ومسلم في صحيحه (٢٣٨١) من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، بلفظ : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ (١٠) ﴾ [فاطر] دائماً نخاطب الله على جهة العلو ، مع أنه سبحانه في كل مكان ، وليس له مكان ، لذلك يحتج البعض على هذه المسألة فيقول : كيف أن الله ليس له مكان ، وسيدنا رسول الله لما أراد الله أنْ يُكلِّمه أصعده إلى السماء السابعة ؟

نقول : كان الصعود لمكان الرائي لا لمكان المرئي ، فالرائي لا يرى إلا من هذا المكان ، فمثلاً لو أننا سمعنا الآن ضجة خارج المسجد ، وهذه النافذة التي تُطل على هذه الضجة عالية ، فماذا تفعل إنْ أردتَ أنْ تعرف ما يدور بالخارج ، لا بُدَّ لك أنْ تصعد هذا العلو لترى ما يحدث ، فالأحداث هي هي ، لكن مكان الرائي يختلف .

ومعنى ﴿ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ (١٠) ﴾ [فاطر] هذا وصف عام لكل كلام يدلُّ على منهج خير ، وقد أعطانا القرآن مثالاً لذلك في قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وقد حاول العلماء تحديد هذه الكلمة ، فقالوا هي : كلمة لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله ولا قوة إلا بالله ، ولكن هذا التحديد يُضيِّق المعنى الواسع الذي أراده الله تعالى منها . والأصوب أن نقول الكلمة الطيبة : كل كلام يؤدي إلى خير .

وقوله تعالى : ﴿ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (١٠) ﴾ [فاطر] بعد أن تكلم سبحانه عن صعود الكلم الطيب يتكلم عن رفع العمل الصالح ؛ لأن الإنسان قد يتكلم بالكلمة الطيبة دون أنْ تُؤدي مطلوبها ، ودون أنْ يترجمها إلى عمل ، وربما قالها نفاقاً مثلاً ، كالذين قالوا لا إله إلا الله

نفاقاً وفراراً من القتل ، ومع ذلك تصعد إلى الله ، فيقول الله احموه بهذه الكلمة دنياه ، ولا تتعرضوا له ما دام نطق بها ، إنما ليس له عليها جزاء في الآخرة ؛ لأن الجزاء يتأتَّى من العمل الذي يخدم مدلول الكلمة ، فالعبرة إذن بالعمل والعمل الصالح ، فهو الذي يُرفع إلى الله ، ويحميك في الدنيا ، ويحميك في الآخرة ، ويجمع لك الخيرين .

ثم يذكر الحق سبحانه وتعالى المقابل : ﴿ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَـٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] الفعل مكر يتعدى بحرف الجر نقول : مكر بفلان ومكَره يعني : خدعه ويتعدَّى بنفسه كما في ﴿ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] وأصلها يمكرون المكْرات السيئات ، فهي وصف لمصدر مأخوذ من مادة الفعل مثل : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴿١٢٢﴾ ﴾[النساء] أي : الأعمال الصالحات . أو مكر : فعل مكراً ، فيكون المعنى : والذين فعلوا السيئات .

ثم يبين سبحانه جزاء المكر السيء : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] لماذا ؟ لأنك حين تمكر ، كأنك تريد أنْ تسرق شيئاً من الله ، وتظن أنه لن يدري بك ، وغفلتَ أنك تُبيِّت المكر سراً ، وهو سبحانه يعلم السِّر والنَّجْوى ، وأنك حين تمكر وحين تُبيِّت تُبيِّت على قدر إمكاناتك ، وربك عز وجل كذلك يمكر ويُبيِّت على قدر إمكاناته ، وقدرته تعالى : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

لذلك يبوء هذا المكر بالخسران وبالبوار ، كما قال سبحانه : ﴿ وَمَكْرُ أُولَـٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] فهو مكْر بائر ، كالأرض البوَار التي لا تنبت ولا تنتج ، ومنه قوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ

كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

فهذا المكر الذى ظنه صاحبه ينفعه ، ويرفعه على خَصْمه ، ويجعل نفسه عالية عليه ، إذا به يبور ، ولا يؤتى ثماره ، ولَيْته يبور وتنتهى المسألة ، إنما ينقلب عليه ويجرُّ على صاحبه العذاب الشديد.

ومعنى ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٠﴾ ﴾[فاطر] اللام تفيد الملكية ، فهنا قلب يعنى : لهم عذاب أى : استحقوه وكأن العذاب يحرص عليهم كما يحرص الإنسان على ما يملك ، فهو عذاب ملازم لهم لا ينفك عنهم .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

تعرضت هذه الآية لقضية الخَلْق الأول للإنسان الخليفة ، وهذا الخَلْق كان له مراحل ، فالإنسان الأول وهو آدم عليه السلام خُلق خَلْقاً أولياً من مادة الأرض ، وهى التراب الذى يُخلط بالماء ، فصار طيناً ، هذا الطين مَرَّ بأطوار عدة ، فالطين إنْ تركْتَه حتى يعطن وتكون له رائحة فهو الحمأ المسنون ، فإنْ تركته حتى يجفَّ ويتماسك فهو الصلصال . فهذه - إذن - أطوار للمادة الواحدة التى صَوَّر الله منها آدم ، ثم نفخ فيه من روحه ، وهذا هو الخَلْق الأول الذى أخذ الله منه حواء ، ومنهما يتمُّ التناسل والذرية .

وقبل أنْ يتكلم الحق سبحانه عن خَلْق الإنسان تكلَّم عمَّا خلقه الله للإنسان قبل أنْ يُوجد ، فتكلَّم سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١﴾ ﴾[فاطر] ثم تكلم عن الملائكة

الذين ينزلون بالوحى إلى الرسل من البشر ، ثم أنزل من السماء ماءً به تنبت الأرض .

هذه كلها مُقوِّمات حياة الإنسان ، أوجدها الله له قبل أنْ يُوجده هو ، وضمن له مُقومات حياته المادية والمعنوية الروحية ، المادية بالقوت طعاماً وشراباً وهواءً ، والروحية بالمنهج والقرآن ؛ لذلك قال سبحانه: ﴿ الرَّحْمَـٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝ ﴾ [الرحمن]

فالإنسان خُلق لغاية ، كالصانع يحدد غاية الشيء المصنوع قبل أنْ يبدأ فيه ، وقُلْنا : إن الذى صنع (التليفزيون) أو الثلاجة لم يصنعها ثم قال : انظروا فيمَ تُستخدم هذه الآلة ، إنما قدَّر غايتها ، وحدَّد هدفها قبل صناعتها ، كذلك الحق سبحانه قبل أنْ يخلق الإنسان قدَّر حركته فى الحياة وما يسعده فيها ، فوضع له منهج القرآن قبل أنْ يُخلق ، ثم جاء خَلْق المادة بعد وَضْع المنهج .

والحق سبحانه حينما يتكلَّم عن خَلْق الإنسان ، يقول : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ۝ ﴾ [فاطر] فجاء الأسلوب كأنه يتحدث عن غائب ، ولم يقُلْ سبحانه أنا خلقتُكم ، فكأننا نقول : الله خلق الإنسان من تراب ؛ ذلك لأن وسائل الخطاب بين متكلم ومخاطب تأتى على ثلاث صور : ضمير المتكلم أنا ، أو ضمير المخاطب أنت ، أو ضمير الغائب هو .

فالمتكلم حين يتكلم يقول . أنا فعلتُ . من الجائز أن يُكذِّب ، فإنْ خُوطب : أنت فعلت . من الجائز أنْ يُنافق ، لكن إذا جاء الأسلوب بصيغة الغائب : هو فعل ، فقد برئنا من الادعاء فى المتكلم ، ومن النفاق فى المخاطب .

وحين نقول هو خلق يعنى : ليس هناك غيره ، وسبق أن قلنا :

إن ضمير الغائب (هو) لا ينصرف إلا إلى الحق سبحانه وتعالى .

وإذا استقرأتَ آيات الخَلْق فى القرآن الكريم تجدها بأسلوب الغيبة فى مائة وسبع آيات ، بداية من قوله تعالى فى سورة البقرة : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا (٢٩)﴾[البقرة] وآخره سورة الفلق :﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢)﴾[الفلق] وبأسلوب المتكلم فى ست وسبعين آية ، مثل :﴿.. إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ .. (١٣)﴾ [الحجرات]

وبأسلوب المخاطب فى أربعة مواضع هى : ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ (١٩١)﴾ [آل عمران]

وقوله : ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (١٢)﴾ [الأعراف]

وقوله : ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١)﴾ [الإسراء]

فأسلوب الغيبة هو أكثر هذه الأساليب ؛ لأن الحديث عن غائب يخلو من ادعاء ، ويخلو من نفاق المواجهة ، أو نفاق الخطاب .

لكن ، ما معنى الخلق ؟ قال العلماء : الخَلْق إيجاد من عدم لحكمة أو لغاية مُسْبقة ، لا مجرد الإيجاد من عدم ، كيف ؟ أنت إذا أخذت قطعة كبيرة من طين جاف ورميتَها على الأرض ، فإنها تتفتتْ قطَعاً مختلفةَ الأشكال ، وربما وجدت منها على شكل هلال ، وأخرى على شكل نجمة ، وأخرى على شكل وجه إنسان أو حيوان .

هذا يُعد إيجاداً ، لكن لا يُعَدُّ خَلْقاً ؛ لأن الخَلْق إيجاد مقصود لغاية مقصودة ، وحكمة مرادة ، وهذه مهمة الخالق وحده سبحانه .

فإنْ قلتَ : كيف واللهُ تعالى يثبت لنا خَلْقاً فى قوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾ [المؤمنون]

قلنا : إن الخالق سبحانه يُقدِّر مجهودات البشر ، ولا يبخسهم حقوقهم ؛ لذلك يثبت لهم المشاركة فى الخَلْق مع الفارق الواضح بين خَلْق الله وخَلْق غيره ، فإذا وُصف الإنسانُ بأنه خالق ، فالله أحسن الخالقين ؛ لأنه سبحانه يخلق مِن عدم ، وأنت تخلق من موجود ، وخَلْقك يثبت على حالة واحدة ، ويجمد عليها ، أما خَلْق الله فيتطور وتدبّ فيه الحياة فيتغذّى وينمو ويتناسل ..إلخ .

ومثَّلْنا لذلك بصانع الزجاج يأخذ مثلاً الرمل المخلوق لله ، ثم يعالجه بطريقة معينة ، ويُحوِّله إلى زجاج ، نعم أنت خلقْتَ شيئاً ؛ لأن هذا الكوب لم يكُنْ موجوداً ، فأوجدته ، لكن من مادة موجودة مخلوقة لله ، وعقل فكّر هو من مخلوقات الله ، ونار صهرتْ هى من خَلْق الله .

ثم إنك لا تستطيع أنْ تمنح هذا الكوب صفة الحياة ، فينمو مثلاً ، أو يتكاثر ، إذن : إن أثبتَ الله لك خَلْقاً فهو سبحانه أحسن الخالقين .

والحق سبحانه يقول هنا : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ﴿١١﴾ ﴾[فاطر] وفى مواضع أخرى قال : ﴿ مِّن طِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الأنعام] وقال ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحجر] وقال : ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرحمن] ولا تعارضَ بين هذه الأقوال ؛ لأنها أطوار للمادة الواحدة كما بيَّنا ، كالثوب الذى تلبسه تقول : هذا الثوب من القطن ، أو من الغزل ، أو من النسيج ، فهى مراحل تمر بها المادة الواحدة .

فليس فى هذا تناقض فى المراحل ، إنما التناقض فى أنْ يكون الشىء مرتبة واحدة ، ثم تجعله مراتب ، إنما هذه المسألة مراحل للمرتبة الواحدة ، كالطفل يصير غلاماً ، ثم شاباً ، ثم رجلاً ، ثم

كَهْلاً.. إلخ كلها مراحل لإنسان واحد .

الحق سبحانه حكم في كونه بأشياء ، ونهى العقل أنْ يفكر في أشياء ، قال : أنا خلقتُ لك الكون والمادة ، وضمنتُ لك مُقوِّمات حياتك ، فإنْ أردتَ أن تُرقِّي نفسك فأعمل عقلك في المادة المخلوقة لله ، واستنبط منها على قَدْر إمكاناتك ، لكن لا تشغل بالك بأمرين لا جدوى من التفكير فيهما ، هذان الأمران هما خَلْق السموات والأرض وخَلْق الناس ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾ [الكهف]

فخَلْق السموات والأرض وخَلْق الإنسان مسألة لم يشهدها أحد منكم ، ولم يكُنْ مع الله سبحانه معاون يخبركم بما حدث ، لكن احذروا سيأتي في المستقبل مُضِلُّون يُضلُّونكم في هذه المسألة ، يقولون لكم - كما يقول المضلون الآن - إن السموات والأرض كانتا قطعة واحدة ملتهبة ، وحدث لها كذا وكذا ، أو أن الإنسان أصله الأول قرد تطور إلى إنسان ، احذروا هؤلاء ، ولا تأخذوا معلوماتكم إلا ممَّنْ شهدها ويعلمها ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

لكن الحق سبحانه خلق العقل آلة للتفكير ، وجعل له منافذ يصل من خلالها إلى الحقيقة ، والاستدلال بما رآه على ما غاب عنه ، فعلى العقل أنْ يتأمل ما يراه ويستدل به على ما لا يراه .

نحن لم نشهد عملية الخَلْق ، لكن شهدنا عملية الموت ، والموت نَقْضٌ للخَلْق ، كما أن الهدم نَقْضٌ للبناء .

فهذه قضية فلسفية للعقل فيها دور ، فأنت حين تريد بناء عمارة مثلاً من عشرة أدوار تبدأ ببناء الدور الأول ، لكن إنْ أردتَ هدمها

تبدأ بالدور العاشر ، فالهدم على عكس البناء ، كذلك الموت نقيض الحياة .

فالذى لم نشاهده من عملية الخَلْق أخبرنا الله به فى كتابه ، فقال : خلقتكم من تراب صار طيناً ، ثم صار الطين حمأ مسنوناً ، وصار الحمأ المسنون صلصالاً كالفخار ، تشكَّل على صورة الإنسان ، ثم نفخ فيه اللهُ الروحَ فدبَّتْ فيه الحياة .

ونحن شاهدنا الموت ورأيناه يأتى على عكس عملية الخَلْق ، فأول شيء فى الموت أنْ تفارق الروحُ الجسدَ ، فيتصلَّب حتى يكون كالفخار ، ثم يرمّ ، وتتغير رائحته كأنها الحمأ المسنون ، ثم تمتصُّ الأرضُ ما فيه من مائية ليعود إلى تراب وفُتات يختلط بتراب الأرض، ويعود إلى أمه التى جاء منها .

إذن : خُذْ مما شاهدتَ دليلاً على صدق ما أخبرك الله به مما لم تشاهده .

الحق - سبحانه وتعالى - حينما تكلَّم عن الخلق تكلم عن مرحلتين : الأولى : خَلْق الإنسان الأول آدم عليه السلام من طين ، ولكى يتم التكاثر لعمارة الأرض كانت المرحلة الثانية بأنْ خلق له زوجه ، فقال :

﴿ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (١٨٩) ﴾ [الأعراف]

والظنُّ يتسع فى هذه المسألة ، فيصح أنه سبحانه أخذ قطعة من آدم وخلق منها حواء ، ويصح أنْ تكون هذه القطعة كذلك كانت من الطين ، لكن اكتفى بالتشريع الأول للرجل ، ومن آدم وحواء أنشأ النسل ، وتم الاستخلاف فى الأرض .

ولكى نخرج من المتاهة فى هذه المسألة نقول : قوله تعالى

﴿ وخلق منها زوجها ① ﴾ [النساء] يعنى : من جنسها ، من جنس خلقها ، كما قال سبحانه : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ١٢٨ ﴾ [التوبة] يعنى : من جنسكم .

لكن ، أيخلق الله هذا الخلق ، ويستخلف خليفته فى الأرض ، ثم يتركه دون أنْ يمدّه بالمنهج الذى حكم حركة حياته ؟ لا ، لا بُدَّ أنْ يُنزل له المنهج ؛ لأن معنى الخلافة تقتضى أنْ يُوجد هذا المنهج .

والحق سبحانه حين يُملِّك خليفته أشياء تأتمر بأمره ربما غرَّه ذلك الملك فقال له : اذكر أنك لست أصيلاً ، وأنك خليفة ، وطالما تتذكر أنك خليفة فلن تطغى ، إنما الذى يُطغيك أن تظنَّ أنك أصيل فى الكون ، والأصيل فى الكون هو الذى يحفظ ما وُهب له ، هو الذى لا يمرض ولا يموت ، ولا يوجد معه مَنْ هو أقوى منه . إذن : تذكَّر أنك مُستخلف ، وما دُمْتَ مستخلفاً فعليك أنْ تنفذ أوامر مَن استخلفك .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الخَلْق الأول من تراب وخَلْق الزوجة ، يُحدِّثنا عن الخَلْق العام الذى سيأتى منه البشر جميعاً بعد آدم وحواء ، وبالتزاوج يتم الخَلْق عن طريق النطفة ، فيقول سبحانه ﴿ ثُمَّ من نُّطْفَةٍ ثُمَّ جعلكُمْ أَزْوَاجًا ١١ ﴾ [فاطر]

وفى موضع آخر فصَّل مراحل النطفة ، فقال : ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ٥ ﴾ [الحج]

وأول زواج تم بين أولاد آدم تمَّ بالتباعد ، فابن هذه البطن يتزوج أخته من بطن أخرى ، وهكذا كان التباعد بحسب زيادة النسل قَدْر المستطاع ، ومسألة التباعد هذه هى التى أدتْ إلى أول جريمة

قَتْل فى البشرية ، وهى مسألة قابيل وهابيل . فلما اتسعتْ الدنيا ، وكثُر الناس مُنِع زواج الأخت والخالة والعمة.

وقد أثبت العلم أهمية التباعد فى الزواج ، وأن زواج الأقارب يثمر نسلاً أضعف من زواج الأباعد ، حتى فى الزراعة أثبتوا أن زراعة الحبوب المستخرجة فى نفس أرضها يعطى محصولاً أقلَّ ؛ لذلك لجئوا فى الزراعة إلى عملية التهجين .

والنبى ﷺ يحثُّ على هذا التباعد ، فيقول : « اغتربوا لا تضووا[1] »[2] يعنى : لا تتزوج شديدة القرابة منك ؛ لأن الأقارب خصائص وجودهم واحدة والدم واحد ، أما فى الاغتراب ، فالخصائص مختلفة والدم مختلف ؛ لذلك يأتى النسل أقوى ؛ لذلك فطن الشاعر العربى إلى هذه المسألة ، فقال[3] :

أُنذِرُ مَنْ كَانَ بعيد الهَمّ ... تَزْويج أولادِ بناتِ العَمّ
فليسَ بِنَاجٍ من ضَوَى وسَقَم ... بأبى وإنْ أطْعمتَهُ لا يَنْمي

وقد لاحظوا ضَعْف النسل فى الأُسَر التى تزوج أولادها من الأقارب ، ومدحوا الاغتراب ، فقال الشاعر :

---

(١) ضوى يضوى ، هو الولد يخرج ضعيفاً . ورجل ضَاوٍ إذا كان ضعيفاً . ومعنى لا تضووا ، أى : لا تأتوا بأولاد ضاوين . [لسان العرب - مادة : ضوا] .

(٢) مما ورد فى هذا ما ذكره أبو حامد الغزالى فى إحيائه (٢/٤١) : « لا تنكحوا القرابة القريبة ، فإن الولد يُخلق ضاوياً » . قال الحافظ العراقى فى تخريجه لأحاديث الإحياء . « قال ابن الصلاح : لم أجد له أصلاً معتمداً . قلت : إنما يُعرف من قول عمر أنه قال لآل السائب ، قد أضويتم ، فانكحوا فى النوابغ » رواه إبراهيم الحربى فى غريب الحديث . قال الشوكانى فى (الفوائد المجموعة ص ١٣١) : « ليس بمرفوع » .

(٣) ذكرهما أبو حيان التوحيدى فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، ولم يعزهما لأحد . وانظر أيضاً « محاضرات الأدباء » للراغب الأصفهانى .

فَتَىً لم تَلِدْهُ بِنْتُ عَمٍّ قريبة فيضْوَى وقد يَضْوِى سَلِيلُ الأقَارِبِ[1]

وآخر يبتعد عن بنت عمه فى الزواج رغم حُبِّه لها ، ويقول :

تَجَاوَزْتُ بنتَ العَمِّ وهْيَ حَبِيبةٌ مَخَافَةَ أنْ يَضْوَى عَلَىَّ سَلِيلُها

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ (١١) ﴾ [فاطر]
عملية حَمْل الأنثى تتم نتيجة الالتقاء بين الذكر والأنثى تحت مظلة الشرع ومنهج الله ، وللعلماء كلام طويل فى مسألة حمل المرأة ، أهى المسئولة عنه أم الرجل ، وأخيراً سمعنا من التحاليل التى أجروْهَا أنَّ الرجل هو المسئول عن ميكروب الذكورة أو الأنوثة ، أما المرأة فتحمل البويضة التى تستقبل هذا أو ذاك .

وعجيب أن تفطن المرأة العربية القديمة إلى نتائج العلم الحديث الآن ، وأن يكون لديها إلمامٌ وفَهْم لهذه المسألة ، فالمرأة البدوية التى كانت لا تنجب إلا البنات ، فغضب عليها زوجها ، وذهب فتزوَّج بأخرى لتنجب له الولد ، وهجر الأولى ، فأنشدت وقالت[2] :

مَا لأبِى حَمْزَةَ لا يَأْتِينَا غَضْبَانَ ألاَّ نَلِدَ البَنِينَا

تَاللَّه مَا ذَاكَ فى أيدِينَا ونحن كالأرْضِ لغَارِسِينَا

* نُعطى لَهُمْ مِثْلَ الذى أُعْطِينَا *

وعجيب أنْ تتكلم البدوية بما توصَّل إليه العلم الحديث فى القرن العشرين ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يثبت لنا أن الفطرة السليمة البعيدة عن الهوى قد تصل إلى حقائق الكون ، فسداد الرأى لا يجتمع

---

(١) هذا البيت للنابغة الذبيانى . ولكن لفظه يختلف عما أورده الشيخ رحمه الله هنا .
فتى لم تلده بنت أم قريبة فيضوى وقد يضوى رديد الأقارب
وقد ذكره الخالديان فى « الأشباه والنظائر » وعزواه إلى أعرابى يذكر ابنه بلفظ الشيخ إلا قوله « الأقارب » فهو عندهما القرائب .

(٢) ذكر هذه الأبيات مع اختلاف فى اللفظ ابن عبد ربه الأندلسى فى العقد الفريد ـ باب قولهم فى النوادر والمُلَح :
ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذى يلينا
غضبان أن لا نلد البَنِينا وإنما نأخذ ما أعطينا

وهوى النفس ؛ لذلك قالوا : آفة الرأى الهوى ، ومن ذلك ما رُوى عن سيدنا عمر من أن القرآن كان ينزل على وَفْق ما يراه ، وما ذاك إلا لسلامة فطرته .

وقوله : ﴿ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ [فاطر] هذه مراحل تمر بها المرأة ، أولاً ، تزوجت ثم حملت ، ثم وضعتْ حملها ، وهذه كلها مراحل السلامة ، ولم يذكر - سبحانه وتعالى - ما يطرأ على الحمل من عطب ، فقد تحمل الأم ويسقط جنينها ولا تضعه .

والإعجاز الذى يصاحب عملية الحمل أن الدم الذى ينزل من المرأة حال الدورة الشهرية يتحول عندما تحسمل إلى غذاء للجنين ، فكأن هذا الدم ليس رزقاً لها ، بل رزق ولدها إنْ قُدِّر لها الحمل ، وإن لم يُقدَّر لها حمل نزل منها دون أن تستفيد منه بشىء .

والعجيب أن هذا الدم يكفى الجنين الواحد ، ويكفى الاثنين والثلاثة ، والأكثر من ذلك ، وأخيراً سمعنا عن المرأة التى ولدتْ سبعة ، ومع ذلك كانت بحالة جيدة يعنى : لم ينقص من وزنها شىء ، وكأن الخالق عز وجلّ يذكّرنا قبل أنْ تحملوا هَمَّ القوت والأرزاق انظروا ما فعل الله بكم وأنتم فى بطون أمهاتكم ، فلكُلٍّ منكم رزق لا يتعدَّاه ولا يُخطئه .

وصدق رسول الله ﷺ حين قال : « طعام الواحد يكفى الاثنين ، وطعام الاثنين يكفى الثلاثة »[1] .

ومع تقدُّم العلم الآن لم يستطيعوا تحديد موعد الولادة بشكل قاطع ، وستبقى هذه اللحظة في علم الله ﴿ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ﴾ [فاطر]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/٤٠٧) من حديث أبى هريرة ، وأخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٥٩) كتاب الأشربة ، وابن ماجه فى سننه (٣٢٥٤) من حديث جابر بن عبد الله .

لماذا ؟ لأننا نعرف نعم مدة الحمل ، لكن لا نعرف على وجه التحديد متى التصق (الزيجوت) في الرحم ؛ لذلك فإن أطباء الولادة دائماً ما يقولون ستضع الحامل بين كذا وكذا من الأيام .

إذن : لحظة الولادة أشبه ما تكون في خفائها بلحظة الموت لا يعلمها إلا الله ، ومعنى يعلمها يعني : يعلمها بكل ما يحيط بها من ملابسات وأحداث .

وبعد أنْ تضع المرأةُ حملها تتحول إلى مرضعة وحاضنة فيُجري لها الخالق سبحانه رِزْق ولدها لترضعه دون أنْ يأخذ من رزقها شيئاً ، لأن إمداد الله لها مستمر ، والشيء ينقص إنْ أُخذ منه دون إمداد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ (١١) ﴾ [فاطر] يُعمَّر يعني : يمد الله في عمره ، وعندنا في اللغة أفعال ملازمة للبناء للمجهول ، فمثلاً نقول : زُكم فلان لأنه لم يجلب لنفسه الزكام ، كذلك نقول : فلان عُمِّر . هو لم يُعمِّر نفسه ، إنما عمَّره الله ، لذلك جاء بصيغة اسم المفعول مُعمَّر ، والمُعمَّر يعني طويل العمر .

وهذا من المواضع التي وقف عندها المستشرقون معترضين كالعادة ، بسبب جهلهم باللغة العربية وأساليبها ، قالوا : كيف يُعمَّر بالفعل ، فيعيش مائة سنة مثلاً ثم ينقص من عمره ؟ نقول : هم معذورون ؛ لأنهم لا يعلمون أن في اللغة ضميراً ومرجعاً للضمير .

فتقول مثلاً : قابلتُ فلاناً فأكرمتُه ، فالهاء في أكرمته تعود على فلان هذا ، وتقول : تصدقتُ بدرهم ونصفه . فهل يعني هذا أنك تصدقتَ بدرهم . ثم أعدته ثانية ونصَّفته ؟ لا إنما المعنى : تصدقت بدرهم ونصف درهم مثله ، فمرة يعود الضمير على ذات واحدة ،

ومرة يعود على واحد من مثله ، كما فى : تصدقت بدرهم ونصفه .

والإنسان له ذات وله صفات ، ذاته هى قوام تكوينه ، وصفاته ما يطرأ على الذات من أوصاف ، فكَوْنه معمَّراً يعنى بلغ سناً كبيرة ، وكما يعود الضمير على مثل الأول أو على بعض مثله ، كذلك يعود على بعض ذاته ، فالمعمَّر ذاتٌ ثبت لها التعمير ، فعلامَ يعود الضمير فى ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴿١١﴾ ﴾[فاطر] صحيح حينما يصل إلى مائة سنة لا نستطيع أنْ نُميته فى سنِّ العشرين مثلاً .

إذن : أعد الضمير على الذات دون الصفة ، وما يُعمَّر من مُعمَّر ، ولا ينقص من ذاته ، فالذات لم يثبت لها التعمير إلا بإذن الله ، فيصير المعنى مثل : تصدَّقْتُ بدرهم ونصفه .

والحق سبحانه حدَّثنا عن التعمير عندما تكلم عن اليهود : ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴿١١١﴾ ﴾ [البقرة]

وقالوا : ﴿ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴿٨٠﴾ ﴾ [البقرة]

فردَّ الله عليهم : إنْ كنتم ضمنتم الجنة ، وأنه لا يأخذها منكم أحد ، فتمنَّوْا الموت الذى يوصلكم إليها : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [البقرة]

ثم حكم الله عليهم ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾[البقرة]

فمعنى ﴿ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ ﴿١١﴾ ﴾[فاطر] يعنى : من عمر ذات لم يثبت لها التعمير إلا بإذن الله .

وقوله ﴿ إِلاَّ فِي كِتَابٍ (١١) ﴾[فاطر] أي : في اللوح المحفوظ ، فكلُّ ما يحدث في الأعمار وفي فترات الحمل والوضع من الإنقاص أو الزيادة ، كله مُسطَّر معلوم في اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) ﴾[فاطر] فإنْ كان صعباً عليكم وعلى فهمكم فهو يسيرٌ وسهلٌ على الله سبحانه.

ألاَ ترى لسيدنا زكريا عليه السلام وهو يدعو الله أنْ يرزقه الولد الصالح الذي يرث النبوة من بعده ، مع أنه بلغ من الكِبَر عتياً وامرأته عاقر ، وأيّ ذرية بعد هذا السِّن خاصةً إنْ كانت الزوجة عاقراً ؟ لكن ، إنْ كانت بقوانين الله ، فالأمر سهل ميسور .

واقرأ :﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) ﴾ [مريم]

إذن : لا تقسْ المسألة على قدرتك وقانونك ؛ لأن الفعل يُنسَب إلى الله ، لا إلى بشر .

كذلك سيدنا موسى - عليه السلام - لما تبعه فرعون بجنوده حتى حاصره وضيَّق عليه الخناق حتى قال أتباع موسى ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] ولم لا والبحر من أمامهم وجنود فرعون من خلفهم ، فقال موسى قولةَ الواثق بربه وقدرته التي لا حدودَ لها ﴿ قَالَ كَلاَّ (٦٢) ﴾ [الشعراء] يعني : لن يدركونا ، قالها بما لديه من رصيد الثقة بالله ﴿ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] فجاءه الفرج لتوِّه ﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) ﴾ [الشعراء]

رأى موسى طريقاً يابساً يشقُّ البحر ، فعبر هو وقومه إلى أن

أصبح في الجانب الآخر ، فأراد أنْ يضرب البحر مرة أخرى ليعود إلى سيولته ، فلا يعبره فرعون ، لكن نهاه ربه ، فالمعجزة لم تنته بَعْد ، وما زال لها بقية ، والله تعالى قادر على أنْ يُنجي ويُهلك بالشيء الواحد ، وظل الطريق اليابس على يبوسته حتى اغترَّ به فرعون ، فعبره ليلحق بموسى ، ولما نزل آخر جندي من جنود فرعون أطبقَ اللهُ عليهم الماءَ ، وأعاده إلى سيولته ، فأغرق فرعونَ وجنوده ، هذه طلاقة القدرة التي لا تحدُّها حدود ، ولا تخضع للأسباب .

كذلك تأمل مسألة الخَلْق والتكاثر تجد جمهرة الناس جاءوا من ذكر وأنثى ، وهذه هي القاعدة ، لكن قدرة الله لا يُعجزها أنْ تأتي بالخَلْق في كل مراحل القسمة العقلية المنطقية في هذه المسألة ، فالخالق سبحانه خلق آدم بلا أب وبلا أم ، ثم خلق حواء من أب بلا أم ، وخلق عيسى من أم بلا أب . إذن : نقول الأمر هيِّن يسير على الله ، وإنْ ظننْتَهُ أنت صعباً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ[1] سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ[2] وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(١) الفرات : العذب . فقوله تعالى : ﴿ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [فاطر] فرات للتوكيد ، فهو عذب عذوبة بالغة . [القاموس القويم ٢ / ٧٤] .

(٢) الأجاج : الملح الشديد الملوحة . أجَّ الماء : اشتدت ملوحته . وقوله تعالى : ﴿ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [فاطر] تأكيد لشدة ملوحته . [القاموس القويم ١ / ٧] .

الحق سبحانه وتعالى يريد أنْ يُقرِّب لنا القضية العقلية القيمية فيعرضها لنا في صورة حسية مُشاهدة ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ (١٢)﴾[فاطر] وكأن الله يقول لنا : كما أن هناك أشياء حسية لا تستوى في الحسِّ ، كذلك في القيم أشياء لا تستوى .

معنى ﴿الْبَحْرَانِ (١٢)﴾[فاطر] البحر معروف ، وهو المتسع الذى يحوى الماء المالح ، وسُمِّى النهر أيضاً بَحْراً على سبيل التغليب ، والنهر يحوى الماء العذب ، فهما مختلفان لا يستويان ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ (١٢)﴾[فاطر] ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (١٢)﴾[فاطر] إذن : هما وعاء لشيء واحد هو الماء ، فهما وإن اشتركا في الشيء الواحد وهو الماء فهما مختلفان في النوع :

هذا عذب ، وهذا مالح ، العَذْب وُصف بأنه ﴿عَذْبٌ فُرَاتٌ (١٢)﴾[فاطر] أي . شديد العذوبة ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ (١٢)﴾[فاطر] سهل المرور في الحَلْق هنيئاً ، ووصف المالح بأنه ﴿مِلْحٌ أُجَاجٌ (١٢)﴾[فاطر] شديد الملوحة .

وبين العَذْب والمالح عجائب في التكوين ، ففيهما مثلاً تعيش الأسماك ونأكلها ، فلا نفرق بين سمك الماء المالح وسمك الماء العَذْب ؛ لأن الله أعدَّ الكائن الحي ليأخذ من الماء مقوِّمات حياته ، وينفي ما لا يريد ، مثل الشجرة تزرعها ، فتأخذ من الأرض العناصر اللازمة لها وتطرد ما لا تحتاج إليه .

ففي التربة الواحدة تزرع مثلاً شجرة (شطة) وعود القصب ، فتتغذى الشجرتان بنفس العناصر ، وتُسْقى بنفس الماء ، لكن يخرج الطُّعْم مختلفاً تماماً ، كما قال سبحانه : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ

وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد]

وهذه فطرة وغريزة جعلها الله فى كل الكائنات الحية ، أن تأخذ من الغذاء ما تحتاج إليه فقط ، ولما أراد العلماء أنْ يُقرِّبوا لنا عملية التغذية فى النبات قالوا : إنها تعتمد على خاصية الأنابيب الشعيرية ، فالشعيرات الجذرية تمتصُّ الماء والغذاء من التربة وتُوصِّله بهذه الخاصية إلى الساق والأوراق ، لكن فَاتَهُم أن الأنابيب الشعيرية تمتص الماء دون تفرقة ودون تمييز لعنصر دون عنصر ، ودون انتخاب لمادة دون أخرى . إذن : ليست هى الخاصية الشعيرية ، إنما هى الغريزة والفطرة الإلهية التى أودعها الله فى الكائن الحى .

والإنسان تطرأ عليه مسائل غريزية ، ومسائل عاطفية ، ومسائل عقلية : فالمسائل العاطفية مثل الحب أو البغض لا دَخْلَ للتشريع فيها ؛ لأن الإنسان لا يملك التحكم فيها ، فأحببْ مَنْ شئتَ ، واكره مَنْ شئتَ ، لكن شريطة ألاَّ يُخرجك الحب أو الكُرْه عن حَدِّ الاعتدال إلى الظلم والتعدى ، كما قال سبحانه : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ .. ﴿٨﴾ ﴾ [المائدة]

كذلك المسائل الغريزية لا يتدخَّل فيها الشرع ، فالجوع والعطش مثلاً غرائز يعرفها المرء بنفسه وبالتجربة ، فأنت لا تُعلِّم ولدك الجوع أو العطش ، بل هو يعرفه بنفسه حين يجوع وحين يعطش .

لذلك عجيب الآن أنْ نسمع مَنْ ينادى بتعليم الأولاد والبنات فى

---

(١) أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم أى : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١/٦٢٦] والشنآن : البغض والكره .

المدارس الأمور الجنسية ، ويريدون مادة جديدة تسمى (التربية الجنسية) يتعلَّمها الأطفال منذ الصِّغَر ، ونقول : سبحان الله متى يُسمح للصغار بتعلُّم الغرائز ، الغرائز لا تُعلم ، بل يعرفها الإنسان فى وقتها المناسب .

ومن عجائب الخَلْق أن الماء العَذْب لا يختلط بالماء المالح ، كما قال سبحانه ﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن] وهذا دليل إعجاز ، فالماء المالح فى البحار والمحيطات الكبيرة دائماً ما نجد منسوب المياه فيها أقلَّ من منسوب مياه الأنهار ، ولو كان العكس لَطَغى الماء المالح على الأنهار وعلى اليابسة .

ومعنى ذلك أنْ تموت المزروعات وتفسد التربة ؛ لذلك شاءتْ حكمة الخالق سبحانه أن يكون منسوب الأنهار أعلى ، وأن يكون لها مَصبَّات تنتهى إلى البحار لتفرغ فيها الماء الزائد عن الحاجة .

وللخالق سبحانه حكمة فى الماء العَذْب ليكون صالحاً للشرب ولسَقْى الزرع ويروى العطش ، أما المالح فالله يحفظه بنسبة الملوحة فيه حتى لا يفسد ويعطن ؛ لأن البحار والمحيطات هى مخازن الماء العَذْب ، فمنها يتبخر ماء المطر الذى تجرى به الأنهار ، وتلحظ أن درجة الملوحة تختلف حسب طبيعة المكان ، فمثلاً تجد الماء فى بحر البلطيق أقلَّ ملوحة ، لأنه مصبٌّ لعدة أنهار ، ويقع فى منطقة كثيرة المطر ، وهذا كله يُقلِّل من مُلوحته .

أما البحر الميت مثلاً ، فهو أكثر البحار ملوحة ، لدرجة أن الأسماك لا تعيش فيه ، والسبب أنه لا توجد أنهار تصبُّ فيه ، ويقع فى منطقة حارة ، قليلة المطر ، فيكثر تبخُّر الماء منه ، أما بقية المياه الملتقية فى البحار والمحيطات فتكاد ملوحتها تكون واحدة .

وسبق أنْ ذكرنا الحكمة من اتساع مساحة الماء المالح في البحار والمحيطات ، وقُلْنا : إن اتساع سطح الماء يزيد في نسبة البخر ليتوفر الماء العَذْب الصالح للريّ وللشرب ، ومثَّلْنا لهذه العملية بكوب الماء تتركه على المكتب لمدة شهر وتعود فتجده كما هو تقريباً ، أما إنْ سكبْتَهُ على أرض الحجرة فإنه يجفّ قبل أنْ تغادرها ، لماذا ؟ لأنك وسَّعت مساحة التبخر .

إذن : وسَّع اللهُ سطحَ الماء المالح ليعطينا المطر الكافي لاستمرار الحياة ، إذن : لا يُذَمُّ الماء المالح إنْ قُوبِل بالعَذْب ؛ لأنه أصل وجوده.

لذلك قال الشاعر[1] في المدح :

أهدى لمجلسه الكَريم وإنَّما ... أهدى له ما حُزْت من نَعْمائهْ
كَالبَحْرِ يُمطِره السَّحَابُ ومَا لَـهُ ... فَضْـلٌ عليه لأنه مِـنْ مَائـهْ

ومعلوم أن الماء في الكون له دورة معروفة ، قال الله فيها : ﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ① فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا ② فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ③ ﴾ [الذاريات]

فالماء الذي خلقه الله في الكون هو هو لا يزيد ولا ينقص ، فما يستهلكه الإنسان مثلاً من الماء يُخرجه على شكل فضلات وبول وعرق.. إلخ وما تبقَّى في جسمه من نسبة المائية وهي ٩٠ في المائة من وزنه تمتصها الأرض بعد موته ، كذلك الزرع والحيوان ، فهي إذن دورة معروفة مشاهدة ، كذلك فالحياة دورة فحين نقول لك : إن

(١) هذان البيتان من قول هبة الله الاسطرلابي ، وقد ذكرهما له ابن معصوم في كتابه « سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر » .

الله قادر على إعادتها فَخُذْ من المُشَاهَد دليلاً على صدْق ما غاب .

وقوله سبحانه : ﴿وَمِن كُلٍّ..(١٢)﴾[فاطر] أى : من الماءين العذب والمالح ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا (١٢)﴾[فاطر] والمراد السمك ، وهو فى الماء العَذْب كما فى الماء المالح ، والطَّعْم واحد ، ولم تجد مثلاً أسماك الماء المالح مالحة كالفسيخ مثلاً أو السردين ، ذلك لأن الكائن الحيَّ يمتصُّ ما يحتاج إليه ، ويترك العناصر الأخرى .

وكلمة ﴿لَحْمًا طَرِيًّا (١٢)﴾ [فاطر] إشارة إلى أن السمك ينبغى أنْ يُؤكل طرياً طازجاً ، فإن يَبُسَ وخرج عن طراوته فلا تأكله ، وقد اشتهر عن العرب اللحمُ القديد ، حيث كانوا يُجفِّفون لحم الأنعام فى حَرِّ الشمس ويقددونه ليعيش فترة أطول ، فهى طريقة من طرق حفظ اللحوم تناسب لحوم الأنعام ، أما لحوم الأسماك فتفسد إنْ خرجتْ عن هذا الوصف ﴿لَحْمًا طَرِيًّا.. (١٢)﴾ [فاطر]

ثم يذكر الحق سبحانه نعمة أخرى من نِعَم البحر :﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا (١٢)﴾[فاطر] والحلية ما يُتزيَّن به من اللؤلؤ والمرجان وغيرهما مما يخرج من البحر ، وهذه زينة عامة للرجال وللنساء على خلاف حلية الذهب التى تحرم على الرجال ، فللرجل أنْ يتحلَّى بما يشاء من حلية البحر ، فلا نَهْى عن شىء منها ، وحتى حلية الذهب للنساء ، فإن المرأة تتحلى بها لمن ؟ للزوج .

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ (١٢)﴾[فاطر] أى : السفن فى البحر ﴿مَوَاخِرَ (١٢)﴾[فاطر] يعنى : تشقّ البحر شقّاً فى رحلات الصيد أو رحلات السفر ، وهنا مظهر من مظاهر الإعجاز القرآنى ، فالخطاب فى القرآن أول مُخَاطَب به سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم تخاطب أمته من باطن خطابه ، ورسول الله ﷺ لم يركب البحر ولا رآه .

فحين يقول القرآن على لسانه : ﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) ﴾[الرحمن] يعني : كالجبال الشامخة . نقول : ومتى ظهرت السفن العملاقة التي تُوصَف بهذا الوصف ؟ إنها لم تظهر إلا في العصر الحديث ، وكانت قَبْلُ سفناً عادية بدائية ، فمن الذي أخبر سيدنا رسول الله بهذا التقدم الجاري الآن في صناعة السفن ، حتى إنه لَيُخيَّل لك أنها مدينة متحركة على أمواج البحر .

وقوله : ﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ (١٢) ﴾[فاطر] تطلبوا رزق الله وفضل الله في حركة السفن ، سواء كانت للصيد أو للسفر ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾[فاطر] كلمة لعل كما نعلم تدل على الرجاء ، والمعنى لعلكم بعد كل هذه النعم تقابلونها بالشكر ، وفي هذا إشارة إلى قلَّة مَنْ يشكر .

بعد ذلك ينتقل بنا السياق إلى ظاهرة أخرى وآية من آيات الكون:

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) ﴾

صحيح أن الليل والنهار يتساويان في بعض الأحايين ، لكن يطول الليلُ في الشتاء فيأخذ جُزْءاً من النهار ، ويطول النهار في الصيف فيأخذ جزءاً من الليل ، إذن طُول أحدهما نَقْص من الآخر ، هذا معنى ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ (١٣) ﴾[فاطر] يعني : يُدخل هذا في هذا .

وظاهرة إدخال الليل فى النهار وإدخال النهار فى الليل ناشئة من ميل المحور ، فالحق سبحانه كما وزَّع الماء وحفظه فى البحر الواسع ، كذلك وزَّع الحرارة ، فالشمس لولا وجود المحور المائل لاحترقتْ الجهة المقابلة للشمس وتجمدتْ الجهة الأخرى .

ومن عجائب الخلق أن الإنسان الذى يعيش عند القطب الشمالى أو القطب الجنوبى حرارته ٣٧°مثل الذى يعيش عند خط الاستواء ، لأن الجسم البشرى مبنيٌّ على هندسة خاصة تحفظ له حرارته المناسبة أيّاً كان ، بل تحفظ لكل عضو فيه حرارته التى تناسبه مع أن الأعضاء كلها فى جسم واحد ، والحرارة تُشِعُّ وتستطرق فى المكان كله .

عجيب أن الكبد مثلاً لا يؤدى وظيفته الطبيعية إلا فى درجة حرارة ٤٠°، والعين لا تزيد حرارتها عن ٧°، فمَنْ يمنع حرارة الكبد أن تستطرق فى الجسم كله وتصل إلى العين مثلاً ؟ إنه الخالق

﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ ﴾ [الأعلى]

وقوله سبحانه : ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۝١٣ ﴾[القمر] يعنى : ذلَّلهما للإنسان ، وجعلهما فى خدمته دون قدرة له عليهما ، ودون إرادة منه ، فالشمس والقمر آيتان فى الهيكل العام للكون لا دَخْلَ للإنسان فيهما ، ولو كان له دَخْل لَفَسد أمرهما وما استقام ، وصدق الله :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ..۝٧١ ﴾ [المؤمنون]

فإنْ قُلْت : إفساد الإنسان فى الأرض أمر ممكن ، فكيف يكون إفساده للسماء ؟ قالوا : ألم يتمنَّ قوم أنْ تسقط السماءُ عليهم ، فقالوا ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ۝٩٢ ﴾ [الإسراء] فلو اتبع

الحقُّ أهواءَ هؤلاء لَخَربَتْ الدنيا .

وهذه مسألة تكلمتْ فيها المدرسة الفلسفية في ألمانيا أمام مدرسة أخرى ، وكان لهما رأيان متناقضان ، وهما في عصر واحد ، وكل منهما تتخذ من رأيها دليلاً على الإلحاد وقولاً بعدم وجود إله ، وهذا عجيب .

فواحدة تقول : لا شذوذ في العالم ، فهو يسير على قوانين مستقيمة أشبه ما تكون (بالميكانيكا) ، ولو كان لهذا الكون إله خالق لاختلف الخَلْق وحدث فيه شذوذ .

والأخرى تقول : إن الكون لا يسير على نظام ثابت ، بل يحدث فيه شذوذ في الخَلْق ، بدليل أن البعض يُولَد مثلاً مُعوَّقاً ، ولو كان للعالم إله خالق لجاء الخَلْق واحداً مستوياً لا اختلافَ فيه .

سبحان الله ، فهم يريدون الإلحاد على أيِّ وجه ، فمرَاجهم أنْ يلحدوا .

ونقول لهؤلاء : تعالوا نردكم إلى الصواب وإلى كلمة سواء : يا مَنْ تريد شذوذ الأشياء دليلاً على وجود إله قادر الدليل موجود ، ويا مَنْ تريد ثبات الأشياء دليلاً على وجود إله حكيم الدليل موجود ، لكن الجهة مُنفكة ، كيف ؟

النظام الثابت الذي لا شذوذَ فيه موجود في الكون العلوي الذي يسير على رتابة ونظام لا يتخلَّف ، فحركة الشمس والقمر والكواكب والأفلاك تسير كلها على نظام واحد لا يختلُّ أبداً ، والآن استطعنا مثلاً تحديد لحظة الكسوف والخسوف ، وفعلاً نشاهده في وقته بالضبط .

إذن : إنْ أردتَ الثبات دليلاً فَخُذْه من الأفلاك العليا ؛ لأنها لا بُدَّ

أنْ تُبنى على نظام ثابت لا شذوذ فيه . وإلا لاختلَّ الكون كله .

فإنْ كنت تريد الشذوذ فشاهده في الجزئيات ؛ لأن شذوذَ الجزئيات لا يؤثر على النظام العام للكون ؛ لذلك ترى : هذا سليم ، وهذا أعمى ، وهذا أعور .. إلخ . إذن : الثبات في موضعه لحكمة والشذوذ في موضعه لحكمة ، وهذا وذاك دليلان على وجود الإله الخالق القادر .

وقوله تعالى ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى (١٣) ﴾ [فاطر] أي : الشمس والقمر يجري كل منهما إلى وقت معلوم يتم فيه فَنَاؤهما ونهايتهما ﴿ ذَلِكُمُ (١٣) ﴾ [فاطر] أي . الذي فعل هذا وقدَّره ﴿ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ (١٣) ﴾ [فاطر] أي : العالم المحسّ المشَاهَد لك ، أما الذي لا تراه من مُلْك الله فهو عَالَم الملكوت ، وهو ما غاب عنك ، ولا تدركه حواسُك .

لذلك لما نجح سيدنا إبراهيم في الابتلاء كما قال تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤) ﴾ [البقرة] أعطاه الله منزلة عظيمة ، وأطلعه على الملكوت الذي غاب عن غيره ، فقال سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (٧٥) ﴾ [الأنعام] وما يترتب من عالم المُلْك المشاهد لنا ناشيء عن عالم الملكوت الذي لا ندركه .

والحق سبحانه وتعالى يشير إلى هذا العالم - عالم الملكوت - في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا (٢٩) ﴾ [الأنفال]

كيف ، ونحن ما اتقينا الله إلا بالفرقان أي : بالقرآن ، فما معنى ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا (٢٩) ﴾ [الأنفال] ؟ قالوا : الفرقان هنا أن يُريك الله ملكوتَ السموات والأرض .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) ﴾ [فاطر] يعنى : إنْ كان الإله الحق خلق لكم كذا وكذا ، وسخَّر لكم الشمس والقمر ، فإن آلهتكم المدَّعاة المزعومة ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) ﴾ [فاطر] فما القطمير ؟

المتأمل فى القرآن الكريم يجده يُولى اهتماماً كبيراً للنخلة ، وأول ما خاطب خاطب العربَ ، وهم أول مَنْ وُوجهوا بالإسلام ودُعوا إليه ، فخاطبهم القرآن بما يناسبهم ، وذكر لهم أمثلة من بيئتهم ، والنخلة مشهورة فى البيئة العربية ، ولها فى ديننا منزلة ، حتى أنه نُسب إلى سيدنا رسول الله أنه قال « أكرموا عمتكم النخلة »[(١)]

وهذا القول وإن لم يصح عن رسول الله إلا أن الذى قاله لم يَقُلْهُ من فراغ ، ولا بُدَّ أن لهذا القول أصلاً ، وأن هناك صلة بين الإنسان والنخلة .

وقد صَحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال لأصحابه : « إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها »[(٢)]

فلما سمع عبد الله بن عمر هذا قال لأبيه : لقد وقع فى نفسى أنها النخلة ، لأنها لا يسقط ورقها ، وهى أشبه بالمؤمن ، فكل ما فيها نافع فبكَّر عمر إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله ،

---

(١) تمام الحديث : « فإنها خلقت من فضلة طينة أبيكم آدم » أورده السيوطى فى « الدرر المنتثرة » (ص١٠٧) حديث (٩٧) وعزاه لأبى يعلى وأبى نعيم عن ابن عباس وقال : ضعيف . قال ابن القيم فى زاد المعاد (٣/١٩٤) : « فى إسناده نظر » وانظر أيضاً (كشف الخفاء ١/١٩٥) .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١) ، وتمامه « وإنها مثل المسلم ، فحدِّثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البوادى . قال عبد الله بن عمر : ووقع فى نفسى أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدِّثنا ما هى يا رسول الله ؟ قال : هى النخلة » .

إن ابني عبد الله قال عن الشجرة التي ذكرتَ أنها النخلة . فقال : صدق ، فقال عمر : فوالله ما يسرني أنْ يكون لي بها حُمر النعم ، يعني : فرح أن يفهم ابنه[1] مقالة رسول الله .

وقد حاول العلماء تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان وإثبات النسب بين الإنسان والنخلة ، وأنها ربما تكون قد خُلقَتْ من بقية طينة سيدنا آدم ، فقالوا : إن رائحة طلع النخلة الذي يتم به التلقيح هي نفس رائحة المنيِّ عند الإنسان ، وهذا يرجح صدْق قول مَنْ قال إنها عمَّتنا .

وفي خَلْق النخلة على هذه الصورة عجائب وأسرار ، ويكفي أن كل ما فيها نافع ، ولا يُرْمى منها شيء ، وقد جعلها الله موضعاً للمثَل والعبرة ، فلما حدَّثَ العرب عن الهلال ، قال : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [يس]

والعرجون هو السُّبَاطة التي تحمل البلح حين تيبس تلتوي وتتقوَّس ، فقرَّب لهم الأعلى بذِكْر الأدنى المعروف لهم .

خُذْ مثلاً نواة التمرة ، وهي أهون ما يكون ، إلا أن الله تعالى كرَّمها حين ذكر منها ثلاثة أجزاء جعلها أمثالاً توضيحية . ذكر القطمير الذي معنا في هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾[فاطر] وهو الغشاء الشفاف الذي يحيط بالنواة ، ونجد مثله بين بياض البيضة وقشرتها .

وذكر النقير في قوله سبحانه : ﴿ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ

---

(١) أخرج هذه الرواية البخاري في صحيحه (١٣١) ، وفيها أن ابن عمر قال : فحدثت أبي بما وقع في نفسي ، فقال : لأن تكون قلتها أحب إليَّ من أن يكون لي كذا وكذا .

نقيراً (١٢٤)﴾[النساء] والنقير تجويف صغير ، أو نقرة في ظهر النواة .

وذكر الفتيل في قوله تعالى : ﴿ قُلْ متاعُ الدُّنيا قليلٌ والآخرةُ خيرٌ لِّمن اتَّقَىٰ ولا تُظْلَمُونَ فتيلاً (٧٧)﴾[النساء] والفتيل خيط أبيض تجده في بطن النواة ، وهذه الثلاث : القطمير والنقير والفتيل تُضرب مثلاً للشيء اليسير المتناهي في القلة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾

قوله ﴿إن تدعوهم (١٤)﴾[فاطر] الدعاء هنا معناه العبادة ، فقد كان الواحد منهم يقف أمام صنمه يدعوه ويتوسل إليه ويكلمه .. الخ ، لكن هيهات فهذا حجر لا يسمع ، فدعاؤه غباء فضلاً عن كونه كفراً ، ومعنى ﴿لا يسمعوا دعاءكم (١٤)﴾[فاطر] أي . الآلهة التي لا تعقل ولا تسمع ، كالشجر والحجر وغيره .

لكن ، لماذا عبد الكفار الأصنام مثلاً ، وهم يعلمون أنها حجارة نحتوها بأيديهم ، ويرونَ أن هبَّة الريح تُوقع معبودهم ، وتُلقيه على الأرض ، وتكسر ذراعه ، فيحتاج إلى مَنْ يصلحها ، شيء عجيب أنْ تُعبد الأصنام من دون الله ، لكن السبب هو فطرة التدين في النفس البشرية .

فكل إنسان بطبعه يحب التدين ، وآفة التدين أن له مطلوبات ، فما

المانع أنْ يذهب الإنسانُ إلى تدين يرضى هذه الفطرة ، ومع ذلك لا مطلوبات له ، من هنا عُبدت الأصنام ، وعُبدت الكواكب والأشجار وجُعلت آلهة .

ومعنى العبادة : أنْ يطيع العابد أمر معبوده وينتهي عن نَهْيه ، فإذا لم يكن هناك أمر ولا نهي ، فالعبادة ساقطة باطلة ؛ لأنك تعبد إلهاً بلا منهج ، وإلا فبماذا أمرتهم هذه الآلهة وعَمَّ نَهَتْهم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمن كفر بها ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا (١٤) ﴾ [فاطر] أي : على فرض أنهم عبدوا بشراً يسمعهم ﴿ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ (١٤) ﴾ [فاطر] يعني : ما وافقوا على عبادتكم لهم ، ولرفضوا أن يكونوا آلهة . ومثال ذلك الذين عبدوا عيسى عليه السلام من دون الله .

وقد تناول الشاعر هذه المسألة حين تخيَّل أن غار ثور يَغَار من غار حراء ؛ لأن النبي ﷺ جعله مكاناً للخَلْوة وللتعبُّد ، وفيه نزل عليه أول الوحي ، فلما نزل النبي ﷺ في هجرته بغار ثور فرح ثور ، ورأى أن الرءوس قد تساوتْ ، فحراء لبعثة رسول الله ، وثور لهجرته ، التي كانت منطلقاً للدعوة .

يقول الشاعر[1] :

كَمْ حَسَدْنَا حراءَ حين تَرَى الرُّوحَ أميناً يَغْذُوكَ بالأنْوارِ

فَحِراءٌ وثَوْرٌ صَارَا سَواءً بِهِما اشْفَعْ لأمَّة الأحْجارِ

عَبَدُونَا ونحْنُ أعْبَدُ لله مِن القائمين بالأسْحَارِ

(١) من شعر الشيخ رضي الله عنه .

تَخِذُوا صَمْتَنا عَلَيْنَا دَلِيلاً فَغَدَوْنَا لَهم وَقُودَ النَّارِ
قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كمَا قَدْ تجنَّوْه عَلَى ابْنِ مَريمَ والحوَارِى
لِلْمغَالِى جَزَاؤهُ والمغَالَى فيه تُنجِيه رحمةُ الغَفَّارِ

فالحجر ذاته يأبى أنْ يُعبد من دون الله ، ويعلم فى حقيقته قضية التوحيد ، ويخِرُّ لله مُسبِّحاً ، فما بالك بالبشر ؟

لذلك سنرى فى موقف القيامة العجب من المعارك والمناقشات بين العابد والمعبود ، والتابع والمتبوع ، يقول تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) ﴾ [البقرة] وقال حكايةً عن الذين ضلُّوا : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ (٢٩) ﴾ [فصلت]

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ (١٤) ﴾ [فاطر] أى : هؤلاء الذين توجهتم إليهم بالعبادة واتخذتموهم آلهة سيتبرأون منكم ومن شرككم ﴿ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ [فاطر] أى : عالم ببواطن الأمور ، وكأن الله تعالى يقول لك : أنا أخبرك بما سيكون فى المستقبل فَخُذْ من صدقى فيما مضى دليلاً على صدقى فيما هو آت ، ومن صدقى فيما تشاهد دليلاً على صدْقى فيما غاب عنك .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ ﴾

النداء فى ﴿ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ ⟨١٥⟩ ﴾[فاطر] نداء عام للناس جميعاً ، المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ﴿ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ⟨١٥⟩ ﴾ [فاطر] هذه حقيقة يُذل الله بها كبرياء الذين تأبَّوْا على الإيمان بالله ، وتمردوا على منهج الله ، وكأن الله تعالى يقول لهم : ما دُمْتم قد ألفْتم التمرد فتمردوا أيضاً على الفقر إنْ أفقرتُكم ، وعلى المرض إنْ نزل بكم ، تمردوا على الموت إن حان أجلكم ، إذن : أنتم مقهورون لربوبية الله ، لا تنفكون عنها .

﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ⟨١٥⟩ ﴾[فاطر] أى : الغنَى المطلق ، ومعنى ﴿ الْحَمِيدُ ⟨١٥⟩ ﴾[فاطر] أى : المحمود كثيراً ، والغنى لا يُحمد إلا إنْ أعطى ، وكان عطاؤه سابغاً ، فالغنى الممسك لا يُحمد بل يُذَم .

ثم يُذكِّرهم الحق سبحانه بحقيقة أخرى غابت عنهم ﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ⟨١٦⟩ ﴾[فاطر] كما قال فى موضع آخر : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ⟨٣٨⟩ ﴾[محمد] ومعنى : خلق جديد : الشيء الجديد هو قريب العهد بالعمل فيه ، مثل الثوب الجديد يعنى الذى فُرِغ من خياطته ولم يُلْبَس بعد .

وإعادة الخَلْق أو الإتيان بخَلْق جديد أمر هيِّن على الله ﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ⟨١٧⟩ ﴾[فاطر] يعنى : ليس صعباً ، لكن الحق سبحانه يريد أنْ يأتى له الخَلْق طواعية ، ويؤمنون به سبحانه ، وهم قادرون على الكفر ولهم مُطْلق الاختيار ، وهذا الاختيار موطن العظمة فى دين الله .

وسبق أنْ مثَّلنا هذه القضية بأنه لو أن لك عبدين أمسكتَ الأول

إليك بسلسلة ، وتركتَ الآخر حراً ، وإنْ ناديتَ على أحدهما لبَّى وأجاب ، فأيهما يُعَدُّ الأطوع لك . كذلك الحق سبحانه يريدنا طائعين عن رضا وعن اختيار ، لا عن قهر وكراهية ، فالله سبحانه كما قلنا لا يريد قوالبَ تخضع ، إنما يريد قلوباً تخشع .

والإتيان بخَلْق جديد أمر هيِّن يسير على الله تعالى ؛ لأن الله تعالى لا يخلق بعلاج ، وإنما يخلق بكُنْ فيكون ، وهذا من الله تعالى لا يحتاج إلى زمن .

ولو أردتَ أن تستقصي هذا المعنى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾[يس] تجد أن الشيء في الحقيقة موجود بالفعل ، لكن في عالم الغيب والأمر ، له أن يظهر لنا في عالم الواقع ؛ لذلك لما سُئِلَ أحد العارفين قال : أمور يبديها ، ولا يبتديها.

وتلحظ في قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) ﴾[فاطر] ذكر ضمير الفصل (هو) فلم يَقُلْ الحق سبحانه : والله الغني ، وهذا الضمير أفاد توكيد الخبر وقصر الغنَى على الله سبحانه وتعالى ، لذلك قلنا : إن هذا الضمير لا يأتي إلا في المواضع التي تحتمل شبهة المشاركة ، كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) ﴾ [الشعراء]

فجاء هنا بضمير الغائب (هو) لأن الهداية والإطعام والسُّقْيا والشفاء من المرض كلها مظنة أنْ يشاركه فيها أحد من الخَلْق ، أما في الحديث عن الموت فقال : ﴿ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) ﴾ [الشعراء] ولم يأتِ هنا بضمير الغائب ؛ لأن الموت والإحياء لله وحده ، ولا

شبهة فيهما ، ولم يدَّعهما أحد لنفسه .

ثم يقول الحق سبحانه .

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

معنى ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] لا تحمل نفس آثمة ﴿ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾[فاطر] حِمْل نفس أخرى ؛ لأنها هي الأخرى مُثْقلة بحملها ، والوزر هو الحمْل الثقيل الذي لا يطيقه الظهر ، ومنه قوله تعالى في مسألة الوحي : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾ [الشرح] يعني : أتعبك نتيجة التقاء الملائكية بالبشرية .

لذلك كان ﷺ يتفصَّد جبينه عرقاً من لقاء جبريل ، وهو الذي قال مُصوِّراً هذا اللقاء : « ضَمَّني حتى بلغ مني الجهد »[(١)] وعاد إلى أهله يقول : زملوني زملوني ، دثروني دثروني . ومع هذا كله لما فتر الوحي اشتاق إليه وتمناه أنْ يجيء ، لأنه ذاق حلاوته ، وحلاوة الشيء تُنسيك ما تلاقيه من المتاعب في سبيله .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣) كتاب بدء الوحي من حديث عائشة رضي الله عنها في حديث طويل . والغطُّ : حبس النفس . وفي رواية الطبري : فخنقني ، كأنه أراد ضمني وعصرني ، قاله ابن حجر في فتح الباري (١/ ٢٤) .

والمعنى : لا تحمل وزر وذنب نفس أخرى مُثْقَلة بالذنوب والآثام ، وقد شرح الحق لنا هذا المعنى فى قوله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس] فكلٌّ مشغول بنفسه ، مُرْتَهَنٌ بعمله ، لا وقت للمجاملة ؛ لذلك يقول الوالد لولده : يا بُنى حِمْلى ثقيل علىَّ ، فخُذْ عنى شيئاً منه . فيقول الولد : حسبى حِمْلى يا أبى .

كذلك هنا ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا (١٨) ﴾[فاطر] أى : نفسى مُثْقَلة بالآثام تطلب مَنْ يحمل عنها شيئاً من ذنوبها ولكن هيهات ﴿ لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ (١٨) ﴾ [فاطر] أى : لو كان هذا النداء لأقرب الناس إليها ما أجاب وما حمل عنها ، وكيف تحمل نفسٌ وِزْر نفس أخرى ، وهى مشغولة بحِمْلها مثقلة به ؟

لذلك يُكذِّب الحق سبحانه قَوْل الذين كفروا حين يتعرَّضون لحمل خطايا أتباعهم ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣) ﴾ [العنكبوت]

إذن : هذه مسألة واضحة ، فكلٌّ مشغول بنفسه ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) ﴾ [المدثر]

فالإنسان فى الدنيا مرتبط إما بقرابة لها حقوق عليه ، وإما بإخوان وأصدقاء ، وإما بمنقذ يستنجد به ، وإنْ لم يكن قريباً ولا صديقاً ، لكن يوم القيامة ستنحلُّ كل هذه العُرَى ؛ لأن الموقف لا يحتمل المجاملات ولا التضحيات .

لذلك لما سمعتْ السيدة عائشة رضى الله عنها سيدنا رسول الله وهو يُحدِّثهم عن القيامة ، ويذكر أن الشمس تدنو من الرؤوس والخَلْق يقفون عرايا ، استاءتْ وسألت رسول الله . كيف يقف الناس عرايا ينظر بعضهم إلى عورة بعض ؟ فأجابها رسول الله أن كل امرىء مشغول بنفسه ، وأن الأمر أعظم من أنْ ينظر أحد لعورة أحد فى هذا الموقف[1] .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] يعنى : إنذارك يا محمد وتحذيرك لا ينفع إلا الذين يخشون ربهم بالغيب ، أما الآخرون فقد ظلموا أنفسهم حين حرموها الخير الكثير الذى أراده الله لهم ، ظلموها حين غرَّتهم الدنيا بنعيمها الفانى ، وشغلتهم عن نعيم الآخرة الباقى الدائم .

والإنذار : التخويف من شَرٍّ قبل أوانه لتتوقَّاه ، والفرصة سانحة قبل أنْ يداهمك ، فأنت مثلاً حين تريد أنْ تحثَّ ولدك على المذاكرة وتحذره من الإهمال الذى يؤدى إلى الفشل لا تقول له هذا ليلة الامتحان ، إنما قبله بوقت كافٍ ليتدارك أمره ، ويصحح ما عنده من قصور أو إهمال .

والإنذار والتخويف لا يُجدى إلا مع مَنْ يؤمن بما تُخوِّفه به ، فحين ينذر رسول الله بعذاب الآخرة لا ينتفع بهذا الإنذار إلا مَنْ يؤمن بالله ويؤمن بالقيامة .

ومعنى ﴿ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] الخشية هى الخوف ، لكن بحب

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥٣/٢) من حديث عائشة أن النبى ﷺ قال : « إنكم تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً . قالت عائشة : يا رسول الله ، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض . قال : يا عائشة ، إن الأمر أشد من أن يهمهم ذلك »

وتوقير ، لا خوف بكراهية ، فأنت تخاف مثلاً من بطش جبار ظالم ، لكن تخافه وأنت كاره له ، إنما خَوْفك من الله خَوْف ناتج عن حب وتوقير ، لذلك يصحب هذا الخوف رجاء وطمع في رحمته تعالى ، فأنت تسير في رحلة حياتك بجناحين : خوف من العذاب ، ورجاء في الرحمة .

والإنسان ينبغي ألاَّ ينظر إلى الفعل في ذاته ، بل ينظر إلى الفعل وإلى قابل ، فقد يكون الفعل واحداً لكن يختلف مستقبل الفعل ، فالقرآن مثلاً سمعه قوم[1] عند رسول الله ، فحكى الله عنهم . ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد]

في حين سمعه آخر[2] فقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة[3] ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه .

وسمعه عمر فَلاَنَ قلبه له ورَقَّ فأسلم ، فالقرآن واحد ، لكن

---

(١) المقصود بهم المنافقون . ذكره السيوطي في أسباب النزول للسيوطي (ص ١٥٤) وابن كثير في تفسيره (٤/١٧٧).

(٢) هو الوليد بن المغيرة ، وقد اجتمع إليه نفر من قريش ليحددوا وصفاً للقرآن ليجتمع رأيهم في رأي واحد حتى لا يختلفوا أمام الناس الوافدين عليهم في موسم الحج . فقال بعضهم : هو كاهن . فقال الوليد : ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه . وقال بعضهم : مجنون . فقال الوليد : لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته . وقال بعضهم : شاعر . فقال الوليد : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه فما هو بالشعر ، ثم قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لجناة . [ذكره ابن هشام في السيرة النبوية ١/٢٨٣ ، ٢٨٤] .

(٣) الطلاوة : الرونق والحُسْن . [لسان العرب – مادة : طلى] .

فَرْق بين مَنْ يسمعه وهو له كاره ، فيغلق عليه وبين مَنْ يستقبله بقلب وَاعٍ مفتوح لإشراقات القرآن وتجلياته .

ألاَ ترى أن الحديد يستجيب لك حين تطرقه وهو ساخن ، فيصير كالعجينة في يدك ، أما إنْ طرقْته وهو بارد فإنه لا يتفاعل معك ، كذلك قلنا مثلاً : إنك في اليوم البارد تنفخ في يدك لتشعر بالدفء ، وتنفخ أيضاً في كوب الشاي مثلاً لتبرده ، فكيف تجتمع هذه المتضادات لفعل واحد ؟ نقول : لأن الفاعل وإنْ كان واحداً إلا أن المستقبِل للفعل مختلف .

كذلك إنذاره ﷺ إنذار واحد ، لكن استقبله قوم بخضوع ورغبة في الهداية فآمنوا ، واستقبله قوم بعناد وإصرار فلم يستفيدوا منه ولم ينتفعوا بثمرته .

وقوله ﴿ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] دلتْ على أن الإيمان اكتمل في نفوس هؤلاء اكتمالاً يستوي فيه مشهد الحكم بغيبه . ومن ذلك قول الإمام علي رضي الله عنه : لو انكشف عني الحجاب ما ازددتُ يقيناً .

ولما سأل سيدنا رسول الله ﷺ أبا ذر : « كيف أصبحتَ يا أبا ذر؟ » قال : أصبحت مؤمناً حقاً ، قال : « فإن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟ » قال : عزفَتْ نفسي عن الدنيا ، حتى استوى عندي ذهبها ومدرها ، وكأنِّي أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار في النار يُعذَّبون ، فقال له رسول الله : « عرفتَ فالزم »[1] .

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٥٧) وعزاه للطبراني في معجمه الكبير من حديث الحارث بن مالك الأنصاري وليس أبا ذر ، وقد عزا ابن حجر العسقلاني الحديث لابن المبارك في الزهد ، وذلك في « الإصابة في تمييز الصحابة » (١/٢٤٣) .

ثم يذكر الحق سبحانه صفة أخرى للذين استجابوا لإنذار رسول الله وانتفعوا به : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ ﴿١٨﴾ ﴾[فاطر] فهم مع خشيتهم لله خشية أوصلتهم إلى إيمان يستوى فيه الغيب بالمشاهدة ، هم أيضاً يقيمون الصلاة أى : يؤدونها على أكمل وجه ، والصلاة كما ذكرنا هي العبادة الوحيدة التي لا تسقط عن المكلَّف بحال ، فقد يطرأ عليك ما يُسقط الزكاة أو ما يُسقط الصيام أو الحج فلم تَبْقَ إلا شهادة ألاَّ إله إلا الله محمد رسول الله . وهذه يكفي أنْ تقولها ولو مرة واحدة .

أما الصلاة فهي العبادة الوحيدة الملازمة للمسلم ؛ لأن الصلاة في حقيقتها استدامة الولاء لله تعالى ، فَرَبُّك يدعوك إلى لقائه خمس مرات في اليوم والليلة يناديك لتعرض الصنعة على صانعها ، وما بالك بصنعة تُعرض على صانعها خمس مرات في اليوم والليلة ؟ أيكون بها عَطَب بعد ذلك ؟

أما إذا أردتَ مقابلة عظيم من عظماء الدنيا فَدُونه أبواب وحُرَّاس ومواعيد وإجراءات صارمة ، ولا تملك أنت من عناصر هذا اللقاء شيئاً ، بل يحدد لك الموعد والموضوع وحتى ما تقوله ، إنك تستأذن في أوله ولا تملك الانصراف في آخره .

أما لقاؤك بربك فخلاف ذلك ، ففي يدك أنت كل عناصر اللقاء ، فأنت تبدؤه متى تحب ، وتنهيه كما تحب ، وتناجي ربك فيه بما تريد، تبثُّه شكواك ، وتعرض عليه حاجتك ، فيسمع ويجيب .

وبعد أنْ ذكر الحق سبحانه هذه العبارة الدائمة يقرر هذه الحقيقة ﴿ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴿١٨﴾ ﴾[فاطر] يعني : عبادتك عائدة إليك أنت لا ينتفع الله تعالى منها بشيء ، فهو سبحانه لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين .

فهو سبحانه غني عنَّا ، ونحن بعبادتنا لله لم تزده سبحانه صفة كمال لم تكن له ؛ لأنه بصفة الكمال أوجدنا وبصفة الكمال كلَّفنا .

لذلك جاء في الحديث القدسي : « يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجِنَّكم ، وشاهدكم وغائبكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في مُلكي شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم وشاهدكم وغائبكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من مُلكي شيئاً ، ذلك أنِّي جَوَاد ماجد واجد ، عطائي كلام ، وعذابي كلام ، إنما أمري لشيء إذا أردته أنْ أقول له كن فيكون»[1] .

إذن : نحن صَنْعة الله ، وما رأينا صانعاً يعمد إلى صَنْعته فيحطمها أو يعيبها ، إنما يصلحها ويُهذِّبها ويعتني بها ، حتى إنْ أصابك عطب أو إيلام فاعلم أنه في النهاية لصالحك .

﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾ [فاطر] يعني : المرجع والمنقلب يوم القيامة ليفصل بين الخصوم ، ولينال كل ما يستحق ؛ فمَنْ أفلت من العقاب في الدنيا فهناك مصير سيرجع إليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٤٩٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه ، وقال : حديث حسن ، وكذا أخرجه أحمد في مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) وابن ماجه في سننه (٤٢٥٧).

هذه حقائق يقررها الحق سبحانه ، فالمتناقضان لا يستويان ؛ لأن الأعمى لا يعرف مواقع الأشياء من حركته ، والبصير يعرف مواقع الأشياء من حركته ، البصير يرى مواقع الأشياء ويتفادى الأخطار ، أما الأعمى فلا بُدَّ له من مرافق يتطوع بصداقة عينه السليمة للعين الغائبة ، لذلك نقول : إنْ أعطى الأعمى للعمى حقه صار مبصراً ، كيف ؟ لأنه لا يتكبر أن يستعين بالمبصر ، فحين ينادي على مَنْ يأخذ بيده تتسابق إليه كل العيون من حوله لتساعده ، أما إنْ تعالى فسرعان ما (ينذب) على وجهه .

والعمى والبصر حسِّيات توضح المعنوى ، فالمراد لا يستوى الجاهل والعالم ؛ لأن حركة الحياة تنقسم إلى حركة مادية : تأتى وتذهب ، تزرع وتقلع .. إلخ وحركة قيمية معنوية ، وهى الروحانيات والأخلاقيات العالية ، مثل معانى : الإيمان ، الصدق ، الوفاء ، العدل ، الرحمة .. الخ .

وإذا كانت الحركة المادية الحسية تحتاج إلى نور حسيٍّ يهديك حتى لا تصطدم بما هو أقوى منك فيحطمك ، أو بما هو أضعف منك فتحطمه ، فكذلك الحركة القيمية المعنوية الروحية تحتاج إلى نور معنوى يهدى خُطَاك كى لا تضلَّ ، هذا النور المعنوى هو المنهج الذى قال الله فيه :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦) ﴾ [المائدة]

فالشمس هى النور الحسى ، والقرآن هو النور المعنوى ؛ لذلك قلنا فى قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ (٣٥) ﴾ [النور] أى مُنوِّرهما بالنُّورين.

الحق سبحانه سبق أنْ ذكر لنا التقابل بين الماءيْن العذب والمالح ، فقال سبحانه : ﴿ وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج (١٢) ﴾[فاطر] نعم ، لا يستويان ، لكن العلاقة بينهما علاقة تقابل كالليل والنهار ، لا علاقة تضادٍ كالأعمى والبصير ، بدليل أن الله جمعهما معاً ، فقال ﴿ ومن كل تأكلون لحما طريا وتستخرجون حلية تلبسونها (١٢) ﴾[فاطر] فإن اختلف المتقابلان ، فلكل منهما مهمة يؤديها ، فهما متساندان لا متعاندان .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه عدم استواء الأعمى والبصير يقول : ﴿ ولا الظلمات ولا النور (٢٠) ﴾ [فاطر] ، لأن النور هو مصدر الإبصار فالمبصر لا يرى شيئاً في الظلمة .

هذا في العمى والبصر الحسي ، أما القيم والمعنويات فلها مقياس آخر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور (٤٦) ﴾ [الحج] ، فقد يكون الرجل مبصراً وهو أعمى بصيرة . والأعمى في المعنويات هو الذي يجهل الحكم الذي يهديه إلى منطقة الحق في كل القيم ، والبصير هو العالم بهذه الأحكام .

وحين تتأمل أسلوب هاتين الآيتين ، تجد فيهما ملمحاً من ملامح الإعجاز في كلام الله ، فالأولى ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير (١٩) ﴾ [فاطر] قرنت بين الاثنين باستخدام واو العطف ، أما الأخرى ﴿ ولا الظلمات ولا النور (٢٠) ﴾ [فاطر] فذكرت (لا) النافية الدالة على توكيد عدم الاستواء ، فلم يَقُل الحق سبحانه كما في الأولى : ولا الظلمات والنور ، لماذا ؟

قالوا : لأن العمى والبصر صفتان قد تجتمعان فى الشخص الواحد ، فقد يكون أعمى اليوم ويبصر غداً ، قد يكون جاهلاً ويتعلم ، أو كافراً ويؤمن ، فيطرأ عليه الوصفان ؛ لذلك لم يؤكد معنى عدم الاستواء ، أما الظلمات والنور فهما متقابلان لا يجتمعان .

كما تلحظ فى دقة الأداء القرآنى ؛ لأن الحق سبحانه هو المتكلم ، فقال : ﴿ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) ﴾[فاطر] فالظلمات جمع والنور مفرد ؛ لأن مذاهب الضلال شتى ، فهذا يعبد النجوم ، وهذا يعبد الأصنام ، وهذا يعبد الملائكة .. الخ . أما النور فواحد ، هو منهج الله المنزل فى كتابه .

لذلك لما أراد سيدنا رسول الله ﷺ أن يُعلِّم أصحابه هذا الدرس خَطَّ لهم خطاً مستقيماً ، ومن حوله خطوط متعرجة ، ثم تلا : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ (١٥٣) ﴾ [الأنعام]

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) ﴾ [فاطر] وهما أيضاً متقابلان لا يجتمعان ، كذلك ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ (٢٢) ﴾[فاطر] وتلحظ هنا أن الحق سبحانه أعاد ذكر الفعل المنفى﴿ وَمَا يَسْتَوِي (٢٢) ﴾[فاطر] لتأكيد عدم الاستواء بين الحى والميت .

وكذلك ذكر (لا) النافية الدالة على التوكيد ؛ لأن كلمة الأحياء تعنى المؤمنين الإيمانَ الحق ، الذين يستحقون حياة أبدية باقية تتصل بحياتهم الدنيوية الفانية ، أما الأموات فهم الكفار الذين تأبَّوْا على منهج الله . أو : أن الأحياء هم الذين عرفوا أن الحياة الحقة هى العيش بمنهج ربهم الذى يؤدى بهم إلى الحياة الحقيقية الباقية التى قال الله عنها :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

وهذه هي الحياة المرادة في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (٢٤) ﴾ [الانفال] كيف وهو يخاطبهم وهم أحياء بالفعل ؟ إذن : المعنى يُحييكم الحياة الحقيقية التي لا تنتهي بموت ، ولا تُسلب منها نعمة .

ومن ذلك أيضاً قوله سبحانه : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .. (١٢٢) ﴾ [الأنعام]

ومن المعاني التي نفهمها من عدم استواء الأحياء والأموات أن الحيَّ خلقه الله وأمدَّه بأجهزة نفسية : عقلاً ، وأعصاباً ، وعضلات ، وسمعاً وبصراً .. الخ وهذه الأعضاء لها قيمة ، ولها مهمة ، وعليه أنْ يستخدم هذه النعم استخداماً يجعلها وسائل لنعَم أخرى ، ثم ليعلم أنه في رحلة حياته لا بُدَّ أنه سيموت ، لكنّ ربه عزّ وجل أبهم له أجله ليكون ذلك عَيْن البيان ، وليظل على ذِكْر له طوال الوقت وينتظره في كل لحظة ، فعمرك محسوب بعدٍّ تنازلي ، وسهم الموت أُطلق في اتجاهك بالفعل ، وعمرك بقدر وصوله إليك .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن الحال في التكليفات فقال لا يستوي الأعمى الجاهل بأصول دينه والبصير العالم بها ، ولا يستوي نور الإيمان والهداية مع ظلمات الضلال ، يتكلم سبحانه عن المآل ، فيقول : ﴿ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ (٢١) ﴾[فاطر] الظل كناية عن نعيم الجنة ، وفي موضع آخر قال : ﴿ ظِلًّا ظَلِيلًا (٥٧) ﴾ [النساء] والحَرُور كناية عن العذاب وشدة حَرِّه .

ثم يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ومُسلِّياً له : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ (٢٢) ﴾ [فاطر] النبي ﷺ جاء على كفر

وجهالة من قومه ، فكانت دعوته أنْ يخرجهم من العمى والجهالة إلى ما ينير بصائرهم ويُخرجهم من ظلمات الضلال إلى نور الإيمان .

وقد كان ﷺ شديد الحرص على هداية قومه يكاد يُهلك نفسه في سبيل دعوته ؛ لذلك خاطبه ربه بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

كذلك هنا يخاطبه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر] أي سماع هداية وإقبال ، وإلا فَهُمْ جميعاً يسمعون ، لكن هناك سماعُ إعراض وسماعُ إقبال ، منهم مَنْ يقبل ويؤمن ويتأثر بكلام الله ، ومنهم مَنْ يسمع ثم يُعرض وينصرف عما سمع ؛ لذلك قال الله فيهم : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأنفال]

إذن : يا محمد ، لقد أديتَ ما عليك نحوهم ، وخاطبتَهم خطابَ هداية ، وخطابَ تهديد ووعيد ، فلم يسمعوا ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [فاطر] فجعلهم الله لعدم سماعهم كالأموات . وإلا فرسول الله خاطب أهل قليب بدر من الكفار حين وقف عليهم وناداهم بأسمائهم : « يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبة بن ربيعة ، يا أبا جهل أليس وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً ، فإنَّا وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » .

فقال عمر : أتكلمهم وقد جيَّفوا ؟ قال ﷺ : « والله ، ما أنتم بأسمعَ منهم ، ولكنهم لا يتكلمون »[1]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٧٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه . وفيه أن عمر رضي الله عنه قال : يا رسول الله ، كيف يسمعون وأنَّى يجيبون وقد جيَّفوا ؟ فقال ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا » . ثم أمر بهم فسُحبوا ، فأُلقوا في قليب بدر .

فالمعنى : ما أنت بمسمع السماع المؤدى إلى الهداية ، كما أنك لا تُسمع مَنْ فى القبور ؛ لأن زمن السماع وقبول الهداية انتهى بالموت .

لكن إذا كان رسول الله لا يُسمع مَنْ فى القبور ، فما مهمته ؟ يقول سبحانه بعدها :

﴿ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ ﴾

إنْ هنا بمعنى ما النافية : ما أنت إلا نذير أى : مُحذِّر من المعصية ومن العذاب ، وكأن الحق سبحانه يريد أن يُخفِّف عن رسوله ، فيحدد له هذه المهمة فحسب ، وليس له أنْ يزيد عليها بما يشقُّ عليه حتى يكاد يُهلك نفسه ، فيقول له : مهمتك فقط الإنذار ، أما الهداية فمن الله فأرِحْ نفسك ، فلو أرادهم الله جميعاً مؤمنين لجاءوا طائعين مُسخَّرين كغيرهم من المخلوقات .

﴿ لعلَّك باخعٌ نَفْسَكَ ألاَّ يكُونُوا مُؤْمنين ﴿٣﴾ إن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [الشعراء]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾

الحق : هو الشيء الثابت الذى لا يتغير ، والله تعالى يضرب لنا مثلاً حسياً لتوضيح الحق والباطل ، فيقول سبحانه : ﴿ أنزَلَ منَ السَّماء ماءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا

﴿ مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وقد ترجمنا هذه العلاقة بين الحق والبطل ترجمة عصرية فقلنا : لا يصح إلا الصحيح ، نعم لأن الباطل وإنْ أخذ صورة الحق مرة بعض الوقت ، فهو كالزَّبَد الذى سرعان ما تزيحه الرياح لتكشف وجه الحقيقة الناصع والحق الواضح .

وقوله تعالى لنبيه : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ (٢٤) ﴾ [فاطر] يدل على أنه الرسول الخاتم الذى لا رسول ولا نبي بعده يغير شيئاً مما جاء به ، فالنبي جاء بالحق الثابت الذى لا يتغير أبداً ، ولا يستدرك عليه أحد بعده . لذلك فإن آفة البشرية الآن أنها تحكم العصر وتطور الأوضاع في الحكم على المخالفات الشرعية ، فحين نتعرض لمخالفة نسمع مَنْ يقول إنه التطور الذى لا بُدَّ منه ، وهؤلاء هم دعاة (عَصْرنة) الدين ، يعنى تطويع الدين ليلائم العصر .

وهذا يعنى أن تطور العصر هو المشرع ، فى حين أن المفروض أن العصر هو الذى يستقبل تشريع السماء ويبنى حركة حياته على هَدْيه ونوره ؛ لأن الحركة التى تُبْنى على هَدْى السماء هى الحركة العليا من الرب الأعلى الذى يعلم حقيقة الخير لك ولا يستدرك عليه ، أما إنْ شرع لك إنسانٌ مثلك ، فحتى هو لو دَلَّك على الخير فهو خير من وجهة نظره وعلى قدر علمه ، فلا بُدَّ أنْ يكون فيه نقص وقصور ، ولا بُدَّ أنْ يأتى بعده مَنْ ينقضه ويستدرك عليه .

لذلك رأينا حتى غير المسلمين تُلجئهم أقضية الحياة إلى أن يأخذوا بحلول الإسلام للتغلب على مشاكلهم . وهم بالطبع لا يأخذون أحكام الإسلام حباً فيه ، إنما لأنهم لم يجدوا حلاً فى غيره . ومن هذه القضايا قضية الطلاق التى طالما أثاروا حولها الشكوك وظنوها

مـأخـذاً على الإسـلام ، والآن في إيطـاليـا يقـررون الطلاق ، لا لأن الإسـلام شرّعه ، إنما لأن مشاكلهم لا تُحَلُّ إلا به .

وهذه المسألة توضح لنا معنى قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)﴾ [التوبة]

لذلك سُئلْنا في بعض رحـلاتنا : القرآن يقول : ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)﴾[الصف] وفي آية أخرى : ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَـرِهَ الْكَافِـرُونَ (٨)﴾ [الصف] فكيف تم نـور الله ومع الإسـلام ديانات أخرى كـثيرة ، مـا زالت موجـودة ، وأغلبها أكـثر من الإسـلام عَدَداً وقوة ؟

لقد فهم هؤلاء أن معنى﴿مُتِمُّ نُورِهِ (٨)﴾ [الصف] أنْ يصير الناس جمـيعاً مـسلمين ، ولو كان الأمـر كذلك ما قـال الله تعالى ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الْمُـشْـرِكُونَ (٩)﴾[الصف] ﴿وَلَوْ كَـرِهَ الْكَافِـرُونَ (٨)﴾ [الصف] إذن : الحق سبـحانه يقرر وجـود الشرك والكفر مع الإسـلام . والمعنى : أن الله مُتم نوره يعني مع كفـرهم ومع شـركهم طوال المدة ، إلا أنهم لن يقـدروا على إطفـاء هذا النور ، فسـوف يظل ، وسـوف يتـغلب على أحكامهم ويظهر عليـها ، بحيث لا يجدون حلاً لأقضـيتهم إلا في هذا النور .

وقوله تعالى : ﴿بَشِيراً وَنَذِيراً (٢٤)﴾ [فاطر] البشـير : الذي يُخـبر بالخيـر قبل أوانه. والنذير : الذي يُحذِّر من الشـر قبل أوانه ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)﴾ [فاطر] إنْ هنا بمعنى ما النافـية ، مثل : ﴿إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣)﴾ [فاطر] فـالمعنى : مـا من أمـة إلا خلا فـيهـا نذير يعني : جاءها نذير ومضى .

والأمة : الجماعة من الناس ، تجمـعهم أرض واحدة ، أو يجمعهم

سلوك واحد ، أو عقيدة واحدة . ومن معانى كلمة أمة ما جاء فى قوله تعالى : ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (١٢٠)﴾[النحل] يعنى : جامعاً وحده كُلَّ خصال الخير ، بحيث لو جمعت كل صفات الخير فى أمة تجدها فى سيدنا إبراهيم عليه السلام .

وإذا كانت الأمم السابقة مضى فى كل منها نذير ، فرسول الله هو النذير الأخير ، لماذا ؟ قالوا : لأن واقع العالم فى القديم كان بعيد التواجد منقطعاً بعضُه عن بعض لصعوبة الاتصال ، فالجماعات تعيش منفصلة لا اتصال بينها ، فترى لكل بيئة داءاتها وعيوبها وعاداتها ، فيأتى الرسول ليعالج داءات قومه فحسب ، فسيدنا نوح عليه السلام جاء للذين عبدوا وَداً وسُواعاً ويَغُوث ويَعُوق ونَسْراً ، وسيدنا لوط عليه السلام جاء ليعالج داء الشذوذ فى قومه .. الخ

أما سيدنا رسول الله ﷺ فقد جاء على ميعاد مع التقاء الدنيا كلها ، حين تداخلت الحضارات والمجتمعات ، فصار العيب فى أمة عيباً فى كل الأمم ، وزاد هذا الالتقاء حتى أصبحنا اليوم نرى ونسمع ما يحدث فى أقصى بلاد الدنيا فى التوْ واللحظة ، كذلك نرى ونسمع سلبيات وعيوب الآخرين وكأنها فى بلادنا ، إذن : ستتوحد الداءات ، وتتوحد النقائص ، ويصبح العالم كله بيئة واحدة ، لذلك كانت رسالة الإسلام رسالة عالمية ، وبُعث سيدنا رسول الله للناس كافة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾

يعنى : يا محمد ، خُذْ لك أُسْوة من إخوانك الرسل السابقين ، فقد كُذِّبوا جميعاً ، وهذه سنة مُتبعة ، ولستَ أنت يا محمد بِدْعاً من الرسل . وقلنا : إن الله تعالى لا يرسل رسولاً إلا إذا عَمَّ الفساد وعَزَّ العلاج ، فلا وجودَ للنفس اللوامة التى تُردع صاحبها عن المعصية ، ولا للمجتمع الآمر بالمعروف الناهى عن المنكر ، يعنى : لا مناعة فى الذات ، ولا مناعة فى المجتمع ، فقد فسد هو الآخر ، واجتمع أهله على الضلال ، عندها لا بُدَّ أنْ تتدخل السماء برسول جديد يأتى بمعجزة تناسب الزمن الذى جاء فيه .

فقوله تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ (٢٥) ﴾ [فاطر] لأن الرسول ما جاء إلا ليواجه الفساد فى المجتمع ، وطبيعى أنْ يواجهه الضالون والظالمون والمتجبرون المستفيدون من هذا الفساد ، وأنْ يُكذِّبوه ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا (١٢٣) ﴾ [الأنعام]

وقوله تعالى : ﴿ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ (٢٥) ﴾ [فاطر] بالبينات يعنى : بالشىء الواضح الذى يُبيِّن أن المتكلم صادق فى التعبير والبلاغ عن ربه ، وهذه هى المعجزة ، إذن : فالرسول جاء بالمعجزة لتكون دليلاً على صدقه فى البلاغ عن ربه ، فليست المعجزة هى هدف الرسالة ، إنما هدف الرسالة تبليغ الأحكام والمنهج .

ويعنى ﴿ وَبِالزُّبُرِ (٢٥) ﴾ [فاطر] أى : الكتب السماوية المنزلة مثل : صحف إبراهيم ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ، لكن خص هنا الزبور والقرآن (الزبر والكتاب المنير) ؛ لأن الزبور الذى أُنزل على سيدنا داود امتاز بأنه مكتوب ، ومكتوب بحروف منقوشة بارزة ، لذلك كانت ثابتة ليست بمداد يُمْحَى مثلاً ، فهى أشبه بالنقوش

الحجرية ، ويسمونها (الأُويمة)[1] .

والكتاب المنير هو القرآن الكريم ؛ لأنه النور المعنوى الذى ينير للناس طريق الحياة ويهدى حركتهم ، فإنْ كانت الشمس هى النور الحسىّ الذى يهدى حركتك للحسيات ، فالقرآن هو النور المعنوى الذى يهدى مَنْ آمن به .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ ﴾

وهذه سُنّة الله فى المرسلين ، أنْ يأخذ الكافرين بهم والمعاندين لهم ، أرأيتم نبياً أسلمه الله أو انهزم أمام قومه المعاندين ؟ لقد وعد الله رسوله بالنصرة وبالتأييد ، فقال سبحانه ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر]

وقال : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات] لذلك إنْ رأيتَ جندياً لله انهزم فى شىء ولم يَغْلب ، فاعلم أن شرطاً من شروط الجندية تخلَّف ، وأول شرط للجندية لله الطاعة ، فإنْ خالف الجندىُّ أوامر الله فلا بُدَّ أنْ يُهزم ، لذلك قلنا : إن المسلمين انتصروا فى بدر وهم فئة قليلة ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة]

ولم يَمْض على بدر سنة واحدة ، وحدثتْ أُحُد ، صحيح لم يُهزم المسلمون لكنهم أيضاً لم ينتصروا ؛ لأن المعركة (ماعت) ذلك لأن الرُّمَاة خالفوا أمر رسول الله وتخلَّوْا عن أماكنهم ونزلوا لجمع

(١) قال الزبيدى فى « البصائر » : « سمى كتاب داود زبوراً ، لأنه نزل من السماء مسطوراً وقيل : هو اسم للكتاب المقصور على الحكمة العقلية دون الأحكام الشرعية ، والكتاب لما يتضمن الأحكام » انظر كتاب « تاج العروس » للزبيدى ـ مادة : زبر

الغنائم ، وأراد الله تعالى تأديب عباده المخلصين فلا بُدَّ أنْ يهزَّهم هذه الهزَّة العنيفة ، ويروْا هذه النتيجة ؛ لأنهم خالفوا .

لذلك قلنا : إن الإسلام انتصر في أُحُد ، وإن كان المسلمون لم ينتصروا ؛ لأنهم لو انتصروا مع مخالفة أمر رسول الله لَهَانت على المسلمين أوامر رسول الله بعد ذلك ، ولقالوا : لقد خالفنا أوامره وانتصرنا في أُحُد إذن . كان لا بُدَّ من هذه النتيجة المائعة ليعلم المسلمون أهمية الطاعة والأُسْوة برسول الله .

كذلك في حُنَين لما رأى الصِّدِّيق أبو بكر كثرة المسلمين ، فقال : لن نُغْلَب اليوم عن قلة - وكانوا عشرة آلاف مقاتل - فأراد الله أنْ يكسر هذا الغرور في المسلمين ، فكان التفوق للكفار في بداية المعركة حتى أحرجوا المسلمين ، لكن تداركتهم رحمة الله ، وكأن الله أراد أنْ يُصحِّح لهم الخطأ فحسب ، لا أن تنزل بهم الهزيمة .

وحين نتأمل معنى : ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۝٢٦﴾ [فاطر] نجد أن الأَخْذ يدل على قوة الآخذ وقوة الجذب التي تستوعب كل أعضاء المأخوذ ، فعلى مستوى البشر نقول . أخذ فلان يعني ساقه أو شدَّه من مَجْمع ثوبه وملكه بقبضة يده ، أما لو قُلْت أخذه الله فأَخْذُ الله شديد ، أَخْذ عزيز مقتدر .

لذلك يقول بعدها ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦﴾ [فاطر] أي : نكيري واعتراضي على ما فعلوا . والنكير هو الشيء الذي تستنكره وتغضب منه ، وما بالك بقوم أنكر الله مسلكهم وغضب عليهم ؟ لا بُدَّ أنْ يأخذهم أَخْذاً يُرضي أولياءه ، ويُرضي المؤمنين به .

فقوله سبحانه : ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۝٢٦﴾ [فاطر] يعني : قُلْ لي يا محمد هل قدرتَ على مجازاتهم بما يستحقون ؟ وهذا المعنى

واضح أيضاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ[1] بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ[2] سُودٌ (٢٧) ﴾

تلحظ أن الحق سبحانه وتعالى يُذكِّرنا ببعض نعمه علينا ، ثم يُتبع ذلك ببعض المطلوبات ، وهكذا ليُؤنس قلبك بالإحسان إليك لتستجيب لمطلوباته . والحق سبحانه حين يُذكِّر عباده بهذه الآية الكونية ، آية إنزال الماء من السماء بعد أنْ بيَّن لنبيه أَخْذه الشديد للكافرين ، كأنه سبحانه يقول لرسوله : دَعْك من أمر هؤلاء الكافرين ، فأنا قادر على معاقبتهم ، وتأمل في هذه الآية الكونية ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٧) ﴾ [فاطر]

وقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ (٢٧) ﴾ [فاطر] أي : تشاهد ؛ لأن الجميع يرى

---

(١) الجدَّة من الشيء : الجزء منه يخالف لونه لون سائره . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) ﴾ [فاطر] أي : من الجبال أجزاء ذات ألوان مختلفة . [القاموس القويم ١/١١٩] .

(٢) الغربيب : الشديد السواد ، وجمعه غرابيب . [القاموس القويم ٢/٥٠] .

الماء ، وهو ينزل من ناحية العلو ، والسماء هي كل ما علاك فأظلك ، وقد تأتي ﴿ أَلَمْ تَرَ ۝١ ﴾ [الفيل] بمعنى : ألم تعلم . وهذا في الأشياء التي لم يَرَها رسول الله كما في قوله سبحانه . ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ ﴾ [الفيل]

ومعلوم أن سيدنا رسول الله لم يَرَ حادثة الفيل ، لكن خاطبه ربه بـ ﴿ أَلَمْ تَرَ ۝١ ﴾ [الفيل] ليدل على أن إخبار الله له أوثقُ وأصدقُ من رؤية العين .

ومسألة إنزال الماء من السماء أي من ناحيتها ، وإلا فالسماء شيء آخر ، المطر إنما ينزل من السحاب القريب من الأرض . نقول : مسألة إنزال الماء من ناحية السماء يبدو أمراً طبيعياً ، فبخار الماء ينعقد في السماء على هيئة سُحُب ممتلئة بالماء ، والماء له ثقَل ينزل إلى أسفل بجاذبية الأرض ، لذلك يرتب الله على إنزال المطر إخراج النبات ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۝٢٧ ﴾ [فاطر] فإنْ قُلْتَ : إن نزول الماء من السماء أمر طبيعي قد يُشك فيه أنه من فعل الطبيعة ، فهل إحياء الأرض وإنبات النبات مختلف الثمرات والألوان أيضاً من فعل الطبيعة ؟

وكلمة﴿ أَنزَلَ ۝٢٧ ﴾ [فاطر] تفيد العُلُو من المُنزِل والدُّنُو من المُنزَل إليه ، حتى لو كان هذا الأمر معكوساً وأتى الإنزال من أسفل إلى أعلى كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ۝٢٥ ﴾[الحديد] والحديد في الواقع نُخرجه من باطن الأرض ، لكن سماه الله إنزالاً ؛ لأن المراد به الإتيان من أعلى لأدنى بصرف النظر عن

جهته أعلى أو أدنى .

ونحن نشاهد عملية إنزال الماء من السماء ، لكن لم نشاهد عملية البخر التى تتم على سطح الماء في الأرض ، ثم صعودها إلى طبقات الجو العليا حيث تتكوَّن السُّحب عن طريق التكثيف ، والإنسان لم يكُنْ يعلم شيئاً عن هذه العمليات حتى تقدَّمتْ العلوم ، وعرفنا عملية تقطير الماء .

أما عملية إخراج النبات والثمرات المختلفة الألوان فهى واضحة مُشَاهدة في البساتين والحقول ، فكلنا يرى بدائع الألوان واختلاف الأشكال بحيث لا تتناهى حصراً ؛ لأن ألوان الطيف إنْ كانت هى الألوان الأصلية فيمكن أن يتولَّد منها مَا لا حصر له ، فاللون الأسود مثلاً لو أضفْتَ إليه قطرة واحدة من اللون البنى مثلاً يعطيك لوناً آخر ، فإنْ أضفتَ قطرتين يعطيك لوناً ثالثاً ، وهكذا لا تتناهى الألوان ، وهذه المسألة نشاهدها الآن في صناعة الأقمشة ، فقد تعددت ألوانها بدرجات مختلفة وزركشات لا حصر لها . إذن : نقول : إن الألوان كائن لا يتناهى .

ولك أن تتأمل تداخل الألوان وتناسقها فى زهرة أو وردة فى الحديقة ، وسوف ترى فى ألوانها الإعجاز المبهر ، فالحبة واحدة ، والأرض واحدة ، والماء واحد ، لكن تولَّد من هذا كله هذا الشكل البديع وهذه الألوان المتداخلة المتناسقة ؛ لأن الحدث آثار المحدث ، فإذا كان المحدثُ محدودَ القدرة ظهرتْ آثاره كذلك محدودةَ القدرة ، وإذا كان المحدث فائقَ القدرة تأتى آثاره فائقة القدرة ، أما الحق سبحانه فله طلاقة القدرة ؛ لذلك تأتى آثاره كذلك .

وتلحظ في سياق الآية أن الحق سبحانه لم يتكلم عن إنزال المطر من السماء قال ﴿ أنزلَ (٢٧) ﴾ [فاطر] بصيغة ضمير الغائب ، لكن لما تكلّم عن إخراج الثمرات قال : ﴿فأخْرجنا (٢٧) ﴾ [فاطر] فنقلنا إلى ضمير الجماعة المتكلمة الدالّ على التعظيم ؛ لماذا ؟ لأن إنزال الماء من السماء ليس هدفاً في ذاته ، فليس هو المهم ، بدليل أن الماء قد ينزل على الأرض السّبخة فلا تستفيد به ، أما عملية إخراج الثمار فهي العملية المهمة التي أنزل اللهُ الماءَ من أجلها ؛ لذلك ذكرها بضمير الجمع الدالّ على التعظيم ، فالحق سبحانه يُعظِّم نفسه في الفعل كما في قوله سبحانه : ﴿ إنَّا نحنُ نزَّلْنا الذِّكْرَ وإنَّا لهُ لحافظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

ونحن نعرف في عُرْفنا أن الحدث يختلف باختلاف المحدث ، فإنْ أحدثه فرد واحد أتى الحدثُ على مستوى قدرة هذا الفرد ، فإنْ تكاتفت فيه جماعة جاء على مستوى هذا التكاتف ؛ لذلك نسمع عند سَنِّ القوانين التي تحكم الشعوب يقول القائد أو الملك : نحن رئيس الجمهورية ، أو نحن ملك مصر ، أو نحن سلطان كذا وكذا ؛ لأن مسألة سَنِّ القوانين ليستْ مسألة فردية يقررها الحاكم أو الملك ، ولا ينطق بها باسمه ، إنما يشاركه فيها رعيته ، وينطق باسمهم جميعاً.

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى حين يُحدِّثنا عن فعل من أفعاله يُحدِّثنا بضمير الجمع ، أما إنْ تكلم عن ذاته سبحانه تكلّم بضمير المفرد ، مثل : ﴿ إنَّني أنا اللَّهُ لا إلَـٰهَ إلاَّ أنا فاعْبُدْني وأقِم الصَّلاةَ لذِكْرِي (١٤) ﴾ [طه]

وإنزال الماء في صورته أمر واحد ، أما الإخراج ففيه تلوُّن للمخرج ، فالماء المنزَّل من السماء واحد ، لكن آثار الماء متعددة ، فهذا أصفر ، وهذا أبيض ، وهذا أحمر .. الخ ، فهذه العملية تحتاج إلى تعظيم يناسبها .

لكن ، هل الإخراج للثمرات هكذا مباشرة ؟ أم الإخراج للنبات الذي

يعطى الثمرات ؟ الإخراج للنبات الذى يعطى الثمر . فالحق سبحانه يذكر لنا الشىء بنهاية المطلوب منه وهو الثمر ، وهذا الثمر يأتى مختلفاً فى ألوانه ، مع أن البيئة واحدة ويُسْقى بماء واحد ، وحين تتأمل الألوان فى الثمار تجد فيها طلاقة القدرة لله تعالى ، وهذه الألوان لم تُجعل هكذا لمجرد الشكل والزينة ، إنما جُعلَتْ هكذا لحكمة أرادها الخالق سبحانه ، منها أن هذه الألوان تجذب الحشرات المخصِّبة .

ولو تأملتَ هذه الألوان لوجدتها متعددة حتى فى اللون الواحد ، ألاَ ترى أن بياض الثلج مثلاً غير بياض الثوب ، غير بياض الجير ؛ لذلك يصفون الألوان فيقولون أبيض يقق ، وأصفر فاقع ، وأحمر قانٍ ، وأخضر مدْهَام .

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن آية من آياته فى النبات يُحدِّثنا عن الجماد ﴿ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[فاطر] . ففى الجمادات أيضاً ألوان نشاهدها مثلاً حين نشقُّ الصخر لاستخراج ما فى باطن الأرض ، ترى مثلاً الجرانيت والرخام والعقيق بألوان مختلفة كذلك .

وكلمة ﴿ جُدَدٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[فاطر] جمع جُدَّة ، وهى الخط الفاصل بين شيئين . رأيتم طبعاً الحمار الوحشى المخطط ومدى تناسق هذه الخطوط ، ترى مثل هذا فى طبقات الجبال ، وهى مختلفة البياض ومختلفة الاحمرار .

ومعنى ﴿ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ ﴾[فاطر] تقول : أسود غرْبيب يعنى : شديد السواد . فالغربيب أشدُّ درجات السواد نسبةً إلى الغراب لشدة سواده .

بعد أن ذكر الحق سبحانه جنس النبات وجنس الجماد يذكر أن هذا الاختلاف موجود أيضاً فى الإنسان وفى الحيوان - وهذه هى أجناس الوجود ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾

إذن : فالاختلاف فى كل الأجناس ؛ لأن الخَلْق قائم على طلاقة القدرة ، فالناس مع كثرتهم مختلفون ، وهذا إعجاز دالّ على طلاقة القدرة ، فالخَلْق ليس على قالب واحد يُخرج نسخاً متطابقة ، إنك تنظر إلى الرجل فتقول هو شبه فلان ، لكنْ إذا دققتَ النظر لا بُدَّ أنْ ترى اختلافاً ، إذن : طلاقة القدرة تقتضى اختلاف كل أجناس الوجود : الجماد ، والنبات ، والحيوان ، والإنسان .

ومعنى الدوابّ : كل ما يدبّ على الأرض عدا الإنسان والأنعام التى هى البقر والغنم والإبل والماعز .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

والخشية هى الخوف الممزوج بالرجاء ، وهذا من العلماء عمل من أعمال القلوب ، وأنت تخاف مثلاً من عدوك ، لكنْ لا رجاءَ لك فيه ، إنما حين تخاف من الله تخافه سبحانه وأنت ترجوه وأنت تحبه ، لذلك قالوا : لا ملجأ من الله إلا إليه .

والعلم إما علم شرعى ، وهو علم الأحكام : الحلال والحرام والواجب والسنة .. الخ . أو علم الكونيات ، وهذه الآية وردت فى سياق الحديث عن آيات كونية ولم يُذكر قبلها شىء من أحكام الشرع ؛ لذلك نقول : إن المراد بالعلماء هنا العلماء بالكونيات والظواهر الطبيعية ، وينبغى أن يكون هؤلاء هم أخشى الناس لله تعالى ؛ لأنهم أعلم بالآيات الكونية فى : الجمادات ، والنبات ، وفى

الحيوان ، والإنسان ، وهم أقدر الناس على استنباط ما في هذه الآيات من أسرار الله تعالى .

وكونيات الوجود هي الدليل على واجب الوجود ، وهي المدخل في الوصول إلى الخالق سبحانه وإلى الإيمان به ؛ لذلك كثيراً ما نجد في القرآن :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) ﴾ [الروم]

وإذا كان العلم قضية يقينية مجزوماً بها وعليها دليل ، فإن الحق سبحانه وتعالى نزَّل لنا علم الشرع وحدَّد لنا حدوده ، فلا دَخْلَ لنا فيه ، لذلك عصمه الله وأحكمه ؛ لأن الأهواء تختلف فيه ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ (٧١) ﴾ [المؤمنون] . أما علم الكونيات فقد تركه الخالق سبحانه للعقول تبحث فيه وتستنبط منه وتتنافس فيه ، بل وتسرقه بعض الدول من بعض .

وآفة العصر الحديث أنْ يُدخل علماء الشرع أنوفهم في الكونيات ، أو أن يُدخل علماء الكونيات أنوفهم في أحكام الشرع ، وقد رأينا مثلاً لما قالوا بأن الأرض كروية ، وأنها تدور حول الشمس ، أسرع بعض علماء الشرع فاتهموا هؤلاء بالكفر ، وهذا خطأ فادح ، وكان عليهم أنْ يأخذوا من الحق سبحانه ما عصم به الأهواء من أنْ تختلف ؛ لأن شكل الأرض وحركتها مسألة كونية لا صلة فيها بالحلال والحرام .

والحق سبحانه يقول ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل] فأهل الذكر في العلوم الشرعية غير أهل الذكر في العلوم الكونية ، ويجب أنْ يحترم كل منهما تخصص الآخر في مجاله ، ولا يَنْسَىٰ علماء الشرع أن علماء الكونيات هم الذين يكتشفون لنا أسرار الله في الخَلْق ، وهم الذين يُربُّون في نفوسنا أدلة الإيمان بواجب

الوجود الذى تصدر عنه أحكام الحلال والحرام .

والحق سبحانه وتعالى خلق الكون على هيئة الصلاح ، فلو دخلْتَ مثلاً غابة من الغابات الأُنُف - يعنى : التى لم يدخلها أحد ، وما زالت على طبيعتها كما خلقها الله - لا تجد فيها قذارة ولا رائحة كريهة ولا قمامة ولا غُصْناً مكسوراً .. الخ ، بل تراها نظيفة متناسقة ، فالفضلات بها غذاء لحيوانات أخرى ، فنظافتها ذاتية .

وأذكر أننا رأينا فى وادى فاطمة فى السعودية عَيْنَ ماء تروى الوادى من حولها ، وفى أحد الجداول رأينا أسماكاً صغيرة فى حجم واحد مثل عُقْلة الأصبع فسألت صاحب البستان : هل يكبر هذا السمك ؟ قال : لا بل يظل على هذه الصورة ، وهو ما جاء إلا بعد أنْ ألقينا بعض فضلات الطعام فى الماء فظهر ليستغذّى عليها ثم يختفى ، وكأن له مهمة محددة هى نظافة الماء ، ولما جئنا إلى مصر وجدنا بها هذا السمك فى « مُتْحف الأحياء المائية » يقوم بنفس هذه المهمة ، وهى تنظيف أحواض الأسماك من الفضلات .

لذلك نقول : لا يأتى الفساد فى الطبيعة إلا حين يتدخَّل فيها الإنسان ، بدليل أن المخلوقات التى لا دخل للإنسان فيها تسير بنظام محكم دقيق لا اختلاف فيه ؛ لذلك حين ترى فى الكون مثلاً أزمة فى القوت ، فاعلم أنها نتيجة حركة خاطئة للإنسان ، أو نتيجة تكاسل عن استنباط خيرات الأرض .

إذن : على علماء الشرع ألاَّ يُدخلوا أنفسهم فى الكونيات ، وقد علَّمنا ذلك رسول الله ﷺ حين نهاهم عن تأبير النخل يعنى : تلقيحه ، فلم يثمر النخل ، فلما رأى رسول الله ذلك قَبِلها فى نفسه وقال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »[1] يعنى : المسائل الكونية والعلمية

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٣٦٣) من حديث أنس بن مالك « أن النبى ﷺ مَرَّ بقوم يلقحون . فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيصاً (التمر الردىء) فمرَّ بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

والمعملية التجريبية ، هذه أمور لا دَخْلَ لأحكام الشرع فيها ، لكنْ آفة العلماء اليوم ألاَّ يلتزم كُلٌّ بما يخصُّه .

لذلك خَصَّ الله هنا علماء الكونيات ؛ لأنهم الأقدر على التمعُّن في أسرار الله ، فالحق سبحانه ملأ كونه بأسرار تتناسب مع تطور العصر ومُضيِّ الزمن ، فالأسرار التي عرفها الإنسان في العصر الحجري مثلاً غير التي عرفها في العصر الحديث ، وشاءتْ حكمة الله أنْ يجعل لكل سرٍّ من أسراره ميلاداً يظهر فيه ، بحيث لا تظهر الأسرار في زمن واحد ، ويستقبل الإنسان باقي الزمن بدون جديد .

وحين تتأمل هذه المسألة تجد أن الحق سبحانه أظهر للإنسان ما فيه مقومات حياته ، ثم ترك الأمور البدهية التي يعرفها الناس ليترقوا فيها ، فالإنسان مثلاً استخدم بدهية أن الماء ينساب من أعلى إلى أسفل ، ورقَّى هذه البدهية وأصبح يستقبل الماء في بيته من الصنبور (الحنفية) ، بعد أنْ كان ينقل الماء من الآبار والأنهار ، ويتحمل في سبيل ذلك المشاق ، فلما أعمل عقله في بدهيات الكون ترقَّى وجنى ثمرة هذا الترقِّي .

لذلك تجد أن أعقد النظريات العلمية والالكترونية مأخوذة في بدايتها من بدهيات ، وقلنا في علم الهندسة : إنك تبرهن على صدق النظرية المائة باستخدام النظرية التسعة والتسعين ، وهكذا حتى تصل إلى النظرية الأولى ، وهي قائمة على بدهية من بدهيات الكون ، لا تختلف فيها العقول .

لذلك دائماً يدعونا الحق سبحانه إلى التفكُّر والتأمُّل والتدبُّر .. الخ وما توصل إليه البشر الآن من آلات ووسائل حديثة مثل : الغسالة ، والثلاجة ، والتلفاز .. الخ ما هي إلا ثمرة هذا الفكر الذي رقَّى البدهيات ، حتى وصل بها إلى ما وصل إليه الآن ، ومَنْ أراد أن يقف على هذا الترقي ، ويرى قدرة الله في توارد الصناعات وارتقاءاتها من

حلقة إلى حلقة فليذهب إلى (ديترويت) ليرى هناك معرض (فورد) الذى يضم ارتقاءات الصناعات من إبرة الخياطة للصاروخ .

إذن : الكون فيه أسرار يكتشفها الإنسان ، ولكل سرٍّ ميلاد يظهر فيه ، إما نتيجة بحث للإنسان أو حتى صدفة ، ومن لُطْف الله تعالى أن الملاحدة لما اكتشفوا بعض أسرار الكون قالوا اكتشفنا ، ولم يقل أحد منهم : اخترعنا . وكأن الله تعالى صرفهم وألهاهم عن النطق بكلمة الاختراع ولوى ألسنتهم حتى لا يجترئوا على الله . فالجاذبية مثلاً موجودة منذ خُلقت السموات والأرض ، ودور الإنسان أنه اكتشف هذا السر ؛ لذلك الذى يقول اخترعت نقول له : هذا كذب والصواب أنك اكتشفتَ.

وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)﴾ [فاطر] عزيز لا يُغلب ، وغفور لكم إنْ بدر منكم سهو أو تقصير فى استنباط أسرار الله فى كونه ، يغفر لهم إنْ أخطأوا فى تجربة من تجاربهم ، فسوف يأتى مَنْ بعدهم ويصححها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)﴾

بعـد أن ذكر الحـق سبـحـانه العلم الكونى ، وأنه وسـيلة لخـشيـة الله ومعرفة أسراره فى كونـه أراد سبحانه أنْ يلفت أنظارنا وأنْ يحذرنا : إياكم أنْ تُفْتنوا بالعلم الكونى فينسيكم مهـمتكم فى أنْ تتلقَّوا عن الله ما يُسعدكم ، فتحدَّث سبحانه عن المنهج ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ (٢٩)﴾ [فاطر] وهذا هو العلم الشرعى والذِّكْر الذى يعصم الناس من اختلاف الأهواء .

ومـعنى ﴿يَتْلُونَ كِـتَابَ اللَّهِ (٢٩)﴾ [فـاطر] أى : تلهج به ألسنتـهم ، وتعيه قلوبهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاةَ (٢٩)﴾ [فاطر] وهذه عبادة تشترك فيها كل الجوارح ﴿وَأَنفَـقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَـةً (٢٩)﴾ [فاطر] والإنفاق يخصُّ الناحية المالية ، فهو دليل على سماحة النفس بما تنفق ، وحُبها للبذل والعطاء فى السرِّ والعـلانية ، وبالإنفـاق تكتمل لهذه النفس الصـفات الطيبة ، ويجتمع لها عمل القلب وعمل الجوارح فى طاعة الله .

وقوله ﴿مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ (٢٩)﴾ [فاطر] يعنى : أن الإنفاق ليس من مالك الخاص ، إنمـا من مال الله الذى رزقك ، وجـعلك مُستَـخْلَفًا فيـه وما نفقتُكَ إلا سبب ، والأسباب فى الكون ستر ليد الله فى العطاء .

وهؤلاء الذين ينفقون ممـا رزقهم الله سراً وعلانية ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩)﴾ [فاطر]

فالإنفاق فى سـبيل الله تجارة مع الله ﴿لَّن تَبُورَ (٢٩)﴾ [فاطر] أى : لن تكسد ، وأنت حين تنفق على المحتاجين ، وحين تطعم الجائع إنما تُحبِّب الله إلى خَلْقه أرأيت لو أن مَلِكاً من ملوك الدنيـا له عبيد ، أليس مكلَّفاً بإطعامهـم وسدِّ حاجتهم ، وهذه من سمات العظمـة فيه ، كذلك الحق سبحانه هو خالق هؤلاء الفقراء ، وهو الذى استدعاهم للوجود ، وهو سبحانه المكلَّف بإقتياتهم .

إذن : حين تطعمهم أنت فكأنك تؤدى مهمة الله عز وجل ، وتُحبِّب خَلْق الله إلى الله ، فالحـق سـبحانه حـين يعطف مخلوقـاً على مخلوق يقول : كأن عبدى يعـيننى على خَلْقى ؛ لأن الله تعالى استدعى الخَلْق

للوجـود ، وتكفَّل بأن يُغنيـهم ، فـحين يأتى عـبده الغنى ويكون فى عَوْن الفقير يقول سبحانه : كان عبدى فى عون أخيه بقدرته ، فلا بُدَّ أنْ أكون في عـونه بقدرتى ، فـالعبـد لا يكون أبداً أكرم من خـالقه ، وكيف يعطف العبـد وهو لم يخلق شيئاً ، ولم يستـدع أحداً للوجود ، ولا يعطف الخالق سبحانه ؟

فإنْ قلتَ : ما دام الحق سبحانه قد استدعى الخَلْق للوجود ، فلماذا لم يضمن لهم الحياة الكريمة التى لا يحتاجون فيها لعطف أحد غيره ؟

نقول : أراد الحق سبـحانه أنْ يزرع بذور المحبـة والتعاطف بين خَلْقه ، أراد مـجتمعـاً مسلماً قائمـاً على المحبة وعلى التـعاون وعلى التكافل ، ثم وَعَد سـبحانه السخىَّ المعطى بأنْ يعامله بقدر سـخائه وعطائه هو سبحانه .

هذه هى التـجـارة مع الله التى لا تبـور ، والبَوْر والبَوار ، أى : الفساد وهو يصيب التجارة من ناحـيتين : إما فساد فى الربح ، كأن تتـعبك التـجارة ولا تربح ، أو فـســاد فى الربح وفى الأصل يعنى : تخسر أصل التجارة ، ومعلوم أن الإنسان لا يتاجر إلا بقصد الربح ؛ لذلك قال أهل المعرفة وأهل الـتجارة مع الله : إنْ أردتَ الربح المحقق فتاجر مع كريم وهبك ما تجود به ، وبعد ذلك يجازيك عليه .

لذلك كـان أحد الصـــالحين يهشّ فى وجه الســائل ويبشّ ويقول له : مرحباً بمَنْ جاء ليحمل عنى زادى إلى الآخرة بغير أجرة .

وسُئِل الإمام على - رضى الله عنه - : يا أبا الحـسن ، أريد أنْ أعرف نفـسى ، أأنا من أهل الدنيـا ؟ أم من أهل الآخرة ؟ فـقال : إنْ كنتَ تهشّ لمن يعطيك أكـثر مـمَّنْ يأخذ منك ، فأنت مـن أهل الدنيا ؛ لأن الإنسان يحب مَنْ يعمر ما يحب .

ورسول الله ﷺ قال له صحابي : أنا أكره الموت ، فقال له الرسول : « ألكَ مال ؟ » قال : نعم ، قال : « أتتصدَّق به » ؟ قال : لا ، قال : « إن المال يحب صاحبه ، فإنْ كنتَ تحبه في الآخرة أحببتَ أن تموتَ للآخرة ، وإنْ كنتَ تحبه في الدنيا أحببتَ أنْ تظلَّ معه في الدنيا »[1] .

واستخدام أداة النفي (لن) هنا له مَلْحظ ، فلن تنفي الحال والاستقبال ؛ لأن الإنسان قد يموت قبل أنْ يدرك ثمرة الخير في هذا العطاء ، وقبل أنْ يرى نتيجة صدقه ؛ لذلك يطمئنه ربه بأن هذه تجارة مع الله لن تبور ، وسوف ينتظره جزاؤها في الآخرة وقوله تعالى : ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴿٢٩﴾ ﴾ [فاطر] أي : على أي حال . أما نفقة السر ، فالحكمة منها أنها تبعد صاحبها عن الرياء أو المباهاة ، وهي أيضاً ستر لحياء الآخذ ؛ لذلك كان بعض العارفين إذا أراد أنْ يعطف على فقير أو محتاج يحتال على ذلك بحيلة تحفظ للمحتاج ماء وجهه ، فيكلِّفه مثلاً بعمل بسيط ، ثم يعطيه المال على أنه أجره على العمل ، لا على أنه صدقة .

والبعض يتأدب في هذه المسألة ، فيعطي المحتاج على أنها قرض وفي نيته أنها صدقة ، وربما أكد هذا المعنى ، فقال لصاحبه : ربنا يُعينك على السداد ، لكن إياك (تاكله) .

وبعضهم يعطي الصدقة على أنها أمانة ، لكن يقول للآخذ : إذا تيسَّر لك هذا المبلغ وأصبح فائضاً عن حاجتك فأعطه محتاجاً إليه ،

---

(١) ذكره أبو حامد الغزالي في الإحياء (٣/٢٣٢) أن رجلاً قال : يا رسول الله مالي لا أحب الموت ؟ فقال : هل معك من مال ؟ قال : نعم يا رسول الله . قال : قدِّم مالك ، فإن قلب المؤمن مع ماله ، إن قدَّمه أحب أن يلحقه ، وإن خلفه أحب أن يتخلف معه . قال الحافظ العراقي : لم أقف عليه .

وقَلَّ له يعطيه بدوره إلى مَنْ يحتاج إليه بعده ، وهكذا تتنامى الصدقة ، وتدور على ما شاء الله من المحتاجين إليها .

هذا عن صدقة السر ، أما العلانية فالحكمة منها أنها تمثل زاجراً للواجد حتى لا يبخل ولا يضنَّ بما عنده . كذلك تحمي صاحبها من ألسنة الناس ، وتحمي عرْضَه أنْ يخوضَ الناس في حقه فيقولون : يبخل رغم غناه . كما أن الإنفاق علانية يُعَدُّ نموذجاً وأُسْوة للغير في العطاء .

وقال العلماء : يُراد بالسر الصدقة الزائدة على الفريضة ، وهذه ينبغي فيها الستر ، ويُراد بالعلانية الزكاة المفروضة ؛ لأن الجهر في العبادة مطلوب كما هو الحال في الصلاة مثلاً ، والمتأمل يجد الزكاة أوْلَى بالعلانية من الصلاة ، فمن اليسير إقامة الصلاة في أوقاتها ، أما الزكاة فقد تكون واجداً لكن تشح نفسُك وتبخل بالعطاء .

وأنت حين تُنفق تنفق على مَنْ ؟ على محتاج غير قادر أو مسلوب القدرة ، ومَن الذي سلبه القدرة ؟ الله ، لذلك كلفك الله أنْ تنفق على مَنْ سلبه القدرةَ ، وأنْ تعينه : أولاً حتى لا يحقد عليك ، وحتى يتمنى لك المزيد من الخير ؛ لأن خيرك سيعود عليه ، لذلك كنا نرى أهل الريف مثلاً يحزنون ويبكون إنْ ماتت بقرة فلان أو جاموسة فلان ، لماذا ؟ لأنها كانت تسقي الفقراء من لبنها ، وتحرث أرض المحتاج .

ثانياً : وهذه حكمة أسمى من الأولى ، وهي أن النفقة على غير القادر تجعله لا يغير خواطره على ربه وخالقه وتحميه من الاعتراض على قدر الله الذي منعه وأعطى غيره ، وضيَّق عليه ووسَّع على الآخرين .

النفقة على غير القادر تجعله يشعر أنه أحظُّ حالاً من الغني ، ولم لا وهو يُساق له رزقه دون تعب منه ودون عناء ؟ ويأتيه الغني إلى بابه ليعطيه حقه في مال الله . لذلك قال العلماء : الفقير شرط في إيمان الغني ، وليس الغني شرطاً في إيمان الفقير .

لذلك يعلمنا سيدنا رسول الله ﷺ ، فيقول : « ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[1]

والحق سبحانه وتعالى لما تكلَّم عن المحسنين الذين يكلِّفون أنفسهم فَوْق ما كلَّفهم الله ، ومن جنس ما كلَّفهم الله ، يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

فالحق غير المعلوم هو الصدقة ، أما الزكاة المفروضة التي هي حق الفقير في مال الغني فقد وردتْ في صفات المؤمنين في سورة سأل[2] فقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (٢٥) ﴾ [المعارج]

لذلك ، فالزكاة لا تُخْفى ، بل تُؤدَّى علانية ، لأنك تُؤدِّي حقاً عليك للفقير ، حتى أن بعض فقهاء الأندلس رضي الله عنهم قال : لو مُكنت بولاية أمر على المؤمنين ، فرأيتُ مَنْ يمنع الفقير حقَّه بمقدار نصاب لأتيتُه لأقطع يده ، فتأمل هذا الاجتهاد من العلماء ، وكيف ساووا بين منع الفقير حقَّه والسرقة .

وسواء أكان الإنفاق سراً أم جهراً وعلانية ، فلا بُدَّ أنْ تتوفر له النية الخالصة كما علَّمنا ربنا في الحديث القدسي : (الإخلاص سر

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ضمن حديث « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلَّق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال ، فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

(٢) هي سورة المعارج ، سميت بسورة سأل لأن أولها قوله تعالى : ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ (١) لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ (٢) ﴾ [المعارج]

من أسرارى ، أودعته قلب مَنْ أحببتُ من عبادى ، لا يطلع عليه مَلَك فيكتبه ، ولا شيطان فيفسده)[1]

وأنت فى عطائك تتعامل مع الله ، والله واجد ماجد كريم ، لا يبخسك حقك ، وتجارتك معه سبحانه لا بُدَّ أنْ تكون رابحة ؛ لذلك قال بعدها : ﴿ يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) ﴾ [فاطر]

كذلك يحذرنا سيدنا رسول الله ﷺ من الرياء الذى يحبط الأعمال، ويفسدها ويحرم صاحبها من ثمرتها يوم القيامة ، حيث يقال له : فعلتَ ليقال وقد قيل.

ويحذرنا سيدنا رسول الله أن تكون أعمالنا كأعمال الكافرين الذين قال الله فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) ﴾ [النور]

ثم يقول سبحانه : ﴿ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ .. (٣٠) ﴾ [فاطر]

أى : أنهم سيأخذون جزاء أعمالهم وعطائهم بوفاء من الله ، ثم يزيدهم بعد ذلك من فضله تكرُّماً ، قالوا هذه الزيادة أن تقبل شفاعتهم فيمن يحبون ، فإنْ شفعوا لأحد من أحبابهم قَبِل الله شفاعتهم ، لماذا ؟ لأن لهم أياديَ سابقة على الفقراء والمحتاجين من عباد الله ، يكرمهم الله من أجلها ، ويتفضَّل عليهم كما تفضَّلوا على عباده .

﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) ﴾ [فاطر]

ولك أنْ تسأل : لماذا ذُيِّلت الآية باسم الله (الغفور) ، مع أنها تحدثت عن أعمال الخير من تلاوة كتاب الله ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق فى سبيل الله ، فأىُّ شىء من هذه يحتاج إلى المغفرة ؟

قالوا : ذكر هنا المغفرة ، لأن العبد حين يضع شيئاً من هذا

(١) ذكره الغزالى فى إحياء علوم الدين (٤/٣٧٦) من حديث الحسن البصرى مرسلاً ، ضعفه الحافظ العراقى والحافظ ابن حجر العسقلانى والشيخ الألبانى فى السلسلة الضعيفة (٢/٦٣٠) .

الخير قد يُداخله شيء من الغرور أو الإعجاب أو غيره مما يشوب العمل الصالح ، فيغفرها الله له ، ليلقى جزاءه خالصاً ؛ لذلك ورد في حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من عمل أردتُ به وجهك فخالطني فيه ما ليس لك »[1]

وقوله ﴿ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[فاطر] صيغة مبالغة من شاكر ، فكأن الله تعالى بعظمته يشكر عبده ، بل ويبالغ في شكره ؛ لأن العبد في ظاهر الأمر عاون ربه في أنْ يرزق مَنْ كان مطلوباً من الله أنْ يرزقه ؛ لذلك يشكره الله ولا يبخسه حقه ، مع أنه في واقع الأمر مُناول عن الله .

وأنت حين تقرؤها : ﴿ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[فاطر] وتعلم أنه تعالى يشكرك لا تملك إلا أنْ تشكره سبحانه ، وعندها يزيدك من النعمة ، إذن : نحن أمام شكر دائم لا ينقطع ، وعطاء لا ينفد .

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ﴾

الوحي في معناه العام كما قلنا : إعلام بخفاء ، فإنْ كان جهراً وعلانية فلا يُعَدُّ وَحْياً ، فأنت مثلاً يدخل عليك جماعة من الضيوف فتنظر مجرد نظرة إلى خادمك يفهم منها ما تريد دون أنْ يشعر أحد بك ، هذا يُعَد وحياً . كذلك الوحي الشرعي لا يأتي علانية ، إنما خُفية بين الله تعالى ورسوله ﷺ .

الوحي يختلف باختلاف الموحِي ، والموحَى إليه ، والموحَى به .

---

(١) أورده ابن رجب الحنبلي في كتابه « جامع العلوم والحكم » (ص ٢٧) من دعاء مطرف ابن عبد الله أنه كان يدعو قائلاً : اللهم إني أستغفرك مما تبت إليك منه ، ثم عدت فيه ، وأستغفرك مما جعلته لك على نفسي ، ثم لم أفِ لك به ، وأستغفرك مما زعمتُ أني أردت به وجهك ، فخالط قلبي منه ما قد علمت » .

فالله تعالى يُوحي للجماد ، كما أوحى للأرض : ﴿بأنَّ ربَّك أوْحَىٰ لَهَا (٥)﴾ [الزلزلة]

ويُوحي للنحل : ﴿وأوْحَىٰ ربُّكَ إلَى النَّحْلِ أنِ اتَّخِذي من الجِبَالِ بُيُوتًا ..(٦٨)﴾ [النحل]

وأوحى للبشر من غير الرسل . ﴿وأوْحَيْنَا إلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أنْ أرْضِعِيهِ (٧)﴾ [القصص] وأوحى للحواريين .

أما الوحي الشرعي الذي يتعلّق بالتكاليف فوَحْي من الله وخطاب إلى الرسُل بمنهج ليبلغوه عن الله ، وليس مجرد خاطر أو إلهام كالوحي السابق ، ومن الوحي أنْ يُوحي الشياطين إلى أوليائهم ، يقول الحق سبحانه : ﴿وإنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إلَىٰ أوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وإنْ أطَعْتُمُوهُمْ إنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)﴾ [الأنعام]

قوله تعالى ﴿والَّذِي أوْحَيْنَا إلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ (٣١)﴾ [فاطر] أي : من القرآن . أو من اللوح المحفوظ ﴿هُوَ الْحَقُّ (٣١)﴾ [فاطر] أي : القرآن هو عَيْن الحق ، وقد عرفنا من دراساتنا النحوية أن المبتدأ يأتي دائماً معرفة ، لأنك ستحكم عليه ، ولا يمكن أن تحكم على مجهول فتقول مثلاً : زيد مجتهد . فزيد معروف لك حكمتَ عليه بأنه مجتهد ، إذن : المجهول هو الخبر ، لذلك يأتي نكرةً دائماً ، فإذا قلتَ زيد هو المجتهد ، فإن هذا يعني أنه بلغ من الاجتهاد مبلغاً ، بحيث إذا أُطلق الاجتهاد لا ينصرف إلا إليه .

كذلك في قوله تعالى ﴿هُوَ الْحَقُّ (٣١)﴾ [فاطر] : أي : لا ينصرف الحق إلا إليه ، وهو عَيْن الحق ، ومعنى الحق الشيء الثابت الذي لا يتغير ولا يتضارب ، وحتى لا يفهم أحد أنه ما دام القرآن هو الحق فغيره من الكتب السابقة باطل ، قال سبحانه : ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ (٣١)﴾ [فاطر]

فالقرآن حق ومُصدِّق لما سبقه من الكتب السماوية ، فهى أيضاً حق ؛ لأن القرآن صدَّق عليها ، ولم يأت مخالفاً لها .

وفى موضع آخر ، قال تعالى : ﴿ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ (٤٨) ﴾ [المائدة]

فكأن الحق سبحانه يعطى للقرآن صَوْلة الخاتم النهائى فى الإكمال البشرى ، فإنْ جاء حكم فى الكتب السابقة ثم نزل حكم آخر فى القرآن فلنأخذ بالحكم الأخير ؛ لأنه نسخ الأول لمصلحة يقتضيها العصر وطبيعة التكاليف التى تتدرج حسب حالات الأمم .

فكأن الحق سبحانه ميَّز رسوله ﷺ بميزة لم تتوفر لغيره من الرسل ، وهى أن الرسل السابقين كانوا يُبلِّغون ما يُوحَى إليهم لأممهم ، لكن الله أذن لرسوله أن يُبلِّغ عن الله وفوَّضه أنْ يُشرِّع لقومه ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (٧) ﴾ [الحشر]

وهذه الآية ترد على الذين يقولون بأخْذ القرآن دون السنة ، هذه الفرْية القديمة الحديثة التى نسمع مَنْ ينادى بها من حين لآخر ، وهم لا يعلمون أن نصَّ القرآن يُلزمهم بالسنة واحترامها والأخذ بها ؛ لأنها مُوضِّحة للقرآن ، مُبيِّنة له ، شارحة لما أُجمل فيه ، وإلا فماذا يقولون فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا (٧) ﴾ [الحشر] ؟

ولو قُلْتُ لك : هل فى دستورنا مادة تنصُّ على فَصْل الموظف الذى يتغيَّب عن عمله خمسة عشر يوماً ؟ لا توجد هذه المادة فى الدستور ، إنما هى قانون وضعه جماعة من المختصين المفوضين فى ذلك ، حيث يُؤلَّف للخادمين فى الحكومة والعاملين بها لجنة تضع لهم القوانين بالتفويض ، كذلك فُوِّض رسول الله من قِبَل ربه عز وجل فى أنْ يُشرِّع لأمته ، وأنْ يُوضِّح لهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾ [فاطر] الخبير : هو الذى يعلم خبايا كل الأشياء على حقيقتها ، والبصير : هو الذى لا يغيب عنه شىء ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، فقد تعلم الشىء لكن لا تراه ، والحق سبحانه يجمع فى القرآن كثيراً بين الخبير البصير كما في هذه الآية[1] ، أو بين اللطيف الخبير[2] لأن الخبرة تحتاج إلى بصر وتحتاج إلى لُطْف . واللطيف كما قلنا هو الذى يتغلغل فى الأشياء ولا يمنعه مانع .

لذلك قلنا : إن أعنف الأشياء فَتْكاً هي الدقيقة اللطيفة التى لا تُرى بالعين المجردة ، وكنا (زمان) نسميها الميكروب ، والآن ظهر الڤيروس ، أظن أنه ألطف وأدقّ من الميكروب ، وأشدّ منه فَتْكاً .

وقد أوضحنا هذه المسألة بالذى يبنى بيتاً مثلاً ، ويريد أن يحتاط للحيوانات والحشرات الضارة ، فيضع شبكة من الحديد مثلاً على الشبابيك ، لكن لا بُدَّ أن تتناسب هذه الشبكة مع دقَّة الشىء الذى تخاف منه ، فالذى يمنع الذئاب ، غير الذى يمنع الفئران ، غير

---

(١) وكذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧) ﴾ [الشورى] .
وقوله : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) ﴾ [الإسراء]
وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) ﴾ [الإسراء].
وقوله تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) ﴾ [الإسراء]
(٢) ورد اقتران اللطيف بالخبير في القرآن خمس مرات :
- ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام] .
- ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) ﴾ [الحج] .
- ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى السَّمَاوَاتِ أَوْ فِى الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (١٦) ﴾ [لقمان] .
- ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك] .

الذي يمنع الذباب والناموس .. الخ .

إذن : كلما دَقَّ الشيء عَنُفَ واحتاج إلى احتياط أكثر ؛ لأنه يتغلغل في أضيق شيء وينفذ إليك دون أنْ تشعر به .

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ﴾ [فاطر] أن الله تعالى هو القادر وحده على أنْ يُشرِّع لعباده ما يناسبهم في كل زمان ومكان ؛ لذلك تعددتْ الكتب السماوية لما اختلفتْ الداءات ، فلما التقى العالم واتصل جاء القرآن مهيمناً على كل هذه الكتب .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) ﴾

الكتاب هو القرآن ، إذن : هذا الميراث كان بعد سيدنا رسول الله ﷺ وهو دليل على أن المرحلة التي بعد رسول الله مرحلة ميراث للكتاب وللمنهج ، يرثه العلماء عن رسول الله ؛ لذلك جاء في الحديث : « إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يُورِّثوا ديناراً ولا درهماً ، وإنما وَرَّثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر »[1]

فالنبي ﷺ كان هو المبلِّغ والمعلِّم حال حياته ، أما بعد وفاته فقد وَكَل الله هذه المهمة إلى العلماء . ومعنى ﴿ أَوْرَثْنَا (٣٢) ﴾ [فاطر] يعني -

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٦/٥) ، وابن ماجه في سننه (٢٢٣) ، وأبو داود في سننه (٣٦٤١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .

طلبنا منهم أنْ يفعلوا فيه فعْل الوارث في المال ؛ لأن الوارث للمال يُوجِّهه وجهةَ النفع العام ، وهذه هي وجْهة الرسالة أيضاً .

لذلك قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣) ﴾ [البقرة] فنحن ورثة محمد ، ومَنْ علم منَّا حكماً فعليه أنْ يبلغه . فالرسول شهيد على مَنْ بلَّغهم ، كذلك أمته سيكونون شهداء على الناس الذين يُبلِّغونهم .

ومعنى ﴿ اصْطَفَيْنَا (٣٢) ﴾ [فاطر] أي : اخترنا وفضَّلنا على سائر الأمة ، ثم يُقسِّم الحق سبحانه هؤلاء إلى ثلاثة أصناف : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ (٣٢) ﴾ [فاطر] ظلمها بالتقصير في حَقِّ هذا الكتاب الذي ورثه ، فلم يعمل به كما ينبغي أنْ يعمل ، بل قد يرتكب كبيرة والعياذ بالله .

وهذا الصنف ظلم نفسه ؛ لأنه حرمها الثواب ، فكُلُّ تكليف يطلب منك العمل اليسير ويعطيك عليه الجزاء الوفير ، فحين تُقصِّر في اليسير من العمل فإنك لا شكَّ ظالمٌ لنفسك .

﴿ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ (٣٢) ﴾ [فاطر] يعني : يعمل به في بعض الأوقات ، فيخلط عملاً صالحاً بآخر سيء .

﴿ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ (٣٢) ﴾ [فاطر]

اللهم اجعلنا منهم إنْ شاء الله ، وكلمة (سابق) تدل على أن هناك سباقاً ومنافسة : أيّ المتسابقين يصل أولاً إلى الغاية الموضوعة للسباق ، وأهل هذا الصنف يتسابقون في الخيرات .

وقوله تعالى : ﴿ اصْطَفَيْنَا (٣٢) ﴾ [فاطر] دلتْ على أن كلمة التوحيد لها ثمن ، والإيمان برسول الله له ثمن ، والعمل بما جاء به رسول الله له ثمن ، وإنْ كان من بين هؤلاء المصطفين مَنْ يظلم نفسه بالتقصير بل وارتكاب المعاصي ، وهو مع هذا كله من المصطفين ؛

لأنه قال لا إله إلا الله ، والحق سبحانه لا يُسوِّى بين مَنْ قال هذه الكلمة ومَنْ جحدها « لا إله إلا الله حِصْنى ، مَنْ قالها دخل حصنى »[1]

لذلك ذكر الحق سبحانه لهؤلاء المؤمنين الذين وَرِثوا الكتاب وصفين : ﴿ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر] فوصفهم بالاصطفاء ، والعبودية له سبحانه .

إذن : نزل الكتاب على محمد ﷺ وورثتْ أمته الكتاب من بعده ، فهى امتداد لرسالته ؛ لذلك أمن الله هذه الأمة على أنْ تحمل منهج الله إلى الناس كافة إلى أن تقوم الساعة ، فى حين لم يأمَن غيرنا .

وقد تكفل الحق سبحانه بحفظ هذا الكتاب ، ولم يكلْ حفظه إلى أحد كما حدث فى الكتب السابقة على القرآن ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة]

ومعنى ﴿ اسْتُحْفِظُوا ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة] طُلب منهم أنْ يحفظوه ، لكنهم قصَّروا فنَسُوا بعض الآيات ، وحرَّفوا بعضها ، وكتَموا بعضها ، بل ومنهم مَنْ كان يأتى بكلام من عنده ويقول هو من عند الله ، ولأن القرآن هو الكتاب الخاتم حفظه الله بنفسه ، ولم يأمَن أحداً على حفظه .

فإنْ قُلْتَ : كيف يكون الظالمُ نفسَه من المصطفين ، وهو مرتكب للذنوب وربما للكبائر ؟ نقول : بمجرد أن يقول العبد أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهو مُصْطفىً ، اصطفاه الله على الكفار بهذه الكلمة ، وإنْ حدثت منه المعصية بعد ذلك .

---

(١) أخرجه ابن عساكر فيما ذكرته موسوعة أطراف الحديث (٢/ ٨٢) ، تهذيب تاريخ دمشق .

والحق سبحانه وتعالى حين يذكر الذنب ويُجرِّمه ويضع له عقوبة، فهذا إذْنٌ بأنه سيقع ، فمثلاً جرَّم الله السرقة ووضع لها حدّاً ، وجرَّم الزنا ووضع له حداً ، فكأن مثل هذه الأمور تحدث في مجتمع المسلمين ، أما الكذب مثلاً فلم يضع له حدّاً ولا عقوبة ، لذلك ورد في حديث سيدنا رسول الله لما سُئل : أيزني المؤمن يا رسول الله ؟ قال : نعم ، أيسرق المؤمن يا رسول الله ؟ قال : نعم ، أيكذب المؤمن يا رسول الله ؟ قال : لا[1] .

فكأن المؤمن يُتوقَّع منه الزنا والسرقة ، ولا يُتوقَّع منه الكذب ، فهو أبعد الصفات عن المؤمن ، لماذا ؟ قالوا : لأن الكذب يخالف الواقع ويقلب الحقائق ، والمؤمن لا يكذب ؛ لأنه ينطق بلا إله إلا الله ، فإنْ كان كذاباً ما يدريني أنه صدق في هذه الكلمة ، فكأن الكذب يهدم الإيمان من أساسه ؛ لذلك لم يجعل الله له عقوبة ؛ لأنه لا يُتصوَّر من المؤمن .

والمقتصد : هو الذي تساوتْ حسناته وسيئاته ، وخلط عملاً صالحاً بآخر سيء ، وفي موضع آخر يقول تعالى في حق هذا الصنف : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٠٢) ﴾ [التوبة]

يقول النحاة : إن عسى تدل على الرجاء ، وأغلب الرجاء التوقّع واحتمال الحدوث ، على خلاف (ليت) التي وُضعت للتمني ، والتمني يكون لشيء بعيد أو مستحيل الحدوث ، فهي لمجرد إظهار المحبوبية للشيء المتمنَّى فقط ، ولا تدل على رجاء .

---

(١) أخرجه الإمام مالك في موطئه (ص٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

ومن ذلك قول الشاعر :

أَلاَ لَيْتَ الشبابَ يَعُود يَوْماً فَأُخْبِرهُ بِمَا فَعَلَ المشيبُ[1]

وسبق أنْ قُلنا : إن عسى وإنْ دلَّتْ على رجاء حدوث الفعل ، إلا أنها درجات بعضها أوثق من بعض ومراتب ، فمثلاً إنْ كان الرجاء في بشر مثلك كان تقول : عسى فلان أنْ يعطيني ، فهذا رجاء على درجة معينة من احتمال التحقق ، فإنْ قُلْتَ عسى أن أعطيك بصيغة المتكلم ، فهي أقوى من الأولى وأوثق ، فإنْ قُلْتَ : عسى الله أنْ يعطيك فهي أوثق ؛ لأنه رجاء في الله ، فإنْ قوله سبحانه : ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ (١٠٢)﴾ [التوبة] فعسى هنا للرجاء المحقق ، إذن : هذه من أرجى الآيات التي ينتظرها المقتصد المقصِّر في حَقِّ ربه .

أما السابق بالخيرات ، فهو الذي يعمل بالأمر ويُتمه ويأتي به على أكمل أوجه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦)﴾ [المطففين]

وتأمل مثلاً قوله تعالى في سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤)﴾ [البقرة]

يعني : أتمَّ ما أمر به أولاً بالقدرة العادية ، ثم بالحيلة والقدرة العقلية ، فلما أمره الله مثلاً بأنْ يرفع القواعد من البيت : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ (١٢٧)﴾ [البقرة] ماذا طلب منه ؟ وماذا فعل هو ؟

طلب منه أنْ يرفع قواعد البيت ، وكان يكفي في طاعة هذا الأمر

---

(١) أكثر المصادر على أن هذا البيت لأبي العتاهية ، نسبه له الجاحظ في « البيان والتبيين » (كتاب العصا) . وكذلك أبو هلال العسكري في كتابه « ديوان المعاني » فصل الشباب والشيب ، وكذلك الراغب الأصفهاني في « محاضرات الأدباء » ، ولكن عزاه الزوزني لحاتم طيء في « حماسة الظرفاء » باب الكِبَر والشيب .

أنْ يبني القواعد على قدر ما تطوله يده من الارتفاع ، لكنه زاد على ذلك واستخدم الحيلة العقلية ، فبعد أنْ وفَّى الأمر وأدَّاه أراد أنْ يزيد شيئاً من عنده ، وأن يحسن العمل فوق ما طُلِبَ منه ، فكان يأتي بالحجر الضخم ويضعه كـ (السقالة) ، ويقف عليه ليرفع البناء بقدر ارتفاع الحجر ، وولده إسماعيل يناوله .

كذلك لما ابْتُلى فى شبابه بالإحراق صبر ووثق بالله ، فلما جاءه جبريل عليه السلام يعرض عليه المساعدة ، وهو الواسطة بينه وبين ربه أبَى وقال : أما إليك فلا ، يعنى : أنت وَصَّلْتنى بالله فلم يَعُدْ بينى وبين ربى واسطة .

وهذه مسألة عجيبة ، ودرجة من الإيمان عالية ، وثقة بالله لا يتطرق إليها شك ولا ارتياب ؛ لذلك أنقذه الله وخرق له العادة ، وأبطل من أجله قانون النار والإحراق ، فقال سبحانه للنار ﴿ يَـٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

وتأمل هذا الاحتياط من رب الأمر ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا (٦٩) ﴾ [الأنبياء] لذلك قال العلماء : لو أن الأمر كان للنار كُونى برداً (وفقط) لتحولتْ عليه برداً قاتلاً ربما أشد من النار .

ثم إن هذا الابتلاء وقع لإبراهيم عليه السلام فى نفسه وهو صغير والإنسان قبل أنْ يكون له ولد يكون كل حظه فى نفسه ، فإنْ رُزق الولد انتقل حظّه إلى ولده فيحبه أكثر من حُبه لنفسه ، ويتمنى أن يُعوِّض فى ولده ما لم يستطعه فى نفسه ، لذلك يقولون : إن الإنسان لا يحب أن يكون أحدٌ أفضل منه إلا ولده ، إذن : عصبية الإنسان فى حبه لولده أكثر من عصبيته لنفسه .

وسيدنا إبراهيم - عليه السلام - بعد أن نجح فى الابتلاء فى النفس ابتلاه الله فى الولد ، وتعلمون أن سيدنا إبراهيم رزقه الله بالولد على كِبَرٍ وبعد يأس من الإنجاب ، فجاء إسماعيل على شوق من

إبراهيم حتى إذا شَبَّ الولد وبلغ مبلغ السعى مع أبيه يأتيه الأمر من السماء أنْ يذبحه ، وجاء هذا الأمر فى صورة رؤيا ، والرؤيا تحتمل التأويل ، لكن إبراهيم عليه السلام لم يؤولها ، وأخذها على الحقيقة .

وهذا الابتلاء في الحقيقة ينطوى على ابتلاءات أربع : **الأول** : أن يذبح الولد الذى جاءه على كِبَر وبعد طول انتظار . **الثانى** : ألاَّ يذبحه شخص آخر فيكون غريماً لإبراهيم عليه السلام . **الثالث** : أنْ يذبحه هو بيده . **الرابع** : أنْ يشرك ولده معه فى الابتلاء وألاَّ يأخذه على غِرَّة .

ذلك أن إبراهيم عليه السلام لما هَمَّ بتنفيذ ما أُمِرَ به لم يُرِدْ أنْ يأخذ ولده غِرَّة لعدة أمور : **أولاً** : حتى لا يُتَّهم بالقسوة والغلظة . **ثانياً** : لكي لا تتغير خواطر الولد نحو والده فيتهمه بما لا يليق . **ثالثاً** : ليشركه ولده معه في الابتلاء وفي الثواب ، وفي الرضا بقضاء الله ؛ لذلك قال له : ﴿ **يَـٰبُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ** (١٠٢) ﴾ [الصافات]

فكأنه يأخذ رأيه فى الموضوع . ﴿ **قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ** .. (١٠٢) ﴾ [الصافات] ولم يقل مثلاً : افعل ما تريد ، فالأمر انصياع وخضوع لأمر الله : ﴿ **سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ** (١٠٢) ﴾ [الصافات]

وهكذا اشترك الاثنان في الرضا ، وفى الصبر ، وفى الجزاء وخطفَ إسماعيلُ الفوز فى الابتلاء فى آخر الشوط ؛ لذلك قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا أَسْلَمَا** (١٠٣) ﴾ [الصافات] الولد وأبوه ﴿ **وَتَلَّهُ**[1] **لِلْجَبِينِ** (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعنى : هَمَّ بذبحه ، أو كاد يفعل ﴿ **وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ** (١٠٤) **قَدْ صَدَّقْتَ**

---

(١) تلَّه : ألقاه على وجهه على الأرض . وقوله تعالى : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] أى ألقاه وجبينه ووجهه إلى الأرض . [القاموس القويم ١/١٠٦] .

الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧)﴾ [الصافات]

وحين تتأمل هذه القصة تجد أن الحق سبحانه قابلَ هذه الابتلاءات الأربعة ، بعطاءات أربعة : أنقذ إسماعيل من الذبح ، وفداه بذبح عظيم ، ثم بشَّر إبراهيم بإسحاق . ومن وراء إسحاق يعقوب ، ثم جعلهم جميعاً من الأنبياء فضلاً من الله .

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢)﴾ [فاطر] نعم ، الحق سبحانه يعاملنا بالفضل الكبير ، ويعطينا مُثُلاً ليُحبِّبنا في الدين ، فالحسنة عنده بعشر أمثالها ، أو يزيدها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، والسيئة بمثلها .

ومَنْ غلبت حسناته سيئاته يُرْجَى له الجنة ، ومَنْ غلبت سيئاته حسناته فهو مُرْجأ لأمر الله ، إنْ شاء عذبه بعدله ومآله إلى الجنة، وإنْ شاء غفر له بفضله ، فإنْ بادر بالتوبة النصوح وأخلص بدَّل الله سيئاته حسنات .

حتى أن بعض الظرفاء يقول : ليتني كنت من أهل الكبائر . وجاء في دعاء العارفين : اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل ، وعاملنا بالإحسان لا بالميزان ، وعاملنا بالجبر لا بالحساب .

يعاملنا ربنا بالفضل بدليل أنه أدخل الظالم لنفسه ، وأدخل المقتصد في ساحة المصطفين من عباده .

ثم يوضح لنا الحق سبحانه هذا الفضل الكبير فيقول :

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)﴾

تلحظ أن ﴿ جَنَّاتُ (٣٣) ﴾ [فاطر] جـمع ، فهى جنات عـدَّة ، لا جنة واحـدة ، وجنات (عـدن) يعنى : إقـامـة دائمـة لا تنتـهى ، ووصف الجنات هنا بالدوام لأن آدم عليـه السلام سـبق أنْ أُدخل الجنة ، لكن خرج منها ، أما جنة الآخرة فدائمة باقية لا يخرج منها مَنْ دخلها .

وقوله تعالى ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا (٣٣) ﴾ [فاطر] تلحظ أن الحق سـبحانه ذكـر هنا التحليـة والزينة قبل الضـروريات ، وهذا يعنى أن الضروريات جاهزة مفروغ منـها ، وهذه التحلية ستكون فى الآخرة من الذهب ومن الحرير ، وهى من المـحرَّمات على الرجال فى الدنيا ، أما فى الآخرة فشىء آخر .

وكلمة (أساور) جـمع أسورة وأسورة جمع سـوار . مثل فؤاد وأفئدة ، فهى جـمع للجمع ليدل على كثرتها ، وأنـك ستُحلَّى إن شاء الله فى الجنة بأسـاور كثيـرة تملأ الذراع من المـعصم إلى العَـضُد ، ومعلوم أن السوار هو ما يتحلى به المعصم وتلبسه النساء للزينة فى الدنيا ، كُلٌّ حـسب إمكاناتها ، حـتى أن بعض الغنيات يلـبسْنَ أسورة عريضة فى العضد يسمونها (دُمْلُك) لفرط غناها .

وعـجيب أن نرى بعض الرجـال يتعـجلُون حليـة الجنة ، لكن من غير طريقها ، فيلبسـون الأساور ، وهو ما يُسمَّى الآن (الانسيال) .

وذكر الحق سبحانه أسـاور الذهب فى الحلية ؛ لأن الملوك قديماً كانوا يلبسونهـا ويتحلَّوْن بها ، وكان لكسرى سواران لهـما قصة فى تاريخنا ، فلمـا أسلم سراقـة بن مالك[1] ، وكان نحـيلاً تشبـه ذراعاه

---

(١) هو : سراقة بن مالك بن جعشم المدلجى الكنانى ، أبو سفيان ، صحابى ، كان فى الجاهلية قصاصاً للأثر ، أخرجه أبو سفيان ليقتص أثر رسول الله ﷺ حين خرج إلى الغار مع أبى بكر ، أسلم بعد غزوة الطائف عام ٨ هجرية ، له فى كتب الحديث ١٩ حديثاً . توفى عام ٢٤ هجرية . [الأعلام للزركلى ٣/ ٨٠] .

ذراعَىْ الماعز[1] ، وكان بعض الصحابة يسخرون منه ، فنهاهم عن ذلك سيدنا رسول الله ﷺ وقال قولة عرفوا معناها فيما بعد ، قال : « كيف بهما - يعنى ذراعى سراقة - فى سوارى كسرى ؟ ».

فلما فتح المسلمون بلاد فارس وغنموا قصور كسْرى وأمواله جاء السّواران من نصيب سُراقة عند توزيع الغنائم ، فلما رآهما عمر فى يديه قال : صدق رسول الله ﷺ[2] .

وهذه الأساور ﴿مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا (٣٣)﴾ [فاطر] الذهب معلوم أنه من الجبال ، واللؤلؤ من حلْية البحر .

وتأمل دقَّة الأداء القرآنى هنا : فلما تكلم عن الأساور جاء بجمع الجمع ليدل على الكثرة ، لكن لما تكلم عن الثياب قال ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)﴾ [فاطر] بصيغة المفرد ، لماذا ؟ قالوا ، لأنك لا تحتاج إلى العديد من الثياب إلا لتردَّ عن نفسك البرد أو الحر ، وليس فى الجنة شىء من هذا .

﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤)﴾

---

(١) ذكر أبو عبد الله الحميرى فى كتابه « الروض المعطار فى أخبار الأقطار » « أن سراقة كان رجلا أزب كثير شعر الساعدين » أثناء ذكره هذا الخبر .

(٢) أخرجه أبو بكر البيهقى فى دلائل النبوة (٦/٣٢٥) من حديث عمر بن الخطاب أنه آتى بفروة كسرى فوُضعت بين يديه وفى القوم سراقة بن مالك بن جعشم قال : فألقى إليه سوارى كسرى بن هرمز فجعلهما فى يديه فبلغا منكبيه فلما رآهما فى يدى سراقة قال الحمد لله سوارى كسرى بن هرمز فى يد سراقة بن مالك بن جعشم . قال الشافعى : وإنما ألبسهما سراقة لأن النبى ﷺ قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه : كأنى بك قد لبست سوارى كسرى » .

هذا قَوْل المؤمنين ساعة يتمتعون بنعيم الجنة ، فهم لا ينسوْنَ المنعمَ سبحانه ، فيحمدونه أولاً على أنْ شَرَع لهم المنهج الذى أوصلهم إلى هذا النعيم ، ويحمدونه على أنْ نجَّاهم وأنقذهم من الكفر وهداهم إلى الإيمان . إذن : هذا حمد مركب .

وكلمة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ (٣٤) ﴾ [فاطر] هي آخر ما يقوله المنعَمون في الآخرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠) ﴾ [يونس]

ومن لُطف الله بعباده وعَطْفه عليهم يُعلِّمهم كيف يحمدونه سبحانه ، ويُعلِّمهم هذه الكلمة الموجزة المكوَّنة من مبتدأ وخبر : الحمد لله ، ذلك لأن الناس مختلفون في القدرة على الأداء البياني والتعبير البليغ ، فواحد بليغ قادر على صياغة الأسلوب الجميل وتنميق العبارات ، وآخر لا يجيد شيئاً من هذا ؛ لذلك علَّمنا الله تعالى كيف نحمده بلفظ سهل ميسور يتساوى فيه الجميع .

لذلك جاء في مناجاة رسول الله لربه : « .. لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيتَ على نفسك »[1]

وقلنا : إن كلمة (الحمد لله) تستوجب سلسلةً لا تنتهي من الحمد ، فحين تقول على النعمة : الحمد لله . فهذه الكلمة في ذاتها نعمة تستوجب الحمد ، وتستحق الحمد ، وهكذا يظل الحق سبحانه محموداً ، ويظل العبد حامداً إلى ما لا نهاية .

وقوله سبحانه ﴿ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ (٣٤) ﴾ [فاطر] هذه نعمة ثالثة

---

(١) أخرج مسلم في صحيحه (٤٨٦) من حديث عائشة قالت : فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش ، فالتمسته ، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد ، وهما منصوبتان وهو يقول : « اللهم أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

تستحق الحمد ، فالحمد أولاً على النعم ، وثانياً على أنك حمدتَ الله على نعمه ، وثالثاً تحمد الله الذى أذهب عنك الحزن ، والحَزَن كل ما يُحزنك أو يغمُّك ، أو هو استدامة الحزن فى الإنسان .

فالإنسان يسعد بالنعيم فى الدنيا ويُسَرُّ به ، لكن يُنغِّصه عليه مخافة زواله ، فيعيش مهموماً حزيناً ، يخاف أنْ تفوته النعمةُ أو يفوتها هو بالموت . أما فى الآخرة فلا يفكر المرء فى شىء من هذا أبداً ، فقد ذهب هذا الفكر مع ذهاب الدنيا ، والجزاء فى الآخرة باقٍ دائم ، لا يفوتك ولا تفوته .

وقولهم : ﴿ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) ﴾ [فاطر] كأنهم يتهمون أنفسهم بالتقصير ، وأنهم ما أدَّوا حق الله كما ينبغى ، وأن ما هم فيه من النعيم ما هو إلا لأن ربهم غفور يتجاوز عن تقصيرهم ، وشكور يشكر لهم العمل الصالح بعد أنْ وفَّقهم له وأعانهم عليه .

ثم يذكر الحق سبحانه إقرارهم بما وهبهم الله من نعيم ، فيقول :

﴿ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾

معنى : ﴿ أَحَلَّنَا (٣٥) ﴾ [فاطر] أدخلنا وجعلها محلاً لنا ﴿ دَارَ ٱلْمُقَامَةِ (٣٥) ﴾ [فاطر] أى : الإقامة الدائمة والمراد الجنة ، فالجنة دار إقامة دائمة . أما الدنيا فما هى إلا معبر إلى الآخرة ، ولا تُسمَّى دار إقامة . وهذه الجنة جعلها الله محلاً لهم ليس بأعمالهم ، إنما بفضل من الله وتكرُّم ، حتى إنْ كان لك عمل صالح فهو راجع إلى تشريع الله لك . إذن : كله يعود إلى فضل الله.

وقولهم : ﴿ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا (٣٥) ﴾ [فاطر] أى : فى الجنة ﴿ نَصَبٌ

﴿ (٣٥) ﴾ [فاطر] أى : تعب ومشقة ﴿ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) ﴾ [فاطر] يعنى : إعياء وفتور نتيجة التعب من حركات الأجهزة . والإنسان منّا فى سعيه فى الدنيا يتعرض لكثير من المشاق ، حتى أننا نقول يضرب فى الأرض يعنى : يسعى فكأنها عملية مرهقة شاقة يعود الإنسان منها مُتْعباً مُنْهكاً ، هذا هو اللُّغُوب إلى أنْ ترتاح منه وتستجم ، وتعود لك قوتك ونشاطك للعمل من جديد .

ومن هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ (٣٨) ﴾ [ق]

وقال بعضهم : النَّصَب : تعب الجوارح . واللغوب : تعب الصدور ، ويُراد به الهم الذى يشغل بال الإنسان .

وهذا المعنى قال فيه شوقى رحمه الله :

لَيْسَ بحِمْلٍ مَا أطَاقَ الظهْرُ ... مَا الحِمْلُ الاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْرُ

والإمام على رضى الله عنه لما سُئِل عن أشدِّ جنود الله فى الأرض ، قال : الهَمّ . فإنْ تسلط على إنسان أقلقه وأقضَّ مضجعه ، لذلك قالوا : والهمّ يغلب النوم ، فكان أشد منه[1] ، وما يزال الهم بالإنسان حتى يصير نحيلاً بعد البدانة ، كما قال المتنبى:[2]

---

(١) ذكره أبو على القالى فى ذيل الأمالى والنوادر (٢/١٩٣) أن على بن أبى طالب قال : أشد جنود ربك عشرة : الجبال الرواسي ، والحديد يقطع الجبال ، والنار تذيب الحديد ، والماء يطفيء النار ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض يحمل الماء ، والريح تقطع السحاب ، وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشىء ويمضى لحاجته ، والسُّكْر يغلب ابن آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهمُّ يغلب النوم ، فأشد خلق الله عز وجل الهمُّ .

(٢) المتنبى هو أحمد بن الحسين بن الحسن الكندى ، أبو الطيب ، ولد بالكوفة ٣٠٣ هـ شاعر حكيم ، نسب إلى كندة بالكوفة ونشأ بالشام ، قال الشعر صبياً ، وتنبأ فى بادية السماوة لذلك سمى بالمتنبي ولكنه تاب ورجع عن دعواه ، مدح كافور الإخشيدى بمصر ثم هجاه ، ومدح عضد الدولة بن بويه فى شيراز ، توفى قتيلاً عام ٣٥٤ هـ .

وَالهَمُّ يختَتِمُ[1] الجَسِيمَ نَحَافَةً ... وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهرِمُ

بعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه وتعالى عن أهل الإيمان المصطفين من عباده ، وعن جزائهم في جنات عدن لتستبشر النفس ، وتتفتح إلى بشارات الأتقياء يذكر سبحانه ما يقابل ذلك من نذارات الأغبياء ، وذكْر المقابل يزيد المعنى وضوحاً ، وهو سمة من سمات الأسلوب القرآني ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

وقوله سبحانه : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) ﴾ [التوبة]

كذلك هنا يقول سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) ﴾

اللام في ﴿ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ (٣٦) ﴾ [فاطر] تفيد الملكية والاختصاص ، كما تقول : فلان له كذا وكذا ، فكأنهم يتعلَّقون بها ، وهي تتعلق بهم تعلُّق المالك بالمملوك ، وساعة يدخلونها والعياذ بالله يودُّون الخلاص منها ولو بالموت ، على حدِّ قول الشاعر :

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى المَوْتَ شَافِياً ... وَحَسْبُ المَنَايَا أَنْ يَكُنَّ أَمَانِيا[2]

(١) الصواب : (والهم يخترم) كما في ديوان المتنبي ، وهو من قصيدة له من بحر الكامل عدد أبياتها ٣٦ بيتاً ، وأشهر أبيات هذه القصيدة هو قوله :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله ... وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

(٢) هذا البيت للمتنبي أيضاً وهو مطلع قصيدة له في ديوانه ، وهي من بحر الطويل ، عدد أبياتها ٤٧ بيتاً .

نعم : يتمنَّوْنَ الخلاص ولو بالموت ، لكنْ هيهات لهم ذلك ، وهذا المعنى واضح في قوله تعالى في موضع آخر : ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧)﴾ [الزخرف] فالموت ليس عذاباً ، بل هو بالنسبة لهم راحة من عذاب أشدّ وأبْقى .

وأذكر أن بعض المستشارين ادعى أن كتاب الله ليس فيه دليل على رَجْم الزانية المحصنة ، واستدل على ذلك بقوله تعالى في الإماء: ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ (٢٥)﴾ [النساء]

على اعتبار أن الرجم لا يتجزأ ليكون فيه نصف رجم ، وما دام الرجم لا يتجزأ فلا رجمَ إذن . فربنا سبحانه وتعالى ألهم وقلنا والحمد لله : علينا أن نحدد أولاً ما العذاب ؟ العذاب : إيلام حَيٍّ ، وإذا ما جمعنا آيات القرآن في الموضوع بعضها إلى بعض ، وَضُحَتْ لنا الصورة وظهر المعنى ، فالله يقول في قصة هدهد سليمان عليه السلام : ﴿لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ (٢١)﴾[النمل] إذن : الموت أو الذبح أو القتل ليس عذاباً . والرجم إماتة ، والإماتة إنهاء للعذاب .

والحق سبحانه وتعالى حين قال هذا النص شاء الله سبحانه أن يجعل لنبيه ﷺ بياناً بهذا النص ، وفَرْق بين حكم تأخذه بالنص ، وحكم تأخذه بالتطبيق الفعلي من المشرِّع ﷺ ؛ لأن النص يمكن لك أنْ تؤوله ، أما التطبيق الفعلي من رسول الله فلا تأويلَ فيه ، وقد ثبت أن رسول الله رجم بالفعل .

ولو كان الأمر كما يدَّعي المستشار لكانت الآية : فعليهن نصف ما على المحصنات دون أنْ تذكر العذاب ، فقوله تعالى : ﴿مِنَ الْعَذَابِ (٢٥)﴾[النساء] يعني : لا من غيره ، فهو بيان للنصف ، نصف العذاب ، والرجم ليس عذاباً ، بل إنهاء للعذاب .

ثم يخبر سبحانه عن حال أهل النار ﴿ ولا يخفف عنهم من عذابها (٣٦) ﴾ [فاطر] أي : أنه عذاب دائم لا ينقطع ولا يفتر ، فالإنسان مثلاً في الدنيا قد يُبتلى - والعياذ بالله - بأنْ يُعتقل ويُضرب مثلاً ليُقرّ بما حدث ، إلى أن يصير جسمه جسماً (أطرش) يعني : لا يشعر بالألم لكثرة الضرب ؛ لذلك مثل هؤلاء يُضرب جَلْدة ، أو عدة جلدات ، ثم لا يشعر بعدها بشيء ، ويصدق فيه قول الشاعر :

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الهَوَانُ عَلَيْهِ ... مَا لجُرْحٍ مَيِّتٍ إيلامُ [1]

أو قَوْل الآخر :

وكنتُ إذَا أصَابَتْنى سِهَامٌ ... تَكسَّرَتِ النِّصَالُ على النِّصَالِ [2]

إذن : عذاب الدنيا قد يُخفَّف ، ولو بهذه العادة الرديئة ، وهي فقدان الإحساس بالعذاب حين يفقد الجلد اتصاله بالمخ ، أما عذاب الآخرة فلا يُخفَّف عنهم مهما طال بهم ؛ لذلك يقول تعالى في موضع آخر : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب (٥٦) ﴾ [النساء]

---

(١) هذا البيت للمتنبي أيضاً ، وهو من قصيدة مطلعها :

لا افتخَارٌ إلاَّ لمَنْ لاَ يُضامُ ... مُدْرِك أوْ مُحاربٍ لاَ ينَامْ

وهي في ديوانه من بحر الخفيف ، عدد أبياتها ٤٢ بيتاً .

(٢) هذا البيت قاله عدة شعراء مع اختلاف في صدره واتحاد العجز :

- إبراهيم الطباطبائي : فصار إذا أصابته سهام
- أحمد الغروي : فصرت إذا أصابتني سهام
- المتنبي : فصرت إذا أصابتني سهام
- جرمانوس فرحات : فصرت إذا أصابتني سهام
- حفني ناصف : ولاقت مثلها الصعدات حتى
- عبد الرحمن الموصلي : وصار إذا أصابته سهام

فهو للمتنبي أيضاً من قصيدة له في ديوانه من بحر الوافر ، عدد أبياتها ٤٥ بيتاً ، فهو السابق إلى هذا المعنى بهذا اللفظ .

﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧)﴾

معنى ﴿يَصْطَرِخُونَ (٣٧)﴾ [فاطر] أي : يصرخون ويصيحون مستغيثين طالبين للنجدة . والصراخ : استنجاد بمَنْ يخلصك من شدة أو ضائقة أو عذاب ، ومثل هذا الصوت نسمعه مثلاً حين يشبُّ حريق لا قدَّر الله ، فيصرخ الناس طلباً للمساعدة .

وهؤلاء يصطرخون ﴿فِيهَا (٣٧)﴾ [فاطر] أي : في النار يقولون في صراخهم ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ (٣٧)﴾ [فاطر] أولاً : عجيب منهم أن يقولوا الآن (ربنا) هذه الكلمة التي أنكروها في الدنيا ، وكفروا بها ، الآن ينطقونها ، لكن بعد فوات أوانها . ثم أقرُّوا على أنفسهم بأن عملهم في الدنيا لم يكُنْ صالحاً ، وهذه حيثية تُحسب عليهم لا لهم ، وتزيد من عذابهم لا تُخففه عنهم .

ثم لو أجابهم الله - وهيهاتَ لهم ذلك - هل سيعملون صالحاً كما يقولون ؟ لقد علم الله كذبهم ، فقال سبحانه ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام]

إذن : هذا مجرد كلام حين الضائقة ، ولو رجعوا لعادوا لما كانوا عليه ؛ لذلك يرد الله عليهم ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ .. (٣٧)﴾ [فاطر] يعني : مددنا لكم العمر في الدنيا بما يكفي للتذكُّر وللاعتبار لمَنْ أراد أنْ يتذكر أو يعتبر .

﴿وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ (٣٧)﴾ [فاطر] الرسول الذي ينذركم ويحذركم من

عاقبة أفعالكم ، ومع ذلك لم تعودوا إلى الجادة ، ولم تراجعوا أنفسكم إلى أن فات الأوان .

﴿ فذوقوا فما للظالمين من نصير (٣٧) ﴾ [فاطر] أي : ذوقوا العذاب ، ومعنى ﴿ من نصير (٣٧) ﴾ [فاطر] أي : مُعين . والنصير هو الذي يدفع عنك بقوة ، ويدخل معك المعركة ، وفي موضع آخر يقول سبحانه ﴿ من وليٍ ولا نصير (٣١) ﴾ [الشورى] والولي : هو القريب الذي يدفع عنك برجاء واستمالة وتحنين ، وهؤلاء لا لهم وليٌّ ، ولا لهم نصير في هذا الموقف .

ثم يقول الحق سبحانه

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٣٨) ﴾

جاءت هذه الآية كتعليل لما قبلها ، فالحق سبحانه يعلم كل ما غاب في السموات وفي الأرض ، ويعلم خفايا الصدور ومكنوناتها ونواياها وما يعلق بها ، وقد علم سبحانه نوايا أهل النار ، وعلم أنهم لو رجعوا إلى الدنيا لعادوا لما كانوا عليه ، فهذه تجربة لن تتكرر ؛ لذلك أنهى الله معهم هذا الموقف ، وحكم بعدم رجوعهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) ﴾

معنى : ﴿ خَلَائِفَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فاطر] خلفاء : يخلف بعضكم بعضاً . وفي آية أخرى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [البقرة] أي : خليفة لله في أرضه ؛ لذلك وهبنا الله صفات من صفاته سبحانه ، لنباشر بها مهمتنا في الأرض ، فإنْ وجدتَ فينا قدرة على العمل فهي من قدرة الله، وإنْ وجدت في تصرفاتنا حكمة فهي فيض من حكمة الله ، وإنْ وجدت فينا عزة فهي من عزة الله .. الخ .

هذا هو معنى الخلافة ؛ لأن الإنسان حين يتأمل ذاته يجد أن كلَّ ما فيه موهوب له من خالقه سبحانه ، ليس ذاتياً فيه .

وسبق أنْ قلنا مثلاً : إنك لمجرد إرادتك أنْ تقوم من مكانك تجد نفسك قد قُمْت دون أنْ تعرف ماذا حدث في أعضائك وعضلاتك ، وكيف صدرت الأوامر لهذه العضلات أنْ تتحرك ، هذه في الحقيقة صفة من صفات الخالق سبحانه وهبك شيئاً منها ، بدليل أنه سبحانه إنْ سلبك هذه القوة لا تستطيع القيام ، وقد سلبها بالفعل من غيرك ليبين لك أن قوتك ليست ذاتية فيك ، فلا تغترَّ بها .

تلحظ مثلاً بعد تطور الصناعة أن العلماء استخدموا حركات البشر في صناعة (الأوناش والبلدوزرات) فترى الحركة الواحدة تحتاج إلى عدة حركات من الآلة ، وتحتاج إلى أنْ يضغط السائق على زرٍّ معين لهذه الحركة ، أما أنت فلا تحتاج في حركة أعضائك إلى شيء من هذا .

فبمجرد أن تريد الفعل تفعله وتتفاعل معك أعضاؤك وعضلاتك ، وتؤدي لك ما تريد منها دون أن تشعر أنت بشيء ، فإذا كنتَ أنت وأنت مخلوق لله تعالى حين تريد شيئاً تفعله دون أنْ تأمر عضواً من أعضائك ، ولا عضلة من عضلات جسمك ، فما بالك بالخالق سبحانه ؟

أتنكر أنه سبحانه يقول للشيء كُنْ فيكون ؟ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [يس]

أنت حينما تريد حركة لا تأمر شيئاً من أعضائك ، لأنك لا تعرف أيُّها تأمر ، فالأعضاء والعضلات والأعصاب أشياء متداخلة ، ولا تدرى أنت ما يدور بداخلك لتؤدى هذه الحركة ؛ لذلك سوَّاك الخالق سبحانه على صورة تنفعل لك أعضاؤك بمجرد إرادتك ، أما الخالق سبحانه فيأمر الأشياء ويقول لها : كُنْ . لأنه سبحانه يعلم الآلة التى تتحرك .

وأيضاً الخالق سبحانه لم يترك لك أمراً على جوارحك ، إنما ذلَّلها لك وطوَّعها لإرادتك ؛ لأنك لا تضمن إنْ أمرتها أنْ تطيعك وتستجيب لك ، أمّا الخالق سبحانه فإن أمر الأشياء أطاعته ، بدليل أن الإنسان حين يُسْلَب القدرة على الحركة ، أو حين يصيبه هذا المرض والعياذ بالله يريد أنْ يحرك أصبعاً من أصابعه فلا يستطيع .

والحق سبحانه وتعالى قبل أنْ يستدعى الخليفة إلى الوجود خلق له قبل أن يخلقه ، وضمن له قُوتَه ومُقومات حياته وضرورياتها إلى قيام الساعة ، ثم ترك للعقول أن تعمل ، وأن تستنبط من الضروريات ما يُترف الحياة ويثريها .

إذن : أنت أيها الخليفة لله فى الأرض ليس لك إلا أن تستقبل أمر الله فى (افعل كذا) و (لا تفعل كذا) بالطاعة والانقياد ، فإنْ كفرتَ بعد ذلك ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ [فاطر] كفرت يعنى لم تُطع افعل ولا تفعل ، والكفر يعنى الستر ، وكفر بالله يعنى : ستره ، كأن الله كان ظاهراً ، فستره الكافر بكفره ؛ لذلك قلنا : إن الكفر أول دليل على الإيمان ، فلولا وجود الله ما كان الكفر .

وكما أن هناك كفراً بالله الذى استخلفك ، هناك كفر بما استُخلِفْتَ فيه ، كُفْر بالنعمة بأنْ تنسى واهبها لك والمنعِم عليك بها ، ومن كفر

النعمة أن تكسل عن استنباطها واستخراجها من باطن الأرض ، وتتركها مطمورة لا ينتفع الناس بها ، ومن كُفْر النعمة أيضاً ألاَّ تؤدى حقَّ الله فيها ، وأنْ تسترها عن مُستحقها المحتاج إليها .

وما يعانيه العالم الآن من أزمات في القوت ومجاعات ما هو إلا نتيجة طبيعية لكفر النعمة ، إما بالتكاسل والقعود عن استنباطها ، وإما نستنبطها لكن تشح بها نفوسنا وتبخل ، بدليل أننا عِشْنا فترة طويلة في الوادى الضيق ، ولم نحاول استنباط خيرات الصحراء ، فلما تنبهنا إلى ضرورة غزو الصحراء وتعميرها أصابنا هوس الاستنباط ، فزرعنا الترف ولم نزرع الضروريات فتجد السوق عندنا مليئاً بالبرتقال والموز والعنب والكنتالوب والفراولة .. الخ ونحن (نشحت) رغيف العيش ، ونستجدى غيرنا ضروريات حياتنا .

إذن : الجزاء هنا من جنس العمل ﴿ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ (٣٩) ﴾ [فاطر] أى : يُجزى به ، فالذى كفر بالمنعم له جزاؤه ، وجزاؤه العذاب في الآخرة ، والذى كفر بالنعمة له جزاؤه ، وجزاؤه أنْ يموت جوعاً وأنْ يُذلَّ لغيره ، وإنْ ذُلَّ لغيره فلن ينفذ أمراً ولا نهياً ، ولن يهتم بدين ولا بمنهج .

ورحم الله أجدادنا الذين قالوا : (اللى لقمته من فاسه كلمته من راسه) .

ثم يقول سبحانه مُبيِّناً عاقبة الكفر ﴿ وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتًا وَلا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَارًا (٣٩) ﴾ [فاطر] نعم ، الكفر يُزيد صاحبه مَقْتاً وكراهية من الله عز وجل : لأنك كفرت بمَنْ ؟ كفرتَ بالله ربك وخالقك ورازقك وواهبك النِّعَم ، وكل كفر بشيء من هذا يستوجب لك كراهية وبُغْضاً من الله ، وهذا البغض يزيد بالاستمرار في الكفر والتصميم عليه ، ثم بعد هذا كله يزيد الكفر صاحبه

﴿ خسارا (٣٩) ﴾ [فاطر] وأيُّ خسارة بعد الكفر بالله ، الخسارة هنا كبيرة ؛ لأنها هلاك وخسران لخيرَيْ الدنيا والآخرة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) ﴾

الخطاب في (قل) لسيدنا رسول الله ﷺ ﴿ أرأيْتُمْ شُركاءكُمُ الَّذين تَدْعُونَ من دُونِ اللَّه (٤٠) ﴾ [فاطر] يعني أخبروني عنهم ، وليست مجرد استفهام عن الرؤية كما لو قُلْتُ لك : أرأيتَ فلاناً أمس ؟ تقول : نعم أو لا . أما هنا فالمراد الإخبار عن الحال وطلب منهم هم أنْ يخبروا عن حال شركائهم الذين عبدوهم من دون الله ، وجعلهم هم أنفسهم حَكَماً في هذه المسألة .

﴿ أَرُوني مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ (٤٠) ﴾ [فاطر] يعني : أخبروني إنْ كانوا هم انفردوا بالخَلْق ﴿ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَـوَات (٤٠) ﴾ [فاطر] يعني : شاركوني الخَلْق وكانت أيديهم بيدي يخلقون معي ﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْهُ (٤٠) ﴾ [فاطر] كتاباً يبيح لهم الشرك ، ويكون حُجَّة لهم في شركهم .

والحق سبحانه وتعالى يشرح لنا هذه القضية في موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

فالحق سبحانه لا ينفي مشاركتهم له سبحانه في الخلق فحسب، إنما ينفي مجرد مشاهدتهم لهذه المسألة، فليس لهم علْم بالخَلْق ولا صلةَ لهم به، ولا يستطيعون أنْ يخبروا كيف خُلقت السموات والأرض، ولا كيف خُلقوا هم أنفسهم.

ثم يقول سبحانه ﴿ بَلْ (٤٠) ﴾ [فاطر] وهي إضراب عن الكلام السابق، وإثبات للحكم بعدها ﴿ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلاَّ غُرُورًا (٤٠) ﴾ [فاطر] وإنْ هنا بمعنى ما النافية، يعني: ما يَعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً، والغرور هو الخداع الذي يُلبس الباطلَ ثوبَ الحق؛ ليجذب الناس إليه، ويزخرفه لهم ليغرَّهم به.

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) ﴾ [الانفطار] يعني: ما أغراك بمعصيته؟ وما شجَّعك على عصيان أوامره؟ وكأن الحق سبحانه يُعلِّمنا الرد بقوله تعالى (الكريم) فالذي غرَّنا بالله كرمه وفضله.

فالمعنى: بل كل هذا باطل، فشركاؤهم ما خلقوا شيئاً، وما شاركوا في خَلْق شيء، ولا آتيناهم كتاباً يكون حُجَّة لهم، كل هذا خداع منهم وزخرفة، والحقيقة أنهم يَغُرُّ بعضُهم بعضاً، ويخدع بعضهم بعضاً بهذه الأباطيل.

ثم يقول الحق سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤١) ﴾

نَعَم ، الله وحده هو الذي يُمسك السموات أنْ تقع على الأرض ويمسك السموات والأرض أن تزولا يعني : تتحرك من أماكنها ، وتسقط وتتهدم ، ولو تركها الخالق سبحانه ما استطاع أحد أنْ يُمسكهما ﴿ مِنْ بَعْدِهِ ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر] أي : سواه ، وهذه المسألة لله وحده ، ليس له فيها شريك ولا معارض ، وهي من صميم ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ﴾ [الإخلاص]

والحق سبحانه يمسك السموات والأرض أنْ تزولا ، لأنه سبحانه خلق السموات بغير عَمَد ، وبغير دعائم تحملها ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [لقمان]

وأرني غير الله يستطيع أنْ يرفع هذه القبة الزرقاء هكذا بغير عَمَد ، إن قصارى ما وصل إليه التقدم البشري بناء كوبري مثلاً يمتد لعدة مترات بدون دعائم في وسطه ، مع أنهم يستعيضون عن ذلك بدعائم أقوى في أطرافه ، بحيث تحمل الوسط وتشده ويسمونها الكباري المعلَّقة ، فأين هذا من رفع السماء ؟ والسماء كما قلنا : هي كلُّ ما علاك ، فالله يمسك السماء بما فيها من نجوم وأقمار وكواكب ومجرات ، ويمسك الأرض أنْ تميد بأهلها ، وأن تضطرب بهم .

ولما تكلم العلماء في هذه المسألة قالوا : إنها الجاذبية التي تمسك الأشياء ، لكن إنْ كانت الجاذبية للأرض ، فلماذا لم تجذب النجوم مثلاً ، وهي بين السماء والأرض ؟

إذن : المسألة قدرة إلهية ، ونظام للكون مُحكم ، يجعل لكل مخلوق في السموات والأرض ما يحفظ توازنه ويمسكه أنْ يقع .

و(إنْ) في قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا ﴿٤١﴾ ﴾ [فاطر] يعني ما يمسكهما ، فهي بمعنى أداة النفي ، كما في قوله تعالى : ﴿ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ﴿٢﴾ ﴾ [المجادلة]

وتُختم الآية بقوله تعالى : ﴿ إنَّهُ كانَ حليماً غفوراً (٤١) ﴾ [فاطر] ولك أنْ تسأل : ما علاقة هاتين الصفتين لله تعالى الحليم والغفور بمسألة إمساك السموات والأرض ، وهي مسألة كونية ؟

قالوا : لأن هذه المسألة يكثر حولها الجدال ، وكثيراً ما يتعدى الإنسانُ حدوده فيها ، فيسأل عمَّا لا ينبغي له الخوض فيه ، وعن كيفية إمساك السموات والأرض ، وهو يمشي في أنحاء الأرض ، ويركب الطائرة في جَوِّ السماء ، فلا يرى شيئاً ، ولا يرى أعمدة .

وهذه مسألة لا دخلَ لنا فيها ، ويكفي أن الخالق عز وجل أخبرنا عنها بقوله : ﴿ خلق السَّمَـٰوات بغَيْر عمَدٍ ترَوْنَها (١٠) ﴾ [لقمان] أي : لا يوجد لها عُمد بالفعل ، أو لها عمد ، لكن لا ترونها ويصح المعنيان ، وعلينا أنْ نقف عند هذا الحدِّ .

فالحق سبحانه حليم لا يعاقب المتجرئين عليه ، الخائضين في حقه ، بل إن المنكرين لوجوده سبحانه لا يعاجلهم بالعقوبة ، ولولا حِلْمه تعالى كان (دربكها) على رؤوسهم .

وقد ورد في الحديث القدسي : « قالت الأرض : يا رب ائذن لي أنْ أخسف بابن آدم ، فقد طَعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت السماء : يا رب ائذن لي أنْ أسقط كسفاً على ابن آدم ، فقد طَعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت الجبال : يا رب ائذن لي أنْ أسقط على ابن آدم ، فقد طعم خيرك ومنع شكرك ، وقالت البحار : يا رب ائذن لي أنْ أُغرق ابن آدم فقد طَعم خيرك ومنع شكرك . فقال تعالى : دعوني وخَلْقي ، لو خلقتموهم لرحمتموهم ، إنْ تابوا إليَّ فأنا حبيبهم ، وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم ..»[1]

---

(١) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (٤/٥٢) من قول بعض السلف ولفظه « ما من عبد يعصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به ، واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفاً ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء : كُفَّا عن عبدي وأمهلاه فإنكما لم تخلقاه ، ولو خلقتماه لرحمتماه ولعله يتوب إليَّ فأغفر له ، ولعله يستبدل صالحاً فأبدله له حسنات».

إذن : لولا حلْم الله علينا ومغفرته لذنوبنا ما أمسك السموات والأرض ، ولتهدَّم هذا الكون على مَنْ فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ جهْد أيْمَانهم (٤٢) ﴾ [فاطر] أى : اجتهدوا فى القَسَم والحلَف بأغلظ الأيمان ﴿ لئن جاءهم نذير (٤٢) ﴾ [فاطر] رسول ﴿ ليكونن أهْدَىٰ (٤٢) ﴾ [فاطر] أشد هداية ﴿ من إحْدَى الأُمَم (٤٢) ﴾ [فاطر] أى : أهْدى من الأمم السابقة يعنى : سيكونون فى المقدمة .

والحق سبحانه يُوضِّح لنا هذا المعنى فى موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ وإن كانُوا ليقُولُونَ (١٦٧) لوْ أنَّ عندنَا ذكْرًا مّنَ الأوَّلين (١٦٨) لكُنَّا عبادَ اللَّه الْمُخْلَصينَ (١٦٩) ﴾ [الصافات]

وهذا كله قولهم بأفواههم ، ويعلم الله أنهم كاذبون ، لكنه سبحانه يُرخى لهم العنان ، ولا يكشف هذا الكذب فيقول لهم : دَعْكم من الأوَّلين ، وها هو الذكر الذى طلبتم وقلتم إنكم ستكونون به أهدى الناس ، والمراد هنا رسالة محمد ﷺ .

﴿ فلمَّا جاءهُمْ نذيرٌ مَّا زَادهُمْ إلاَّ نُفُورًا (٤٢) ﴾ [فاطر] يعنى : إعراضاً وتباعداً عن الحق وعن الهداية ، لماذا ؟ لأن الذكْر الذى جاءهم جاء على يد محمد ، ولو جاء على يد رجل عظيم كما يقولون لَقَبلوه : ﴿ وقالُوا لوْلا نُزّل هَـٰذا الْقُرآنُ علَىٰ رجُلٍ مّن الْقرْيتيْن عظيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] فيرد

الله عليهم : ﴿ أهم يقسمون رحمت ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات (٣٢) ﴾ [الزخرف]

عجيب منهم أنْ يريدوا قسمة رحمة الله على هواهم واختيار رسول الله كما يحبون ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

كيف والله قد قسم بينهم أبسط أمور حياتهم في الدنيا ، فجعل هذا غنياً ، وهذا فقيراً ، وهذا قوياً ، وهذا ضعيفاً .

لكن هذا القول منهم دليل على أن القرآن عندهم لا غبارَ عليه ، وأنهم لا يُكذِّبون به مع أنهم قالوا عنه إنه سحر ، وأنه كهانة ، وأنه شعر ، ومع هذا يعترفون بأن القرآن لا غُبارَ عليه ، لكن آفته أنه نزل على محمد بالذات .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه عِلَّة نفورهم ، فيقول :

﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) ﴾

نعم ، استكبروا على الحق ، فلم يقبلوه ، لماذا ؟ لأن هذا الحق جاء ليُنزلهم من عالي السيادة إلى العبودية المقترحة المستطرقة بين كل الخَلْق ، وهم ألفوا السيادة وتشقّ عليهم المساواة ، وأن يكونوا هم وعبيدهم كأسنان المشط .

وكأن الحق سبحانه يرد عليهم : يا مَنْ تستكبرون عن قبول الحق بما لكم من السيادة ، أمَا كان يليق بكم أنْ (تخزوا) على

عرضكم ، وتسالوا أنفسكم : منْ أين لكم هذه السيادة ؟

بالله ، لو أن الله تعالى مكَّن أبرهة من هدم الكعبة في حادثة الفيل ، وانصرف الناس إلى كعبة أخرى في صنعاء ، أكانت لكم سيادة ؟ أكانت لكم مهابة أو ذكْر بين الناس ؟ إذن : كان عليكم أنْ تُعملوا عقولكم ، وأن تتأملوا هذه المهابة من أين ، وهذه الأرزاق التي تُساق إليكم من أين ؟ لقد كنتم تُحرِّمون على الناس أنْ يطوفوا بالبيت إلا وهم عرايا ليشتروا منكم الثياب .

واقرأوا قول الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ [الفيل]

لماذا فعل الله هذا بأصحاب الفيل ؟ يجيب الحق سبحانه في السورة بعدها : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

يعني : ما فعلتُ هذا بأصحاب الفيل إلا من أجل قريش ، واستبقاء سيادتها ، وتوفير القوت والأمن لها ، لكنهم مع هذا كله استكبروا على منهجي وصادموا رسولي ، وعاندوه وكادوا له .

﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ (٤٣) ﴾ [فاطر] أي : برسول الله ، وبمَنْ آمن معه ليردُّوهم عن دينهم ، ولو علموا حيثية استكبارهم لهداهم هذا الاستكبار إلى الإيمان بمَنْ جعلهم كبراء .

ثم يقرر الحق سبحانه هذه الحقيقة : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر] فقد مكروا برسول الله وكادوا له ، وتآمروا عليه ، وآذوا المؤمنين به وعذَّبوهم ، لكن جعل الله كيدهم في نحورهم ، كما

قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ (٣٠) ﴾ [الأنفال] أي : يسجنوك ﴿ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

لقد احتالوا للقضاء على دعوة الإسلام بكل ألوان الاحتيال ، فلم يُفلحوا ، حتى دبروا لقتله ﷺ ، فخيَّبَ الله سَعْيهم ، وخرج رسول الله من بينهم وهم نيام ، وهو يحثو التراب على رؤوسهم ، ثم لما يئسوا من القضاء عليه بالحيلة لجئوا إلى الجن ، واستعانوا بهم ليسحروا رسول الله ، لكن نجَّاه الله منهم ، ثم حاولوا دسَّ السُّم في طعامه ﷺ .

وكأن الله تعالى يقول لهم : وفِّروا جهودكم ، فلن تُطفئوا نور الله، ولن تصدوا محمداً عن دعوته ، لا بالاستهزاء والسخرية ، ولا بالإيذاء والمكر والتبييت ، ولا حتى بالسحر .

ومعنى : ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ (٤٣) ﴾ [فاطر] يعني : ينزل بهم ويحيط بهم ، وينقلب عليهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ (٤٣) ﴾ [فاطر] يعني : فما ينظرون إلا سنت الأولين في الرسل السابقين ، والسنة هي الطريقة والعادة المتبعة والموجودة ، فهل وجدوا في الرسل السابقين وفي الأمم السابقة أن الله أرسل رسولاً ثم خذله ، أو تخلَّى عنه ، ولم يهلك أعداءه والمكذبين به ؟ إن نصرة الرسل سُنَّة متبعة ، كما قال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [الصافات]

ثم يؤكد الحق سبحانه هذا المعنى فيقول : ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) ﴾ [فاطر] لماذا لا تتبدَّل سنة الله ولا تتحوَّل ؟ لأن الله تعالى أولاً ليس عنده بداء ، ومعنى البداء أنْ تفعل شيئاً ثم يَعِنّ لك أنْ تفعل

أحسن منه ، وأيضاً لأنه سبحانه إله واحد ، لا ثانى له ، ولا شريك له ، فلا أحدَ يستدرك عليه ، أو يُغير فعله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) ﴾

الاستفهام فى ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا .. (٤٤) ﴾ [فاطر] استفهام يفيد التعجُّب ، يعنى : كيف يكون منهم هذا ﴿ أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم (٤٤) ﴾ [فاطر] أى من المكذّبين الذين أخذهم الله ﴿ وكانوا أشدّ منهم قوة (٤٤) ﴾ [فاطر]

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين (١٣٧) وبالليل أفلا تعقلون (١٣٨) ﴾ [الصافات]

نعم ، كانوا فى حركة حياتهم وفى أسفارهم يمرُّون على قُرى عاد وثمود ، وقوم لوط وقوم صالح .. الخ وكانوا يرونَ آثارهم وما حَاق بهم من الدمار والخراب بعد أنْ كذَّبوا رسلهم ، وكانوا أصحاب حضارات وعمارة وقصور لا مثيل لها .

كما قال سبحانه : ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد (٦) إرم ذات العماد (٧) التى لم يخلق مثلها فى البلاد (٨) وثمود الذين جابوا الصخر بالواد (٩) وفرعون ذى الأوتاد (١٠) الذين طغوا فى البلاد (١١) فأكثروا فيها الفساد (١٢) فصب عليهم ربك سوط عذاب (١٣) إن ربك لبالمرصاد (١٤) ﴾ [الفجر]

والعجيب أن أصحاب هذه الحضارات التى جابت سمعتُها الآفاق لم يستطيعوا أن يضعوا لحضاراتهم ما يصونها من الاندثار .

ولنا ملحظ فى قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ ﴿٤٤﴾ ﴾ [فاطر]

فمنذ عهد قريب كنا نعتقد أن السير فى الأرض يعنى على الأرض ؛ لأننا نسير عليها لا فيها ، إلى أن اكتشفنا أن الأرض فيها الأقوات ، وسيد الأقوات الهواء ، بدليل أنك تصبر على الماء لعدة أيام ، وتصبر أكثر منها على الطعام ، لكنك لا تصبر على الهواء إلا بمقدار شهيق أو زفير ، لو حُبس عنك لفارقتَ الحياة .

وعرفنا أن هواء الأرض من الأرض ؛ لذلك يدور معها ويرتبط بها إذن : نحن بهذا المعنى لا نسير على الأرض ، إنما نسير فيها ، حتى الذى يحلق بالطائرة فى طبقات الجو العليا أيضاً يسير فى الأرض ؛ لأن الهواء من الأرض ، وهو أصل قوامها نفساً وقوتاً .

وليتأكد لك أن الهواء سيد الأقوات ، إجر هذه التجربة ، خذ إصيصاً أو برميلاً مثلاً وضَعْ فيه تربة زراعية بوزن معين ، وازرع فيه شجرة مثمرة كالموز مثلاً ، وبعد فترة زِنْ الثمار التى أخذتها من الشجرة وزِن ما نقص من التربة ، وسوف تجد أن التربة نقصتْ بمقدار خمسة بالمائة ، أما نسبة الخمسة والتسعين فمن الهواء .

فكأن الهواء هو المغذِّى الأساسى للنبات ؛ لذلك نقول : إنه الأصل فى القوت ، على خلاف ما كنا نعتقده من أن التربة هى الأصل فى القوت ، لذلك يشير القرآن إلى هذه المسألة ، فيقول

سبحانه : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا[1] التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم (٦٦) ﴾ [المائدة] فذكر الفوقية قبل التحتية .

الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا .. (٤٤) ﴾ [فاطر] يريد من الكفار أنْ ينظروا إلى مواقع الحياة ، لا إلى كلامنا ، ولا إلى كلامهم ، بل واقع الحياة المشاهَد ، فقال ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا (٤٤) ﴾ [فاطر] لأنهم ساروا بالفعل ؛ لذلك لا يأمرهم هنا بالسير ، بل يقرر واقعاً حدث بالفعل ؛ لأنهم كانوا أمة لها تجارة فى الصيف إلى الشمال ، وفى الشتاء إلى الجنوب .

وفى هذه الأسفار رأوا الكثير من آثار مَنْ سبقهم ، فهل رأوا فى السابقين رسولاً هُزِم من المكذبين به ؟ لقد هزم الله المكذبين والكافرين ، وكتب النصر للمؤمنين الصادقين ، وهؤلاء الذين أخذهم الله كانوا أشدَّ منهم قوةً ، لكنها قوة البشر مهما بلغتْ من التقدم ماذا تفعل أمام قوة الله ، فلا تنظر إلى قوة الرسول ، لكن انظر إلى قوة مَنْ أرسله ، ومَنْ تكفَّل بحفظه ونصرته .

إذن : هذه معركة ليست بين خَلْق وخَلْق ، إنما بين خَلْق معاندين للخالق سبحانه ، فهل تُعجِزون الله ؟ لذلك ينفى الحق سبحانه أنْ

---

(١) بعض الذين لم يفهموا القرآن أو الذين لا يريدون أن يفهموا يطعنون فى القرآن بأنه يتناقض مع نفسه ، فمن جهة يرمى أهل الكتاب من اليهود والنصارى بالكفر ، ومن جهة أخرى يطالبهم أن يقيموا التوراة والإنجيل ويطالبهم بالرجوع إليهما كما فى هذه الآية . إنهم يتجاهلون أن الذى أنزل القرآن هو الذى أنزل التوراة على موسى والإنجيل على عيسى ، والإسلام يعترف بالأديان قبله ، فهناك تواصل ، فلماذا يقفون عند حد التوراة والإنجيل ويتجاهلون أن الله أنزل كتاباً يصدق ما بين أيديهم من كتبهم وهو مهيمن عليها حاكم على ما فيها . فلو أقاموا التوراة التى نزلت على موسى ، والإنجيل الذى نزل على عيسى لا ما اخترعوه هم وأضافوه لأدى بهم إلى الإيمان بما أنزل الله عليهم من القرآن . فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة .

يكونوا معجزين ، وينفى أن يكونوا معاجزين ، وفَرْق بين الاثنين : معجز إنْ أعجزه ولو مرة يعنى : أتى بما يعجزه ، إنما مُعاجز فيها مشاركة ومفاعلة ، كأن الإعجاز كان بينهما سِجَال ، وفيه أَخْذ وردٌ .

فكأن الحق سبحانه يُملى لهم ويمهلهم ، فيجعل لهم الغَلَبة فى بعض الجَوْلات ليستنفد كل أنواع الحيل ، ويستنفد كل قُواهم ، إذن : مهما كانت قوتكم ، ومهما استعنتُم وتقوّيتم بحضارات أخرى فلن تُعجزوا الله ؛ لأن الله تعالى لا يُعجزه شىء ، وليس له سبحانه شريك أو مقابل يساعدكم ، فهو إله واحد يساعد المؤمنين به وينصرهم ، وأنتم لا ناصرَ لكم ، والحق سبحانه أهلك المكذِّبين قبلكم ، وكانوا أشد منكم قوةً ، والذى يقدر على الأشدّ أقدر من باب أَوْلىَ على الأضعف .

والحق سبحانه وتعالى حين يريد أنْ يؤكد أمراً واقعياً من الممكن أنْ يأتى به فى صورة الخبر ، فيقول : لقد ساروا فى الأرض ، ورأوا كذا وكذا ، لكن عدل عن الخبر هنا إلى الاستفهام ، يعنى : اسألوهم أساروا أم لم يسيروا ؟

والحق سبحانه لا يسأل هذا السؤال إلا وهو واثق أنهم سيقولون سِرْنا ، وهذا يؤكد الكلام ؛ لأنه إقرار من المخاطب نفسه ، كما أن الاستفهام بالنفى أقوى فى تقرُّر المخاطب من الاستفهام بالإثبات .

ومسألة السير فى الأرض أخذتْ حظاً واسعاً من القرآن الكريم ؛ لأن الله تعالى يريد من الناس أنْ ينظروا إلى الآيات الكونية ، وأنْ يتأملوا فى الكون ليقفوا على أسراره ، وعلى دلائل القدرة فيه ؛ لذلك يأمرنا الحق سبحانه مرّة بقوله : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا (٦٩) ﴾[النمل] ومرة : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِى الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا (١١) ﴾ [الأنعام]

فما الفرق بين التعبيرين ؟

قالوا : السير في الأرض يكون إما للنظر والاعتبار وإما للاستثمار ، فقوله تعالى : ﴿فَانظُرُوا (٦٩)﴾ [النمل] للسير المراد منه الاعتبار والتأمل في آيات الله ، وفي هندسة الكون العجيبة التي تدلُّنا على قدرة الخالق سبحانه .

أما قوله ﴿ثُمَّ انظُرُوا (١١)﴾ [الأنعام] فهي للسير الذي يُراد منه العمل والاستثمار وطلب الرزق ، فحتى إنْ سرْتَ في أنحاء الأرض طلباً للرزق وللاستثمار لا تنْسَ ولا تغفل عن الاعتبار وعن التأمل ، ولا تحرم نفسك من النظر في الآيات وفي مُلْك الله الواسع ، خاصة إذا اختلفتْ البيئات .

فالبيئة الصحراوية البدوية كبادية الحجاز مثلاً تسير فيها لا تكاد ترى فيها أثراً للون الأخضر ، وفي إندونيسيا مثلاً ذهبنا إلى أماكن تكسوها الخضرة ، بحيث لا ترى بقعة من الأرض خالية من النبات ، وفي كل من هاتين البيئتين خيراتها وما يُميِّزها عن الأخرى ؛ لذلك قالوا في المثل : (اللي يعيش ياما يشوف ، واللي يمشي يشوف أكثر) .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً (٤٤)﴾ [فاطر]

سبق أنْ تكلَّمنا في معنى يُعجزه ، الآية هنا لا تنفي أن شيئاً في السموات أو في الأرض يُعجِز الحق سبحانه ، إنما تنفي مجرد أنْ يكون هذا أو يُتصوَّر ، فهذا أمر لا يُتصور ولا يكون أصلاً .

وقوله : ﴿مِن شَيْءٍ (٤٤)﴾ [فاطر] من هنا تنصُّ على العموم يعني :

من بداية ما يقال له شيء كما تقول : ما عندى مال ، فيجوز أنْ يكون لديك مال ، لكن قليل لا يُعْتَدُّ به ، فإنْ قلتَ : ما عندى من مال فقد نفيتَ وجود كل ما يُقال له مال ، مهما كان قليلاً ولو قرشاً واحداً .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ ﴾ [فاطر] يُبيِّن علة أنه سبحانه لا يُعجزه شيء ، فالله تعالى عليم بعلم محيط لا يعزب عنه شيء ، فإن بيَّتوا شيئاً علمه الله وعلم مكانه ، ثم هو سبحانه قدير ، عالم بقدرة ، وهذان هما عُنْصرا الغَلَبة العلم والقدرة ، تعلم الشيء وتقدر أنْ تردَّه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى رحيم يُوالى نعمه حتى على الكافرين به ، والعاصين لأوامره ، ولو أن الله تعالى آخذهم بظلمهم - وظلمهم كثير - ما ترك أحداً منهم ، فلماذا يعاملنا الله هذه المعاملة ؟ ولماذا يمهلنا هذا الإمهال ؟ قالوا : لأنه تعالى ربنا وخالقنا ، ويعلم أن الإنسان ضعيف أمام شهوات نفسه ، ضعيف أمام هواه وأمام شيطانه ؛ لذلك سبق حلْمُه غَضَبه ، وسبق عفوُه مؤاخذته ، وقال سبحانه ﴿ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الشورى]

وورد فى الأثر أن الحق سبحانه يخاطبنا بقوله تعالى : « .. لو

لم تذنبوا لخلقتُ خلقاً غيركم يذنبون ، فيستغفرون فأغفر لهم »[1] وإلاَّ فكيف يُوصَف الحق سبحانه بأنه توَّاب غفَّار ، فالحق سبحانه يريد أنْ يثبت لنفسه سبحانه كل صفات الكمال ، وأولها الوجود الواجب ، ثم الحياة ، وكل الصفات تابعة لهاتين الصفتين .

وهذه الصفات لله تعالى يمكن أنْ تقسم إلى قسمين : قسم له مقابل : وهي صفات الفعْل من الله تعالى ، مثل : المحيي يقابلها المميت ، والمعز يقابلها المذل ، وقسم ليس له مقابل وهي صفات الذات مثل : الحي العزيز القهار الحليم ، فهي صفات لا نقيضَ لها .

والحق سبحانه لا يُؤاخذ الناسَ بما كسبوا ، أي : من التعدي والظلم ؛ لأن الله خلق الإنسان ، وخلق له شهوات وغرائزَ ، وكل أمور الدين جاءت لتُعلي هذه الشهوات ، وتسمو بهذه الغرائز ، لا لتمحوها ، جاءت لتهذبها لا لتقضي عليها ، وإلا لو أن الحق سبحانه أراد ألاَّ تحدث هذه التعديات وهذا الظلم ما جعل الغرائز أصلاً .

فمثلاً غريزة الجنس خلقها الله لعمارة الكون ، ويريد الله من الإنسان أنْ يُعلي من هذه الغريزة بحيث تكون في الحلال وتحت مظلة الشرع ، وسبق أنْ بيَّنا الفرق في هذه المسألة حين تتم في النور وتحت مظلة شرع الله ، وعلى كلمات الله ، وكيف نفرح بها ونعلنها ونفخر بها ، أما لو تمت في الخفاء بعيداً عمَّا شرعَ اللهُ فنحاول كتمانها ، والتخلص من ثمرتها إنْ كان لها ثمرة ، وإنْ ظهرت للناس كانت وصمةَ عار لا تُمحَى .

لذلك جاء في الحديث أن رجلاً من الصحابة كان شديد الغيرة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٠٩) وكذا مسلم في صحيحه (٢٧٤٩) كتاب التوبة ولفظه : « والذي نفسي بيده ، لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء قوم يذنبون ، فيستغفرون الله ، فيغفر لهم » .

على بناته ، فلما تقدم رجل لخطبة واحدة منهن ذهب ليخبر رسول الله ، فتبسَّم رسول الله وقال له : « جدع الحلال أنف الغيرة »[1]

يعني : الأمر الذي كنت تغار منه ولا تقبله ، الآن تفرح به وتدعو الناس إليه ، لماذا ؟ لأنه جاء من طريق الحلال الذي شرعه الله ، وكلمة الحق هي التي أبرزتْ العواطف ، وجعلتْ المهيِّج المثير مُسْعِداً لا غضاضة فيه .

كذلك غريزة حب الاستطلاع موجودة في الإنسان ليتأمل الكون من حوله ، ويبحث عن أسرار الله فيه ، وما جعلها الله للتلصُّص على الناس ، وتتبُّع عوراتهم وأعراضهم . كذلك الأكل والشرب غريزة جعلها الله لأنها مُقوِّم من مُقوِّمات الحياة ، وينبغي أنْ تكون في هذه الحدود حدود استبقاء الحياة ، لا أنْ تتحوَّل إلى نَهَم وشَرَاهة ، وتصل إلى حَدِّ التُّخمة .

والغريزة جعلها الله في الإنسان لحكمة ، فالولد مثلاً يتحمل أبوه مشقة تربيته والإنفاق عليه ، ويظل الولد عالةً على أبيه طيلة خمس عشرة سنة ، ولولا أن الله تعالى ربط النسل بالعملية الجنسية ، وجعل فيها لذة الجماع لزَهِدَ كثيرون في الإنجاب ، كذلك الأم تتحمل مشقة الحمل والولادة والرضاعة .. إلخ ، حتى أنها لتُقسم في الولادة أنها لا تحمل مرة أخرى ، لكن عندما يذهب ألم الوضع ، ويكبر الولد تشتاق إلى غيره .. وهكذا .

---

(١) ذكر أبو هلال العسكري في « الصناعتين » فصل الاستعارة والمجاز أنه ﷺ رأى علياً مع فاطمة في بيت فردَّ عليهما الباب ، وقال : « جدع الحلال أنف الغيرة » . وذكر الميداني في « مجمع الأمثال » أن هذا كان ليلة زُفَّت فاطمة إلى علي ، وقال : هذا حديث يُروى عن الحجاج ابن منهال يرفعه . وانظر أيضاً : أبو منصور الثعالبي في « الإعجاز والإيجاز - فصل استعاراته ﷺ » ، وابن حمدون في « التذكرة الحمدونية - ما جاء في الحلوم والثبات » .

وحين تتأمل مسألة الغريزة تجد أن الخالق سبحانه جعل فى الإنسان الغريزة ونقيضها ، فتراه فى موقف رحيماً وفي موقف آخر غضوباً ، أو عزيزاً فى موقف ، ذليلاً فى موقف آخر ، وهاتان الغريزتان لا تجتمعان في الإنسان في وقت واحد ، فالظرف الإيمانى يحكم عليه مرة بأن يكون عزيزاً ، ومرة بأن يكون ذليلاً .

واقرأ إنْ شئتَ قوله تعالى : ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٤)﴾ [المائدة]

وقوله سبحانه : ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ (٢٩)﴾ [الفتح]

إذن : الخالق عز وجل جعل فيك الغرائز المتناقضة ، لا يكبت شيئاً منها ، لكن لتُستعمل كل غريزة منها فى موقعها المناسب .

ومعنى : ﴿يُؤَاخِذُ (٤٥)﴾[فاطر] يعنى : يعاقب ويجازى ﴿بِمَا كَسَبُوا (٤٥)﴾[فاطر] نقول : كسب واكتسب ، كلمة كسب تدل على وجود تجارة فيها ربح ومكسب زيادة على رأس المال ، وهى تدل على المكسب الذى يأتى طبيعياً ، أما اكتسب ففيها مفاعلة ، وهى على وزن افتعل ، ففيها افتعال وتكلُّف .

لذلك يستعمل القرآن كسب فى الخير واكتسب فى الشر ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ (٢٨٦)﴾[البقرة] لأن فعل الخير يأتى منك طبيعياً ، لا تكلفَ فيه ولا افتعال على خلاف الشر ، فيحتاج إلى محاولات وإلى حيَل واحتياط وتلصُّص .. الخ .

لذلك قلنا : إن الطاعة لا تُكلِّف الإنسان شيئاً ، أما المعصية فهى التي تكلف الكثير ؛ لأن الطاعة تأتى منك طبيعية ، أما المعصية

فتحتاج إلى حيل واحتياط وافتعال .

فإن قُلْتَ : فما بَالُ قوله تعالى فى السيئة ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَـٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ (٨١)﴾ [البقرة]

نقول: استعمل القرآن كسب مع السيئة ؛ لأنه يتحدث عن الذين أسرفوا على أنفسهم ، وبالغوا فى المعصية حتى أحبوها وعشقوها . بل ويتحدثون بها ويجاهرون ، وحتى أن المعصية تأتى منهم طبيعية ، كأنها طاعة ، ويفعلونها بلا افتعال ولا احتياط ، فهى فى حَقِّهم كسبٌ لا اكتساب ، ويفرحون بها كأنها مكسب فلا يُؤنِّبون أنفسهم ، ولا يلومونها ، ولا يندمون على معصيتهم .

والآية هنا بنفس هذا المعنى ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا..(٤٥)﴾[فاطر] يعنى : عشقوا المعصية والظلم وفرحوا به كأنه مكسب . ثم يأتى جواب الشرط : ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ..(٤٥)﴾[فاطر] معنى الدابة : كل ما يدبّ على الأرض . أى : يمشى عليها الهُوَيْنَا ، لكن غلبتْ الكلمة على ما يُركب ويحمل الأثقال .

لذلك قال العربى لآخر : لقد أعْيَيْتنى شبَّ ودبَّ يعنى فى شبابك ، وفى شيخوختك ، وأنت تدبّ وتمشى الهُوَيْنَا .

لكن ، ما ذنب الدوابّ تتحمل عاقبة ظلم الإنسان ؟ قالوا : العلاقة هنا أن الدابة مخلوقة مُذلَّلة لخدمة الإنسان وراحته ، فمعنى هلاك الدواب أنْ تمتنع راحة الإنسان ، وأنْ يمتنع المطر وتجدب الأرض ، وعندها لا يجد الإنسان قُوته ، لا من لحوم الدواب ولا من نبات الأرض ، وفى هذا إذلال للإنسان الذى يرى وسائل حياته وأسباب راحته تُسلَب منه دون أنْ يفعل شيئاً ، ولا يقدر على شىء .

وحين نتتبع آيات القرآن نجد أنه تكلَّم عن هذا المعنى في موضعين :

الأول: في سورة النحل : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾ [النحل]

والآخر هنا في فاطر : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾ [فاطر]

قد يرى البعض في الآيتين تكراراً ، وحاشا لله أن يكون في كلامه تكرار، فإذا تأملتَ لوجدتَ بينهما خلافاً ، يجعل لكل منهما معناها الخاص . فالأولى تتكلم عن ظلم الناس ، والأخرى عمَّا اكتسبوه من السيئات عامة ، وكل من اللفظين يعطيك لقطة جديدة لأنني قد أظلم ، لكن أندم على ظلمي ، ولا أفرح به ، ولا أتمادى فيه ، أما إنْ صار عادةً لي حتى عشقته ، فهو اكتساب وافتعال بالمعنى الذي ذكرنا .

الأولى تقول : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا (٤٥) ﴾ [فاطر] والأخرى : ﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا (٦١) ﴾ [النحل] كذلك في تذييل الآيتين ، ففي الأولى يتحدث الحق سبحانه عن الزمن والأجل الذي لا يتقدم ولا يتأخر ، وفي الأخرى يتحدث عن الجزاء ، وأن الله تعالى بصير بأعمال عباده ، لا يخفى عليه منهم شيء ، إذن : فالآيتان متكاملتان ، ليس فيهما تكرار أبداً .

وضمير الغائب في ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا (٤٥) ﴾ [فاطر] و﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا (٦١) ﴾ [النحل] هذا الضمير متصل بالآية قبلها : ﴿ .. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ (٤٤) ﴾ [فاطر] فالضمير يعود

على أقرب مذكور ، وهو الأرض ، ويفهم هذا المرجع أيضاً بالقرينة العقلية ؛ لأن المعنى ينصرف إليها .

وهذه الآية لها معنا قصة ونحن صغار في كُتَّاب الشيخ حسن رحمه الله ، وكان الشيخ يكلف العريف أنْ يُصحِّح لنا الألواح ، وفي هذا اليوم جلس الشيخ حسن يصحح لنا بنفسه ، لكن في هذا اليوم لم أكُنْ صححت اللوح (وطلعت خالص) وانتظرت الفَلَكة والمقرعة (تشتغل) ، لكن الشيخ قال لي : اسمع أنا سأعلمك كيف تقرأ هذه الآية دون أنْ تخلطها بآية النحل ، لا تجمع الظائين ولا السببين يعني : إن قلت (بِظُلْمِهِمْ) فلا تقل (عَلَى ظَهْرِهَا) وإنْ قلتَ (بِمَا كَسَبُوا) فلا تقل (لاَ يَسْتَأخِرُون سَاعَةً) وهكذا كان شيخنا رحمه الله يعايش القرآن ويتفاعل معه ، وصدق الله العظيم ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) ﴾ [القمر]

وكان لي معه أيضاً ـ رحمة الله عليه ـ قصة أخرى ، ما زلت أذكرها في سورة الشورى ، وجلس الشيخ يُصحِّح لنا اللوح وكنا هربنا ولم نصحح ، فلما جلستُ أمام الشيخ قرأت (حم عسق) وقد مرت بنا حم وطه وغيرهما لكن لم يمر بنا مثل (عسق) فقرأتها كما هي عَسَقْ ، فضربني الشيخ فقرأتُ أيضاً عَسَقْ فضربني ، وفي المرة الثالثة عرف أنني لم أصحح اللوح على العريف ، فقال : قُلْ عين سين قاف ، فظلت ملازمة لي لا أنساها حتى الآن ، رحمهم الله ورَضِي عنهم أجمعين .

والمراد بالأجل في ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ (٤٥) ﴾[فاطر] أي : القيامة والعذاب ، أو جاء أجل إفنائهم بعذاب يستأصلهم ، وعرفنا أن عذاب الاستئصال مثل الصيحة والرجفة والخسف .. الخ لا ينزل إلا على

يأس من هداية القوم ، بحيث لم يَعُدْ هناك أمل فى هدايتهم ، كما جاء فى قصة سيدنا نوح - عليه السلام - لما قال : ﴿رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧)﴾ [نوح]

لكن إنْ كان هناك أمل فى أنْ يؤمن بعض القوم فلا ينزل بهم مثل هذا العذاب .

أو : يراد بالأجل هنا أجل الأمة ، كما قال سبحانه : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ (٤٩)﴾ [يونس] فكأن الآجال ثلاثة : أجل للدنيا ونهايته قيام الساعة ، وأجل للشخص الواحد بانتهاء عمره ، وأجل للأمة كلها حين يأتيها عذاب عام يقضى عليهم جميعاً مرة واحدة .

أو : لكل أمة أجل تنتصر فيه ، وتغلب مع وجود المعاندين والكافرين ، كما حدث لسيدنا رسول الله ﷺ لمَّا انتصر المسلمون فى بدر ، فقد كان لأمة الظلم والكفر أجل انتهى بالإسلام وقوة المسلمين ، مع أن الأمل كان بصيصاً من نور ، بحيث يغلب اليأسُ على الأمل .

حتى أن سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ يقول لما نزلت : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] قال عمر : أىُّ جمع هذا ونحن عاجزون عن حماية أنفسنا ؟

فلما جاءت بدر وانتصر المسلمون ، قال : صدق الله[1] ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] فقد اشتدتْ شوكة الإسلام ، وقوى

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٤/٢٦٦) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ [القمر] قال عمر : أىّ جمع يُهزم ؟ أى : أى جمع يُغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر » فعرفت تأويلها يومئذ » .

المسلمون ، وأذنت دولة الكفر بالزوال ، انتهى أجل الأمة الكافرة الظالمة ، وبدأ أجل الأمة المؤمنة .

لذلك حين نتأمل قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ .. (٢٢) ﴾ [فاطر]

نجد أربعة متقابلات ، الأولان منها مطابقان لحاله ﷺ مع أمته قبل انتشار الإسلام في فترة غلبة الجاهلية على سيدن رسول الله وأتباعه في مكة ، فالأعمى أي : الجاهل بالحكم ، والبصير العالم به ، والظلمات يعني : الضلال والكفر ، والنور هو الإيمان ، لأنهم كانوا عمياً ، فأراد الله أنْ يُبصِّرهم ، وكانوا في ظلمات الجهل والضلال فأخرجهم الله منها إلى نور الإيمان .

أما المتقابلان الأخيران فيطابقان حاله ﷺ مع أمته بعد أن أرسى الإسلامُ دعائمه ، وتمكّن من نفوس المؤمنين ﴿ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ (٢٢) ﴾ [فاطر] فتراه بدأ بصفة الإيجاب فلم يقل الحرور ولا الظل كما قال ﴿ الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) ﴾ [فاطر] لماذا ؟ لأن الحديث هنا عن أمة النصر وأمة الإيمان ، فناسب أنْ يبدأ التقابل بصفة الخير التي تناسب هذه الأمة الجديدة .

وفي هذا المعنى إشارة لطيفة إلى انتهاء أجل الجاهلية وظلماتها وعماها ، وإيذان ببداية أجل جديد ، لأمة الإيمان الوليدة التي تستظل بواحة الإيمان بعد أنْ أحياهم الله بالإيمان وكانوا أمواتاً بالكفر ، كما قال سبحانه في آية أخرى : ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا .. (١٢٢) ﴾ [الأنعام]

وسبق أنْ بيَّنا الفرق بين مَيْت وميِّت ، الميِّت بالتشديد هو مَنْ يؤول أمره إلى الموت وإنْ كان حياً ، ومن ذلك خطاب الحق سبحانه لرسوله ﷺ : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (٣٠) ﴾[الزمر] يعنى : سيؤول أمرك إلى الموت . أما ميْت بالسكون فهو الذى مات بالفعل .

إذن : نستطيع أن نقول ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ (٤٥) ﴾[فاطر] أى : بنُصْرة الإيمان على الكفر ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾[فاطر] كلمة عباد وعبيد جمع لعبد ، ومع أنهما جَمْع لمفرد واحد إلا أن معناهما مختلف ؛ لأن الإنسان العبد ملْك سيده ، وما دام ملْكه فهو مطيع لأوامره ، والإنسان المؤمن له اختيار ، فالله تعالى يخاطبه وهو يطيع أو يعصى ، فى حين أن العبد لا يعصى سيده إنْ كان من البشر .

نعم قد يخالف أمر الله ، لكنه لا يخالف أمر سيده ، كيف ؟ قالوا : لأن الله تعالى هو الحليم الغفار ، أما السيد من البشر فلا يخلو من جبروت ، أو طغيان ، أو استبداد وتسلُّط .

وفَرْق بين طاعة العبد وهو مختار أنْ يعصى وطاعته وهو مقهور على الطاعة ، وسبق أنْ مثَّلْنا لهذه المسألة بعبدين سعيد وسعد ، سعيد شُدَّ إلى سيده بسلسلة لا يستطيع الفكاك منها ، وسعد أُطلق حُراً لا يقيده شيء ، وحين ينادى السيد على أحدهما يأتيه ، فأيهما أطوع ؟ لا شك أن سعداً أطوع من سعيد ؛ لأنه يأتى سيده وهو قادر مختار ألاَّ يأتى ، أما سعيد فلا يملك إلا أنْ يجيب ؛ لأنه لو عصى لجذبه السيد من السلسلة .

كذلك الحق سبحانه خلق الخَلْق مختارين ، ووضع لهم هذه القاعدة : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ (٢٩) ﴾[الكهف] مَنْ شاء أطاع ، ومَنْ شاء عصى ، وهذا تصرُّف العبيد مع سيدهم ، فإنْ قال العبد :

يا ربِّ أنت خلقتني ورزقتني وجعلتَ لي الجوارح ، وجعلتني مختاراً ، وأنا عبد من عبيدك ؛ لذلك أتنازل عن اختياري لاختيارك ، وعن مرادي لمرادك ، لقد اختار هذا العبد أنْ يكون مقهوراً لربه مسخراً كما سُخِّرت السماء والأرض .

وهؤلاء هم العباد ، وهم الصفوة من الخَلْق الذين آثروا مراد الله على مراد أنفسهم ؛ لذلك يتحدث عنهم الحق سبحانه ويعطينا صورة لهم : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا (٦٣) ﴾ [الفرقان] يعني : متواضعين غير متكبرين ، وعلامَ التكبر ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) ﴾ [الإسراء]

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا[1] (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) ﴾ [الفرقان]

هذه صفات ثمان ترسم لنا صورة كاملة لمن استحقوا أن يكونوا عباد الله ؛ لذلك يخاطبهم ربهم في موضع آخر . ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

ومن رحمة الله بعباده أن الحسنة تمحو السيئة ، كما قال

---

(١) الغرام : العذاب الدائم والهلاك الملازم . [القاموس القويم للقرآن الكريم ٢ / ٥٢] وقال الزجاج : هو أشد العذاب . وأيضاً هو ما لا يُستطاع أن يُتفصَّى منه . [لسان العرب - مادة : غرم] .

سبحانه: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا[1] مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود]

بل وأعظم من ذلك ، ألاَّ تقتصر رحمة الله على محو السيئة ، إنما تُبدِّل السيئة بعد التوبة حسنة : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان]

وحول معنى (عباد) و (عبيد) الذي أوضحناه سمعنا مَنْ يعترض ويقول : في القرآن ما يناقض هذا المعنى ، وهو قوله تعالى في موقف القيامة يخاطب الكبراء والسادة الذين أضلُّوا الناس وزيَّنوا لهم الكفر : ﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) ﴾ [الفرقان]

ونقول : ليس بين الآيات تعارض كما تقولون ؛ لأن الحديث هنا عن الآخرة ، وليس في الآخرة اختيار ، فلا فَرْق بين (عباد) و (عبيد) في الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) ﴾ [فاطر] ذكر هنا صفة البصر ؛ لأنها أقوى وسائل العلم والإدراك ، فللعلم وسائل متعددة ذكرها الحق سبحانه في قوله : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

فالسمع أول وسائل الإدراك ، وهو أول جارحة تتنبه وتؤدي مهمتها في المولود ، بدليل أنك تضع مثلاً أصبعك أمام عينه ، فلا تطرف ، أما إنْ صرخْتَ في أذنه ينزعج ويستجيب للصوت ، والسمع كذلك هو الحاسة التي لا تتعطل أثناء النوم ؛ لأن بها يتم الاستدعاء ،

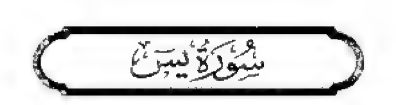
---

(١) الزلفة : الطائفة من الليل وجمعها زُلَفٌ . قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود] أي : أوقاتاً وساعات من الليل . قيل : في أوله . وقيل : في أي وقت فيه . [القاموس القويم ١/٢٨٨] .

والسـمع هو الوسـيلة الأولى فى القـيم والمـعنويات ، وبه يسـتقبل الإنسان منهج الله .

أما البـصر وإنْ جاء فى المـرتبة الثانـية إلا أنه أكبـر من السمع وأقوى : لأنك قد تسمع عن الشىء ، لكن لا تلتـفت إليه ، فإنْ تحوّل من السمع إلى البصر فقـد وصل إلى قمة الإدراك الذى لا شكَّ فيه ؛ لذلك يقـولون : ليس مع الـعيـن أين . والشـىء الذى تسـمع عنه قـد يكون كاذباً ، أمَّا الشىء الذى تبصره فإنه لا يكون إلا حقاً .

لذلك ، فـالحق – سـبـحـانه وتعـالى – حـين يريد أن يؤكـد لنا معلومة ، يقول سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ (٢١) ﴾[الزمر] لأن الذى تراه العين هو الآكد . وأبو جعفر لما قـال لمقاتل : عظنى يا مقاتل ، قال له أعظك بما سمعتُ ، أم بما رأيتُ ؟ بالله أجيـبوا أنتم بماذا ؟ قال : عظْنى بما رأيتَ ، نعم لأنك قد تسمع كذباً ، أمَّا إنْ رأيتَ بالعين فهو الحَق .


سُورَةُ يسٓ

سورة يس[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يسٓ ۝١ وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ ۝٢﴾

(يس) يصح أنْ تكون حروفاً مُقطَّعة مثل (الم) و (طه) ، ويصح أنْ تكون حروفاً مُقطَّعة صادفتْ اسماً ؛ لذلك من أسمائه ﷺ : يس وطه ، ولا مانع أن يكون الاسم على حرفين ، بل على حرف واحد مثل (ن) في قوله تعالى :﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم] وقد جُعِل علَماً على سيدنا ذي النون[2] عليه السلام ، كذلك : (ق) أصبح

---

(١) سورة يس هي السورة رقم (٣٦) في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ٨٣ آية ، نزلت بعد سورة الجن ، وقبل سورة الفرقان ، فهي السورة رقم ٤٠ في ترتيب النزول ، وقد حكى القرطبي في تفسيره (٥٦٢٥/٨) الإجماع على أنها سورة مكية ، ولكنه قال : « إلا أن فرقة قالت : إن قوله تعالى ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۝١٢﴾ [يس] نزلت في بني سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ ، وقد أورد ابن كثير في تفسيره (٥٦٦/٣) هذه الرواية عن أبي سعيد الخدري ولكنه قال : « فيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية ، والسورة بكمالها مكية ، فالله أعلم » .

(٢) النون : الحوت وذو النون لقب يونس بن متَّى عليه السلام ، سماه الله ذا النون لأنه حبسه في جوف الحوت الذي التقمه . [لسان العرب – مادة : نون]. أما (ن) التي في سورة القلم فقد ورد فيها أقوال منها : أنه الحوت ، ومنها أنه الدواة ، انظر حكاية هذه الأقوال في تفسير ابن كثير (٤٠٠/٤ ، ٤٠١) ، ولكن قال الأزهري : (ن والقلم) لا يجوز فيه غير الهجاء ، ألا ترى أن كُتَّاب المصحف كتبوه ن ؟ ولو أريد به الدواة أو الحوت لكتب نون . [لسان العرب – مادة : نون]

عَلَماً على الجبل المعروف . إذن : هذه حروف مُقطَّعة ، يمكن أنْ تُنقل إلى العَلَمية ، ويُسمَّى بها[1] .

وكثيراً ما تحدَّثنا عن الحروف المقطَّعة في أوائل السور ، وكلما مَرَّ بنا حروف مُقطَّعة لا بُدَّ أنْ نتحدث عَمَّا تحتمله من المعاني ، والذي يثبت في الذِّهْن أن الحرف له اسم ومُسمَّى ، اسم الحرف لا يعرفه إلا المتعلم ، أما مُسمَّى الحرف فيعرفه المتعلم ويعرفه الأمي ، الأمي مثلاً يعرف الفعل (أكل) ويقول : أكلتُ ، لكن لا يستطيع أنْ يتهجَّى حروفه ؛ لأنه لا يعرف إلا مُسمَّى الحروف ، أما المتعلم فيعرف اسم الحرف فيقول : ألف فتحة ، وكاف فتحة ، ولام فتحة . فكيف إذن عرف محمد ﷺ أسماء هذه الحروف ونطق بها ، وهو الأمي الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة ؟ الجواب : أنه عُلِّم وعُرِّف من ربه عز وجل .

والقرآن جاء معجزة يتحدَّى القوم فيما نبغوا فيه ، والعرب كانوا أهلَ فصاحة وبيان ، ويكفي أنهم كانوا يقيمون المعارض والأسواق للكلمة ، كما نقيم نحن الآن المعارض للصناعات المتميزة ، ومعروف عند العرب سوق عكاظ وسوق المربد والمجنة .. الخ .

وقد بلغ من اهتمامهم بالكلمة والأسلوب أنْ يُعلقوا القصائد

---

(١) ورد في تأويل قوله تعالى : ﴿يسٓ ①﴾ [يس] عدة أقوال :
- هو اسم من أسماء محمد ﷺ . قاله سعيد بن جبير . ودليله ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ③ ﴾ [يس] بعدها .
- معناه : يا سيد البشر . قاله أبو بكر الوراق .
- معناه : يا إنسان . أراد محمداً ﷺ . قاله ابن عباس .

وهناك قول آخر ذكره القرطبي في تفسيره (٥٦٣٨/٨) بالإضافة إلى ما سبق ونقله عن الإمام مالك أن يس اسم من أسماء الله ، حتى انه كان يكره التسمي باسم يس . قال ابن العربي : الذي يجوز التسمي به هو (ياسين) بهذا التهجي . والله أعلم .

الشهيرة عندهم على الكعبة ، وسُمِّيت هذه القصائد « المعلَّقات » ، وهى أشهر ما عُرِف من الشعر الجاهلى .

وكَوْن القرآن يتحداهم هذه شهادة لهم بالتفوق ، فالضعيف لا يُتحدى بل القوى ، كما نرى الآن مثلاً فى تحطيم الرقم القياسى فى مجال من المجالات .

وتحدِّى القرآن للعرب فى الفصاحة والبلاغة مثل تحدِّى سيدنا موسى للسحرة ، وتحدِّى سيدنا عيسى للأطباء ، إذن : هذه سنة متبعة فى جميع الأمم يتحداها الحق سبحانه بما نبغوا فيه . كذلك القرآن الكريم جاء بلغة العرب وحروفهم وكلماتهم التي ينطقون بها ، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثله ، لماذا مع أن مادة الكلام واحدة ؟

قالوا : لأن المتكلم بالقرآن هو الحق سبحانه .

وقد أوضحنا هذه المسألة بمَثَل - ولله المثل الأعلى - قُلْنا : لو أردتَ اختيار مجموعة من عمال النسيج أيُّهم أمهر لا يصح أنْ تعطى أحدهم مثلاً حريراً ، وآخر قطناً ، وآخر صوفاً ؛ لأن المادة الخام مختلفة ، إنما تعطى الجميع مادة واحدة ، ثم تنظر فى نسيج كل منهم ، كذلك القرآن ولغة العرب ، المادة واحدة لكن المتكلم هنا العرب ، والمتكلم هنا الحق سبحانه .

وحين تتأمل حروف العربية تجدها ثمانية وعشرين حرفاً ، والحروف المقطَّعة فى القرآن أربعة عشر ، فهى إذن نصف الحروف العربية . وللفخر الرازى[1] - رحمه الله - جدول مدهش ينظم هذه

(١) هو : محمد بن عمر أبو عبد الله فخر الدين الرازى ، قرشى النسب ، أصله من طبرستان ومولده فى الرىّ (٥٤٤ هـ) (طهران الآن) وإليها نسبته ، إمام مفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل . يقال له « ابن خطيب الرىّ » أقبل الناس على كتبه فى حياته يتدارسونها ، كان يحسن الفارسية . من تصانيفه « مفاتيح الغيب » « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » توفى عام ٦٠٦ هـ عن ٦٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٦/٣١٣]

الحروف ، ويوضح أنها وُضعت هكذا لحكمة ، ووُضعتْ بقدر وحساب ، هذه الحروف الأربعة عشر تقسم كما يلي :

مجموع حروف اللغة ثمانية وعشرون حرفاً ، التسعة الأوائل بداية من الألف إلى الذال لم تأخذ الحروف المقطعة منها إلا حرفين : الألف والحاء ، وتركت منها سبعة أحرف أما التسعة أحرف الأخيرة ، وتبدأ من الفاء فقد أخذتْ منها الحروف المقطعة سبعة أحرف هي : القاف والكاف واللام والميم والنون والهاء والياء وتركتْ منها الفاء والواو ، فهي إذن على عكس التسعة الأُول .

أما الحروف العشرة في الوسط ، والتي تبدأ من الراء وتنتهي بالغين ، فلها نسَق آخر ، حيث أخذت الحروفُ المقطعة منها الأحرف غير المنقوطة ، وهي الراء والسين والصاد والطاء والعين ، وتركت منها الزاي والشين والضاد والظاء والغين .

كذلك حين نتأمل مثلاً حروف الحلْق تجد الخاء في المجموعة الأولى لم تُذكر في الحروف المقطعة ، وذُكرت الميم في المجموعة الأخيرة .

وهكذا نرى أن هذه الحروف لم تُوضع هكذا اعتباطاً أو كما اتفق، إنما وُضعت بقدر ونظام له حكمة ووراءه أسرار ، وُضعت بهندسة مقصودة الذات فهي مثل سنان المفتاح ، والله سبحانه وتعالى يفتح بها لمَنْ يشاء ، ومن حكمته تعالى أنه لم يُعْطِ كل أسرار هذه الحروف لجيل من الأجيال ، إنما وزَّع عطاءها على مَرِّ الأزمان بحيث لا يستقبل جيل من الأجيال كلامَ الله بلا عطاء ، وليظل القرآن نوراً يضيء جنبات الدنيا إلى قيام الساعة ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت]

هذه السين الدالة على الاستقبال نطق بها سيدنا رسول الله ﷺ وقال ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] وظهرت في عهده أسرار ، ونطق بها مَنْ بعده من الأجيال المتعاقبة ، وظهرت لها أسرار ، وستظل تنطق بها وتتجلَّى لنا أسرارها إلى قيام الساعة ، وإلى أنْ تظهر الآية الكبرى وهي القيامة . إذن : فعطاء القرآن عطاء مستمر لا ينقطع أبداً .

لذلك لما تناقشنا مع بعض المستشرقين في سان فرانسيسكو حول موضوع المخترعين والمكتشفين الذين خدموا البشرية وأسعدوها باختراعاتهم واكتشافاتهم . قال أحدهم : عجباً للمسلمين ! لماذا لا يدخل هؤلاء المكتشفون الذين أسعدوا البشرية الجنة ؟ فأوضحنا له أنهم نعم خدموا البشرية ، لكن لم يكُن الله في بالهم حين اكتشفوا ما اكتشفوا ، بل كان في بالهم الشهرة والمجد والذِّكْر بين الناس ، وقد نالوا ما يريدون فخلّدنا ذِكْراهم وأقمنا لهم التماثيل .. الخ فينطبق عليهم الحديث : « عملتَ ليُقال وقد قيل »[1]

إذن : هؤلاء العلماء الذين خدموا البشرية وأسعدوها وهم غير مؤمنين بالله ما هم إلا خَدَم سخَّرهم الله لخدمة البشر ، فهم كالشمس والقمر وغيرهما ، سخرهما الله للإنسان لفائدته ولمنفعته ، ما هم إلا جنود من جنود الله يخدمون هذا الحرف في ﴿ سَنُرِيهِمْ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت] ليظل يعطي على مَرِّ الأزمان ، وفي كل المستقبل .

هؤلاء العلماء غير المؤمنين بالله مَثَلهم كمثَل خادم عندك قُلْتَ له : احمل هذا الحجر مثلاً ، فقال لك إنه ثقيل عليَّ لا أقوى على حَمْله ، فإنْ قلت له : استعِنْ بمَنْ يحمله معك ربما قال لك لا أجد ، لكن إنْ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٢٢) ، والنسائي في سننه (٦/٢٣ ، ٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

قُلْتَ له احمله وسوف تجد تحته كنزاً هو لك فإنه سيحمله وحده ، في هذه الحالة : أحَمَله احتراماً لأمرك ؟ أم حمله طمعاً في الكنز ؟

كذلك لما تقدمتْ العلوم اكتشفوا أن الخمر تضر بالكبد ، فأقلع كثيرون عن شربها مخافة ضررها ، وبعد أنْ عرف العلة ، أمَّا المؤمن فيقلع عنها قبل أنْ يعرف هذه الحقيقة ، يقلع عنها لأن ربه عز وجل نهاه عن شربها فينتهي ثقةً منه في حكمة ربه ، واحتراماً لأمره ، ولو لم يعرف العلة .

ولأن سورة يس ، ثبت في الحديث أنها قلب القرآن[1] فيجب أن نستهل الاستعاذة والتسمية قبلها ، كما استهللناها في السُّوَر قبلها ، فالحق سبحانه الذي أنزل القرآن معجزة وكتاب هداية على سيدنا رسول الله ليصحح للمؤمنين به حركة حياتهم قال : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ﴾ [النحل]

وقلنا سابقاً : إن علة هذا الأمر من الأعلى أن الشيطان حينما عصى ربه في السجود لآدم ، وحدث الحوار بينه وبين ربه قال : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾[ص] يعني : حتى لا يتميز آدم وبنوه عنِّي في المعصية ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] فقوله : ﴿ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾[ص] أي : في أنْ يسلكوا طريقاً غير الطريق الذي رسمه الله لهم ، والطريق الذي رسمه الله لهم هو الصراط المستقيم الذي قال فيه : ﴿ لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف]

نعم ، لأن الشيطان لا يأتي الخمارة ولا أماكن القمار والمعصية ، إنما يتعرض لأهل الطاعات ليفسد عليهم طاعتهم ، والصراط المستقيم

(١) عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرؤوها على موتاكم » أخرجه أحمد في مسنده [٢٦/٥]

هنا هو منهج الله الذى وضعه لإسعاد البشرية . فإبليس بدل أنْ ينتظر إلى أنْ تنفذ منهج الله فى حركة الجوارح طاعة ومعصية يأتى للأساس الذى تأخذ عنه تلك الجوارح منهج الحركة ، فإذا قرأتَ القرآن جاء ليفسد عليك القراءة .

لذلك يُعلِّمك ربك - عز وجل - الاستعاذة ، أولاً لتقطع على الشيطان هذا السبيل ؛ لأنه لن ينتظرك حتى تقرأ ، وحتى تأتى بثمرة هذه القراءة فى حركة الحياة ، بل يأتى إلى القرآن نفسه فيفسده عليك من البداية ، فإنْ أردتَ أن تنتصر عليه فاستعذ بالله منه .

وحين تستعيذ منه بالله فإنك تلجأ إلى ركن قوى ودرع وَاقٍ لا ينفذ إليك منه شىء من وسوسة الشيطان وهَمْزه وغَمْزه ؛ لذلك كان الشيطان واعياً حين قال : ﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص] فهم الذين يحتمون منه فى حمَى ربهم وخالقهم .

أما قوله تعالى (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) فالحق سبحانه خلق الإنسان ، وجعله سيد هذا الكون ، وسخَّر له كل شىء ، ومما سخَّر له سخر أبعاضه لإرادته ، فسخَّر مثلاً لسانه لإرادته ، فإنْ كان مؤمناً قال : الله واحد ، وإنْ كان غير ذلك قال : الله ثالث ثلاثة ، كذلك سخَّر له العين تنظر إلى ما أحلَّ وإلى ما حرَّم كذلك الرِّجْل ، فكل جوارحك سخَّرها الله لك إنْ أردتَ منها طاعة أطاعتْ ، وإنْ أردتَ منها معصية عصتْ ، فالإرادة هى التى تملى ما تريده ، والجوارح لا تملك إلا أنْ تنفذ طاعة أو معصية لأنها مُسخَّرة .

وسبق أنْ مثَّلنا لذلك بالقائد الأعلى للجيش حين يرسل مثلاً القائد الأدنى على رأس كتيبة فى مهمة ما ، فعلى الكتيبة أنْ تطيع أمر هذا القائد المباشر طاعةً عمياء ، حتى لو كانت هذه الأوامر فى غير

مصالحهم ، وليس لهم أن يعترضوا عليه حتى إذا ما عادوا إلى القائد الأعلى اشتكَوْا له ما كان من قائدهم المباشر ، كذلك طاعة الجوارح لإرادة الإنسان في الدنيا .

أما في الآخرة فسوف تُسْلَب منه هذه القيادة لجوارحه ، وسوف تشهد هذه الجوارح على صاحبها أمام الحق الأعلى سبحانه ، ففي الآخرة لا سلطانَ لأحد إلا الله :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

وقال سبحانه : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

وقال : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ (٢١) ﴾ [فصلت]

فإذا كنتَ تريد عملاً من الأعمال ، هذا العمل يتطلب منك أولاً طاقة عقلية فكرية تخطط له ، ثم يتطلب قوة في الجوارح لتفعل ، من الذي خلق لك العقل المفكر ؟ ومَن الذي أمدَّ جوارحك بالقوة والطاقة الفاعلة ؟ أهي تأتمر لك وتفعل مطلوبك بقوة ذاتية فيك ؟ أم بتقدير الله لها ؟

إذن : عليك أنْ تُقبل على كل فعل ، فكراً وتخطيطاً وتنفيذاً وعملاً بقولك بسم الله ، وحين تقولها فكأنك تقول للجوارح : أنا لا أطلب منك بقوتي ، ولكن من باطن قوة بسم الله ، فبسم الله أفعل لا بي .

بدليل أن الله تعالى إنْ أراد سلب الإنسان ذاتية الحركة وذاتية الطاقة والفكر فتُشلّ الجوارح ويُشلّ التفكير ، إذن : أقْبل على كل أعمالك ببسم الله الذي يُعينك عليها .

ثم أنت فى الأعمال تحتاج إلى حكمة ، وإلى قدرة ، وإلى علم .. الخ . فمَنْ الجامع لكل هذه الصفات ؟ إنه الله . إذن : فقُلْ بسم الله الجامع لصفات الكمال كله الممدّ خَلْقه بها ، فهو سبحان العالم الذى يمدّك بالعلم ، القادر الذى يمدك بالقدرة ، الحكيم الذى يمدّك بالحكمة ، العزيز الذى يمدّك بالعزة ، القهار الذى يمدّك بالقهر .. الخ .

ألسنا نسمع القاضى يقول عندما يجلس للحكم : باسْم الشعب يعنى : هو لا يحكم بذاته ، إنما يحكم بقوة الشعب ، كذلك المؤمن يقول : بسم الله عند كل عمل يعنى أيتها الجوارح ، أطيعينى من باطن طاعتك لله .

ثم يصف الحق سبحانه نفسه بقوله ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ [الفاتحة] لأن الحق سبحانه خلق الخَلْق مختارين ، فكان منهم المؤمن والكافر ، والطائع والعاصى ، وربما غفل الإنسان عن منهج الله فصدرتْ منه صغائر بل وكبائر ، فكيف يقبل على عمله ببسم الله ؟ وكيف يستعين به سبحانه وقد عصاه ؟

لذلك يقول له ربه عز وجل لا تستح أنْ تقول بسم الله ، لأننى رحمن رحيم ، أغفر لك وأتجاوز عمَّا كان منك ، ولن أتخلّى عنك ، إذن تشجَّع ولا تترك الاستعانة باسمى مهما كان منك من ذنوب ، واعتمد فى ذلك على أنّى رحمن رحيم .

وقد رُوِى أن الأصمعى[1] سمع رجلاً يقول – وهو يطوف

---

(١) الأصمعى هو عبد الملك بن قُريب الباهلى أبو سعيد ، راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، نسبته إلى جده أصمع ، وُلد بالبصرة عام ١٢٢ هـ ، كان كثير التطواف فى البوادى ، أخباره كثيرة جداً ، كان أتقن القوم للغة وأعلمهم بالشعر . له « الأضداد » ، « خلق الإنسان » ، « الإبل » توفى بالبصرة عام ٢١٦ هـ عن ٩٤ عاماً [الأعلام للزركلى ١٦٢/٤]

بالكعبة – اللهم إني عاصيك وأستحي أنْ أطلب منك ، لكن أطلب ممَّنْ ، وليس في الكون إلا أنت ؟ فقال له الأصمعي : يا هذا ، إن ربك قد أجابك لحُسن مسألتك له .

والحق سبحانه وتعالى حين يُعدِّد نعمه على عباده يقول ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] نعم ، لأن عَدَّ الشيء مظنة إحصائه ، ومع تقدُّم العلوم وتخصُّص جامعات ومعاهد للإحصاء لم يُقبل أحد على عَدِّ نعَم الله ؛ لأنها لا تُعَدُّ ، بل النعمة الواحدة مطمور فيها مَا لا يُحصى مِن النعم ؛ لذلك لم يقُل سبحانه : وإنْ تعدوا نعَم الله ، بل نعمة الله ، فالنعمة الواحدة مستور فيها ما لا يُدرَكُ من النعَم .

ونلحظ في هذه الآية أنها وردتْ في موضعين ، لكن لكل منهما تذييل ، فواحدة : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم] والأخرى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل]

وكأن الحق سبحانه يقول لنا : أنت أيها الإنسان المُنْعَم عليه مع ما تُقَابل به نعَم الله من الظلم وكفران النعمة ، فربُّكَ المنعِم سبحانه يقابل ظلمك وكفرك لنعمه باستدامة النعم ؛ لأنه غفور ورحيم .

وللعلماء أقوال في (يس) قالوا : الياء للنداء و (س) من أسمائه ﷺ ؛ لأن عادة العرب أنْ تحذف بعض حروف الكلمة ، وتُبقي على الحرف المميز قوي الجرْس ، فمثلاً كلمة إنسان ، السين أقوى حرف فيها ؛ لذلك ورد قول النبي ﷺ : « كفى بالسيف شا »[1] والمراد : شاهداً .

---

(١) عن سلمة بن المحبِّق قال : قيل لأبي ثابت ، سعد بن عبادة ، حين نزلت آية الحدود وكان رجلاً غيوراً : أرأيت لو أنك وجدت مع امرأتك رجلاً ، أي شيء كنت تصنع ؟ قال . كنت ضاربهما بالسيف . أنتظر حتى أجيء بأربعة ؟ إلى ما ذاك قد قضى حاجته وذهب . أو أقول : رأيت كذا وكذا . فتضربوني الحد ولا تقبلوا لي شهادة أبداً . قال فذكر ذلك للنبي ﷺ . فقال : « كفى بالسيف شاهداً » أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٦٠٦) وأبو داود في سننه (٤٤١٧) وتمام الحديث : « ثم قال : لا ، لا ، أخاف أن يتتابع فيها السكران والغيران » .

ومن ذلك قول الشاعر :

أفاطمُ مَهْلاً بَعْضَ هَذَا التَّدلُّلِ   وإنْ كنتِ قَدْ أزمَعْتِ صَرْمى فأجْمِلى [(١)]

والمراد : فاطمة .

ونحن فى حديثنا اليومى نختصر بعض الحروف ، فحين ننادى مثلاً يا أحمد ، بعضنا لا ينطق الدال ، وخاصة فى لهجة الدمايطة . إذن . فحَذْف بعض الحروف وإبقاء بعضها مما له جَرْس قوى أمر وارد فى لغة العرب .

وقال آخرون : بل اسمه ﷺ (يس) وحُذِفت ياء النداء والخطاب لمحمد ﷺ .

الحق سبحانه وتعالى علَّم الإنسان الأسماء كلها ، يعنى : علَّمه الكلمة المطلوبة له فى التخاطب ، وبعد ذلك ساعةً يتكلم الإنسانُ ويتخاطب يتواضع ويصطلح على أسماء أخرى . فالإنسان مثلاً الآن يعرف (التليفزيون) ويتعارف على هذا الاسم ، فهل علَّم الله آدم اسم (التليفزيون) ؟ لا إنما اصطلح عليه الإنسان بما علَّمه الله .

فالمعنى : ﴿ وعلَّم آدمَ الأسْمَاء كُلَّها (٣١) ﴾ [البقرة] أى : الصالحة لتخاطبه الآن فى البيئة البدائية ، وعليه هو أنْ يُنمى لغته ، فيضع لهذا الشيء اسم كذا ، وهذا اسم كذا .

ونحن نعرف أن الحروف قسمان : القسم الأول : حروف مَبْنى يعنى مهمتها بناء الكلمة ، دون أن يكون لها معنى غير ذلك ، كما نقول مثلاً : كتب ، فالكاف والتاء والباء حروف تُبنى منها هذه الكلمة

---

(١) هو من قصيدة لامرىء القيس من بحر الطويل عدد أبياتها ٧٧ بيتاً ، وهى معلقته الشهيرة التى أولها : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . والصرم : القطع والقطيعة . ومعنى البيت : يا فاطمة دعى بعض دلالك ، وإن كنت وطنت نفسك على فراقى فأجملى فى الهجران

دون أنْ تعطي معنى آخر زيادةً على معنى هذا الفعل الذي كوَّنته الحروف .

القسم الثاني : حروف معنى ، وهى أن يكون للحرف معنى يدل عليه بذاته كما نقول : كتبتُ . فهذه التاء الأخيرة تحمل معنى آخر غير معنى الكتابة ؛ لأنها تدل على الفاعل المتكلم فإنْ جاءت مفتوحة دلَّتْ على الفاعل المخاطب ، وإنْ جاءت مكسورة دلَّتْ على المؤنث ، وهكذا .

وقُلْنا : إن اسم الحرف قد يصادف علَماً على شيء ، فالسين مثلاً اسم لنهر معروف ، والعين حرف معجم لكن سُمِّي به أشياء كثيرة : العين الباصرة ، وعين الماء ، والعين بمعنى الجاسوس ، والعين للنفيس من المال من الذهب أو الفضة .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) ﴾ [يس] هذه الواو تسمى واو القسم فما دخلتْ عليه كاليمين ، لكن هل المطالب التي يريدها المتكلم من المخاطب تأتي بالقسم أم بالدليل ؟ تأتي بالدليل ، وقد يأتي اليمين فيه الدلالة على الغرض المراد . فمثلاً يقول لك صاحبك : يا أخى أنت لم تُقدِّرنى ، لأننى مررتُ بأزمة ، فلم تقف بجانبى فتقول له : وحياة الشيك الذى كتبتُه لك يوم كذا ، وحياة الهدية التى أخذتها يوم كذا ، فتحلف له بالدليل على صدْقك .

كذلك هنا الحق - تبارك وتعالى - يقول لنبيه ﷺ : أنت مرسل وأنا أحلف بالقرآن لأنه دليل على أنك رسول صادق .

كلمة قرآن مصدر لقرأ تقول قرأت قراءة وقرآناً ، ولا بُدَّ أن الزيادة في المبنى تدل على الزيادة فى المعنى ، فقلنا قرآناً لنفرق بين قراءة القرآن وقراءة غيره ، وهي أيضاً تدل على أنه كتاب مقروء ، ومرة أخرى يسميه الكتاب لأنه مكتوب ، فالقرآن إذن مقروء من الصدور ، مكتوب فى السطور.

ومرة أخرى يسميه الذِّكْر ، لأنه يُذكِّرنا بعهد الفطرة الأولى التى

قال الله فيها : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهذا التذكير بالعهد الأول يُعَدُّ رحمة من الله بنا ، فمن رحمة الله بنا أن يُذكّرنا إذا نسينا أو غفلنا ، فمنذ أنْ خلق آدم وإلى الآن ، الحق - تبارك وتعالى - يُذكّر عباده ، فكما يُلقّن الوالد ولده حركة الحياة يُلقّنه أولاً حركة هذا الدين ، ولا بد أنْ يستمر هذا التلقين وهذا التذكير ، وأنْ يتوالى من جيل إلى جيل ؛ لأن طبيعة الإنسان فيه غفلة وفيه نسيان ، وتحدث منه معصية .

لذلك الذين قالوا ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) ﴾[الزخرف] كاذبون في هذا القول ؛ لأن آدم وأمته في البداية كانوا على هُدىً ، فلماذا لم تتبعوهم ؟ إذن : أنتم اتبعتُم الآباء الضالين لا المهتدين .

كذلك حين تتأمل مسألة جمع القرآن تجد أن الذين جمعوا القرآن كانوا يتحرَّوْن في الآية قبل تسجيلها أن تكون مكتوبة أولاً في قرطاس أو في الرقاع والعظام التي سُجّل عليها القرآن أولاً ، ثم يشهد على صحتها اثنان من القراء ، لماذا ؟

قالوا : لأن القرطاس لا هوى له ، فيغير ما كتب فيه ، أما الإنسان الحافظ فهو عُرْضَة للخطأ والنسيان والغفلة ، فلا بُدَّ أنْ يكون معه آخر يُذكّره على حدِّ قوله تعالى : ﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

والقرآن وصفه الله بالحكمة ، وهي وَضْع الشيء في موضعه الحق ليؤدي مهمته ، وكلُّ المعاني الدينية مأخوذة من مُحسَّات قبل الدين ، فمثلاً الفَرَس يركبه الإنسان ليُوصِّله إلى مراداته ، فإنْ كان

مرادك من ركوب الفرس التنزُّه بين الحقول سار بك سَيْراً بطيئاً كسَيْر الحنطور مثلاً ، وإنْ أردتَ به قَطْع المسافة جرى بك كالريح .

لذلك جعلوا للحصان لجاماً يُوضَع في حنكه ليكبح سرعته ، ويتحكم فيه ، هذا اللجام يُسمى الحَكَمَة[1] ومنها الحِكْمَةُ التي تكبح جماح الأهواء ، كي لا تشرد وتضع المسائل في موضعها ، فالإنسان له هوىً يميل به ، وينحرف بحركته عن الجادة ، فيأتي القرآن بالحق الواضح الذي يُقوِّم هذا الميل ويُصلحه ، والقرآن في الحقيقة حكيم ، لأنه محكم من الحكيم الأعلى سبحانه ، إذن : فالقرآن كلام من الحكيم ، وهو بالنسبة للإنسان كالحَكَمَة للفرس

ولحكمة القرآن اختصَّ بأشياء ، فتناول القرآن لا يكون كتناول غيره من الكتب ، فالكتاب العادي أتناوله في أيِّ وقت وعلى أيِّ حال كنت جُنُباً أو مُحدثاً ، أما القرآن فلا يمسُّه إلا طاهر[2] ، لأنك مع القرآن تُقبل على مقدس له خصوصية ، فإياك أنْ تتناوله وأنت غير طاهر ، كما قال الحق سبحانه[3] : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) ﴾ [الواقعة]

---

(١) حكَمة اللجام : ما أحاط بحنكي الدابة ، فهي تأخذ بفم الدابة ، والحكمة حديدة في اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راكبه . وفي الحديث : « ما من آدمي إلا في رأسه حكمة » وفي رواية : في رأس كل عبد حكمة إذا همَّ بسيئة ، فإن شاء الله تعالى أن يقدعه بها قدعه .[لسان العرب - مادة : حكم]

(٢) اتفق الأئمة ولم يخالف أحد من الصحابة في ذلك على حرمة مس المصحف وحمله بالنسبة للجنب . أما المحدث حدثاً أصغر فقد ذهب ابن عباس والشعبي والضحاك وزيد بن علي وابن حزم وغيرهم إلى أنه يجوز للمحدث حدثاً أصغر مس المصحف ، وأما القراءة له بدون مس فهي جائزة اتفاقاً . [قاله الشيخ سيد سابق في فقه السنة ١/٤٢ وما بعدها] .

(٣) في هذه الآية قولان :

الأول : المطهرون هنا هم الملائكة . قاله ابن عباس وأنس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم . فعلى هذا القول فالآية لا تخص قراءة القرآن على وضوء أو غير وضوء .

الثاني : أي المطهرون من الجنابة والحدث . والمراد بالقرآن هنا هو المصحف . وقد أخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يمس القرآن إلا طاهر » .

فالحق سبحانه جعل لك هذه الضوابط النفسية لتعرف أنك مُقبل على كتاب له تميُّز عن سائر الكتب الأخرى .

كذلك للقرآن خصوصية في حروفه ، فالحروف هي التي تُكوِّن الكلمات ، فهي عبارة عن نبرات صوتية ، لكل منها منطقة في أعضاء الكلام ، فمثلاً حروف تخرج من الجوف والصدر هي :

هَمْزٌ فَهَاءٌ ثُمَّ عَيْنٌ حَاءُ   مُهْمَلَتَانِ ثُمَّ غَيْنٌ خَاءُ

فإنْ خرجنا من منطقة الجوف تجد الحروف اللسانية التي تُنطق من اللسان بداية من : (لغلوغه) ثم وسطه ثم طرفه . فالقاف مثلاً تخرج من أقصى اللسان ، والشين والجيم من وسطه ، والضاد واللام والراء من طرفه ، كذلك هناك حروف تخرج من الشَّفة ، كالفاء من باطن الشَّفة السفلى ، والباء من باطن الشفتين معاً ، كذلك الواو يشترك في نطقها الشفتان .

ولكي نقرأ القرآن قراءة صحيحة لا بُدَّ أنْ نلتزم بهذه المخارج الصوتية ، على خلاف قراءة أيِّ كتاب آخر ، فلا يُشترط له هذا الشرط ؛ لذلك نقول : إن كمال القرآن لا يتعدى ما دام له طريقة معينة ونغمة مضبوطة ، فلا بُدَّ أن تُراعى .

فمثلاً لو أنك تتكلم في خطبة عادية تقول : أيها السادة السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ، لقد استدعاني فلان لألتقي به في مكان كذا .. لو نطقتَ هذا الكلام بنغمة القرآن وطريقته لكان شيئاً غير مقبول (بايخ) أمَّا إنْ كان هذا النَّغَم في القرآن ، فإنه يأتي جميلاً متناسقاً .

إذن : كمال القرآن لا يُتعدَّى حتى في نطقه ؛ لأن هذا شيء مُختصٌّ به وحده دون غيره من الكلام ، فإنْ عدَّيْتَ خصائص القرآن إلى غيره من الكلام جاء سخيفاً مردوداً لا يُقبل .

أذكر ونحن صغار أنهم كانوا ينصحوننا بقراءة كتب الأدب مثل

كتب المنفلوطي مثل « العبرات » أو « النظرات » لنتعلم الأسلوب الجميل في كتابة الإنشاء ، وبالفعل كان أسلوبنا يتحسَّن ويترقَّى بقراءة كتب الأدب ، ونكتسب منها تعبيرات جديدة ، فإنْ جئتَ إلى حافظ القرآن الذي جوَّده على القراءات العشر أو الأربعة عشر ، وقرأتَ له كلمة أو مقالاً ، فإنك تجد أسلوبه لا يتأثر بالقرآن لماذا ؟ لأن كمال أسلوب القرآن لا يُتعدَّى .

إذن : نفهم أن حكمة القرآن جاءت من هذه الخصوصية : في حروفه حكمة ، وفي كلماته حكمة ، وفي نَظْمه ، وترتيله ، وفي أسلوبه الذي لا يُبَارى ولا يُنقَل إلى غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾

هذا هو جواب القسم ، الحق سبحانه يرد على كفار مكة ، ويقسم لهم : إنك يا محمد لمن المرسلين ، والمتكلم حين يرى المخاطب خالي الذهْن عن الأمر الذي يتحدث فيه يُلقي له الكلام طبيعياً بدون تأكيد ، فإنْ كان شاكاً في الكلام أو مُنكراً له أكّد المتكلمُ كلامه بمؤكِّد يناسب الشكَّ أو الإنكار .

لذلك الحق سبحانه يؤكد هنا كلامه بأكثر من مؤكد ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾[يس] فاستخدام التأكيد بإن واللام ، وقبل ذلك القسم؛ لأن الكفار منكرون لرسالته ﷺ ، وعلى قدْر الإنكار يكون تأكيد الكلام .

وتأمل في ذلك قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ۝١٤ ﴾[يس] وكانت النتيجة الإنكار ﴿ قَالُوا مَا

أنتم إلاَّ بشرٌ مثلُنا وما أنزل الرَّحمـٰن من شيءٍ إنْ أنتم إلاَّ تكذبون (١٥) ﴾ [يس]

لــذلك يؤكدون كــلامهم بأكثر من مؤكـد : ﴿ قالوا ربُّنا يعلمُ إنَّا إليكُمْ لمُرْسلُون (١٦) ﴾ [يس]

وقلنا . إن هذه الآية جاءت دليلاً وبرهاناً فى صورة اليمين ، كأن الله يقول : الذى يقرأ القرآن لا بُدَّ أنْ يؤمن بأنك يا محمد مُرسَل من الله ، لماذا ؟ لأنهم أمة كلام وتذوُّق ، وما وُجدت أمة من الأمم حتى المعاصرة تقيم معارض للكلمة ، أما العرب فى جاهليتـهم فقد أقاموا للكلمة أسواقـاً ومعارض يتبارى فـيها الخطباء والشـعراء كل عام فى المربد وعكاظ وذى المجنة[1] وغيرها .

وقد بلغ اهتمـامهم بالكلمة أن يعلقوا أروع قصـائدهم على أستار الكعـبة ، وما دام العـرب أمة كـلام ، إذن : كان عليـهم أنْ يستقـبلوا القرآن بهذه المَلَكة ، وألاَّ يخفى عليـهم إعجازه ، لكنهم كذَّبوه وقالوا : سحر وقـالوا : شعر وقالوا : افـتراء . فلما أعيتـهم الحيل ولم ينالوا من ذلك شـيئاً قـالوا : ﴿ لولا نُزِّل هـٰذا القرآنُ علىٰ رجُلٍ من القريتين عظيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف] يعنى : القرآن لا غـبار عليه إلا أنه نزل على محـمد ، هذه آفته عندهـم ؛ لأن ملكتهم البلاغية لا يصـح أن تقف أمام القرآن أو تُكذِّبه .

لذلك كانوا حتى وهُمْ على كـفرهم يحبون سماع القـرآن ، يتخفَّى الواحـد منهم ، ويذهب يتـسمَّع القـرآن من رسـول الله ليلاً ، وربمـا

(١) قـال أبو بكر الأزدى فـيمـا ذكـره المرزوقى فى كـتابه « الأزمنة والأمكنة » باب أسـواق العرب : « أسـواق العرب الكبـرة كانت فى الجـاهلية ثلاث عشـرة سوقاً . فـاولها قيـاماً : سـوق دومة الجندل ، ثـم صحـار ، ثم دبا ، ثم الشـحر ، ثم رابيـة حـضرمـوت ، ثم ذو المجاز ، ثم نطاة خيـبر ، ثم المشقر ، ثم حجر باليـمامة ، ثم منى ، ثم عكاظ ، ثم عدن ، ثم صنعاء » .

تقابل الاثنان منهم عند حجرات رسول الله ، فسأل أحدهما الآخر : ماذا أتى بك إلى هنا يا فلان ، فلا يملك إلا أنْ يقول : جئتُ لزيارة خالتى المريضة ، والآخر يقول جئت لكذا وكذا !! لكن هيهات فحالُه يُغنى عن مقاله[1] .

لذلك تأمل قول الشاعر فى هذه المسألة :

انْظُروهُمْ وقَدْ تَسَلَّل كُلٌّ   بَعْدمَا انفَضّ مجلِسُ السُّمَّارِ

اخْتِلاساً يَسْعَى لحجرةِ طه   لسَماعِ التنزيل فى الأسْحارِ

اعذروهم حسته فلَمَّا تَراءَوْا   علِّلوها بِبَسارِد الأعْذَارِ

لذلك كان الواحد منهم حينما يسمع القرآن من رسول الله ويعود إلى قومه ، فيقولون : لقد رجع فلان بغير الوجه الذى ذهب به .

﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ ﴾

الصراط : هو الطريق ، وله معنى آخر يوم القيامة ، هو الصراط المضروب على متْن جهنم يمرُّ عليه البَارُّ والفاجر ، والمؤمن والكافر ، ويختلف المارُّ عليه باختلاف عمله فى الدنيا ، فواحد يمرُّ عليه كالبرق

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (٣٣٧/١) طبعة دار التراث أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكلٌّ لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا (وتكرر هذا ثلاث ليال متوالية) حتى إذا كانت الليلة الثالثة قال بعضهم لبعض لا نبرح حتى نتعهد ألا نعود ، فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا ، وفى القصة طول فلتراجع هناك عن رأيهم فيما سمعوه .

الخاطف ، مع أنه أحَدُّ من السيف وأدَقُّ من الشعرة ، وآخر يمرُّ عليه كأسرع جَوَاد ، وآخر يمر عليه حَبْواً ، وآخر يقع في جهنم[1] ، والعياذ بالله .

وحين تمر على الصراط لن يكون معك عَصاً تحفظ بها توازنك كلاعب السيرك مثلاً ؛ لأن الذي يزنُ حركتك على الصراط هو القرآن الذي استمسكْتَ به في الدنيا ، فكأن المؤمن حين يمرُّ على الصراط لا يكون توازنه من تحته إنما من أعلى ، من جهة القرآن ، فهو أشبه بالكباري المعلَّقة التي لا يحملها شيء من تحتها ، لكنها مشدودة من أعلى بما يمسكها ويحفظ توازنها ، كذلك حال المؤمن على الصراط .

والصراط في معناه العام هو الطريق المستقيم الذي يوصلك للغاية من أقرب مسافة وأيسرها ، لكن عبارة القرآن ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤) ﴾[يس] فيها إشارة إلى أن الصراط له مهمة ، هي أنْ يُوصِّلك إلى الغاية المرادة ، فالصراط في خدمتك .

ومثل ذلك قوله سبحانه : ﴿ عَلَىٰ هُدًى (٥) ﴾ [البقرة] البعض يفهم أن الهداية تقتضي التكاليف وتقييد الحركة ، وأن في الهداية مشقة وعنتاً ، لكن لفظ الآية يعني خلاف ذلك ، فمعنى ﴿ عَلَىٰ هُدًى (٥) ﴾ [البقرة] أنك تعتلي الهدى ، وكأنه مطية لك تُوصِّلك لغايتك المجيدة ، فهو يحملك ، لا تحمله أنت .

ووَصْف الصراط بأنه مستقيم ، لأننا تعلمنا في الهندسة أن الخط

---

(١) أخرج أحمد عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ « لجهنم جسر أدق من الشعرة وأحدّ من السيف عليه كلاليب وحسك يأخذون من شاء الله ، والناس عليه كالطرف وكالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب ، والملائكة يقولون : رب سلم رب سلم ، فناجٍ مُسلَّم ، ومخدوش مُسلَّم ، ومكوَّر في النار على وجهه » أخرجه أحمد في مسنده [٦/ ١١٠] وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد [١٠/ ٣٥٩] وقال : « فيه ابن لهيعة وهو ضعيف وقد وثق » .

المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين ، فحين تريد مثلاً الانتقال من مكان إلى مكان ، فـ (من) للابتداء ، و (إلى) للغاية التي تريدها ، وما دُمْتَ لا يعنيك إلا البداية والغاية ، فالتيسير يقتضي أنْ تسلك أقرب الطرق وأقصرها وهو الخط المستقيم ؛ لأن كل التواء في الطريق أو منعطف يكون في خط السير مُثلَّثاً من ضلعين، ويكون الطريق المستقيم هو الضلع الثالث .

ومعلوم أن مجموع أيّ ضلعين في المثلث أطول من الثالث ، إذن : يطول عليك الطريق ؛ لذلك يُحدِّثنا القرآن عن الصراط المستقيم ، وعن سواء السبيل يعني : الجهة اليمين تساوي الجهة اليسار .

لكن ، لماذا كان طريق المؤمنين صراطاً مستقيماً ؟ لأن الله تعالى هو الذي شرعه في منهج خَلْقه ، ولأنه مُنزَّل من الله .

﴿ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ ﴾

وساعةَ تسمع كلمة ﴿ تَنزِيلَ ۝٥ ﴾ [يس] فاعلم أنه من جهة العلو ، وإنْ كان المنزَّل في باطن الأرض ؛ لأنه في واقع الأمر جاء من الأعلى ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ۝٢٥ ﴾ [الحديد] فالحديد لا تنظر إلا أن مقرَّه في الأرض ، لكن انظر إلى عُلُوِّ خالقه ؛ لذلك أعطاه الله صفتين : صفةٌ دنيوية ، وأخرى دينية .

﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ۝٢٥ ﴾ [الحديد] فالبأس الشديد لأعداء الله ﴿ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ .. ۝٢٥ ﴾ [الحديد] فهذه للآخرة ، وفيه منافع للناس أي : في الدنيا ؛ لذلك تجده المعدن الشائع الانتفاع به ، والأكثر قوةً وصلابةً .

وقوله تعالى ﴿ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) ﴾ [يس] ذكر سبحانه هنا صفة العزة وصفة الرحمة ؛ لأن التنزيل من أعلى منهج يقيد حركة الإنسان بافعل كذا ، ولا تفعل كذا ، وأنت مختار تطيع أو تعصى ، فالحق الذى شرع لك هذا المنهج يريد لك الخير ؛ لأنه سبحانه لا يعود عليه شىء من طاعتك ولا تضره معصيتك .

إذن : أنت المقصود من هذه المسألة ؛ لأن الله تعالى عزيز عن خَلْقه ، ورحيم بهم ، فإذا نظرتَ إلى العاصى المخالف لمنهج الله ، فالله عزيز قادر على الانتقام ، لا يقدر أحد أن يأخذك من قبضته تعالى ، وإذا نظرتَ إلى المطيع ، فالله رحيم .

وعلة الإنزال :

﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ(1) ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ (٦) ﴾

الإنذار : التخويف من معطب مهلك ، ويشترط أنْ يكون الإنذار قبل وقوع الشىء ليؤدى الإنذار مهمته فى أنْ يردع الإنسان عنه ، فلا يقع فى أسباب الهلاك ، ويستطيع أنْ يحتاط لنفسه ، وأن ينجو بها .

---

(١) فى هذه الآية أمر دقيق جداً يجب الانتباه إليه ، فإن بعض المشككين فى القرآن قديماً وحديثاً يقولون : كيف يقول القرآن هنا ﴿ مَّا أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ (٦) ﴾ [يس] أى أن العرب لم يُنذروا من قبل ، وهذا ما صرح به ابن كثير فى تفسيره ، كيف يقول القرآن هنا هذا ، وفى آية أخرى يقول - ﴿ وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا (٥٤) ﴾ [مريم] أليس إسماعيل من العرب؟

نقول : نعم ، إسماعيل رسول ونبى كما نص القرآن ، بل فى آيات أخرى كثيرة صرح القرآن بأنه أوحى إلى إسماعيل ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ (١٦٣) ﴾ [النساء] ، بل نزل عليه مثل ما نزل على إبراهيم ، كما صرحت الآية ﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ..(٨٤) ﴾ [آل عمران] وهذا يؤكد أن (ما) هنا فى الآية اسم موصول ، لا نافية . والمعنى على هذا : لتنذر قوماً الذى أُنذر آباؤهم أى (مثل الذى) أو (بالذى) . لذلك قال : فهم غافلون أى أنهم غفلوا ونسوا ما كان عليه إبراهيم وإسماعيل ، فأشركوا مع الله رب البيت الذى بناه ورفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ، وكانوا يُقرُّون بأن الله هو الخالق الرازق ، ولكن علتهم فى الشرك ورفضهم أن يخرج من بنى هاشم رسول . والله تعالى أعلى وأعلم . [عادل أبو المعاطى]

ومعنى ﴿مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ ⑥﴾ [يس] ساعة تسمع (ما) تظن أنها نافية ، كذلك قال المفسرون . قالوا : لأنهم كانوا أي : الآباء أهل غفلة ، وعلى فترة من الرسل ، فلم يكُنْ لهم رسول ينذرهم . فإنْ قُلْنا إن رسول الله ﷺ أرسلَ نذيراً للناس كافة ، بمن فيهم من اليهود والنصارى قالوا : لا ، ليس نذيراً لنا ، فقد جاءنا نذير من قبله ، جاءنا موسى وجاءنا عيسى .

وحَلُّ هذا الإشكال أن تقول : نعم موسى عليه السلام أنذر قومه ، وعيسى عليه السلام أنذر قومه ، لكن مرَّتْ عليهم جميعاً فترات اختلفوا فيها وضلُّوا ، ولم يأتِ لهم نذير يردُّهم عن ضلالهم ، إذن : جاءكم النذير ، لكنكم لم تستمروا على نذارته ، وها هو محمد ﷺ جاءكم نذيراً جديداً .

أو : أن (ما) هنا بمعنى اسم موصول أي : لتنذر قوماً بالذي أُنذر به آباؤهم ، كما أُنذر آباؤهم من قبلهم . يعني : لستَ بِدْعاً من الرسل .

وقوله : ﴿فَهُمْ غَافِلُونَ ⑥﴾ [يس] الغفلة أنْ يوجد شيء كان بخاطرك ، ثم لم يتعلَّق قلبك به حتى يدخل في مرتبة النسيان ، فلا تذكره إلا حين يأتي مَنْ ينبهك إليه ، ويُذكِّرك به ، والنسيان ليس وظيفة القلب ، إنما وظيفة العقل والذاكرة ، فلو أن القلب مُتعلِّق بالشيء ، فكلما طرأتْ عليه غفلة تعلَّق القلبُ بها يسدها ، فتظل في الذاكرة لا تغفل عنها .

﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ⑦﴾

الحق سبحانه وتعالى سطَّر أزلاً كلَّ ما يكون من مُستقبلي أيِّ دعوة دينية المؤمنين بها والكافرين ، لكنه سبحانه ترك للناس

الاختيار ، وكَوْنه تعالى يسجل ما سيحدث من الناس ، ثم يأتي الحدث منهم وفْق ما سجَّل ، هذا يعني أن ما قاله قديماً حقٌّ .

والقرآن يقول مرة ﴿حَقَّ الْقَوْلُ ۝٧﴾ [يس] ، ومرة ﴿سبق عليه الْقَوْلُ ۝٤٠﴾ [هود] ، ومرة ﴿وقَعَ الْقَوْلُ ۝٨٢﴾ [النمل]

وكلها تدل على أن ما سبق في علم الله من الإخبار عن مختار اختار الهدى أو الضلال مُسجَّل عنده تعالى ، وهو حق كما أخبر الله به ، ولو كان العبد غير مختار لَقُلْنا : إن الله قهره على ما أراد ، لكنه مختار .

والحق سبحانه له طلاقة القدرة وطلاقة العلم ، فلعلمه تعالى بما سيكون سجل وكتب ، وقد أوضحنا هذه المسألة في كلامنا عن أبي لهب : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد] فقد كان بوسع أبي لهب حين سمع هذه الآية أنْ ينطق بكلمة الإيمان ولو نفاقاً ، وله إذن أنْ يتهم القرآن وأنْ يُكذِّبه ، لكنه لم يفعل وظلَّ على كفره حتى صدَّق فيه إخبار الله مع أنه مختار .

كذلك في قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ..۝٨﴾[المجادلة] وعجيب منهم بعد أنْ فضحهم القرآن ، وأخبرهم بما يدور في نفوسهم ألاَّ يؤمنوا به ، وألاَّ يسألوا أنفسهم مَن الذي أخبر محمداً بما في نفوسنا ، ولو لم يكُنْ منهم هذا القول في أنفسهم بالفعل لواجهوا محمداً ، ولقالوا : لم يحدث منا هذا .

لذلك الذين أنكروا رسالة محمد ﷺ مع إخباره بمغيبات لا تقع عليها عقول البشر أنكروا رسالته ، ولكنهم أرادوا أنْ يُثبتوا له فوق الرسالة أنه إله يخبر بالشيء قبل حدوثه ، فهو ﷺ يقول لهم : أنا رسول وهم يريدونه إلهاً .

القول السابق وقع على هؤلاء ؛ لأنهم لا يؤمنون ، ولأنهم يكذبون ويعاندون ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) ﴾ [يس] لذلك يقولون : إن للملائكة تعجباً ، قالوا : وما تعجُّب الملائكة ؟ قالوا : ساعة تقع في كون الله حركةٌ يجدون خبرها عندهم في الكتاب ، فيقولون : ما أعلم ربنا وأقدره ، يعني : ما أخبر الله به ، وقع كما أخبر تماماً ، مع أن العباد لهم حرية الاختيار .

ولما حاول الفلاسفة عَرْض هذه المسألة : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) ﴾ [يس] قالوا : الحق سبحانه وتعالى حين ترك الأمر للمكلَّف بالاختيار ؛ لأن الإنسان نفسه قبل أنْ يكون مختاراً لم يلزمه الله بشيء ، على خلاف السموات والأرض والجبال ، فقد رفضتْ هذا الاختيار ، واختارت أن تكون مُسخَّرة لله ، مقهورة لإرادته سبحانه .

يقول تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

إذن : الحق سبحانه خيَّر الجميع فأبت السموات والأرض والجبال ، أما الإنسان فقد اغترَّ بعقله وذكائه وتصرفه في الأمور ، فقَبِل الاختيار ، فحكم الله عليه بأنه ظلوم وجهول ، ظلوم لأنه ظلم نفسه بتحمُّل الأمانة ، وجهول لأنه ضمن وقت التحمل ، ولم يَضمن وقت الأداء ، فالعاقل هو الذي ينظر إلى وقت أداء الأمانة ، لا إلى وقت تحمُّلها .

فلو جاءك صديق يُودع لديك مبلغاً من المال كأمانة لحين الحاجة إليه ، فمن السهل عليك أنْ تقبل هذا المبلغ وفي نيتك أداؤه عندما يطلبه صاحبه ، لكنك لا تضمن أنْ تتغير ظروفك فتحتاج إليه ، أو تتغير ذمتك ، أو غير ذلك مما يطرأ على الإنسان .

إذن : فجهل الإنسان هنا أنه أغفل وقت الأداء ، وظُلْمه لنفسه أنه جرَّ عليها ما لا تقدر عليه ؛ لأن شهوات نفسه لا بُدَّ أن تُلح عليه ، ولا بُدَّ أنْ تُوقعه في المخالفة .

قالوا : إن العالم كله محكوم بأمرين : بمشهود ، وغيب ، ومن عجيب الأمر أن المشهود هو الدليل على الغيب ، يعني خُذْ مما تراه دليلاً على ما لا تراه ؛ لذلك حين تريد أنْ تربي في الناس الإيمانَ بالله تلفت أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) ﴾ [فصلت]

وبعد أنْ تتأمل في ملكوت الله وآياته في كونه فتؤمن به يعطيك قضايا أخرى لا يتسع لها عقلك ، لماذا ؟ لأنه سبحانه يريد للإيمان به عنصرين : أنْ تؤمن بالمشهد ، وأن تسلم إذا آمنت بالمشهد على وجود حق ، وهو الحق واجب الوجود ، فتسمع منه سبحانه ، فإنْ أخبرك بشيء لم يتسع له عقلك فاقبله من باطن الإيمان به .

فإنْ قال لك إن الصراط مثلاً أدقُّ من الشعرة ، وأحدُّ من السيف فلا تنكر ، وإنْ كان عقلك لا يتسع لإدراكها ، لأن الذي قالها الله المشرع . فأنت أخذتَ من المشهد دليل الغيب وهو الله ، وأخذتَ من دليل الغيب وهو الله إيمانك بأشياء لا يعقلها عقلك ، فكأن المشهد والغيب عليهما مدار الإيمان وغيره .

فمطلوبات التديُّن إما مطلوبات من القلب ، أو مطلوبات من

الجوارح ، أو مطلوبات من اللسان . فالقلب مطلوب منه العقيدة بأنْ يؤمن بواجب الوجود ، وأنه واحد ، وأن يؤمن بأنه لا بُدَّ أن يبلغنى منهج حياتى ؛ لأنه هو الذى خلقنى وأنا صنعته ، والصانع هو الذى يحدد قانون الصيانة لما صنع ، وقانون الصيانة لا يكون إلا بالبلاغ .

والحق سبحانه لا يكلم الخلْق واحداً واحداً ، إنما يصطفى لهذه المهمة - مهمة البلاغ عنه سبحانه - مَنْ يشاء من الملائكة ومن البشر ، فالمصطفى من الملائكة يبلغ المصطفى من البشر ، والمصطفى من البشر يبلغ بقية الناس ؛ لذلك ربَّى النبى ﷺ الأمة الإسلامية فى ثلاث وعشرين سنة ، ولو أن كل واحد انتظر أنْ يكلمه الله مباشرة لاستغرقتْ تربية الأمة أكثر من ذلك بكثير .

إذن : البلاغ عن الله ضرورة من ضرورات وجود الله ، وإلا إذا كان الله موجوداً فأنت لا تعرف أنه سبحانه واحد ، أو أن له شريكاً ، أنت بنفسك لا تعرف هذه المسألة ، لا بُدَّ من رسول يخبرك : عن الله ، عن اسمه ، وعن صفاته ، وعن مراده منك .

لذلك الذين يعبدون الشمس أو القمر أو الشجر أو الحجر أبلغ رد عليهم أنْ نقول لهم أولاً : ما هى العبادة ؟ العبادة طاعة العابد لمعبوده فى أمره ونَهْيه ، فنقول : ماذا قالتْ لكم الشمس ؟ بِمَ أمرتكم ؟ وعن أىِّ شىء نهتْكم ؟ ماذا أعدَّتْ لمن عبدها ؟ وماذا أعدَّتْ لمَنْ عصاها ؟ إذن : هذه آلهة بلا منهج وبلا تكاليف ، فهى إذن باطلة مردودة .

وسبق أنْ أوضحنا هذه المسألة بمثال ، قُلْنا : لو أن طارقاً طرق علينا الباب ، لا بُدَّ أننا جميعاً سنلتقى فى فكرة واحدة ، هى أن طارقاً بالباب يريد الدخول ، إنما لا أحد منا يعرف مَنْ هو ؟ ولا لماذا

أتى ؟ ولا من أين ، أهو بشير أم نذير ؟ هذه أمور لا بد أننا سنختلف فيها .

إذن : علينا أن نقف عند الحد الذى نتفق عليه ، وهو أن طارقاً بالباب ، ونترك لهذا الطارق أن يُعبِّر هو عن نفسه ، فنقول : مَنْ أنت ؟ فيقول أنا فلان جئت لكذا وكذا . كذلك الحق سبحانه يكفى أنْ تستدل من صُنْع الكون العجيب أن له صانعاً عالماً قادراً حكيماً ، له كل صفات الكمال ، لكن مَنْ هو ؟ وما مراده منك ؟ هذه مهمة الرسول المبلِّغ عن الله .

لذلك ، فإن خيبة الفلاسفة أنهم لم يقفوا عند تعقُّل واجب الوجود سبحانه ، بل أرادوا أنْ يتصوروا واجب الوجود ، هذا هو خطؤهم ، ولو وقفوا عند التعقُّل لكان كافياً ، ثم تقول لمن تعقلته : من أنت ؟ وماذا تريد منى ؟ ماذا أعددتَ لى إنْ أطعتُك ؟ وماذا تفعل بى إنْ عصيتُك ؟ وعندها يرسل لك رسولاً يجيبك على كل هذه الأسئلة .

هذا هو مطلوب التديُّن القلبى ، وهو الاعتقاد بوجود إله واجب الوجود ، واحد أحد ، وأنه يرسل الرسول ليبلغ عنه ، وهذا الرسول صادق فى البلاغ مُؤيَّد بمعجزة ، هذه مسألة عقلية واضحة .

وبعد أنْ آمنتَ بهذه العقلية الواضحة المشهودة يخبرك بأشياء غيبية لا دليلَ عليها ، كالإخبار مثلاً عن الجنة وصفاتها ، وأنك ستتمتع فيها وتأكل دون أن تتغوط .. إلخ هذه كلها مسائل يقف العقل أمامها ، لكن مَنْ أخبرك بها ؟ الله الذى صدقك فيما شاهدتَ ، وسبق أنْ آمنتَ به ووثقتَ بكلامه .

ثم يأتى دور مطلوبات الجوارح ، فالإله الذى آمنتَ به لا بُدَّ أنْ

تكون على اتصال دائم به سبحانه ؛ لذلك شرع لك الصلوات الخمس ، وفيها دوام الولاء لله .

لكن ، لماذا جعلها خمس صلوات ؟ قالوا : كانت خمسين لتستوعب كل الزمن يعني : خمسين تُوزَّع على أربع وعشرين ساعة ، بمعدل صلاة كل نصف ساعة ، ومن رحمة الله بنا أنْ جعلها خمساً في العمل ، وخمسين في الأجر ، ومع ذلك يملّ الناس منها .

وأذكر أننا ونحن في الحرم ، كنا نصلي الظهر مثلاً ، وسرعان ما يُؤذِّن للعصر ، فلا نتمكن من الجلوس في الحرم والتأمل فيه ، والنكتة المشهورة في هذا المقام أن الشيخ أحمد رحمه الله كان كثيراً ما يُذكِّر واحداً منا بالصلاة (قوم يا واد صلي) . فقال له : يا شيخ أحمد (احنا جايين نحج ، مش جايين نصلي)

إذن : نقول جُعلَتْ الصلاة خمساً لتستوعب كل اليوم والليلة ، ولتحقق استدامة الولاء لله تعالى ، ثم أنت في الصلاة نفسها تجد هذه ركعتين ، وهذه ثلاثاً ، وهذه أربعاً دون أنْ يعي عقلُك الحكمة من العدد هنا ، ويكفي أن تقول هنا إن الله هو الذي شرعها كذلك وتقف.

ثم أنت لا تعيش في المجتمع بمفردك ، بل مع أناس ، منهم الضعيف ، ومنهم الفقير والمحتاج ، وهؤلاء لا بُدَّ أنْ يعيشوا كما تعيش أنت ، فعليك أن تُعينهم بالزكاة أو الصدقة .

ثم شرع لك الصيام ، وهو عبادة تُعوِّدك ألاَّ تعصى الله وتُبعدك عن المخالفة ، حتى تصير الاستقامة عادةً مُتأصِّلة فيك ، والله يريد أنْ يستديم في التكاليف حرارة العبادة ، لا إلْفَ العادة ؛ لذلك يأتي إلى ما أحلَّه لك في شعبان ، ويمنعه عنك في رمضان .

كذلك في اللسان الذاكر الناطق بالكلمات ، هناك في القرآن كلام تفهمه ، وكلام يقف أمامه عقلك ، فـفواتـح السور مثلاً كلها مما تقف فيه العقول ، والباقي مما تتفتّـح فيه العقول وتفهمه ؛ لأن هناك فرقاً بين مَنْ يُقبل على الشيء لتعقله ، ومَنْ يُقبل على الشيء بدون تعقُّل ، ولكن لأن الآمر أمر به .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً قُلْنا : هَبْ أن سـيداً في بيته وعنده عمال، فقال لواحـد منهم : انقل هذا الحجر من مكانه إلى مكان آخـر فقال : لا أقدر وحدى ، وسوف أستعين بزميل لى ، فقال : إن تحته مالاً هو لك ، عندها سيكافح وحده لنقل الحـجر ، إذن : نقله للعلة أم للأمر ؟ للعلة ، والإيمان لا يكون كذلك ، الإيمان لا يكون لعلـة ، إنما انصياعاً للأمر .

فالمعنى : ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ (٧) ﴾[يس] يعنى : وجب وثبت وجاء كما سجلناه عليـهم ، وقوله ﴿ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ (٧) ﴾[يس] يعنى : ليس عليهم جميعاً ، وهذا كما قلنا سابقاً احتياط للواقع ، وهو دليل على أن منهم مـؤمنين ، ولو رجـلاً واحـداً ، وهذا الاحتـيـاط من القـرآن تـسـمـيـه « صيانة الاحتمال » .

وقوله تعالى : ﴿ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) ﴾[يس] إخبار يدل على حيثيات هذا الإخبار .

ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) ﴾

يعطينا الحق سبحانه في هذه الآية تصويراً لحال هؤلاء الكافرين المعرضين عن اتباع الحق ، فيقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ (٨) ﴾[يس] الأغلال : مفردها غل ، وهو الحديدة التي تمسك اليد وتشدها تحت الذقن ، وحين تشد اليد تحت الذقن ترتفع الرأس إلى أعلى ، وبالتالي يرتفع مستوى النظر إلى أعلى ، فلا يكاد يرى الإنسانُ طريقه ، ولا يهتدي إلى موضع قدمه .

وهذه الصورة واضحة أيضاً في معنى كلمة ﴿ مُّقْمَحُونَ (٨) ﴾[يس] المقمح : مأخوذ من إبل قماح ، وقماح الإبل أنها حين تذهب لشرب الماء تغرف منه ، ثم ترفع رءوسها إلى أعلى[1] .

قال بعضهم : إن هذه صورة رسمها الحق سبحانه لمن غَلَّ يده عن الصدقة وعن الإنفاق ، كذلك تُغَلُّ يده إلى عنقه يوم القيامة ، بحيث يؤثر هذا الغُلُّ في مساره الذي بنى عليه حركة حياته ، والحق سبحانه يوازن دائماً بين ما فعله المستحق للجزاء والجزاء ، فالجزاء من جنس العمل .

ومثال ذلك قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٣٤) ﴾[التوبة] هذا هو العمل ، فما الجزاء ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾ [التوبة]

هذه مواضع ثلاثة من الإنسان : الجباه ، والجُنُوب ، والظُّهور جاءت بهذا الترتيب لتطابق تماماً ما فعله صاحب المال الذي كنز ماله وضَنَّ به على الفقير ، فقد كان الفقير يأتيه فيلوي عنه جبهته ويعطيه جَنْبه ، ثم

---

(١) قال الجوهري : قمح البعير قموحاً وقامح إذا رفع رأسه عن الحوض وامتنع عن الشرب ، فهو بعير قامح . [لسان العرب - مادة : قمح] .

يدير له ظهره وينصرف عنه ، فجاء عذابهم على مقدار ما فعلوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

هل معنى هذا أن الله تعالى يساعدهم ، ويُعينهم على الكفر ؟ قالوا : نعم لأن عبدى حين أناديه فيتأبَّى علىَّ فى ندائى ، ولا يُقبل علىَّ بعبوديته لى أعينه على كفره ؛ لأننى رَبٌّ غنى عنه ، فإنْ أحب الكفر وعشقه ولم يَعُدْ هناك أمل فى هدايته أختم على قلبه ، فلا يدخله إيمان ، ولا يخرج منه الكفر . لذلك مَنْ تجنَّى عليك وصَدَّ عنك فاعنْه على ذلك ، ولا تُذكِّره بنفسك .

إذن : ما كفر أحد غَصْباً عن الله ، إنما كفر بما أودع الله فيه من اختيار ، ولأنه سبحانه رَبٌّ وهو خالق العباد ، فعليه سبحانه أنْ يُعينهم ، كلاً على ما يريد ، فالذى أراد الإيمان وأحبَّه أعانه على الإيمان ، والذى أراد الكفر وعَشقه أيضاً أعانه عليه وساعده .

لذلك ختم الله على قلوب الكافرين ، وهنا يقول : ﴿ وجعلْنَا من بيْن أيْديهمْ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] يعنى : أمامهم ﴿ سَدًّا ﴿٩﴾ ﴾ [يس] حاجزاً ومانعاً ﴿ ومِنْ خَلْفهمْ سَدًّا ﴿٩﴾ ﴾ [يس]

هذا مانع مادى خارج عن تكوين الإنسان ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] يعنى : جعلنا على أبصارهم غشاوة وغطاءً ، فهم مصدودون عن الحق لأشياء . أولاً : فى ذواتهم أغشينا أبصارهم فلا يروْنَ ولا يهتدون ؛ لأنهم بذواتهم لم يذكروا عهد الفطرة الأولى التى فطر اللهُ الناس عليها .

أما الخارج عنهم ، ففى المنهج الذى لم يلتفتوا إليه ، لا فيما أمامهم ، ولا فيما وراءهم ؛ لأن هناك سَدّاً يمنعهم ، فلو تذكَّروا ما ينتظرهم لارتدعوا عن غَيِّهم ، ولو تأملوا ما نزل بمَنْ سبقهم من المكذِّبين ، وما حاق بهم من عذاب الله لرجعوا .

لكن جعل الله من أمامهم سَدّاً ، فلا يعرفون ما ينتظرهم ، ومن خلفهم سَدّاً فلا يتدبرون ما حاق بأسلافهم ، ممَّنْ قال الله فيهم : ﴿ فكُلاً أخذنا بذنبه فمنهم مَّن أرسلنا عليه حاصباً ومنهم مَّنْ أخذته الصَّيْحة ومنهم مَّنْ خسفنا به الأرض ومنهم مَّنْ أغرقنا[1] .. (٤٠) ﴾ [العنكبوت]

فإنْ قُلْتَ : الحق سبحانه جعل سَدّاً يمنعهم من الجهة الأمامية ، وسَدّاً يمنعهم من الجهة الخلفية ، فماذا لو ساروا على جنب إلى اليمين ، أو إلى اليسار ؟ قالوا : لو ساروا وتوجهوا إلى اليسار مثلاً لَصَار اليسار بالنسبة لهم أمام ، واليمين صار خلفاً ، فهم إذن مُحَاصرون بالموانع ، بحيث لا أمل لهم فى الرجوع إلى منهج الحق ، وإلى الصواب .

ويصح أن يكون المعنى ﴿ وجعلنا من بَيْن أيْديهم سدّاً ومنْ خلفهمْ سدّاً (٩) ﴾ [يس] أى : مانعا يمنعهم من التأمل والنظر فى الأدلة العقلية المنصوبة أمامهم ليؤمنوا ﴿ ومنْ خلْفهمْ سدّاً (٩) ﴾ [يس] يمنعهم ، فلم

---

(١) هذه أربعة أصناف من العذاب :

- ﴿ فمنهم مَّن أرسلنا عليه حاصباً (٤٠) ﴾ [العنكبوت] : هم قوم عاد ، والحاصب ريح شديدة البرد عاتية شديدة الهبوب جداً تحمل عليهم حصباء الأرض حصاها ورمالها .
- ﴿ ومنهم مَّنْ أخذته الصَّيْحة (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هم قوم ثمود ، جاءتهم صيحة أو صرخة أخمدت منهم الأصوات والحركات .
- ﴿ ومنهم مَّنْ خسفنا به الأرض (٤٠) ﴾ [العنكبوت] : هو قارون ، خسف الله به وبداره الأرض .
- ﴿ ومنهم مَّنْ أغرقنا (٤٠) ﴾ [العنكبوت] هو : فرعون ووزيره هامان وجنودهما أغرقوا عن آخرهم فى صبيحة واحدة

ينتهوا إلى الفطرة الإيمانية المُودَعة فيهم .[1]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

السوائية هنا بالنسبة لهم ، لا بالنسبة لرسول الله ﷺ ؛ لأن رسول الله عليه مجرد البلاغ ، ومادام بلَّغهم فقد انتهت مهمته ، فكأن الله يقول له : اطمئن ولا تحزن ، فإنذارك وعدمه عندهم سيَّان ، إنما بإنذارك أُقيمت عليهم الحجة ، لأنهم أقسموا في موضع سابق : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ﴾ [فاطر]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ فَبَشِّرۡهُ بِمَغۡفِرَةٖ وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾

---

(١) أورد ابن كثير في تفسيره هذه الآية (٣/ ٥٦٤) عن محمد بن كعب القرظي « أن أبا جهل قال لصناديد قريش وهم جلوس : إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكا ، فإذا متم بعثتم بعد موتكم وكان لكم جنان خير من جنان الأردن ، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ثم بعثتم بعد موتكم وكانت لكم نار تعذبون بها وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يده حفنة من تراب ، وقد أخذ الله على أعينهم دونه فجعل يذرُّها على رءوسهم ويقرأ (يس والقرآن الحكيم) حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] وانطلق رسول الله ﷺ لحاجته وباتوا رصداء على بابه حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال : ما لكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً ، قال : « وقد خرج عليكم ، فما بقى منكم من رجل إلا وضع على رأسه تراباً ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب » وذكره أيضاً السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٤٣) وعزاه لابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي نعيم في الدلائل .

يعنى : إنذارك يا محمد يجدى مع مَنْ يذكر الله ويخافه ، ويؤمن به ، ويؤمن بقدرته تعالى على البعث وعلى الحساب ، هذا الذى ينتفع بالإنذار ويستفيد منه على خلاف المكذِّب للأصل ، كيف يستفيد من الإنذار ؟ ومعنى ﴿اتَّبَعَ الذِّكْرَ (١١)﴾ [يس] أى : القرآن .

والخشية : خوف ، لكن بمهابة ، فأنت تخاف الله وتهابه ، وكذلك ترجوه ، أما الخوف من غير الله فخوف بكُرْه ؛ لأنه خوف من جبروت ؛ لذلك جاءت بعد الخشية صفة الرحمة ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ (١١)﴾ [يس] فأنت تخاف ممَّن اتصف بالعطف والحنان ، وهذا أدْعى أنْ يُحبِّبك فيمَنْ تخاف منه ويعطفك إليه ، فتكون خشيتك له ممزوجة بالهيبة والوقار ، وبالرجاء فيه ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ (١١)﴾ [يس] حتى لا تنفر من الذى تخافه

وهذه الخشية تكون من المؤمن ﴿بِالْغَيْبِ (١١)﴾ [يس] يعنى : ساعة يكون غائباً عن الناس منفرداً ، فإنه يخشى الله ، ولا يخشى الناس ، ولا يحتاج إلى رقيب ؛ لأن رقابة البشر للبشر لا تُجدى ؛ لأنك ستجعل عليه رقيباً من جنسه ، وما جاز على المراقَب يجوز على المراقِب من تدليس وغيره ، حتى حين تجعل على المراقب تفتيشاً مفاجئاً لا تأمن التدليس .

وسبق أنْ ضربنا مثلاً برجل المرور ، فالواحد منا قبل أنْ يُسمح له بقيادة سيارة لا بُدَّ أنْ يمرَّ بشروط قاسية تضمن أولاً سلامة السيارة التى يقودها ، ثم تمكّنه هو من فن القيادة ، ولا بُدَّ أنْ يجتاز الاختبارات اللازمة لذلك ، ومع هذا كله منَّا مَنْ يلتزم ، ومنَّا مَنْ لا يلتزم بالقواعد المرورية ؛ لذلك نجعل رجل المرور ليراقب وينظم حركة المرور فى الشوارع ، وعليه مَنْ يراقبه

لكن لما وجدوا أن رجل المرور يمكن أنْ يُدلس ، فيأخذ الرخصة من مخالف ، ويتغافل عن آخر استحدثوا آلات للمراقبة مثل الرادارات، لتكون أكثر دقة ، لكن هذه الآلات مَنْ يُشغِّلها ؟ بشر يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم .

إذن : حين يكون المراقب من جنس المراقَب ، فعملية المراقبة لا تفيد ، ولو جعلنا على كل منا رقيباً لاحتجْنا إلى جيوش من الحراس .

إذن : ماذا نفعل لنحكم هذا العالم كله ؟

محمد ﷺ جاء ولرسالته ميزات الرسالة الكاملة ، فرسالته غير محدودة بزمان ولا بمكان ، فالزمان والمكان هما اللذان يحصران الأحداث ، فهما ظرفان للحدث ، فإذا لم يكُنْ حدث موجوداً فلا زمانَ ولا مكانَ ؛ لذلك لا يصح أنْ يُقال بالنسبة لله تعالى : أين ولا متى ، لأن أيْن ومتى مخلوقتان لله .

وإذا كان الزمان والمكان يشتركان في الظرفية للحدث إلا أن المكان ظرف قارٌّ يعني : ثابت ، والزمان ظرف متغير ، فهذا وقته الصبح ، وهذا الظهر ونقول : هذا قبل كذا ، وهذا بعد كذا .

رسول الله جاء برسالة عامة في الزمان وفي المكان إلى أنْ تقوم الساعة ، وجاء بمنهج لصيانة الإنسان في العالم كله مع اختلاف بيئاته وطبائعه ، وفي الأزمنة باختلاف عصورها ، فكيف تتحقق هذه الصيانة وهذه المراقبة ؟ ما دام محمد ﷺ قد جاء بمنهج ليحكم به العالم كله زماناً ومكاناً ، فلا يصح أنْ يجعل على كل فرد منه رقيباً من جنسه ، ولا حتى من الملائكة ، إنما عليه أنْ يربي في نفوس الناس خشية الله ، وأنْ يزرع في قلوبهم المهابة منه سبحانه بالغيب ،

وهذا هو الرقيب الحقيقى والرقيب الملازم الذى لا ينفكّ عنك ، ولا يفارقك لحظة .

لذلك ، المرأة التى راودها الرجل وأغراها بأنهما فى فلاة لا يراهما أحد فقال لها : ما يمنعك منى ، وما يرانا غير الكواكب ؟ فقالت له : يا أبله ، وأين مُكوكب الكواكب ؟ هذه هى خشية الرحمن بالغيب .

ورُوِى أن المعتضد[1] وهو أحد ملوك دولة بنى بُوَيْه أيام الخلافة العباسية ، وكان مشهوراً بالذكاء والعدل ، وحدث أن جاء رجل إلى سوق بغداد ليبيع عقْداً نفيساً ليحج بثمنه ، فلم يجد فى السوق مشترياً لنفاسة العقد ، ومرّ الرجل بشيخ وقور عليه علامات الصلاح فقال : هذا رجل أمين أُودع عنده هذا العقد أمانة حتى أعود من الحج ، فلما عاد من الحج سأل الشيخ عن العقد الذى تركه عنده ، فأنكره الشيخ ، وخابت كل محاولاته لاستعادة العقد .

سمعه أحد المارة فقال : يا هذا إنه رجل مخادع كذاب ، اذهب إلى المعتضد ، وسوف يعيد لك العقد بذكائه وحيلته ، ذهب الرجل إلى المعتضد وقصَّ عليه القصة فقال له : اذهب فى الغد واجلس بجوار هذا الرجل ، وسوف أمرُّ عليك فى موكبى فلا تَقُمْ لى وإنْ كلَّمتُك فرُدَّ وأنت جالس ، ودَعْنى أتصرف فى هذه المسألة .

وفى الغد مَرَّ المعتضد فى موكبه المهيب ، وحوله الحاشية

---

(١) ليس المعتضد ، وإنما هو عضد الدولة واسمه فنّاخسرو ، أبو شجاع ، أحد المتغلبين على الملك فى عهد الدولة العباسية ، ولد ٣٢٤ هـ تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة ، كان شيعياً ، وكان كثير العمران عظيم الهيبة ، توفى ببغداد عام ٣٧٢ هـ عن ٥٢ عاماً . [الأعلام للزركلى ٥/١٥٦].

و (الهيلمان) والصولجان[١] فنظر إلى صاحب العقد وقال . يا فلان منذ متى وأنت هنا ؟ وكيف لا تخبرني بوجودك لأقابلك وأؤدي لك حقك .

سمع الشيخ هذا الكلام فظنَّ أن الرجل من معارف الملك ومن أتباعه ، فارتعد ونادى صاحب العقْد ، وقال له : أرجوك لا تذكرني أمام الملك بحكاية العقْد هذه ، وقام إلى العقْد فردّه إلى صاحبه ، ذهب الرجل بالعقد إلى المعتضد فتبسم ، وقال له : انتظرني في الغد أمام دكان هذا الشيخ .

وبالفعل جاء المعتضد ، لكنه هذه المرة كان بصحبته المشنقة ، فأمر بنَصْبها أمام دكان هذا المخادع ، وأمر به فشنقوه . ثم قال : هذا جزاء مَنْ كان إيمانه بين الناس مشهداً ، وليس إيمانه بالغيب — يعني : بعيداً عن أعين الناس[٢] .

لذلك جعل الله المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، وكانوا أول الناس سَعْياً للصلاة ، وكانوا أصحاب الصف الأول خلف رسول الله ، ومع ذلك كان هذا جزاءهم لماذا ؟ لأن المنافق متناقض مع نفسه ، فلسانه خلاف قلبه .

ومن معاني الغيب في قوله تعالى :﴿ وَخَشِيَ الرَّحْمَـٰنَ بِالْغَيْبِ ﴿١١﴾ ﴾ [يس] أي : الغيب الذي أخبر الله به من أن هناك آخرة وبعثاً وحشراً وحساباً .

---

(١) الصولجان : العود المعوج فارسي معرَّب [لسان العرب — مادة صلج] وهو رمز السلطة والجاه .

(٢) ذكر هذه القصة الإمام ابن الجوزي في كتابه الأذكياء — الباب الحادي عشر ، وقد حدث هذا في بغداد ، وقد كان التاجر الذي أنكر الوديعة التي عنده عطاراً ، أما الآخر فقد كان من أهل خراسان . وكان جزاء العطار أن العقد عُلّق في رقبته وصُلِب على باب الدكان .

وهذه الخشية لله تكون بالغيب يعني : الإيمان بالغيب ، والله تعالى نؤمن به سبحانه وهو غيب ، والغيب كما قلنا : ما غاب عنك ولا يوجد في الكون طريق يُوصِّلك إليه ولا مقدمات ، فنحن نعرف مثلاً في حل تمارين الهندسة أو النظرية : الفرض والمعطيات والمطلوب ، فالمعطيات والمقدمات تُوصِّلك للغاية وللمطلوب .

لذلك تجد أن علم الغيب ينقسم إلى قسمين : غيب استأثر الله به ، لا يُظهر عليه أحداً إلا مَن ارتضى من رسول ، ولم يجعل لهذا النوع من الغيب مقدمات تُوصل إليه وتدلّ عليه ، وهناك غيب له مقدمات تدلُّك عليه ، فإن استخدمتَ هذه المقدمات توصَّلْتَ بها اليوم إلى ما كان غيباً بالأمس ، وينبغي عليك أنْ تستدلّ بالغيب الذي صار مشهداً لك على أنْ تصدق بالغيب الذي لم تدرك غيبه ، ولا سبيل لك إليه ، ينبغي أنْ يحفزك ما ترى على أنْ تؤمن بما لم تَرَهُ .

وقلنا : إن هذا النوع من الغيب وهو الغيب الذي له مقدمات تُوصِّل إليه ، له ميلاد يظهر فيه ، فإنْ صادف هذا الميلاد بحثاً من البشر ، وكان البحث سبباً في ظهوره ، وإلا أظهره الله مصادفة ، كما جاءت أغلب الاكتشافات التي تخدم البشرية الآن مصادفة ؛ لأن ميلاد الغيب جاء وبحثُك عنه لم يجئ .

والمؤمن هو الذي يزداد إيمانه بالغيب حين يستدل بما ظهر له على ما لم يظهر ، ومن العلماء والموهوبين من الناس مَنْ يفسر لك الغيب الذي لم يأتِ أوانه بشيء موجود بالفعل ، ومن ذلك ما رُوِي أن الروم أرسلتْ إلى أمير المؤمنين أنْ يرسل إليهم عالماً يفقههم في أمور الدين ، فأرسل إليهم الشَّعْبي[1] فجعلوا يسألونه فيما يَخْفَى عليهم

(١) ذكر ابن حمدون في « التذكرة الحمدونية » أن الرجل هو خالد بن يزيد القرشي ، وقد التقى بشمامسة ورهبان وسألوه هذه الأسئلة . وذكر صلاح الدين الصفدي في « الوافي بالوفيات » أن الرجل هو الخليل بن أحمد الفراهيدي والسائل راهب في صومعة ، وكذلك القاضي التنوخي في « نشوار المحاضرة » . والله أعلم .

من الدين ، وكان مما عرضوه عليه أن الإنسان حين يُنعَّم في الجنة يأكل ولا يتغوَّط ، فكيف يكون ذلك ؟ فرد الشَّعْبي بما عنده من الإشراقات التنويرية التي يفتح الله بها على مَنْ يشاء . وقال لهم : أرأيتم الجنين في بطن أمه ، إنه يتغذى وينمو دون أنْ يتغوط ، ولو تغوَّط في مشيمته لاحترق ، كذلك الإنسان في الجنة يأكل ولا يتغوَّط ؛ لأنه يتغذى بطهى الله له ، فالله يعطيه بقَدَر بحيث لا يبقى شيء يتغوَّطه الإنسان ، أمّا نحن فنأكل بطهينا لأنفسنا ، ولا نأكل بقدْر الحاجة ، لذلك نتغوط .

قالوا له : زعمتم أنكم تأخذون من الجنة ما تشاءون دون أنْ ينقص منها شيء ، فكيف ذلك ؟ قال : لأن الشيء ينقص بالأخذ منه حين لا يكون له مدد من الغير ، فإنْ كان له مدد لا ينقص ، والمدد في الجنة من الله ، فكيف يتأتى النقصان ؟

شيء آخر : لو جئتَ إلى المصباح فأخذتَ منه شعلة ، بل آلاف الشعلات ، أينقص من ضوء المصباح شيء ؟

وهكذا ردّ الشعبي ، وأُعجب به القوم ، وكتبوا له كتاباً يُوصله إلى أمير المؤمنين ، وكأنهم حسدوا أمير المؤمنين أن تكون مثل هذه العقلية وهذه الموهبة في خدمته ، وكان في الكتاب : عجبتُ لقوم فيهم مثل الشعبي ، كيف يُوَلُّون غيره ؟

فلما ذهب الشعبي وسلَّمه الكتاب قرأه أمير المؤمنين ، وقال للشعبي : أتدري ما في الكتاب ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . قال : اقرأ ، فقرأ الشعبيُّ العبارة : عجبتُ لقوم فيهم مثل الشعبي كيف يُوَلُّون غيره ؟ فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، لأنه لم يَرَكَ ، ولو رآك لغيَّر رأيه .

والمتأمل في مسألة الإنذار يجد لرسول الله ﷺ إنذارين . عام للعالمين جميعاً ، وهو إنذار بلاغ من الله للجميع المؤمن والكافر ، وهو الذي قال الله فيه : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر] فالذين يؤمنون بالله ينتفعون بالإنذار ، وينتفعون بالبشارة ، والذين لا يؤمنون لا ينتفعون من ذلك بشيء .

والإنذار الآخر إنذار خاص بمَنْ خَشِي الرحمن بالغيب ، وهو إنذار القبول ، وينتفع به مَنْ خشي الرحمن بالغيب ، فالذين لا يخشوْن ربهم سبق أن أُنذروا ، لكن إنذار بلاغ ، فلم ينتفعوا به ؛ لذلك لم يشملهم الإنذار الخاص .

وقوله سبحانه : ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [يس] قلنا : إن البشارة : إخبار بالخير قبل أوانه ليحفزك إلى أسباب الخير ويُطمعك فيها ، وتلحظ هنا أن المغفرة سبقتْ الأجر ، لماذا ؟ قالوا : لأن الحق - سبحانه وتعالى - قبل أن يُعطيك النعمة يصرف عنك العذاب أولاً ؛ لأن التخلية كما قلنا تسبق التحلية ، ثم إن المغفرة دائماً هي جزاء الإيمان بالله ، أما الأجر فجزاء العمل بمنهج الله ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النساء] فمَنْ آمن بالله أَمِنَ العذاب وضمن المغفرة ، فإنْ أراد الأجر فعليه بالعمل الصالح .

ووصف الأجر نفسه بأنه كريم مع أن الكريم هو المعطي سبحانه ، فالمعنى أن كرم المعطي تعدَّى إلى العطية ، فصارت العطية كريمة ، وكأنها تتلهَّف على صاحبها ، كما يتلهَّف الرجل إلى العطاء ؛ لذلك قلنا : إن النعمة التي يُنعم الله بها على خَلْقه تعشق صاحبها ، وتسعى إليه وتكره مَنْ يحسده عليها ، أو يحقد عليه بسببها .

لذلك لا تذهب إلى هذا الحاسد الحاقد ، ولا يناله منها خير أبداً .

وكأن المُنعم سبحانه يقول : ما دُمْتَ قد كرهتَ النعمة عند غيرك ، فلن تنال منها شيئاً ؛ لأنك تُخطِّئ الله في عطائه ، وتعترض على قضائه ، فكيف تأتيك نعمته ؟ لكن إنْ أحببت النعمة عند غيرك تأتكَ وتطرق هى بابك .

وهذه المسألة لها شواهد كثيرة من حياتنا ، أذكر منها أن رجلاً من بلدنا ميت غمر جاءنى يشكو قسوة عمه الغنى عليه ، وأنه رغم غِنَاه بخيل عليه ، ويستعمل الأغراب ، ويتركه هو بدون عمل ، وغير ذلك مما ذكره فى شكواه ، وكان معى فى هذه الجلسة أهلى ، فقالت له : يا ابنى أنت دائماً تشتم عمك وتخوض فى حقه ، قال : نعم لأنه لا يسأل عنى .

فقلت له : أسألك سؤالاً وأستحلفك ألاَّ تكذب ، فلما رأى أننى سأحلفه على المصحف تراجع ، فقلت له : أتحب النعمة عند عمك ؟ قال : لا ، كيف أحبها ، وأنا لا أنال منها شيئاً ، قلتُ : لو أحببتَ النعمة عند عمك ، وتمنيت له الخير والمزيد لجاءتك النعمة تطرق بابك ، قال : إذن أرجوك يا مولانا تكلم عمى وتوصيه علىَّ .

ويبدو أن الرجل حاول فعلاً إصلاح نفسه ، فأصلح الله ما بينه وبين عمه ، فبعد صلاة الفجر جاءنى يطرق الباب ، فلما دخل قال وهو يبكى : يا مولانا أحكى لك حكاية أغرب من الخيال . قلت : ما هى ؟ قال : قبل الفجر بساعة جاء مَنْ يطرق علىَّ الباب بشدة ، فقمت ففتحت الباب ، فإذا به عمى يعاتبنى ويقول : كيف تتركنى للأغراب ينهبون مالى وأنت (داير) على حَلِّ شعرك ، خذ المفاتيح ، ومن الصباح تفتح المحلات ، وتباشر بنفسك مصالحى .

فقلت له . نعم ، لأنك أحببتَ النعمة عند عمك وغيَّرتَ ما فى

نفسك ناحيته . إذن : مَنْ أراد أن تكون نِعَم الناس كلها عنده ، فَلْيحب النعمة عند غيره .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) ﴾

قوله تعالى فى الآية السابقة ﴿ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) ﴾ [يس] لها موضع هنا ، فالمغفرة والأجر الكريم فى الآخرة ، فناسب أنْ يُحدِّثنا الحق سبحانه عن مشهد من مشاهدها : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ (١٢) ﴾ [يس]

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ (١٢) ﴾ [يس] هذان ضميران للمتكلم على سبيل التعظيم ، فإنَّا هى نحن ، كما لو قلت : زيد زيد ، فماذا أضافتْ نحن بعد إنَّا ؟ القاعدة في صياغة اللغة أن تمييز الشيء يأتى حين يكون هناك اشتراك ، فإنْ لم يكُنْ اشتراك فلا يأتى التمييز كما لو قُلْتَ لمن يطرق على بابك : مَنْ أنت ؟ يقول : محمد ، وأنت تعرف محمدين كثيرين . فتقول : أيُّ المحمدين أنت ؟ فيقول . محمد أحمد ، وأيضاً أنت تعرف كثيرين بهذا الاسم ، فتقول : محمد أحمد مَنْ ؟ فيقول : محمد أحمد محمود . وعندها يحصل التمييز لوجود الاشتراك فى الأولى ، وفى الثانية .

فكأن الحق سبحانه لما قال ﴿ إِنَّا (١٢) ﴾ [يس] وليس هناك غيره قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ (١٢) ﴾ [يس] يعنى : كأنه قال إنَّا إنَّا يعنى : لا أحدَ سواى ، فليس فى هذه المسألة اشتراك .

وسبق أنْ أوضحنا أن كلام الله تعالى عن نفسه قد يأتي بصيغة الجمع كما في ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ① ﴾ [القدر]

وقال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨ ﴾ [الحجر] وتلحظ أن الضمير هنا للتعظيم ، وهكذا في كل الآيات التي تتحدث عن فعل من أفعاله تعالى ، أو عن فضل من أفضاله ، ذلك لأن كل فعل من أفعاله تعالى يحتاج إلى عدة صفات : يحتاج إلى علم ، وإلى حكمة ، وإلى قدرة .. الخ وكل هذه الصفات كامنة في (نحن) الدالة على العظمة المتكاملة في الأسماء الحسنى لله تعالى .

أما حين يتكلم سبحانه عن الذات الواحدة ، فيأتي بضمير المتكلم المفرد كما في : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ ⑭ ﴾ [طه] ولم يَقُلْ مثلاً : إننا نحن الله ؛ لأن إننا ونحن تدل على الجمع ، والكلام هنا عن الوحدانية ، فلا بُدَّ أنْ يأتي بصيغة المفرد .

لذلك يؤكد الحق سبحانه هذه الوحدانية بعدة وسائل للتوكيد في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ⑭ ﴾ [طه] فلم يَقُلْ سبحانه : فاعبدنا وأقم الصلاة لذكرنا ، إنما ﴿ فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ⑭ ﴾[طه] لأن العبادة تكون لله وحده .

ثم إن عملية البعث وإحياء الموتى لله وحده لا يشاركه فيها أحد .

وقال سبحانه ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ ⑫ ﴾ [يس] قبل ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ⑫ ﴾ [يس] مع أن الكتابة تسبق عملية الإحياء ، الكتابة كانت في الدنيا ، والإحياء في الآخرة ، فلماذا ؟ أولاً : عليك أن تلاحظ أن هذا الكلام ليس كلامك ، إنما كلام الله ، فلا بُدَّ أن تُعمل عقلك لتفهم عن الله مراده ؛ لأن أسلوب الحق - سبحانه وتعالى - يحمل من الكمالات ما يناسب كماله سبحانه ، وكلامك أنت يحمل ما يناسب كمالك .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن القرآن له تميُّزات عن كل الكتب ، وأن تناوله غير تناول أيّ كتاب فلا بُدَّ أن يُقرأ على طهارة ، وعلى وضوء ، ولا بُدَّ أن يُراعى فى قراءته مخارج الحروف وقواعد التلاوة وآدابها .

وفاتنا أن نقول : إنه تميَّز تميُّزاً آخر ، فكما تميز فى نُطْقه تميز فى كتابته ، فمثلاً كلمة اسم تُكتب بالألف كما فى ﴿ تَبَٰرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِى الْجَلَٰلِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) ﴾ [الرحمن] ، وكما فى ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) ﴾[الأعلى] ، لكن فى البسملة فى أوائل سور القرآن كُتبت بدون الألف هكذا بسم الله الرحمن الرحيم ، لذلك نقول عن القرآن : نكتبه بالإملاء ؟!! لا لأن كتابته توقيف .

إذن : ما الحكمة من تقديم ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ (١٢) ﴾ [يس] على ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا (١٢) ﴾ [يس] ؟ قالوا : لأنه ما فائدة الكتابة ؟ الكتابة للأعمال لحصر الحسنات لنثيب عليها ، ولحصر السيئات لنعاقب عليها ، فإذا لم يكُنْ هناك إحياء للموتى وحساب وجزاء ، فما فائدة الكتابة ؟ لذلك قدَّم الإحياء على كتابة الأعمال ، كما أن الإحياء أعظم من الكتابة فناسب أنْ يتقدم عليها .

ومعنى . ﴿ مَا قَدَّمُوا (١٢) ﴾ [يس] أى : من الأعمال ، والعمل قد يكون عملاً مثمراً مستمراً بعد موت صاحبه كالصدقة الجارية ، فلو حفر إنسان بئراً مثلاً يشرب منه الناس ويموت يظلّ البئر يسقى الناس ، أو ترك علماً نافعاً ، هذا كله أثر من آثار العمل الذى كُتب أولاً ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَآثَارَهُمْ (١٢) ﴾ [يس]

ومن آثار الإنسان ما سنَّه للناس وتركه يتبع من بعده ، سواء أكان حسنة أم سيئة ، فكله مكتوب مُسجَّل فى كتاب لا يترك صغيرة

ولا كبيرة إلا أحصاها ، وأحصى آثارها من بعد صاحبها ، فلو كتب إنسان مثلاً وصية ظالمة حرمت صاحب الحق من حقِّه ، والوارث من ميراثه تحمل كل الآثار المترتبة على هذا الظلم ؛ لأنه لم يحرم الوارث المباشر فحسب ، إنما حرم أيضاً ذريته التى كانت ستستفيد من هذا الميراث ، لذلك يظل عليه وِزْرها إلى يوم القيامة .

كذلك مَنْ سَنَّ للناس قانوناً جائراً ، فعليه وِزْر القانون الجائر الذى حكم هو به ، ثم على مَنْ يحكم بهذا القانون من بعده ، ومثل مسألة القطاع العام مثلاً ، القطاع العام أقامه مَنْ أقامه ، ثم ظلَّتْ آثاره تنهب فى الناس إلى أنْ ضَجَّ منه الجميع وطالب الحكام أنفسهم بتعديله .

هذه القضية تشرح لنا حديث سيدنا رسول الله : « مَنْ سَنَّ سُنَّة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووِزْر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1]

أرأيتم الرجل العجوز يزرع النخلة وربما لا ينتفع بثمرها ، لكن ينتفع به مَنْ بعده ، فهذه هى آثاره من بعده يكتبها الله له ويُحصيها لحسابه .

وقال بعض العلماء فى معنى : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾ [يس] أى : نكتب ما قدموا من النية التى تسبق العمل ، ثم نكتب العمل نفسه ، وهو آثار هذه النية ، فحين تعقد نية الخير فى عمل ما تأخذ أجر النية ، فإذا ما عملتَ العمل تأخذ أجر العمل .

وهذا يفسر لنا الحديث الشريف : « مَنْ هَمَّ بحسنة فلم يعملها

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٤/٣٦١ ، ٣٦٢) ، ومسلم فى صحيحه (١٠١٧) ، وابن ماجه فى سننه (٢٠٧) ، والترمذى فى سننه (٢٦٧٥) من حديث جرير بن عبد الله البجلى . قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

كُتبت له حسنة ، ومَنْ هَمَّ بها فعملها كُتبت له عَشْراً »[1] وهذا يرشدنا إلى أهمية عقد النية قبل الشروع في العمل ليثاب عليها الإنسان ، فالمؤمن لا يأتي العمل هكذا عشوائياً .

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) ﴾ [يس] هناك فَرْق بين الكتابة والإحصاء ، الكتابة أنْ تكتب الشيء ، لكن لا تضم المكتوبات إلى بعضها ، فتحتاج إلى مَنْ يحصيها ويعدُّها ، فالحق سبحانه يسجل علينا الأعمال كتابة أولاً ، ثم إحصاءً وعَدّاً ، والإحصاء والعَدُّ أيضاً في كتاب مسجل فيه كل شيء ﴿ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ (١٢) ﴾ [يس] والإمام هو ما يُؤتَم به ، والمراد هنا اللوح المحفوظ الذي تأخذ منه الملائكة مهمتها في إدارة الكون .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ[2] إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان (حديث ٢٠٦) من حديث أبي هريرة ، وأخرجه البخاري في صحيحه بلفظ آخر (٦٤٩١) عن ابن عباس .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٥٦٩) : « جاء عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى بن مريم ، كما نصَّ عليه قتادة وغيره وهو الذي لم يُذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره ، وفي ذلك نظر من وجوه :

أحدها : ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل لا من جهة المسيح ، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام ، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا (١٥) ﴾ [يس] .

الثاني : أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بتاركة ، وهُنَّ : القدس ، وأنطاكية ، والإسكندرية ، وورومية . فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت ، فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذَّبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم » .

أولاً : لاحظ أن هذه الآية هي التي ستفسر لنا مسألة أن يس قلب القرآن .

قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم ﴿١٣﴾ ﴾ [يس] نعرف أن الضرب هو إيقاع جسم على جسم بقوة بحيث يؤثر الجسم الضارب في المضروب ويؤلمه ؛ لذلك لا بُدَّ أن يكون الضارب أقوى من المضروب ، فإذا كان المضروب مثل الضارب أو أقوى منه ، فالحركة عبث لا جدوى منها .

ومن ذلك قول الرافعي[1] رحمه الله مخاطباً مَنْ يهزأ من قدر الله :

أيَا هَازِئاً مِنْ صُنُوفِ القَدَرِ ... بنفسِكَ تعنُف لاَ بالقَدَرِ

وَيَا ضارباً صَخْرةً بالعَصَا ... ضَرَبْتَ العَصَا أمْ ضَرَبْتَ الحَجَرْ[2]

وفي مادة ضرب يقولون : ضريب الشيء من ضربه يعني من شبهه وشكله ، فإنْ وقف اثنان في مسألة ما ، اذكر لهما مثلاً مطابقاً لها وقُلْ لهما : هذه مثل هذه . وأكرم مَثَل في القرآن ضربه الله تعالى لبيان تنويره سبحانه للكون لا لنوره ، كما يظن البعض ، هو قوله سبحانه :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ..﴿٣٥﴾ ﴾ [النور]

---

(١) هو مصطفى صادق عبد الرازق الرافعي ، عالم بالأدب شاعر ، من كبار الكتاب ، أصله من طرابلس الشام ، مولده في بهتيم بمنزل والد أمه عام ١٨٨١ م ، وتوفي بطنطا عام ١٩٣٧م عن ٥٦ عاماً ، له رسائل في الأدب والسياسة ، ديوان شعره في ثلاثة أجزاء ، وله كتاب « وحي القلم » و « المعركة » في الرد على طه حسين .

(٢) لم أقف على هذه القصيدة للرافعي ، ولكن له قصيدة من بحر البسيط عدد أبياتها عشرون بيتاً ، أولها . يا فاجع القوم ماذا ينفع الحذر .

هذا مَثَل لتنوير الله للمنوَّر ، وليس مثلاً لنور الله تعالى ؛ لأن نور الله كمال لا يُحَدُّ ، وما نحيا به من نور الدنيا إنما هو من متعلقات نوره سبحانه ، بدليل أنه في يوم القيامة لا تكون هناك شمس تنير ولا قمر يضيء ، إنما ﴿ وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا (٦٩) ﴾ [الزمر]

وقال : ﴿ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا (١٣) ﴾ [الإنسان]

ذلك لأننا نعيش في الدنيا بالأسباب المخلوقة لله تعالى ، أما في الآخرة فنعيش بالمسبِّب مباشرة ، في الدنيا أعطاك الله عقلاً يفكر ، وجوارح تعمل ، وأرضاً تنبت ، وماءً يروى ، هذه أسباب لله يعيش عليها الإنسان ، وربما ظنَّ أنه أصيل في الدنيا ، وربما اغترَّ بما أعطاه الله ؛ لذلك يجعل الله هذه الأسباب تتخلَّف بعض الأحيان ، وتعزّ علينا ليلفتنا إليه سبحانه ، ويقول لنا : لا تغترُّوا بالأسباب ، وتغفلوا عن المسبِّب .

لذلك حين تتخلف الأسباب فيصيب الناسَ جدبٌ وقَحْطٌ قد يطول حتى يُشرف الناسُ والدوابُّ على الهلاك يشرع لنا صلاة الاستسقاء فيهرع الناسُ إلى الله معهم دوابُّهم ونساؤهم وأطفالهم ، حتى أنهم يُغيِّرون هندامهم وملابسهم ، يجأرون إلى الله طالبين منه السُّقْيا .

فكأن الله تعالى خلّف أسبابه ليُذكّرنا به سبحانه ، وليُعلمنا أن المسألة ليست (ميكانيكا) ، المسألة أسباب وراءها مُسبِّب قادر أنْ يُوقفها ، حتى جوارح الإنسان سخَّرها الله لإرادته ، حتى ربما يغتر بها الإنسان ، ويظن أنها ملْكه ورَهْن إشارته ، والحقيقة أنها هبَة من الله إنْ شاء تركها ، وإنْ شاء سلبها ، بفصل السيال الكهربي بين الجارحة والعقل ، فتشل الجارحة ولا تتحرك ، فيريد أنْ يرفع يده فلا يستطيع .

الآن نرى مثلاً أمريكا تُوزِّع المعونات على دول العالم ، وهى أكثر الدول تقدُّماً وازدهاراً ، وفجأة يأتيها مثلاً فيضانات يصل فيها الماء إلى أسطح المنازل ، كذلك اليابان مثلاً تُعَدُّ بلد زلازل بطبيعتها ، وهم يعرفون ذلك ويقولون : بلادنا مهطل الزلازل ، لذلك يتخذون كل التدابير اللازمة والاحتياطات ، ومع ذلك يأتيهم زلزال كبير مدمر كما حدث فى (سخاليد) ، فلم تُجْدِ معه كل هذه الاحتياطات والاستعدادات .

إذن : الحق سبحانه يخلف هذه المسائل حتى لا نغترّ بالأسباب ، وتنسى المسبب سبحانه ، وصدق الله حين قال : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

والحق سبحانه وتعالى يُعلِّمنا كيف ندعوه ونلجأ إليه وحده حين تعزُّ علينا الأسباب ، فيقول سبحانه : ﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا .. (٤٣) ﴾ [الأنعام] وكأن الله تعالى يُعلِّمنا كيف نُحنِّنه علينا حين نقول : اللهم افْرج عنَّا ما نحن فيه .

وضَرْب المثل أسلوب من أساليب العربية لتوضيح المسائل والإقناع بها ، وأكرم مَثَل ضربه الحق سبحانه لتنويره كما قلنا ؛ لأن نورَ الله لا مثيلَ له ، فقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ (٣٥) ﴾ [النور] أى : تنويره ﴿ كَمِشْكَاةٍ (٣٥) ﴾ [النور] كثيرون يظنون أن المشكاة هى المصباح ، لكن المشكاة هى (الطاقة) الموجودة فى الحائط ، وهى عبارة عن نافذة مفتوحة من جهة واحدة يُسمُّونها الكوة ، وهى موجودة فى بيوت الفلاحين المبنية بالطوب اللِّبن ، وهذه الكوة تعمل على تجميع الضوء بحيث لا يتبدد هنا وهناك .

هذه المشكاة ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ (٣٥)﴾[النور] ولك أنْ تتأمل كم ميْزة في هذا النور الذي يصدر من مشْكاة تجمع الضوء ، ثم مصباح ، هذا المصباح في زجاجة تنقي ضَوءه وتُصفِّيه ، بحيث لا يصدر منه دخان ؛ لأن الزجاجة تسمح بالهواء على قدر حاجة المصباح ، وهذه الزجاجة ليست زجاجة عادية ، إنما زجاجة مثل الكوكب الدرى . يعني : مضيئة بنفسها ، من الدُّرة .

ثم إنّ هذا المصباح يُوقَد بزيت من أرقى أنواع الزيوت هو زيت الزيتونة ، هذه الزيتونة لا هي شرقية فتكون حارة ، ولا هي غربية فتكون باردة ، فهي معتدلة المزاج نقية ، حتى أنَّ زيتها يضيء ، ولو لم تمسسه نار .

فهو إذن من صفائه يكاد يضيء بذاته ؛ لذلك يختم المثل بقوله سبحانه : ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ (٣٥)﴾ [النور] كذلك يُنوِّر الله هذا الكون الواسع كما يُنوِّر هذا المصباح هذه الكُوَّة الصغيرة .

لكن ، لماذا يضرب لنا الحق سبحانه هذا المثل ؟ قالوا : لأن الحق سبحانه حينما خلق الإنسان ، وجعل له حركة في الحياة احتاجت هذه الحركة إلى نور حسِّي يهدي حركته الحسية ، وإلى نور معنوي يهدي حركته المعنوية ، فالنور الحسيُّ نأخذه من الشمس نهاراً ، ومن القمر ليلاً ، فإنْ عَزَّ علينا النور اصطنعناه ، كُلٌّ على قدر إمكاناته ، فواحد ينير طريقه بشمعة ، وآخر بلمبة (نمرة خمسة) ، وآخر بالنيون والفلورسنت مثلاً ، فإذا ما أشرقتْ الشمس ، وجاء نور الله استغنى الناسُ عن أنوارهم الصناعية ، وأطفئوا مصابيحهم وتساووا جميعاً في نور الله ، إذا طلعتْ الشمس فكلنا في الأَخْذ بنور الله سواء .

فما دام نور الله قد ظهر ، فلا نورَ لأحد مع نور الله ، كذلك في

المعنويات ، وكأن الله تعالى يريد أنْ يقول لنا : إذا جاءكم حكم الله ، فلا حكمَ لأحد مع حكم الله ، وهذا هو نور القيم الذي جاءنا في القرآن الكريم ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ (٣٥) ﴾ [النور]

ولكُلِّ مَثَل مضرب يُضرب فيه ، ومناسبة يُقال فيها ، فلما رأى أحدهم شاعراً يطيل في مدح ممدوحه قال : لا بُدَّ أنه بخيل ، فاحتاج إلى كل هذا المدح ليُحنِّنه على مادحه فيعطيه ، وقال في ذلك[1] :

وإذَا امْرؤٌ مَدَح امْرَءاً لِنَوالِهِ ... وأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَطَالَ هِجَاءَهُ
لَوْ لم يُقدِّر فيه بُعْد المسْتَقى ... عِنْد الوُرُود لما أطال رِشَاءَهُ[2]

لأن بُعْد الماء في البئر يستدعي طول الحبل ، وهو الرِّشَاء الذي يُربط به الدلو .

ومن أمثال القرآن لتوضيح مسألة الشرك بالله : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا (٢٩) ﴾ [الزمر]

يعني : حين يتعجبون من دعوتهم إلى التوحيد ، وحين يختلفون في هذه المسألة ، اضرب لهم هذا المثل وطوِّقهم به ، يعني : كيف تتعجَّبون من عبادة الله وحده لا شريكَ له ، وفي حياتكم العملية مثْلُ ذلك ، فهل يستوي عندكم عبد يتنازعه أكثر من سيد وعبد لسيد واحد ؟ ﴿ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا (٢٩) ﴾ [الزمر]

---

(١) هو ابن الرومي علي بن العباس بن جريج أو جورجيس ، رومي الأصل ، ولد ببغداد عام ٢٢١ هـ ونشأ بها ، مات فيها مسموماً قال المرزباني : لا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس أو مرؤوس إلا وعاد إليه فهجاه وكان سبباً لوفاته .

(٢) هذان البيتان من قصيدة لابن الرومي من بحر الكامل ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، أولها :
كل امرىء مدح امرءًا لنواله ... فأطال فيه فقد أراد هجاءه

كذلك أنتم فـى عبادتكم غـير الله : كيف تذهبـون إلى عبـادة آلهة متـعددة ، وتتركون الإله الواحـد الحق ، إذن : يسوق الحق سبـحانه للكفار هذا المثَل ليُجلِّي لهم قضية وقفتْ فيها عقولهم .

والمـثَل في أدبنا العـربي له مورد ومـضـرب : مورد المـثل هو الحادثة التي قيل فيها المَثَل ، ومـضرب المثل هي الحادثة المـشابهة للمورد الأصلي ، فكأن المـورد الأصلي للمثل يؤدي إلى حقيقـة متينة ينبغي أنْ نحـافظ عليها ونُـكررها في الموقف المشـابه ، فمثـلاً حين ترى تلميذاً يهمل دروسه طوال العام ، ويأتي قـبل الامتحان ليذاكر ، لك في هذا الموقف أن تقول (قـبل الرِّماء تملأ الكنائن)[1] فهذا مثَل يُضرب لمن لا يستعد للأمر قبل وقوعه .

فـإنْ تحدَّاك رجل مـثلاً وادعى أنـه أقوى منك لك أنْ تقـول له : (إن كنتَ ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً)[2]

والمثل يُقال كـما جاء دون أنْ نغير في لفظه شيئاً ، فلو أرسلتَ مثـلاً رسولاً ليـأتي لك بالأخبار تقول لـه حين يعـود : (ما وراءكَ يا عصام)[3] كذلك إنْ كـانوا مثْنى أو جمـعاً ، فـالمثل يلزم صيـغة

---

(١) هو مثَل يضرب في الاستـعداد للنوائب قبل حلولها ، ذكره أبو هلال العـسكري في جمهرة الأمثال ، وكذا الميداني في مجمع الأمثال ، وابن عبد ربه في العقد الفريد (كتاب الجوهرة في الأمثال) .

(٢) أي : لاقيتَ من هو أشـد منك . ذكـره أبو منصـور الثـعـالبي في كـتـابه « الـتمـثيل والمحاضرة » ، وكذا الزمخشري في « المستقصى في أمثال العرب » .

(٣) قال أبو عبيد : من أمثالهم في الاستخـبار قولهم : ما وراءك يا عصام ؟ يقال : إن المتكلم به هو النابغة الذبياني قاله لعصام بن شهبر الجـرمي حاجب النعمان وكان مريضاً ، فسأل النابغة عصاماً عن النعمان . ذكـره أبو عبيد بن سلام في « الأمثال » ، وقد أورد أبو هلال العسكري في كتـابه « جمهرة الأمثال » أن عـصاماً امرأة وقد كـانت مرسلة من الحارث بن عمـرو الكندي إلى بنت عـوف الكندي ، فلما رجـعت إليـه قال لهـا : ما وراءك يا عـصام ؟ فوصفتها له .

المفرد المؤنث ؛ لأنه أوَّل ما قيل قيل لواحدة اسمها عصام . ونحن نحتفظ بلفظه لا نُغيره ، فلا نقول ما وراءكما ولا ما وراءكم . ويُشترط في المثَل أنْ يكون مُوجزاً يخفّ على اللسان .

ومن الأمثال قولهم (قد يضرط العير والمكواة في النار)[1] فالبعير حين يرى المكواة في النار يعرف أنه سيُكوى بها ، وهي طريقة مُتّبعة عند العرب لعلاج مرض (العُر)[2] ، فساعة يراها البعير تجري عليه بطنه ، ويحدث منه ضراط وإسهال ، وهذا مثَل يُضرب لمن يفاجئه العقاب المعَدّ له .

وهنا في قوله تعالى : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ (١٣) ﴾[يس] يعني : يا محمد اضرب لمن كفر بك وكذّبك وعاندك وآذاك مثلاً أصحاب القرية ، فالأمر لسيدنا رسول الله ، والضرب للكافرين به المعاندين له ، والمعنى : قل لهم مَثلكم مثَل أصحاب القرية .

قالوا : هي أنطاكية بلدة من لواء الأسكندرونة التابع لتركيا ، وقد أرسل إليها سيدنا عيسى - عليه وعلى رسولنا الصلاة والسلام - رسولين لهداية أهلها ، فلما ذهَبا كذّبهما القوم ، فعزّزهما عيسى عليه السلام وقوّاهما بثالث ، فلم يزدادوا إلا تكذيباً وعناداً ، لكن خرج من القوم رجل سمع من الرسولين الأولين ، فآمن ، فلما سمع أن القوم

---

(١) ذكره عبد القادر البغدادي في « خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب » .

(٢) مرض « العُرّ » : قروح تخرج في مشافر الإبل وقوائمها . ذكره ابن قتيبة الدينوري في كتابه « أدب الكاتب » . قال الجاحظ في كتاب الحيوان في خطبة كتابه أن العرب كانوا إذا أصاب إبلهم العر كووا السليم ليدفعه عن السقيم ، فاسقموا الصحيح من غير أن يُبرئوا السقيم .

يريدون تعذيب هؤلاء الرسل أسرع ليقف الموقف الحقّ مع الرسل ضد أهل القرية ، هذا هو المثل .

ومعنى ﴿ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ⑬ ﴾[يس] أى : مُرْسلون من الله ، فما إرسال عيسى لهما إلا من باطن إرسال الله ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ⑭ ﴾[يس] أى قوَّيْناهما به ، والمراد قوَّيْنا الحق الذى يحملانه ، فإرسال الثالث ليس تأييداً لهما بذاتهما ، إنما تأييد للحق ، بدليل أنه سبحانه لم يَقُلْ فعززناهما ، وهذه من دقة الأداء القرآنى وبلاغته ، فلو جاء الحق على لسان غيرهما سنؤيده أيضاً . إذن : الاعتبار هنا ليس للأشخاص ، إنما للحق الذى جاءوا به .

وهذه المسألة لها نظير فى قصة سيدنا موسى عليه السلام فى قوله تعالى : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ⑮ ﴾[القصص] فكأن هارون عليه السلام جاء تعزيزاً لموسى نفسه لا للحق الذى أُرسلَ به كما فى القصة السابقة ، لأن هناك فرقاً بين الحالتين ، فموسى عليه السلام هو الذى طلب من ربه أنْ يشُدَّ عضده ، واختار لذلك أخاه هارون ، فموسى المختار للرسالة يُقِرُّ على نفسه ، ويطلب المساعدة والتأييد بأخيه ، فكأنه عليه السلام يحب الحقَّ ، ويريد نُصْرته ، ولو جاءت هذه النُّصْرة من غيره .

سبق أنْ قُلْنا : إن الكلام سفارة بين المتكلم والمخاطب ، المتكلم ينقل خواطر نفسه ومراداته إلى المخاطب ، فإذا كان المخاطب خاليَ الذِّهْن عن الأمر ، يرسل إليه الكلام مُرْسلاً دون تأكيد ، فإذا لم يكُنْ خاليَ الذهن عن الموضوع وعنده شكٌّ أو إنكار أو تكذيب فلا بُدَّ أن تؤكد له كلامك بمؤكد يناسب استقباله للأمر ، فإنْ كان شاكّاً أكدتَ له الكلام بمؤكّد واحد ، وإنْ كان مُنكراً جئْتَ له بأكثر من مُؤكّد ، كما فى قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ⑭ ﴾[يس]

فلا بُدَّ أن الرسولين الأوَّلَيْن قالا للقوم : نحن مُرْسلون إليكم من قِبَل نبى الله عيسى لكن كذَّب القوم ، فلما جاء الثالث كان لا بُدَّ أنْ يزداد الكلام تأكيداً ، فقالوا : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) ﴾[يس] فأكَّدوا الكلام هنا بأكثر من مؤكّد ، ومع ذلك كَذَّبوا أيضاً :

﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) ﴾

فلما كذَّبوا وأنكروا للمرة الثانية كان لا بُدَّ من تأكيد الكلام على هذا النحو : ﴿ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) ﴾[يس] وكل كلمة من هذه العبارة فيها تأكيد ، أولاً بإنَّ ، ثم أسلوب القصر فى تقديم الجار والمجرور إليكم ، ثم لام التوكيد فى (لمرسلون) ، إذن : على قَدْر الإنكار يكون التأكيد ، وهؤلاء ينكرون الرسالة من عدة وجوه أولاً : ﴿ قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا (١٥) ﴾ [يس] ، ثم ﴿ وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ (١٥) ﴾[يس] ، ثم ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) ﴾ [يس]

وقولهم : ﴿ مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا (١٥) ﴾[يس] يعتبرون أن بشرية الرسل قَدْح فى الرسالة ، لكن كيف تتحقق الرسالة إذا لم يكُنْ الرسول من البشر ؟

الحق سبحانه يناقشهم هذه المسألة فى موضع آخر ، فيقول سبحانه : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

هذا أول ردٍّ عليهم ، فالذين يمشون على الأرض بشر ليسوا ملائكة .

وفي موضع آخر يجارى الحق الخَلْق ، فيقول : وحتى لو جاء الرسول مَلَكاً لا بُدَّ أنْ ينزل على صورة البشر ﴿ ولوْ جعلْناهُ ملكًا لَّجعلْناهُ رجُلاً (٩) ﴾ [الأنعام] وإلا كيف تروْنه ؟ وكيف تتلقَّوْن منه على صورته الملائكية .

إذن : لا بُدَّ أنْ يكون الرسول من جنس المرسَل إليهم لتصحَّ الأُسْوة فيه ، وكيف تتحقق الأسوة في الرسول الملَك ، وهو لا يعصى الله أصلاً ، والرسول مُطالب أنْ يُبلِّغ منهج الله ، وأنْ يُطبقه بنفسه ، لذلك قال سبحانه ﴿ لَقدْ كانَ لَكُمْ في رسُول اللَّه أُسْوةٌ حسنةٌ (٢١) ﴾ [الأحزاب] يعني : يُطبق هو المنهج الذي جاء به قبل أنْ يُبلِّغه للناس .

وقولهم : ﴿ وما أنزل الرَّحْمـٰنُ من شيْءٍ (١٥) ﴾ [يس] دلَّ على غبائهم في الأداء ، فعجيب منهم أنْ يعترفوا لله تعالى بصفة الرحمة ، وهم لا يؤمنون به ، ومن مقتضيات هذه الرحمة أن يرسل إليهم رسولاً يدلُّهم على الخير ويدفعهم عن الشر ، إذن يعترفون بالحيثية التي تدينهم ، ثم يزيدون على ذلك فيتهمون الرسل بالكذب : ﴿ إنْ أنتُمْ إلاَّ تكْذبُونَ (١٥) ﴾ [يس]

وعندها يؤكد الرسل رسالتهم ، فيقولون : ﴿ ربُّنا يعْلمُ إنَّا إليْكُمْ لمُرْسلُونَ (١٦) ﴾ [يس] فكلمة ﴿ ربُّنا يعْلمُ (١٦) ﴾ [يس] حلَّتْ محلَّ القسم لأنهم يُشْهدون الله على صدْق رسالتهم ، والقسم عند العرب لإثبات قضية مختلف عليها ، وما دام قال الرسل ﴿ ربُّنا يعْلمُ (١٦) ﴾ [يس] فالأمر إما أنْ يكون صحيحاً ، أو غير صحيح ، فإنْ كان غير صحيح فقد كذبوا على الله .

وقد أجمع العرب على أن الكذبة الفاجرة تُوجب خراب الديار - هكذا يعتقدون - وفي حديث النبي ﷺ ما يدل على أن الكذب يجعل الديار بلاقع[1]، ولما سُئل ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : نعم . أيزني المؤمن ؟ قال : نعم . أيكذب المؤمن ؟ قال : لا[2] .

فالكذب مذموم منهيٌّ عنه ، حتى عند غير المؤمنين بدين ؛ لذلك رأينا كفار مكة لا ينطقون بكلمة التوحيد : لا إله إلا الله ولو كانوا يعلمون أنها كلمة تقال ليس لها مدلول لَقَالوها ، لكنهم يعلمون مدلولها ومعناها ، يعلمون أنها تعني أن العبادة لا تكون إلا لله ، وأن الأمر والنهي والسيادة لا تكون إلا لله .. الخ لذلك تأبَّوْا فلم يقولوها ، لأنهم لا يريدون مدلولها .

هؤلاء الكفار في تكذيبهم للرسل يعتقدون أنهم بذلك يَغَارُونَ لله وينتقمون من الرسل الذين يكذبون عليه سبحانه ، فيقولون :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١٨﴾ ﴾

كأنهم يقولون للرسل : ما دُمْتم كذبتم على الله وقلْتم ﴿ رَبُّنَا يَعۡلَمُ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [يس] في أمور نظنكم فيها كاذبين ، فقد تطيَّرنا بكم يعني :

(١) بلاقع جمع بلقع ، وهي الأرض القفر التي لا شيء بها ، وقد أخرج البيهقي في السنن الكبرى كتاب الأيمان – باب اليمين الغموس حديث رقم (١٩٦٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس شيء أُطيع الله فيه أعجل ثواباً من صلة الرحم ، وليس شيء أعجل عقاباً من البغي وقطيعة الرحم ، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع » .

(٢) أورده بهذا اللفظ المتقي الهندي في منتخب الكنز (١/ ٢١٥) على هامش مسند أحمد من حديث عبد الله بن جراد وعزاه لابن عساكر . وأورد أيضاً أن أبا الدرداء سأل رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، هل يكذب المؤمن ؟ قال : لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر مَنْ إذا حدَّث كذب . وعزاه للخطيب البغدادي في المتفق .

تشاءمنا . والتطيُّر من الطِّيَرة ، وكانت عادة معروفة عند العرب ، فكانوا حين يريد الواحد منهم عمل شيء ، يأتي إلى طير فيزجره ويُطلقه ، فيرى إلى أين يطير : فإنْ طار إلى اليمين أمضى ما ينوى عليه ، وإنْ طار إلى اليسار أمسك وتشاءم ، وقد حَرَّم الإسلامُ هذه العادة ونهى عنها .

وقولهم ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا (١٨)﴾ [يس] أي : عما تقولونه من أنكم مُرْسَلُون بمنهج ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨)﴾ [يس] فجمعوا عليهم الرجم والعذاب الأليم ، والرجم غير العذاب ، الرجم رَمْيٌ بالحجارة حتى الموت ، فهو إنهاء للعذاب ؛ لأن التعذيب إيلام حي ، فمَنْ مات لا يستطيع أنْ تُعذِّبه ، لذلك قالت العرب : لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها .

لذلك لما ادَّعى أحد القضاة أن القرآن ليس فيه نَصٌّ على الرجم : قلنا لهم : صحيح ، ليس في القرآن آية تنص على الرجم ، لكن أيهما أقوى في التقنين : الكلام أم الفعل ؟ أيهما يُعَدُّ حُجة ؟ لا شكَّ أن الفعل أقوى حجة ، لأن الكلام يمكن أنْ يؤوَّل ، أمَّا الفعل فلا تأويل فيه ، وقد فعل الرسول ﷺ الرجم في ماعز والغامدية.

إذن : الاحتجاج هنا ليس بالنصِّ القولي ، إنما بالفعل من رسول الله الذي فوَّضه الله في أنْ يشرع ، وأمرنا بطاعة أوامره ، فقال سبحانه . ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (٧)﴾ [الحشر] والحق سبحانه لا يأمرنا هذا الأمر إلا إذا كان قد ترك لرسول الله أموراً يُشرعها .

وهذه من ميزاته ﷺ على غيره من الرسل ، فكل رسول ما عليه إلا أنْ يُبلِّغ الحكم كما جاءه من الله ، أما سيدنا رسول الله فأُمر أن

يُبلِّغ عن الله ، وترك له بعض الأمور ، وفوَّض أنْ يشرع فيها .

لذلك جاءت هذه الآية : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا (٧) ﴾ [الحشر]

لذلك حين نستقرىء آيات الطاعة تجد القرآن يقول مرة : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (٩٢) ﴾ [المائدة]

ويقول في آية أخرى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ (١٣٢) ﴾ [آل عمران]

ويقول : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (٥٩) ﴾ [النساء]

فتكرار الفعل (أطيعُوا) يعني : أن الجهة مُنفكة ، فلله تعالى أمر وللرسول أمر ، يعني . أطيعوا الله في التقنين الإجمالي العام ، وأطيعوا الرسول في تفصيل ما أجمل ، ففي الزكاة مثلاً جاء الأمر العام بأداء الزكاة ، لكن لم يحدد الحق سبحانه له نصاباً ، هذا النِّصَاب بيَّنه سيدنا رسول الله . إذن : لله فيها أمر ، وللرسول أمر .

أما إن جاء الأمر (وأطيعوا) واحداً وعطف رسول الله على الله ، ولم تُكرر الطاعة مع المطاع ، فاعلم أنَّ الأمر واحد قاله الله وقاله رسول الله ، فطاعة المطاع الثاني من باطن طاعة المطاع الأول ، كما في قوله سبحانه : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ (٥٩) ﴾ [النساء] فلم يقُل : وأطيعوا أولي الأمر منكم ؛ لأن طاعة أولي الأمر من باطن طاعة الله وطاعة رسول الله ، وليس لهم طاعة مستقلة منفصلة ، بل طاعتهم في ظلِّ طاعة الله وطاعة رسول الله .

إذن : الاستدلال بالفعل أقوى من الاستدلال بالقول ، فإنْ قال قائل : نريد أنْ نسمع كلام الله في هذه المسألة نقول : نعم ، هناك كلام بالنصِّ وكلام باللازم ، والحق سبحانه حين تكلم عن الإماء في هذه المسألة قال : ﴿ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ (٢٥) ﴾ [النساء]

والعذاب كما قلنا : إيلام حَيٍّ أمَّا الرجم فهو إنهاء للحياة ، وإنهاء للعذاب ؛ لذلك بيَّن الحق سبحانه أن النصف للعذاب ، وهذا يُخرج الرجم ؛ لأن الرجم لا يُنصَّف . إذن : فالنصف ليس على الإطلاق وكونه يخصُّ هنا العذاب ، فهذا يعني أنَّ عليهن الرجم أيضاً كاملاً ، لا يُنصَّف .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى في قصة سليمان عليه السلام والهدهد : ﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ (٢١) ﴾ [النمل] إذن : العذاب غير الذبح وغير القتل .

وقولهم ﴿ لَنَرْجُمَنَّكُمْ (١٨) ﴾ [يس] الرجم قد يُطلق على القول ، لنرجمنَّكم بالقول ، وقد يكون الرجم على حقيقته بشدة حتى الموت ، أو بهوادة ، فَيُراد منه الإيلام .

﴿ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) ﴾

معنى ﴿ طَائِرُكُم (١٩) ﴾ [يس] يعني : تشاؤمكم ﴿ مَّعَكُمْ (١٩) ﴾ [يس] أي : ملازم لكم ، والمراد هنا الكفر ، والهمزة الأولى في ﴿ أَئِن (١٩) ﴾ [يس] للاستفهام و (إنْ) أداة شرط وجوابها محذوف تقديره : أئن ذُكِّرتم بالله وبمنهج خالقكم ، وبما يُسعدكم في دنياكم تكون النتيجة أنكم تهددون المذكِّر لكم بالرجم وبالعذاب الأليم ، بدل أنْ تتبركوا به وتُعينوه وتتبعوا ما جاءكم به .

﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) ﴾ [يس] يعني : متجاوزون للحدِّ ؛ لأن الأمر بيننا وبينكم لم يخرج عن كونه مناظرة كلامية لم نتعدَّ فيها حدود البلاغ بأننا مُرْسَلون إليكم ، فكانت النتيجة أنْ قابلتم المناظرة

الكلامية بهذا الفعل القاسى المسرف المتجاوز للحدِّ ، حيث جمعتم علينا الرجْم والعذاب الأليم .

فى هذه الأثناء ، ماذا حدث ؟

﴿ وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) ﴾[يس] يدل على أن الرسولين الأولين اللذين كذَّبهما القوم كان لهما أنصار مؤمنون بهما ، مُصدِّقون لدعوتهما ، فلما جاء الثالث وأيضاً كذَّبه القوم أخذتْ هؤلاء المؤمنين حَمِيَّة الحق ، وكان منهم هذا الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لنُصْرة الحق وإعلاء كلمته ، وقالوا : اسمه حبيب النجار[1] .

ونلحظ فى هذه الآية أولاً قوله سبحانه : ﴿ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ (٢٠) ﴾

---

(١) قال القرطبى : هو حبيب بن مرى وكان نجاراً . وقيل : إسكافاً . وقيل : قصاراً (صبّاغا) . وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل : هو حبيب بن إسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام . قال وهب : كان حبيب مجذوماً ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ، وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم ، لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره ، فما استجابوا له ، فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال : هل من آية ؟ قالوا : نعم ، ندعو ربنا القادر فيفرِّج عنك ما بك . فقال : إن هذا لعجب لى ، أدعو هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عنى فلم تستطع ، فكيف يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ قالوا : نعم ربنا على ما يشاء قدير ، وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر ، فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به ، كأن لم يكن به بأس . تفسير القرطبى (٨/٥٦٥٣) .

[يس] أنه لم يكن قريباً من مكان هذه المناظرة الكلامية ، وأنه تحمَّل المشاق في سبيل نُصْرته للحق ، وهذا دليل على قوة الطاقة الإيمانية عند هذا الرجل ، ودليل أيضاً على أن الرسولين السابقين قد بلغت دعوتهما أقصى المدينة .

ثم وصفه بأنه (رَجُلٌ) ولم يَقُلْ فلان ، فذكر الصفة البارزة في تكوينه أنه رجل .

وهِمَّة الرجل هي التي تحدد مقدار رجولته ، فرجل يريد الحياة لنفسه فقط والكل يخدمه ، يرى كل شيء لنفسه ولا يرى نفسه لأحد ، هذا رجل وطنه نفسه وذاته ، ورجل وطنه أهله وعياله يُعدِّي إليهم منفعته ، ورجل وطنه أمته ، ورجل وطنه العالم كله مثل سيدنا رسول الله ﷺ ، فهو فلسفة الرجل .

إذن : همَم الرجال هي التي تحدد أوطانهم ومنازلهم ، وأعلى هذه المنازل رجل وطنه العالم كله ؛ لأن الخَلْق كلهم عيال الله ، فمَنْ يحب الخير لهم وينثر عليهم ما ينفعهم فقد استأمنه الله على رزق العباد .

ومثَّلنا لبيان ذلك قلنا : هبْ أن لك أولاداً ، واحداً منهم يأخذ مصروفه فينفقه على ملذاته ورغباته وفيما لا يفيد ، والآخر يشتري بمصروفه حلوى ويُوزِّعها على إخوته الصغار ، فأيهما تُؤثره بعد ذلك ، وأيهما تزيده ؟ كذلك اليد المناولة عن الله لخَلْق الله ، وكأن الله يقول له : أنت مأمون على نعمتي ، مأمون على خَلْقي ، ومن ذلك قول الشاعر :

وَإنِّي امْرُؤٌ لاَ تَسْتَقِرُّ دَرَاهِمِي ... عَلَى الكَفِّ إلاَّ عَابِرَاتِ سَبِيلِ

وقوله ﴿يَسْعَىٰ ⁽٢٠⁾﴾ [يس] يعني : أن مجيئه لم يكُنْ عادياً ، إنما

مسرعاً يجرى ﴿ قَالَ يَـٰقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ﴾ [يس] وقوله ﴿ يَـٰقَوْمِ ۝٢٠ ﴾ [يس] نداء لتحنين المنادَى ، كأنه يقول : يا أهلى ، يا عشيرتى ، يا أبنائى ، فذكر ما بينه وبينهم من صلات المودة والرحمة .

وقوله ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ﴾ [يس] يدل على تأييده لهم ، وهو هنا يذكر الحيثية الأولى لهذا الاتباع هى أنهم مرسلون ، ثم يذكر لهم حيثية أخرى فيقول : ﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ ﴾ [يس] يعنى : لم يطلبوا منكم أجراً على دعوتهم .

وكلمة ﴿ مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ۝٢١ ﴾ [يس] لا تُقال إلا إذا كان العمل الذى قام به يحتاج إلى أجر ، والرسول ما جاء إلا لينفع المرسَل إليهم ، فهو منطقياً يحتاج إلى أجر ، لكن مَنْ يستطيع أنْ يوفيه أجره ؟ لا أحد يوفيه أجره إلا الله ؛ لأن نَفْع الرسول يتعدَّى نفع الدنيا إلى نفع الآخرة ، فمَنْ من البشر يعطى الرسول ما يستحقه ؟

لذلك رأينا الرسل جميعاً يقولون هذه الكلمة ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۝٧٢ ﴾ [يونس] يعنى : أنتم أيها القوم لا تملكون مقدار أجرى ، ولا تقدرون على تقييمه ، إنما يعطينى أجرى الذى أعمل من أجله . كل رسل الله قالوا هذه الكلمة إلا رسولين ، هما : سيدنا إبراهيم ، وسيدنا موسى عليهما السلام . لماذا ؟

قالوا : لأن إبراهيم كانت أول دعوته لأبيه آزر ، ولا يليق أنْ يطلب منه أجراً على دعوته إياه إلى الحق . كذلك سيدنا موسى أول ما دَعا دَعا فرعون الذى ربَّاه فى بيته ، وله فَضْل عليه ، فكيف يطلب منه أجراً ؟

وقوله سبحانه ﴿ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ ﴾ [يس] حيثية ثالثة لاتباعهم ،

فهم مُرْسَلُون من قِبَل مَنْ أرسله الله ، والله لا يرسل إلا مَنْ يهدى إلى صراط مستقيم يوصل إليه سبحانه . فهؤلاء المرسلون مهتدون فى أنفسهم ، وبالتالى هادون لغيرهم ، فهو إذن يذكر الأمر وعلّته ، فهؤلاء الرسل لا يسألون أجراً ، ولا يدعون إلى ضلال ، بل إلى هدى .

ثم يلتفت هذا الرجل إلى نفسه ، فيقول للقوم : أنا لا آمركم أمراً أنا عنه بنَجْوَة ، ولو كنتُ سأغشُّكُم فلن أغشَّ نفسى ﴿وما لى لا أعبُدُ الَّذى فطَرنى (٢٢)﴾ [يس] أى : خلقنى من العدم ، فهو أوْلى بالعبادة ، هو الذى صنعنى ، أوجدنى من عدم ، وأمدَّنى من عُدم ، ولا زال يُوالى علىَّ نعمه ، إذن : ما يمنعنى أنْ أعبده وهو أوْلَى بالعبادة ، ولو لم تكُنْ عبادتى له إلا لأُكافئه على نعمه دون نظر إلى ثواب ، لكانتْ عبادته واجبة .

وهذا ليس كلامَ رسول ، إنما كلام رجل مؤمن متطوع باشر الإيمانُ قلبه ، فأراد أنْ يزكّى إيمانه ، وأنْ يُعدّى هدايته إلى غيره من باب قوله ﷺ: « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1]

الحق سبحانه خلق الخَلْق أولاً ، ثم أرسل الرسل بالمنهج لهدايتهم ، الرسل بدورهم بلَّغوا الأصحاب ، ومَنْ بلغه شىء تحمله كما يتحمله الرسول ، لذلك قال سيدنا رسول الله ﷺ : « نضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، ثم أدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها فرُبَّ مُبلَّغ أوْعَى من سامع »[2]

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣) ، ومسلم فى صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال لأخيه - ما يحب لنفسه » .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٢٧/١) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه فى سننه (٢٣٢) ، والحميدى (٤٧/١) من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه .

إذن : مسئولية الدعوة يتحملها أولاً الرسل ، ثم المؤمنون بهم الذين بلغتهم الدعوة . وهذا التحمُّل ليس تفضُّلاً ، إنما تكليف من الله ، لذلك قال سبحانه : ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (١٤٣)﴾ [البقرة] ، فكما شهد الرسول أنه بلغكم ، فوجب عليكم أنْ تشهدوا على الناس أنكم بلَّغتموهم ؛ لأن المؤمنين بالرسالة امتداد للرسول .

لذلك ، رأينا هذا الرجل المؤمن الذي جاء من أقصى المدينة يسعى لإعلاء كلمة الحق وتأييد الرسل لم يكن رسولاً ولم يكلِّفه أحد بهذا ، إنما تطوَّع به ؛ لأن طاقة الإيمان عنده دفعته إلى هذا الموقف .

ثم نراه يُطبِّق المسألة على نفسه أولاً ، فيقول : ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (٢٢)﴾ [يس] وهذا تلطُّف في عرض الدعوة وأحرى أنْ تُقبل .

وقوله : ﴿وَمَا لِيَ (٢٢)﴾ [يس] كأنه يتعجب من أمر نفسه لو أنه لم يؤمن بالذي فطره ، والتعجب من النفس أصدق ألوان التعبير ، كأنه لا يماري ولا يداهن ويقول ما في نفسه ، كما قال سيدنا سليمان ـ عليه السلام : ﴿مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ (٢٠)﴾ [النمل]

فالجواب ليس عند الغير ، بل عنده هو ، كأنه يقول : لا بُدَّ أن يكون الهدهد موجوداً لكنني لا أراه ، فالقاعدة أنه يستعمل الكل والكل موجود ، فالعجب عندي أنا : ما لي لا أراه ، ثم يعيد الأمر ﴿أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠)﴾ [النمل] يعني : إما أنْ يكون المانع من عندي أنا ، أو من عنده ، كأنه يُشكِّك في الأول ، ثم يُدقِّق الأمر فيجده من عنده هو .

فقوله : ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾[يس] كأن أمر الفطرة والخَلْق يقتضى أن تَعْبد الذى فَطَر ، والخروج عن هذا أمر يستدعى العجب .

لذلك في سورة البقرة الحق سبحانه يلقننا فى مخاطبة الكافرين ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ (٢٨)﴾ [البقرة] يعنى : كيف يكون ذلك منكم ، إنَّ كفركم بالله الذى خلقكم ورزقكم أمر لا يجوز بالمنطق العقلى ، فأخبرونا إذن الطريقة التى كفرتم بها .

والفَطْر : الخَلْق العجيب على غير مثال سابق ؛ لذلك يقول سبحانه عن نفسه ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (١١٧)﴾ [البقرة] يعنى : خلق السموات والأرض ابتداءً على غير مثال سابق احتذاه فى الخَلْق .

أو : أن المعنى ﴿الَّذِي فَطَرَنِي (٢٢)﴾[يس] أى : على الإيمان به إيمان فطرة ، إذن : فإيمانه بالله إما إيمان شكر لمن خلقه وأوجده على غير مثال سابق ، أو إيمان الفطرة الأولى التى فطر اللهُ الناسَ عليها ، واستجاب هو لِمَا فى ذاته من هذه الفطرة .

وحين نتأمل مهمة هذا الرجل نجد أنه أشبه بالقلب بالنسبة لباقى أعضاء الجسم ، أى : من حيث تكوين مراحل الإيمان ، كيف ؟ الجسم عبارة عن جوارح متعددة ، لكل جارحة مهمة ووظيفة ، وحياة الجسم تتطلب مقومات الحياة من الطعام والشراب والهواء ، فيأكل الإنسان من نتاج الأرض ، ويشرب من مائها .

وبعد عملية التناول وما فيها من نِعَم لله فى أسنان تقطع ، وأضراس تطحن ، ولعاب يساعد فى عملية البلع ، وعصارات هاضمة.. الخ يتمثل الغذاء فى الجسم إلى دم يستقبله القلب فيأخذ

منه حاجته أولاً ليقوِّى نفسه على ضَخِّ الدم إلى باقى الأعضاء ليؤدى كلُّ عضوٍ مهمته .

كذلك ، كان هذا الرجل من حيث قوة إيمانه ، فبعد أنْ آمن واستقر الإيمان فى قلبه أراد أنْ يُعدِّى إيمانه إلى قومه ، وأنْ يُشيعَ عليهم من الهداية التى تشرَّب بها قلبه ، إذن : فهو يمثل قلب الرسالات ، لذلك جاء فى الحديث الشريف أن « يس قلب القرآن »[1] وهذه المسألة لم تأت إلا فى يس ، لذلك كانت هى قلب القرآن ؛ لأنها جاءت بآخر مرحلة من مراحل الرسالات التطوعية التى تخدم الرسالة الواجبيَّة .

وما دام أن رسول الله ﷺ قد أخبر أن يس قلب القرآن ، فعلى المؤمن أنْ يستقبل كل ما جاء فى فضلها مما صَحَّ عن رسول الله ، وليس من الضرورى أن نقف على علَّة كل شىء ، لأن الإيمان كما قلنا غيب ومشهد ، والمؤمن يأخذ من صدْق ما شاهد دليلاً على صدْق ما غاب عنه .

إذن : لنأخذ هذه الأحاديث على العين والرأس ، حتى إن قرأتَ يس ، فلم تجد ما أخبرتْ به الأحاديث ، فيكفيك أنك تقرأ كلام الله ، ولن تُعدم الخير على أىِّ حال ، لذلك رأينا بعضهم يضع الأحاديث التى تحثُّ على قراءة القرآن .

وقد ورد فى حديث أُبىٍّ أن المريض الذى تُقرأ عنده يس تأتيه صفوف الملائكة على قدر كل حرف منها عشرة آلاف مَلَك ،

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٦/٥) من حديث معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « يس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تبارك وتعالى والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرأوها على موتاكم » .

لا يفارقونه حتى يموت ، ثم يشهدون تغسيله ، ويشهدون تشييعه ، والصلاة عليه ودفنه[١] .

وفي رواية أخرى : مَنْ قُرِئت عنده يس وهو مريض ، أو قرأها هو لنفسه يأتيه جبريل عليه السلام بكأس فيه ماء ، فيشربه شربةً لا يظمأ بعدها ، ولا يحتاج إلى أحواض الأنبياء[٢] .

هذا كله وغيره على العين والرأس ، تحقق معناه عندنا ، أو لم يتحقق .

وقوله سبحانه ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾[يس] يعني : لا تظنوا أنكم تفلتون من الله ؛ لأنكم في قبضته ، وأنتم في البدء كنتم منه بإقراركم ، وكذلك تكون النهاية إليه والمرجع ، فإنْ لم تُقدِّروا نعمة الإيجاد فقدِّروا مغبة العَوْد .

ونلحظ في هذه الآية أن الرجل المؤمن يتكلم عن نفسه بصيغة المفرد ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (٢٢)﴾[يس] ثم يعدل عن الإفراد إلى خطاب الجماعة والقوم المكذِّبين ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾[يس] ولم يَقُلْ : وإليه أرجع ، لماذا ؟

قالوا : لأن الطاعة التي هي أصل العبادة إنما تأتي على مراحل ثلاث :

---

(١) قد صحت أحاديث في فضل سورة يس ، ليس من بينها ما ذُكر هنا ، فقد أخرج الترمذي والدارمي والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شيء قلباً ، وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/٣٧) .

(٢) ما وجدته قريباً من هذا ما أخرجه البيهقي في شعب الإيمان عن أبي قلابة موقوفاً عليه : من قرأ يس غفر له ، ومن قرأها عند طعام خاف قلته كفاه ، ومن قرأها عند ميت هوِّن عليه ، ومن قرأها عند امرأة عسر عليها ولدها يسر عليها ، ومن قرأها فكأنما قرأ القرآن إحدى عشرة مرة » قال البيهقي : هكذا نُقل إلينا عن أبي قلابة وهو من كبار التابعين ، ولا يقول ذلك إن صح عنه إلا بلاغاً .

الأولى : أنْ تطيع مَنْ تجد فيه نموذجاً كمالياً يستحق أن يُطاع ، ويستحق أنْ يُحمد لكماله ، وإنْ لم يَعُدْ عليك منه شيء ، كما تنظر مثلاً إلى قصيدة رائعة معبِّرة فتعجب بقائلها وتثنى عليه ، أنت لا يعود عليك شيء منها لكنك تُقدِّر الشاعر لذاته .

الثانية : أن تطيع إنساناً وتُقدِّره لمنفعة تعود عليك منه ، وكثيراً ما نرى الناس يخدمون رجلاً جباناً لا يستحق أنْ يخدم ، وما خدمه الناسُ إلا طمعاً فيما عنده .

والمرحلة الثالثة : أنْ تطيع شخصاً أو تحترمه لمجرد الخوف منه واتقاءَ شرِّه .

وقد حقق الرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى المرحلتين الأولى والثانية فى قوله ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي (٢٢)﴾[يس] فأنا أعبده لأنه بكماله يستحق أنْ يُعبد ، وأعبده لنعمه المتوالية ، أما المرحلة الثالثة فجعلها لهؤلاء المكذِّبين من قومه ، فقال ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢)﴾ [يس]

يعنى : تنبهوا يا قوم : إذا لم تقدروا فى الله صفات الكمال التى يُحبُّ لأجلها ، ولم تقدروا فى الله نعمه المتوالية عليكم ، فاعلموا أن العودة إليه والمرجع والمصير بين يديه ، وهو سبحانه قوى عليكم ، لا يفلت من قبضته أحد .

ثم يؤكد هذا الرجل المؤمن على مسألة عبادة الله وحده ، فيزيد :

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدۡنِ ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرࣲّ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـࣰٔا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّيٓ إِذࣰا لَّفِي ضَلَٰلࣲ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ فَٱسۡمَعُونِ (٢٥)﴾

الاستفهام في ﴿أَأَتَّخِذُ ﴿٢٣﴾﴾ [يس] يحمل معنى التعجُّب والإنكار ، فهو يتعجب وينكر : كيف يتخذ من دون الله آلهة ، والله هو الذي خلقه ، وحين تتأمل معنى الفعل (أتخذ) تجد أن الشيء المُتَّخذ ليس أصلاً ، فمعنى اتخاذ آلهة أنها ليستْ آلهة في الحقيقة ، وأنها لا تستحق أنْ تكون آلهة ، لكنك عمدتَ إليها فجعلتها آلهة ، ومثله اتخاذ الولد في قوله تعالى : ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ.. ﴿٩١﴾﴾ [المؤمنون]

فالمعنى : أن الله تعالى ليس له ولد في حقيقة الأمر ، وإنْ قلتم اتخذ الله ولداً ، فهذا يعني أنه أتى سبحانه إلى ولد فتبنَّاه ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وكما تقول أنت اتخذت ولداً . يعني : أتيتَ إلى ولد لم تنجبه فتبنَّيْته .

إذن : ما دامت هذه آلهة متخذة ، فالمعنى أنها ليس لها وجود أصلاً ، وكأن الرجل يُصحِّح للقوم فكرتهم عن العبادة .

وقوله سبحانه : ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ ﴿٢٣﴾﴾[يس] هذه العبارة فيها لفتة لطيفة ينبغي تأملها ؛ لأن صفة الرحمة في الرحمن تتناقض مع الضر ، فكيف جمع السياق بينهما ؟

نقول : إذا فسرتَ ما يجري عليك به قَدَر الله على أنه ضُرٌّ لك فتعقَّل أنه من رحمن ، فلا بد أن يكون لمجريه عليك وهو الرحمن حكمه فيما أجرى ، لذلك نقول : أحمدك ربي على كُلِّ قضائك وجميع قدرك ، حَمْدَ الرضا بحكمك ، لليقين بحكمتك .

فكأن الحق سبحانه يقول لك : تنبه أنه ليس كل ما تراه بقوانينك أنت ضاراً لك ، هو كذلك ؛ لأن مُجريه عليك رحمن ، ففي طيَّات هذا الضر نَفْع كثير . كما يقدم الأب الحنون ولده للطبيب فيُجري له جراحة مؤلمة ، أو يقطع جزءاً منه ليُصلح باقي الجسم ، فهذا ضرر

في الظاهر ، وفي الحقيقة رحمة به .

لذلك سبق أنْ قلنا : إذا دخل عليك ولدك يسيل دمه ، فلا تستقبل هذا لا بالرضا ، ولا بالسخط ، إلا بعد أنْ تسأل عن الفاعل ، فإنْ كان عدواً سخطْتَ عليه ، وإنْ كان مُحباً تقبلْتَ ما حدث بالرضا ، وقلتَ للولد : لا بد أنَّ عمَّك مثلاً رآك تخطىء فعاقبك .

كذلك لا تحكم على أقدار الله التي يُجريها عليك إلا من منطلق أنها من رحمن أرحم بك من الوالدة بولدها ، وأنت خَلْقه وصَنْعته ، وما رأينا أحداً من حمقى البشر يعمد إلى صنعته فيحطمها ، إنما يعتني بها ، ويُعمل فيها يد التجميل والتزيين ، كما ترى النجار مثلاً يمسك بـ (الفأرة) وينحت في الخشب . أتقول : إنه يضر بصنعته ؟ لا بل يُصلحها ويُزينها .

لذلك يقول تعالى في الحديث القدسي : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحب ، فبحقِّي عليك كُنْ لي محباً »[1] أبعد هذا التودد من الخالق للخَلْق يُجرى عليهم ما يضرهم ؟

وفي حياتنا العملية كثيراً ما نرى شواهد لهذه المسألة ، فكثيراً ما يفوتك القطار أو الأتوبيس مثلاً ، فتأخذ الميعاد التالي ، وفي الطريق تجد القطار أو الأتوبيس حدث له حادث فتصحح أنت فكرتك الأولى ، وتُحوِّل غضبك لفوات القطار إلى شكر لله الذي نجَّاك ، وكنتَ تظن غير ذلك . إذن : انظر إلى مَنْ أجرى عليك الأقدار ، ولا تنظر إلى المنفعة السطحية ؛ لأن لله تعالى حكمة فيما يُجريه ، تعلمها أنت أو لا تعلمها .

---

(١) أورده الإمام أبو حامد الغزالي في « إحياء علوم الدين » (٤/٢٩٦) قال : « في بعض الكتب : عبدي أنا وحقِّك لك محب ، فبحقي عليك كُنْ لي محباً » .

أيضاً كثيراً ما يُخفق أحد أبنائنا مثلاً في الامتحان وقد ذاكر واجتهد وحصَّل العلوم .. الخ لكن عَرَض له عارض من مرض أو غيره فلم يُوفَّق . النظرة السطحية للأمور تقول : إنها شر وخسارة تدعو إلى السخط والعياذ بالله ، لكن النظرة المتأنية المتأملة ترى لله تعالى حكمة في هذا الإخفاق .

فالأب العاقل في مثل هذه المواقف يقول لولده : يا بني ، احمد الله فأنت دائم النجاح ، ولعلك إنْ نجحتَ هذا العام لا تَسْلَم من عيون الحاسدين ، وهذه فرصة لك لتزيد من مجموعك لتدخل الكلية التي تريدها .. الخ .

وهكذا يُوثق الوالد علاقة ولده بالله ، ويُزيد من إيمانه ورضاه بربه ، ويُبعده عن السخط وعدم الرضا بالقضاء ، وهذه مسألة ينبغي على الآباء الاهتمام بها .

إذن : اللمسة التي نريد الوقوف عندها في هذه الآية أن الرحمن إنْ كانت تنافي عندك فعْل الضر ، فهذا عندك أنت ، إنما عند مُجريها لا تنافي ، لأنها من الرحمانية .

وقوله تعالى : ﴿ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا (٢٣) ﴾[يس] يعني : شفاعة هذه الآلهة - إنْ كانت لهم شفاعة - لا تُجدي ، لأنهم شركاء لله وأنداد لله ، فكيف تُقْبل شفاعتهم عنده سبحانه ؟

وشرط في الشفاعة أن يكون الشافع محبوباً عند المشفوع عنده ، فهذه الآلهة على فرْض أنه كان لهم شفاعة ، فهي غير مقبولة عند الله تعالى ، مع أن هذه الآلهة في ذاتها معذورة حيث لا ذنبَ لها ، فهي ما ادَّعَتْ أنها آلهة ، إنما ادَّعى البشر ذلك .

وسبق أنْ ذكرنا أن هذه الآلهة قد تبرأت من كونها تُعبد من دون الله ، وصدق الشاعر الذي صاغ هذا المعنى ، فقال على لسان هذه الآلهة :

عَبَدُونَا وَنَحْنُ أعْبَدُ لله ... مِنَ القَائمينَ بالأسْحَارِ

قَدْ تجنَّوْا جَهْلاً كما قَدْ ... تجنوه على ابْنِ مريَم والحَوارِى

تَخِذُوا صَمْتَنَا علينَا دليلاً ... فغدَوْنَا بهمْ وَقُودَ النَّارِ

المْغَالى جَزَاؤُه والمغَالَى فيه ... تُنْجِيه رحمةُ الغفَّارِ

وقوله سبحانه : ﴿ولا يُنقذُونِ (٢٣)﴾[يس] لأن الشافع حين تُرد شفاعته يمكن أن ينقذ المشفوع فيه من يد المشفوع عنده ، أما هؤلاء الآلهة فلا تُقبل شفاعتها ، ولا تستطيع أنْ تنقذ مَنْ طلب منها أنْ تشفع له .

وقد بيَّنَّا معنى الشفاعة ، وأنها من الشفع يعني : إنسان له قضية ، ولا يستطيع وحده بأسبابه حَلَّ هذه القضية فيستعين بآخر ليساعده وينضم إليه ليُقوِّيه على حلِّها ، إذن : بعد أنْ كان مفرداً صار بالشافع شفعاً . يعني : اثنين

ولما أراد الحق سبحانه أن يجلي لنا هذه المسألة قال سبحانه في سورة البقرة : ﴿واتَّقُوا يومًا لاَّ تجْزِي نفْسٌ عن نَّفْسٍ شيْئًا ولا يُقْبلُ منْها شفاعةٌ ولا يُؤْخذُ منْها عدْلٌ (٤٨)﴾ [البقرة]

وقال في موضع آخر : ﴿واتَّقُوا يومًا لاَّ تجْزِي نفْسٌ عن نَّفْسٍ شيْئًا ولا يُقْبلُ منْها عدْلٌ ولا تنفعُها شفاعةٌ (١٢٣)﴾ [البقرة]

تلحظ أن صدر الآيتين متفق لكن عجزهما مختلف ، فلماذا ؟ قالوا : لأن مرجع الضمير مختلف ؛ لأن عندنا هنا نَفْساً جازية ،

ونفساً مجزياً عنها ، فإنْ أعدْتَ الضمير على المجزى عنها ، فالمجزى عنه لا يشفع بنفسه ، إنما يـعرض العدل أولاً ، ويطلب تقويم الضرر ليدفـع فدْيته ، فـإنْ لم يقبل منه العـدل بحث عمَّنْ يشـفع له ، إذن : فالمعنى : لا يُقبل من ذاتها عدل ، ولا تنفعها شفاعة الغير .

فإنْ أعـدْتَ الضمير على النفس الجازية - أي : الـشافعـة - فإن الشافع يتقدم ليشفع أولاً ، فإنْ لم تُقبل شفاعته فإنه يعرض العدل ، ويتحمل الفدية .

إذن : هذه الآلهـة - على فَرْض أن لهـا شفـاعة - فـهى شفـاعة مردودة غير مـقبولة ، وهم أيضاً لا يستطيعون إنـقاذ مَنْ يلجأ إليهم من قبضة الحق سـبحانه ، فهم لا يصلحون للشـفاعة ، ولا للإنقاذ ، وهذا المعنى واضـح فى قـوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣)﴾ [الحج]

وقوله : ﴿إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾[يس] يعنى : إنْ فعلتُ ذلك ، وذهبتُ إلى عبادة هذه الآلهـة أكون فى ضلال ﴿مُّبِينٍ (٢٤)﴾[يس] بيِّن واضـح ، وقوله : ﴿ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤)﴾[يس] كأن الضلال يحاصره ويحيط به من كل ناحية ، بحيث لا يستطيع أنْ ينجو منه .

ثم يقـول هذا الـرجل المـؤمن : ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَـاسْـمَـعُـونِ (٢٥)﴾[يس] هذا الخطاب يصح أنْ يُوجَّه إلـى الرسل الذين جاء الرجل ليساندهم فى دعوتهم ويناصرهم ، فنظر إليهم وقال ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ (٢٥)﴾[يس] ومـعنى ﴿فَـاسْـمَـعُـونِ (٢٥)﴾[يس] أى : اسـمـعـوا منى ما أناصركم به ، واشـهدوا لى بأننى متطوع بهذه المساندة الإيمانية ، لم يُكلِّفنى أحد بها .

ويصح أنْ يكون هذا الخطاب مُوجَّهاً إلى القوم المكذِّبين ، فهو يقول لهم : ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ (٢٥)﴾[يس] يعني : الله ربكم رغماً عنكم ، وإنْ كنتم كافرين به سبحانه فأنا احترمت ربوبيته لكم ، وآمنتُ بها لأدخل في عظمة هذه الربوبية ﴿فَاسْمَعُونِ (٢٥)﴾[يس] أي : اسمعوا مني هذا البلاغ لأكون قد أدَّيْتُ ما وجب عليَّ نحوكم ، وأبلغتكم ولم أخدعكم أو أغشَّكم[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ (٢٧)﴾

بناء الفعل (قيل) للمجهول يفيد التعميم ، فمَن الذي قال له ادخل الجنة ، ومتى قال ؟ في القرآن آية نقرؤها تجيب عن ذلك ، اقرأ قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)﴾ [فصلت]

فالرجل الذي وقف هذا الموقفَ الإيماني متبرعاً ، وجاء من أقصى المدينة يسعى ليساند الرسل في أمر لم يُكلَّف به ، ويأتي للقوم المكذِّبين بحجج وبراهين لم يَأْتِ بها الرسل أنفسهم جدير بأنْ تتنزَّل عليه الملائكة ، وبأن تبشره بالجنة . أو : أن الحق سبحانه حكى عنه ما يقوله بعد أنْ يموت ويدخل الجنة ، وهذا إكبار من الله له .

---

(١) أما القول الأول : أنه خطاب للرسل ، فهو قول ابن مسعود . ذكره القرطبي في تفسيره (٥٦٥٤/٨) ، ونقله السيوطي في الدر المنثور (٥٢/٧) . أما القول الثاني : أنه خطاب لقومه ، فقد نقله القرطبي في تفسيره عن كعب الأحبار ، ووهب بن منبه . فالآية يجوز فيها التأويلان .

ومن مؤهلات هذا الرجل لدخول الجنة أنه لم ينظر إلى حَظِّ نفسه من التديُّن ، إنما نظر أيضاً إلى حَظِّ إخوانه ، فحتى بعد أنْ بُشِّر بالجنة ، أو بعد أنْ دخلها لم ينشغل بنعيمها عن قومه ، إنما قال: ﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [يس] يعني : ما أنا فيه من النعيم ، وما انتهى إليه أمر الإيمان والطاعة ، ليعملوا مثلي ولينالوا ما نلْت ، إنهم لو علموا لتهافتوا على الإيمان ، وأقبلوا على الطاعة أكثر من تهافتهم على الكفر والمعصية .

وقوله : ﴿ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [يس] لاحظ أن المغفرة سبقتْ المكرُمة ، وهذه المسألة يسمونها التخلية والتحلية ، وسبق أنْ مثَّلْنا لها بالثوب حين تريد أنْ تكويه مثلاً : أتذهب به إلى (المكوجي) بما عليه من وسخ ؟ لا إنما تنظفه أولاً ، ثم تُزيِّنه بالكَيِّ .

كذلك الحق سبحانه وتعالى - ولله المثل الأعلى - قبل أنْ يُدخل عبده الجنة يُنقِّيه أولاً من الذنوب ، ويطهره مما علَق به ، وهذه هي التخلية ، ثم يُكرمه بالجنة ، وهذه هي التحلية ، وهذا المعنى واضح في قوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران]

فالحق سبحانه يمتنُّ علينا أولاً بأنْ يُزحزحنا عن النار بمغفرة الذنوب ، ثم يُكرمنا بدخول الجنة كرامةً منه وفضلاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

نفهم من سياق هاتين الآيتين أن القوم المكذِّبين قتلوا هذا الرجل المتطوع ، أو أنه مات بطبيعة الحال[1] ، والمنتظر أن الله تعالى يجازيهم على تكذيبهم للرسل الثلاثة أولاً ، ثم تكذيبهم للرجل الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لنصحهم ، فماذا فعل الله بهم ؟

يقول سبحانه : إن أمر هؤلاء المكذِّبين أهون من أنْ نُنزل عليهم جُنْداً من السماء تهلكهم . ومجرد صيحة واحدة كافية لهلاكهم ، فالمعنى ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يس] أى : من بعد النصيحة والعظات والبراهين التى تطوَّع بها ﴿ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [يس] يعنى : لم نُنزل وما كان ينبغى لنا أنْ نُنزل عليهم جنداً من السماء ؛ لأن الأمر أهون من ذلك .

﴿ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴿٢٩﴾ ﴾ [يس] أى : ما كانت إلا صيحة واحدة ﴿ فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يس] كلمة ﴿ خَامِدُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [يس] تدل على أنهم كانوا متحمسين للكفر بهم فى أُوَار وغضب واشتعال على رسل الله أولاً ، ثم على الرجل المتطوع ثانياً ، فَهُمْ فى ذلك أشبه بالنار المتأججة ، فأخمدها الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك كلمة يصح أن يقولها كل مؤمن يرى مصارع العاصين ونهاية الكافرين الذين أدركهم الموت قبل أنْ يتداركوا أنفسهم بالإيمان ، يقول :

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٦٨) : « قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب أنه لما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يكن له احد يمنع عنه ، وقال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول . اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون ، فلم يزالوا به حتى اقعصوه وهو يقول كذلك » . أما القرطبى فى تفسيره (٧/٥٦٥٤) فقد ذكر عدة اقوال ، منها قول ابن مسعود أنهم وطئوه بارجلهم حتى خرج قُصْبُه (أى أمعاؤه) من دبره . وألقى فى بئر الرس . فهم أصحاب الرس

﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٠﴾

هذه كلمة تحسُّر كثيراً ما نقولها تحسُّراً على فوات الخير ممن نحب له الخير ، ومعنى ﴿يَٰحَسۡرَةً ۝٣٠﴾[يس] هذا نداء كأنك تناديها تقول : يا حسرة تعالَىْ ، فهذا أوانك . والتحسُّر هنا على العباد الذين كذَّبوا رسل الله واستهزأوا بهم ، وهذا أمر يجب أنْ يتحسَّر عليه كل مؤمن ؛ لأن الله تعالى خلقك وخلق لك قبل أنْ يستدعيك للوجود .

خلق لك مُقوِّمات حياتك المادية ، وصان مادتك بما قدَّر لك في الأرض من أقوات ومن ضروريات وكماليات ، فهل يُعقل أنْ يُعطي كل هذا للبدن ويُترك الروح بلا عطاء ، وهي أهم من البدن ؟

لا بُدَّ إذن أنْ يكون للروح عطاء وغذاء وقيم ، بل إن القيم هي مطلوب الله من عبده ؛ لأنك ستكون عابداً لله ، مطيعاً لأوامره ، منتهياً عن نواهيه ، وهذا هو المنهج الذي كلَّفك به في افعل كذا ، ولا تفعل كذا .

لذلك تجد أن عطاء المادة ومُقوِّمات حياة البدن مكفولة للجميع : للمؤمن وللكافر ، للطائع وللعاصي ؛ لأن الله تعالى هو الذي استدعى الكل إلى الوجود ؛ لذلك تكفَّل بأرزاقهم ، كما تستدعي أنت مثلاً ضيفاً إلى بيتك ، فتهيىء له مطعمه ومَشْربه ومُقَامه عندك ، وكل الناس أخذوا هذا العطاء .

أما عطاء القِيَم والروح ، فبعضهم أخذه وبعضهم تركه ؛ لأن عطاء المادة سمح له بشهوة نفسه ، أما القِيَم فقيَّدتْ هذه الشهوة

وأمسكتها عن أشياء ، نفسه تريدها ، فلما صدَّته القيم عن شهوات النفس تركها وتملَّص منها .

هذا المنهج القيمى جاء من مُحبٍّ لك حريص على مصلحتك ، كما ذكرنا فى الحديث القدسى عن رب العزة : (عبدى ، أنا لك مُحبّ ، فبحقِّى عليك كُنْ لى مُحباً) فأنت المنتفع بهذا المنهج ؛ لأن الله تعالى خلقك بكل صفات الكمال فيه سبحانه ، فطاعتك لا تزيده كمالاً ، كما أن معصيتك له لا تُنقصه شيئاً من صفاته ، ولا تضره بشيء .

لذلك جعل الله من عباده الغنى والفقير ، وكان قادراً سبحانه على أنْ يجعلنا جميعاً أغنياءَ لا يحتاج أحد منّا إلى أحد ، والفقير لو تأمل الحكمة فى فقره لحمد الله ولَعلم أنه بفقره شرْط فى إيمان الغنى ، وليس الغنى شرطاً فى إيمان الفقير ، فالغنى يحتاجنى قبل أنْ أحتاجه أنا ، الغَنِىّ يسعى ويتعب ويكابد أسباب الرزق والتجارة والمكسب والخسارة ، ثم يأتى إلى بابى ليعطينى حَقَّ الله فى ماله وأنا مستريح البال .

الغنى فُرِض عليه الحج ، وإنْ قصَّر فيه يُعاقب ، وإنْ حَجَّ فهو بين قبول أو رَدٍّ ، فإنْ لم يُقبل حجه ظلتْ الفريضة عليه . وفرْق بين مَنْ فُرِض عليه الركن ، وبين مَنْ لم يُفرض عليه أصلاً .

إذن : المتأمل يرى أن الفقير أحظُّ من الغنى ، وغير المستطيع أحظُّ من المستطيع .

وقد كنا مع بعض الإخوان ، فأردنا أنْ نصلى المغرب فى مسجد سيدنا الحسين ، فلما قُمْنا للصلاة ، استوقفنا عم الحاج سيد جلال وقال : انتظروا دقيقتين ، لأننى أرسلت الولد سليمان (يفك) لى

عشـرة جنيهات ، فقـال أحد الحاضـرين : معى جنيهـات جديدة هات العشرة جنيـهات أفكها لك ، فقال الحـاج سيد : لا ، لأن الرجل الذى أنوى أنْ أعطيه لا يـأخذ إلا الجنيه الكبـير بتـاع زمان ، ويرفض هذه العملة الجديدة .

فقلت فى نفسى : سبحان الله ، هذا الرجل المجـذوب الذى يقعد على باب سيدن الحسين وصفته كذا وكذا يُسخِّر أكبر رجل اقتصادى فى مصـر عم سيـد جلال ، ومـعه الوزير أحمـد طعيـمة ليـوفروا له النقود التى تعجبه .

والعجيـب أن من هؤلاء مَنْ كان يجلس على باب سيدنا الحـسين يضـع رِجْلاً على رجْل ، ويمـرُّ عليه موكب الوزير والوزراء فلا ينـتبه إليـهم ، ولا هو يلقى بالاً إلى الموكب والحـراس والدنيا من حـوله ، فمـاذا يعنى هذا ؟ يعنى أنه مشغـول بما هو أعظم من هذا كله ، وأن الله قد تجلَّى عليه بما أفقده الوعى بالدنيا وبما حوله .

لذلك رأى أحد منهم موكبـاً لأحد الوزراء فقال للآخر : والله نحن فى لذة ، لو علم بهـا هؤلاء لحـاربونا عليهـا بالسـيف ، أليس هؤلاء سادة ؟ أليسوا أعزَّة ؟

إذن : كل مؤمن يرى مصير المكذِّبين ومصارع الكافرين فى هذه القصـة وفى أشباهها لا بُدَّ أن يقـول هذه الكلمة ﴿يَـٰحَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ (٣٠)﴾[يس] لماذا ؟ لأن من تمام الإيمان أنْ يتحسَّر المؤمن على مَنْ لم يَذُقْ طعم الفضيلة ولذة الطاعة ، فهو مـسكين يستحق مَنْ يشفق عليه ويتحسَّر على حاله ، والمؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، بل ويحب الخير للإنسانية كلها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾

يعنى : كان يكفى هؤلاء المكذبين أن ينظروا مصير مَنْ كذَّب قبلهم ، وما حاق بهم من العذاب ، وأنهم بعد أنْ أهلكهم الله لم يرجع منهم أحد . وكلمة ﴿ يروا (٣١) ﴾[يس] من الفعل رأى ، وهى تأتى : بصرية أو علمية ، تقول : رأيت المشهد ، فهذه رؤية بصرية ، وتقول : رأيت هذا الرأى يعنى علمته ، والرؤية البصرية تقصر معلوماتك على ما اتصلتْ به جارحتك ، أمَّا العلمية فتعطيك ما اتصلتْ به جارحتك وجوارح الآخرين ، فالرؤية العلمية إذن أوسع من البصرية .

لذلك قال تعالى مخاطباً نبيه ﷺ : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) ﴾ [الفيل]

ومعلوم أن سيدنا رسول الله وُلد فى عام الفيل ، وربما بعد هذه الحادثة ، إذن : لم يَرَ منها شيئاً رؤية بصرية ، ومع ذلك خاطبه ربه بقوله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾[الفيل] يعنى : ألم تعلم ، سواء أكان قومه قصُّوا عليه القصة ، أو أن الله تعالى أخبره بها .

والرؤية البصرية للأحداث أوثق وسائل الإدراك لأنه كما يقولون : ليس مع العين أين ، لكن لماذا عدل السياق عن ألم تعلم إلى ألم تر ؟ قالوا : فى هذا إشارة من الحق سبحانه لنبيه يقول له : إن إخبارى لك بقضية علمية أوثق من رؤيتك بعينك .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا (٣١) ﴾[يس] تعنى أن من هؤلاء القوم مَنْ

رأى بالفعل مصارع المكذِّبين ، ومرَّ على ديارهم وهى خاوية على عروشها فى أسفارهم ورحلات تجارتهم فى الشتاء والصيف ، ومعنى ﴿كَمْ ﴿٣١﴾﴾[يس] تفيد الكثرة ، وأنه أمر فوق الحصر كما تقول لمن ينكر جميلك : كم أحسنتُ إليك وكأنك تقول له : أنا أرتضى حكمك وأستأمنك أنت على الجواب ، وبذلك تحوَّل الإخبار منك إلى إقرار منه هو .

ومعنى : ﴿مِّنَ الْقُرُونِ ﴿٣١﴾﴾[يس] القرون جمع قرن ، وهو فترة من الزمن قدَّروها بمائة عام ، والقرن أيضاً يعنى الجماعة أو القوم يجمعهم الشىء الواحد مهما طالتْ فترته كالدين الواحد ، أو حكم ملك من الملوك .. الخ . فمثلاً نقول : قوم نوح وقد أخذوا من الزمن مساحة ألف عام أو يزيد .

وقوله : ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾﴾[يس] يحتمل أكثر من معنى حسب عَوْد الضمير فى (أنهم) وفى (إليهم) فالآية تتحدث عن قرون أُهلكَتْ من قبل وتخاطب مكذِّبين معاصرين ، فإنْ عاد ضمير الغائبين فى (أنهم) إلى القرون التى أهلكت . فالمعنى : أنهم لا يرجعون ، ولم نَرَ أحداً منهم رجع بعد هلاكه ، وإنْ عاد الضمير على المخاطبين الموجودين . فالمعنى : أنكم أيها المخاطبون ، لا ترجعون فى نسبكم إلى هؤلاء الذين أهلكهم الله ؛ لأن الله تعالى استأصلهم بحيث لم يُبْقِ منهم أحداً ولا نسلاً .

والآية فى مجملها تعنى أن هلاك الكافرين والمكذبين ليس بدعاً ؛ بل هو سنة متَّبعة على مرِّ الزمان ، فالقرآن يقصُّ علينا ما نزل بعاد وثمود وفرعون : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي

الأوتاد (١٠) الذين طغوا في البلاد (١١) فأكثروا فيها الفساد (١٢)﴾ [الفجر]

والله تعالى أبقى الآثار لتدلنا على صدْق ما أخبرنا به سبحانه ، وها نحن نرى أمريكا مثلاً ، وهي سيدة الحضارة الحديثة ، وصاحبة الأسبقية في الابتكار والاختراع وغزو الفضاء ، ومع ذلك يأتون إلى مصر ليشاهدوا آثار الفراعنة التي بُنيت قبل الميلاد بآلاف السنين ، ويتعجبون رغم تقدُّمهم العلمي من كيفية بناء الأهرامات مثلاً .

هذه السُّنة - سُنة إهلاك الكافرين - نرى لها شواهد في عصرنا الحديث ، فروسيا التي انتحرت وقتلتْ نفسها بنفسها ، انظر ماذا فعلتْ في الشيشان ، هذه الدولة الإسلامية الصغيرة ، في حين قصَّرنا نحن عن نُصْرتهم ، أو أن نُصْرتنا لهم لم تكُنْ على قَدْر جبروت المعتدين ؛ لذلك تدخلت السماء وردَّ الله على أعداء دينه ، وثار منهم في زلزال سخاليل .

وقوله تعالى في الآية بعدها : ﴿وإن كلٌّ لمَّا جميعٌ لدينا مُحضرون (٣٢)﴾[يس] جاءت هذه الآية بعد قوله سبحانه ﴿ أنَّهم إليهم لا يرجعون (٣١)﴾ [يس] لتوضح أن عدم الرجعة أي في الدنيا ، وإلا لو لم يكُنْ لهم رجعة لا في الدنيا ولا في الآخرة ، فالموت راحة بالنسبة لهؤلاء المكذِّبين ، كما قال الفخر الرازي[1] رحمه الله ، إنما المراد : لا يرجعون في الدنيا ، أما في الآخرة فلا بُدَّ من الرجوع للحساب عن كل كبيرة وصغيرة .

---

(١) هو محمد بن عمر بن الحسن ، أبو عبد الله ، فخر الدين الرازي ، ولد ٥٤٤ هـ في الري (طهران) ، إمام مفسر ، أوحد زمانه في المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان ، توفي عام ٦٠٦ هـ عن ٥٢ عاماً بهراة . من كتبه « مفاتيح الغيب » في تفسير القرآن ، و « محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين » [الأعلام للزركلي ٦/٣١٣]

قوله سبحانه (وإنْ) إنْ هنا بمعنى ما النافية و (لَمَّا) بمعنى إلا ، فالمعنى : وما كُلٌّ إلا جميع لدينا مُحْضرون . وقد عرفنا من دراستنا لقواعد النحو أن كل وجميع من ألفاظ التوكيد المعنوى للجمع ، ومثلهما أبصع وأكتع وأبتع ، تقول : جاء القوم أجمعون أو أبصعون أو أبتعون ، وجاء القوم كلهم . ونلحظ أن الآية جمعتْ بين لفظى التوكيد كل وجميع ، فلماذا ؟

قالوا : الجمع بينهما ضرورى هنا ، لأن لكل منهما مدلولاً ، لا تؤديه الأخرى ، فالكُلية تفيد الشمول للأفراد فى الرجوع ، فكلهم يعنى كل فرد منهم ، ولا يُشترط أن يكونوا مجتمعين سوياً ، إنما يأتى كُلٌّ بمفرده لتُرى الذلّة والصَّغَار على المسرفين وعلى الكافرين الذين جعلوا من أنفسهم آلهة مطاعة . أمَّا جميع فيعنى : يأتون مجتمعين .

ومعنى ﴿مُحْضَرُون (٣٢)﴾[يس] من الفعل حضر ، وفَرْق بين حضر وأُحْضِر ، حضر، أى : طواعية بنفسه وبرغبته ، أما أُحْضِر أى : أجبر على الحضور ، وأُكْرِه رغم أنفه .

• • •

بعد أنْ ذكر الحق سبحانه مسألة البعث فى ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢)﴾[يس] أراد سبحانه أنْ يذكر دليلاً على صدْق هذه القضية ؛ لأن البعث من المسائل التى ينكرها كثيرون ، وصدق القائل[1] :

زَعَــمَ المُنَجِّـمُ وَالطَّبِيبُ كِـلاَهُمَـا ... لاَ تُحْشَرُ الأجْسَادُ قُلْتُ إِلَيْكُمَا

---

(١) هو : أبو العلاء المعرى ، أحمد بن عبد الله ، التنوخى ، ولد عام ٣٦٣ هـ بمعرة النعمان وتوفى فيها عام ٤٤٩ هـ عن ٨٦ عاماً ، شاعر وفيلسوف ، أصيب بالجدرى صغيراً فعمى فى السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، كان يلبس خشن الثياب ، وكان يُحرِّم إيلام الحيوان ، له « رسالة الغفران » ، « لزوم ما لا يلزم » وغيرهما

إنْ صَحَّ قَوْلُكُمَا فلَسْتُ بِخَاسِرٍ أوْ صَحَّ قَوْلى فالخَسَارُ عليكُمَا[1]

وكما يقول لك الناصح : إنْ ذهبتَ فى الطريق الفلانى فاحذر وخُذْ الاحتياط ؛ لأن فيه ذئاباً وسباعاً وقطاعَ طرق ، فماذا عليك إنْ أخذتَ الحيطة ، ولم تجد شيئاً ، مما خوَّفك منه ؟ كذلك اعتقادى فى البعث إنْ لم يُفدنى لا يضرنى ، واعتقادكم إنْ لم يضركم لا يُفيدكم .

وأقوى شبهة فى مسألة بَعْث الأجساد عند الفلاسفة أنهم قالوا : هَبْ أنَّ إنساناً مات ودُفن وتحلَّل جسده وزرعت على قبره شجرة تغذَّت من بقاياه ، ثم أثمرتْ وأكل من ثمارها إنسان آخر ، فوصلت إليه عناصر من الأول ، فحين يكون البعث . كيف تُبعَثُ هذه العناصر للأول ، أم للآخر ؟

وصاحب هذه الشبهة فَهِم أن العناصر حين تتكوَّن لها ذاتية فى التكوين ، ولم يفهم أن لها جنسية فى التعميم ، كيف ؟ نقول : هب أن إنساناً أصابه مرض أنقص وزنه عشرين كيلو مثلاً ، ثم هدى الله الطبيب إلى علَّته ووصف له الدواء شُفى من مرضه وتغذَّى حتى عاد إلى وزنه الأول ، أين ذهبتْ عناصره التى نقصتْ منه ؟ وهل هى نفس العناصر التى عادتْ إليه بعد أنْ شُفى ؟

إذَن : المسألة ليست خصوصية عناصر ، بل كمية عناصر ، والعظمة فى أنْ نحصى كمية عناصر كل إنسان ، فلو جمعت كمية العناصر الموجودة عندى (أكون) محمد الشعراوى ؛ لأن عناصر البشر جميعاً واحدة هى الستة عشر عنصراً المعروفة ، والتى تبدأ

---

(١) البيتان من قصيدة لأبى العلاء المعرى من بحر الكامل ، عدد أبياتها سبعة أبيات ، وفى أولها « قال » بدلاً من « زعم » . انظر ديوانه والموسوعة الشعرية .

كما ذكرنا بالأكسوجين ، ثم الكربون ، ثم النتروجين ، ثم الهيدروجين .. الخ لكن يختلف الأشخاص باختلاف كميات هذه العناصر عند كل منا ، فأنت عندك كذا أكسوجين ، وكذا كربون ، وكذا نتروجين ، وأنا أعلى منك في الأكسجين ، وأقلّ منك في الكربون ، وهكذا .

والحق سبحانه يُعلِّمنا أن المسألة ليست ذاتية عناصر ، وخصوصية عناصر ، إنما قيمة عناصر ، فيقول سبحانه في سورة (ق) : ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ④﴾[ق] يعني : يحفظ هذه الكميات ويُحصيها بمقاديرها ، فإذا أراد سبحانه البعث جمع نسبة كذا ونسبة كذا تعطي فلاناً ، ونسبة كذا إلى نسبة كذا تعطي فلاناً وهكذا ، ولم يقف الأمر عند علم هذه النِّسَب ، بل حفظها الله وسجَّلها في كتاب حفيظ .

وفي موضع آخر ، يردُّ الحق سبحانه على منكري البعث يقول لهم : لماذا تكابرون في البعث ، وهو إعادة لشيء كان موجوداً بالفعل وتفرَّقتْ عناصره ، والأعجب من ذلك أنْ أنشأته من غير موجود ، إذن : فالبعث أهون من الإعادة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ②⑦﴾ [الروم] هذا إنْ جاريناكم في فَهْمكم للأمور ، واتبعنا قوانينكم في التفكير .

وسبق أنْ أوضحنا أن العناصر التي خلقها الله في الكون هي هي ، لم تزد شيئاً ، ولم تنقص شيئاً ، فالماء مثلاً هو نفس الماء منذ خلق اللهُ الأرض ، لكنه يدور في دورة معروفة ، فالإنسان مثلاً يشرب طوال حياته كذا طن من الماء ، فهل يحتفظ بها ؟ لا بل تخرج منه في صورة بول وخلافه ، حتى بعد أنْ يموت يتبخَّر ما فيه من

مائية ، وتمتصها الأرض لتبدأ دورة جديدة للماء . وهكذا عناصر الإنسان تدور هذه الدورة .

وهنا يسوق الحق سبحانه لهؤلاء المنكرين هذا الدليل :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وهذا دليل مُشَاهد يراه الجميع ، ولا يستطيع أحد إنكاره ، فنحن نرى الأرض الميتة الجرداء القاحلة ، فإذا ما جاء المطر اخضرَّتْ ودبَّتْ فيها الحياة واهتزَّت وربَتْ ، وعلى الإنسان أنْ يأخذ مما يُشاهد دليلاً على صدْق ما غاب عن مشاهدته .

وقوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ ﴿٣٣﴾ ﴾[يس] الآية : الشيء العجيب في بابه كما تقول : فلان آية في الكرم أو آية في الحُسْن . وهذه الآية لهم يعني للكافرين فحسب ، لأن المؤمن لا يحتاج إلى هذه الأدلة ؛ المؤمن قال : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [فصلت]

وطلب الدليل على الشيء أول دليل على وجوده ، وما أتعبتُ نفسي في البحث عن الدليل إلا لأنني مقتنع بوجود الشيء ، فطلَب الدليل هو عَيْن الدليل ، والمؤمن لا يطلب الدليل إلا ليجادل به مَنْ لا يؤمن ليلفته إلى آيات الله.

وهذه الآية إما أن تأخذها على أنها آية كونية تدل على قدرة الإله المُوجِد سبحانه ، وإمَّا أن تأخذها دليلاً على أننا إذا أنزلنا المطر على

الأرض الميتة تهتزّ وتنبت من كل زوج بهيج .

والمتأمل فى الأرض يجد أنها آية فى ذاتها ، ونعمة من أعظم نعَم الله علينا ، حتى وإنْ كانت صخراً لا تنبت ، فيكفى أنها مَقرُّنا ، فوقها نستقر ، وإليها نأوى ، فما بالك إنْ منحها الله لوناً من الحياة حين تهتزّ بالنبات وتتحول إلى اللون الأخضر البديع .

وإحياء الأرض على مراتب ، فإما أنْ يكون الإحياء بنباتات لا تغنى فى القوت مثل العُشْب والحشائش والنجيل ، ويكفى أن هذا النوع يكسو وجه الأرض جمالاً ونُضْرة ويلبد الرمل ويثبته على وجه الأرض فلا تبعثره الرياح فى أعيننا ، فهى إذن مظهر من مظاهر حياة الأرض ، ونعمة من نعَم الله ، والمرتبة الأخرى أن تنبت الأرض النبات الذى نقتات به ، وهو قسمان : الحبوب التى تمثل الضروريات ، وهى من مقومات حياتك ، وهى أصل القوت وأهمها القمح .

وقد أشار الحق سبحانه إلى أهميتها ، فقال سبحانه ﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ (١٢) ﴾ [الرحمن] ليلفت أنظارنا إلى أهمية القشرة التى كنا إلى وقت قريب لا نهتم بها ، ونضعها علفاً للمواشى ، ونأكل الدقيق الفاخر أو (العلامة) ، وكان هذا طعام الصفوة والأغنياء إلى أنْ تنبهنا إلى أهمية الردة ، فأصبحنا نُفضِّلها على الدقيق الفاخر ، بدليل أن الخبز المكوَّن من الردة الآن أغلى من الخبز الأبيض ، ثم رأينا الذين أسرفوا على أنفسهم فى أكل الخبز الأبيض الفاخر لا يأكلون إلا الردة ، وبأمر الطبيب .

لذلك رُوِى أن سيدنا سليمان عليه السلام ، وقد أعطاه الله مُلْكاً

لا ينبغي لأحـد من بعـده كـان لا يأكل إلا الخشكار أي : الدقـيق الخشن[1] أما الدقيق (العلامة) فللخدم .

ثم الفواكه وتُعَدُّ من الترفيات التي نتفكَّه بها .

لذلك يقول سبحانه : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا.. (٣٣)﴾[يس] هذه هي المرتبة الأولى ، ثم ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣)﴾[يس] وهذه هي الضروريات .

ثم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ.. (٣٤)﴾ [يس]

وخَصَّ النخيل والأعناب : لأن البلح والعنب أهم الفواكه ، وأقربها من ضروريات القُـوت ، فهما قـوت للبعض ، وفاكهـة للبعض ؛ لذلك قال شوقي رحمه الله عن البلح :

طَعَامُ الفَـقِيـر وحَلْوى الغَنِيّ   وزَادُ المسَافِـر والمغْـتَرِب[2]

ونقف هنـا عند عظمــة الأداء القـرآني ؛ لأن الكـلامَ كـلامُ رب ، وعلينا نحن أنْ نجلي وجوه العظمة فيه . وقد لاحظ العلماء جزاهم الله عنَّا خـيراً أن الـقرآن لمـا تكلم عن الفـاكـهة قـال ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ (٣٤)﴾[يس] فذكر الشجرة في النخيل ، وذكر الثمرة في الأعناب ، ولم يذكر ثمرة النخيل وهي التمر ، ولم يذكر شجرة العنب وهي الكَرْم .

ولما بحث العلـماء هذه المسـألة وجدوا أن القرآن ذكـر النخيل ؛

---

(١) وردت هذه الكلمة فـي لسان العرب لابن منظور (الخُشار والخُشارة) يقال : الخشارة والخشار من الشعير : ما لا لُبَّ له . (يقصد الردة أي القشرة) والخشار أيضاً : الرديء من كل شيء . [لسان العرب - مادة : خشر]

(٢) البيت من قصيدة لأحمد شوقي أمير الشعـراء ، من بحر المتقارب ، عدد أبياتها ٢١ بيتاً ، أولها

أرى شجراً في السماء احتجب   وشـق العنان بمرأى عجب

لأنها شجرة كثيرة الفوائد ، مستمرة العطاء ، لا يقتصر نفعها على ثمرها ، بل كل ما فيها نافع مفيد ، ويكفى أنْ تعرف أن النخلة لا يُرْمَى منها شيء أبداً ، ولكل جزء فيها استعمال ومهمة : الجذع والجريد والخوص ، حتى الليف يحشون به أفخم أنواع الصالونات ، أما شجرة العنب فبعد أنْ تأخذ ثمرها لا يبقى فيها إلا مجموعة من العيدان الملتوية التى لا تغنى شيئاً .

ثم يقول سبحانه ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤)﴾[يس] لأن الأرض المنزرعة التى تعطينا هذا العطاء إما أنْ تُروى بالأنهار أو بالمطر ، فإذا لم يتوفر لها هذان المصدران تُرْوَى بعيون وهى المياه الجوفية التى تتسرَّب من ماء المطر فى باطن الأرض ، كما قال سبحانه : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ (٢١)﴾ [الزمر]

وهذه العيون مظهر من مظاهر قدرة الله ، فمنها ما نبحث عنه ونحفره ، ومنها ما ينساب بنفسه طبيعياً بقدرة الله ، وكأن ربك عز وجل يُطمئنك إلى عطائه ، فإنْ كنتَ فى أرض غير ممطرة ولستَ فى واد تجرى فيه الأنهار فاطمئن ، ففى باطن الأرض عيون تتفجَّر بالماء العَذْب الصالح للشرب ولسقْى الأرض . وقد تنبَّهنا مؤخراً إلى ضرورة زراعة الصحراء واستصلاحها ، وأعاننا على ذلك ما فيها من آبار ومياه جوفية ، ما علينا إلا أنْ نبحثَ عنها .

ثم يُبيِّن الحق سبحانه العلة فى تفجير العيون ، فيقول سبحانه : ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥)﴾[يس] قوله تعالى ﴿مِن ثَمَرِهِ (٣٥)﴾[يس] قالوا من ثمره . أى . الحبوب والبلح والعنب وغيرها ، أو من ثمر تفجير العيون ، قال البعض : ينبغى أن ننسب الثمرة إلى الأصل ، فيكون المعنى : من ثمر القدرة فى كُنْ ، وليس

المـراد الثمـرة القريبـة .

فكأن الحق سبحانه يريد أنْ يخلعك من الفتنة بالأسباب ، ويلفتك إلى المسبِّب الأعلى الأول ؛ لذلك أمـرنا حين يعزُّ الماء ولا تسعفنا الأسباب أن نلجأ إلى المسبِّب سبحانه بصلاة الاستسقاء ؛ لأن المسبِّب سبحانه هو المرجع النهائي لهذه المسألة ، وأنت حين تستسقي لا تستسقي بنفسك ، إنما بأضعف منك ، وإنْ كنتَ عاصياً كفوراً تستسقي بمَنْ لم يرتكب معصية .

لذلك أمرنا أنْ نأخذ معنا في صلاة الاستسقاء النساء والأطفال والمواشي ، وكأننا نتوسل إلى الله بضعفهم وطهارتهم من المعاصي ، وكأننا نقول لربنا : يا رب إن كنا قد عصيناك ولا نستحق السُّقيا فاسْقِنَا لأجل هؤلاء .

بل وأمرنا في الاستسقاء أن نخرج إليه ونحن مخالفون للأرْدية مغيِّرون لسَمْتها ، إظهاراً للذلة والانكسار لله سبحانه وتعالى[1] .

والآن ، بعد ما حدث من تطور في استخدام الماء حتى صرْنَا نستقبله في خزانات ومواسير بَعُدَتْ الصلة بين واهب الماء والمنتفع به ، فحين تنقطع المياه لا تخطر على بالك صلاة الاستسقاء ، ولا تتذكر واهب الماء ، إنما تفكر في سبب انقطاع المياه فتسأل عن

---

(١) أخرج أحمد في مسنده (٢/٣٢٦) وابن ماجه (١٢٦٨) والبيهقي في سننيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : « خرج نبي الله ﷺ يوماً يستسقي وصلى بنا ركعتين بلا أذان ولا إقامة ، ثم خطبنا ودعا الله وحوَّل وجهه نحو القبلة رافعاً يديه ، ثم قلب رداءه فجعل الأيمن على الأيسر والأيسر على الأيمن » قال ابن حجر في فتح الباري (٢/٤٩٩) ، اختلف في حكمة هذا التحويل : فجزم المهلَّب بأنه للتفاؤل بتحويل الحال عما هي عليه وتعقَّبه ابن العربي بأن من شرط الفال أن لا يقصد إليه قال : وإنما التحويل أمارة بينه وبين ربه ، قيل له : حوِّل رداءك ليتحول حالك »

المواسير وعن الموتور .. الخ . إذن : الأسباب نفسها أبعدتْنَا عن المسبِّب سبحانه .

وقوله سبحانه ﴿ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴿٣٥﴾ ﴾[يس] استدراك يراعى دور الإنسان وعمله ، فمن الثمار ما يُؤكَل مباشرة مثل الخوخ والبرتقال والخيار ، ومن الثمار ما يحتاج إلى علاج وإعداد ليُؤكل ، كما نفعل مثلاً فى (الكوسة) وغيرها مما يحتاج إلى إعداد ، فكأن الحق سبحانه يُقدِّر لك دورك ، ويعطيك حقك ، ويذكر لك عملك مهما كان يسيراً .

وهذه المسألة جاءت بوضوح فى قوله سبحانه : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الواقعة] فربُّك عز وجل يُقدِّر عملك فى حرث الأرض وإعدادها للزراعة ، وهذا دورك فيها ، أما مسألة الإنبات فهى لله وحده ، لا دخْلَ لك فيها .

كذلك احترَم ربُّك عملَك فى إيجادك شيئاً كان معدوماً وسمَّاك خالقاً ، لأنك أوجدتَ معدوماً ، وإنْ كان هذا الذى أوجدته من موجود معلوم ، فقال سبحانه ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

فإذا كان ربك قد احترم خلقك لشىء كان معدوماً ، فينبغى عليك أنْ تحترم أحسنيته فى الخلْق ، فأنت خالق وربك أحسن الخالقين ، أنت تستطيع أنْ تعالج الرمل مثلاً ، وتصنع منه كوباً ، هذا نوع من الخَلْق لكن يظل الكوب كما هو ، ويثبت على الحالة التى أوجد عليها ، فلا تعطى أنت الكوب صفة الحياة ، أما خَلْق الله فيعطيه اللهُ صفةَ الحياة ، فينمو ويكبر ويتناسل .. الخ .

وقوله سبحانه : ﴿ أَفَلا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾[يس] جاء بعد ذكر هذه النِّعَم السابقة ، والتى تستوجب شكر الله عليها ، لكن لم يَأْتِ هُنَا أمر

بالشكر ولم يَأتِ بأسلوب خبرى ، إنما جاء هكذا ﴿أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥)﴾[يس] بصيغة الاستفهام ، وكأن الله تعالى يقول لنا : أجيبوا أنتم ، فقد استأمنتكم على الجواب ، وقد علم سبحانه أن الجواب لا يمكن أنْ يكون إلا الإقرار بالشكر على النعمة .

ثم يقول سبحانه :

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾

كلمة ﴿سُبْحَانَ (٣٦)﴾[يس] تعنى : التنزيه المطلق لواجب الوجود الأعلى عن أنْ تحكمه قوانين الموجود نفسه ؛ لذلك تُقال فى كل أمر عجيب كما فى قصة الإسراء والمعراج ، فقد استهلَّ القرآنُ سورة الإسراء بقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ (١)﴾ [الإسراء] فالإسراء بسيدنا رسول الله ﷺ من مكة إلى بيت المقدس ، ثم الصعود به إلى السماء السابعة فى جزء فى الليل يُعَدُّ أمراً عجيباً ، وينبغى ألاَّ نقيسَ هذا الفعل على قوتنا نحن ، بل على قوة الفاعل ؛ لأن الفعل يجب أنْ يُقارن بقوة فاعله قوةً وضعفاً .

وسبق أنْ قُلْنا لتوضيح هذه المسألة : إننى لو قلتُ : صعدتُ بابنى الصغير قمة افرست مثلاً ، أتقول لى : كيف صعد ولدك الصغير قمة افرست ؟

فالحق سبحانه فى قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ (١)﴾ [الإسراء] يقول لنا : لا تتعجبوا من هذه المسألة ؛ لأن محمداً لم يَقُلْ سريتُ ، إنما قال : أُسْرِى بى ، فأنا الذى أسريت به وأنا مُنَزَّه عن الزمان ،

ومُنزه عن المكان وعن القوة ، وإذا كان كل فعل يُقاس زمنه بقوة فاعله فَقِس الزمن على الفاعل الأعلى سبحانه ، وعندها ستجد لا زمن .

وقلنا : إنك حين تذهب إلى الإسكندرية مثلاً ماشياً تستغرق عدة أيام ، أمّا بالسيارة فتستغرق عدة ساعات ، وبالطائرة عدة دقائق ، وبالصاروخ ثوانى ، إذن : كلما زادت القوة قَلَّ الزمن ، وعلى هذا قِس الإسراء والمعراج .

لذلك تجد أن هذه الكلمة ﴿سُبْحَانَ (١)﴾ [الإسراء] لا تُقَال ولم تُقَل من قبل إلا لله تعالى ، مع كثرة الجبابرة فى الأرض ، ومع وجود مَن ادعى الألوهية ، ومَن قال أنا ربكم الأعلى ومع ذلك لم تُقَلْ إلا لله ؛ لذلك نقول فى ذكر الله : سبحانك ولا تُقَال إلا لك ، لماذا ؟ لأنها تعنى التنزيه المطلق ، وهو لا يكون إلا لله .

وكلمة (سبحان) مصدر يعنى : لله سبحان أى تنزيه قبل أن يوجد مَنْ ينزهه ، فهو مُنزَّه فى ذاته قبل أنْ يوجد مَنْ يقول سبحان الله ، كما أنه تعالى خالق قبل أنْ يخلق ، ورازق قبل أنْ يرزق أحداً ، فالصفة موجودة فيه سبحانه قبل أن يُوجد لها متعلق ، كما تقول : فلان شاعر ، أهو شاعر لأنه قال قصيدة رائعة ، أم هو شاعر قبل أنْ يقولها ؟ نعم هو شاعر قبل أن يقول القصيدة ، ولولا موهبة الشعر عنده ما قالها .

إذن : فصفات الكمال كلها موجودة لله تعالى قبل أنْ يوجد لها متعلق ؛ لأن هذه الصفات هى التى أوجدتْ متعلقها .

وكما ذكر القرآن كلمة المصدر (سبحان) ذكر المشتق منها من الماضى ، فقال سبحانه :

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ(١)﴾ [الحشر]

وذكر المضارع في قوله تعالى :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۝١ ﴾ [الجمعة]

إذن : الحق سبحانه مُسبَّح قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ثم لما خلق الخَلْق سبحتْ له كلُّ المخلوقات ، وما زالت تُسبِّح وستظل تُسبِّح ، فما دام الكون كله مُسبِّحاً فلا تخرج أنت عن هذه المنظومة ، وسبِّح معها : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ ﴾ [الأعلى]

والتنزيه المطلق للحق سبحانه له مقامات ثلاثة :

الأول : أن تُنزِّه ذاته سبحانه عن كل الذوات .

الثاني : أنْ تُنزه صفاته سبحانه عن كل الصفات ، فأنت تُوصف بالغنى ، لكن غناك ليس كغنَى الحق سبحانه ، أنت موجود والله موجود ، فهل وجودك كوجوده سبحانه ؟ ..الخ

ثم **الثالث** : أنْ تنزه فعله سبحانه أنْ يشبه الأفعال ، فإذا قيل . الله فعل كذا . إياك أن تقيس فعْله تعالى بفعلك ؛ لذلك قلنا في ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ۝١ ﴾ [الإسراء] قسْها على قوة الفاعل سبحانه ، لا على قوتك أنت .

الحق سبحانه حينما يأتي بشيء يعلمه المخاطبون الأولون لا يغلق خزائن فضله ، إنما يترك لنا رصيداً احتياطياً لكل ما يجد بعد ذلك نتيجة التطور والتزاوج في قوله سبحانه : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ ﴾[يس] ، فقوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ ﴾ [يس]

فهو غير معلوم للمخاطبين أولاً ، لكن سيُعلم فيما بعد ، وأبرز آيات القرآن التي أشارت إلى هذه المسألة قوله سبحانه : ﴿ وَالْخَيْلَ

وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]

فجاء قوله تعالى : ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل] رصيداً احتياطياً لما استجدَّ بعد ذلك من وسائل النقل والمواصلات ، كالسيارات والطائرات والصواريخ .. الخ .

فإنْ قلتَ : فلماذا جاءت هذه الأشياء المستجدَّة على سبيل الإجمال ؟ نقول : لأن العقل لم يكُنْ مستعداً لأنْ يقبلها ساعة الخطاب ، وهو لم يَرَ شيئاً من هذا ، لكن حين يوجد الشيء يراه صراحة ، فقال سبحانه على سبيل الإجمال ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل] لأن كل يوم سيأتي لنا بجديد وبعجائب لم نَرَهَا من قبل ، وآخر ما شاهدناهُ من ذلك الصواريخ ، ومَنْ يدريك لعلنا نرى عن قريب ما هو أعجب منها ، وعندها سندُخل كل هذه الأشياء تحت ﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]

كذلك هنا في قوله تعالى ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾[يس] فنحن نعلم الأزواج في﴿مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ (٣٦)﴾[يس] وشاهدناها مثلاً في تلقيح النخيل وغيره من المزروعات ، ونعرف منها الذكر والأنثى في النخيل وفي الجميز مثلاً ، لكن هناك مزروعات أخرى لا نعرف فيها الذكر من الأنثى ، وهذه الأنواع تُلقِّحها الرياح بقدرة الله كما قال سبحانه : ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (٢٢)﴾ [الحجر]

وفي بعض المزروعات جعل الخالق سبحانه الذكورة والأنوثة في العود الواحد ، وغالب الظن أنها في المزروعات الضرورية للأقوات كالذرة والقمح ، فليس فيهما عود ذكر وآخر أنثى ، إنما في العود الواحد كعود الذرة مثلاً نجد في أعلى العود سنبلة تحمل حبَّات لقاح الذكورة وتحتها كوز الذرة الذي تخرج منه شعيرات تمثل الأنوثة

وتتلقى حبات اللقاح التي تبعثرها الرياح من أعلى .

لذلك إذا لم تخرج هذه الشعيرات وتبرز من الكوز (يدكّر) كما يقول الفلاحون يعني : لا يُخرج كوزاً ، ولا تتكوَّن بداخله حبَّات الذرة ، لماذا ؟ لأنه لم يتلقَّ حبات الذكورة .

لذلك من العجائب أنك تجد حبات الذرة في أسفل الكوز أكبر مما يليها إلى أعلى وبالتدريج ؛ لأن كل شعيرة من الشعيرات متصلة بحبة من حبات الكوز ، وتمثل هذه الشعيرة القناةَ التي تنقل اللقاح إلى الحبة ، لكن الشعيرات التي تنزل إلى أسفل الكوز تخرج منه قصيرةً متفرقة ، مما يتيح لها أن تتلقى أكبر كمية من اللقاح على خلاف الشعيرات الأعلى ، فإنها تكون طويلة متراكمة بعضها على بعض ؛ لذلك لا تأخذ كفايتها من اللقاح ، فتكون حبَّاتها أقلَّ حجماً ، إلى أنْ تضمر في أعلى الكوز وتتلاشى .

ونحن جميعاً نشاهد صدْق قوله تعالى ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (٢٢)﴾ [الحجر] حين ننظر مثلاً إلى الجبال وهي جرداء قاحلة ، فإذا نزل عليها المطر اخضرَّتْ ، فمَنْ بذر فيها هذه البذور ؟

والحق سبحانه وتعالى في قوله ﴿سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾[يس] إنما يُطمئننا على امتداد النعمة وامتداد المنعَم عليه ، فبالتزاوج يبقى النوع ويتكاثر ، والزوجية موجودة في كل شيء ، وكلمة زوج لا تعني اثنين كما يظن البعض ، إنما الزوج يعني : الشيء الواحد لكن معه مثله ، فنحن لا نقول للحذاء مثلاً زوج يعني اليمين والشمال ، إنما نقول زوجين ، ومثلها كلمة توأم ، فكل واحد منهما يقال له : توأم وهما توأمان .

والزوجية موجودة في كل شيء في الوجود ، كما قال سبحانه

في آية أخرى : ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ..(٤٩)﴾ [الذاريات]

وإذا نظرتَ إلى هذا الوجود كله بعين العلم الفاحصة المجرِّبة المدقِّقة لوجدتَ كل شيء في الوجود زوجين لاستدامة الصنف ، بعض هذه الأشياء ندري مسألة الزوجية فيها ، وبعضها لا ندري به ، وما دام الزوجان يجتمعان للتكاثر فلا بُدَّ من تلقيح أحدهما بالآخر ، فما الذي يدلّنا على ميعاد هذا التكاثر ؟

قالوا : الشيء الذي لا دَخْلَ للإنسان فيه فالله يعلم ميعاده ، ويجعلها تتكاثر كُلٌّ بما يناسبه ، لكن المشكلة عندك أنتَ أيها الإنسان، ولو كانت عندك مقاييس دقيقة في الذات لعلمتَ أن هناك تغيُّرات كيماوية في جسمك تحتاج منك إلى دقَّة ملاحظة ، هذه التغيرات هي التي تدلُّك على ميعاد التكاثر .

والآن اخترعوا ساعة تضعها المرأة بعد الحيض ، وتلاحظ منها درجة حرارتها ، فإذا ارتفعت عن ٣٧° فهذا يعني وجود تغيُّر كيماوي في الجسم ، يدل على نزول البويضة ؛ لذلك نرى كثيرين من الأزواج تتأخر عندهم عملية الإنجاب ، لأن المرأة ليست لديها دقَّة الملاحظة التي تعرف منها وقت التبويض الذي يُؤدي إلى الإنجاب .

وذكر الحق سبحانه الزوجية في ﴿مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾[يس] ولم يذكر الحيوان ، لماذا ؟ لأنه سبحانه ذكر الأعلى ، وهو الإنسان الحيوان الناطق ، فالآخر مثله وتابعٌ له .

ومعنى ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] أن في الكون أشياء كثيرة

لا نعلم وجه الزوجية فيها ، وقد نعلمها مستقبلاً مع تَقَدُّم العلوم التجريبية ، كما حدث مثلاً في الكهرباء ، وعرفنا أنها سالب وموجب ، ولا نستفيد بالكهرباء إلا إذا التقى السالب بالموجب ، أما إن التقى سالبٌ بسالب أو موجبٌ بموجب ، فالنتيجة تكون عكسية ، والسالب والمُوجب هنا نوع من أنواع الزوجية ، كذلك الحال في الذرَّة وغيرها مما اكتشفه العلم الحديث .

إذن : فكلمة ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾[يس] لها مدلولات وقعتْ ، أخبر الله عنها قبل أنْ نكتشفها لنعلم أن الغيب الذي يخبرنا الله به يأتي كمقدمة لغيب آخر ستعرفه في المستقبل ، وكأن الحق سبحانه يلفت أنظارنا : كما صدَق الواقع ما أخبرتُ به من الغيب ، فصدِّقوا ما أخبرتكُم به من غيب الآخرة .

بعد أن تكلَّم الحق سبحانه عن المكان وهو الأرض تكلَّم عن الزمان ؛ لأن الإنسان يعيش بالأحداث ، والحدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فبعد أن حدَّثنا الحق سبحانه عن الأرض وما عليها وهي المكان ، يُحدِّثنا عن الزمان ، فقال سبحانه :

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧)﴾

قوله تعالى ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ (٣٧)﴾[يس] يعني : خاصة بهم ، وليست آية للكل ؛ لأن النبي ﷺ آمن بفطرته ، ولم يكن بحاجة إلى دليل ليؤمن ، كذلك المؤمن لا يبحث عن الدليل إلا ليردَّ به على مَنْ ينكر .

و﴿اللَّيْلُ (٣٧)﴾[يس] هو قسيم النهار ، فاليوم يتكوَّن من ليل

ونهار، وليس من الدقة في المقابلات أن نقول اليوم والليل ؛ لأن اليوم يشمل الليل والنهار ، فكلاهما يوم ، لكن البعض نظر إلى قوله تعالى ﴿ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا[1] ۝٧ ﴾ [الحاقة] فأطلق اليوم مقابل الليل بدل النهار .

والليل ظلمة ، وفيها السكون يشبه النوم الذي تنامه بالليل ، والنوم يشبه الموت ، والليل يقابل النهار لكن لا يعانده ولا يضاده كما يظن البعض ، فالليل يقابل النهار ، وبينهما تكامل ؛ لأن لكل منهما مهمةً في الحياة ، الليل جُعل لتهدأ من حركة النهار ونستريح لنستأنف نهاراً جديداً بنشاط ، والنهار جُعل للعمل والسعي تستغل فيه راحة الليل .

إذن : هما متعاضدان لا متعاندان ، وكل شيء له مقابل ، إياك أن تأخذه على أنه ضدٌّ ، بل انظر إلى أنه شيء ضروري لا بُدَّ أنْ يكون.

لذلك الحق سبحانه يلفتنا في الزمن إلى هذه المسألة ، فيقول :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢ ﴾ [القصص]

إذن : لكل منهما مهمة ، ولا يُغني أحدهما عن الآخر ، ومن دقَّة الأداء القرآني أنْ يقول سبحانه في الليل ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ ﴾ [القصص] وفي النهار ﴿ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢ ﴾ [القصص] لأن الليل ظلمة ، وأداة

---

(١) الأيام الحسوم : التِّباع إذا تتابع الشيء فلم ينقطع أوله عن آخره . قاله الفراء ، ونقله الأزهري في تهذيب اللغة ـ مادة : حسم . وقال الخليل بن أحمد في كتابه العين : « حسوماً . أي : شؤماً عليهم ونحساً » .

الاستدعاء فيه الأذن ، أما النهار فضياء نبصر فيه .

إذن : لا يصح أنْ نجعل من كلٍّ متقابلين متضادين ، فالتكامل غير التضادّ ، كذلك أراد الله تعالى أنْ يَحلَّ بهذه المسألة مشكلة لا تزال العصور تتصارع فيها إلى الآن ، مشكلة التقابل بين الذكورة والأنوثة ، أو الرجل والمرأة ، والآن نسمع مَنْ ينادى بأن المرأة مثل الرجل ، كيف ولكل منهما مهمة نوعية ، إنهما متكاملان مثل تكامل الليل والنهار .

وقد أشار الحق سبحانه إلى هذا التكامل فى قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

ومعنى ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل] يعنى : مختلف ، ولكُلٍّ مهمة يؤديها فى الحياة ، فالذين ينادون الآن بالمساواة بين الرجل والمرأة إنما يظلمون المرأة ؛ لأنهم يريدون للمرأة أنْ تقوم بدور الرجل فى حركة الحياة ، وبعد ذلك يتركون المرأة تقوم هى بالخصوصية التى لا يؤديها إلا هى ، إذن : هى أخذت من مهمة الرجل ، ولم يأخذ الرجل من مهمتها . إذن : الحق سبحانه يخلق المتقابلات لتتكامل لا لتتعارض ، وتتساند لا لتتعاند ، فهى مسألة موزونة بحساب .

وقوله سبحانه : ﴿ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ (٣٧) ﴾ [يس] السلخ كَشْط الجلد عن الشاة ، فما العلاقة بين هذه المسألة وضوء الليل والنهار ؟ قالوا : الأصل فى الشىء الظلمة ، ولا تظهر الظلمة إلا بمنير طارئ ، فالليل ظلمة ، ثم يأتى ضوء النهار فيستر هذه الظلمة ، فكأن النهار حينما يأتى يستر الظلمة كما يستر جلدُ الشاة لحمَها ، فإذا ما أراد

الحق سبحانه أنْ يأتى الظلام يخلع الضوء ، كما نسلخ جلد الشاة عن لحمها .

إذن : فالليل يأتى على طبيعته لأنه الأصل ؛ لذلك قال سبحانه : ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧)﴾[يس] فالظلام عدم نور ، أما النور فإيجاد ، ويحتاج إلى آلة جديدة ، فلو تركت الليل لحاله لظلَّ مظلماً ، ولولا آلة الضوء لظلَّ ليلاً ، إذن : للضوء آلة . أما الظلام فليس له آلة حينما تعمل يأتى الظلام ، أو قُلْ الظلام أمره عدمى ، أما الضوء فأمره وجودى ، فإذا قيل : نسلخ منه النهار فقد شبه الضوء الذى يغطى الظلام بالجلد الذى يغطى لحم الشاة .

والمعنى : نذهب بهذا الغلاف الضوئى الذى يستر الليل ، فيحلّ الظلام أى : يظهر على طبيعته ومن تلقاء نفسه ؛ لذلك جاء الأداء القرآنى بإذا الدالة على المفاجأة ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ (٣٧)﴾[يس] فكأن المسألة تلقائية لا تحتاج إلى ترتيب

ثم يقول سبحانه :

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨)﴾

الشمس هى آلة الضوء الذى نسلخه عن الليل ، ومعنى ﴿تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا (٣٨)﴾[يس] أى : لشىء ولغاية تستقر عندها ، والمتتبع لحركة الشمس يجد أن لها مطلعاً عاماً هو الشرق ، وهذا المطلع العام يُقسَّم إلى مطالع بعدد أيام السنة . إذن : فمطالع الشمس مختلفة ؛ لذلك رأينا قدماء المصريين فى معابدهم يدركون هذه الحقيقة الكونية ويحسبونها بدقة ، ويجعلون فى المعبد ٣٦٥ طاقة ، تشرق الشمس

كل يوم من واحدة منها بالترتيب ، إلى أنْ تصل إلى آخرها فى آخر السنة.

وقد عرف الإنسان أن للشمس مجموعة من الكواكب تدور حولها، وسماها المجموعة الشمسية ، وهى تتكوَّن من سبعة كواكب : عطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشترى وزحل ويورانوس ، وقد أغرتْ هذه السبعة بعض العلماء مثل الشيخ المراغى والشيخ محمد عبده أن يقولوا إنها السموات السبع ، لكن فى سنة ١٩٣٠ اكتشف العلماء كوكباً آخر هو بلوتو ، وبعدها بعشرين سنة اكتشفوا كوكباً آخر هو نبتون ، فصاروا تسعة كواكب فى المجموعة الشمسية ، كلها فى السماء الدنيا ، ولا صلة بينها وبين السموات السبع ، لكن حاول الشيخان تقريب المسائل الدينية للفهم .

هذه الكواكب فى المجموعة الشمسية لكل كوكب منها دورة حول نفسه ، ودورة حول الشمس ، من دورته حول نفسه ينشأ اليوم ، ومن دورته حول الشمس ينشأ العام ، والدورتان تختلفان فى السرعة ، فإذا كانت دورة الكوكب حول نفسه أسرعَ من دورته حول الشمس كان يومه أطولَ من عامه .

لذلك من الأشياء الملغزة التى تُقَال فى الجغرافيا : ما يوم أطول من عام ؟ يوم الزهرة أطول من عامها ، لأنهم لما حسبوا حركة الزهرة بالنسبة ليوم الأرض وجدوا أن عام الزهرة ٢٢٥ يوماً من أيام الأرض ، ويومها ٢٤٤ من أيام الأرض ، ذلك لأن سرعتها حول نفسها أكبر من سرعتها فى دورتها حول الشمس .

فمعنى ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا (٣٨)﴾[يس] أى : الشمس بمجموعتها ، وما يدور حولها من كواكب تجرى إلى نجم يسميه

علماء الفلك (الفيجا) والعرب تسميه (النسر) الواقع ، والشمس تجرى بمجموعتها بسرعة ١٢ ميلاً في الثانية ، الشمس لها حركة والكواكب التي تدور حولها لها حركة ، وهذه أشبه ما تكون بإنسان يركب مركباً ، فكيف نحسب حركته وسرعته ؟

إنْ كان هو ساكناً فسرعته تساوى سرعة المركب ، وإذا كان يسير في نفس اتجاه المركب ، فسرعتُه تساوى سرعته في ذاته (زائد) سرعة المركب ، فإنْ كان يسير في عكس اتجاه المركب فسرعته تساوى سرعة المركب (ناقص) سرعته هو .

ومعنى ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا (٣٨)﴾[يس] المستقر إما أن يكون نهاية العام ، ثم تبدأ عاماً جديداً ، وتشرق من أول مطلع لها ، أو أن المستقر آخر عمرها ونهايتها حيث تنفض وتُكوَّر وتنتهي .

لكن ، ما الذي يحرك هذه المجموعة الشمسية ؟ وكيف تجرى بهذه السرعة ؟ ونحن نعلم أن الحركة تحتاج إلى طاقة تمدها ، فما الطاقة التي تحرك هذه المجموعة بهذه الصورة وهذا الاستمرار ؟ قالوا : إنها تجرى ، لأن الله خلقها على هيئة الحركة والجريان ، لذلك تجرى لا يُوقفها شيء ، وستظل جارية إلى أن يشاء الله ، فلا يلزمها إذن طاقة تحركها ، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ (٤١)﴾ [فاطر]

وفي علم الحركة قانون اسمه قانون العطالة ، وهو أن كل متحرك يظل على حركته ، إلى أنْ تُوقفه ، وكل ساكن يظلُّ على سكونه إلى أنْ تُحركه ، وهذا القانون فسَّر لنا حركة الأقمار الصناعية ومراكب الفضاء التي تظل متحركة لفترات طويلة .

ونتساءل : ما الفترة التي تحركها طوال هذه المدة ؟ إنها

تتحرك ؛ لأنها وضعت فى مجالها على هيئة الحركة فتظل متحركة لا يُوقفها شىء لأنها فوق مجال الجاذبية . إذن : كل الذى احتاجته هذه الآلات من الطاقة هى طاقة الصاروخ الذى يحملها ، إلى أنْ يعبر بها مجالَ الجاذبية الأرضية ، أما هى فتظل دائرة بلا طاقة وبلا وقود .

ثم يُذكِّرنا الحق سبحانه بفضله فى هذه الحركة ، فيقول ﴿ ذَٰلِكَ (٣٨) ﴾[يس] أى : ما سبق من حركة الليل والنهار وجريان الشمس ﴿ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) ﴾[يس] يعنى : كل هذا الجريان وكل هذه الحركة إنما هما بتقدير الله ، وكلمة ﴿ الْعَزِيزِ (٣٨) ﴾[يس] هنا مناسبة تماماً ، فالمعنى أنه تعالى العزيز الذى لا تغلبه القوانين ؛ لأنه سبحانه خالق القوانين .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) ﴾

بعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن الشمس وهى آلة الضوء ، تكلم عن القمر لأن له مهمة يؤديها حين تغيب الشمس ، وكأن القمر استعار من الشمس بعض ضوئها لينير بالليل للذين لا يعملون إلا ليلاً كالعَسَس[1] والحراس ورجال الأمن وعمال المخابز وغيرهم ، فالقمر كما تعلمون لا يضىء بنفسه ، إنما يعكس بعض ضوء الشمس ، فيأتى ضوؤه هادئاً ؛ لذلك يسمونه الضوء الحليم ، حيث يأتينا لا شعاعَ له ، ولا حرارة فيه .

---

(١) العسس : جمع عَاسّ ، وعَسَّ يعُسُّ : طاف بالليل لحراسة الناس [الزبيدى فى تاج العروس - مادة : عسس]

لذلك حين يُعدِّد لنا الحق سبحانه بعض آلائه ونعمه ، يقول ﴿ ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله .. (٢٣) ﴾ [الروم]

فإذا كان النوم مقصوراً على الليل ، فماذا كان يفعل هؤلاء الذين تقتضى طبيعة عملهم أنْ يعملوا بالليل ، ويرتاحون وينامون بالنهار ، فهذه الآية مظهر من مظاهر دقَّة الأداء القرآنى ، فإنْ كان الليل هو الأصل فى النوم والراحة لجمهرة الناس ، فلا مانع من النوم بالنهار للقلَّة القائمة على أمر النائمين بالليل .

ومعنى : ﴿ قدرناه منازل (٣٩) ﴾ [يس] يعنى : قدَّرنا سَيْره فى منازل ومسافات ، هذه المنازل نشاهدها كل شهر فى حركة القمر التربيع الأول ، والتربيع الثانى ثم البدر ..

والقمر أسرع فى حركته من الشمس ؛ لأنه يقطع فَلَكه فى شهر ، بينما تقطع الشمس فَلَكها فى سنة .

وتأمل دقَّة الأداء القرآنى المبنى على الهندسة العليا فى قوله سبحانه : ﴿ حتى عاد كالعرجون القديم (٣٩) ﴾ [يس] هذه صورة توضيحية لمنازل القمر مأخوذة من البيئة العربية ، فالعرجون هو عذْق النخلة الذى يحمل الثمار ، ونسميه (السُّباطة) ، وهى مكوَّنة من عدة شماريخ رفيعة ، لكن قاعدتها عند اتصالها بجذع النخلة عريضة ومفلطحة ، هذا العذق ييْبَس ويضمر كلما تقادم ويعوج و (يتقفع) كلما جفَّتْ منه المائية ، وهذه الصورة توضح تماماً حركة القمر حيث يضمر ويتقفع إلى أنْ يتلاشى آخر الشهر .

وإذا كان القرآن قد شبَّه القمر بالعرجون القديم ، فإن العرب تشبهه بقُلامة الظفر ، كما جاء فى قول شاعرهم الذى راح يرقب

ضوء القمر حتى يغيب فيتسلل إلى محبوبته :

وَغَابَ ضَوْءُ قُمَيْرٍ كنتُ أرْقُبُهُ   مثل القُلاَمَة قَدْ قُدَّتْ من الظُّفُر [1]

ومن الحكمة أن نُشبِّه القمر العالى الذى لا ندركه بشيء دانٍ ندركه ، وأن نقول لك : هذا مثل هذا لتتضح الصورة .

ثم يقول سبحانه جامعاً بين الشمس والقمر ، وبين الليل والنهار:

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

لا يقال : فلان لا يدرك فلاناً إلا إذا كان سابقه ، كذلك الشمس لا تدرك القمر ؛ لأنه كما قُلْنا سابقها وأسرع منها ؛ لأنه يقطع دورته فى شهر ، وتقطع الشمس دورتها فى سنة .

كذلك ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴿٤٠﴾ ﴾[يس] الليل والنهار هما الزمن الناشيء عن حركة الشمس والقمر ، فالنهار ابن الشمس ، والليل ابن القمر ، وفى هذه الآية نَفْيَان ، نفى لأنْ تدرك الشمسُ القمرَ فضلاً عن أنْ تسبقه ، ونفي لأنْ يسبق الليلُ النهارَ ، فإذا كانت الشمس لا تدرك القمر ، فليس معنى هذا أن يسبق الليلُ ابن القمر النهارَ ابن الشمس .

إذن : إياك أنْ تقول إن الليل يسبق النهار ؛ لأن هذه آيات كونية

---

(١) ذكره ابن عبد المنعم الحميرى فى كتابه « الروض المعطار فى خبر الأقطار » فى الديارات فى وصف دير عبدون ، وعزاه لابن المعتز من قصيدة أولها

سقى الجزيرة ذات الظل والشجر   ودير عبدون هطال من المطر

ولفظه : « وغاب ضوء هلال » وليس « وغاب ضوء قمير » والبيت من بحر البسيط .

أرادها الخالق سبحانه . والحق سبحانه حينما يتكلم في قضية قد تقف فيها العقول يأتي لها بالرمزية بحيث يستطيع العاقل المفكر الذي يقرأ الأساليب ويُدقِّقها أنْ يصل إلى مطلوب الله فيها ، أما مَنْ حُرم هذا الاستعداد فيمرُّ عليها مروراً عابراً لا يصل منه إلى شيء .

ونقول في هذه المسألة الكونية : صحيح القمر يسبق الشمس ، لكن الليل لا يسبق النهار ، وتأمل هذا العلاج بالأساليب . والحق سبحانه إذا قال : ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ (٤٠) ﴾[يس] فإنه سبحانه لا يقول ذلك إلا إذا كان هناك معتقد بأن الليلَ يسبق النهارَ ، فأراد سبحانه أنْ يُصحِّح لهم هذا الاعتقاد ، فنفى أنْ يسبق الليل النهار ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ (٤٠) ﴾[يس] وهذا يعني أن عندي قضية هي : ولا النهار يسبق الليل .

إذن : المحصلة لا الليلُ يسبق النهارَ ، ولا النهارُ يسبق الليلَ ، فالقضية التي أثبتوها أراد الله نفيها ، والقضية التي نفوْهَا تركها على حالها .

لكن ، كيف يتأتَّى لهم هذا الفهم ؟ قالوا : ظنوا أن الليل يسبق النهار ، لأن اليوم يثبت بالليل لا بالنهار ، ففي صيام رمضان مثلاً يثبت بداية اليوم من الليل ، فلما كان ذلك ظنوا أن الليلَ يسبق النهارَ ، إذن : عندهم قضية مقطوع بها ، هي أن النهار لا يسبق الليل ، وهذه لم يتعرض لها القرآن وتركها كما هي ، أما القضية المخالفة للآية الكونية فصححها لهم ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ (٤٠) ﴾ [يس]

إذن : نحن أمام لغز يقول : الليل لا يسبق النهار ، والنهار لا يسبق الليل ، كيف ؟ قالوا : لو أن الله تعالى خلق الأرض

مسطوحة مواجهةً للشمس لكان النهار أولاً ، ثم تغيب الشمس فيحلُّ الليل ، أما لو كانت الأرض غير مواجهة للشمس لكان الليل أولاً يعقبه النهار ، لكن الحقيقة أن الله تعالى خلق الأرض على هيئة كروية بحيث لا أسبقيةَ لليل على نهار ، ولا لنهار على ليل لأنهما وُجدا معاً في لحظة واحدة ؛ لأن الأرض مُكوَّرة ، فما واجه منها الشمسَ كان نهاراً ، وما غابتْ عنه الشمس كان ليلاً .

لذلك حلَّتْ لنا هذه الآية مشكلة طال الجدال حولها هي : كروية الأرض .

وقوله سبحانه : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾[يس] يسبحون من السبح، وهو قَطْع المسافة على ماء لين ، فهي حركة فيها انسيابية ، ليست على أرض تدبّ عليها الأقدام ، وهذا مثال لحركة الأفلاك ، وهذه الحركة السبحية يكون كل جزء منها مُوزَّعاً على جزء من الزمن .

وهذه الحركة ليس لدينا المقاييس التي ندركها بها ، إنما نعرفها من جملة الزمن مع جملة الحركة ، فمثلاً لو وُلد لك مولود وجلستَ ترقبه وتلاحظ نموه ، فإنك لا تلاحظ هذا النمو ، ولا يكبر الولد في عين أبيه أبداً ، لماذا ؟

لأن نموه لا يأتي قفزةً واحدة يمكن ملاحظتها ، إنما يُوزَّع النمو على الزمن ، لكن إذا غِبْتَ عن ولدك عدة شهور أو سنوات فإنك تلاحظ نموه حين تعود وتراه ؛ لأنك تلاحظ مجموع النمو طوال فترة غيابك عنه .

فمعنى : ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾[يس] يعني : يسيرون سيراً انسيابياً متتابعاً يُوزَّع على الزمن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ (٤٤) ﴾

قوله تعالى ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمْ (٤١) ﴾ [يس] هي آية لنا ولهم ، لنا على سبيل الاستدلال نستدل لهم بها لنقنعهم ، ولهم هم أي : تدعوهم إلى الإيمان بالله ؛ لذلك لما سُئل الإمام على رضى الله عنه : أعرفتَ ربك بمحمد ؟ أم عرفتَ محمداً بربك ؟ فقال : عرفتُ ربى بربى ، وجاء محمد فبلَّغنى مراد ربى منى .

ومعنى ﴿ الْفُلْكِ ﴾ السفن ﴿ الْمَشْحُونِ ﴾ المملوء . والمراد : سفينة سيدنا نوح - عليه السلام - وقد أوحى الله إليه أنْ يصنع السفينة ، ودلَّه على كيفية صناعتها ، كما قال سبحانه : ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا .. (٢٧) ﴾ [المؤمنون]

فالسفن فى حَدِّ ذاتها من آيات الله ، ولو لم يُوحِ الله إلى نوح أن يصنع السفينة ، كيف كنا نتنقل فى الماء ، وهو ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، فهذه آية أجراها الله تعالى على يد سيدنا نوح ، ليعلم الناسُ جميعاً صناعة السفن ، ثم للعقول بعد ذلك أنْ تُطوِّرها وترقى بصناعتها ، كما نرى الآن السفن العملاقة على أحدث ما يكون ، حيث استبدلَ الإنسانُ قلْع المركب بآلات البخار والكهرباء ، وحلَّ الحديد والمعادن محلَّ الخشب والمسامير .. الخ .

ومع هذا التطور ، وبعد الاستغناء عن قوة الريح فى تسيير

السفن تظل السفن تسير بسم الله وبقدرته ، حتى إن استخدمت البخار أو الكهرباء ؛ لأن الريح لا يعني الهواء الذي يُسيِّر السفن فحسب ، إنما الريح تعني القوة أيًا كانت ؛ لذلك يقول سبحانه : ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال]

ويقول سبحانه : ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. ﴿٣٣﴾﴾ [الشورى]

ويستوقفنا في هذه الآية قوله تعالى : ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾[يس] والآية تتحدث عن العرب الذين نزل القرآن مُخاطبًا لهم ، والذين حُملوا في السفينة هم آباؤهم لا ذريتهم ، فكيف ذلك ؟

قال القرآن : ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ ﴿٤١﴾﴾[يس] والمراد : آباؤهم ؛ لأن الذرية تُطلق أيضًا على الأب ؛ لأن الذراري منه ، أو لأن الآباء الذين نجوا في السفينة هم الأصل الأصيل للموجودين الذين يخاطبهم القرآن ، وكانوا هم مطمورين في آبائهم .

لذلك سبق أنْ قُلْنا : إن كل واحد منا إلى أنْ تقوم الساعة فيه جزء حَيٌّ من أبيه آدم لم يطرأ عليه الموت ، ولو تتبعتَ الآباء وسلسلْتَ هذه السلسلة لقُلْتَ إنني من ميكروب حيٌّ جاء من أبي ، وأبي من ميكروب حَيٌّ جاء من أبيه ، وهكذا إلى آدم عليه السلام ، ولو كان هذا الميكروب ميتًا ما جئت .

إذن : ففي كل منَّا ذرة تكوينية من أبيه آدم لم يطرأ عليها تغيير ، وهذه الذرة هي التي تحمل الفطرة الإيمانية في كل إنسان .

ووصف الحق سبحانه الفُلْكَ بأنه مشحون . يعني : مملوء ؛ لأن سيدنا نوحًا لم يأخذ فيها المؤمنين ليُنجيهم من الغرق فحسب ، إنما

لِيوفّر لهم سُبُل العيش بعد النجاة ، وإلا فكيف يعيش الناسُ على أرض لا يوجد فيها غيرهم ، لا نبات ولا حيوان ولا طيور ؟

لذلك قال سبحانه مخاطباً نبيه نوحاً : ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٤٠) ﴾ [هود]

وقوله سبحانه : ﴿ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) ﴾ [يس] فمن بعد السفينة أخذها الناس نموذجاً ، وصنعوا مثله ، وطوّروا فى صناعته ، فأنشأوا السفن والمراكب والزوارق وغيرها مما يُركَب فى البحر . أو : خلقنا لهم من مثله ما يُركَب فى البرارى والصحراء ، ومن ذلك يُسمُّون الجمل مثلاً سفينة الصحراء .

ثم يحذرنا الحق سبحانه أنْ نغترَّ بهذه المراكب ؛ لأنها وسائل للنجاة ، لأنه سبحانه إنْ أراد الهلاك أهلك ، وكم رأينا سُفُناً عملاقة توفرت لها كل سُبُل الأمان والسلامة ، ومع ذلك ابتلعتْها الأمواج بمَنْ فيها .

وصدق الله : ﴿ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُونَ (٤٣) ﴾[يس] فإياك حين تُرزَق بنعمة تخلصك من معطب أنْ تغرَّك النعمة فتحسب فيها الأمن والنجاة ؛ لأنك لن تفلت من قبضة الله ، ولا ينقذك أحد ، ولا ينجيك شىء إنْ أراد بك الهلاك ، وهل ترى بيدك شيئاً يُنجيك حين تهبُّ عاصفة ، أو يعلو الموج فوق سفينتك كالجبال ؟ إذن : آلاتك ووسائلك لا تُنجيك من قدرى .

ومعنى ﴿ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ (٤٣) ﴾[يس] الصريخ هو الذى تستصرخه وتستنجد به لينقذك ، ويأخذ بيدك ، ويُخرجك من المأزق الذى أنت فيه . ومن روائع العقائد التى استشفها أهل الإشراق والتنوير أنْ

قالوا : الإنسان يصرخ ويستنجد بمَنْ هو أقرب منه : كأبيه ، أو أمه ، أو خادمه ، أو جاره .. الخ . فإذا لم يجد ؟ يقول : يا الله ، لذلك نسمع بعضهم يقول عند المأزق : يا هُوْه . والمراد يا هُوَ يعني : يا الله ؛ لأنه لا يوجد غيره ينقذ ويُغيث .

ومن المواضع التي وردت فيها مادة صرخ قوله تعالى حكايةً عن الشيطان ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ﴿٢٢﴾﴾[إبراهيم] والمُصْرِخ : هو الذي يُزيل الصراخ يعني : يسعفك ، ويزيل عنك الشدة .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾﴾[يس] يعني : امتنع المصرخ ، وامتنع عنهم أيضاً المنقذ الذي يتطوَّع فينقذهم ، وهذا قَطْع للأمل في النجاة ، فإنْ أراد اللهُ الإهلاكَ فلا سبيلَ للنجاة أبداً ، إلا بإذنه تعالى ورحمته .

لذلك يقول في الآية بعدها : ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا ﴿٤٤﴾﴾[يس] رحمة تنجي من الغرق ، ومعنى ﴿وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾[يس] أن هذه النجاة ليست صكاً بالسلامة الدائمة والبقاء المستمر ، إنما هذه النجاة متاعٌ إلى حين ، إلى أنْ يحلَّ الأجلُ ويُدركك الموت ، فأنت إذنْ سلمتَ من الحِمام إلى الحِمام الذي لا بُدَّ منه .

وأشبه بذلك قول الفخر الرازي :

وَلَوْ أنَّا إذَا مِتْنَا اسْتَرحْنَا ... لَكَانَ المَوْتُ رَاحةَ كُلِّ حَيّ
ولكِنَّا إذَا مِتْنَا بُعِثْنَا ... ونُسْأَل بَعْدهَا عن كُلِّ شَيّ[1]

وكلمة الحين تعني الفترة من الزمن بحسب ما تُقاس به ، فمثلاً في : ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الروم] الحين يعني :

---

(١) هذان البيتان للإمام علي بن أبي طالب من بحر الوافر ، باختلاف بسيط فبدل (استرحنا) (تُركنا) . ذكرهما المبرد في كتابه « الفاضل في اللغة والأدب » في باب فضل الشعر .

يوم وليلة ، وفي قوله تعالى : ﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم] الحين هنا يعني : سنة ، وفي : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ ﴾[الإنسان] يعني : مقدار مُحدَّد من الزمن .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

تعلمون أن (إذَا) أداة الشرط التي تفيد التحقيق . أما (إنْ) فتفيد الشكّ ، ومعنى ﴿ لَهُمْ ﴾ أي : للكافرين ، وجاء الفعل ﴿ قِيلَ ﴾ هكذا مبنياً للمجهول ليفيد العموم ، فكأن كل مؤمن عليه أنْ يقول ، وأنْ ينصح ، وأن يأخذ بيد غيره إلى طريق الله .

والحق سبحانه في هذه الآية يقول لعباده المؤمنين : يا عبادي ، يا مَنْ آمنتم بي ، وصدَّقتم برسلي ، لا تظنوا أنِّي أرضى عنكم طالما آمنتم بي وصدَّقتم رسلي ، لكني أحب ألاَّ تدخروا وُسْعاً لتنقذوا خَلْقي من غضبي عليهم ، حين يُصرُّون على الكفر ويقيمون عليه .

وهذا نوع من الرجاء في المؤمنين أنْ يأخذوا بيد الكفار ، وأن ينقذوهم من دواعي غضب الله عليهم ، وهذا المعنى داخل تحت قول سيدنا رسول الله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »[1] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخاري في صحيحه (١٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٤٥) كتاب الإيمان عن أنس بن مالك بلفظ : « والذي نفسي بيده ، لا يؤمن عبد حتى يحب لجاره - أو قال : لأخيه - ما يحب لنفسه » .

ومعنى ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ﴿٤٥﴾ ﴾[يس] أى : ما هو أمامكم ، وما ينتظركم من البعث والحشر والسؤال والحساب ، ثم النار ﴿ وَمَا خَلْفَكُمْ ﴿٤٥﴾ ﴾[يس] يعنى : ما سبقكم من العبر بالمكذِّبين قبلكم ، وكيف كانت عاقبتهم ونهاية كفرهم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾[يس] رجاء أنْ يرحمكم الله.

إذن : فينبغى أن يكون فى بال المؤمن أنْ يمهد السبيل لرحمة الكافر ، وأنْ يحاول وُسْعه أن ينقذه ، وأنْ يعطف عليه ، لا أنْ يسلك معه مسلكَ اللدد والخصومة التى لا تجدى .

﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

هذا هو اللدد والعناد بعينه ، فالآيات أمامهم واضحة ، وهم يُعرضون عنها وينصرفون عن تدبُّرها ؛ ذلك لأن الذين يكفرون بالله ويُكذِّبون رسله ، ويتأبَّوْن على منهج الله الذى جاء لصيانة خليفته فى الأرض ، هؤلاء مستفيدون من الفساد ، ومستفيدون من الإعراض عن منهج الله ، فطبيعى أنْ يَرَوْا فى كل رسول وفى كل مصلح أنه جاء ليقطع أرزاقهم ، ويفسد عليهم حياتهم ، فيصادمونه ويقفون فى وجهه .

وهذه الآية يفسرها قول الله فى موضع آخر : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل]

فإنْ قُلْتَ : ما دُمْتم حريصين على أنْ يرحم اللهُ هؤلاء الكافرين ، فلماذا لا تُلحون عليهم بالآيات الجديدة إلى أنْ يؤمنوا فيرحمهم الله ؟ نقول : مهما جئناهم بالآيات فسوف تنتهى إلى هذه النتيجة التى قررها القرآن : ﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [يس]

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٧) ﴾

هذا لون آخر من عنادهم وقَلْبهم للحقائق ، فإذا قال لهم الناصح ﴿ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ (٤٧) ﴾[يس] يعني : مما استخلفكم فيه لا مما عندكم ، وملّكه لكم يكون الرد ﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ (٤٧) ﴾[يس] هكذا يقلب الكافر حقائق الأمور ويتبجحون بالباطل .

﴿ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ (٤٧) ﴾[يس] يعني : لسنا بخلاء بل نحب أنْ ننفق ، وأن ننفذ مرادات الله في خَلْقه ، والله يريد أن يمنع الرزق عن هؤلاء ، فكيف نرزقهم نحن ، إننا لو أنفقنا عليهم لكنا معاندين مخالفين لمراد الله ، ولو شاء الله لأطعمهم .

ولم يقفوا بعنادهم عند هذا الحدِّ ، إنما يتمادَوْنَ فيتهمون المؤمنين بالضلال المبين ﴿ إِنْ أَنتُمْ (٤٧) ﴾[يس] يعني : ما أنتم ﴿ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٤٧) ﴾[يس] سبحان الله ، لماذا ؟ لأنكم تعارضون مراد الله ، وتُطعمون مَنْ حرمه الله وتجيرون عليه .

نعم ، الحق سبحانه رب الجميع ، ويرزق الجميع ، ويطعمنا ويسقينا ، لكنه سبحانه يريد أنْ يشهد عطف عباده على عباده لتسير حركتهم في الحياة بلا غلٍّ ، وبلا حقد ، فالفقير حين ينال من خير الغنيِّ لا يحقد عليه ولا يحسده ، بل يتمنى دوام النعمة عنده ، ثم إن الغِنَى والفقر عَرَض ينتقل ويزول ، والواقع يشهد بذلك .

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

قولهم ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ ﴿٤٨﴾ ﴾[يس] أى : الوعد بالآخرة وكلمة (الوعد) تدل على البشارة بالخير ، على خلاف الوعيد وهو إنذار بالشرِّ ، فعجيب منهم أنْ ينكروا الوعد وهو فى صالحهم ، وحظهم فى الوعد لا فى الوعيد .

وهذا الاستفهام منهم على سبيل الإنكار ، فليس هناك آخرة ولا حساب ولا جزاء ، والعاقل منهم الذى يعترف بالآخرة يقول كما قال صاحب الجنة ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف]

ومعنى ﴿ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾[يس] فى قولكم بأن هناك بعثاً وحساباً ، وواضح ما فى إنكارهم للقيامة من تحدٍّ وعناد واستعجال لها . يقولون : أين هى القيامة التى تتكلم عنها ، ائت بها الآن إنْ كنتَ صادقاً ، ويظل الواحد منهم فى هذا الجدل إلى أنْ تفاجئه القيامة .

﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾[يس] يعنى : ربما تفاجئه القيامة وهو فى جداله هذا ، وما المانع فالأمر لا يكلفنا إلا مجرد صيحة واحدة تأخذهم وتقضى عليهم جميعاً .

وهذا إنذار لأهل الغفلة الذين غفلوا عن البعث والحشر والحساب ، وشغلتهم الدنيا فى تجارتهم وفى زراعتهم ومشاكل حياتهم ، حتى

أضاعوا الحياة فى أخذ وردٍّ وجدال وخصام إلى أنْ فاجأتهم القيامة ؛ لذلك يقول الشاعر : إياك أن تجادل فى شىء كان فى يدك فأخذه منك غيرك .

نَفْسِى التى تملكُ الأشياءَ ذاهبةٌ فكيفَ آسَى علَى شىء لَهَا ذَهَبَا

ومعنى ﴿ تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) ﴾[يس] يعنى : تفاجئهم وهم فى جدالهم وخصامهم ، ومعنى ﴿ يَخِصِّمُونَ (٤٩) ﴾[يس] أى : يختصمون ، فقُلبت التاء صاداً ، وأدغمت فى الصاد للدلالة على المبالغة . والأَخْذُ يدل على الشدة ﴿ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) ﴾ [القمر]

وقوله : ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً (٥٠) ﴾[يس] يعنى : تفاجئهم الصيحة والقيامة ، بحيث لا يتمكن أحد أنْ يُوصِى أحداً ، والوصية معروفة وهى أنْ يُوصِى الإنسان أهله وأولاده بما هو مهم فى حياتهم ؛ لذلك رأينا سيدنا رسول الله فى حجة الوداع لما أحسَّ بدُنُو الأجل أوصى المسلمين فى خطبته الجامعة للُبِّ الدين وأسسه ، كذلك مَنْ أقبل على أجله واستشعر نهايته عليه أنْ يوصى مَنْ يحرص عليه بالأشياء المهمة .

إذن : فَهُم فى هذا الموقف لا يسعفهم الوقت لكى يُوصِى بعضهم بعضاً ﴿ وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) ﴾[يس] حتى ولا هذه يستطيعونها . فالقيامة إذن لا ينبغى أن يستبطئها أحد ؛ لأنها تأتى بغتة ؛ لذلك أخفاها الله ، واستأثر سبحانه وحده بعلمها ليظل الإنسان على ذكْرٍ لها ، ينتظرها فى كل وقت ، والقيامة بالنسبة للإنسان لا تعنى بالضرورة الآخرة ، إنما مجرد أنْ يموت فقد قامت القيامة فى حقه ، فبالموت لم يَعُدْ له عمل ، ولا توبة ، ولا استدراك لشىء .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قوله سبحانه : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴿٥١﴾ ﴾[يس] أي : البوق الذي ينفخ فيه إسرافيل ، وهذه هي نفخة البعث ، وتسبقها نفخة الصَّعْق التي تُميتهم وتخمدهم ، لذلك يقول سبحانه : ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر]

فإنْ قُلْتَ : النفخة واحدة ، فكيف تميت الأولى وتحيي الثانية ؟ نقول : النفخة في الصُّور ما هي إلا علامة فقط للحدث أمّا الفاعل على الحقيقة فهو الله سبحانه وتعالى ، فهو الذي يميت في الأولى ، ويحيي في الثانية .

ومعنى ﴿ الْأَجْدَاثِ ﴿٥١﴾ ﴾[يس] القبور ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[يس] يعني : يُسرعون وأصل كلمة ﴿ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾[يس] من نسل الخيوط بعضها عن بعض ، نقول : الثوب (ينسل) يعني : تخرج بعض الخيوط من أماكنها من اللُّحْمة أو السُّدَة ، لذلك نقول : (كفف) الخياطة يعني : امنع هذا (التنسيل) بأن تُمسك الخيوط بعضها إلى بعض ، فلا تنفلت .

فإذا ما خرجوا من الأجداث ورأوا الحقيقة التي طالما كذَّبوها

قالوا : ﴿ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴿٥٢﴾ ﴾[يس] هم الذين يقولون ويدْعُون على أنفسهم بالويل والثبور ؛ لا أحد يقول لهم : ويلكم إنما يقولونها هم لأنفسهم ، وهذا بيان للحسرة على ما فاتهم .

والمعنى : يا ويلنا احضر ، فهذا أوانك ، لأن الأمر فوق ما نحتمل ، ولا نستطيع دفعه ، والإنسان حين يُفاجأ بفساد رأيه يعود على نفسه باللوم ، بل قد يضربها ويعذبها .

وعجيب منهم أنْ يقولوا الآن ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ﴿٥٢﴾ ﴾[يس] فيعترفون بأن الموت كان مجرد مَرْقد ، والمرقد لا بُدَّ بعده من يقظة . عندها يردُّ عليهم : ﴿ هَـٰذَا ﴾ أي : ما تروْنَه من أمور القيامة ﴿ مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾[يس] ويجوز أنْ يكون اسم الإشارة ﴿ هَـٰذَا ﴾ إشارة إلى ﴿ مَرْقَدِنَا ﴾ في ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَـٰذَا ﴿٥٢﴾ ﴾ [يس]

الحق - سبحانه وتعالى - أخبر أنه جامعُ الناس ليوم لا ريب فيه ، وأن مَنْ أفلت من عقوبات الدنيا وعذاب الحياة التي يعيشون فيها ، فإن الله مُدّخر له عذاباً من نوع أشد ؛ لأن الذين قاموا بالدعوة إلى الله أول الأمر واضطهدوا وأوذوا ، منهم من مات في الاضطهاد قبل أنْ يرى انتصار الإسلام وغلبة المسلمين ، وقبل أنْ يرى انتقامَ الله من أعدائه ، فإذا كان الأمر كذلك فلا بُدَّ أن يُرِي اللهُ هؤلاء المؤمنين عاقبةَ الكافرين وما نزل بهم من العذاب .

والوعد هنا رغم أنه إنذار بالشرِّ الذي ينتظرهم ، إلا أنه في حقهم يُسمَّى وَعْداً لا وعيداً ، لماذا ؟ لأن التحذير من الشر قبل الوقوع فيه نعمة كبرى ، كما في قوله تعالى في سورة الرحمن : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الرحمن]

فجعل النار والشُّواظ من آلاء الله ؛ لأنه يُخوِّفهم بها ، ويحذرهم منها ، ولم يفاجئهم بها وهم أصحاء ، ويسمعون ويبصرون ، ويقدرون على الرجوع إلى الله والتوبة إليه ، فهم فى وقت المهلة والتدارك . وكما تُحذِّر ولدك من الرسوب إنْ هو أهمل دروسه وتتوعده ، إذن : فالوعيد هنا عَيْن النعمة ؛ لذلك سُمِّي وعداً لا وعيداً.

ومعنى : ﴿ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) ﴾[يس] أى : فى البلاغ عن الله ﴿ إِن كَانَتْ (٥٣) ﴾[يس] أى : ما كانت النفخة ﴿ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً (٥٣) ﴾[يس] لا تتكرر ؛ لأن الذى يُكرر الفعل البشر ، ومعنى تكراره أن الفعل الأول لم يكُنْ كافياً ولم يَفِ بالغرض منه ، أمَّا هنا فالفاعل الله عز وجل .

﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) ﴾[يس] إذا هنا فجائية ، فبمجرد الصيحة أُحْضِروا جميعاً رغماً عنهم ، وبدون اختيارهم ، ومُحضر اسم مفعول من أحضر . يعنى : أُجبر على الحضور والمثول بين يدى الله للحساب .

وفى الآية السابقة ﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾[يس] فزادتْ (كل) الدالة على شمول الأفراد ، إنما قد يكون شمول الأفراد تتابعاً مجموعة تلْو الأخرى ، لكن هنا يأتون مجموعين ليرى التابع متبوعه ، والضال مَنْ أضلَّه .. الخ ؛ لذلك يسمونها الفاضحة .

﴿ فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) ﴾

كأن الحق سبحانه يُطمئِن أهل الإيمان والعمل الصالح ، يعنى :

لا تخافوا من هَوْل القيامة ؛ لأننا لا نظلم أحداً ، والجزاء عندنا من جنس العمل ﴿ وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾[يس] فهذه الآية طمأنينة لمن عمل صالحاً ، وتخويف لمن عمل سيئاً .

واليوم هنا أى : يوم القيامة ، والموازين فيه بيد الحق سبحانه ، يعنى : إنْ كنتم فى الدنيا يظلم القوىُّ الضعيفَ ، ولا تقيمون الموازينَ بالقسط ، فالميزان يوم القيامة ميزان عادل ، لا يظلم ؛ لأن الذى سيقيم هذا الميزانَ هو الحقُّ سبحانه : ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

ثم يحدثنا الحق سبحانه عن جزاء أصحاب الجنة ، فيقول :

﴿ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ﴿٥٥﴾ ﴾[يس] الصاحب هو المنتقَى والمختار من جنسك لتصاحبه ولا تفارقه ، فكأن الجنة أُخْرِجت مخرج العقلاء الذين يُصاحِبون ويُصاحَبون ، ذلك لأن الجنة كانتَ فى بالهم وفى أذهانهم ، فهم متعلقون بها وهى شُغُلهم الشاغل ، فَلَهُم صحبة بالجنة ، وللجنة صحبة بهم ، فكلما أقدموا على خير تذكَّروا الجنة فرغبوا فيه ، وكلما أقدموا على شر تذكروا النار فانصرفوا عنه . أو : أن الصاحب هو المالك للشيء ، فكأن الجنة مِلْك لهم ، ملكوها وحازوا مفاتيحها بما قدَّموا من العمل الصالح .

ومعنى ﴿ الْيَوْمَ ﴾ أى : يوم القيامة ﴿ فِى شُغُلٍ ﴿٥٥﴾ ﴾[يس] أى :

نعيم يشغلهم عن أيِّ شيء آخر أو : في شُغُل عن معارفهم وأقاربهم الذين دخلوا النار والعياذ بالله ، كما قال سبحانه : ﴿واخْشَوْا يومًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا (٣٣)﴾[لقمان] فهم في نعيم يشغلهم عن كل هؤلاء ، فكأنهم لا يعرفونهم .

﴿ فَاكِهُونَ ﴾ يقال : فَاكِه وفكه يعني : متلذذ ومُتنعِّم . ومنها : الفاكهة ، فهي ليست من الضَّروريات إنما من التفكُّه والتلذذ .

وقوله سبحانه : ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦)﴾[يس] أذكر أنني لما قرأتُ هذه الآية على الإخوان ضرب واحد منهم على صدره – وكان شيخًا وقورًا – ضرب على صدره بعنف وانفعال ، وقال : (يا خرابي ، يعني فلانة هتجيلي تاني) لأنه رأى في زوجته ما يُنفِّره منها ، فتعجب أنها ستصاحبه حتى في الآخرة وفي الجنة ، فقلنا له : يا شيخ أنت تكره في زوجتك أشياء لكن لها مع الله أعمال طيبة ، تجعلها أهْلاً للجنة ، فعملها الطيب مع الله يلغي عملها السيىء معك .

وربما كنتَ أنت حَادَّ المزاج ، أو طماعًا وعينُك زائغة ؛ لأن الله تعالى قال في الحياة الزوجية : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً (٢١)﴾ [الروم]

فالحياة الزوجية في بدايتها سَكَن ، حيث يسكن كلٌّ منهما إلى الآخر ويرتاح في حضنه ، ثم إذا تغيَّرتْ الأوضاع وزَهَد أحدهما في الآخر أو ظهر منه ما يُنفِّر كانت المودة ، فإذا ما أصابهما الكِبَر والعجز فليرحم كل منهما عَجْزَ الآخر ، بما جعله الله بينهما من صفة الرحمة ، فالحياة الزوجية في هذه الحالة معيشة تراحم قبل كل شيء .

ثم إن هذه الزوجة التى تنقم منها بعض الصفات ، وتنفر من تصرفاتها لن تأتى فى الآخرة على هذه الصورة التي تكرهها ، إنما ستأتي على صورة جديدة كما قال سبحانه : ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ ۝١٥﴾ [آل عمران] فالله سيطهرها مما كنتَ تأخذه عليها .

ومعنى : ﴿فِي ظِلَالٍ ۝٥٦﴾ [يس] أي : لا شمسَ هناك ، ولا حَرَّ يؤذيهم ، والظل معروف ألفه المكلَّفون فى الدنيا ، وإليه يفيئون فى حَرِّ الشمس ، فهو أمر مألوف لهم ، أما فى الآخرة فهى ظلال يُمتَّعون فيها ، أو فى ظل الله كما ورد فى الحديث الشريف : « سبعة يُظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله.. »[1]

والأرائك : جمع أريكة ، وهى السرير الذى له حَجَلة[2] (الناموسية) أو : هى الوسادة التى يُتكأ عليها .

ومعنى ﴿مُتَّكِئُونَ ۝٥٦﴾ [يس] الاتكاء حالة وهيئة للإنسان ، فهو : إمَّا قائم ، أو قاعد ، أو متكئ ، والاتكاء أمتع هذه الحالات ؛ لأن القائم قائم لعمل ، والقاعد يقعد لِهَمٍّ يفكرُ فيه ، فلا هو قادر على القيام للعمل ، ولا هو قادر على الاتكاء للراحة ، فقوله سبحانه ﴿مُتَّكِئُونَ ۝٥٦﴾ [يس] يعنى : تمام الراحة لهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿لَهُمْ فِيهَا ۝٥٧﴾ [يس] أى : فى الجنة ﴿فَاكِهَةٌ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله . الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلَّق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ».

(٢) الحجلة فى اللغة : مثل القبة . وحجلة العروس : بيت يُزيَّن بالثياب والأسرَّة والسُّتور ، ويكون له أزرار كبار [لسان العرب - مادة : حجل] .

﴿ ٥٧ ﴾[يس] الفاكهة من التفكُّه والتلذذ ، وعرفنا أن الطعام يأكله الإنسان إما للاقتيات وهو الضروريات ، وإما فاكهة للتلذُّذ والتنعُّم ، وهنا يذكر الحق سبحانه الفاكهة فحسب ؛ لأننا لا نأكل في الجنة إلا تفكُّهاً وتنعُّماً ، لا عن حاجة أو جوع .

﴿ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾[يس] أي : ما يدعون به وما يخطر ببالهم ، فيجدوه بين أيديهم . وقال بعضهم (مَا يدَّعُون) يعني : لا يدخر الله لهم دعوة ؛ لأنه سبحانه يعطيهم قبل أنْ يدعوا[1] .

وبعد ذلك يتكلم الحق - سبحانه وتعالى - عن معنى كان يريده لخَلْقه في الدنيا نتيجة للسير على منهجه وصراطه المستقيم ، فيقول سبحانه : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ ﴾[يس] فثمرة الإسلام أنْ يُسلموا زمامهم جميعاً إلى يد خالقهم ، وأن يكونوا إخوة عابدين لمعبود واحد ، وأن يعيشوا معاً في أمن واطمئنان وسلام .

إذن : فالأمن والسلام هما الغاية من منهج الله ، وهما تمام النعمة ، وإلا فلو نعم الإنسانُ بكل ألوان النعيم وفقد نعمة الأمن والسلام لتنغَّصتْ عليه كل النعم ، وما هنىء بعيش ولا تمتَّع بلذة ؛ لذلك امتن الله تعالى على قريش فقال : ﴿ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش]

السلام يكون منك حين تُقبل على آخر فتقول : السلام عليكم يعني : أنا مقبل عليك بسلام ، فيردُّ عليك : وعليكم السلام ، والمعنى :

---

(١) أورد القرطبي في تفسير هذه الكلمة عدة أقوال (٨/٥٦٨٢) .
- من دعا بشيء أعطيه . فمعنى يدعون : يتمنون . قاله أبو عبيدة .
- من ادعى منهم شيئاً فهو له .
- يدعون : يشتهون . قاله يحيى بن سلام .
- يسألون . قاله ابن عباس .
ثم قال القرطبي : « والمعنى متقارب » .

لا أنت تؤذينا ، ولا نحن نؤذيك ، وكُلٌّ يعطَى من السلام على قدر إمكاناته ، فإذا كان السلام من الله ، فهو السلام المطلق ، السلام الذي يحميك من كل جوانبك ، فلا ينفذ إليك شيء يضرُّك .

ومعنى : ﴿ سَلَامٌ قَوْلًا (٥٨) ﴾[يس] يعني : الله تعالى هو قائله ليس مناولةً عن طريق الملائكة مثلاً ، فيقول لهم : سلِّموا على فلان ، فالمعنى : سلام حالة كونه قَوْلاً من رب رحيم ، وليس بلاغاً عن الله من أحد ، واختار هنا لفظ الربوبية التي تقتضي أن المربِّي يحب المربَّى ، فما بالك إذا وصفتَ الربوبية بالرحمة ﴿ مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾[يس]

وبعد أنْ حدَّثنا الحق سبحانه عن المؤمنين ، وما ينتظرهم من النعيم يُحدِّثنا عن المجرمين :

﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) ﴾

معنى : ﴿ وَامْتَازُوا (٥٩) ﴾[يس] أي : تميَّزوا أيها المجرمون عن المؤمنين ، وانحازوا بعيداً عنهم ، تجمعوا في جانب واحد لتروْا دخول المؤمنين الجنة ، وتظلوا أنتم في الموقف لتزداد حسرتكم .

وقد اقتضتْ حكمة الله تعالى أنْ يُميز المؤمنين والكافرين بمعنى : أن يُعرف كُلٌّ منهم ، وذلك في غزوة الحديبية ، فلما مُنع المسلمون من دخول مكة وهم على مشارفها حَزِن المسلمون حُزْناً شديداً ، حتى كبار الصحابة مثل عمر بن الخطاب الذي قال لرسول الله : لمَ نقبل الدَّنيَّة في ديننا[1] ؟

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم في حديث الحديبية الطويل ، وفيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما جرى صلح الحديبية والتأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب فأتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر أو ليس برسول الله ؟ أو لسنا بالمسلمين ؟ أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى . قال : فعلامَ نعطى الذلة في ديننا ؟ فقال أبو بكر : يا عمر الزم غرزه حيث كان » الحديث بطوله .

وكاد المسلمون يخالفون أمر رسول الله حتى قال لزوجته السيدة أم سلمة : « هلك الناس يا أم سلمة ، أمرتُهم فلم يطيعوا » فقالت : يا رسول الله ، إنهم مكروبون . ذلك لأنهم مُنعوا من دخول الحرم وهم على مقربة منه ، وهذا أمر صعب على نفوسهم ، ثم أشارت على رسول الله وقالت : يا رسول الله امْض إلى ما أمرك الله به فافعل ، ولا تكلم أحداً ، فإنهم لو رأوك عزمتَ انصاعوا ، وفعلاً أخذ رسول الله ﷺ بمشورة السيدة أم سلمة ، وانتهت المشكلة[1] .

وقبل أنْ يعودوا إلى المدينة بيَّن الله لهم وجه الحكمة في ذلك والعلة من صلح الحديبية ، ولماذا قَبل رسول الله شروطها . العلة أن بين كفار مكة مؤمنين يكتمون إيمانهم ، ولا يعرفهم أحد ، فلو دخل المسلمون مكة في هذا الوقت لحدثتْ مصادمات بين الجانبين ، وعندما سيُؤْذَى هؤلاء المؤمنون الذين يكتمون إيمانهم ، ولا يستطيعون الجهر به ، وسيؤخذ العاطل مع الباطل .

لذلك قال سبحانه في هذه القصة من سورة الفتح : ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح]

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٢٥) عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم ، وفيه : أن رسول الله ﷺ قال : يأيها الناس انحروا واحلقوا فما قام أحد ، ثم عاد بمثلها فما قام رجل حتى عاد بمثلها ، فما قام رجل ، فرجع ﷺ فدخل على أم سلمة فقال : يا أم سلمة ما شأن الناس ؟ قالت : يا رسول الله قد دخلهم ما قد رأيت فلا تكلمنْ منهم إنساناً ، واعمد إلى هديك حيث كان فانحره واحلق فلو قد فعلت ذلك فعل الناس ذلك ، فخرج ﷺ لا يكلم أحداً حتى أتى هديه فنحره ثم جلس فحلق فقام الناس ينحرون ويحلقون حتى إذا كان بين مكة والمدينة في وسط الطريق ، فنزلت سورة الفتح .

ومعنى ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا (٢٥) ﴾[الفتح] يعني : لو تميَّز المؤمنون عن الكافرين .

أو : يكون المعنى : ﴿ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) ﴾[يس] امتازوا بعلامات تميزكم وتلازمكم دائماً ، بحيث لا يكون خجلكم أمامنا الآن فحسب ، إنما تكون لكم سمات تُعرَفون بها ، وهذه العلامة هى علامة الغضب وسواد الوجه والعياذ بالله . ومن ذلك قوله تعالى فى المؤمنين : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾

كأن سائلاً سأل : وهل يستحق الكفار كلَّ هذا العذاب وهذا الغضب من الله تعالى ؟ فيجيب الحق سبحانه : نعم ، يستحقون ؛ لأن الله نبَّههم وحذرهم فلم يستجيبوا ، ذلك فى قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ (٦٠) ﴾ [يس]

فالحق سبحانه لم يأخذكم على غرَّة ، إنما نبَّهكم وبيَّن لكم مداخل الشيطان وحبائله وحيله ؛ لأن الشيطان من خيبته رمى بكل مداخله مع المؤمنين أمام الله ، فحذرنا الله منها ، وبيَّن لنا عداوته لنا ، وعداوته المسبقة مع آدم عليه السلام منذ أنْ أُمر بالسجود فأبى .

ولم ينْته أمره عند عدم السجود ، إنما أغوى آدم ، وأراد أن ينتقم منه ومن ذريته من بعده ، بل وأقسم على ذلك أمام خالقه سبحانه ، فقال بجبروت الإغواء كما حكى القرآن : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) ﴾ [ص] لكنه تذكر عبوديته الحقة للرب الأعلى ، فقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

فهؤلاء لا مدخلَ لي إليهم ، والمعنى أن الخصومة ليست بيني وبينك ، إنما بيني وبين بني آدم ، وحين أقسم إبليس ، أقسم قسماً يؤكد قدرته على ما يهدد به ، فمثلاً سحرة فرعون حين أقسموا قالوا : ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) ﴾ [الشعراء]

أمَّا إبليس فيعرف جيداً كيف يقسم ، فقال ﴿ فَبِعِزَّتِكَ (٨٢) ﴾ [ص] يعني : باستغنائك عن خَلْقك ، مَنْ شاء فليؤمن ، ومَنْ شاء فليكفر ، هذا هو الباب الذي سأدخل منه إليهم ، أمَّا من تريده أنت يارب ، فلا أستطيع أن أقترب منه .

ومعنى ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ (٦٠) ﴾ [يس] يعني : آمركم كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه]

يقول تعالى : ألم آمركم يا بني آدم أنْ تحذروا مكايد الشيطان ، وأن تتنبَّهوا إلى مداخله إليكم وشباكه وخططه ، ألم يقل هو نفسه : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ﴾ [الأعراف] إذن : كان ينبغي ما دُمْتم أخذتم المصْل الواقي أن تكون لديكم المناعة اللازمة لمواجهة هذا العدو ، خاصة وقد أسفر عن وجهه ، وأوضح خططه ، فهو لكم على الصراط المستقيم ، ومداخله من سبل الطاعة لا من سُبل المعصية ، الشيطان لا يأتي أهل الفجور ورُوَّاد الخمارات ، إنما يأتي أهل الطاعات ليفسدها عليهم .

وصدق الشاعر الذي قال عَمَّنْ أسرف على نفسه في المعاصي :

وَكُنْتُ امْـرءاً مِنْ جُنْـدِ إبْلِيسَ فَارْتَـقَى
بِيَ الحَالُ حَتَّى صَارَ إبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي[1]

ومعنى : ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ (٦٠)﴾ [يس] عبادته طـاعة نزغاته ووسوسته ، والعلة فى ذلك ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠)﴾[يس] يعنى : عدو بيِّن العداوة ، محيط بأساليب الكَيْد لأعدائه .

وبعد أنْ نهانا ربنا - تبارك وتعالى - عن عبادة الشيطان يُوجِّهنا إلى العبادة الحقة : ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾ [يس] حين نتأمل هاتين الآيتين نجد أن العـلة فى النهى عن عبادة الشيطان ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠)﴾ [يس] كان القياس فى الآية بعدها : وأن اعبدونى لأننى حبيبكم كمـا جاء فى الحديث الـقدسى : « يا ابن آدم ، أنا لك مُحِبٌّ ، فبحقى عليك كُنْ لى محباً »[2].

لكن الحق سبحـانه لم يُعلل عـبـادته سبـحانه بالـمحـبة ، إنمـا اعـبدونــى لأنى أدعوكم إلى الـصراط المسـتقيم النافـع لكم المنظِّم لحـياتكم ، اعـبدونى لهـذا ، أما مـسألة المـحبة فـهى موجـودة وأنا أحـبكم ، فســواء كنتُ أحبك أو لا أحـبك كـان ينبغى عليك اتبـاع هذا الصراط المستقيم ؛ لأنك المستفيد منه .

ولأهل المعرفة وقـفة عندما قرأوا ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦)﴾

---

(١) هذا البيت ذكرته الموسوعة الشعرية من شعر شاعرين . أولهما . الخبز أرزى (توفى عام ٣١٧ هـ - ٩٣٩ م) واسمه نصر بن أحمد ، بصرى ، انتقل إلى بغداد ، أخباره كثيرة طريفة : ونص البيت عنده ضمن قصيدة من بحر الطويل عدد أبياتها ٤٦ .

وكنت فتى من جند إبليس فارتقى ... بى الأمر حتى صار إبليس من جندى

وقد أخذ الأمير الصنعانى (توفى ١١٨٢ هـ - ١٧٦٨ م) هذا البيت فقال :

وكنت امرءاً من جند إبليس فارتمى ... بى الدهر حتى صار إبليس من جندى

وهو من بحر الطويل من قصيدة عدد أبياتها ١٥ بيتاً .

(٢) أورده الإمام أبو حامد الغزالى فى « إحياء علوم الدين » (٢٩٦/٤) . قال : « فى بعض الكتب (يقصد الإلهية) . عبدى أنا وحقك لك محب ، فبحقى عليك كن لى محباً » .

[الفاتحة] ﴿هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١)﴾ [يس] ، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ (١٥٣)﴾ [الأنعام]

قالوا : الصراط المستقيم هو الطريق العَدْل الذى لا اعوجاجَ فيه ، ويمثل أقربَ الطرق وأقصر مسافة بين نقطتين ، وساعةَ تسمع كلمة الطريق تعرف أن له بداية ونهاية من .. إلى ، وهنا إشارة لطيفة ينبغى أن يتنبه لها المؤمن ، هى أن الدنيا بالنسبة لك ما هى إلا طريق أنت تسير فيه ، له بداية وله نهاية ، فهى - إذن - ليستْ دارَ قرار وإقامة ، إنما دارُ عبور ومرور .

والإنسان حينما يقيم فى مكان ولا يجد به راحته يتركه إلى مكان آخر ، ولو استقام له المكان الأول ما تركه ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

وهذه الهجرة أيضاً تحتاج إلى طريق أهاجر فيه من .. إلى . فكأن الحق سبحانه يقول لك : أنت فى الدنيا عابر سبيل ، إلى غاية أعظم وأشرف ، فاسلُك إليها أقرب الطرق الموصِّلة إليها ، وإذا كنتَ قد عاينتَ بنفسك (منْ) فى الدنيا التى تعيشها ، فإن الله تعالى قد أخبرك عن (إلى) التى تسير إليها .

أنت فى الدنيا تعيش بالأسباب المخلوقة لله ، والممدودة إليك فى : الأرض التى تعيش عليها ، والماء الذى تشربه ، والهواء الذى تتنفسه ، والعقل الذى تفكر به .. الخ لكن ربك الذى مدَّ لك هذه الأسباب ، يخاف عليك الغرور بالأسباب : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ [العلق]

لذلك يجعل هذه الأسباب تتخلف فى بعض الأحيان ، كى تتعلق أنت بالمسبِّب سبحانه ، وتظل على ذكر له سبحانه ، فتدعوه وتلجأ إليه .

ومن الناس مَنْ يحب الله دعاءهم ، ويحب أنْ يسمع أصواتهم ، فيبتليهم ليدعوه فيسمعهم ، وآخرون يكره الله نداءهم ، فيأمر الملائكة أنْ تقضي حوائجهم ، حتى لا يسمع لهم صوتاً .

ثم يحكي لنا الحق سبحانه تاريخَ الشيطان مع بني آدم ، هذا التاريخ الذي كان علينا أنْ نتذكره دائماً :

﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

الجِبلّ : هم القوم الأشداء الأقوياء . وحين ترى مادة (جبل) فاعلم أنها تدُلُّ على القوة والشدة والثبات والفخامة ، ومن ذلك سُمِّيَ الجبل لثباته ونقول : فلان جُبِل على كذا . يعني : صفة أصيلة فيه ، ثابتة في شخصيته ، فبيْنَ هذه الأشياء جامع اشتقاقيّ واحد ؛ لذلك نُشبِّه الرجل العاقل بالجبل ؛ لأنه ثابت لا تهزه الأحداث .

ومن ذلك قول الشاعر يرثي أحد الخلفاء ، وقد رأى الناسَ يحملونه إلى قبره [1]

● رَضْوَى عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ يَسِيرُ [2] ●

ورَضْوَى جبل معروف [3]

---

(١) أما الشاعر فهو المتنبي أحمد بن الحسين أبو الطيب (ولد بالكوفة ٣٠٣ هـ وتوفي ٣٥٤ هـ) أحد مفاخر الأدب العربي ، ادعى النبوة ، ثم رجع عن دعواه . قتله قاطع طريق اسمه فاتك بن أبي جهل الأسدي .

(٢) وتمام البيت كما ذكر في الموسوعة الشعرية :

ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى ... رضوى على أيدي الرجال تسير

وهو من قصيدة عدد أبياتها ١٣ بيتاً من بحر الكامل .

(٣) رضوى : جبل منيع بين مكة والمدينة ، ويسمى جبل جهينة بالقرب من ينبع .

ومعنى ﴿ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾[يس] : يعنى : لستم أول مَنْ أضلَّه إبليس ، فقد أضلَّ قبلكم قوماً كثيرين كانوا أقوى منكم ، ولعب بهم حتى جعل منهم أداة للضلال ، فلم يقف عند حَدِّ ضلالهم هم ، إنما ضلُّوا وأضلُّوا ، حتى صاروا جُنْداً من جُنْده كما قلنا .

ويكفى فى عظمة الحضارات القديمة أن الحضارة الحديثة حضارة القرن العشرين - قرن الاختراعات والاكتشافات والتقدم العلمى الهائل- تقف مبهورة أمام حضارة قديمة مثل حضارة الفراعنة مثلاً ، بل وتقف عاجزة عن فهمها ، والوصول إلى أسرارها ، وكان على رأس هذه الحضارة فرعون .

فماذا فعل به الشيطان ، أغواه وأضلَّه ، حتى قال لقومه : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ (٢٤) ﴾ [النازعات] . وحكى عنه القرآن فقال : ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) ﴾ [الزخرف]

ففرعون وأمثاله من الأقوياء ما استطاعوا أنْ يواجهوا الشيطان ، وما استطاعوا النجاة من مكايده ؛ لأنه دخل إليهم من مدخل شهوات النفس ، ثم صعَّب عليهم الطاعات ، فمالوا إلى المعاصى وانصرفوا عن الطاعات .

ثم يُؤنِّب الحق سبحانه هؤلاء العاصين : ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) ﴾[يس] يعنى : أين كانت عقولكم حين انسقتُمْ وراءه ، بعد أن حذّرناكم منه وبيَّنا لكم مداخله ، وحين يردُّك خالقك إلى العقل ، ويأمرك بإعماله فاعلم أن نتيجة إعمال العقل موافقة لمراده سبحانه منك ، فإنْ أعملتَ عقلك فى كَوْن الله وآياته ، لابد أنْ تصل إلى نتيجة مرادة لله تعالى ، كذلك أنت لا تأمر مخاطبك بأنْ يُعمل عقله فى شيء ، إلا إذا

كنتَ واثقاً أنَّ نتيجة هذا العمل في صالحك ، ووفْق هواك ، ولو كنتَ تعرف أن النتيجة على خلاف ما تريد ما أعطيتَه الفرصة لإعمال عقله .

ومثَّلْنَا لذلك بالبائع الذي يبيع سلعة جيدة ، فإنه يدعوك إلى فحصها وتأمُّلها والتأكد من جودتها ، فبائع الأصواف مثلاً يعرض عليك الثوب ، ويُبيِّن لك جودته ، ويشعل الثقاب ، ويحرق لك خيطاً من خيوط النسيج ، إنه لا يفعل ذلك إلا وهو واثق من جودة بضاعته وأنك لابُدَّ مقتنع بها ، حريص على شرائها ، أما الغاشُّ فيحاول إقناعك بكلام نظري معظمه كذب وتدليس ، ويحاول أنْ يصرف ذهنك وفكرك في الشيء ، لأن النتيجة لن تكون في صالحه .

كذلك الحق - سبحانه وتعالى - يقول ﴿ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [يس]

يعني : لو عقلتم لتوصلْتُم إلى الحق ، وإلى الصراط المستقيم .

﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

هنا أيضاً اعتبر التخويفَ من جهنم وعداً لا وعيداً ، وسبق أنْ عرفنا أن الوعد في الخير ، والوعيد في الشر ، ومن ذلك قول الشاعر[1] :

يَا دَهْرُ يَا مُنْجِزَ إيعَادِه ... وَمُخْلِفَ المأْمُولِ منْ وَعْدِه[2]

(١) هو أبو العلاء المعري ، شاعر وفيلسوف ، ولد وتوفي (٤٤٩ هـ) في معرة النعمان ، عمي في السنة الرابعة من عمره ، قال الشعر وهو ابن ١١ سنة ، كان يلبس خشن الثياب ولم يأكل اللحم ٤٥ سنة .

(٢) البيت من قصيدة لأبي العلاء المعري من بحر السريع عدد أبياتها ٥٠ بيتاً.

وقُلْنا : سَمَّى ذلك وعداً ؛ لأن التحذير من الشر قبل الوقوع فيه يُعَدُّ خيراً ؛ لأنك تستطيع تدارك الأمر ، وتصحيح الخطأ .

وقوله سبحانه : ﴿اصْلَوْهَا (٦٤)﴾[يس] ادخلوها ، واصْطَلُوا بنارها ، واحترقوا بلظاها ، ﴿الْيَوْمَ (٦٤)﴾[يس] أي : يوم الجزاء اليوم القائم الذي نحن فيه ، أما ما قبله فقد مضى ومضتْ معه اللذات التي جاءت بكم إلى النار ، ذهبتْ اللذات وبقيتْ تبعتها ، ولم يعُد أمامكم إلا النار تحترقون فيها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)﴾[يس] يعني : هذه النار ليست ظُلْماً ، إنما جزاء كفركم بنعمة الله ، وهذا تقريع لهم ؛ لأنهم لم يعرفوا للحق سبحانه نعمه عليهم ، ولو عرفوا لله هذه النعمة ما كفروا بها .

لذلك حين تُحسن إلى إنسان ، فيقابل إحسانك بالإساءة يخجل أن يقابلك ، ويستطيع أنْ يتحمل منك أيَّ عقاب ، إلا أن تواجهه أنت ، لماذا ؟ لأن حياء المسيء من المحسن أشدُّ عليه من العذاب ، فكأن الله تعالى يقول لهؤلاء الكفرة بنعمه : استحيوا من الله ، لأنه أنعم عليكم فكفرتم بنعمه ، ولو أن عندكم إحساساً لكان تذكيركم بكفركم أشدَّ عليكم من هذه النار التي تَصْلَوْنها .

ثم يقول سبحانه واصفاً حالهم ، والعياذ بالله : ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)﴾[يس]

قوله ﴿الْيَوْمَ (٦٥)﴾[يس] أي : يوم القيامة والجزاء ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ (٦٥)﴾[يس]

تضرب عليها فلا يستطيعون الكلام ، فالأفواه مَنَاط الكلام ، وقبل أن يختم الله على أفواههم في الآخرة ختم على قلوبهم في الدنيا ، بالأمس ختم اللهُ على القلوب فلا يدخلها إيمان ولا يخرج منها كفر ، واليوم ختم الله على الأفواه ومنعهم الكلام ، حتى لا يعتذرون ولا يستغفرون .

فالمقام هنا مقام حساب لا عمل ، فلا جدوى من الاستغفار ، ولا فائدة من الاعتذار ، بل انتهى أوان الكلام والمنطق ، ولم يَعُد للسان دَوْر ، اليوم تُغْلَق الأفواه وتُقيَّد الألسنة لتنطق الجوارح .

وتأمل بعدها : ﴿ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾[يس] القياس كان يقتضى أنْ يقول الحق سبحانه ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ (٦٥) ﴾ [يس]

ومثلها : ونُنْطق أيديهم ونُشهد أرجلهم ، لكن السياق القرآنى هنا مختلف ، فبعد أنْ يختمَ اللهُ على أفواههم تُكلمنا أيديهم تطوعاً لا أمراً ، وتشهد أرجلهم تطوعاً لا أمراً ، فلم نقل للأيدى : تكلمى ، ولم نقل للأرجل : اشهدى .

وإنما تطوعتْ هذه الجوارح بالشهادة ، مع أنها هى نفس الجوارح التى بُوشرت بها المعاصى والذنوب فى الدنيا ، ومع ذلك تشهد لا على نفسها ، إنما على النفس الواعية التى أخضع اللهُ لها الجوارح ، وأمرها أن تسير وِفْق مرادها ، ورهْنَ إشارتها فى الدنيا .

أما ونحن الآن فى الآخرة ، وقد تحررتْ الجوارحُ من تبعيتها للنفس الواعية ، وأصبح المُلْكُ كله والتفويض كله لله تعالى ، فالآن تتكلم الجوارح بما تريد ، وتشهد بما كان أمام الرب الأعلى سبحانه .

وسبق أنْ مثَّلْنَا هذه المسألة بالكتيبة من الجيش يرسلها القائد الأعلى ، وعلى الكتيبة أن تطيع أوامر قائدها المباشر ، ولو كانت الأوامر خاطئة ، إلى أن تعود إلى الأعلى ، فتشكو له ما كان من القائد المباشر ، هكذا الجوارح يوم القيامة .

فإنْ قلتَ : فلماذا أسند التكلم للأيدى ، والشهادة للأرجل ؟ نقول:

لأن جمهرة الأعمال عادة تُسند إلى الأيدى ، حتى لو كان المشى وسيلة العمل ، وطالما أن الأيدى تتكلم ، فكأنها أصبحتْ مُدَّعية تحتاج إلى شاهد فتشهد الأرجل .

أما مسألة : كيف تنطق الأيدى ، فالذى أنطق اللسان وهو قطعة من لحم ودم قادر على أنْ يُنطق باقى الأعضاء الأيدى أو غيرها ، وما دام الفعلُ لله تعالى فلا داعيَ للسؤال عن الكيفية ، ثم إن الأيدى بها من الأعصاب أكثر مما بأعضاء الكلام .

وقوله تعالى : ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)﴾[يس] ولم يقُلْ : بما كانوا يعملون ، لأن هناك فرقاً بين إنسان يُقبل على المعصية لكنه لا يفرح بها ، بل يندم عليها ويعاقب نفسه على ارتكابها ، وآخر يعتبر ارتكاب المعصية مكسباً فيفرح بها ، ويتحدث عنها ويتباهى بارتكابها .

ومن حيث التحقيق اللغوى لمادة (كسب) ، فإن هذا الفعل يأتى مجرداً (كسب) ، ويدل على الربح فى البيع والشراء ، وعلى العمل يأتى من الإنسان طبيعياً ، لا تكلُّفَ فيه ولا افتعال ، وغالباً ما يُستخدم فى الخير .

ويأتى هذا الفعل مزيداً بالهمزة والتاء (اكتسب) ، ويدل على الافتعال والتكلّف ، وتُستخدم هذه الصيغة فى الإثم ، وأوضحنا هذه المسألة فقلنا : إن الإنسان حين يفعل الخير يأتى الفعلُ منه طبيعياً تلقائياً ، أما الشر فيتلصص له ويحتال ، ذلك لأن الخير هيِّن ليِّن سهل مقبول ، أما الإثم فشاقٌّ مخجل .

أنت حين تجلس مثلاً بين أهلك ترى زوجتك أو بناتك أو عمتك أو خالتك .. الخ وفيهن الجميلات والحسان ، وأنت تنظر إليهن جميعاً

دون تكلُّف ودون خجل ، لأنه أمر طبيعي ، أما مع غير المحارم ومع مَنْ يحرم عليك النظر إليهن ، فإنك تسرق النظرة وتحتال لها ، حتى لا ينكشف أمرك ، ولا يطلع أحد على نقيصتك .

فإذا جاءت كسب محل اكتسب ، فاعلم أن صاحب المعصية ومرتكب الإثم قد تعوَّد عليه وألفه ، حتى أنه يفعله كأمر طبيعي فلا يخفيه ولا يستحي منه ، بل يجاهر به ، فَعَدّ الاكتساب في حقه كسباً ، كما في هذه الآية :

﴿ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) ﴾ [يس]

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا(١) عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦) ﴾

يعني : كما ختمنا على أفواههم ومنعناهم الكلام لو شئْنا لطمسنا أعينهم يعني : أغلقناها وسوَّيناها ، بحيث لا يظهر لها أثر في وجوههم ، وإذا طمسنا على أعينهم فقدوا البصر ، فكيف يبصرون وهم يسابقون إلى الصراط ؟

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) ﴾

---

(١) المطموس والطميس عند أهل اللغة : الأعمى الذي ليس في عينيه شق . وفي هذه الآية تأويلات : **أحدها** : أن هذا في الدنيا . قال ابن عباس : المعنى لأعميناهم عن الهدى ، فلا يهتدون أبداً إلى طريق الحق .

ثانيها : أي أعميناهم فلا يبصرون طريقاً إلى تصرفهم في منازلهم ولا غيرها . قال القرطبي : وهذا اختيار الطبري .

ثالثها : أن هذا في الآخرة . وقد رُوي هذا عن عبد الله بن سلام . وعلى هذا يكون الصراط في الآية يكون هو صراط يوم القيامة . راجع تفسير القرطبي (٨/٥٦٨٧)

لقائل أنْ يقول : إذا فقدوا البصر على الصراط ، فقد تكون لهم بدائل وحيل تُسعفهم ، كأن يتحسس طريقه بعصا مثلاً ، أو يجد مَنْ يأخذ بيده ويرشده ، فالحق سبحانه وتعالى يُطوِّقهم من كل نواحيهم ، ويقطع أملهم فى النجاة ، فيقول : ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ (٦٧)﴾ [يس]

فالأمر لا ينتهى عند العمى والطمس على الأعين ، إنما هناك ما هو أشد ، أنْ يمسخهم فى أماكنهم ويجمدهم فيها ، فلا يستطيعون حراكاً .

والمسخ أنْ يصيروا كالمساخيط لا يتحرك ، أو مسخناهم يعنى : حوَّلنا صورهم إلى صور قبيحة ، إذلالاً وإهانة لهم .

والمعنى الأول أوجه[1] ، لأنه تعالى قال بعدها : ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧)﴾ [يس]

لأنهم تجمدوا فى أماكنهم ، فلا حركة لهم لا إلى الأمام بالمضىِّ فى الطريق الجديد الذى هم مُقبلون عليه ، ولا حتى العودة فى الطريق الذى جاءوا منه وألفُوه .

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ[2] فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨)﴾

---

(١) وهو قول الحسن البصرى : أى لاقعدناهم فلا يستطيعون أن يمضوا أمامهم ولا يرجعون وراءهم. وكذلك الجماد لا يتقدم ولا يتأخر . أما المسخ بمعنى تغيير الخلقة ، ومسخهم بهائم أو غير ذلك فقد قال به السدى فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٧٨)

(٢) النكْس : قلب الشيء على رأسه ، ونكس رأسه . أماله قال أبو إسحق : معناه من أطلنا عمره نكسنا خَلْقه فصار بدل القوة ضعفاً ، وبدل الشباب هرماً ، وقال شمر : يقال نكس الرجل إذا ضعف وعجز . [لسان العرب – مادة : نكس] قلت : علاقة معنى الكلمة بإمالة الرأس فى نحو ﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ (١٢)﴾ [السجدة] أن العجز والهرم بسبب إطالة العمر والهرم يتسبب فى أن يمشى الإنسان منحنياً مميلاً رأسه خاضعاً برأسه إلى أسفل ، وقد يكون متكبراً على الله فى حياته . والله أعلم .

الحق سبحانه قد أعذر بأنه أنذر ، وأعذر لأنه قال لهم لا تعبدوا الشيطان وبيَّن عداوته ، وقال : اعبدوني واسلكوا صراطي المستقيم ، إذن : ليس لهم عذر حين كفروا بالله وأطاعوا الشيطان وعبدوه ، لكنهم قد يعتذرون من ناحية أخرى فيقولون : يارب أنت أخذتنا ولو عشْنا لاهتدينا وعُدْنا إلى الصراط المستقيم ، فيرد الله عليهم : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ .. (٣٧) ﴾ [فاطر]

يعني : قد عمَّرناكم عمراً طويلاً يكفي للتذكُّر والعودة فلم تعودوا ، ثم إن التعمير يُورث الضعف والوَهَن وعدم القدرة ، فأنت في أول الحياة عندك فتوة وقوة ونشاط بدني وذهني ، لكن مع الكِبَر تضعف البنية ، وتقلُّ القوة العضلية والعقلية ، ويعود الإنسان إلى الضعف الذي بدأ به وهو طفل صغير ، وكما قال تعالى : ﴿ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا .. (٧٠) ﴾ [النحل]

فإذا كنتم لم تعودوا ولم ترعووا في فترة القوة وسلامة العقل والتفكير ، أتعودون في فترة الهَرم والضعف والنسيان ؟

لذلك يقول هنا الحق سبحانه : ﴿ وَمَن نُّعَمِّرْهُ (٦٨) ﴾[يس] نطيل عمره ونَمُد له فيه ﴿ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ (٦٨) ﴾ [يس] الانتكاس : العودة إلى الوراء ، والرجوع إلى ما كنتَ عليه أولاً ، فَطُول العمر يعود بالإنسان إلى مرحلة الطفولة الأولى ، فهو نكسة في حقه حين يصير شيخاً هرماً لا يستطيع الحراك ولا الكلام ، وتأخذ ذاكرتُه في الضعف فينسى ويخرف ، فهو كالطفل تماماً يحتاج مَنْ يحمله ويُطعمه ويُزيل عنه الأذى .. الخ ، فهل في هذه الحال عودة ؟ وهل ينفع معها تفكُّر وتدبُّر ؟

﴿ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨) ﴾ [يس] يعني : أين عقولكم في هذه المسألة ، والحق سبحانه يسوقها بأسلوب الاستفهام ، ولا يأتي بها على سبيل

الإخبار ليجيبوا هم ويُقِرُّوا على أنفسهم بعدم التعقُّل .

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

نلحظ هنا نقلة في سياق هذه الآيات ، فما العلاقة التي نقلتنا من الكلام عن الآخرة وجزاء الكافرين المجرمين إلى الحديث عن سيدنا رسول الله ؟

نعرف أن المقاصد الأصلية للتديُّن هي أولاً : توحيد الله ، ومعنى التوحيد لله تعالى أن تشهد أنه واحد أحد ، ولكل من الوصفين معنى لا يؤديه الآخر ، فلكل منهما (ماصدق) ، فمعنى (واحد) أي : من حيث الوجود هو واحد لا فرد آخر معه .

أمَّا أحد فيعني أنه في ذاته سبحانه ليس مُكوَّناً من أجزاء ، فالإله أحَد في ذاته ، لم تجتمع عدة أشياء في تكوينه ، ذاته لا ترتكن إلى شيء ، فمثلاً حين تأخذ الشيء الواحد كالكرسي مثلاً ، الكرسي في وجوده كرسي واحد ، لكنه ليس واحداً ، لأنه مُكوَّن من عدة أشياء ، مُكوَّن من الخشب والمسامير والغراء و (البوية) .. الخ فهو واحد ليس أحداً ، أما الحق سبحانه فلاَ بُدَّ أنْ يُوصفَ بالوصفين معاً ، فنقول : هو سبحانه واحد أحد ؛ لأن لكل منهما معنىً .

ومسألة الواحدية مسألة عملية عقلية ؛ لأن الله تعالى أعلن أنه الإله الحق ، وأنه واحد لا شريك له ، وأنه هو الخالق وحده ، وهو الرازق ، وهو الذي يستحق وحده أن يُعبدَ ، هذه دعوى لم يَقُمْ لها معارض ، والدعوى تثبت لصاحبها إلى أنْ يدَّعيها آخر ، ونحن لم نَرَ أحداً ادَّعَى الخَلْق لنفسه .

فلو كان معه سبحانه إله آخر أو آلهة أخرى فأين هم ؟ لماذا لم يطالبوا بحقهم في هذه المسألة ؟ أو أنهم سكتوا عنها أو لم يَدْرُوا بها ؟ وعلى أيِّ حال من هذه الأحوال لا يصلحون لأَنْ يكونوا آلهة ؛ لذلك يناقش القرآنُ هذه المسألة بكلام منطقي :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) ﴾ [الإسراء]

إذن : فالتوحيد هو الأساس الأصيل للدين ، لكن لا أعرف بالعقل مطلوبَ الإله مني ، لابُدَّ أن يُبعَث لي رسول يخاطبني بمطلوب ربي مني ، إذن : لا بُدَّ من رسول . وهذا هو المقصد الثاني للدين . وخطاب الحق للخَلْق طاقة كمال مطلق والبشر نقص مطلق ؛ لذلك لابُدَّ في هذا الخطاب من واسطة تستطيع التلقِّي عن هذا الكمال المطلق ، وتستطيع التبليغ إلى الأقل كمالاً ، وهكذا تتدرج المسألة ، فالله تعالى يخاطب الملائكة ، والملائكة تخاطب الرسل ، والرسل يخاطبون الناس.

فلا بُدَّ من (الرسالة) وهي المقصد الثاني للدين ، والرسول هو الواسطة بين الخالق والخَلْق ، والرسول ليس مُبلِّغاً فحسب ، إنما مُبلِّغ وأُسْوة سلوك وتطبيق ، كما قال سبحانه : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ (٢١) ﴾ [الأحزاب] ولو كان الرسول مَلَكاً لما تحققتْ به الأسوة ، ولا يمكن أن أُحمل على مطلوب الرسول إلا إذا كان الرسول من جنسي .

لذلك يقول تعالى موضحاً هذه القضية : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤) ﴾[الإسراء] فيأتي الرد (قُلْ) أي رداً عليهم : ﴿ لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) ﴾ [الإسراء]

إذن : كيف نُنزل ملَكاً لبشر ؟ لو نزل الملَكُ على طبيعته النورانية ما رآه البشر ، ولابُدَّ أن يأتيهم في صورة بشرية ، ولظلَّتْ الشبهة قائمة : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]

فلا بد - إذن - من وسائط هي أشبه ما تكون بـ (الترانس) في عالم الكهرباء ، وهو أداة تأخذ من القوى وتعطي للضعيف دون أنْ تحرقه .

العنصر الثالث للدين هو الحشر ؛ لأن الرسالة جاءتْ لتحمل المنهج افعل كذا ولا تفعل كذا ، هذا المنهج من الناس مَنْ سيسير عليه فيفعل ما أمر به وينتهي عما نُهي عنه ، ومنهم مَنْ سينصرف عنه بل ويخالفه ، إذن : لابُدَّ من مَرَدٍّ يُثاب فيه المطيع ، ويُعاقَب فيه المخالف ، هذا المردُّ هو الحشر .

فالحق سبحانه تكلم عن التوحيد في قوله : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) ﴾[يس] وتكلم عن الحشر في قوله سبحانه : ﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ﴾ [يس]

والآن يتكلم عن العنصر الثاني وهو الرسالة فنقول عن رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ (٦٩) ﴾[يس] أي : نحن لا المجتمع ولا البيئة التي يعيش فيها ؛ لذلك كانت الأمية في رسول الله شرفاً ؛ لأنه لو لم يكُنْ أمياً لكانت ثقافته من الخَلْق .

أمَّا أميته فتعني أنه أخذ ثقافته وعلمه من الله ؛ لذلك كان من شرفه ﷺ أن يكونَ أمياً ، ومن شرف أمته أنْ تكون أمية ، لأنها لو كانت أمة متعلمة لقيل إن ما حدث في الجزيرة العربية ما هو إلا قفزة حضارية ، كما قالوا : لَمَّا نصرنا الله في حرب رمضان ورأينا

بأعيننا تأييد الله لنا ، ومع ذلك قالوا : نَصْرٌ حضارى .

فالحق سبحانه يقرر هذه الحقيقة : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴿٦٩﴾ ﴾[يس] لَـكِنَّا علمناه غير الشعر ، فرسول الله مُعلَّم نعم ، لكن مُعلَّم مِنْ مَنْ ؟ من ربه ، لم يأخذ شيئاً من البشر .

وقد يُظَنُّ أن الله لم يُعلِّمه الشعر ؛ لأن الشعر يحتاج إلى ثقافة لغوية وعلْم بالأوزان والقوافي ، ولا بُدَّ له من الحسِّ المرهف والأذن الموسيقية إلى آخر هذه الأدوات التى يحتاجها الشاعر وربما لم تتوفر هذه الأدوات لرسول الله كما أنها لم تتوفر لكثيرين غيره .

فيرد الله تعالى هذا الظن ، ويقول :﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴿٦٩﴾ ﴾[يس] يعني: لم نُعلمه الشعر لنقص فى إمكانياته ، فلو أراد أنْ يقول شعراً لَقَالَ الشعر على أحسن مَا يُقَال ، لكنْ لا ينبغى له ذلك ؛ لأن مهمة الرسول خلاف مهمة الشاعر ، فأغلب الشعر فى الكذب وفى الشر ، فإذا دخل فى الخير ضَعُفَ ولاَنَ ، ذلك لأن طبيعة الشعر أن ينطلق ويُحلِّق فى الخيال ، وأن يقول الشاعر ما يحلو له أياً كانت غايته ؛ لذلك قالوا : أعذب الشعر أكذبه .

وكثيراً ما نرى الشعراء أصحاب القيم والأخلاق يصعب عليهم الجمع بين مطلوب الإيمان منهم ، وما تدعوهم إليه ملَكة الشعر عندهم ، فلا يملكون إلا أنْ يحصروا أنفسهم فى شعر القيم والأخلاق والفضائل ، ويبتعدوا عن شعر الهجاء والغزل .

والشاعر المهجرى الذى عُرِف عنه التقوى والصلاح ، فحاول أنْ يجمع بين هذه التقوى والموهبة الشعرية لديه ، فقال :

مَولاَى إنِّى قَدْ عَصَيْتُكَ عَامِداً ... لأَرَاكَ أجْمَلَ مَا تكُونُ غَفُوراً
وَلَقَدْ جَنَيْتُ مِنَ الذُّنُوبِ كِبَارَهَا ... ضَنّاً بِعَفْوِكَ أنْ يكُونَ صَغِيراً

فأجاد فى الأولى ، ولم يُوفَّق فى الثانية .

وسيدنا حسان بن ثابت ، كان شاعراً مجيداً فى الجاهلية ، فلما أسلم قالوا له : لان شعرك يا أبا الحسام . فقال : الشعر نكد يَقْوى فى الشر[1] ، فإذا دخل فى الخير ضَعُفَ ولاَنَ .

فقوله تعالى : ﴿وما ينبغى له (٦٩)﴾ [يس] دفع عن رسول الله الاتهام بأن طبيعته ليست شاعرية ، أو أنه غير مُرْهف الحس ، وأن أذنه غير موسيقية ، إلى آخر هذا الهراء ، وكيف يُتَّهم بهذا مَنْ علَّمه الله ، وباشرتْ أذنه الوحى ؟

أما القول بأن رسول الله ﷺ قد أنشد الشعر ، نعم أنشد رسول الله الشعر ، لكن لم ينشده مستقيماً ، بل خالف فيه حتى لا يظلَّ البيتُ على استقامة وزنه ، فلما أنشد[2] :

سَتُبْدِى لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً   وَيأتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

قال :

سَتُبْدِى لَكَ الأيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلاً   وَيأتِيكَ مَنْ لَم تُزَوِّد بالأَخْبَارِ[3]

وورد أنه ﷺ قال[4] : « أصدق كلمة قالها لبيد :

(١) ذكر ابن قتيبة الدينورى فى « الشعر والشعراء » هذه القولة من قول الأصمعى . ثم ذكر حسان بن ثابت فقال : هذا حسان بن ثابت فَحْل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط شعره .

(٢) عن عائشة قيل لها : هل كان النبى ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان يتمثل بشعر ابن رواحة ويتمثل ويقول : « ويأتيك بالأخبار من لم تزود » أخرجه الترمذى فى سننه (٢٨٤٨) ، وأحمد فى مسنده (١٥٦/٦) .

(٣) كان رسول الله يتمثل بهذا البيت ولا يقيم وزنه ، وهو بيت لطرفة بن العبد ، وقال أبو عبيد بن سلام فى كتاب « الأمثال » : روينا فى حديث مرفوع أنه ﷺ تمثل به فقال : « ويأتيك من لم تزود بالأخبار »

(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦١٤٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٢٥٦) كتاب الشعر (روايات ٢ - ٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

أَلاَ كُلُّ شيءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلُ وَكُلُّ نَعيمٍ زَائِلٌ لاَ مَحَالَةَ

والصواب :

أَلاَ كُلُّ شيءٍ مَا خَلاَ اللهَ بَاطِلٌ وَكُلُّ نَعيمٍ لاَ مَحَالَةَ زَائِلُ

إذن : كان سيدنا رسول الله يكسر وزن البيْت ، حتى لا يقال إنه أنشد الشعر ، مع أن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ ﴿٦٩﴾ ﴾[يس] لكن لم يَنْه رسول الله عن إنشاده ، فكأن رسول الله يحتاط للأمر ، فيقول ولا أنشده أيضاً ، ليكون بعيداً عنه كلية .

هذا عن الإنشاد ، أما عن قوله الشعر بنفسه ، فيرى البعض أنه ﷺ قال شعراً مثل قوله في غزوة حنين[1] :

أَنَا النَّبِيُّ لاَ كَذِب أَنَا ابْنُ عَبْدِ المطَّلِب

نعم جاء هذا القول من رسول الله موافقاً لوزن شعريّ يسمونه الرَّجز ، فهو قول صادف وزناً شعرياً وفرْق بين نَظْم الكلام وإخضاعه للوزن والقافية ، وبين كلام يصادف وزناً دون قصد ، وإلا ففي القرآن نفسه آيات صادفت وزناً شعرياً ، فهل نقول إنها شعر ؟ واقرأ مثلاً :

﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. ﴿٩٢﴾ ﴾ [آل عمران]

﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف]

﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحجر]

هذه وغيرها آيات صادفت وزناً شعرياً ، لكنها لا تُسمَّى شعراً ؛ لأن الشعر قول موزون مُقفًّى قصداً .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٧٦) كتاب الجهاد ، والبخاري في صحيحه (٤٣١٧) من حديث البراء بن عازب ، وذلك أن رجلاً سأله : أفررتم عن رسول الله يوم حنين ؟ فقال البراء: ولكن رسول الله لم يفر ، وكانت هوازن يومئذ رماة ، وإنَّا لما حملنا عليهم انكشفوا ، فأكببنا على الغنائم فاستقبلونا بالسهام ، ولقد رأيت رسول الله على بغلته البيضاء ، وإن أبا سفيان ابن الحارث آخذ بلجامها وهو يقول : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » .

الحق سبحانه حكى عن رسوله أن الكفار اتهموه فقالوا : ساحر وشاعر وقالوا : كاهن ، لكن القرآن رَدَّ عليهم فى مسألة الشعر ، ونفى أن يقول الرسول شعراً : ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ (٦٩)﴾[يس] ولم ينْفِ عنه السحر ولا الكهانة ، لماذا ؟

قالوا : لأن مهمة رسول الله بلاغ القرآن عن الله ، والقرآن من جنس الأساليب الراقية ، وأقرب شيء إليه الشعر لذلك نفاه القرآن ، أما السحر فطلاسم وكلام لا معنى له ، فلم يَقُلْ : وما علمناه السحر .

ولو أن لهذه الكلمة مدلولاً لكان الرد عليها سهلاً ، فإذا كان محمد ساحراً سحر المؤمنين به ، فلماذا لم يسحركم أنتم أيضاً ، إذن . تكذيبكم له وكفركم به أدَلُّ شيء على أنه ليس ساحراً ، وهل للمسحور إرادة مع الساحر .

وفى قولهم كاهن ردٌّ عليهم : ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ (٤٢)﴾ [الحاقة] لأن قَوْلَ الكاهن كلام مسجوع سَجْعاً بارداً ، والقرآن خلاف هذا كله ، ثم إنكم أهل فصاحة وبيان ، وأنتم أعلم الناس بالأساليب والتمييز بينها ، فهل يخفى عليكم أنْ تفرقوا بين القرآن وغيره من الكلام وأنتم أمة كلام ، وتجعلون للكلمة أسواقاً ومعارض ؟

ثم يُبيِّن الحق سبحانه العلة فى عدم قول الرسول للشعر ، فيقول سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩)﴾[يس] إن هنا بمعنى ما النافية . يعنى : ما هذا القرآن إلا تذكير لمن يعقل وقرآن مبين . أى بيِّن واضح يُتلَى ، وقد يكون له نَغَم ألذّ فى أذن الوَرِع من الشعر ، لذلك بعض الناس يسمع القرآن فتأخذه نشوة وإعجاب ، ولو سألته تجده لا يعرف ما يحدث له ، لماذا ؟

قالوا : لأن الذى يتكلم الله ، والذى يسمع خلق الله ، فالله تعالى

يتكلم بالكلام الذى يؤثر ويستميل المخلوق لله الذى ما يزال على فطرته التى فطر الناس عليها ، فإنْ خرج عن هذه الفطرة لم يؤثر فيه القرآن هذا التأثير ، ذلك لأن القرآن واحد أمَّا الفطرة المستقبلة فتختلف .

والحق سبحانه يشرح لنا هذه المسألة فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (١٦) ﴾ [محمد] فأمره الله أنْ يردّ عليهم : ﴿ قُلْ هُوَ (٤٤) ﴾ [فصلت] أى : القرآن ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى (٤٤) ﴾ [فصلت]

ذلك لأن فاعلَ الشىء غير قابله ، وسبق أن مثَّلْنا لذلك بكوب الشاى الساخن تنفخ فيه ليبرد ، وفى الشتاء تنفخ فى يديك لتُدفئها ، فالنفخة واحدة ، لكن المستقبل لها مختلف ، كذلك حال الناس فى تلقِّى القرآن ، فمَنْ تلقى كلام الله بفطرة سليمة فهمه وتأثر به ، ومَنْ تلقى كلام الله وهو منشغل عنه أُغْلق عليه ، فلم يفهم عن الله ولم يتأثر بكلامه .

لذلك نرى بعض الناس من غير العرب لا ينطق بكلمة عربية ، لكنه ساعة يسمع أو يقرأ كلام الله تجد له انفعالَ مواجيد ، وتدمع عيناه ، لماذا ؟ لابد أن شيئاً فى تكوينه تأثر بهذا الأسلوب .

وإذا كان الحق سبحانه أوحى إلى الجماد فانفعل لكلامه ، وأوحى إلى الحيوان ففهم عنه ، فمن باب أوْلَى يكلم الإنسان العاقل بكلام يصادف طبيعته ويؤثر فيه ، فيتأثر وينفعل .

ثم يقول سبحانه مبيِّناً مهمة هذا الذِّكْر وهذا القرآن المبين : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا (٧٠) ﴾ [يس] نعم ، سماهم أحياء وخطابك لهم دليل على أنهم أحياء ، لكن أحياء الحياة المادية التى تنتهى بالموت ، إنما

هناك حياة أخرى بالعقل والفكر وبالقيم الروحية ، وهذه لا يظهر أثرها إلا بعد الموت .

والناس جميعاً يشتركون في الحياة المادية ؛ لذلك يُسمَّى العنصر الذي يدخل على الحياة المادية لتأخذ طابع الحياة الروحية (الروح) ، فالروح روح من أمره سبحانه ، وبعد أنْ يعطيه الروح التي تحيا بها المادة يعطيه الروح التي تحيا بها القيم ، وحياة القيم قُلْنا : إنها ترتقي بك لتعطيك قيمة في الآخرة ، وقد تعطيك في الدنيا راحة البال واستقامة واستقراراً ، لكن تظل الحياة الحقيقية في الآخرة .

فإذا شاء الله أعْطى الإنسانُ حياةً موصولة كما أعطى سيدنا يحيى ، فلما دعا سيدنا زكريا ربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)﴾ [مريم]

فأجابه الله : ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧)﴾ [مريم]

إذن : بشَّره الله بالغلام ، وسمَّاه اسماً يدل على أنه سيعطيه حياة موصولة ؛ فحين تسمي ولدك ذكي مثلاً تفاؤلاً أن يكون ذكياً ، أو نبيل تفاؤلاً أن يكون نبيلاً ، لكن أتملك أنت أنْ تحقق رغبتك هذه .

لذلك قال الشاعر :

وَسَمَّيْتُهُ يَحْيَى لِيحيَا فَلَمْ يَكُنْ ... لِرَدِّ قَضَاءِ اللهِ فِيهِ سَبِيلُ

نعم ، أنت سميتَ ، لكنك لا تهب الحياة ، وواهبُ الحياة هو الله ، فإذا سَمَّى الله يحيى فلا بُدَّ أن يحيا حياة موصولة ؛ لذلك مات سيدنا

يحيى شهيداً ، لتتصل حياته الدنيا بحياة الآخرة ، وليحقق فيه ما أراده الله .

ومعنى : ﴿ وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) ﴾[يس] أي : يستحق لهم العذاب ؛ لأنهم لم ينتفعوا بالإنذار .

ثم يتحدث الحق سبحانه بعد ذلك عن بعض آياته في الكون :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾

هنا نقلهم الحق سبحانه إلى مجال المادة التي لا يستطيعون إنكارها ، وقلنا : إن الرؤية في ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا (٧١) ﴾ [يس] يصح أن تكون رؤية بصرية أو رؤية علمية ﴿ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا (٧١) ﴾[يس] قوله ﴿ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا (٧١) ﴾[يس] ينفي المشاركة يعني : هذه صنعتنا وخلْقنا لم يشاركنا فيه أحد ، ولم يعاوننا فيه أحد ، بل هو خَلْق لله وحده .

وكلمة ﴿ أَنْعَامًا (٧١) ﴾[يس] هي الأنعام التي ذُكرت في سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) ﴾ [الأنعام]

وهي البقر والإبل والغنم والماعز ، وسميت أنعاماً لأنها النعمة

البارزة فى أشياء متعددة ، ننتفع بها فى حياتنا ، فنأخذ منها الصوف والوبر والجلود والألبان ، ونحمل عليها الأثقال ، وهذه كلها نعَم واضحة فى البيئة العربية .

ثم إن خَلْق الأنعام فى ذاته نعمة . وقوله سبحانه ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١)﴾[يس] نعمة أخرى ؛ لأن هناك حيوانات أخرى متوحشة لا تُملَك إلا بالصيد وبالقوة ، وهى قليلة النفع إذا ما قُورنت بالمستأنسة التى ينتفع بها الإنسان ، فيسوقها ويركبها ويحلبها .

ثم نعمة التذليل ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ (٧٢)﴾[يس] وإلا فإذا خلقها الله ولم يُذلِّلها ما استطاع الإنسانُ تذليلها ، ولا الاستفادة منها ، فالجمل مثلاً رغم ضخامة حجمه وقوته ، إلا أن الطفل يسوقه ويُنيخه ويركبه ، كيف ؟ لأن الله ذلَّله وسخَّره ، أما الثعبان فمع صغَر حجمه إلا أننا نخافه ونهرب منه ؛ لأن الله لم يُذلِّله لنا ، بل البرغوث فى الفراش يشاغبك ويقلقك ، وليس لك سلطان عليه .

إذن : فخَلْق هذه الأنعام فى ذاته نعمة ، وتملُّكها نعمة ، وتذليلها نعمة ، وهذه النِّعم للمؤمن والكافر على السواء ، لأنها من عطاء الربوبية . إذن : كان عليهم أن يحترموا هذه ، وأن يسألوا أنفسهم : كيف نكفر بالله وهو يوالى علينا كل هذه النِّعَم ، وليت الأمر يقف عند كفرهم هم ، إنما يتعدى ذلك حين يمنعون الرسل من نَشْر دعوتهم .

وقوله سبحانه : ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ (٧٢)﴾[يس] أى : ما يُركب من الدواب . ورَكُوب مثل قولنا : شاة حَلُوب يعنى : تُحلب ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢)﴾[يس] أى : من لبنها وهى حية ، واللبن نأكل منه الجبن والزبدة .. الخ ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ (٧٣)﴾[يس] مشارب جمع مشرب . والمراد القِرْبة التى كانوا يشربون بها ، وتُصنع من جلود

هذه الحيوانات أو يُراد بالمشارب ما يُشرب من ألبانها ، واللبن وإنْ كان يُشرب من الأنثى إلا أن الذكر سبب فيه ، فلولا أنها حملتْ ما كان منها اللبن .

ثم تُختم هذه النِّعَم بقوله سبحانه ﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾[يس] هكذا بأسلوب الاستفهام ليجيبوا هم ، فالله لا يقول لهم : اشكروني على هذه النِّعم إنما يقررهم : أهذه تستوجب الشكر أم لا ؟ ثم لو شكرتم فسوف تتعرضون لعطاء آخر وزيادة :

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ (٧) ﴾ [إبراهيم]

إذن : كان يجب عليهم أن يشكروا الله على نعمه ، وأن تدعوهم هذه النِّعَم إلى الإيمان بهذا الإله المنعم الذى يُوالى عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، ولمَ لا والإنسان حينما يكون موظفاً يتقاضى أجره كل شهر من صاحب العمل لابُدَّ أن يُحيِّيه كل يوم ويتودد إليه ، فالمنعم بكل هذه النعم أفلا يستحق أن يُعبد وأنْ يُشكر ؟

وليت الأمر ينتهى بهم عند حَدِّ عدم الشكر ، إنما يحكى القرآن عنهم فيقول :

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾

عجيبٌ أن يحكى القرآن عنهم هذا بعد أن شرح اللهُ لهم آياته التى تثبت وجوده الأعلى ووحدانيته الكبرى ، ففى الآفاق حول الإنسان آيات ، وفى نفسه آيات ، فمَن انصرف عن الأولى أو غفل عنها ، فكيف يغفل عن الأخرى ، وهى فى نفسه وذاته التى لا تفارقه .

لذلك قال سبحانه : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت]

ومع ذلك ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً (٧٤) ﴾[يس] أي : عبدوها من دون الله ، لماذا ؟ ﴿ لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ (٧٤) ﴾[يس] صحيح أن الإنسان يتخذ إلهاً أعلى منه لينصره في شدته ، لكن إذا كان هذا الإله الذي ترجع إليه في الشدة هو الذي يرجع إليك ويحتاجك : لتصلحه إنْ كسرتْه الريح ، أو أطاحت به العوارض ، فإن وقع تقيمه ، وإنْ كُسرت ذراعه أصلحتها ، وإنْ جاء السيل جرفه ، وألقى به في الوحل ، إذن : كيف يُتَّخذ هذا إلهاً ؟

وتعرفون قصة سيدنا إبراهيم لما حطم الأصنام سأله قومه : ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ (٦٣) ﴾ [الأنبياء]

وهكذا أوقفهم نبي الله إبراهيم على كلمة الحق التي لا يستطيعون إنكارها ، وهي أنهم جمادات صمَّاء لا تنطق ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ﴾ [الأنبياء] لكن سرعان ما تنبهوا إلى خطورة هذا الاعتراف ، فعادوا إلى ما كانوا عليه من المكابرة والعناد ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ (٦٥) ﴾ [الأنبياء] عندها رأى إبراهيم أنْ يجابههم بهذه الحقيقة التي يحاولون الانفلات منها ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧) ﴾ [الأنبياء]

لذلك يرد الله عليهم . ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ (٧٥) ﴾[يس] فهم لا ينصرون عابديهم ، إنما العابدون هم الذين ينصرونهم ، ويوم القيامة سيجمعهم الله معاً ، لا يُحشر العابد بدون المعبود لتكون المواجهة ، فلو حُشر العابد وحده لانتظر معبوده

ينصره ويدافع عنه ، إنما يُحشَر الجميع معاً ، كما قال سبحانه : ﴿ مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات]

وقال سبحانه : ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات] أي : أحضروهم معهم في النار ، العابد والمعبود ، والمعنى أن هذه الأصنام ستكون وقوداً للنار التي يُعذَّب بها العابدون .

وبعد ذلك يعود السياق إلى رسول الله ، الذي يكابرون فيه ويعاندونه :

﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يُسلِّي رسوله ﷺ ويُطيِّب خاطره ، والتسلية لا تكون إلا من مُسلٍّ لمسلًّى ، المسلِّي هو الذي أرسل المسلَّى ، فلابد أن يجامله حتى في الشدة ، وسنة الله في الرسل جميعاً أن الله ما أرسل رسولاً وخذله أبداً ، وما كانت الشدة في رحلة وموكب الرسالات إلا تصفيةً لنفوس المؤمنين ، وتمحيصاً لهم ، وتصحيحاً للعقيدة ، حتى لا يبقى إلا المؤمن الحق الذي يتحمل مسئولية الرسالة والدفاع عنها .

لذلك يقول سبحانه مخاطباً نبيه ﷺ ﴿ فَلا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ (٧٦) ﴾ [يس] لا تحزن يا محمد ، والحزن : أسف النفس على عدم تحقيق ما يتمنى الإنسان وطُروء ما يفسد ، فإنْ حَزِن رسول الله وانقبضتْ نفسه ، فمَنْ يُسلِّيه ؟ ومَنْ يُخفِّف عنه ؟ يُسلِّيه الذي أرسله ؛ لأنه سبحانه يحصي عليهم كل شيء ، ويعلم ما يُسِرُّون وما يعلنون .

﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) ﴾ [يس]

لكن ، ما الذي أسَرَّهُ هؤلاء ؟

الذين واجهوا رسول الله كانوا قسمين : قسم واجهه بشجاعة ، فأعلن بلسانه ما في قلبه من أنه لا يؤمن به ، وهؤلاء هم الكَفَرة ، وقسم آمن بلسانه وكتم الكفر في قلبه ، وهؤلاء هم المنافقون ، فمعنى ﴿مَا يُسِرُّونَ ٧٦﴾[يس] أي : من النفاق ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٦﴾ [يس] من الكفر . أو﴿مَا يُسِرُّونَ ٧٦﴾ [يس] من الإيمان الحقيقي بك ، وأنك رسول وأمين وصادق ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ ٧٦﴾ [يس] من الكفر ، بدليل قوله تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ١٤﴾ [النمل]

بدليل أنهم لم يُكذِّبوا القرآن ، ولم يعترضوا عليه ، إنما اعتراضهم أنْ ينزل على محمد بالذات ، لذلك قالوا كما حكى عنهم القرآن : ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف]

وبدليل أنهم كانوا يأتمنون رسول الله على ودائعهم وأماناتهم ، هذا كله دليل على إيمانهم برسول الله ، لكنهم مع ذلك أعلنوا كلمة الكفر خوفاً على السلطة الزمنية والمنزلة والسيادة والجبروت ، وقد جاء الدين الجديد ليسلبَ منهم هذا كله ، ويُوقف تسلُّطهم على الضعفاء وعلى الفقراء .

إذن : لا بُدَّ أن يصادموا رسول الله ، وأن يقفوا في وجه دعوته ، بكل قواهم رغم إيمانهم بصدقه في قرارة أنفسهم ؛ لذلك كانوا في المدينة يستعدون لتنصيب ملك منهم[1] فلما دخلها رسول الله واجتمع الناس عليه انفضَّتْ مملكتهم ، وزالتْ قبل أنْ تُولد ، ذهبت السلطة الزمنية التي كانت للكفار كما ذهبت السلطة من أيدي اليهود ، وكانوا أهلَ العلم وأهلَ المال وأهلَ القتال ، ذهب كل هذا يوم علَتْ كلمة الإسلام .

---

(١) ذكره ابن هشام في السيرة النبوية (٢/٢١٦) أن قوم ابن أبي أُبيّ قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله ﷺ وهم على ذلك ، فامتلأ قلبه حقداً وعداوة ، ودخل في الإسلام كارهاً منافقاً حاقداً .

أو : يُرادُ بما يُسِرُّون وما يعلنون أن عمل الإنسان حصيلة أمرين : شيء أو حاجة تختمر في النفس تُعَدُّ سراً وعقيدة تدفعه إلى العمل فإنْ ترجمَتْ إلى عمل وبرزتْ للوجود صارتْ علانية ، وعليه يكون المعنى : نعلم ما يُسِرُّون من عقائدهم الفاسدة ، وما يعلنون من فعْل القبائح .

لكن أيمتنُّ الله بعلم الشيء دون فائدة من وراء هذا العلم ؟ المسألة لا تنتهي بمجرد العلم ، إنما لابُدَّ أنْ يترتب على هذا العلم جزاءٌ يعاقب الكافر العاصي ، ويُثيب المؤمن المطيع ، إذن : تدبَّروا أمركم ، واحذروا ما يترتب على هذا العلم من آثار ؛ لأن علم الله ليس (فنطزية) علم ومعرفة .

لذلك قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (٦٥) ﴾ [يونس] البعض فهم أن كلمة ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا (٦٥) ﴾ [يونس] هي قول الكافرين ، لكن كيف يقولها الكافر ، ليتهم قالوا إنما قالها الله تذييلاً لقوله : ﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ (٦٥) ﴾ [يونس] لماذا ؟ لأن العزة لله جميعاً .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن آياته في الآفاق في الأرض وفي الشمس والقمر والفُلْك والدواب والأنعام يتكلم سبحانه عن آياته في النفس الإنسانية ، فإذا كانت الآيات في الآفاق من حولهم لم تلفتهم إلى الله ، فهذه هي آياته في ذات أنفسهم التي لا تفارقهم :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ (٧٧) ﴾ [يس] بمعنى يعلم لأن الإنسان لم يَرَ عملية الخَلْق فى نفسه ، فإنْ قلتَ : فمَن الذى أعلمه ؟ ومَن الذى عرَّفه أن الله هو الخالق ؟ قالوا : عرف الإنسانُ هذه الحقيقة ؛ لأن فى الكون كمالاً لم يدَّعه أحدٌ من الخَلْق ، ثم فوجئت الدنيا برسول الله يخبر بأن الله تعالى هو الخالق ، ولم يعارض أحد ، فهذه إذن دَعْوى ليس لها معارض ولا مناهض ، مع أن الإنسان كثيراً ما يدَّعى ما ليس له ، لكن هذه الدعوى بالذات لا يستطيع أحد أن يدعيها لنفسه .

والقاعدة أن الدعوى تثبت لصاحبها ما لم يَقُمْ لها معارض ، وإلا لو أن هذه الدعوى لم تسلم للخالق عز وجل ، فأين الخالق ؟ لماذا لم يعارضها ، ولماذا لم يطالب بحقه فى الخَلْق ؟ إما أنه جَبُنَ عن المواجهة ، أو أنه لم يَدْرِ بهذه الدعوى ، وفى كلتا الحالتين لا يستحق أن يكون إلهاً .

ونلحظ على سياق هذه الآيات أن الحق سبحانه قال فى الآيات السابقة : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) ﴾[يس] وهنا قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ (٧٧) ﴾[يس] فخاطب الإنسان ، ولم يخاطب الجماعة ، قالوا : لأن هذه الآية نزلت فى أُبَىّ بن خلف[1] حين أمسك بعظم بَالٍ ، وراح يُفتِّته أمام رسول الله ويقول : أتزعم أن ربك يحيى هذا مرة أخرى ؟ قال : « نعم يُحييك ، ويُدخلك

(١) وردت روايات عدة فى سبب نزول هذه الآية وما بعدها :
- نزلت فى أبىّ بن خلف . وهو قول مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدى وقتادة .
- نزلت فى العاص بن وائل . وهو قول لابن عباس .
- نزلت فى عبد الله بن أبىّ بن سلول . وهو قول لابن عباس . قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٥٨١) عن القول الأخير : « هذا منكر ، لأن السورة مكية وعبد الله بن أبىّ بن سلول إنما كان بالمدينة ، وعلى كل تقدير سواء كانت هذه الآيات قد نزلت فى أُبىّ بن خلف أو العاص بن وائل أو فيهما ، فهى عامة فى كل من أنكر البعث » .

النار » ، أو يُراد بالإنسان مطلق الإنسان ، فهى لكل مُكذِّب بالبعث ممَّنْ هم على شاكلة أُبيّ .

وقوله سبحانه : ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ﴿٧٧﴾ ﴾[يس] العلم التجريبى لم يصل إلى شيء فى مسألة الخلْق هذه إلا مؤخراً ، يحاول على استحياء كشف بعض أسرار خلْق الإنسان مما لم نكُنْ نعرف عنها شيئاً من قبل ، والنطفة هى الجوهر والميكروب أو الجرثومة الفعَّالة التى تسبب الإخصاب حين تصل إلى البويضة ، وهذه النطفة تسبح فى سائل هو المنى وتعيش فيه ؛ لذلك قال تعالى فى آية أخرى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ﴾ [القيامة]

وقد أثبت العلم التجريبى الحديث أن النطفة هى المسئولة عن تحديد الذكورة أو الأنوثة ، والبويضة ما هى إلا وعاء فقط . إذن : لا دَخْلَ للمرأة فى هذه المسألة ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [القيامة] أى : من النطفة ، وقلنا : إن من العجيب أن المرأة العربية قديماً فطنَتْ إلى هذه الحقيقة التى لم يتوصَّل إليها العلم إلا حديثاً .

أما حديث النبى ﷺ فى هذه المسألة : « إذا غلب ماءُ الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه ، وإذا غلب ماء المرأة نزع الولد إلى أمه »[1] فهموا من هذا الحديث أن تحديد الذكورة أو الأنوثة يتوقف على الماء الذى يسبق ، لكن حين نتأمل اللفظ نفسه ، فكلمة (غلب) تدل على

(١) هذا الحديث جواب من رسول الله على سؤال من عبد الله بن سلام : ما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه ؟ فقال ﷺ : « أما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد ، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد » . فقال ابن سلام : أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٩٣٨) من حديث أنس . وعند مسلم فى صحيحه (٣١١) كتاب الحيض من حديث أم سليم : « إن ماء الرجل غليظ أبيض ، وماء المرأة رقيق أصفر ، فمن أيهما علا أو سبق يكون منه الشبه » .

الغلبة والسباق ، والسباق لا يكون إلا لعناصر تخرج من نقطة واحدة ، وتنطلق في اتجاه واحد ، إذن : فهما غير متقابلين ، فمعنى يغلب يعني يسبق .

وقلنا : إنهم الآن تنبهوا إلى أن البويضة حين تخرج من المرأة تُحدث تغييراً كيماوياً في تكوين المرأة يُسبِّب ارتفاعاً في درجة الحرارة وتغيُّراً في المزاج وفي نبضات القلب ؛ لذلك اخترعوا ساعة تقيس هذه التغييرات ، وتعرف بها المرأة موعد نزول البويضة .

والنطفة ميكروب متناه في الصِّغر ، لا يُرىَ إلا بالمجهر ، ورحم الله العقاد[1] الذي قال كلمة موجزة تصور هذا الصِّغَر ، فقال : إن أنسال العالم كله - يعني النطف التي كوَّنتهم - يمكن أن توضع في نصف كُسْتبان الخياطة . فسبحان الخالق الذي يُخرج من هذه النطفة المتناهية الصِّغر إنساناً كاملاً ، ويُنشيء منها العظام الصلبة والعضلات نصف الصلبة والرَّخْوة ، وأنشأ منها الغضاريف والأعصاب والدم السائل والمخ .. الخ .

هذا في الجسم المادي ، والأعجب منه ما يحتويه هذا الجسم من العقل الذي يفهم ، واللسان الذي ينطق ويتذوق ، والعين التي ترى ، واليد التي تبطش ، والأنف الذي يشم ، والأنامل التي تلمس ، والرِّجْل التي تسعى .

هذه كلها من النطفة ، هذا الميكروب الذي لا يُرى بالعين المجردة ، هذه النطفة التي عبَّر عنها القرآن بالماء المهين ، مهين لأن

---

(١) هو : عباس محمود العقاد ، إمام في الأدب ، من المكثرين كتابة وتصنيفاً ، أصله من دمياط ، انتقل أسلافه إلى المحلة الكبرى وكان أحدهم يعمل في « عقادة » الحرير ، فعرف بالعقاد . أمه كردية . ولد عام (١٨٨٩ م) في أسوان ، توفي بالقاهرة عام ١٩٦٤م عن ٧٦ عاماً ودُفن بأسوان . [الأعلام للزركلي ٣/٢٦٦]

الإنسان يتبوله ويخرج من مجرى البول ، ويُلقى فى دورات المياه مع القاذورات ، وإن أصاب ملابسك لا بُدَّ أن تُغسل . ومن هذا الماء المهين يُخْلق الإنسان ، بل ويصل إلى أعلى مراتب الطغيان والجبروت ، كيف ؟

قالوا : لأن الإنسانَ له صفات حسنة فى ذاته ، ومواهب يحب أن يظهرها ، فإنْ كان مع أحبابه أعجبه شكله الجميل أو ماله أو ذكاؤه .. الخ ، فيحاول أن يُبيِّن هذه المواهب لهم ، فإذا عُودى كانت له مواهب أخرى فى أعدائه ، ومع العدو يُجنِّد الإنسان كل مواهبه لينتصر على عدوه ، هذه مواهب فى الغضب وفى الخصومة والجدال .

لذلك قال أحدهم :

وكم مِنْ نِعْمَةٍ لله فِىَّ حَمَدْتُها ... يُجَمِّعُها فــىَّ مَواهبُ ثَلاث

أولاهُما لنَفْسى وثانيتهما لأحْبَابى وأصْحَابى ... وثالثهما لخصْمى

هذا كله معنى ﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾[يس] يعنى . بعد أنْ خلق الإنسان من هذه النطفة ومن هذا الماء المهين فوجئنا بأنه ﴿ خَصِيمٌ (٧٧) ﴾[يس] يعنى عدو لدود ﴿ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾[يس] يعنى : يبين عن مواهب العداء عنده إبانةً واضحة ، والإنسان لا يكون مُبيناً لغيره إلا إذا بَانَ الشىء فى نفسه هو ؛ لأن فاقد الشىء لا يعطيه ، فالمدرس الفاشل هو الذى لا يستطيع أن ينقل المعلومة لتلاميذه ؛ لأن المعلومة غير واضحة عنده ، ولو كانت المعلومة واضحة فى ذهنه لاستطاع أنْ ينقلها بأىِّ أسلوب .

إذن : المعنى ﴿ مُّبِينٌ (٧٧) ﴾[يس] يُحسن الإبانة عَمَّا فى نفسه ؛ لذلك تقول : أبنتُ لك لأنها بانت عندى ، وأعلمتُك لأنها عُلمت عندى ، وأفهمتُك لأننى فهمتُ ، فهما إذن موهبتان ، والإنسان ترتقى مواهبه ويجند كل صفاته فى الخصومة لا يدخر شيئاً منها ، ففى الخصومة

يُظهر ما عنده من المال أو الشجاعة أو الحيلة .. الخ .

وعجيبٌ أن هذا كله كامن في النطفة ، وعجيبٌ أيضاً أن ينقل الإنسانُ هذه الخصومةَ من ذات نفسه ، ومن خصومته لأعدائه إلى خصومة ربه وخالقه

لذلك قال تعالى بعدها مُصوِّراً هذه الخصومة لا مع أُبَيّ سبب نزول الآيات ، إنما مع كل مَنْ هو على شاكلة أُبَيّ :

﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ﴾

تحدَّثنا عن ضرب المثل وقُلْنا : الضرب إيقاع جسم على جسم بعنف ، ويُشترط فيه أن يكون الضاربُ أقوى من المضروب ، وإلا كانت النتيجة عكسية ، ومن ذلك قول الرافعي[1] رحمه الله :

أيَا هَازِئاً مِنْ صُرُوفِ القَدَرِ ... بِنْفسِكَ تَعْنُفُ لاَ بِالقَدَرْ

وَيَا ضَارِباً صَخْرةً بِالعَصَا ... ضَرَبْتَ العَصَا أَمْ ضَرَبْتَ الحَجَرْ ؟

كذلك ضَرْب المثل هو إيجاد شيء يُوقع على شيء ، ليبين لك الأثر الحاسم الفعَّال ، فحين تشكّ مثلاً في شيء يُوضِّحه لك بمثَل لا تشك فيه ، فيُقرِّبه إلى ذهنك ، ومن ذلك قوله تعالى لما أراد أنْ

(١) هو : مصطفى صادق الرافعي ، عالم بالأدب شاعر ، أصله من طرابلس الشام ، ومولده في بهتيم بمنزل جده لأمه (عام ١٨٨١م) وتوفي بطنطا عام (١٩٣٧م) ، شعره نقي الديباجة في أكثره ، ونثره من الطراز الأول ، له « وحي القلم » ، « ديوان شعر » ، « تاريخ آداب العرب » .

يُوضِّح لنا بطلان الشرك، والفرق بينه وبين التوحيد، قال سبحانه:
﴿ ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً[1] لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (٢٩) ﴾ [الزمر]

نعم، لا يستوي عبد يتنازعه عدة أسياد، وعبد ملْك لسيد واحد، كذلك لا يستوي التوحيد والشرك.

فقوله تعالى: ﴿ وضرب لنا مثلاً (٧٨) ﴾ [يس] أي: أبيّ بن خلف، والمثل الذي ضربه أنْ أخذ عَظْماً قد بلى، وراح يُفتِّته أمام رسول الله وهو يقول: أتزعم يا محمد أن ربك سيحيي هذا، بعد أنْ صار إلى ما ترى؟ وإنْ كانت الآيات نزلت في أُبيٍّ، إلا أنها لا تقتصر عليه، إنما تشمل كل مُكذِّب بالبعث، مُنكر لهذه القضية

ومعنى ﴿ ونسي خلقه (٧٨) ﴾ [يس] يعني: لو تذكَّر خَلْقه هو، وتأمل في ذات نفسه وجد الدليل على ما يُكذِّب به؛ لأن الله خلقك من العدم، فصار لك وجود، فإذا متَّ بقيتْ منك هذه البقايا التي تُفتِّتها منثورة في الأرض، ومعلوم بحسب ما تفهمه العقول أن الإيجاد من موجود أهون من الإيجاد من العدم ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه (٢٧) ﴾ [الروم]

الحق سبحانه في هذه الآية يخاطبنا على قَدْر عقولنا ووَفْق منطقنا، وإلاَّ فلا يُقال في حقه تعالى هَيِّن وأهون، ولا سهل وأسهل، هذا يُقال في حق البشر فحسب.

وقوله: ﴿ قال من يحيي العظام وهي رميم (٧٨) ﴾ [يس] حينما ألقى هذا

(١) أي: مِلْكاً خالصاً له، لا ينازعه فيه أحد. [القاموس القويم ١/ ٣٢٤].

السؤال على الكافرين المكذِّبين بالبعث يقولون : لا أحد يستطيع أنْ يُحيي الموتى ، لماذا ؟ لأنه يقيس المسألة على عَجْز القدرة في البشر ، لا على طلاقة القدرة في الخالق سبحانه .

والعجيب أن الله تعالى يُثبت للإنسان صفة الخَلْق ، فيقول : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون] والإنسان ينكر ويُكذِّب بقدرة الله في الخَلْق ، فإذا كان ربك لم يَضِنّ عليك بأنك خالق ، فلا تضنّ عليه بأنه أحسن الخالقين .

وقلنا إذا وجدتَ صفة لله تعالى ووصف بها البشر فلا بُدَّ أنْ تأخذها في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (١١) ﴾ [الشورى] فلله تعالى وجه لا كالأوجه ، وله سبحانه يد لكن ليستْ كالأيدي .. وهكذا ؛ لأن الله تعالى واحد في ذاته ، وواحد في صفاته ، وواحد في أفعاله . الله موجود وأنت موجود ، لكن وجودك ليس كوجوده ، الله غني وأنت غني ، لكن غنَاك ليس كغنَى الله ، غنَى الله ذاتيٌّ لا ينفصل عنه سبحانه ، أما غناك فموهوب .

الله خالق وأنت خالق ، لكن فَرْقٌ بين خَلْقك وخَلْق الله ، خَلْقك من موجود وخَلْقه تعالى من عدم ، خَلْقك جامد لا حياة فيه ، وخَلْق الله في حياة فينمو ويتغذى ويتكاثر .. الخ فأنت خالق ، لكن ربك سبحانه أحسن الخالقين .

إذن : لله تعالى صفات الكمال المطلق ، يُفيض منها على خَلْقه فيعطيهم من صفاته تعالى ، لكن تظل له سبحانه طلاقة القدرة .

ومعنى ﴿ رَمِيمٌ (٧٨) ﴾ [يس] قديمة بالية تتفتت .

ثم يردُّ الحق سبحانه على هذا المكذِّب وأمثاله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ (٧٩) ﴾ [يس] ومعنى ﴿ أَنشَأَهَا ﴾ يعني : من العدم ، ولأنْ

ينشئها من موجود أَوَّلِي ، وقوله ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ (٧٩) ﴾[يس] في الرد على هذا المكذِّب يوحي بأن هناك مرة أخرى ، وإحياءً آخر غير الأول ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾[يس] أي : بالخَلْق الأول وبالخَلْق الثاني ، فالعلم بالخَلْق الأول أنْ يعطيه صفات ومواهبَ في ذاته ، وأنْ يستعمره في الأرض ، وأن يجعلَ له منهجاً ينظم حياته فيها .

وبهذا المنهج أرشده إلى سبيل الخير ، وحذَّره من سُبل الشر ، وأوضح له الجزاء على هذا وذاك ، وهو سبحانه عليم بالخَلْق الآخر في الآخرة . أي : يعلم كيف يجازيه على ما قدَّم . إذن : معنى ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴾[يس] يعني : عليم كيف يُكلِّفه ، وعليم كيف يجازيه ، وعلى قَدْر التكليف يكون الجزاء .

الفلاسفة المسلمون أحبوا أنْ يوضحوا لنا هذا المعنى ، فقالوا : حينما أراد الله أن يخلق من العدم وقبل أنْ توجد السماء أو الأرض قال : اخرجي يا سماء كوني سماءً فكانت ، وهكذا الأرض . إذن : قادريته سبحانه هي التي فعلت ، ومقدورية الأشياء هي التي انفعلت ، فما الذي انتهى من هذين العنصرين ؟ إنهما باقيتان موجودتان : قادرية الفاعل سبحانه ، ومقدورية الأشياء .

﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) ﴾

الحق سبحانه يسوق لهم دليلاً آخر على طلاقة قدرته ، فإن كنتم تُكذِّبون بالبعث ، فانظروا إلى هذه الآية المادية التي تشاهدونها ، فالذي يُحيي العظام التي رَمَّتْ هو الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً تُوقِدونها ، فيشتعل العود الأخضر ، والخضرة دليل الرطوبة

والمائية ، فكيف تأتى النار من الماء ، هذه آية يرونْها فى البيئات العربية كل يوم ، ومعلوم أن الحطب هو أول وقود عرفه الإنسان واستخدمه بسلام : لأنه أصْفَى وقود ، وهو صحىٌّ لا يلوث البيئة ، ولا يضر بها ، ولك أنْ تقارن بين وقود الحطب ووقود البترول مثلاً ، لتعرف الفَرْق .

﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

هذا تَرقٍّ فى الدليل ، فبعد أنْ ذكر سبحانه آية جَعْل الشجر الأخضر ناراً ، يسوق الدليل الأقوى ، وهو خَلْق السموات والأرض ، السموات دليل من العلو الثابت الذى لا يتغير ، والأرض دليل ملامس لنا ، نشاهده ونباشره . وحيثية هذه الآية جاءت فى آية أخرى ، حيث قال الحق سبحانه : ﴿ لخلْقُ السَّمَـٰوات وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

فإنْ قُلْتَ : علِّلْ لنا أن خَلْق السموات والأرض مع أنها لا تحس ولا تتكلم ولا تعلم .. الخ . أكبر من خَلْق الناس ، تقول : نعم خَلْق السموات والأرض أكبر من خَلْق الناس ؛ لأنها منذ خلقها الله على حالها لم تتغير ، وستظل إلى قيام الساعة ، أما أنت أيها الإنسان فتموت ، تموت وأنت طفل ، بل وأنت جنين فى بطن أمك ، تموت وأنت شاب وأنت شيخ هَرِم ، وقصارى ما يمكن أن تصل إليه لو عُمِّرت فى الدنيا مائة عام أو يزيد عليها بضعة أعوام ، فأين عمرك

من عمر الشمس ، أو القمر أو الأرض ؟ وهل رأيت خادماً أطول عمراً من مخدومه ؟

إننا نتوارد على هذا الكون أفراداً وأمماً ودولاً ، تذهب جميعها وتَفْنى وتبقى السماء والأرض كما هي شامخة عظيمة ، لا يطرأ عليها تغيير ، ولا تخرج عن قانون التسخير في شيء أبداً ، ومنذ أن خلق الله هذا الكون ما رأينا كوكباً خرج عن فلكه ، ولا تخلَّف عن موعده ، أو امتنع عن أداء مهمته .

هذا حال الجمادات في السموات والأرض ، فما حالكم أنتم أيها العقلاء ؟ لو تحدَّثنا في المادة فهي تبقى وأنتم تموتون ، وفي المعاني والقيم تتساند هذه الجمادات ، وأنتم تـ اندون وتختلفون وتتصارعون ، فأيُّكم إذن أحسن خَلْقاً وأكبر ؟

لذلك يجيب الحق سبحانه على هذا الاستفهام المنفي : ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ..(٨١)﴾ [يس]

فيقول (بَلَى) أي : نعم قادر ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١)﴾[يس] وخلاَّق صيغة مبالغة من خالق ، ليؤكد هذه القضية لكل مكذِّب بها ، وهو سبحانه ﴿الْعَلِيمُ (٨١)﴾[يس] أي : بمَنْ خلق .

ثم يقول سبحانه : ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾[يس] هنا إشارة لطيفة من الحق سبحانه لكل مُكذِّب بالبعث ، كأن الله يقول لهم : يا مَنْ تكذِّبون بقدرة الله على بَعْث العظام التي رمَّتْ ، أتظنون أن الله يخلق بعلاج كما تخلقون أنتم ، الله الخالق لا يخلق بعلاج ، وإنما يخلق بكلمة (كُنْ) ، بل يخلق سبحانه بمجرد مراده ، فإنْ أراد شيئاً كان ، دون أنْ يقول ، ودون أنْ يأمر ، وما كلمة (كُنْ) إلا لتقريب المسألة إلى أذهاننا .

وسبق أنْ أوضحنا هذه العمليـة بمثال ، ولله المثل الأعلى ، قلنا : كيف تنكر أيهـا الإنسان قدرة الله ، وقـد أفاض عليك بمـثلها في ذات نفسك ، فـأنت مثلاً حينمـا تريد أنْ تقوم من مجلسك ، مـاذا تفعل ؟ هل أمرتَ العضلات أنْ تتحرك ، بل هل تعرف أصلاً ما هي العضلات التي تقيمك ، وما الأعصاب التي تتحكم في هذه العملية ؟

إنك تقوم بمـجرد إرادتك للقيـام وليس لك دَخْل فيـها ، بدليل أن الطفل الصغـير الذي لا يعرف عن تكوين جسـمه شيئاً يقوم إذا أراد القيام ، فـإذا كنتَ أنت أيها الإنسان تنفعل لك الأشـياء دون أنْ تقولَ لها انفعلي ، فهل يليق بك أنْ تُكذِّب بهذا في حق ربك وخالقك ؟

فإنْ قُلْتَ : فلماذا لا آمر أعضائـي وأقول لها : اعملي كذا وكذا ؟ نقول : الحق سبـحانه يقول للشيء كُنْ لأنه سبحـانه يعلم أن الأشياء سـتـأتمر بأمـره ، ولن تخـرج عن مـراده ، إنمـا هل أنت واثق أنهـا ستـأتمر بأمـرك إنْ أمرتها ؟ إنـك لا تثق بهذه المســألة بدليل أن الله تعالى حـين يسلب الإنسان هذه الـقدرة تخرج أعـضاؤه عن طاعـته ، فيريد أنْ يقوم فلا يستطيع ، تشل الأعضاء فلا تتحرك .

إذن ، نقـول : إذا كـان المـخلوق مـجـرد إرادته تسـيـطر على جوارحه ، فهل نستبعد أن تكون إرادة الخالق الأعلى تسيطر على هذا الكون المخلوق له سبحانه ؟

وكلمـة (كُنْ) يقولهـا الله ليقرِّب لـنا فَهْم المـسألة ، ويقـولها لأن الأشياء لا تتخلف أبداً عن طاعته والانفـعال لأمره ، إنما أنت إنْ قُلْتها فلن يسمعك أحد ؛ لذلك قال سبحـانه موضـحاً استجابة الأرض لأمره سبحانه : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ ﴾[الانشقاق] أي : حَقَّ لها أنْ تسمع ، وأنْ تطيع .

ومعنى ﴿ أن يقول له (٨٢) ﴾[يس] أى : للشيء الذى لم يُوجد بَعْد ، فكيف إذن يخاطبه وهو ما يزال غَيْباً ، قالوا : الخالق سبحانه خلق كل الأشياء أزلاً فى عالم اسمه « عالم المثال » ، فالأشياء موجودة بالفعل ، لكن تنتظر الأمر بالظهور والخروج إلى عالم الوجود ؛ لذلك قال أحد العارفين : أمور يُبديها ولا يبتديها .

﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾

عرفنا فى الآية السابقة أن الحق سبحانه إذا قال كُنْ انفعلتْ له الأشياء وأطاعت ، أما إنْ قالها الإنسان فلن يستجيب له شيء ، وقلنا : إذا ورد لله تعالى وَصْف يُوصف به البشر ، فعلينا أنْ نأخذه فى إطار ﴿ ليس كمثله شيء (١١) ﴾ [الشورى] إذن - طبيعى أنْ تختم هذه الآيات والسورة كلها بقوله تعالى ﴿ فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء (٨٣) ﴾[يس] يعنى : تنزيهاً له عن أن يُشبهه أحد ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله .

وكلمة ﴿ ملكوت (٨٣) ﴾[يس] من ملك ، وهذه المادة الميم واللام والكاف تُستخدم على معانٍ أربعة : الأول : نقول مالك ، وهو كل مَنْ ملك شيئاً ولو كان يسيراً ، فلو كان لا يملك إلا الثوب الذى يلبسه يُسمَّى مالك . الثانى : نقول مَلِك وهو الذى يملك مَنْ ملَك أى : يملك أنْ يتصرف فيه وفى إدارة حركته ، الثالث : كلمة المُلْك وهى أن يترقى الملك فى أمور ظاهرة يعرفها الناس ، الرابع . كلمة الملكوت ويُراد بها المُلْك المستور غير الظاهر ، وهو أقوى وأعمّ من المُلْك .

وقد يكون الشيء من عالم الملكوت ، ثم يصير إلى عالم المُلْك مثل الأشياء التى كانت غيباً واكتشفها الإنسان أو ابتكرها ، فصارت

مشهودة ، وهناك أشياء تظل دائماً في عالم الملكوت لا نعرف شيئاً عنها إلا في الآخرة ، وهذا النوع هو الذي يُكذِّبون به ، ومن ذلك قوله تعالى في شأن سيدنا إبراهيم : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (٧٥) ﴾ [الأنعام]

نعم ، يُطلعه الله على عالم الملكوت ، لأنه لما أطلعه على عالم المُلْك وابتلاه نجح في الابتلاء بتفوق ، نجح في كل مراحل حياته ، نجح وهو شيخ كبير في مسألة ذَبْح ولده إسماعيل ، نجح لما أُلْقِي في النار ؛ لذلك صار أهلاً لأنْ يُطلعه الله على أسرار الكون ، وعلى عالم الملكوت ، كما لو أن في أولادك ولداً صالحاً ترى فيه مخايل النجابة ، فتصطفيه بشيء تفصله به عن باقي الأولاد ، كذلك مَنْ يحسن العبودية لله تعالى يحسن الله له العطاء .

ومن ذلك ما قَصَّه علينا القرآن في سورة الكهف من قصة العبد الصالح الذي رافقه نبي الله موسى وتعلَّم منه ، والذي قال الله فيه ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف]

هذا العبد الصالح لم يكُنْ نبياً ، ولم ينزل عليه الوحي ، ومع ذلك تعلَّم منه النبي ، لماذا ؟ لأنه أخذ ما جاء به الرسول وطبَّقه على نفسه ، فلما علم الله منه أنه مأمون على مناهج الله وعلى أسراره زاده وأعطاه من علمه اللَّدُنِيّ ، وكشف له من أسرار الملكوت .

ألاَ ترى أن سيدنا موسى - عليه السلام - غضب منه حينما خرق السفينة ، وتعمد أنْ يَعيبها ، وهي لمساكين فقراء ، هذا هو عالم المُلْك الذي اطَّلع عليه العبد الصالح ، أما علمه بعالم الملكوت ففي قوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) ﴾ [الكهف] فأطلع الله العبدَ الصالح على بعض عالم الملكوت ، كما أطلع إبراهيم عليه

السلام على ملكوت السماء .

وكلمة (ملكوت) تحمل معنى المبالغة ، مثل : رحموت وجبروت ورهبوت ، فهي إذن للمبالغة في المُلْك ، لكن نلحظ عند علماء القراءات أن أحدهم يقرأ ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ ﴾ [الفاتحة] فيقول (مَلِك يوم الدين) بدون صيغة المبالغة ، قالوا . لأن الكلام عن يوم الدين ، وفي هذا اليوم المُلْك كله لله وليس لأحد مُلْك ، ولا حتى الثوب الذي يرتديه .

ومن ذلك أيضاً قولنا في الأذان الله أكبر فذكر الصفة (أكبر) دون مبالغة ، ولم يذكر الاسم (الكبير) ، فكيف يتأتَّى ذلك في شعار الصلاة ، التي هي عماد الدين ، ونأتي بالصفة دون الاسم ؟ قالوا : لأن الأذان يأخذ الناس من أعمالهم للاستجابة لنداء ربهم ، والعمل له اعتباره في الإسلام ؛ لأنه مهمة الإنسان في الحياة ، وبه يتوصَّل إلى طاعة الله ؛ لذلك يُقدِّره الدين ولا يحتقره .

ومعنى (الله أكبر) أن العمل كبير ومهم ، لكن الله أكبر ونداء ربِّك أهم ، أما كبير فهي اسم من أسماء الله . ومعنى كبير أن ما دونه صغير ؛ لذلك أتى في الأذان بالوصف لا بالاسم .

فقوله تعالى : ﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ۝ ﴾ [يس] أي : ما تراه وما لا تراه من الملك ، وما خفي عنك ، ثم توصَّلْتَ إليه بالعلم واكتشفته ، والذي لا تراه من الملك إلى أنْ يخبر الله به أحد عباده : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ۝ ﴾ [الجن].

والتحقيق أن المغيبات والأسرار المطمورة في الكون لا يكتشفها الإنسان إنما تُكْشَف له ، وقلنا : إن كل سرٍّ في الكون أراد الله أنْ

يُظهره له عمر وميلاد ، فإنْ صادف ميلادُه بحثَكَ ظهر على يديك ، وإلا أظهره الله لك مصادفة في موعده إذا لم تبحث عنه ؛ لذلك يقولون : إن سبعة وتسعين بالمائة من مكتشفات الحياة ظهرت لنا مصادفة .

ويقول سبحانه في آية الكرسي : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ (٢٥٥) ﴾ [البقرة] فالإنسان لا يحيط إلا بعلم الشيء اليسير من علم الله ، ولا يحيط بهذا اليسير إلا بعلمه تعالى وإذنه ، حين يأذن بميلاد الشيء وظهوره .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) ﴾ [يس] أي : يوم القيامة ، فكونوا على ذُكْر لهذه الحقيقة ، فمَنْ لم يؤمن بنعمة الخَلْق ترهبه نعمة الإعادة والمرجع ، فأنتم ما خُلقْتم عبثاً ، ولن تُتْرَكُوا سُدىً .


سُورَةُ الصَّافَّاتِ



سورة الصافات[1]

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾
فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾

هذا الأسلوب يُسمَّى أسلوب القسم ، الله تعالى هو المقْسِم يُقسِم على ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾﴾[الصافات] وقد أخبر الرسول ﷺ بمراده تعالى في القسم ، فالله يريد منَّا إنْ أقسمنا ألاَّ نُقسم إلا به سبحانه ، لكن بالاستقراء رأينا أنَّ الحق سبحانه يقسم بخَلْق من خَلْقه ، فيُقسِم بالملائكة ، ويُقسِم بالحيوان ، ويُقسِم بالجبال ، ويُقسِم بالفجر .. الخ

قالوا : لأن الله تعالى يقسم بما يشاء على مَنْ يشاء ، أمَّا أنت فلا تقسم إلا بالله ، لأن القَسَم تعظيمٌ للمقْسَم به ، وينبغي ألاَّ يكون

(١) سورة الصافات هي السورة (٣٧) في ترتيب المصحف الشريف ، عدد آياتها ١٨٢آية ، وهي سورة مكية في قول الجميع ، كما قاله القرطبي في تفسيره (٨/٥٦٩٩) ، وقد ذكر السيوطي في الإتقان (١/٢٧) نقلاً عن ابن الضريس في « فضائل القرآن » أن سورة الصافات نزلت بعد سورة الأنعام وقبل سورة لقمان ، وعلى هذا فتكون سورة الصافات رقم (٥٥) في ترتيب نزول القرآن الكريم .

مُعظَّماً عند المؤمن إلا الله ، ولا يصح أنْ تقول (وحياة فلان ، ورأس علان) فإنْ كنتَ حالفاً فلتحلف بالله ، كما جاء في الحديث الشريف : « مَنْ كان حالفاً فليحلف بالله »[1]

فإذا ظهر ما يكون ظاهره قَسَماً بغير الله ، فاعلم أنه لا يُعَدُّ قَسَماً ، وخصوصاً إنْ جاء من عالم أو يقيني كأنْ يقول : (وحياة أبوك يا فلان تعمل كذا وكذا) ، هذا ليس قَسَماً ، إنما هو مساءلة. القسَم : أنْ تُقسم على شيء ، حدث أو لم يحدث ، إنما طَلَبُ الشيء يسمى مساءلة ، كذلك يقول الحق تعالى ﴿ ..الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ⟨١⟩ ﴾ [النساء] أي : وبالأرحام في قراءة من جر الأرحام .

والحق سبحانه يقسم بما يشاء على مَنْ يشاء ، وأنت لا تقسم إلا بالله ؛ لأن الشيء قد يكون تافهاً في نظرك ، ولكنه عند خالقه عظيم ، وله مهمة تغفل أنت عنها ، وحين يحلف الله به إنما يُلفت نظرك إلى أهميته ودوره ، فمثلاً لما فَتَرَ الوحي عن سيدنا رسول الله ﷺ لم يلتفت الكفار إلى الحكمة من ذلك .

والحكمة أن الوحي كان يَثْقُل على رسول الله ، حتى يبلغ منه الجهد ، وحتى أن جبينه ليتفصَّد عرقاً[2] ، وإن نزل الوحي عليه وهو على دابة فإنها تئنُّ وتنخُّ به[3] ؛ ذلك لأن الوحي ثقيل .

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٦٤٦) كتاب الأيمان - رواية (٣) عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر بن الخطاب في ركب وعمر يحلف بأبيه ، فناداهم رسول الله : « ألا إن الله عزوجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

(٢) قالت عائشة رضي الله عنها : لقد رأيته ﷺ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد ، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً . أي : أن عرقه كثير في يوم شديد البرد [أخرجه البخاري في صحيحه (٢) كتاب بدء الوحي] .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٥٩٢) موصولاً من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله أُنْزِل عليه ﴿ لايستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ﴾ وفخذه على فخذي ، فثقلت عليَّ حتى خفْت أن ترُضَّ فخذي .

كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ ﴾ [المزمل]

فجاءت فترة انقطاع الوحى رحمةً برسول الله ، وتسريةً عنه ، وتخفيفاً من معاناته ، ثم ليشتاق هو إلى الوحى يعاوده من جديد ، لم يلتفت الكفار إلى ذلك ، وقالوا : إن رب محمد قَلاَه[1] يعنى : تركه وهجره وجفاه ، وواضح ما فى هذا القول من تناقض ، فعند الإيمان يُكذِّبون بمحمد ورب محمد ، وعند الجفوة يقولون : إن رب محمد قلاه ، ويعترفون أن له رباً !!

لذلك أراد الحق سبحانه أنْ يوضح لهم هذه المسألة ، وأنْ يُظهر غباءهم بهذا المقسَم الذى جاء مناسباً للموقف ، يحمل إشارة لطيفة إلى العلاقة بين المُقْسَم به ، والمقْسَم عليه ، فقال سبحانه : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ ﴾ [الضحى]

والمعنى : أنك يا محمد أُجهدتَ بالوحى ، وكان لا بُدَّ أنْ تستريح لتشتاق نفسك إليه وتطلبه ، وحين ترتاح سيُخفَّف ذلك من معاناتك فى استقباله ، وسوف تذوق حلاوته من جديد ، ويكون عليك أيْسَرَ وأسهل ، وأتى الحق سبحانه بهذا القسم بشىء موجود مُشاهد ، لا يختلف عليه اثنان .

فهم يعرفون ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ ﴾ [الضحى] حين تشرق الشمس ، وتنير الكون ، ويعرفون ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ ﴾[الضحى] يعنى : سكَن وهدأ ، والإشارة هنا فى أن الضحى إذا جاء ثم تلاه الليلُ بسكونه ، هل يعنى هذا أن الضحى لن يعود مرة أخرى ؟

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) أن جندب بن عبد الله قال : « أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ ﴾ [الضحى] .

لا ، بل سيأتي الضحى من جديد بعد أن تكونَ قد ارتحْتَ من تعب النهار والسعي فيه ، واستعدْتَ نشاطك ليوم جديد ، ومعنى ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ ﴾ [الضحى] أي : أن عودة الوحي ثانية ستكون أحلى من الأولى ، وأخفَّ وأيسر .

إذن : الحق سبحانه يقسم بما يشاء من مخلوقاته ، ليُعلمنا أن هذه الأشياء عظيمة عند خالقها ، لكن غفلنا نحن عن وجه العظمة فيها ، ويُقسِم بما يشاء من مخلوقاته ليُقرِّب لنا بواسطة المعلوم شيئاً مجهولاً .

هنا يقول تعالى : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ ﴾[الصافات] الواو تسمى واو القسم مثل : التاء والباء . نقول : والله وبالله وتالله ، وقد يُستغنى عن حروف القسم ، ويستدل عليه باللام في جواب القسم ، كما في : ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٣ ﴾ [يس] وأنت لا تقسم على الشيء بداية ، وإنما تقسم إنْ أنكر المخاطب لتؤكد له الخبر ، ويأتي القسم والتأكيد على قَدْر الإنكار .

فإذا قال الحق سبحانه مثلاً :﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۝١ ﴾ [القيامة] أو : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ ﴾ [البلد] وفي : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ ﴾ [الواقعة]

وفي هذه الآيات . قَسَم بدليل أن له جواباً ، لكن لماذا نَفَاهُ القرآن ، فقال (لاَ أُقْسِمُ) قالوا : لأن نَفْي القسم هنا أشدُّ من القسم المثبت ؛ لأن القَسَم إنما جاء لتأكيد المقسَم عليه ، ومعنى (لا أقسم) أن هذا أمر واضح لا يحتاج إلى قَسَم ، القَسَم يأتي لتأكيد أمر منكر أو مشكوك فيه ، أمَّا هذا الأمر فواضح بيِّن ، ومع ذلك سأقسم لك .

ومعنى ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) ﴾ [الصافات] قالوا : الصافات صفًّا هي الملائكة تُصَفُّ ، والصَّفُّ انسجام مجموعة بحيث لا يشذّ فيها فرد عن فرد ، فالصَّفُّ لا يعني مجرد الجمع ، إنما الجمع في انسجام وانضباط ، لذلك النبي ﷺ كان في استعراض الجنود في المعركة يُسوِّي الصفوف ، فلما رأى رجلاً شَذَّ عن الصف وخرج عنه فشكَّه في بطنه ليستقيم في مكانه من الصَّف ، وكان الرجل محباً لرسول الله ، فقال : أوجعتني يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « هذه بطني اقتصَّ منها » فأقبل الرجل يُقبِّل رسول الله ويقول : والله يا رسول الله لقد أمَّلْتُ أن أستشهد ، فأحببتُ أن يكون آخر عهدي بالحياة أنْ يمسَّ جسدي جسدك الشريف .

والصَّف دليل الانتظام والالتزام والاستعداد لتلقِّي الأوامر ، وهكذا تُصَفُّ الملائكة في انتظار الأوامر ، ليقوم كل منهم بمهمته ودوره .

وإذا استعرضتَ مادة (ص ف ف) في القرآن الكريم تجدها تدور حول هذا المعنى ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا (٦٤) ﴾ [طه] يعني : مجتمعين مُتحدين ، وقال : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) ﴾ [الفجر]

وقال . ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَـٰنُ (١٩) ﴾ [الملك]

صحيح ، ترى الطائر في السماء باسطاً أجنحته هكذا لا يحركها ، ومع ذلك لا يقع ، كذلك تراه يقبض أجنحته ، ويظل أيضاً ثابتاً في مكانه ، فما الذي أمسكه لا يقع ؟ أمسكه الرحمن وكأن في إمساك الطير الذي نراه ونشاهده دليلاً على صدْق الحق في

قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ (٤١)﴾ [فاطر]

إذن : إمساك الطير نموذج لإمساك السماء ، إلا أن هذا إمساك مؤقت ، وذاك إمساك دائم .

ويقول عن الملائكة عموماً : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥)﴾ [الصافات] يعنى : نقف فى انضباط منتظرين الأوامر ، والصف هنا يدل على الانسجام ، وأنه لا يتعالى أحد على أحد ، ويدل على الرهبة ممَّنْ أنت أمامه مصفوفاً .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى فى نعيم الجنة : ﴿وَنَمَارِقُ[1] مَصْفُوفَةٌ (١٥)﴾ [الغاشية]

بعض العلماء يرى أن الصافات لها معنى أوسع ، ويراد بها مجال نشر الدعوة والإعلام بها ، والدفاع عنها ، وحماية الاختيار فى الإسلام ، وفى القتال ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤)﴾ [الصف] معنى ﴿فِي سَبِيلِهِ (٤)﴾ [الصف] أى : من أجل الإعلام بدينه والدفاع عنه أمام أعدائه ، فالإعلام بالدين مهمة العلماء ، والدفاع عنه مهمة الجنود فى ساحة القتال ، وينبغى أن يكون هؤلاء وهؤلاء صفاً واحداً كأنه البنيان المرصوص ؛ لذلك قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ (١٢٢)﴾ [التوبة]

---

(١) النمرقة : الوسادة الصغيرة يُستند إليها ، ويُتكأ عليها ، وجمعها نمارق . [القاموس القويم ٢/٢٨٨]

فالعالم لا يقاتل ؛ لأن مهمته حَمْل الدعوة ، والمقاتل يموت في سبيلها ويضحي بحياته من أجلها ، وهذه التضحية هي التي تثبت صدْق الدعوة ؛ لأن الدعوة لو لم تكُنْ صادقة في نفس صاحبها لَمَا ضَحَّى من أجلها ، ثم تضحيته بروحه دليل على ثقته أنه ذاهب إلى خير مما هو فيه .

وتعرفون قصة الصحابي الذي سمع كلام رسول الله عن أجر الشهيد ، وكان في فمه تمرة يمضغها ، فقال لرسول الله : أوليس بيني وبين الجنة إلا أنْ أقاتل هؤلاء فيقتلونني ؟ قال : بلى . فالقى التمرة واستبطأ أن يمضغها وأسرع إلى ساحة القتال .[1]

إذن : القتال في سبيل الله ، إما باللسان وإما بالسِّنان ، ولابد أنْ يُعلَم أن المقاتل الذي يحمل السيف لا يحمله ليُكره غير المؤمن على الإيمان ؛ لأنه لا إكراه في الدين ، إنما يحمله ليحمي حريته واختياره هو لهذا الدين ، بدليل أن الإسلام فتح بلاداً كثيرة ، وظلَّتْ على دينها .

والصف الواحد ليس فقط للمقاتلين في ساحة القتال ، إنما أيضاً لحاملي الدعوة ، فيجب على هؤلاء العلماء أن يكونوا في دعواهم صفاً واحداً لا يشقه خلاف ، فما كان في كلام الله مُحْكماً التزموا به ، وما كان متشابهاً لا يُكفِّر بعضهم بعضاً بسببه .

(١) عن جابر بن عبد الله قال قال رجل للنبي ﷺ يوم أحد : أرأيت إن قُتلت فأين أنا ؟ قال : في الجنة فألقى تمرات في يده ، ثم قاتل حتى قُتل أخرجه البخاري في صحيحه (٤٠٤٦) وقال ابن حجر : لم أقف على اسم الرجل وزعم ابن بشكوال أنه عمير بن الحُمام واحتج بما أخرجه مسلم من حديث أنس وفيه ذكر عمير بن الحمام . ولكن وقع التصريح في حديث أنس أن ذلك كان يوم بدر ، فالذي يظهر أنهما قصتان وقعتا لرجلين . والله أعلم .

﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) ﴾[الصافات] قالوا : هذه هي مهمة الملائكة أنْ تزجر الشياطين الذين يسترقون السمع ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) ﴾ [الجن]

وكانت الشياطين قبل رسالة محمد ﷺ تصعد في السماء ، وتتسمّع الأخبار ، ويُمكّنهم الله من بعض الأخبار والأوامر فيسمعونها ويُلْقونها إلى أوليائهم من البشر ، فيزيدون عليها أشياء باطلة ، ويخبرون الناس بها على سبيل أنهم يعلمون الغيب ، فلما كانت بعثة النبي ﷺ مُنعوا من استراق السمع ، وسلَّط الله عليهم الشُّهُب تنقضّ عليهم فتحرقهم .

فإنْ قلتَ : كيف ، ونحن نرى النجوم على كثرتها ، هي هي لا تنقص ، نقول : لأن النجوم منها نجوم في السماء للزينة ، ومنها نجوم للرجم ، بدليل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) ﴾ [الصافات]

أما ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) ﴾[الصافات] قالوا : هي المُنزِّلات الوحي على الرسل ؛ لأنهم يتلُونه عليهم ، بعد أنْ نزلوا به من عند الله

آخرون فهموا ﴿ وَالصَّافَّاتِ (١) ﴾ [الصافات] على معنى آخر يتفرع عنه معانٍ أخرى للزاجرات زجراً والتاليات ذكراً ، قالوا : معنى ﴿ وَالصَّافَّاتِ (١) ﴾[الصافات] أي : المؤمنين يُصفُّون للصلاة ، لأنها عماد الدين ورمز للاجتماع والوحدة ، ومن تمامها أن تكون في صفوف مستوية .

لذلك قال النبي ﷺ : « سَوُّوا صفوفكم ، فإنَّ تسوية الصفوف

من إقامة الصلاة[1] » وقال : « إن الله لا ينظر إلى الصَّف الأعوج»[2] والصفوف في الصلاة دليل على الانضباط ، وأنه لا يشذ أحد عن الآخر ، ودليل على الخضوع والوقوف في أدب بين يدي الله . إذن : فكما تُصَفُّ الملائكة تُصَفُّون أنتم ، ولكلٍّ صلاته وعبادته .

فإذا ما سَوَّيْنَا الصفوف واستقمنا فيها لله تعالى ندخل في الصلاة ونقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وهذا زَجْر للشيطان ؛ لذلك قال : ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢) ﴾[الصافات] ومعنى ﴿ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) ﴾[الصافات] أي : ما نتلوه بعد ذلك من كلام الله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) ﴾ [الفاتحة]

هذا هو القَسَم ، فما المُقسَم عليه؟ المقْسَم عليه قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ (٤) ﴾[الصافات] وهذه العبارة مع أنها جواب لقسم ، إلا أن الله تعالى أكّدها أولاً بـ (إن) ثم أكّدها باللام في (لَوَاحِدٌ) ، وذلك لأنها تمثل أساس الدين وجوهر العقيدة ، فالإله الحق واحد هو المهيمن على هذا كله ، وقلنا . إن واحد غير أحد : واحد يعني ليس له ثَانٍ مثله ، أما أحد فيعني أنه غير مركب من أجزاء في تكوينه ، فهو سبحانه في ذاته أحد .

﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ (٥) ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٧٢٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٤٣٣) كتاب الصلاة ـ باب تسوية الصفوف (٢٨) كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) مما ورد في هذا المعنى ما أخرجه أحمد في مسنده (٢/٩٧) وأبو داود في سننه (١/١٧٨) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « أقيموا الصفوف ، وحاذوا بين المناكب ، وسدوا الخلل ، ولينوا بأيدي إخوانكم ، ولا تذروا فُرُجات للشيطان »

وفي آية أخرى قال : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦﴾ [طه] وهذا الذى تحت الثرى هو الذى يحتاج منّا إلى بحث لنصل إليه ونكتشفه ونُخرجه كما قلنا من عالم الملكوت إلى عالم المُلْك .

هنا قال ﴿وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۝٥﴾[الصافات] ، وفى موضع آخر قال : ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ۝٤٠﴾ [المعارج] إذن : الحق سبحانه يُبْقى لألمحية الالتقاط الذهنى من الألفاظ موضعاً ، فما دام هناك مشارق إذن لابد أنْ يقابلها مغارب ؛ لأن الشمس لا تشرق على قوم إلا وتغرب عن آخرين ، إذن : عرفناها باللزوم .

وحين نستعرض هاتين الكلمتين فى كتاب الله نجد أنهما تأتيان مرة بصيغة المفرد ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ۝٩﴾ [المزمل] ، وتأتى بصيغة المثنى ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن] ، وتأتى بصيغة الجمع ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ۝٤٠﴾ [المعارج]

ذلك لأنه إذا خاطب الإنسان الواحد فى المكان الواحد قال المشرق والمغرب ، لأن لكل مكان مشرقاً ومغرباً ، فإنْ تعدَّدتْ الأماكن تعددت المشارق والمغارب ، فنحن مثلاً فى القطر الواحد نلاحظ أن مغرب القاهرة غير مغرب الأسكندرية ، فإذا نظرنا إلى كل الأمكنة فى الكرة الأرضية علمنا أن المشارق والمغارب لا تتناهى ، ففى كل نصف ثانية مشرق ومغرب .

لذلك قلنا : من حكمة الخالق سبحانه فى دورة الأرض حول نفسها ، وحول الشمس أنها تُوزع مقومات الحياة فى الكون كله ، فلو ظلَّتْ الشمس مواجهةً لمكان واحد لاحترق ، ولو ظلَّتْ غائبة عن مكان لَتجمَّد . ونتيجة هذه الحركة يظل الحق سبحانه معبوداً فى كل

أوان بكل عبادة ، كما سبق أن أوضحنا أنه في اللحظة الواحدة يُصلَّى الصبح عند قوم ، والظهر عند آخرين ، والعصر عند آخرين ، والمغرب والعشاء ، وهكذا على مدار اليوم والليلة .

أما قوله تعالى ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) ﴾ [الرحمن] قالوا : المشرقان يعنى : المشرق والمغرب ، أو مشرق الصيف ومشرق الشتاء[1]

ثم يقول سبحانه :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ (٧) لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) ﴾

نعم ، حين ننظر إلى السماء ليلاً نجدها مُزْدانةً بالنجوم تتلألأ ، وفي هذه النجوم عجائب وأسرار عرفها العربي الأُميُّ ، فعرف النجم وعرف اسمه ومكانه وحركته ، واهتدى به في سيره في الصحراء ، كما قال سبحانه : ﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

وحين تتأمل هذه النجوم في السماء ترى أن الله تعالى أراد أنْ يرحمنا من حرارة الشمس ، ويُبقي لنا آثار الضوء نهتدي به ليلاً ؛ لأن هذه النجوم إنما تستمد ضوءها من ضوء الشمس .

ثم للكواكب مهمة أخرى :﴿ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٧) ﴾[الصافات]

---

(١) عن ابن عباس قال : للشمس مطلع في الشتاء ومغرب في الشتاء ، ومطلع في الصيف ومغرب في الصيف ، غير مطلعها في الشتاء وغير مغربها في الشتاء . أورده السيوطي في الدر المنثور (٧/٦٩٥) وعزاه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم .

يعني : تحفظنا هذه الكواكب من الشياطين ؛ لأنها تنقضّ على الشياطين فتحرقها ، وهذا النوع يُسمُّونه النيازك ، أما زينة الكواكب فباقية لأنها لا دَخْل لها بهذه المسألة ، أما النجوم المخصصة للشيطان المارد ، فلا بُدَّ أنْ تتناقص .

ومعنى (المارد) أى : المتمرد على منهج ربه ، لأنه وارث لإبليس ، يقف من ذريته نفس الموقف الذى وقفه إبليس من آدم ، فإنْ قلْتَ : الله تعالى يريد أن يسود منهجه الكونَ ، ليسود السلامُ والأمْن والطمأنينة ، فلماذا إذن يخلق الشيطان المارد ؟ نقول : ليُؤصّل الإيمان فى النفس المؤمنة مع وجود المخالف ، وإلا فما الميزة إذا كان الجميع مؤمنين طائعين ، إذن : لابُدَّ أنْ نُصفى أهل الإيمان ، وأنْ نُمحِّصهم لنعلم أهل الثبات ، لأنهم سيحملون دعوة يظل نداؤها إلى أنْ تقومَ الساعة ، فهذه لا يحملها إلا أولو العزم .

وقوله : ﴿ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨ ﴾ [الصافات] جاءت هذه الآيات بعد أنْ أقسم الله بالزاجرات زَجْراً ، وقلنا من معانيها أن الملائكة تزجر الشياطين عن استراق السمع فى الملأ الأعلى ، حيث كانوا يخطفون بعض الجزئيات ويُلْقونها إلى أوليائهم من الكهنة فيضيف هؤلاء إليها كثيراً من الكذب ليُضلّلوا به الخَلْق .

وقد كثُر هذا الاستراق قبل بعثة النبى ﷺ ، فلما بُعث ﷺ منعهم الله من استراق السمع ، وسلَّط عليهم الشهب تزجرهم وتنقضّ عليهم ، كما حكى القرآن : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ ﴾ [الجن] ذلك تكريماً لرسالة محمد أن يدلّس عليها تدخُّل الشياطين بشىء يفسد على الناس عقائدهم ، فقال : ﴿ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ ﴾ [الصافات]

ومن عجائب الزَّجْر أنه يأتي على معنيين . فمعنى : زَجَرْتُ إنساناً يعني . نهيتُه عن عمل شيء ، أما زجرتُ الدابة يعني : أحثُّها على السير ، ومن ذلك قول الشاعر :

قَبَا وَيْحَنَا إلْقَيْن بُوعدَ بَيْنَنَا فَهذا له عُشٌ وَذَلكَ في عُشّ
فَلَمَّا ألحَّتْ للْوصَالِ صَبَابَتِي[1] زَجَرْتُ جَوَادي أنْ يطيرَ ولاَ يَمْشي

وفي المعنى الآخر ، قال الشاعر :

.... لَمْ يُبْقِ فِينَا للْمودَّة مَطْرَحا
إنّي زَجَرْتُكَ عَنْ خَنَا[2] فَزَجَرْتَني أنْ أنْصَحَا

فالزَّجْر يأتي بمعنيين متضادين .

ومعنى ﴿لا يَسَّمَّعُونَ ⑧﴾[الصافات] فَرْق بين سَمِع وتسمَّع : سَمِع يعني دون قَصْد منه ، إنما تسمَّع يعني حاول وتكلَّف أنْ يسمع بصرف النظر أنه سمع شيئاً أو لم يسمع .

والمعنى : أن هؤلاء الشياطين مُنِعُوا بعد بعثته ﷺ من تسمُّع الأخبار في الملأ الأعلى ، وهم يحاولون ، لكن تزجرهم الملائكة وتنقضُّ عليهم الشُّهُب .

﴿ويُقْذَفُونَ من كُلِّ جَانِبٍ ⑧﴾[الصافات] والقذف : الرَّجْم بحيث تكون الضربة نافذة ﴿دُحُوراً ⑨﴾[الصافات] يعني : مذمومين مطرودين ، والمدحور هو المطرود بإهانة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ⑨﴾[الصافات] يعني: دائم لا يتغير ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً .. ⑤٢﴾ [النحل] يعني : دائماً ، فالدين هو هو واحد مع كل الرسل ، ووَصْف العذاب

---

(١) الصبابة : الشوق والعشق . قال ابن الأعرابي : صبَّ الرجل إذا عشق [لسان العرب – مادة صبب] .

(٢) الخنا : قبيح الكلام . والخنا : الفُحْش في القول . [اللسان – مادة : خنا] .

هنا بأنه دائم ؛ لأنه حِيلَ بينه وبين إنفاذ مهمته فى استراق السمع والتقاط الأخبار من الملأ الأعلى .

﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾

المعنى : أن بعض هؤلاء المردة سيستطيعون خطْف بعض الأخبار ، لكن لن يتمكنوا من الفرار بها ، وتوصيلها إلى أوليائهم . والخطف نوع من حيازة الملكية بدون وجه حق ، فلكُلٍّ منَّا حيازة وملكية ، ولا يُخرجه عن ملكيته إلا مَنْ يأخذها منه اعتداءً وظلماً ، ولهذا الاعتداء والظلم وسائل متعددة منها : الخطف وهو أنْ يُؤخَذ منك الشيء خَطْفاً يعنى بسرعة ، لكن على مَرْأىً منك ولا تستطيع منعه ؛ لأن الشيء بعيد عن متناول يدك ، كالولد الصغير يخطف شيئاً من البائع ويجرى به .

فإنْ كان صاحب الشيء قريباً واستطاع الإمساك به فنازعه المعتدى وتغلَّب عليه وأخذه فهو غَصْب ، فإنْ أخذ الشيء دون علم صاحبه فهو سرقة ، أما إنْ كان مؤتمناً على المال وأخذ منه فهو اختلاس .. هذه كلها وسائل لحيازة أموال الغير دون وجه حق .

كذلك يخطف الشيطان بعض الأخبار ويحاول الفرار بها ، لكن هيهات له ذلك ﴿ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾[الصافات] يعنى : كوكب ينقضُّ عليه ، ومعنى ﴿ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ ﴾[الصافات] يعنى : نافذ يخترق الأجواء ، حتى يصل إلى هدفه فى أسرع وقت[1] .

فإنْ قُلْتَ : فلماذا لا يُمنع بداية من استراق السمع ؟ قالوا : فَرْقٌ بين أنْ يُمنَع من الشيء أصلاً ، وبين أنْ يناله ثم لا ينفذ به ولا

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : إن الجنى يجيء فيسترق ، فإذا سرق السمع ، فرُمى بالشهاب قال للذى يليه : كان كذا وكذا . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٧/ ٨٠) وعزاه لابن جرير وابن المنذر .

يستفيد منه ، إن الله يُمكِّنه من بعض الأخبار بالفعل فيسمعها ، لكن تُعاجله الزاجرات والشُّهب من كل ناحية ، فتكون حسرته أعظمَ ، حسرة أنه تعب وتحمَّل المشاقَّ في استراق السمع والخطف ، وحسرة أنه لم ينتفع بما سمع .

﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ ﴿١١﴾ ﴾[الصافات] أمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ، يعني : سَلْهم ، واستفتى طلب الفتوى ؛ لأن الألف والسين والتاء تدل على الطلب ، والفتوى من الفُتوَّة ، فحين يكون الإنسان بصدد شيء ، يريد أن ينفذه ، ولا يعرف فيه طريق الحق والصواب يذهب إلى مَنْ هو أعلم منه يستفتيه . يعني : يطلب منه الفتوى أو الفتوَّة ، والقوة الدافعة له على العمل ، فكأنه كان ضعيفاً وأراد أن يَقْوَى برأي غيره .

فكأن الحق - سبحانه وتعالى - استأمنهم أنْ يُفتوا ، وأنْ يجيبوا هم ؛ لأنه سبحانه واثق من أن الخصوم لن يجدوا إلا قَوْلة الحق ينطقون بها ؛ لذلك لم يأتِ سبحانه بالمراد إخباراً ، إنما أتى به إقراراً منهم وشهادة ؛ لأن الخبر يحتمل الصدق أو الكذب ، أمَّا الإقرار فلا يستطيع أحد إنكاره ؛ لذلك قالوا : الإقرار سيد الأدلة .

ومضمون السؤال ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴿١١﴾ ﴾[الصافات]؟ يعني : أهم وأعظم وأشدّ خَلْقاً من السماء والأرض ، ثم لم يأْت بالجواب لوضوحه ، ولن يكون إلا أنّ خَلْق السماء والأرض أشدُّ

من خَلْقهم وأعظم ؛ لذلك قال سبحانه في موضع آخر : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ ﴾ [غافر]

فإنْ أردتَ أنْ تُدلِّل على هذه المسألة فتأمل خَلْقك وخَلْق السموات والأرض ، فالسماء والأرض مع أنهما يخدمانك ، إلا أنهما أطول عمراً منك وأبقى ، فهما منذ خلقهما الله باقيان لم يزولا ، أما الإنسان فيموت وهو طفل ، ويموت وهو شاب ، ويموت وهو شيخ ، يموت ويترك التركة باقية تتوارثها الأجيال .

إذن : هما أشدّ وأقوى ؛ لأنهما مخلوقان خلقة دائمة ، وأقوى من ناحية أنهما محكومان باختيارهما حين قالتا : ﴿ أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ ﴾ [فصلت]

فاختارا أن تكونا مُسخَّرتين قال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ۝٧٢ ﴾ [الأحزاب]

وقلنا : إن هناك فَرْقاً بين قدرة النفس على تحمُّل الأمانة وقدرتها على الأداء ، فقد تتحمل الأمانة وتنوى أداءها ، لكن لا تضمن نفسك عند الأداء ، فربما تغيَّرتْ الظروف ، أو طرأ عليك ما يحول بينك وبين أدائها ؛ لذلك امتنعت السموات والأرض عن حَمْل الأمانة ، وخرجت عن مرادها لمراد ربها ، فكانت مُسخَّرة . إذن : فهي أيضاً مُخيَّرة إلا أنها اختارتْ بكلمة واحدة منسحبة على الزمن كله ، أما الإنسان فاختار أنْ يكون مختاراً ينفذ أو لا ينفذ .

ثم إن السماء والأرض وما بينهما وما فيهما من مخلوقات وكواكب وأجرام وأفلاك تسير وفق نظام دقيق مُحكَم ، لا يشذ ولا يتخلف أبداً :
﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ ﴾ [الرحمن]

وقال : ﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

أما الإنسان فيتخبط في الحياة ، ويخالف منهج ربه ، وينحرف عن الطريق الذى رُسِمَ له . إذن : أيّهما أعظم خَلْقاً ، وأشدّ تكويناً ، وأصحّ أداءً ؟ لا يسع هؤلاء الكفار رغم كفرهم إلا أنْ يقولوا : السماوات والأرض أشدُّ وأعظم من خَلْق الإنسان .

ومثال ذلك حين سألهم الله ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٨٧) ﴾ [الزخرف] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ (٣٨) ﴾ [الزمر] لأن هذه كلها حقائق لا تُنكر ، حتى من الكفار .

ثم يسوق لهم الحق سبحانه دليلاً على صِدْق هذه المسألة ، فيقول : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ (١١) ﴾[الصافات] يعنى . هذا أصلهم ، فأين هم من خَلْق السموات والأرض ؟ ومعنى ﴿ لاَّزِبٍ (١١) ﴾ [الصافات] يعنى : طين متماسك بعضه ببعض ، فهو وَسَط بين السيولة والصلابة ، يعنى : أشبه ما يكون بطين الصَّلْصَال الذى توزعه على التلاميذ فى المدارس ، والطين تراب وُضِع عليه الماء ، فإنْ زاد الماء صار الطين لَيِّناً يسيل من يدك ، وإنْ قَلَّ الماء جَفَّ وتصلَّبَ .

لذلك وقف المستشرقون عند مراحل التكوين الإنسانى يعترضون : من أىّ شيء خُلِق الإنسان ، والقرآن قال ﴿ مِّن طِينٍ (١٢) ﴾ [المؤمنون] و ﴿ مِّن تُرَابٍ (٥) ﴾ [الحج] و﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) ﴾ [الحجر] و﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) ﴾ [الرحمن].وقد غاب عنهم أن هذه مراحل

للشيء الواحد كما قلنا ، فالماء يُوضَع على التراب فيصير طيناً ، ولو تُرِك هذا الطين إلى أنْ يعطن أو يتعفن يصير حمأ مسنوناً [1] ، فإنْ تُرِك حتى يجفّ يصير صلْصالاً .

الحق سبحانه يُحدِّثنا هنا عن الخلْق الأول للإنسان ﴿ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الصافات] ؛ لأن آدم عليه السلام خُلِق من الطين ثم خُلِقت بعده حواء ، والقرآن قَصَّ علينا قصة خلْق آدم ، لكن اكتفى في خَلْق حواء بقوله تعالى :﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿١﴾ ﴾ [النساء]

قالوا : ﴿ منها ﴾ يعني من جنس تكوينها ، فيصح أن تكون حواءُ قد خُلِقت مثل آدم من الطين ، أو خُلِقَتْ من ضلع من أضلاعه ، وفي كلتا الحالتين تعود إلى أصل الطين ، والله تعالى يخلق ما يشاء ، وسبق أنْ بيَّنا طلاقة القدرة في عملية خَلْق الإنسان ، وأنها استوعبت كُلَّ الصور العقلية لهذه العملية ، فالله سبحانه يخلق من لا أب ولا أم ، ويخلق من أب بلا أم ، ويخلق من أم بلا أب ، وقد يجتمع الأب والأم ولا يحدث بينهما إنجاب .

يقول الحق سبحانه : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

إذن : خَلْق الإنسان الأول ، وهو آدم عليه السلام من الطين ، وخُلِقَتْ من جنسه زوجه ، ثم جاءت الذرية من آدم بعد أنْ فارق

(١) الحمأ والحمأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب في قالب إنساني أو مصوَّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل . [القاموس القويم ١/ ٣٣١] .

الطينية وصار إنساناً ، فنحن وإنْ جئنا من نسل إنسان ، إلا أنه يعود في أصله إلى الطين ، فإنْ قُلْتَ : أين الطينية ، وقد تشكَّل شكلاً آخر غير الطين ، بدليل أنه إذا استحم بالماء لا يذوب كما يذوب الطين وتتفكك جزئياته .

نقول : لا بُدَّ أن يرد الإنسان الأصل أو الفرع إلى الأصل الأول وهو الطين ؛ لأن الإنسان يتوالد ويتكاثر بواسطة الحيوان المنوى في الذكر والبويضة في الأنثى ، فمن أين يأتي هذا وهذه ؟ من الدم ، والدم نتيجة الغذاء ، والغذاء مصدره الأرض والطين . إذن : سنؤول لا محالة إلى الطين ، لكن من الطين مرة بواسطة ، ومرة بدون واسطة .

والحق سبحانه نبَّهنا إلى هذه المسألة في قوله تعالى :﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (٥٣) ﴾ [فصلت]

فنحن لم نشاهد عملية الخَلْق ، إنما أخبرنا الله بها ، فعلمنا أن الإنسان خُلِق من الطين الذى مَرَّ بهذه المراحل ، حتى نفخ الله فيه الروح ، ودبَّتْ فيه الحياة ، هذا كله لم نشاهده ، لكن شاهدنا الموت الذى ينقض الحياة ، وعلينا نحن أن نأخذ مما نشاهده دليلاً على صدق الغيب الذى أخبرنا الله به ولم نشاهده .

ونحن نعلم أن نَقْضَ الشيء يأتي على عكس بنائه ، فالذى يهدم عمارة مثلاً من عدة أدوار يبدأ بالدور الأخير ، كذلك يأتي الموت عكس الحياة ، فأول شيء ، تخرج الروح ، ومعلوم أن نَفْخَ الروح في الإنسان هي آخر مرحلة في مراحل الخَلْق ، فإذا ما فارقتْ الروحُ الجسدَ عاد إلى أصله ، حيث يرمَ الجسد وتمتص الأرض ما فيه من

الماء ، ثم يتحلل الباقى ويعود إلى التراب الذى جاء منه .

ثم آخر ، هو أن الإنسان الذى خُلِق من الطين وقوامه الغذاء الذى يخرج من الطين ، لما حلَّل العلماء جسمَ الإنسان وجدوه مُكوَّناً من ١٦ عنصراً . أولها : الأوكسجين ، ثم الكربون ، ثم الهيدروجين ، ثم النتروجين .. الخ . وهى نفس العناصر المكوِّنة للتربة الزراعية الخصْبة التى تعطينا القوت ، إذن : يكون هذا دليلاً على صدْق الحق - تبارك وتعالى - فى قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لاَّزِبٍ (١١) ﴾ [الصافات]

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لاَ يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) ﴾

معنى (بَلْ) إضراب عن الكلام السابق وبداية لكلام جديد (عَجِبْتَ) بالفتح أى : يا محمد . والعَجَبُ : هو استغراب وقوع شيء على خلاف نظائره ، ومن ذلك قوله تعالى فى العقائد : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ .. (٢٨) ﴾ [البقرة]

يعنى : كيف يحدث منكم الكفر بعد أنْ فعلنا بكم ذلك ؟ هذا شيء مُسْتغرب ، ومسألة عجيبة . يعنى : جاءت على خلاف ما يُنتظر منكم .

لكن من أىِّ شيء عجب النبى ﷺ ؟ عجب من إنكارهم ومن كفرهم ، مع وضوح الأدلة الدامغة على صدْق قضية الإيمان . وقد سُقْنا لهم الدليل تلْو الدليل ، ومع ذلك كذَّبوا ؛ لذلك قال تعالى مُخاطباً نبيه ﷺ فى موضع آخر : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ .. (٥) ﴾ [الرعد]

يعني : وافق الله محمداً على أنْ يعجب . والمعنى : إنْ تعجب يا محمد فقولهم عَجَب . لكن عجب عند مَنْ ؟ يجوز عجب عند رسول الله ، ويجوز عجب عند الله تعالى ، إذن : هل يعجب الله تعالى كما تعجب ؟ قالوا : نعم ، بدليل أن في هذه الآية قراءةً بالضم (بل عجبتُ)[1] بتاء المتكلم سبحانه ، وبدليل ما ورد في الحديث الشريف : « تعجب ربك من شاب ليست له صَبْوة »[2]

لماذا ؟ لأنه خرج عن طبيعة التكوين الإنساني ، أو قدر على نفسه وتحكم فيها ، بحيث لم يفعل ما يفعله الشباب ، فهذا شيء مستغرب منه ، ومعنى تعجب الحق سبحانه من هذا أنه يستغرب منه هذا العمل ؛ ليجازيه جزاءً مُستغرباً كذلك .

وسبق أنْ قُلْنا : إذا وُجدت صفة مشتركة بيننا وبين الحق سبحانه ، فعلينا أن نأخذها في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء]

وقوله : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

لذلك إياك أن تقول : الله خادع أو الله ماكر ؛ لأن هناك فَرْقاً بين

---

(١) قراءة أهل المدينة وأبي عمرو وعاصم بفتح التاء خطاباً للنبي ﷺ ، وهي قراءة شريح وأنكر قراءة الضم وقال : إن الله لا يعجب من شيء ، وإنما يعجب من لا يعلم . وقرأ الكوفيون إلا عاصماً بضم التاء . واختارها أبو عبيد والفراء وهي مروية عن علي وابن مسعود . قال الفراء : الرفع أحب إليّ ، لأنها عن علي وعبد الله وابن عباس . والعجب إن أسند إلى الله عز وجل فليس معناه من الله كمعناه من العباد . [تفسير القرطبي ٥٧٠٨/٨] بتصرف .

(٢) عن عقبة بن عامر قال قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ليعجب من الشاب ليست له صبوة » . أخرجه أحمد في مسنده (١٥١/٤) وابن أبي عاصم في السنة (٢٥٠/١) . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٠/١٠) وعزاه لأحمد وأبي يعلى والطبراني وقال : إسناده حسن .

أسماء الله تعالى وأفعال وصف الله بها نفسه سبحانه . فالمكر مثلاً من أفعال البشر يُراد به خداع الخصم والتخييل عليه ، لتستطيع أنت أنْ تنفذ إلى غَرَضك منه ، وهذا المكر يقابله مكْر مثله يشاكله أو أمكر منه .

والمكر مأخوذ من قولهم شجرة ممكورة ، وهي شجرة ذات عيدان ملفوفة بعضها على بعض ، بحيث لا تستطيع أنْ تميِّزها ، ولا أنْ تردَّ كل فرع فيها إلى أصله ، كذلك المكر فيه لفٌّ وحيل لتستر سيئاتك عن خَصْمك ، هذا في مكر البشر بعضهم ببعض ، لكن إنْ مكر الله بك فلن ينجيك من مكره شيء ؛ لذلك قال سبحانه :﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وقوله تعالى :﴿ وَيَسْخَرُونَ (١٢) ﴾ [الصافات] السخرية هي الاستهزاء من الشيء ، والمعنى أنك تعجب يا محمد من نكرانهم وتكذيبهم مع وضوح الأدلة ، وهم يسخرون منك ومن تعجبك ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُوا (١٣) ﴾ [الصافات] يعني : بآيات أخرى وبراهين ترشدهم ﴿ لا يَذْكُرُونَ (١٣) ﴾ [الصافات] أي : يُعرضون عنها ، ولا يلتفتون إليها ، ويصرون على الإنكار ﴿ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً (١٤) ﴾ [الصافات] أي : دليلاً جديداً ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) ﴾ [الصافات] أي : يبالغون في السخرية .

ففي الآية قبل السابقة قال : ﴿ وَيَسْخَرُونَ (١٢) ﴾ [الصافات] وهنا ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) ﴾ [الصافات] هذا دليل على أن من هؤلاء المكذبين أناساً ترقُّ قلوبهم لآيات الله وللأدلة الإيمانية ، وحين ترقُّ قلوبهم تخفّ لديهم نزوة الكيد لمحمد ، فيكتفون بالتكذيب دون السخرية ؛

لأن الإباء يأتي على درجات ، فواحد يأبى أنْ يفعل ما تأمره به ، وآخر يأبى أن يفعل ويسخر منك .

فهؤلاء الذين يسخرون لا يكتفون بالسخرية من رسول الله ، إنما ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ (١٤) ﴾ [الصافات] يعني : يطلبون ممَّنْ لا يسخر أنْ يسخر ، يعني : يستسخرون غيرهم ، إذن : هناك فَرْق بين يسخرون ويستسخرون ، حتى لا نقول كما يقول بعض المستشرقين : هذا تكرار في كلام الله .

﴿ وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١٥) ﴾

معنى ﴿ إِنْ هَٰذَآ (١٥) ﴾[الصافات] ما هذا إلا سحر ﴿ مُّبِينٌ (١٥) ﴾ [الصافات] يعني : واضح ، والسحر كما قلنا تخييل شيء غير واقع ، فيُخيَّل إليك أنه واقع ، فالسحر لا يغير حقيقة الشيء ، إنما يسحر الناظر إليه ، كما قال تعالى في سحرة فرعون : ﴿ .. سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ (١١٦) ﴾ [الأعراف]

وقال : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [طه]

إذن : أين السحر من دعوة محمد ﷺ ، ومن قضية الإيمان التي يدعو الناس إليها ؟ والرد على هذه الفرْية سهل وواضح : إذا كانت عند محمد القدرة على أن يسحر الناس ، فيؤمنوا بدعوته ، وسحر هؤلاء الذين آمنوا فَلِمَ لم يسحركم أنتم ؟ إذن : هذا اتهام باطل لا معنى له .

ثم يعودون مرة أخرى إلى مسألة البعث ، ليسألوا عنها سؤالَ إنكار واستبعاد ، وهي أصل من أصول الدين لا يستقيم الإيمان إلا بها :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ[1] ﴿١٨﴾ ﴾

عجيب منهم إنكار البعث بعد ما سُقْناه إليهم من أدلة ، حتى إنْ أنكروا أدلتنا وكذَّبوا بها ، ألم يسمعوا من الأمم السابقة والرسالة التي مَضَتْ أن البعث حَقٌّ ؟ إذن : هو العناد والاستكبار عن قبول الحق .

لذلك ، فالقرآن الكريم يضرب لهم مثلاً ودليلاً على صدْق الإخبار بالبعث ، ويسوق هذه القصة من الأمم السابقة في سورة البقرة ﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ[2] وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا[3] ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة]

هذه قصة واقعية ؛ لأن القرآن حكاها لنا عن الأمم السابقة ؛ لتكون دليلاً على قدرة الله على بَعْث الموتى ، وهي قصة رجل باحث

---

(١) داخرون : أذلاء صاغرون منقادون لأمر الله تعالى .[القاموس القويم ١/٢٢٢]

(٢) سنه الطعام يسنه . تغيَّر بعد مُضيِّ زمن عليه . [القاموس القويم ١/٣٢٢]

(٣) أنشز الشيء : رفعه وأبرزه وأقامه . أي . ترفع العظام بعضها فوق بعض حتى يتكوَّن هيكل عظمي كامل ثم تكسوها لحماً فيصير حماراً حياً كما كان . [القاموس القويم ٢/٢٦٧] .

عن الحقيقة ، جعله الله مثالاً ونموذجاً لنفسه أولاً ، ولمن جاء بعده ، فلما مَرَّ على القرية وهى على هذا الحال من الخراب استبعد أنْ تحيا بأهلها مرة أخرى ، فأماته الله ليُريه كيف يحيي الموتى .

وصدق الرجل فى قوله ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ (٢٥٩)﴾ [البقرة] وصدق الله فى قوله ﴿ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ (٢٥٩)﴾ [البقرة] كيف ؟ لأن عظام الحمار التى تحولت إلى تراب دَلَّتْ على المائة عام ، وطعامه الذى لم يتغير دَلَّ على يوم أو بعض يوم ، وهذا ليس عجيباً ، ما دام أن الفاعل هو الله عز وجل القابض الباسط ، فهو وحده القادر على أنْ يجمع بين الضِّدَّيْن ، فيقبض الزمن فى حَقِّ قوم ، ويبسطه فى حق آخرين .

ألم يأمر نبيه موسى - عليه السلام - أن يضرب بعصاه البحر ، فصار الماء كُلُّ فِرْق كالطود العظيم ، وأمره أنْ يضرب بعصاه الحجر ، فانبجست[1] منه اثنتا عشرة عَيْناً ؟ إذن : هى طلاقة القدرة .

وعجيبٌ منهم أيضاً أنْ يسألوا عن الآباء ، مع أن قضية البعث واحدة ، فقولهم ﴿أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)﴾ [الصافات] دليل على تخبُّطهم ، أو ربما فهموا أن الذى سيموت حديثاً (طازة) يعنى : هو الذى سيُبعث ، أما القديم فبَعْثه غير ممكن .

ويردُّ الله عليهم (قُلْ) يعنى : قل لهم يا محمد بملء فيك (نَعَمْ) يعنى : ستُبعثون ، والنبى يقولها قَوْلة الواثق ؛ لأنه مأمور بها من قِبَل الله القادر على أنْ يبعث الخَلْق ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (١٨)﴾ [الصافات] يعنى : ستُبْعَثون حال كونكم ﴿دَاخِرُونَ (١٨)﴾ [الصافات]

(١) انبجست : تفجرت ونبعت فى قوة . [لسان العرب - مادة : بجس].

يعني: صاغرين أذلاء خاضعين ، جزاءَ اللَّدَد والعناد والاستكبار على قبول الحق في الدنيا ، كما قال تعالى في موضع آخر : ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات]

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ﴾

قوله تعالى ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ (١٩) ﴾ [الصافات] أي : مسألة البعث ﴿ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٩) ﴾ [الصافات] صيحة[1] واحدة ، أو نفخة واحدة كافية لأن تُخرجهم من قبورهم ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) ﴾ [الصافات] لا أننا سنذهب إلى كل واحد منهم ونوقظه (اصحى يا فلان) إذن : البعث الذي تكذّبون به أمرُه يسير علينا ، ولا يُكلِّفنا شيئاً .

والصيحة في ذاتها لا تبعث الموتى ، إنما هي مجرد إذْن للملك ، بأن يباشر مهمته ، فهي مثل الجرس الذي يُبْدأ به العمل ، فبعد الزَّجْرة ﴿ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ (١٩) ﴾ [الصافات] هكذا مباشرة ؛ لأن إذا هنا تدل على المفاجأة ، فالأمر لن يستغرق وقتاً ، وأول ما يقومون من القبور ينظرون أي : هنا وهناك ؛ لأنهم سيروْنَ أمراً عجيباً لا عَهْدَ لهم به ، وسيُفاجئهم ما كانوا يُكذِّبون به في الدنيا .

لذلك حكى القرآن عنهم في آية أخرى : ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا (١٢) ﴾ [السجدة] وهي أول آية في القرآن يتقدم فيها البصر على السمع ؛ لأنهم أول ما يفاجئهم يفاجئهم منظرٌ جديد لم يَرَوْهُ من قَبْل ، فينظرون إليه .

---

(١) قال الحسن البصري : هي النفخة الثانية ، وسميت الصيحة زجرة ؛ لأن مقصودها الزجر، أي : يُزجر بها كزجر الإبل والخيل عند السَّوْق . [تفسير القرطبي ٨/ ٥٧٦٠].

فإذا ما عاينوا هذا المنظر ، قالوا : ﴿ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ﴾ [الصافات] هم الذين يقولون ، وهم الذين يدْعُون على أنفسهم بالوَيْل والثبور ، لا نقولها نحن ويلكم ، بل يقولونها هم ﴿ يَـٰوَيْلَنَا (٢٠) ﴾ [الصافات] يعنى : احضر ، فهذا أوانك ؛ لأنهم الآن تكشَّفَتْ لهم الحقائق وبَانَ كذبُهم وفسادُ تفكيرهم ، وما كانوا فيه فى الدنيا من اللَّدَد والعناد ، وأول ما يتبين للإنسان فسادُ تفكيره وسوء عمله أوَّل ما يلوم يلوم نفسه ، فيدعو عليها .

وقولهم : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) ﴾ [الصافات] يعنى : يوم الجزاء على الأعمال ، هذا الجزاء الذى لم يؤمنوا به فى الدنيا ، ها هم يعترفون به ، أو ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) ﴾ [الصافات] يعنى : هذا هو اليوم الذى ينفع فيه الدين ، كما تقول لولدك وهو مُقبل على الامتحان : هذا يوم المذاكرة . يعنى : اليوم الذى لا تنفعك فيه إلا مذاكرتك .

ثم يقولون : ﴿ هَـٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ (٢١) ﴾ [الصافات] ثم يعترفون ﴿ الَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١) ﴾ [الصافات] والفصل لا يكون إلا فى الخصومة ، والخصومة هنا كانت بين الرسل وأقوامهم المكذِّبين لهم والمعاندين ، ومثْل هذه الخصومة لا يُنهيها الجدل ؛ لأن المكذبين لديهم لدَد وعناد ، وقد لا يُنهيها السيف حتى يموت الظالم دون أنْ يقتصَّ منه .

إذن : لا بُدَّ أنْ يأتى يوم للقصاص وللفصل فى هذه الخصومات ؛ لذلك قال أحدهم : والله لا يموت ظلوم حتى ينتقمَ الله منه ، فقال الآخر : كيف وفلان ظلم كثيراً ولم نَرَ فيه شيئاً ؟ قال : والله ، إن وراء هذه الدار داراً أخرى يُجَازَى فيها المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته .

نعم ، لا بُدَّ من هذا اليوم ، وإلا لَكانَ الظالم أحظَّ من المظلوم .

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[1] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾

أي : اجمعوا كل هؤلاء معاً في النار ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الصافات] إذن : المحشور ثلاثة : الذين ظلموا جزاءَ ظلمهم ، وأزواجهم ، وما كانوا يعبدونه من دون الله . قلنا : الزوج يعني المفرد ومعه مثله . فلا نقول على الرجل والمرأة زوج ، إنما زوجان ، الرجل يسمى (زوج) والمرأة تسمى (زوج) ، لا أن الزوج يعني الاثنين كما يظن البعض ، ومثلها كلمة توأم ، فكل واحد منهما يُسمَّى توأم ، وهما معاً توأمان ؛ لذلك قال تعالى في سورة الأنعام : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأنعام]

وقال : ﴿ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ .. ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأنعام]

فلو أن الزوج يُطلق على الاثنين لقال : أربعة أزواج .

ومعنى كلمة ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الصافات] أي : أزواجهم في الدنيا ، كالزوجة التي تعين زوجها على الظلم ، كامرأة أبي لهب ، التي قال الله في حقها : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ

(١) الزوج هنا بمعنى الشكل أو الصنف يكون له نظير أو نقيض ، كالرطب واليابس والذكر والأنثى . [القاموس القويم ١/٢٩١] . وقد أورد القرطبي في تفسيره [٥٧١٢/٨] عدة معان لكلمة ازواج في الآية :

- « يحشر الكافر مع الكافر . قاله قتادة وأبو العالية .
- يحشر الزاني مع الزاني ، وشارب الخمر مع شارب الخمر ، وصاحب السرقة مع صاحب السرقة . قاله عمر بن الخطاب
- يحشر معهم نساؤهم المرافقات على الكفر . قاله مجاهد والحسن .
- يحشر معهم قرناؤهم من الشياطين ، قاله الضحاك ومقاتل بنحوه » .

وخلاصة القول في معنى (أزواجهم) : أشباههم وأمثالهم .

﴿ ... (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا[1] حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ (٥) ﴾ [المسد]

أو يُراد بأزواجهم أشكالهم ونظائرهم وقرناءهم الذين أضلُّوهم وأغووْهم ﴿ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِن دُونِ اللَّهِ .. (٢٣) ﴾ [الصافات] أي : الأصنام التي عبدوها من دون الله ، تُحشَر معهم في النار ، ليَرَوْا آلهتهم التي عبدوها وتعلّقوا بها تسبقهم إلى النار ، فينقطع أملهم في النجاة ويبين لفساد تفكيرهم ، حيث عبدوا أصناماً لا تضرُّ ولا تنفع ، وهذا توبيخ لهم ؛ لذلك يمتدُّ هذا التوبيخ بعنف في قوله تعالى : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) ﴾ [الصافات] وهل القذف في النار هُدىً ؟ والمعنى : دُلُّوهم على طريق جهنم ، يعني : سخريةٌ منهم وتهكماً بهم .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) ﴾ [الصافات] أي : احبسوهم للسؤال وللحساب ، وهذا السؤال سيكون فردياً ليس جماعياً ، فكل واحد منهم سيُسأل وسيُناقش ، قالوا : في السؤال تبكيت النفس للنفس قبل أن يُبكّتهم الله الذي كفروا به ، يعني - ساعةَ يعاينون البعث وموقف الحساب يُبكّتون أنفسهم ، ويندمون ساعةَ لا ينفعُ الندم .

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾

وهذا الاستفهام أيضاً على سبيل السخرية والتهكُّم ، يعني : ما لكم الآن لا ينصر بعضكم بعضاً وكنتم تَتَاصرون في الدنيا ،

---

(١) الجيد : العنق . المسد : الحبل من الليف أو الخوص أو الشعر أو الوبر . وهو الحبل المضفور المحكم الفتْل ، قد لُوِي ليّاً شديداً . [لسان العرب - مادة : مسد] .

الأتباع يتصرون السادة ، والسادة يُجنِّدون الأتباع ، وما أشبههم في هذا الموقف بالمثل القائل : وافق شنٌ طبقه ، أو قولنا (اتلم المتعوس على خايب الرجا) .

لذلك يقول تعالى بعدها : ﴿ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) ﴾ [الصافات] أي : خاضعين منقادين أذلاَّء مُهانين ، ونحن نقول : رفع الراية البيضاء . يعني : لم يَعُدْ لديه شيء من القوة يدافع بها عن نفسه ، ولا حجة ولا منطق ، إنه الآن قاعد في ذِلَّة وصَغَار ، ينتظر أمر الله فيه .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ (٣٠) ﴾

تأمل هذه المواجهة بين التابع والمتبوع ، بعد أنْ ظهرت خيبة الجميع وتكشَّفَتْ الحقائق التي طالما أنكروها في الدنيا وكذَّبوا بها ، إنهم الآن يُلْقي كل منهم بالمسئولية على الآخر ، ويتساءلون فيما بينهم .

﴿ قَالُوا (٢٨) ﴾ [الصافات] أي : الأتباع ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) ﴾ [الصافات] اليمين يعني من جهة اليمين ، واليمين منه اليمن والتيمن ، واليمين جهة الخير ؛ لذلك أمرنا النبي ﷺ بالتيمُّن[1] في كل شيء ، فبها نُسلِّم ، وبها نأكل ونشرب ، ونتناول الأشياء ونكتب ، لأنها مُشرَّفة مُكرَّمة ، حتى العرب قديماً كانوا يتفاءلون بجهة اليمين لو طار الطيرُ ناحية اليمين .

---

(١) أخرج البخاري في صحيحه (١٦٨ ، ٤٢٦ ، ٥٣٨٠) من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره ، في شأنه كله .

واليمين أيضاً من معانيها أنها مصدر القوة في الفعل ، وغالبية الناس يستخدمون اليمين ، وهي عندهم الأقوى ، وقد سُئلْنا مرة عن الذين يعملون بالشمال : هل ننهاهم عن ذلك ؟ نقول : العمل باليمين أو اليسار ليس مجرَّد تعوُّد ، إنما هو تكوين طبيعي في الجسم ، ففي الجسم مركز يتحكم في توزيع القوة ، فبعض الناس يميل مركز القوة عندهم ناحية اليمين ، فتكون يمينه أقوى من شماله ، وبعضهم العكس ، وبعضهم يتساوى عنده مركز القوة ، فيعمل باليمين ويعمل باليسار بنفس القوة ، وهذا يُسمُّونه (الأضبط)[1] مثل سيدنا عمر رضي الله عنه .

ومن معاني اليمين أيضاً الحلف والقَسَم . وهذه المعاني كلها واردة في معنى هذه الآية ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) ﴾ [الصافات] يعني : من جهة الخير والحق لتصرفونا عنه ، أو من ناحية البطش والقوة لتجبرونا على الفعل ، أو بالحلف يعني : تحلفون لنا أن هذا هو الطريق الصحيح ، لا طريق غيره .

ويرد المتبوعون على التابعين ﴿ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) ﴾ [الصافات] يعني : ما أخرجناكم من الإيمان إلى الكفر ، بل كنتم بطبيعة الحال غير مؤمنين ، وبمجرد أنْ أشرنا إليكم سرْتم خلفنا وتابعتمونا ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ (٣٠) ﴾ [الصافات] والسلطان إما سلطانُ قوة يقهركم على الفعل ، وإما سلطان حجة يقنعكم بالكفر ، فليس لنا عليكم لا سلطانُ قوة وقهر ، ولا سلطان حجة وإقناع .

﴿ بَلْ كُنتُمْ (٣٠) ﴾ [الصافات] بطبيعتكم ﴿ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) ﴾ [الصافات] أي : متجاوزين للحدِّ في الكفر وفي الضلال . وهذه تعليمة إبليس يقولها

---

(١) الأضبط : هو الذي يعمل بيديه جميعاً ، يعمل بيساره كما يعمل بيمينه . قاله أبو عبيد . وهو الذي يقال له أعسر يَسَرٌ . [لسان العرب – مادة : ضبط]

لأتباعه فى الآخرة حين يتبرأ منهم ويُلقى عليهم مسئولية كفرهم ، كما حكاه القرآن الكريم : ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَـٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَـٰوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ (٣٤) ﴾

معنى ﴿ فَحَقَّ (٣١) ﴾ [الصافات] أى : وقع ووجب ﴿ عَلَيْنَا (٣١) ﴾ [الصافات] أى : جميعاً التابع والمتبوع ، الجميع وجب له العذاب ، والحق هو الشىء الثابت الذى لا يتغير ، وهذا المعنى ورد فى القرآن بأساليب ثلاثة : ﴿ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ (٤٠) ﴾ [هود] ، و ﴿ حَقَّ الْقَوْلُ (٧) ﴾ [يس] ، و﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ (٨٢) ﴾ [النمل]

فقد سبق منَّا أنْ أخبرنا بحدوث الشىء ، وقد تحقق بالفعل ما أخبرنا به وتحقُّقه بوَقْع يعنى : بقوة وبشدة . وقالوا : إن كلمة ﴿ وَقَعَ الْقَوْلُ (٨٢) ﴾ [النمل] لم تُستخدم إلا فى الشرّ ، ما عدا مرة واحدة استُخدمت فى الخير ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ .. (١٠٠) ﴾ [النساء]

وتأمل قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) ﴾ [الصافات] ولم يقولوا مُعذَّبون أو مُحرَّقون ، لأن العذاب أو الإحراق يمكن أنْ ينتهى فى وقت من الأوقات ، أما الإذاقة فهى دائمة ومستمرة ، وهذا المعنى

واضح فى قولـه تعالى : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ[1] جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

وقد اكتشفنا مُؤخَّراً أن الجلد هو مركز الإحساس لا المخ ، بدليل أنك حين تأخذ حقنة مثلاً تشعر بالألم بمجرد أن تنفذ الإبرة من منطقة الجلد ، وبعد ذلك لا تشعر بألم ، هذه الحقيقة قررها الحق سبحانه فى قوله : ﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء] لماذا ؟ ﴿ لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء] فإذاقة العذاب فى نفس الجلد .

وقولهم : ﴿ فَأَغْوَيْنَاكُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الصافات] أى : دَلَلْنَاكم على طريق الغواية والضلال ، والغاوى هو الذى ضلَّ طريق الخير والحق ﴿ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الصافات] والمعنى : إنْ كُنَّا نحن ضالين غاوين ، فلماذا نتركـكم للهداية وللإيمان ، لا بُدَّ أنْ تشربوا معنا من نفس الكأس ، وهذا منطق أستاذهم إبليس ، فلما عصى وطُرد من رحمة الله أقسم أنْ يُضلَّ معه ذرية آدم ، ليكونوا مثله فى الضلال .

ثم يُنهى الحق سبحانه هذه المواجهة بين أهل الباطل ، ويقرر هذه الحقيقة ﴿ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الصافات] أى : يوم القيامة ﴿ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الصافات] وهذه سُنَّتنا فى أهل الضلال ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الصافات] والمجرم هو الذى يُكذِّب بقضية الإيمان الأولى ، وهى التوحيد ؛ لذلك يصفهم الحق سبحانه فى الآية بعدها :

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾

---

(١) نضجت جلودهم : المراد احترقت . [القاموس القويم ٢/ ٢٧٠]

قوله سبحانه : ﴿إِنَّهُمْ (٣٥)﴾ [الصافات] أي : الكفار الذين وُصفُوا بالإجرام ﴿كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥)﴾ [الصافات] أي : يستكبرون عن قبولها والتصديق بها ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا(٣٦)﴾ [الصافات] يعني . منصرفون عن عبادتها ﴿لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ (٣٦)﴾ [الصافات] أي : من أجله ، ومن أجل دعوته .

وعجيب من العرب وهم أمة كلام يُقدِّرون الكلمة ويتذوَّقونها ، ويجعلون لها أسواقاً ومعارض ، ويُكرِّمون الشعر والشعراء ، لدرجة أنهم علَّقوا أجود قصائدهم على أستار الكعبة ، عجيب من قوم هذا حالهم أنْ يقولوا ﴿آلِهَتِنَا (٣٦)﴾ [الصافات] وهم يعلمون تماماً معنى الألهة ومعنى العبادة ، فالإله يعني المعبود فبأي حَقٍّ عُبدَتْ الأصنام ؟ بماذا أمرتكم ؟ وعن أي شيء نهتْكم ؟ ما المنهج الذي جاءتكم به ؟

نعم هم يعلمون أنها جمادات ، لا تضر ولا تنفع ، لكن عبدوها بفطرة التديُّن في الإنسان ، فالإنسان بطبعه مُتدين يحب أن يستند إلى قوة أعلى منه يلجأ إليها عند الشدة ، قوة تعينه على التجلُّد والتصبُّر للأحداث ، وقد وجدوا في هذه الآلهة أنها آلهة بلا تكاليف وبلا متطلبات ، فعبدوها من دون الله .

ثم عجيبٌ منهم وهم أمة كلام ألاَّ يفرقوا بين كلام الله في القرآن وبين الشعر ، وهم أعلم الناس به وبأوزانه وقوافيه ، فأين الشعر من كلام الله في القرآن ؟ ثم عجيب منهم أنْ يتهموا رسولَ الله بالجنون ، وهم أعلمُ الناس به وبأخلاقه وصفاته وسيرته فيهم قبل بعثته ، وما أبعدَ الجنون عن الذي جمع محاسن الصفات وكريم الأخلاق !!

الجنون أنْ يتصرّف المجنون بجوارحه تصرُّفاً لا يمرُّ على العقل ، المجنون لا يفاضل بين الأشياء ، ولا يعرف الضَّارَّ من النافع ،

المجنون ليس له خُلُق ، لذلك يردُّ الحق عليهم ويدفع عن رسوله اتهاماتهم . فيقول : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ① مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ② وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ③ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ ﴾ [القلم]

لذلك يقول تعالى هنا : (بل) وهي للإضراب عن الكلام السابق ، يعني : دَعْكَ من هذا الهُراء ﴿ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ ㊲ ﴾ [الصافات] بالشيء الثابت الذي لا يتغير ﴿ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ㊲ ﴾ [الصافات] صدق مَنْ سبقوه من الرسل في منهج الله .

﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا[1] ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ㊳ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ㊴ ﴾

في الآيات السابقة قال سبحانه حكايةً عن الظالمين قولَ المتبوعين لأتباعهم : ﴿ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ㉛ ﴾ [الصافات] وهنا يؤكد هذا المعنى ، إلا أنه يُصرِّح هنا بنوع الإذاقة ﴿ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ㊳ ﴾ [الصافات] وهذا العذاب الأليم ليس ظلماً ولا تعدياً ، إنما جزاء ما قدَّمتم : ﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ㊴ ﴾ [الصافات]

وبعد الحديث عن أهل الكفر واللَّدَد وأهل الإجرام والعناد ، وبيان مصيرهم ، وما ينتظرهم من الجزاء يُتبع الحق سبحانه هذا بالحديث عن أهل الإيمان الذين أخلصوا العبادة لله ، والجمع بين المتقابلين أسلوب من أساليب القرآن ، كما في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ⑬ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ⑭ ﴾ [الانفطار] وبضدِّها تتميز الأشياء ، والشيء بعد

---

(١) حذفت النون من (ذائقون) تخفيفاً ، وأضيفتْ لما بعدها . القرطبي في تفسيره (٥٧١٥/٨) .

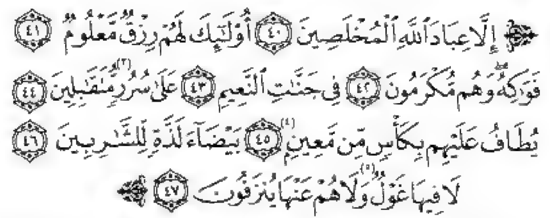
ذكر مقابله يتبين حُسْنه ، كما قال الشاعر[1] واصفاً محبوبته :

فَالوَجْهُ مِثْلُ الصُّبْحِ مُبْيضٌ　　　والشَّعْرُ مِثْلُ الليْلِ مُسود

ضِدَّانِ لمَّا اسْتجْمعَا حَسُنَا　　　والضدُّ يُظهِرُ حُسْنَهُ الضدُّ[2]

لذلك يذكر الحق سبحانه ما أعدَّه للمؤمنين المخلصين ، بعدما ذكره من جزاء الظالمين المكذِّبين ، لينشيء الحسرة في نفوسهم ، فتكون عذاباً جديداً يضاف إلى عذابهم في النار.

يقول تعالى :



(١) هو : أبو الشيص الخزاعي ، محمد بن علي بن عبدالله ، شاعر سريع الخاطر رقيق الألفاظ ، ولد (١٣٠ هـ) ، من أهل الكوفة ، غلبه على الشهرة معاصراه صريع الغواني وأبو نواس. هو ابن عم دعبل الخزاعي ، عَمِي في آخر عمره ، قتله خادم لعقبة في الرقة (توفي ١٩٦هـ) . [الموسوعة الشعرية]

(٢) البيتان من قصيدة لأبي الشيص الخزاعي من بحر أحذ الكامل ، عدد أبياتها ٦٦ بيتاً ، ولكن لفظ البيت (متبلج) وليس (مبيض) .

(٣) مما ورد في هذا ما ذكره ابن القيم في كتابه « حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح » (ص٢٤٥) وعزاه لابن أبي الدنيا من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض . قال : فيسير سرير هذا إلى سرير هذا ، وسرير هذا إلى سرير هذا ، حتى يجتمعا جميعاً ، فيقول أحدهما لصاحبه : تعلم متى غفر الله لنا ؟ فيقول صاحبه : يوم كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا .

(٤) قال الزجاج : (بكأس من معين) أي : من خمر تجري كما تجري العيون على وجه الأرض . والمعين : الماء الجاري الظاهر . [القرطبي في تفسيره ٥٧١٧/٨].

(٥) أورد السيوطي في الدر المنثور (٨٧/٧) عن قتادة : (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) قال : لا تُذهب عقولهم ، ولا تصدع رؤوسهم ، ولا توجع بطونهم ، عزاه لعبد الرزاق وابن =

سبق الحديث عن جزاء الكافرين ، وهنا استثناء ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الصافات] فهم مُستثْنون بعيدون من هذا المصير ، وكلمة ﴿الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الصافات] جمع مخلَص بالفتح ، فهى اسم مفعول . يعنى : الذين أخلصهم الله واصطفاهم لطاعته وعبادته ﴿أُولَـٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ [الصافات] أى : فى الآخرة لأن رزق الدنيا ليس معلوماً ؛ لأنك تكدُّ وتتعب فى الدنيا ، وقد تُحرَم ثمرة هذا الكَدّ ، فالزراعة قد تبور ، والتجارة قد تخسر .

إذن : لنا رزق فى الدنيا ، لكنه غير معلوم ، أما فى الآخرة فرزْقُكَ معلوم مُخصَّص لك لا يتخلف أبداً ، ولا تحول دونه الأسباب ؛ لأنك تعيشُ فى الآخرة - كما قلنا - مع المسبِّب سبحانه .

وسبق أنْ عرَّفنا الرزق وقلنا : إنه كلُّ ما يُنتفَعُ به ، حتى ما يُؤخذ من الحرام يُعَدُّ رزقاً ؛ لذلك قال تعالى : ﴿يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة]

ثم ينتقل السياق إلى تفصيل ما أجمل فى كلمة (رزق) . وأهم رزق ينتفع به المرء هو القُوت الضرورى الذى به قِوَام حياته ، ثم التفكّه بما يُرفِّه هذه الحياة ، لكن الحق سبحانه هنا لم يذكر الضروريات ، إنما ذكر الترف الزائد على الضروريات ﴿فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الصافات] مع أنه فى مواضع أخرى ذكر الضروريات ، ثم أتبعها بالفاكهة والتَّرَفيات ، مثل قوله سبحانه : ﴿لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ

= أبى شيبة وابن جرير وابن أبى حاتم .

- وعن ابن عباس قال : فى الخمر أربع خصال : السُّكْر والصداع والقيء والبول . فنزَّه الله خمر الجنة عنها (لا فيها غول) لا تغول عقولهم من السُّكْر (ولا هم عنها ينزفون) لا يقيئون عنها كما يقيء صاحب خمر الدنيا عنها ، والقيء مستكره . عزاه السيوطى فى الدر المنثور (٧/٨٨) لابن أبى حاتم وابن مردويه .

وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)﴾ [يس]

إذن : لماذا اقتصر الكلام هنا على الفاكهة فحسب ؟ قالوا : لأن الكلام هنا عن الآخرة ، والأكل فى الآخرة لا يكون عن حاجة إلى الطعام ، إنما يكون متعةً وتفكُّهاً بالأكل . أو : يكون المراد أن الله تعالى ما دام قد ضمن لك التفكُّه ، فمن باب أَوْلَى ضمن لك القُوتَ الضرورى .

ومعنى ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢)﴾ [الصافات] أى : أنهم لا يُرْمَى لهم الأكل ليأكلوا ، كما نرمى الحشيش للبهائم مثلاً ، لا نقصد بذلك إكرامهم ، إنما يُساق لهم هذا الرزق ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣)﴾ [الصافات] لأنه رِزْقُ المحبِّ لأحبابه .

وقوله تعالى : ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٤)﴾ [الصافات] يعنى : لا يكلِّفهم مشقة التزاور ، فالسُّرُرُ التى يجلسون عليها متقابلةٌ ، بحيث إنْ أردتَ أنْ تزورَ أخاً لك تجده أمامك ، دون أن تنتقل إليه ، فهذه مسألة مضمونة .

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥)﴾ [الصافات] ، وفى آية أخرى بيَّن سبحانه الذين يطوفون بهذه الكأس ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨)﴾ [الواقعة]

الكأس يُراد بها الخمر أو القدح الذى يُوضَع فيه الخمر ﴿مِّن مَّعِينٍ (٤٥)﴾ [الصافات] يعنى : من شىء تراه بعينيك ، أو من عيون تجرى كما تجرى عيون الماء . ثم يصف هذه الخمر بأنها (بيضاء) والبيضاء هى أصفى أنواع الخمر عند العرب .

﴿لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦)﴾ [الصافات] ولم يقُلْ لذيذة . إنما (لَذَّة) أى :

هى فى ذاتها لَذَّة ، وكأن اللذة تجسدتْ فى هذه الكأس ، كما تقول : فلان عادل . فإنْ أردتَ المبالغة في هذا الوصف قُلْتَ : فلان عَدْلٌ .

ووصف الخمر فى الآخرة بأنها ﴿ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) ﴾ [الصافات] ليُفرِّق بينها وبين خَمْر الدنيا ، لأن خمر الدنيا كما نراهم يشربونها فى الأفلام لا تُشرَب للذة ، لأنه يضع القليل منها فى الكأس ، ثم يصبُّها فى فمه صبّاً ، ويتناولها على مَضَضٍ لكراهية طعمها .

لكن طالما أن خمر الدنيا لا لَذَّةَ في تعاطيها ، فلِمَ يشربونها ؟ يشربونها للأثر الذى ينشأ منها من اختلال العقل الذى يُعَدُّ حارساً على الحركة ، وهم يريدون الانطلاق والحرية من هذا الحارس ؛ لذلك فأجودُ أنواع الخمر عندهم والعياذ بالله ، هذه التى تُغيِّبه عن وَعْيه ، وتفعل به كذا وكذا .

أما خمر الآخرة فلا يجمعها بهذه إلا اسمها فحسْب ، خمر الآخرة لَذَّةٌ ، تشعر بها حين تتناولها ، وتأخذها رشفةً رشفةً على مهل لتتذوَّقَ حلاوتها ، ثم هى لا تذهب بالعقل ولا تغتاله ﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ (٤٧) ﴾ [الصافات] أى : لا تغتال العقول ، ولا تذهب بها .

﴿ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) ﴾ [الصافات] نقول : انزف الحوض . يعنى : أفرغه من الماء بالتدريج إلى نهايته ، ونزفَ الدمُ يعنى : سَالَ من الجسم واحدة واحدة ، إلى أنْ يموتَ الإنسان .

ومن أنواع الخمر ما يُسبِّب نَزْفاً لما فى البطن ، بحيث يفرغ شاربها كل ما فى بطنه ، ويُخرِج كلَّ ما فى جَوْفه . أما خمر الآخرة فلا تُسبِّب هذا النزف .

أو : يكون المعنى ﴿ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) ﴾ [الصافات] أى :

لا تُستنزف عقولهم ، ولا يَسْكَرون بسببها ، كما تُسكر خَمْر الدنيا[1] .

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾

هذا وَصْف لنساء الجنة فهُنَّ ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الصافات] يعني : تغضّ بصرها ، فلا تنظر إلى غير زوجها ، وقلنا : إن أغلى ما يتملَّكه الإنسان يمكن أنْ يهبه لغيره ، فأنت تُعيرُ صاحبك سيارتك مثلاً أو بيتك أو ثوبك .. الخ

أما المرأة فهي الشيء الوحيد الذي لا تقبل مجرد النظرة إليها ، لِمَا لها من خُصُوصية ومنزلة ، كذلك تحبُّ من زوجتك ألاَّ تمتدَّ عَيْنُها إلى غيرك ، وهذه من صفات أهل الجنة فَهُنَّ ﴿ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الصافات] تقصر نظرها على زوجها ، وهُنَّ كما في آية أخرى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الرحمن] يعني : مأسورات محفوظات لأزواجهن .

فالحق سبحانه يحفظ حُسْن المرأة ، ويحرص على التكوين العفيف في المجتمع ، ليأتيَ النسْلُ شريفاً طاهراً ، وهذه المقاييس التي للمؤمنة في الدنيا هي كذلك في الآخرة ، فكأن الحق سبحانه يُطمئن الأزواج على هذه الخصوصية ، ويؤكد أن الزوجة فيها لا يشاركه فيها أحد ، ولو حتى بالنظرة .

---

(١) عن ابن عباس قال : (لا ينزفون) : لا يسكرون . ومجاهد : لا تذهب عقولهم . (أخرجه هناد وعبد بن حميد وابن أبي حاتم) . وعن سعيد بن جبير : لا مكروه فيها ولا أذى . (أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم) . أورد هذه الآثار السيوطي في الدر المنثور (٨٨/٧) .

ومعنى ﴿ عِينٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الصافات] عين جمع عَيْناء . يعني : واسعة العينين مع حُسْنهما ، وهذه من علامات الملاحة والحُسْن في المرأة عند العرب ؛ لذلك من المقاييس التي وضعوها للجمال أنَّ العين تكون واسعة ، والفم ضيق ، بحيث إذا قِيسَتْ عينها بفمها ، كانت عينُها أوسع .

ومعنى (عندهم) يعني : في حَوْزتهم ؛ لأنها من مَتَاع الجنة ، فمَنِ اشتهى منهن شيئاً وجده وإلاَّ ترفَّع عنها ، لكن هي موجودة عندهم .

ثم يصفهُنَّ سبحانه بقوله : ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات] كلمة ﴿ بَيْضٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات] جمع بيضة ، والمراد بيضة النعام[1] ؛ لأنها أكبر وأجمل في اللون . ويقولون لمن يحمي الجمَال في قبيلته : يحمي بيضتها ؛ لذلك وصف البيض هنا بأنه ﴿ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الصافات] مُصَان مستور لم تُمَدّ إليه يدٌ .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

سبق أن استمعنا إلى حوار دار بين الكافرين المجرمين في النار.

وهنا يحكي لنا الحق سبحانه هذا الحوارَ بين أهل الجنة يتساءلون عن أهل الظلم ، وأهل الضلال والغواية وأهل التكذيب ، أين هم الآن ؟ وما مصيرهم ؟

---

(١) قال الحسن وابن زيد . شُبِّهن ببيض النعام ، تُكِنُّها النعامة بالريش من الريح والغبار ، فلونها أبيض في صفرة ، وهو أحسن ألوان النساء . نقله القرطبي في تفسيره (٥٧١٩/٨). وذكره السيوطي في الدر المنثور (٨٩/٧) وعزاه لابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم .

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ (٥١) ﴾ [الصافات] من أهل الجنة ﴿ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) ﴾ [الصافات] أي : صاحبٌ في الدنيا ﴿ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) ﴾ [الصافات] أي : بالبعث ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) ﴾ [الصافات] يعني : محاسبون . وهذا السؤال منه على سبيل التكذيب والإنكار لقضية البعث والحساب .

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ[1] الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) ﴾

القرآن يُصوِّر لك هذا الموقف كأنك تراه ، ويحكيه كأنك تسمعه ، فبينما أهل الجنة مشغولون في تساؤلهم عن أهل الضلال ممَّنْ كانوا يعرفونهم في الدنيا ، إذ نظر أحدهم فاطلع على أهل النار ، فرأى صاحبه الذي حاول أنْ يُضلَّه ، صاحبه المكذِّب بالبعث وبالحساب .

فقال لجلسائه : انظروا هذا فلان في النار .

﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) ﴾ [الصافات] أي : في وسطها ، فلا أملَ له في النجاة منها ، عندها تذكَّر المؤمنُ نعمةَ الله التي شملتْه وأنقذتْه من هاوية الضلال ، التي كاد أنْ يُوقعه فيها صاحبه ، فقال مخاطباً هذا القرين : ﴿ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ (٥٦) ﴾ [الصافات] أي : تُهلكني معك ﴿ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي .. (٥٧) ﴾ [الصافات] أي : تداركَتْني وأنقذتني

(١) سواء الشيء وسِواه وسُواه : وسطه . [لسان العرب مادة : سوا] وقال ابن مسعود : أي في وسط النار والحسك (الشوك) حواليه . [نقله القرطبي في تفسيره (٥٧٢٢/٨)] .

﴿ لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ[1] ﴿٥٧﴾ ﴾ [الصافات] أى : الذين تحضرهم الملائكة للعذاب ، وهنا تزداد فرحة المؤمنين بإيمانهم ، ويزداد شكرهم لله واعترافهم بفضله ، ولا يُنغِّص عليهم هذه الفرحةَ إلا الخوفُ من الموت وفوات هذا النعيم ، فيقولون :

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾

فهم إذن يخافون فواتَ هذا النعيم ، فيتساءلون ﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الصافات] يعنى : ألسنا سنموتُ مرة أخرى ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الصافات] أى : بعد ما نحن فيه من النعيم ، أليس هناك شىء آخر نُحاسَب ونُعذَّب عليه ، كأن أمنيته أنْ يظلَّ على هذه الحال من التنعُّم ، فلا يفوته لا بموت ولا بتغيُّر الحال من النعيم إلى العذاب .

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴿٦٠﴾ ﴾ [الصافات] أى : ما نحن فيه من النعيم الدائم الذى لا ينقطع ولا يزول ، ولا يأتى بعده حساب آخر ولا عذاب ﴿ لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾ [الصافات] ولا شك أن هذه غاية ينبغى أن يعمل لها كل عامل ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الصافات]

فكأن الحق سبحانه يحكى لنا هذا الموقف من الآخرة ليُبيِّن لنا أثر الإيمان وعاقبةَ العمل الصالح ، ويستحضر لنا ما يحدث فى اليوم الآخر ،

---

(١) المحضرين : المرغمين على الحضور ، يُحضرهم الملائكة للعذاب . [القاموس القويم - مادة : حضر] . وقال الماوردى : أحضر لا يُستعمل مطلقاً إلا فى الشر . نقله القرطبى فى تفسيره (٨/٥٧٢٣) .

لنأخذ من ذلك العبرة والعظة ، فكلُّ عمل يُؤدِّى إلى هذه العاقبة سَهْل هَيِّن ، مهما تحمَّلْنا فيه من مشاقٍّ ومتاعب ، وهو مكسب لا خسارةَ فيه .

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ[1] ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا[2] كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾

الآيات هنا تراوح بين ذِكْر الجنة وما فيها من النعيم ، وذِكْر النار وما فيها من العذاب ، فتعود مرة أخرى إلى جهنم وعذابها ووَصْف ما فيها ﴿ أَذَٰلِكَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات] أي : ما سبق ذِكْره من نعيم الجنة ﴿ خَيْرٌ ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات] أفضل ، فهي بمعنى أفعل التفضيل . ﴿ نُزُلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ [الصافات] أي : مَنْزلاً وضيافةً .

فالنُّزُل ما يُعَدُّ للضيف الطارىء من مسكن ، فيه مُقوِّمات الحياة من مأكل ومشرب وخلافه ، لذلك يسمون الفندق (نُزُل) ، والفنادق مع ما فيها الآن من سبل الراحة هي ما أعدَّه البشر للبشر ، فما أدراك بما أعدَّه ربُّ البشر ؟ لا بُدَّ أنْ تكون الضيافةُ على قدر إمكانات المضيف .

---

(١) شجرة الزقوم مشتقة من التزقم ، وهو البلع على جهد لكراهتها ونَتْنِها . واختُلف فيها : هل هي من شجر الدنيا التي تعرفها العرب أم لا ؟ على قولين :
أحدهما : أنها معروفة من شجر الدنيا . ومن قال بهذا اختلفوا فيها ، فقال قطرب : إنها شجرة مُرَّة تكون بتهامة من أخبث الشجر . وقال غيره : بل هو كل نبات قاتل .
الثاني : أنها لا تُعرف في شجر الدنيا . فلما نزلت هذه الآية في شجرة الزقوم قال كفار قريش : ما نعرف هذه الشجرة . فقدم عليهم رجل من إفريقية فسألوه فقال : هو عندنا الزبد والتمر . [نقله القرطبي في تفسيره ٨/٥٧٢٤)

(٢) طلعها : ثمرها ، سُمِّي طَلْعاً لطلوعه .

﴿ أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) ﴾ [الصافات] وطبيعي أن نسألَ : ما هي يا ربِّ شجرةُ الزَّقُّوم ؟ فيصفُها الله لنَا ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ (٦٣) ﴾ [الصافات] فتنة بمعنى : محنة وعذاب ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) ﴾ [الصافات] أي : في وسطها .

وهذا مظهر من مظاهر طلاقة القدرة ، فلا تسأل عن كيفية نُمو شجرة في وسط النار ؛ لأن الفاعل هو الله عز وجل ، إذن : خُذْها في إطار تنزيه الحق عن قوانين الخَلْق .

ومعنى ﴿ طَلْعُهَا (٦٥) ﴾ [الصافات] أي : ثمرها ﴿ كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات] لكن نحن لم نَرَ رءوس الشياطين ، لذلك وقف بعض المستشرقين الذين يحاولون الاستدراك على كلام الله ، وقف يقول :

كيف يُشبِّه اللهُ في هذه الآية مجهولاً بمجهول ، فنحن لم نَرَ شجرةَ الزقوم ، ولم نر رءوس الشياطين ، والتشبيه يأتي لتوضيح المشبَّه بذكر المشبَّه به ، فما فائدة أنْ تُشبه مجهولاً بمجهول ؟

نقول : مُخ الإنسان فيه جزء للحافظة ، وجزء للذاكرة ، وجزء للتخيُّل يُسمَّى مُخَيلة ، فالإنسان يرى الأشياء ، فتسجلها الحافظة في حاشية الشعور ، ثم الذاكرة تستدعي له هذه الأشياء ، أما المخيلة فتأخذ من واقع الأشياء وتكوِّن صوراً جديدة مُتخيَّلة ، لا أصلَ لها في الواقع .

هنا أنت مع هذا التشبيه ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) ﴾ [الصافات] مع أنك لم تَرَ رءوس الشياطين ، إلا أن خيالك سيرسم لها صورة على أبشع ما يكون ، وعندها سيتضح لك الفارق بين النُّزُل الذي أعدَّهُ الله للمؤمنين في الجنة وهذه الشجرة التي ثمارها كرءوس الشياطين ، فالجمع بين هاتين الصورتين مقصود ، فكأن ربَّكَ عزَّ وجلَّ أراد أنْ يسوقَ لك العظة في وقت الجزاء المشهود ، لا في وقت التكذيب .

وشجـرة الزقوم شـجرة خـبيثـة ، مُنتنة الرائحة ، مُـرَّة الطَّعْم ، موجـودة في منطقة تهامـة ، جعلها الله مـثلاً للشـجـرة التي تنبت فى أصل الجحـيم . قالوا : هذا بمثـابة تقريع للمـعذَّبين بهذه الشــجرة ، لأنهم كانوا يُكذِّبون بالبعث وبالحيـاة بعد الموت ، فجعل الله لهم هذه الشجـرة تنبت فى وسط جهنم وفيـها طعامـهم ، فلا طعام لهم غـير ثمرها .

والشجرة تعني الخضرة والمائية ، ومعلوم أن المائية تنافي النار، وفى هذا إشارة إلـى طلاقة القدرة التـى كذَّبوا بها فى الـدنيا . إذن : كَوْن هذه الشجـرة فى أصل الجـحيم ، وهم يعـيشون على ثمـرها ويحتـاجون إليـها وهى شـاخصة أمـامهم ، هذا كله تقـريع لهم على ما كذَّبوا به .

وهذه المسألة تُذكِّرنا بسيدنا إبراهيم - عليه السلام - حين أُلْقِى فى النار ، فجعلها الله عليه بَرْداً وسلاماً ، وعطَّل بقدرته تعالى قانون الإحراق .

الحق سبحانه يريد أنْ يُبشِّع صورة هذه الشجرة ، مع أن العرب يعرفـون شجرة بهذا الاسم ، ويعـرفون خُبْثها ونَتْن ريحهـا ومرارة طَعْمها ، ويعرفون طَلْعهـا البسيط ، لكن أحداً لم يَرَ الطَّلْع الذى يُشبه رءوس الشياطين .

إذن : المراد تبشيعه وإعطاء الفـرصة للتخيُّل أنْ يذهبَ فى تصوُّر بشـاعتـه كلَّ مـذهب ، فطَلْع كل شيء يكون جـمـيلاً ، بل هو أجـمل ما فى الشـجرة ، أمـا هذه فطَلْعُهـا كأنه رءوس الشيـاطين ، ولك أنْ تتصوَّر ما فيه من القُبح والدَّمَامَة والشكل المنفِّر .

ومعلوم أن العرب كانت تعتقـد أن الشيطان أقبحُ صورة ، ويقابله

الملاك أحسن وأجمل صورة ، ومن ذلك قول النِّسْوة لما رأيْنَ يوسف عليه السلام : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف]

إذن : راعَى القرآن فى هذا التشبيه معتقدات العرب ، وجاء بصورة مجهولة . نعم لكن سيتصوَّرها كلٌّ واحد بمقاييس القبح عنده ، ولو أتى بمثل محدَّد معروف فى القُبْح ، لكانَ على لَوْن واحد ، وربما كان قبيحاً فى نظر شخص وغير قبيح فى نظر الآخر ، لكن الحق سبحانه يريد منظراً مُقبِّحاً عند الكل ، ومَنْ منَّا يتصوَّر الشيطانَ جميلاً ؟

لذلك قلنا : إذا جئنا برسامى الكاريكاتير فى العالم ، وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة تخيُّلية للشيطان ، فسوف يرسم كلٌّ منهم صورةً للقبح فى نظره ، ولن تجد فيها صورة مثل الأخرى . إذن : جاء تشبيه طلْع شجرة الزقوم برءوس الشياطين ، ليُشيعَ معانى القبح جميعاً فى النفوس ، وهذه الصورة كفيلة بأنْ تُنفِّرنا من هذه الشجرة.

وأصل الطَّلْع هو الكمّ[1] الذى يحوى أول ثمرة للشجرة ، ويُقَال للكوز الذى يحوى ثمرة النخل وما يشبهها . فإذا خرجتْ منه الشماريخ ، وبانت استدارته وتكوينه يسمى (بلح) طالما كان أخضرَ اللون .

والبلحة لها ثلاثة أوصاف :

الأول : حجمها ، فإذا أخذتْ حجمها الطبيعى والنهائى يبدو دون لون ، فتتلوَّن إما حمراء أو صفراء ، وفى هذه المرحلة يقولون (البلح عَقَّرْ) ويسمونه (زهو) .

(١) الكِمُّ والكِمَّ : غلاف الثمر والحب قبل أن يظهر . وهو وعاء الطلع ، وغطاء النَّوْر . فكُمُّ الطَّلعة قشرها ، ومن هذا قيل للقلنسوة كُمَّة لأنها تغطى الرأس ، ومن هذا كُمَّا القميص لأنهما يغطيان اليدين . [لسان العرب – مادة : كمم]

الثاني إذا استقر اللون وكملَتْ حُمْرته أو صُفْرته يُسمُّونه (بُسْر).

الوصف الثالث : بعد الحجم واللون يأتي القوام : لين أو يابس بحسب البيئة ، فإنْ كانت حارة جافة ، فإنها تؤثر على البُسْر وتُجفِّفه ، فيتحول إلى تمر ، وإنْ كانت البيئة باردة رطبة صار البُسْر رطباً .

﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا[1] مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) ﴾

معنى : ستضطرهم الضرورة وتُلْجئهم لهذا المثل المكدِّر المنكِّد لهم ، حيث لا طعامَ لهم غيرها ﴿ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا (٦٦) ﴾ [الصافات] ولن يأكلوا على قَدْر الضرورة ، بل ﴿ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ﴾ [الصافات] وعندما يملأون منها بطونهم تَزْداد النارُ فيها ، فيريدون شراباً يُطفيء هذه النار ، فيكون شرابهم الحميم ، والعياذ بالله .

﴿ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ﴾ [الصافات] الشَّوْب هو الشيء المخلوط الممزوج ، والحميم هو الماء الذي بلغ غايةَ الحرارة . وفي موضع آخر ، سَمَّاه القرآن (الغسلين)[2] هذا شرابهم والعياذ بالله ، فإذا ما أكلوا وشربوا عادوا للجحيم مرة أخرى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) ﴾ [الصافات]

ثم يُبيِّن الحق سبحانه علَّة ذلك ، وسبب هذا المصير المؤلم ،

---

(١) الشَّوْب : الخَلْط . فالشوب في الآية : الخلط والمزاج [لسان العرب - مادة : شوب] . قال السدي : يُشاب (يُخلط) لهم الحميم بغساق أعينهم وصديد من قيحهم ودمائهم . وقيل : يُمزج لهم الزقوم بالحميم ليجمع لهم بين مرارة الزقوم وحرارة الحميم ، تغليظاً لعذابهم وتجديداً لبلائهم . [القرطبي في تفسيره ٨/٥٧٢٦ ، ٥٧٢٧]

(٢) قال تعالى : ﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) ﴾ [الحاقة] . والغسلين هو صديد أهل النار [التفسير الميسر] .

وأنه ليس ظلماً لهم ، إنما جزاء ما فعلوا :

﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) ﴾

يعني : وجدوا آباءهم على ضلال ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ (٧٠) ﴾ [الصافات] يعني : يتبعون طريقهم ويُقلِّدونهم ، ومعنى ﴿ يُهْرَعُونَ (٧٠) ﴾ [الصافات] أي : يُزْعجون ويسرعون كأن شيئاً يحملهم على الإسراع ؛ لأن هذا الفعل (يُهْرَعُونَ) مبني للمجهول . أي : لمَا لم يُسَمَّ فاعله كما نقول : زُكم فلان ، فالفاعل غير معروف .

ولو كان الإسراع في اتباع الآباء منهم لَقَال يَهرعون بالفتح ، إنما يُهرعون كأن شيئاً يدفعهم إلى تقليد الآباء ، ليبين لك سبحانه أن الشر أعدى ، لأنه لا تكليفَ للنفس فيه ولا حجزَ للشهوة ، لذلك يجري الإنسان إليه ويُسرع في طلبه .

أما الهدى والمنهج فلا يسرع إليه لأنه يُضيِّق عليه مجال الشهوات ، ويُقيِّد حركته في إطار ما شرع الله ، إذن : هم يُقلِّدون الآباء وهم يعرفون أنهم ضالون لينفلتوا من قَيْد التكاليف الشرعية .

لذلك لما أخذ الله تعالى علينا العهد ونحن في عالم الذر ، قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) ﴾ [الأعراف]

وقد حكى القرآن اعترافهم باتباع الآباء في أكثر من موضع من

كتاب الله . فقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا (١٧٠) ﴾ [البقرة] ويردُّ عليهم ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ (١٧٠) ﴾ [البقرة]

فكأن الحق سبحانه يقول لهم : أنتم كاذبون في هذا الادعاء . ولو كانت القضية عامة ، فلماذا لم تتبعوا أباكم آدم عليه السلام ، وقد جاء بمنهج وسار عليه ؟ فلو اتبعه القوم لقلَّدهم مَنْ بعدهم وهكذا ، ولاستمرَّ منهج الله ، إنما حكَمتكم الشهواتُ ، وسيطرتْ عليكم الرغباتُ ، فأخرجتكم عن منهج ربكم وخالفتم . ثم أليس منكم رجل عاقل يَعي هذا الضلال ، ويأنف أنْ يتبعه ، ويبحث عن هدى ؟

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) ﴾ [الصافات] يعني : ليس هؤلاء بدعاً في الضلال ، فقد ضلَّ قبلهم كثيرون ممَّنْ سبقوهم ، وهذا يعني أن قلَّةً آمنتْ ، والكثرة ضلَّتْ ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) ﴾ [الصافات] يعني : لم نتركهم على غفلتهم ، بل أرسلنا إليهم الرسل تنذرهم وتحذرهم .

وقلنا : إن في ذات النفس البشرية مناعات ذاتيةً ، تعصم صاحبها من المعصية ومن الزَّلل ، حتى لو كان مُنفرداً عن الناس ، فإنْ ضعُفَتْ عنده هذه المناعة فخالف منهج الله تلومه النفس اللوَّامة الأوَّابة ، فتؤنبه حتى يتوب ويرجع ، فإنْ ألفَ المعصية وضعُفَتْ عنده

النفس اللوَّامة ، ولم يَعُد له رادع من ذات نفسه رَدَعَه المجتمعُ الآمر بالمعروف ، الناهى عن المنكر ، المجتمع الناصح الذى يقيم بين أفراده قوله تعالى ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

وفَرْق بين : وصُّوا وتواصَوْا ، تواصَوْا يعنى : يُوصى بعضكم بعضاً ، ففيها تفاعل بين أفراد المجتمع ؛ لأن المجتمعَ حتى المؤمن المتدين يتفاوتُ الناسُ فيه من حيث الاستقامة وتطبيق المنهج ، ولا بُدَّ أنْ يُوجَد فى المجتمع مَنْ يضعُف فيشذّ ، أو تصيبه غفلة ، فيجد مَنْ يُردعه ، ويجد مَنْ يُذكِّره حتى يعودَ إلى الجادة .

فإذا فُقد الرادع من المجتمع ، وعَمَّ الفساد المجتمع قلنا : تدخلتْ السماء برسول جديد ومنهج جديد .

نحن نعرف أن الرسول يأتى بشيراً ونذيراً . لكن الحق سبحانه هنا خَصَّ الإنذار ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) ﴾ [الصافات] لماذا ؟ قالوا : لأن دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة . وقلنا لتوضيح هذه المسألة : لو أن شخصاً يرمى لك تفاحة مثلاً ، وآخر يرميك بحجر لا شكَّ أنك ستدفع الحجرَ عن نفسك أولاً.

وقوله : ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) ﴾ [الصافات] يعنى : تأمل نتيجة الإنذار ، فرسل الله أنذروا الجميع ، لكن هل انتفع الجميعُ بالإنذار ؟ لا بل منهم مَن انتفع به ، ومنهم مَنْ أعرض عنه ، لذلك جاء الحق سبحانه بعدها بهذا الاستثناء : ﴿ إِلاَّ عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) ﴾ [الصافات] أى : الذين أخلصهم واصطفاهم لعبادته وطاعته ، وهم الذين انتفعوا بالإنذار .

وبعد أنْ تكلَّم الحق سبحانه عن موكب الرسل إجمالاً ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) ﴾ [الصافات] أراد سبحانه أنْ يتكلَّم عنهم

ببعض التفصيل ، فقال سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

لكن ، لماذا بدأ بسيدنا نوح عليه السلام ؟ قالوا : لأن دعوته كانت أشبه بدعوة سيدنا رسول الله ﷺ ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى]

الحق سبحانه وَصَّى نُوحاً ، ووصَّى غيره من الرسل ممَّنْ هم أعلى منه ، ومع ذلك عطفهم عليه ، وجعله في المقدمة . قالوا : لأن لنوح خصوصيةً هي في البيئة التي كان فيها ، وفيمن آمن به ، فكان المؤمنون به هم الذين نجَواْ في السفينة ، وهم وحدهم الموجودون في العالم كله في ذلك الوقت ، فكأن له عمومية رسالة بخصوص الموضوع ، ورسول الله ﷺ له عمومية رسالة ، لكن في عموم الموضوع .

قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الصافات] كلمة (نَادَانَا) تدلُّ على أنه - عليه السلام - استنفد كل وسائله في دعوة قومه ولم تفلح ، بدليل أنه قال في موضع آخر كما حكى القرآن : ﴿ رَّبِّ لا تَذَرْ

عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً (٢٧)﴾ [نوح] وما دعا نوحٌ على قومه هذه الدعوة إلا بعد يأس منهم ، وبعد أنْ وجد أن أسبابه الإيمانية المحيطة به من أتباعه غير كافية ، فلمَنْ يلجأ إذن ؟ يلجأ لله ، لأنه وحده القادر على أنْ يُخلِّصه منهم ، فيناديه : يا ربِّ أنت بعثتني فلا تتخلَّ عني ، وهذه ظاهرة فطرية لكل مستنجد مستغيث ، فأنت حين يطرأ لك خطر ، لا تستطيع دفعه بقوتك وحيلتك تستنجد بأقرب الناس إليك ، فإن لم تجد تستنجد بالبعيد ، فإنْ عزَّ المغيثُ تقول - كما قُلْنا سابقاً - (يا هوه) يعني : يا ربِّ ليس غيرك يُغيثني .

ثم يأتي جواب هذا النداء : ﴿فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥)﴾ [الصافات] لأنه - عليه السلام - كان نِعْمَ الداعي ، فلا بُدَّ أنْ يقابل بنعم المجيبون ، ولم يقُلْ : فلنعم المجيبُ ، لأن الحق يجيبه بجنوده في الأرض مثل الهواء والماء والملائكة .. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ (٣١)﴾ [المدثر] ونتيجة هذه الإجابة ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)﴾ [الصافات]

وهنا وقف المستشرقون يقولون : كيف وقد أهلك اللهُ ولده ، أليس من أهله ؟ لكن في موضع آخر قَصَّ القرآن علينا قصة نوح عليه السلام وولده الذي شَذَّ عنه ، فغرق مع المغْرَقين ولم تُفلح توسُّلاتُ نوح : ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥)﴾ [هود]

وهذا اللبس ناتج من أن الناس أغفلوا أنَّ بنوة الأنبياء ليستْ بنوة النسب ، إنما بنوة الإيمان بالله ؛ لذلك رَدَّ اللهُ على نوح : ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. (٤٦)﴾ [هود]

فالأهلية هنا أهليةُ عقيدةٍ وإيمانٍ بالله ، لا أهلية دمٍ ونسبٍ ؛ لذلك

إذا نظرتَ في هذه الآية تجد الحق سبحانه لم ينْفِ الذاتَ ، إنما نفى فعل الذات ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]

لذلك قال النبي ﷺ : « .. لا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم وأحسابكم »[1]

وكلمة ﴿ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ ﴾ [الصافات] المراد : الغرق ، والكرب هو : المكروه الذي لا تستطيع دفعه عن نفسك ، ولا يدفعه عنك مَنْ حولك حين تستغيثُ بهم ، فإنْ كان لك فيه حيلة للنجاة فلا يُسمَّى كَرْباً ، ووَصْف الكرب هنا بأنه عظيم ، لأنه جاء بحيث لا يملك أحدٌ دَفْعه ، فالماء ينهمر من السماء ، وتتفجَّر به الأرض ، ويغطي قِمَمَ الجبال ، فأين المفرُّ إذن ؟

ومعلوم أن الماء قِوَام حياة كل حَيٍّ ، ومن أجَلِّ نعَم الله علينا ، لكن إنْ أراد سبحانه جَعَلَ الماء نقمة وعذاباً ، وقد رأينا في قصة سيدنا موسى - عليه السلام - كيف نجَّى اللهُ موسى بالماء ، وأهلك فرعونَ بنفس الماء .

وقوله تعالى . ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [الصافات] أي : الذين كانوا معه في السفينة وهم المؤمنون بدعوته ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الصافات] أي : في الناس جميعاً من بعده يثنون عليه[2] .

﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الصافات]

---

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يا فاطمة ، أنقذي نفسك من النار فإني لا أملك لكم من الله شيئاً ، غير أن لكم رحماً سأبلُّها ببلالها » أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٤) كتاب الإيمان .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٥٧٢٩/٨) عند تفسير هذه الآية : « أي : تركنا عليه ثناء حسناً في كل أمة ، فإنه مُحَبَّبٌ إلى الجميع ، حتى إن في المجوس من يقول إنه أفريدون ، روى معناه عن مجاهد وغيره » .

فالناس جميعاً عليهم حين يسمعون سيرة هذا النبي الذي تحمَّل في سبيل دعوته المشاقَّ ، ومكث في دعوة قومه هذا العمرَ الطويلَ ، الذي خالف أعمار الناس أن يُسلِّموا عليه ، وينبغي حين نسمع ذكْره أنْ نُسلِّم عليه ، فنقول : عليه السلام ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الصافات] أي : أعْطه السلامة والسلام ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الصافات] يعني : هذه سُنَّة الله مُتَّبعة في أنبيائه ، أنْ ينصرهم ويُبقي لهم الذكْرَ الحسن من بعدهم ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الصافات]

وقوله : ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الصافات] يعني : الكافرين . وكلمة (الآخرين) إهمالٌ لهم ، واحتقارٌ لشأنهم .

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الصافات] أي : أن إبراهيم – عليه السلام – كان من شيعة سيدنا نوح ، يعني : من أتباعه الذين تابعوه ، وساروا على منهجه . والشيعة هم الذين يُشايعون الإنسان على فكره فيؤمنون به ، بل ويحاولون أنْ يحملوا دعوته إلى الناس معه ، وأنْ يتحمَّلوا الأذى في سبيل ذلك ، ومن هنا سُمِّيَتْ الشيعة المذهب المعروف الذين شايعوا الإمام علياً رضي الله عنه ، وتعلمون طبعاً الفرق بين الشيعة والشيوعية .

لكن ، لماذا بدأ الحق سبحانه هنا موكبَ الرسل بنوح – عليه السلام – ثم تبعه بإبراهيم – عليه السلام ؟

يقـول سبحـانه : ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) ﴾ [الصـافات] هذه هى العلة ؛ لأن سـلامة القلب هى الأسـاسُ فى الدين وفى العقـيدة ، لأن فطرة الله التى فطر الناسَ عليهـا ابتداءً مبنية كلها على هيـئة الصلاح والسلامة ، فإنْ طرأ على هذه الفطرة فسادٌ فمن الإنسان .

لذلك مـدح سيـدنا إبراهيم بسـلامـة القلب ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) ﴾ [الصافات] وهو القلب الذى فطر عليه أولاً ظل كما هو لم يتغيَّر ، فعاش به ، وجاء به ربه فى الدنيا ، لذلك يظفر به فى الآخرة : ﴿ يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ (٨٨) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ [الشعراء]

فالسـلامة الأولى التى فطره الله عليها استد حبـها باستصـحاب منهج الله ، فسلم فى الدنيا ، فلقىَ اللهَ بقلْبٍ سليم د الآخرة ، وهكذا وصف اللهُ نبيَّه إبراهيمَ على أحسن ما يكونُ الوصف .

وتأمل كلمة ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ (٨٤) ﴾ [الصـافات] فهى تُوحى بأن سـيدنا إبراهيم لم ينتظر إلى أنْ يـأتى له رسولٌ يدعـوه ، إنما أقـبل على الله بنفسـه ، وجاء بفكره يبـحث ويتأمل فى ملكوتِ السـموات والأرض ، إلى أن اهتدى إلى الله .

لذلك لمـا أراد الله تعـالى أنْ يُعـرِّف نبيـه إبراهيمَ ، وأنْ يُـقدِّمـه لمعشر الإيمان قال هـذه البرقية الموجزة : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا .. (١٢٠) ﴾ [النحل]

تعلمون أن الحق سبحانه خلق المواهب ووزَّعها على الناس ، فكلٌّ منَّا له موهبة فى شىء ما ، ذلك ليظلَّ الناسُ مترابطين ترابطَ حاجة ، فـتحـتاج لى وأحـتاجُ لك ، أمـا سيـدنا إبراهيم فقـد جمع وحـاز كل

المواهب التى فى أمة كاملة ، فالمعنى ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴿١٢٠﴾ ﴾ [النحل] يعنى : حاز مواهب أمة .

لذلك استحق - عليه السلام - أنْ يُريه الله ملكوتَ السموات والأرض ، فالناس جميعاً يكتفون بعالم المُلْك ، أما هو فقد تجاوز هذا العَالمَ إلى عالم الملكوت ، لماذا ؟ لأنه جرَّد نفسه عن شبهة اليقين بأحد غير الله ، بدليل أنه لما أُلْقى فى النار وجاءه المَلَك يعرض عليه المساعدة : (ألكَ حاجة) ؟ فيقول سيدنا إبراهيم بما لديه من رصيد الإيمان واليقين بالله (أما إليك فلا)[1]. يقولها فى هذا الوقت العصيب ، وهذا الكرب المُلِمّ .

وقوله سبحانه : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الصافات] وهذه تُعَدُّ من سلامة القلب ، لأنه أحبَّ شيئاً وسَعد به ، فأراد أنْ ينقله إلى غيره وأوْلهم الأقارب ، فهم أوْلَى الناس بأنْ تُعدِّى لهم خيرك ؛ لذلك أول ما دعا إبراهيم دعا أباه وقومه . ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الصافات]

وكلمة (لأبيه) وردتْ فى القرآن عشرَ مرات ، واحدة فقط منها لسيدنا يوسف - عليه السلام - فى قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾ [يوسف] والتسع الباقيات لسيدنا إبراهيم بدايةً من سورة الأنعام إلى سورة الممتحنة ، من هذه التسع موضع واحد جمع فيه بين الاسم العَلَم والوصف ، فقال : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الأنعام]

وفى الثمان الباقيات جاءت كلمة (لأبيه) بدون ذكر آزر ، فكأن كلمة آزر جاءتْ فى هذا الموضع لتُشعرنا بشيء ، هو أنك إذا جمعتَ بين الوصف والعلَم ، فلا بُدَّ أنْ يكون الوصفُ مشتركاً مع غير العلَم ، وضربنا لذلك مثلاً قُلْنا إذا أردتَ أنْ تسألَ عن شخص ، وقابلك ولده فى الشارع تقول له : أبوك موجود ؟

لأن هذا السؤال لا ينصرف إلا إلى أبيه الحقيقى ، فإنْ قلتَ : أبوك محمد موجود ؟ فإنك لا شكَّ تقصد عمه ، لأنك ميَّزته باسمه لإزالة الاشتراك فى الأبوّة .

إذن : آزر لم يكُن الأب الحقيقى لسيدنا إبراهيم ، إنما هو عمه ، ولا غرابةَ فى ذلك ، فالقرآن يُسمِّى العم أباً فى قوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) ﴾ [البقرة]

ومعلوم أن إسماعيل أخو إسحاق ، ومع ذلك أدخله فى جملة الآباء بالنسبة لسيدنا يعقوب ، عليهم جميعاً الصلاة والسلام .

وسيدنا إبراهيم فى معرض دعوته لأبيه وقومه يسألهم هذا السؤال : ﴿ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) ﴾ [الشعراء] وفى موضع آخر : ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) ﴾ [الصافات] و ﴿ مَا هَـٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) ﴾ [الأنبياء]

وهنا : ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) ﴾ [الصافات]

وهذه كلها استفهام إنكارى ، وقلْنا : إن الاستفهام أقوى من الإخبار ؛ لأن الإخبارَ يمكن أنْ يُكذَّب ، أمَّا الاستفهام فيجعل الخصم يُقرّ بالقضية ، ولا يستطيع أنْ يُكذِّبها .

والإفْك هو أقبح أنواع الكذب ؛ لأن القُبْح فى الكذب على مراحل ،

كيف ؟ قالوا : ننظر في الموضـوع الذي يكون فيه الكذب ، فإنْ كان في الحقيقة العُلْيَا في الذات الإلهية ، فهـو أقبح الكذب كمَنْ يدَّعي لله شريكاً .

فإنْ كـان الكذب على البشر فـهو بحسب مَنْ تكذب في حَقه ، فمثلاً الذين اتهموا السيدة عائشة وخاضوا في عرْضها سَمَّاهُ الله إفْكاً لشناعته وعظَم منزلة مَنْ قيل في حقّه هذا الكذب ، فقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ..(١١) ﴾ [النور]

ومن معاني الإفك قَلْب الشيء على وجهه ، وقَلْب الحقيقة ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) ﴾ [النجم]

والمعنى : أتريدون آلهة إفكاً وكذباً دون الله ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) ﴾ [الصافات] أخبرونا ماذا تظنون في الله ؟ وما الذي لا يعجبكم في ألوهيته سبحانه ؟ وكيف تخدعون أنفسكم ، فتنصرفون عنه سبحانه ، وهو رَبُّ العالمين ، ومثَالُ ذلك قوله تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) ﴾ [الانفطار]

لذلك قال أحد العارفين : كـأن الحق سبحانه لقَّن الناسَ الجوابَ ، فالذي غَرَّني بالله أنه كريم . والطُّرْفة هنا أن رجلاً رأى آخر يصلي صلاة على عَجَل ، ينقرها نقراً ، فقال له : بالله لو عليك خمسة قروش لواحد ، يصح أنك تعطيها له ممسوحة ؟ فقال الرجل : والله ، لو كان كريماً سيقبلها ولا ينظر فيها .

فكأن الحق سبحانه يتعجَّب من هؤلاء الذين أشركوا به سبحانه ، مع وضوح الدليل على بُطلان شركهم ، والشيء لا يُتعجَّب منه إلا إذا جاء على غير ما يجب أنْ يكونَ عليه من الصِّدْق ؛ لذلك قال سبحانه

في أول البقرة : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

يعني : هذا أمر عجيب منكم ، ومسألة لا يقبلها العقل .

ثم بدأ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - يُحقِّق قَوْلَ ربه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (٧٥) ﴾ [الأنعام] وسبق أنْ فرَّقْنا بين المِلك والمُلْك والملكوت .

يقول سبحانه :

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

قوله تعالى عن سيدنا إبراهيم ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) ﴾ [الصافات] هذه أولى خطوات إبراهيم إلى عالم الملكوت ، والنظرة هنا ليستْ هي النظرة الخاطفة العابرة ، إنما نظرة التأمُّل الفاحصة المتأنية ، فهي بمعنى رأي بتمعُّن واستنباط ، ومن ذلك قولنا : هذه مسألة فيها نظر . يعني : تأمُّل وتأنٍّ . والنجوم مفردها نجم ، وهو كل مضيء في السماء إضاءةً ذاتية ، لا أنْ يعكس ضوء الشمس ، وعليه فالشمسُ نَجْم من النجوم .

فقوله تعالى : ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) ﴾ [الصافات] دَلَّ على أنها نظرة طويلة مُتأملة مستوعبة ، لأنها استوعبتْ كوكباً وقمراً وشمساً . لذلك شرح لنا هذه النظرة في موضع آخر ، فقال سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) ﴾ [الأنعام]

إذن : كانت نظرةُ إبراهيمَ طويلةً متأنيةً ؛ لأنها استغرقتْ طيلة مطلع الكوكب وغيابه ، ثم مطلع القمر وغيابه ، ثم مطلع الشمس وغيابها ، فلما رأى - عليه السلام - أن هذه المرائى لا تصلح لأنْ تكونَ آلهة تُعْبد ، قال : ﴿ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) ﴾ [الصافات] البعض يعدُّها كذبةً من كَذَبات سيدنا إبراهيم أنه قال لقومه : إني مريض .

إذن : أخذوا السُّقْم على أنه سُقْم الأبدان[1] والمراد هنا سُقْم القلب ، وشُغْله بما لا يستطيع الإنسانُ تحمُّله من إنكار القوم لمسألة الألوهية .. فهذه قضية تتعبه وتُؤرِّقه .

وهذا هو السُّقْم الذى أراده سيدنا إبراهيم ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) ﴾ [الصافات] أى : مُجهد فكرياً من إنكار الناس لقضية الألوهية . إذن : إبراهيم عليه السلام لم يكُنْ ينظر فى النجوم ليرى دليلاً يقتنع هو به ، إنما يبحث عن دليل مادى فى الكون ينقله للناس .

لكن ، ما الذى أحوجه أنْ يقولَ للقوم : إنى سقيم ؟ قالوا : لأنهم كانوا فى يوم عيد يجتمعون فيه ، فقال : إنى سقيم لكى لا يخرج

(١) فَهُمْ تصوروا أن قوله لهم (إنى سقيم) : أى إنى مطعون أى : مصاب بالطاعون ، لذلك قال تعالى بعدها . ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) ﴾ [الصافات] أخرج ابن أبى حاتم عن سفيان فى قوله (إنى سقيم) قال : طعين ، وكانوا يفرون من المطعون . [الدر المنثور للسيوطى ١٠٠/٧]

معهم ، وليتفرغ هو لما عزم عليه من تحطيم الأصنام ، يقول تعالى : ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الصافات] أى : انصرفوا وتركوه .

﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الصافات] معنى راغ : ذهب خُفية ، بحيث لا يراه أحد ، أو تسلَّل كمن يريد الانصراف من مجلس دون أن يشعروا به ، فيمشى خطوتين ثم يقف ، ثم يمشى ، ثم يتوارى خلف شىء وهكذا حتى يخرج ، وهذا المعنى نقوله بالعامية : فلان زوَّغ أو زاغ .

وسيدنا إبراهيم فعل ذلك وتسلل إلى آلهتهم ليحطمها ، لكن قبل أنْ يحطمها استهزأ بها ﴿فَقَالَ ﴿٩١﴾﴾ [الصافات] أى : للآلهة ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الصافات] فلم يُجيبوا ، فقال : ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الصافات] قالها سخرية واستهزاءً بهم .

بعد ذلك مال عليهم ضرباً ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات] وقلنا : إن اليمين جهة القوة . كما فى قوله سبحانه : ﴿قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾ [الصافات] أى . من جهة القوة والقهر . والمعنى أن سيدنا إبراهيم أخذ يُحطمها بقوة ويُكسِّرها ، حتى أحدث التكسيرُ صوتاً عالياً سمعه القوم ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الصافات] أى : مسرعين .

فلما رآهم ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات] الاستفهام هنا للتعجُّب وللاستنكار ، يقول لهم : كيف تعبدون إلهاً من صُنْع أيديكم تنحتونه من الصخور ، فأنتم أعلمُ الناس به ، وترونْه يقع ، فتقيمونه فى مكانه ، وينكسر فتصلحونه ، ويجرفه السيل ويمرغه فى الوحل فتنتشلونه .

إذن : كيف يُعْبد مثل هذا الإله ، وكيف تنصرفون إلى عبادته ،

وتتركون عبادة الله الإله الحق الذي خلقكم ، وخلق ما تعملون ؟

وطبعاً ليس لديهم جواب لهذا السؤال ، وليس لديهم ردٌّ على إبراهيم إلا ردَّ القوة والبطش ، فلا حجَّةَ لديهم ، ولا منطقَ يدافعون به عن آلهتهم :

﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨)﴾

تعلمون قصة النار التي أوقدوها ، ثم ألقوا بنبيِّ الله إبراهيم في وسطها ، هذا هو الكيد الذي أرادوه بإبراهيم ، وما كان الله تعالى ليبعثَ نبياً ثم يُسْلمه ، فردَّ الله كيدهم عليهم ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وَأَكِيدُ كَيْدًا (١٦)﴾ [الطارق]

ومعنى ﴿فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨)﴾ [الصافات] أي : في هذا المقام ، وفي هذا الموقف الذي فعلوه بإبراهيم ، فليسوا الأسفلين لأنهم كفار ، إنما (أسفلين) لأنهم تعالَوْا على إبراهيم وتمكَّنوا منه ، وقدروا على إلقائه في النار فعلاً وهي مشتعلة ، وظنوا ساعتها أنهم هم العالون .

لكن سرعان ما تكشفتْ حقيقة الموقف ، وظهرتْ الآية الكبرى التي أرادها الله تعالى ؛ فلو أراد الله لَنجَا إبراهيم ، فلم يتمكَّنوا من الإمساك به ، ولو أراد سبحانه لأمطرتْ السماء على النار فأطفأتها ، لكن أراد الله أنْ يُبطل حججهم ، فلو هرب إبراهيم من أيديهم لَقالوا : لو لم يهرب لأحرقناه ، ولو أمطرتْ السماء لقالوا : ظاهرة طبيعية لا دَخْلَ لنا بها .

لكن ها هو إبراهيم ، وها هي النار تشتعل ، ومع ذلك ينجو إبراهيم بعد أنْ جاء نداء الحق وكلمة الحق للخَلْق ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا

وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء]

الخطاب من الله تعالى ، والأمر للنار على طبيعتها ، وبذات مواصفاتها ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا (٦٩) ﴾ [الأنبياء] لا في ذاتك ، إنما ﴿ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء] فهذه خصوصية لهذه النار بالذات ، فهي في ظاهرها مشتعلة ، وفي حقيقتها ﴿ بَرْدًا وَسَلامًا (٦٩) ﴾ [الأنبياء] على إبراهيم ، فهي مثل شجرة الزقوم ، تبدو لهم شجرةً خضراءَ ، وهي نار تحرقهم .

وهكذا جعلهم الله في هذا المقام ﴿ الأَسْفَلِينَ (٩٨) ﴾ [الصافات] أي : في الكيد الذي دبَّروه ، فهم يكيدون والله يكيدُ ، ولا بُدَّ أنْ يُؤخَذَ الكيدُ من خلال فاعله .

﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾

لَمَّا لم يجد إبراهيم - عليه السلام - فائدة من دعوته لقومه ، قال : ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) ﴾ [الصافات] والمعنى ذاهب لنصرة دينه وإلا فربُّه موجود معه ، وفي كل مكان ، أو مهاجر إلى ربي . أي : إلى مكان آخر ، حيث أجد مَنْ يسمعني ويستجيب لدعوتي ، وما دُمْتُ ذاهباً إلى ربي ﴿ سَيَهْدِينِ (٩٩) ﴾ [الصافات] أي : يهديني المقام الطيب المناسب لدعوتي .

ثم يدعو إبراهيمُ ربَّه ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾ [الصافات] أي : هَبْ لي ذرية صالحة مؤمنة ، ونبيُّ الله حين يتمنى الذرية لا يتمناها لتكون ذِكْرى أو عزوة أو امتداداً ينتقل إليه الميراث ، فالأنبياء يريدون الوَلد ليَحْمل رسالتهم ، وليكون نموذجاً إيمانياً يرثه في دعوته ؛ لذلك قال في قصة سيدنا زكريا : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) ﴾ [مريم]

فكأن سيدنا إبراهيم عَزَّ عليه ألاَّ يتسعَ عمره ليكون جندياً من جنود منهج الله في الأرض ، فقال : يا رب قرَّ عيني بأنْ أرى ولداً لي يحمل مسئولية النبوة من بعدي .

وقال ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾ [الصافات] ولم يقل رب هَبْ لي الصالحين ، فأراد من ذريته مَنْ هو صالح من ضمن صلاح غيره ، فهو يريد الصلاحَ لذريته وللآخرين ؛ لذلك أجابه ربه : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾ [الصافات] الحليم : هو الذي لا يستفزه غضب ، ويتحمل الأمور على مقدار ما تطيب به أخلاقه ، ومن الحلْم تَرْكُ المراء واللجاج ، ولو كان في الحق .

لذلك جاء في حديث سيدنا رسول الله ﷺ : « أنا زعيم[1] ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء ، وإن كان محقاً .. »[2]

فهذا في حاشية الجنة ، وهذا في صميم الجنة ، لماذا ؟ لأنه يعتقد أن له رباً قيُّوماً لا تأخذه سِنَة ولا نوم ، سوف يحكم بين الجميع ، وإليه تنتهي كل الخلافات ، فيقتص للمظلوم من ظالمه . والناس يميلون دائماً إلى كبير يحكم بينهم ، ونقول في العامية (اللي له أب ميحملش هم) ، فما بالك بمَنْ له رَبٌّ . لذلك من رحمة الله بنا أن يقول : يا عبادي ناموا ملء جفونكم ، لتصبحوا نشيطين لأعمالكم ، ولا تحملوا هَمَّ شيء ، لأن ربكم لا ينام .

---

(١) زعيم : كفيل . قال تعالى على لسان يوسف لإخوته ﴿ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) ﴾ [يوسف] أي : كفيل ضامن . [القاموس القويم ١/٢٨٧] .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٨٠٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً ، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسَّنَ خلقه » .
- رَبَض الجنة : ما حولها خارجاً عنها تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع وقيل : وسطها . [لسان العرب - مادة : ربض]

وقوله سبحانه : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) ﴾ [الصافات] البُشْرى بالشيء تكون قبل وجوده ، فوصفه الله بأنه سيكون حليماً وهو ما يزال غلاماً . يعني : سيجمع الوصفين معاً ؛ لأن الحلْم عادة ما يتكوَّن لدى الرجل الواعي الذي يستطيع تقدير الأمور ، فالميزة هنا أنْ يتصفَ الغلامُ بالحلْم في صغره .

وفعلاً ظهر حلْم هذا الغلام في أول اختبار يتعرَّض له ، حين قال له أبوه : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ (١٠٢) ﴾ [الصافات] تأمل ماذا قال الغلام ، وأبوه يريد أنْ يذبحه ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] هذا هو الحلْم ، يتجلَّى منه وهو غلام .

﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ (١) فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ (٢) لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾

---

(١) من هو الذبيح ؟ هل هو إسماعيل أم إسحاق ؟ قضية اختلف فيها الناس ، وذكر فيها القرطبي في تفسيره (٨/٥٧٣٩ ٥٧٤١) ثلاثة أقوال . ثالثهما قول الزجاج : الله أعلم أيهما الذبيح . وقد كان أميل إلى أنه إسحاق . أما ابن كثير في تفسيره (٤/١٤- ١٩) فقد ساق أدلة الجميع وفنَّد أدلة القائلين بأنه إسحاق ، وجزم بأن الصواب والصحيح أنه إسماعيل ، حتى بنص التوراة من أن إسماعيل أكبر من إسحاق بـ ١٣ سنة . وأن إبراهيم أمر بذبح وحيده البكر . وردَّ الأقوال المنسوبة إلى الصحابة . فليطلب تفصيل هذه المسألة في مظانِّها [عادل أبو المعاطي]

(٢) تلَّه للجبين : كبَّه على وجهه . [القاموس القويم].

هنا لم يتعرض السياق لحمل السيدة هاجر ولا ولادتها لإسماعيل ، إنما انتقل مباشرة من البشارة به إلى مرحلة بلوغه السَّعْيَ مع أبيه ، فقال سبحانه بعدها : ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ ..(١٠٢)﴾ [الصافات] ذلك لأن الحق سبحانه هو الذى يتكلَّم ، وهو الذى يحكى .

ومن البلاغة أنْ تترك ما يُعلم من السياق ، وهذه سمة من سمات الأسلوب القرآنى . ففى قصة سيدنا سليمان - عليه السلام - والهدهد ، قال تعالى : ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨)﴾ [النمل] . ثم يختصر السياق كثيراً من الأحداث ، ويقول : ﴿قَالَتْ يَـٰأَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩)﴾ [النمل] ولم يتعرض لرحلة الهدهد ، ولا لكيفية توصيل الخطاب إلى الملكة .

كذلك هنا : ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ (١٠٢)﴾ [الصافات] فبلوغه السَّعْى دلَّ على أن البشارة تحققتْ ، ووُلد الغلام ، وبلغ مع أبيه السعى ، وفرِّق بين (بلغ السعى) عموماً ، وبلغ مع أبيه السعى ؛ لأن الغلام لا يُكلَّف بالعمل إلا على قَدْر طاقته فى الحركة ، وعلى قَدْر عافيته وتحمُّله ، وإسماعيل فى هذا الوقت بلغ السعى مع أبيه فحسب ؛ لأنه لن يُكلِّفه أبوه الحنون إلا بما يقدر عليه من المصالح والأمور الحياتية ، فيفعل الغلامُ ما يقدر عليه ، ويترك ما لا يقدر عليه لأبيه ، ولو كان مع شخص آخر فربما كلَّفه بما لا يستطيع .

فلما بلغ الغلامُ هذا المبلغَ ﴿قَالَ يَـٰبُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ (١٠٢)﴾ [الصافات] والمعنى : أرى فى المنام أنه مطلوب منى أنْ أذبحكَ ، لا أنَّ الذبح تَمَّ فى المنام ، وانتهت المسألة بدليل ردِّ إسماعيل ﴿قَالَ يَـٰأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢)﴾ [الصافات]

وتأمل هنا الحلم على حقيقته ، وعظمة الرد في هذا الامتحان الصعب ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ (١٠٢)﴾ [الصافات] ولم يقُلْ : افعل ما تريد ؛ لأن طاعته لأبيه هنا من باطن طاعته لله تعالى وامتثاله لأمر ربه ، فهو يدرك تماماً أن أباه مُتلَقٍّ الأمر من الله ، وإنْ جاء هذا الأمر في شكل رؤيا . إذن : هو يعلم رغم صغَره أن رؤيا الأنبياء وَحْيٌ حَقٌّ .

وسيدنا إبراهيم ينادي ولده ﴿يَـٰبُنَيَّ (١٠٢)﴾ [الصافات] هكذا بالتصغير ، لأن بُنَي تصغير ابن فلم يقل يا ابني ، فقد أوثقه الحنان الأبوي ، وعرض عليه هذا الابتلاء ، وهو مشحون بعاطفة الحب لولده والشفقة عليه ، لأنه ما يزال صغيراً ، ومعلوم أن حنان الوالد يكون على قَدْر حاجة الولد ؛ لذلك المرأة العربية لما سُئلَتْ : أيّ بنيك أحبُّ إليك ؟ فقالت : المريض حتى يشفى ، والغائب حتى يعود ، والصغير حتى يكبر(١) .

فقوله : ﴿يَـٰبُنَيَّ (١٠٢)﴾ [الصافات] يعني : أنا لا أعاملك معاملة النِّدِّ ، بل معاملة الصغير المحتاج إلى الحنان الأبوي ، فخذ أوامري مصحوبة بهذه العاطفة الأبوية القلبية .

وقوله : ﴿فَٱنظُرۡ (١٠٢)﴾ [الصافات] يعني : فكِّر ، وتدبَّر ﴿مَاذَا تَرَىٰ (١٠٢)﴾ [الصافات] أي : في هذه الرؤيا ، فكأن الصغير في هذه المسألة مطلوب منه أمران : برّك بأبيك ، وبرُّك بربِّ أبيك ﴿قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ (١٠٢)﴾ [الصافات] ، فقوله ﴿ٱفۡعَلۡ﴾ برّ بأبيه . وقوله ﴿مَا تُؤۡمَرُ﴾ برٌّ بربِّ أبيه .

---

(١) ذكره ابن عبد ربه في (العقد الفريد) ، والمبرد في (الكامل) ، والزمخشري في [المستقصى في أمثال العرب] ، والميداني في [مجمع الأمثال] ، من كلام هوذة بن علي الحنفي لكسرى ، وفي الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، والراغب الأصبهاني في (محاضرات الأدباء) أنه لغيلان بن سلمة الثقفي .

ثم يؤكد سيدنا إسماعيل رغم صغره فهمه لهذه القضية ، وإدراكه لهذا الابتلاء ، فيقول : ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات] أي : على هذا البلاء ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعني : هما معاً استسلما لأمر الله ، وأذعنا لحكمه ، وسلَّم كلٌّ منهما زمام حركته في الفعل لربِّه ، فإبراهيم هَمَّ بالذبح ، وإسماعيل انقاد ، وقال لأبيه ﴿ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) ﴾ [الصافات]

والابتلاء في حقِّ سيدنا إبراهيم - عليه السلام - ابتلاءٌ مركَّب هذه المرة ، فقد ابتُلِيَ في شبابه حين أُلْقِي في النار ، فنجح في الابتلاء ، أما هذه المرة فالابتلاء وهو شيخ كبير ، جاءه الولد على كِبَر ، فهو أحبُّ إليه من نفسه ويُؤمَر بقتله .

وكان بوُسْع إبراهيم أنْ يذبحه على غِرَّة ، ودون أنْ يُعلمه بمسألة الذبح هذه ، ولكنه أراد أنْ يُشركه معه في الأجر ، وألاَّ يُوغِر صدره من ناحيته ، وهو يذبحه دون داعٍ .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] يعني : ألقاه على وجهه ، أو على جنبه ، قالوا : كان ذلك بمشورة الولد ، حتى لا يرى أبوه وجهه ساعةَ يذبحه ، فتأخذه الشفقة به ، فلا يذبح ، وكأن الولد يُعين والده ويساعده على إتمام الأمر ، وهكذا ظهر الاستسلام واضحاً ، فالولد مُلْقىً على الأرض ، والوالد في يده السكين ، يحاول بالفعل ذَبْح ولده ، وأيّ ولد ؟ ولده الوحيد الذي رُزِق به على كِبَر .

والابتلاء ليس بأن يموت الولد ، إنما أنْ يذبحه أبوه بيده ، لا بشخص آخر ، ويذبحه بناءً على رؤيا لا أمر صريح ؛ لذلك قلنا ابتلاء مركَّب ، لأن وجوه الابتلاء فيه متعددة ، قد اجتاز إبراهيم وولده هذا الابتلاء بنجاح ، واستحق عليه السلام أن يقول الله في حقه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً (١٢٠) ﴾ [النحل]

نقول : لما وصل إبراهيم وولده إلى هذه الدرجة من الاستسلام لله ، ناداه الله ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) ﴾ [الصافات] وكأن الله كان معهما يرقب هذا الانقياد من عبدين صدقا مع الله ، فجاءهما فرج الله ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَـٰإِبْرَاهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) ﴾ [الصافات]

يعني : ارفع يدك يا إبراهيم عن ذبح ولدك الوحيد ، فما كان الأمرُ إلا بلاءً مبيناً ، أي : واضح قاس عليك أنت وولدك ، وهو مبين لأنه يُبين قوة عقيدة إبراهيم - عليه السلام - في تَلَقِّى الأمر من الله ، وإنْ كان صعباً وقاسياً ، ثم الانصياع له والطاعة ، وكذلك كان البلاء في حَقِّ ولده الذي خضع وامتثل .

وجاء الفداء : ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات] ذبح بمعنى مذبوح ، وهو الكبش الذي أنزله الله ، فداءً لإسماعيل .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) ﴾

لقد استحقَّ سيدنا إبراهيم هذه المنزلة في جميع الأمم من بعده أنْ يُسلِّموا عليه ، كلما ذُكر ، فيقولون ﴿ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) ﴾ [الصافات] فلو ذبح إبراهيم ولده لَصارتْ سنةً من بعده أنْ يتقرَّب الإنسان إلى الله بذبح ولده ، لكن لما صبر سيدنا إبراهيم ، واستسلم لأمر ربه جاءه الفرج من الله وعُوفي وولده من هذا البلاء ، وعُوفينا جميعاً معه من هذه المسألة ، فكلما ذُكر قلنا : عليه السلام ، لأنه حمانا من هذا الموقف الصعب .

وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (١١٠) ﴾ [الصافات] كذلك يعني كما

فعلنا مع إبراهيم نجزى كل مُحسن ، والمحسن هو الذى لا يقف عند حَدِّ الواجب المطلوب منه ، إنما يتعدَّاه إلى الزيادة من جنس ما فُرِض عليه وكُلِّف به .

فالحق سبحانه فرض علينا خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فمَنْ زاد على ذلك فهو من الإحسان .

الله فرض علينا الحقَّ المعلوم للفقير وهو الزكاة ، فمَنْ زاد وأعطى غير المعلوم فهو من الإحسان . واقرأ فى سورة الذاريات : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) ﴾ [الذاريات] يعنى : زائدين عما فرض الله من جنس ما فرض الله عليهم .

ثم يذكر سبحانه حيثيات هذا الإحسان ﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ[1] (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ[2] (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

والمحسن يستحق هذا الجزاء ؛ لأن الذى يتقرَّب إلى الله بأكثر مما فرض الله عليه دليل على أنه عَشِق التكليف والمكلِّف ، وعلم أن الله كلَّفه بأقلّ مما يستحق فزادَ .

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴾

---

(١) الهجوع : النوم ليلاً . وقد يكون الهجوع بغير نوم . والهجيع : طائفة من الليل . [لسان العرب - مادة : هجع].

(٢) السَّحَر : الجزء الأخير من الليل إلى مطلع الفجر ، وجمعه أسحار [القاموس القويم ٣٠٥/١] .

هذه العطاءات كلها نتيجة ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات] لأن الابتلاء الذى وقع لسيدنا إبراهيم كان ابتلاءً مُركباً من مراحل ثلاث : فَقْد الولد الذى جاء على كِبَر ، وأنْ يقتله بيده ، ثم تاج هذه المراحل أنْ يُقتلَ ولده برؤيا منامية ؛ لذلك جاءه الجزاء على قَدْر هذه العقبات فى الابتلاء ، ﴿ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) ﴾ [الصافات]

والفداء فداء إسماعيل من الذبح فعاش إسماعيل ، ثم زاده الله فأعطاه إسحاق ﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) ﴾ [الصافات] فهو أيضاً نبى ، وفى آية أخرى قال سبحانه : ﴿ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ [هود] ويعقوب أيضاً نبى . إذن : كلُّ هذا الخير جاء ثمرة الاستسلام لله تعالى والرضا بحكمه ؛ لذلك صدق القائل[1] :

سَلِّمْ لِرَبِّكَ حُكْمَهُ فَلِحِكْمَةٍ يَقْضِى ... وَحَتَّى تَسْتَفِيدَ وتَسْلَمَا

واذْكُرْ خَلِيلَ الله فِى ذَبْحِ ابْنِهِ ... إذْ قَالَ خَالِقُهُ فَلَمَّا أَسْلَمَا

ثم يمتد هذا العطاء ، فيقول سبحانه : ﴿ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ (١١٣) ﴾ [الصافات]

فلما تكلَّم الحق سبحانه عن الذرية ، قال : ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) ﴾ [الصافات] يعنى : الذرية فيها هذا وذاك ، الخير والشر .

هكذا عرضتْ لنا هذه الآيات قصة سيدنا إبراهيم على وجه الاختصار ، حيث لم تتعرَّض لكل الأحداث .. وينبغى هنا أنْ نذكر معركةَ الأديان فى مسألة الذبيح ، فالمسلمون يعتقدون أن الذبيح إسماعيل ، وغير المسلمين يقولون : الذبيح إسحق ، وهذا القول مردود من عدة وجوه :

---

(١) من شعر الشيخ رضى الله عنه .

أولاً : لو كـان الذبيح إســحق لكانت مسألةُ الذبـح والفداء ومـا يتعلق بهـما من مناسك مَغْداها ومَـراحها بأرض الشام ، حـيث عاشَ هناك سيدنا إسحاق ، أما وهي تُفعل في أرض الحجاز حيث وُلدَ وعاش سيدنا إسماعيل ، فهذا دليل من الواقع على أن الذبيح إسماعيل .

ثانياً : ثم معنا دليل من حديث النبي ﷺ ، حيث قال : « أنا ابْنُ الذبيحين » أي : الذبيحين اللذين كـان لهما فداء من الذبح ، وتعلمون أن الذبيح الأول هو عبد الله أبو النبي ، وقد فداه أبوه من الذبح بمائة ناقة ، أما الذبيح الثاني فإسماعيل عليه السلام الذي فَدَاه ربه بكبش .

فإنْ أنكر غيرنا هذه الأدلة لأنهم لا يؤمنون بها ، فعلينا أنْ نأتيهم بدليل من كتبهم ؛ لأن الإنسان لا يُصدِّق إلا بما يؤمن به ، فلو حلفتَ للكافــر باللات والعـزى فـإنـه لا يُصـدِّقك ؛ لأنه يعلـم أنك لا تؤمن باللات والعـزى ، والإنسان لا يحلف إلا بـما يُعظِّمـه . ولو قُلْتَ له : والله لصَدَّقك .

لذلك نسوق لـغير المسلمين هذا الدليل من التـوراة التي يؤمنون بهـا ، وقد ترك الله لنا في الكتب الـسابقـة على القرآن مـواضع تؤيد مـا جاء به الـقرآن ، ومـا زالت هذه المـواضع موجودة ، وكـأن الله أعماهم عنها لتظلَّ دليلاً على الحقيقة التي لا يعترفون بها .

وعليـهم أن يقـرأوا في الأصحـاح الثـالث والعـشريـن في سفـر التكوين (وأوحى الله إلى إبراهيم أن اصعد بابنك الوحيد جبل الموريا وقدِّمْـه قرباناً لي) ومتى كـان إسحق عليـه السلام وحيـداً وقد وُلد إســحق وعمـر إسمـاعيل أربعـة عشــر عامـاً . وفي الأصحـاح الرابع والعشرين (وُلد إسحقُ وعمر إسماعيل أربع عشرة سنة) .

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

هذا موكب أولي العزم من الرسل ، فبعد أنْ حدَّثنا القرآنُ عن سيدنا إبراهيم ، يحدثنا عن سيدنا موسى ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾ [الصافات] منَّ الله على موسى وهارون منَّةَ عطاء ، بأنْ جعلهما رسولين إلى بني إسرائيل ، ومنةَ نصرْ بأنْ نصرهما على فرعون وجنوده ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ ﴾ [الصافات] والمراد فرعون ، ووصفه الله بالكرب العظيم ، لأن فرعون لم يكُنْ رجلاً متسلطاً على الناس كملك ، إنما متسلط عليهم كإله ، وقد أراد الكيد بموسى عليه السلام ، وأراد الكيد لقومه في مصر ، حيث أخذ منهم الخدم والفعلة والسحرة .

وكلمة فرعون تُطلق على ملوك مصر القدماء ، فكل واحد منهم يسمى (فرعون) ، لكن في سورة يوسف سُمِّي حاكم مصر العزيز والملك ولم يَقُلْ فرعون ، لماذا ؟ قالوا : لأنه بعد أنْ فُكَّ حجر رشيد علمنا أن الهكسوس حينما أغاروا على مصر كانوا ملوكاً في مصر لا فراعنة ، فلما عاد الأمر إلى فرعون كان بنو إسرائيل في خدمة الفرعون بسبب وقوفهم إلى جوار المحتلين الهكسوس ، فاضطهدهم الفرعون وأعوانه .

دمعتي ﴿ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) ﴾ [الصافات] أي : من فرعون ومن الاستعباد ، حيث خرج بهم موسى – عليه السلام – فأدركه فرعون بجنوده حتى حاصرهم عند البحر ، فكان البحر من أمامهم ، وجيش فرعون من خلفهم .

وما أشبه هذا الموقف بموقف طارق بن زياد في فتح الأندلس ، حين قال لجنوده : إن البحر من أمامكم ، والعدو من ورائكم .

وعندما أيقن بنو إسرائيل أن فرعون سيلحق بهم ويدركهم فقالوا لموسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) ﴾ [الشعراء] لأن شواهد الواقع تدل على ذلك ، فهم لا محالة مُدْركون بقوانين البشر ، لكنْ لموسى مع ربه قانونٌ آخرُ ، جعل موسى عليه السلام يقول بملء فيه (كلا) كلا لن تُدْرَكَ ، قالها بما لديه من ثقة بربه ، وبما لديه من الرصيد الإيماني : ﴿ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء] وفعلاً ، جاءه الفرج لتوِّه ، وأمره ربه أنْ يضرب بعصاه البحر ، وكان ما تعلمون من القصة .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦) ﴾ [الصافات] نعم ، وأيّ غَلَبة ؟ لأن هناك فرقاً بين أنْ تغلبَ عدوك ويظل المغلوبُ حياً يُرزَق ، وبين أنْ تغلبه غلبة تُبيده من الوجود ، والذي حدث في قصة موسى وفرعون أن الله قضى على فرعون وجنوده قضاءً مُبْرماً .

ثم ﴿ وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) ﴾ [الصافات] المستبين الذي بلغ النهاية في البيان ، والمراد بالكتاب التوراة ، وقد وصف الحق سبحانه وتعالى – التوراة في موضع آخر ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ (٤٨) ﴾ [الأنبياء]

وقوله تعالى : ﴿ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) ﴾ [الصافات] أي :

المنهج القويم الموصِّل إلى الله من أقرب طريق ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠)﴾ [الصافات] يعني تركنا لهما الذكْر الحسن فيمَنْ يأتي منْ بعدهم ، فكلُّ مَنْ يسمع قصة موسى وهارون ومواقفهما وثباتهما في الحق يقول سلام عليهما ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١)﴾ [الصافات] أي : موسى وهارون .

ومعلوم أن هارون جاء بطلب من موسى لما قال لربه : ﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ (٣٤)﴾ [القصص] فاستجاب الله لطلب موسى وأيَّده بأخيه هارون ، وجعلهما معاً رسولاً واحداً إلى بني إسرائيل .

والقرآن يُبيِّن لنا هذه المسألة ، وأنهما كانا كرسول واحد في قوله تعالى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ[1] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٨)﴾ [يونس]

فيردّ الحق سبحانه : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا (٨٩)﴾[يونس] ، مع أن الداعي موسى وحده ، لكن في الجواب قال ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا (٨٩)﴾[يونس] أي : موسى وهارون ؛ لأنهما في مجال الرسالة واحد ، لا ينفصل[2] أحدهما عن الآخر ، فدعوة موسى هي دعوة هارون .

---

(١) الطمس على الأموال : تحويلها إلى حجارة . والشد على القلب : الطبع والختم على قلوبهم فلا ينعم الله عليهم بالإيمان حتى لو أرادوا ذلك حتى يعذبوا العذاب الأليم . والمقصود بهذا الدعاء هم فرعون وملؤه الممالئون له الملتفُّون حوله الذين يحرضونه ويشجعونه وينصرونه لا عموم شعب مصر كما قال البعض خطأ ، فالله تعالى قال . ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ (٨٨)﴾ [يونس] فالضمير هم عائد على فرعون وملئه . [عادل أبو المعاطي] .

(٢) قاله أبو العالية وأبو صالح وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي والربيع بن أنس فيما نقله ابن كثير في تفسيره (٤٢٩/٢) .

وقد حاول بعض العلماء أن يُقرِّبوا لنا هذه المسألة ، فقالوا : أجاب الله موسى بقوله : ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا (٨٩)﴾[يونس] لأن موسى دعا ، وهارون أمَّنَ على دعائه ، والمؤمِّن أحد الداعين .

ثم يقول سبحانه عن موسى وهارون : ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)﴾ [الصافات] ثم ينتقل السياق إلى نبى آخر ، هو سيدنا إلياس :

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلًا(١) وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ (١٢٥) ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٢٦)﴾

كلمة (إلياس) تُكتب هكذا بالسين ، والبعض لا يكتبون السين ، إنما يكتبون اسمها فيقولون (إلياسين) فهما علَم على هذا النبى الكريم نقول : إلياس أو إلياسين اسم لمسمى واحد ، وهو غير اليَسَعَ عليهم جميعاً السلام .

وهذه الآيات توضح أن سيدنا إلياس جاء بقضية عقدية ، لا بمنهج تكليفى ، جاء ليُصحح القمة العقدية فى الإيمان بواجب الوجود الإله الواحد الذى يجب أنْ يُدْعى وحده ، وموكب الرسالات من لَدُنْ آدم عليه السلام إنما جاء ليصحح صلةَ المخلوق بالخالق .

لذلك أثبت له أنه الخالق الرازق ، وأنه العليم القادر الحكيم العزيز .. الخ ، فهو الذى خلقك وأنعم عليك ، لتتلقى أوامره برضاً ، وتُقبل عليها باطمئنان ، وإنْ لم تكُنْ عبادتك له جزاء ما قدَّم لك من

---

(١) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه : هو اسم صنم كان يعبده أهل مدينة يقال لها بعلبك غربى دمشق [تفسير ابن كثير ٤/٢٠]

النعم التى هيَّأها لك قبل أن توجد ، فلا تكُنْ عبادتك له خوفاً من عقابه حين تعود إليه .

معنى ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) ﴾ [الصافات] ألاَ للحثِّ وللحضِّ على التقوى ، أو للعرض كما تقول : هل لك من كذا ؟ وقوله ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا (١٢٥) ﴾ [الصافات] أى : تعبدون صنماً اسمه بَعْلاً ﴿ وَتَذَرُونَ (١٢٥) ﴾ [الصافات] تتركون ﴿ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) ﴾ [الصافات]

الحق سبحانه حين يصف نفسه بأنه تعالى (أحسن الخالقين) يعنى : أنه سبحانه لا يضنُّ على عبده بصفة الخَلْق ، فالإنسان الذى يُعمل عقله فى الكون ، ويخترع شيئاً نافعاً لمجتمعه يُسمِّيه الله خالقاً ، لأنه أبدع شيئاً جديداً لم يكُنْ موجوداً .

فهو خالق ، والله أحسن الخالقين ، لأن الله يخلق من عدم محض ، أما أنت فتخلق من موجود ، خلق الله فيه حياةً ونمواً وحركة .. الخ ، وخَلْقُك جامد ثابت عند شيء معين ، وقد سبق أنْ بيَّنا الفرق بين الاثنين .

وتأمل هنا : الحق سبحانه ينكر عليهم أنْ يعبدوا صنماً ، ويتركوا عبادة الله لكن لم يقُلْ : وتذرون الله ، إنما ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) ﴾ [الصافات] فذكر الوصف المشوِّق الدال على أحقيته تعالى فى العبادة ، وكأنهم سألوا ، ومَنْ أحسن الخالقين ؟ فقال سبحانه : ﴿ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) ﴾ [الصافات] فأنا أحسن الخالقين ، وأنا ربكم وأنا ربُّ آبائكم الأولين ، المستحق للعبادة .

فماذا كان الجواب ؟

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ (١٢٧) ﴾ [الصافات] كشأن كل الأقوام التى جاءها الرسل ليخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ولا بُدَّ أنْ يُكذب الرسل ، يُكذِّبهم أهلُ الفساد والمنتفعون من الفساد ، يُكذِّبهم سَادَةُ القوم وكبراؤهم ، لتظلَّ لهم سيادتهم وجبروتهم واستعبادهم للضعفاء ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) ﴾ [الصافات] أى : عندنا للحساب تحضرهم ملائكة العذاب ، والمعنى : لا تظنوا أنكم تُفْلتون من أيدينا ، لأن لكم مَعاداً ورجعة كما قال سبحانه : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) ﴾ [المؤمنون]

وقوله : ﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) ﴾ [الصافات] أى : الذين اصطفاهم لطاعته وأخلصهم لعبادته ، ثم تُختم هذه القصة الموجزة لهذا النبى الكريم بما خُتِمتْ به سابقتها ﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) ﴾ [الصافات]

ونفهم من هذه الخاتمة أن الإحسانَ فَرْعُ الإيمان ، يعنى ما كان مُحسناً إلا لأنه كان مؤمناً أولاً .

هكذا لخَّص لنا القرآن قصة هذا النبى ، وبيَّن أنه جاء بقضية عقدية لا قضية تكليفية ، جاء ليُصحِّح للقوم الأساسَ والقاعدةَ التى تُبنى عليها الحياة ، وهذه مهمة الرسل من لدُن آدم عليه السلام ، فقد خلق اللهُ آدمَ أبا البشر خليفة فى الأرض . ومعنى خليفة فى الأرض

أنْ يزاولَ في الأرض مهمة عن الحق سبحانه وتعالى .

ولكي يزاول هذه المهمة أمَدَّه الله بصفات من صفاته ، وهذه الصفات موهوبة ممدودة ليست ذاتيةً في الخليفة ، لذلك يسلبها الخالق في أيِّ وقت ، فالله تعالى هو واجب الوجود الأعلى ، وهو المتصف بهذه الصفات بذاته ، فالله قادر ويعطيك من قدرته قدرةً ، وحكيم ويهبك من حكمته حكمةً تزاول بها الأشياء ، والله قهَّار ويعطيك قهارية تزجر بها مَنْ كان تحت تصرُّفك لتستقيم أمورهم ، ويعطيك رحمانية تحنُو بها على الضعيف والمحتاج .

إذن : فمن صفات الحقِّ واجب الوجود الأعلى أنه يعطينا من وجوده وجوداً ، بل وجودات متعددة بتعدُّد الأفراد ومتوالية الأمثال ، لكن يعطي سبحانه من الوجود الذاتي وجوداً عَرَضياً . فإنْ نظرتَ إلى الآفات التي تصيب الناسَ في حواسِّهم أو في جوارحهم تجدها مرادةً لله تعالى خلقاً أو توجّهاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان كما أخبر عنه خالقه :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

وضربنا لذلك مثلاً بالولد مع أبيه ، فلو أن الأب يعطي ولده المصروفَ كلَّ شهر تجد الولد لا يحرص على لقاء أبيه إلا كل شهر ، إنما لو أعطاه يوماً بيوم لتعرَّض له الولد كل يوم وتمحَّك فيه ، وأظهر نفسه ليأخذ مصروفه الذي تعوَّد عليه ، فتراه مثلاً يمرُّ على أبيه في الصباح ، ويقول : يا أبي أنا رايح المدرسة ، فالحاجة هي التي ألجأته لمودَّة أبيه .

إذن : يجب أنْ نُفسِّر فلسفة الحاجات التي تُعوز النتيجة ، وهذه الحاجات هي التي تُلجئك إلى ربك ، والواقع يؤيد ذلك ، وكثيراً ما نرى الإنسان لا يلجأ لربه ولا يُصلح ما بينه وبين خالقه إلا إذا اختلَّ عنده شيء ، وعزَّتْ عليه أسبابه ، فلا يجد إلا ربه فيقول : يا رب ، يا الله .

إذن نقول : الخالق يَهبُ الخليفةَ من صفاته ، لكن تظل هذه الصفات الموهوبة عَرَضيةً غير دائمة ؛ لذلك يموت الإنسان جنيناً ، ويموت طفلاً ، ويموت شاباً وكهلاً وشيخاً ، وهذه القضية تُفسِّر لنا الحديث الشريف :

« خلق اللهُ آدمَ على صورته ، طوله ستون ذراعاً »[1]

فالهاء يجوز أن تعود على الله تعالى ، فيكون المعنى : خلق اللهُ آدمَ على صورته تعالى ، لا على حقيقته ، وفَرْق بين الصورة والحقيقة ، الصورة هي التي تُؤخذ لك لقطة على هيئة معينة ، ثم تتجمد على هذه الهيئة ، إذن : هذا الخلق لا يعني أن آدم أخذ شيئاً من صفات الله على الحقيقة ، لا إنما على الصورة ، لأن الحقيقة لها دوام ، والصفات في آدم لا دوامَ لها .

ويجوز أنْ تعود الهاء على آدم ، فيكون المعنى : خلق اللهُ آدمَ على صورته أي على صورة آدم ؛ لأن الله تعالى لم يخلق آدم جنيناً ، ثم وُلد ثم صار طفلاً فشاباً ، لا بل خلقه أول الأمر هكذا على هذه الهيئة المعروفة للإنسان الكامل الأعضاء والجوارح إذن : يجوز الوجهان .

وفَرْقٌ بين مَنْ يخلق ، ومَنْ يخلق مَنْ يخلق ، ولتوضيح هذه المسألة قلنا : إن الطفل الصغير لا يقدر مثلاً على نقل المائدة من مكانها ، أما الرجل القوي فيستطيع أنْ ينقلها له ، وهو في هذه الحالة لم يُعدّ قوته إلى الضعيف ليفعل بنفسه ، إنما عدَّى له أثرَ صفته

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (كتاب الاستئذان - حديث ٥٨٧٣) وكذا مسلم في صحيحه (٢٨٤١) . قال النووي في شرحه لهذا الحديث : « هذه الرواية ظاهرة في أن الضمير في صورته عائد إلى آدم ، وأن المراد أنه خُلق في أول نشأته على صورته التي كان عليها في الأرض وتوفي عليها وهي طوله ستون ذراعاً ، ولم ينتقل أطواراً كذريته . وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير » .

فحمل عنه واشتال له ، وظلَّ الطفل ضعيفاً غير قادر على الحَمْل

لذلك نقول : إن وَجْه العظمة في خَلْق الله تعالى وفى عطائه ، أنه سبحانه يخلق من قدرته قدرةً ، ويهبك إياها ، فتقدر أنت بنفسك وتعمل بيدك ، فالخَلْق يتطوَّعون ويُعينون الضعيف ويفعلون له ، لكن يظل ضعيفاً ، أما الخالق سبحانه فيعطى الضعيف قوةً فيفعل بنفسه

لكن تنبَّه أن هذه الصفات موهوبةٌ لك لا ذاتية فيك ؛ لأنك لستَ أصيلاً فى الوجود بل أنت خليفة ، ولا بُدَّ لك أنْ تظلَّ فى حضن مَنِ استخلفك ، وإياك أنْ تشذَّ عمَّنْ استخلفك ، وإلا سحبَ منك مقومات هذا الاستخلاف .

وحين ترى أصحاب الابتلاءات والعاهات : هذا أعور وهذا أعرج .. الخ فاعلم أن الخالق سبحانه يريد أنْ يلفتكَ إليه ، ويُنبِّهك إلى أنك لستَ أصيلاً في الوجود إنما مُسْتخلَفٌ ، وأنك شيء ما دام معك مَنِ استخلفك ، فإنْ تخلَّى عنك فأنت لا شيء ، وآفة الإنسان فى الكون أنْ يعتبر نفسه أصيلاً ، ولو فهم دوره وحقيقة وجوده لاستقامتْ الأمور .

البعض ينظر إلى هذه العاهات على أنها تشويه للخَلْق ولا يرى فيها حكمة ، والحقيقة أنها خُلقَتْ لحكمة مرادة لله تعالى ، وما هي إلا وسيلةُ إيضاحٍ للناس كي لا تغترَّ بالجوارح السليمة ، وكي تظلّ على ذكْر لله الخالق ، وكما قلنا الحاجة هى التى تُلجئك .

ونحن نرى مثلاً رجال المرور يعمدون إلى سيارة جديدة مُحطَّمة ، ويجعلونها فى مكان بارز يراه الناسُ ليرتدع السائقون عن الرعونة فى السُّرعة ، فهذه السيارة وسيلة إيضاح ونموذج جُعِل

كذلك لهدف ، وربما تعمَّدوا إعدام السيارة لما يترتَّبُ على إعدام سيارة واحدة من نجاة ملايين السيارات .

كذلك أنت أيها المعَافَى ، حين ترى أصحاب العاهات تقول : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به[1] ، وتلتفت إلى نعَم الله عليك التى كثيراً ما تغفل عنها ، فإنْ قُلْتَ : فما ذنبُ هذا المبتلَى أنْ يجعله اللهُ وسيلةَ إيضاحٍ لغيره ؟

نقول : لو أدركتَ ما وجده من العوَض عما فقد لتمنيتَ أن تكون مثله ، لذلك نلاحظ أن أصحاب العاهات عوَّضهم الله بخصلة أخرى تُعوِّض ما فيه من نقص ؛ لذلك نقول فى الأمثال : كل ذى عاهة جبار وقد رأيتم فاقد الذراعين (يلضم) الخيط فى الإبرة برجْليه ، والطفل المكفوف يحفظ القرآن كله وهو ابن السادسة ، أخذ الله منه البصر وأعطاه البصيرة ، إنها مواهب لا يستطيعها الأصحاء .

وسبق أنْ قلنا إن الأكتع لو ضربك بيده الكتعاء لعرفتَ أنها ضربة مميتة ، لأنها يد مستريحة لا تعمل ، ففيها من القوة ما ليس للصحيحة ، وإذا انفعل كانت كل قُوَّته فى هذه اليد .

ونحن نقول لإخواننا الذين ابتلاهم الله بفقد البصر : صناديق العلم!! لماذا ؟ لأنهم حصَّلوا من العلم ما يعجز عنه المبصرون ؛ ذلك لأن المبصر تشغله المرائى المتعددة من حوله ، أما المكفوف فلا يشغله شىء ، فبؤرة الشعور عنده دائماً خالية جاهزة للاستقبال ، ثم هو لا يستطيع أن يقرأ بنفسه ، فينتهز فرصة أن يُقرأ له ، فيُنصت

---

(١) أخرج الترمذى فى سننه (٣٤٣١) ، وابن ماجه فى سننه (٣٨٩٢) من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « من رأى صاحب بلاء ، فقال : الحمد لله الذى عافانى مما ابتلاك به وفضَّلنى على كثير ممن خلق تفضيلاً إلا عوفى من ذلك البلاء كائناً ما كان ما عاش» .

جيداً ، ويعى ما يسمع بحيث لا يحتاج إلى إعادته مرة أخرى ؛ لذلك قال أحدهم[1] :

عَميتُ جَنيناً وَالذَّكَاءُ مِنَ العَمَى ... فَجِئتُ عَجِيبَ الظَنِّ للعِلْم مَوْئلاً
وَغَابَ ضِياءُ العَيْنِ بالقَلْبِ رَافِداً ... لعلمٍ إذَا مَا ضَيَّع النّاسُ حَصَّلاَ[2]

إذن : نحن حينما نرى أصحاب العاهات أو الابتلاءات ننظر إلى كمالنا نحن ، ولا ننظر إلى ما عُوِّضوا به من مواهب فى جوانب أخرى ، وسبق أنْ قلنا : إن الذى أبدع السيمْفونية العالمية المشهورة كان أصمَّ[3] !! وتيمورلنك الذى دوَّخ العالم وصاحب الفتوحات المعروف كان أعرجَ !!

والمؤمن الحق حين يرى غيره ممَّنْ ابتلاهم الله لا يتعالَى عليهم ولا يدلّ عليهم بسلامة جوارحه ، إنما يتواضع لهم ، وهو يعلم أن هذا النقص يقابله عوَض فيقول فى نفسه : يا ترى فى أيِّ الجوانب تتفوَّق علىَّ وتتميز عنى ؟ وبهذه النظرة يتساوى الجميع .

نقول : فعلى الإنسان أنْ يظلَّ دائماً على ذكْر لهذه الحقيقة أنه خليفةٌ لله فى الكون ليس أصيلاً فيه ، وما أشبهَ هذه الخلافة بالوكالة حين تُوكِّل غيرك فى شىء بعينه ، فإنِ اعتبر نفسه وكيلاً فى كل

---

(١) هو : بشار بن برد العقيلى ، ولد ٩٥ هجرية ، أصله من طخارستان غربى نهر جيحون ، كان ضريراً ، نشأ فى البصرة وقدم بغداد ، أدرك الدولتين الأموية والعباسية ، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط ، ودفن بالبصرة ، توفى عام ١٦٧ هـ . [الموسوعة الشعرية] .

(٢) البيتان من قصيدة له ، عدد أبياتها ٤ أبيات ، وهى من بحر الوافر . ولفظ الأبيات :

عميت جنيناً والذكاء من العمى ... فجئت عجيب الظن للعلم معقلاً
وغاض ضياء العين للقلب فاغتدى ... بقلبى إذا ما ضيع الناس حصَّلا

(٣) هو بتهوفن ، مؤلف موسيقى ألمانى ، له الفضل الأعظم فى تطوير الموسيقى الكلاسيكية. أول حفلة موسيقية قدمها عندما كان فى الثامنة من عمره ، بدأ يفقد سمعه فى الثلاثينات من عمره إلا أن ذلك لم يؤثر على إنتاجه الذى ازداد فى تلك الفترة وتميز بالإبداع .

شيء فسدتْ الوكالة ؛ لذلك نرى العقلاء حين يُوكِّلون غيرهم يُوكِّلون على قَدْر الحاجة والضرورة حتى لا تُستغل الوكالة ، ويطغى الوكيل على صاحب الحق الأصيل .

وصلاح الدنيا كلها واستقامة أمور الناس قائمة على هذا المبدأ ، مبدأ الاستخلاف ، فالأصل في الإنسان أنْ يظلَّ خليفةً محتاجاً لمن استخلفه ، والعادة أن الاستغناء يُنسيك ، والحاجة تُلجئك وتعطفك إلى مَنْ استخلفك .

ولما خلق اللهُ آدمَ ليكون خليفةً في الأرض ، هل أنزله في الوجود ليباشر مهمته في إعمار الأرض واستنباط أسرار الله في الكون ، دون أن يُعِدَّهُ لهذه المهمة ؟ كيف ونحن نأخذ مثلاً اللاعب الذي نعده لمجرد أنْ يلعب فندربه ونعلمه ونصرف عليه ونصحح له أخطاءه ، إلى أنْ يصلَ إلى المستوى المطلوب منه ، فما بالك بمهمة إعمار الأرض ؟

كذلك الحق - سبحانه وتعالى - دربَّ آدم على هذه المهمة ، فأسكنه في بستان فيه كل ما تشتهيه النفس : ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (٣٥) ﴾ [البقرة]

وهكذا حدَّد الخالق سبحانه لآدم كيفيةَ معيشته في الجنة ، فأحلَّ له أنْ يأكلَ منها كما يشاء ، باستثناء شجرة واحدة . إذن : فالحلال كثير لا يُعَدُّ ولا يُحصى ، أما الحرام فمحدود ، وكذلك شأن الله تعالى في الحياة ، فالأصل في الأشياء الإباحة إلا ما جاء به نصٌّ يحرمه وهو محصور في أشياء بعينها .

وتأمل هنا هذا الاحتياط التشريعي في قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا (٣٥) ﴾ [البقرة] ولم يقُلْ : ولا تأكلا ، فالمنهيُّ عنه مجرد قُربها ؛ لأن

قُرْبك من المحرم يُغريكَ به حتى تقع فيه ؛ لذلك تجد أسلوب القرآن في الأوامر يقول : ﴿ تلْكَ حُدُودُ اللَّه فَلا تَعْتَدُوهَا (٢٢٩) ﴾ [البقرة] أما في النواهي فيقول : ﴿ تلْكَ حُدُودُ اللَّه فَلا تَقْرَبُوهَا (١٨٧) ﴾ [البقرة]

لذلك لما حرّم الإسلامُ الخمرَ لم يحرم شُرْبها فحسب ، إنما حرَّم كلَّ ما يتصل بها من بيع أو شراء أو نقل أو صناعة ، أو حتى التواجد في مكان هي فيه ، لماذا ؟ ليَسُدَّ كل الطرق المؤدية إليها المُغْرية بها .

وحين يُبين لنا الحق سبحانه الحلالَ والحرامَ والأوامر والنواهي ، فإنما يلفت أنظارنا إلى قضية مهمة ، وكأنه يقول لنا . إن استقمتَ على منهجنا وتكليفنا لك ستظلُّ حياتك سليمةً بلا عورة ، خالية من المشاكل والصعاب ، فإنْ تعدَّيْتَ هذه الحدود فانتظر ظهور العورات في المجتمع ، سواء أكانت عورات اجتماعية ، أم أخلاقية ، أم اقتصادية .. الخ

وفي قصة آدم - عليه السلام - حين أكل من الشجرة رمز إلى هذه المسألة ، كيف ؟ لَمَّا استقامَ آدمُ على منْهج ربه والتزم بما أمره الله به عاش في الجنة معافًى بلا سَوْءة ، فلما خالف وأطاع وسوسة الشيطان فأكل من الشجرة التي نُهِي عنها بدتْ سوءتُه لأول مرة ، لأنه لما استقام كان يأكل بطهي ربه له وهو طهْي على قَدْر حاجة الجسم ومُقوِّمات الحياة فلا يبقى منه شيء ، يخرج فضلات من الجسم .

ولكن لما تدخلتْ الشهوة ، وأطاع الشيطان أفسد الخلطة الغذائية التي أُعدَّتْ له ، فتكوَّنت في بطنه الفضلات وأحسَّ لأول مرة بشيء غريب لَم يعهده ، وفوجيء بأنْ خَرْقاً في بدنه يخرج منه شيء قذر

كريه الرائحة .

لذلك عرف آدم أنها عورة ينبغي أنْ تُستر ، فأخذ يقطع من أوراق الشجر ليستر عورته ، ويداري سَوْءَته ، هذا قوله تعالى : ﴿ فلمَّا ذاقا الشَّجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا[1] يخصفان[2] عليهما من ورق الْجنَّة وناداهما ربُّهما ألمْ أنْهكُما عن تلْكُما الشَّجرة وأقُل لَّكُما إنَّ الشَّيْطان لكُما عدُوٌّ مُّبينٌ (٢٢) ﴾ [الأعراف]

وقد رأينا في أثناء الحروب أن الجندي يتغذَّى على قرص صغير يؤدي مهمة الوجبة الغذائية ، لكن لا يترك فضلات في الجسم ، ذلك لتخفَّ مؤونة التموين ، ولا يحتاج الجندي لعملية الإخراج .

إذن : في قصة آدم والأكل من الشجرة إشارة رمزية إلى أن أحكامَ الله ما دامتْ مُنفَّذة يستقيم حال البلاد والعباد ، ولا تظهر في المجتمع عورات ومساوىء ، لذلك حين ترى في المجتمع عورة ظهرت في أي ناحية : علمية ، اقتصادية ، اجتماعية ، خلقية .. الخ فاعلم أن بنداً من بنود منهج الله قد عُطِّل ، فابحث عنه ، وحاول إصلاحه بنفسك أولاً ، إنْ كان الإصلاح في مقدورك ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ إنَّ اللَّه لا يُغيِّرُ ما بقوْمٍ حتَّىٰ يُغيِّرُوا ما بأنفُسهمْ .. (١١) ﴾ [الرعد]

وآدم - عليه السلام - وقع في هذه المخالفة بعد أن بيَّن الله له ما أحلَّ له وما حرَّم عليه ، وبيَّن له عداوة الشيطان ، وأنها عداوة

---

(١) طفقا : من أفعال الشروع ، من أخوات كان وخبرها يكون دائماً فعلاً مضارعاً غير مقترن بأنْ . كقوله تعالى : ﴿ وطفقا يخْصفان (٢٢) ﴾ [الأعراف] أي : شرعا يفعلان ذلك . وأما قوله تعالى : ﴿ فطفق مسْحًا بالسُّوق والأعْناق (٣٣) ﴾ [ص] فالمضارع مقدَّر أي : فطفق يمسح مسحاً . [القاموس القويم ١/٤٠٢] .

(٢) يخصفان : أي يلصقان عليهما ما يستر العورة من ورق الجنة . قيل : ورق شجر التوت . [القاموس القويم ١/١٩٥]

مُسْبقة منذ أمره الله بالسجود فلم يسجد ، ومع ذلك سمع آدم لوسوسة الشيطان ، وكان عليه أنْ يُعمل نعمة العقل ، وأنْ يفكر فيما قاله عدوه إبليس ، حين قال : ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) ﴾ [الأعراف]

يعني : أن مَنْ يأكل من هذه الشجرة يخلد ولا يموت ، إذن : لماذا لم تأكل أنت يا إبليس منها ، ما دام الأمر كذلك ؟ ألستَ القائل لله تعالى : ﴿ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) ﴾ [الأعراف] فهنا إشارة إلى وجوب التفكر في وسوسة الشيطان وعدم الخضوع له .

إذن : ففترة وجود آدم في الجنة كانت فترةَ التدريب على المنهج الخلافي ، فلما حدثتْ منه المخالفة وحصل منه - بيان أراد الله أنْ يُخرجه من الجنة ، وأنْ يُنزله إلى حياة الأرض ليتدرك فيها حركةَ الخليفة ، مُستصحباً للتجربة السابقة .

وكأن الله يقول له : خُذْ من الحلال ما شئتَ ، وابتعد عن الحرام واحذر الشيطان فهو عدوك ، وسيظل يوسوس لك ليُوقعك في المخالفة كما أوقعك في المخالفة الأولى ، فإياك أنْ تسمعَ له لأنك لو سمعتَ له وهو عدوك سيُخرجك من حياة النعيم إلى حياة الشقاء ، كما أخرجك من جنة الالتزام بأمر والالتزام بنهي : ﴿ فَقُلْنَا يَـٰآدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) ﴾ [طه] ولم يقل : فتشقيا .

والحق سبحانه وتعالى وضع لنا في هذه الآية إشارة رمزية منذ أوَّل الخَلْق ، لتَحُلَّ لَنَا مشكلة وقضية ما زال العالم يتحدث فيها إلى الآن وسيظل ، إنها قضية خروج المرأة للعمل والمساواة بالرجل ، وأن المرأة تريد أن تثبت ذاتها .. الخ

وعجيبٌ أنْ تطالب المرأةُ بالمزيد من المسئوليات ، فهى تريد أنْ تأخذ من مهمة الرجل ، في حين أن الرجل لن يأخذ من مهمتها شيئاً ، ولن يحمل عنها عبئاً من أعبائها ، الرجل لا يحمل ولا يلد ولا يرضع . إذن : أخذت أنت مهمةَ الرجل مضافاً إليها مهمتك الخاصة التى لا يقوم هو بها ، وفى هذا ظلم للمرأة .

فقوله تعالى لآدم ﴿فَتَشْقَىٰ (١١٧)﴾ [طه] دَل منذ أول الخَلْق على أن الشقاء والكدح والعمل وتحمُّل المسئولية مهمة الرجل ، وأن المرأة سيدةٌ فى بيتها مُعزَّزة مُكرَّمة ، وهذه الصورة ظلتْ موروثة فى مجتمعاتنا بدون تضليل وبدون انطماس ، فحتى الآن حين يتقدَّم شابٌ لخطبة البنت يشترط عليه كبير العائلة يقول (أنت حتستتها ولا حتشغلها) يعنى : أتجعلها سيدةً مَصُونةً فى بيتها ، أم أنك ستخْرِجها للعمل ؟

البعض يقول : كيف يعصى آدم وهو نبى ؟ فهو إذن مثل الشيطان : هذا عصى وهذا عصى . نقول : عصى آدم وهو فى فترة التدريب التى لا يُؤاخَذ فيها المخطىء ، بل نُصحِّح له دون مؤاخذة ، فالتلميذ فى المدرسة يُصوِّب له المعلم خطأه باللون الأحمر دون أنْ يحاسبه عليه ، إلى أنْ يأتىَ اختبار آخر العام ، فيحاسبه على الخطأ .

فآدم حين أخطأ كان فى فترة التدريب ، وقد صَوَّب اللهُ له خَطأه ، ثم إنه لم يكُنْ نبياً فى هذه الفترة ، لأن آدم خُلق ليكون أباً للبشر جميعاً ، والبشر سيُقَسَّمون إلى قسمين : قسم مُصْطفى وهم الرسل ، وقسم مُصْطَفًى عليه وهم المرسل إليهم .

إذن : آدم فى البداية كان يمثل القسمين ، وجاءت تجربته تمثل عصيان البشر وعصمة الأنبياء ، لذلك أخطأ فصوَّب الله له ، ثم تابَ

فتابَ الله عليه واصطفاه ، وكذلك حال البشر واقرأ : ﴿ وعصىٰ آدمُ ربَّهُ فغوىٰ (١٢١) ﴾ [طه] هذه إشارة إلى ما سيكون من البشر ﴿ ثُمَّ اجتباهُ ربُّهُ فتابَ عليه وهدىٰ (١٢٢) ﴾ [طه]

إذن : الاجتباء والعصمة جاءت بعد التجربة الأولى ؛ لأن آدم مَثَّلَ الجميع ، مثَّل عصيان البشر ، ومثَّل عصمة الأنبياء .

هذا الخليفة طرأ على وجود خُلِق له قبل أنْ يُوجد ؛ لا أن الله خلقه ، ثم نظر ماذا يريد وماذا يحتاج ، ثم خلقه سبحانه خَلْقاً يناسب قيامه بمهمته في عمارة الأرض ﴿ هُوَ أنشأكُم مِّنَ الأرضِ واستعمرَكُمْ فيها (٦١) ﴾ [هود]

ولم يجعل الحق سبحانه العبادات الأصيلة - أي أركان الإسلام - هي كل حركة الحياة ، بل جعلها هي الشحنة التي تُعينك على حركة الحياة ؛ لذلك مَنْ قال إن الإسلام هو هذه الأركان يؤديها وحسب نقول له : لا لأن هذه الأركان بها تستمد القوة من الله لتنجح في حركة الحياة ، والإسلام أوسَعُ من هذه الخمس بكثير ، بدليل قوله تعالى في سورة الجمعة : ﴿ يَٰأيُّها الَّذين آمنُوا إذا نُودي للصَّلاة من يوْمِ الْجُمُعةِ فاسعَوْا إلىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وذرُوا الْبيْعَ (٩) ﴾ [الجمعة]

إذن : ناداهم وأخذهم من شغل ومن عمل هو قمة حركة الحياة ، ألا وهو البيع ، وإن كان البيع مرتبطاً بالشراء إلا أنه أقوى ، لذلك خَصَّه بالذكر ولم يقُلْ : وذروا البيع والشراء ، لماذا ؟

قالوا : لأنه سبحانه خالق الطبع الإنساني ، ويعلم أن الإنسان ثقيل عند الشراء غير حريص عليه ، لكنه حريص على البيع ويسعى إليه ؛ لذلك عندما يكلِّفك أهل البيت بشراء شيء ربما تماطل في شرائه أو تُؤجِّله ، وتُسَرُّ حين تذهب فتجد المحل مغلقاً ، أما لو كنت

بائعاً فإنك تحرص كل الحرص على أنْ تبيع ، لماذا ؟ لأن المشترى ينفق والبائع يأخذ ؛ لذلك ذكر الحق سبحانه البيع لأنه ثمرة الحركة .

وبعد انتهاء الصلاة قال : ﴿ فإذا قُضيت الصَّلاةُ فانتشرُوا في الأرض وابتغُوا من فضل الله .. (١٠) ﴾ [الجمعة] إذن : أخذك للصلاة من عمل ، وأعادك بعد الصلاة إلى العمل والسعى .

وحين تتأمل لفظ الحديث : « بُنِى الإسلامُ على خمس »[1] يعنى : هذه الخمس هى الدعائم التى يقوم عليها الإسلام والمبنى غير المبنى عليه ، وهل البناء الذى نسكنه مُكوَّن من الأساس والأعمدة فحسب ؟ إذن : الإسلام ليس هو الأركان الخمس ، إنما الإسلام أوسع من ذلك ، الأركان هى الشحنة التى يستدعيك ربك إليها ، فتأخذ من لقائه المددَ الذى يُعينك على القيام بحركة الحياة .

ومثَّلْنا ذلك (بالبطارية) حين تذهب بها إلى الشحن ، فنحن لا نستفيد بها فى فترة الشحن ، إنما نعطيها الشحنة اللازمة لتعمل بها بعد ذلك .

ومن عجيب أمر الرحمة الإلهية أن الله تعالى جعل الذهاب إلى شحنة الطاقة الإنسانية فَرْضاً تكليفياً لا بُدَّ لك من القيام به ، لا بُدَّ لك أنْ تقابلنى خمسَ مرات فى اليوم والليلة ؛ لأنك خَلْقى وصَنْعتى ، والصانع أعلم بما يُصلح صنعته ، وتصوَّرْ صنعة تُعْرض على صانعها خمسَ مرات فى اليوم والليلة ، هل يبقى فيها عطب ، هذا فى

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج وصوم رمضان » .

الصانع إنْ كان من البشر ، فما بالك في الصانع إنْ كان هو ربّ البشر وخالقهم سبحانه .

الصانع من البشر يُصلح صنعته بشيء مادي مثل مسمار أو قطعة غيار مثلاً ، أما الخالق سبحانه فيصلحك دون شيء مادي ؛ ذلك لأن المهندس وصنعته شيء مادي فيصلح بالمادة ، أما الخالق سبحانه فغَيْبٌ ، فحين يصلحك من عطب فيك يُصلحك بالغيب فلا تشعر به ولا تراه .

إذن : نقول لا بُدَّ أنْ نفهمَ الدينَ على حقيقته ، وأنْ نفهمَ أن لكل منَّا مهمة ، فإذا تفوَّق عليك غيرك فاعلم أن تفوقه لصالحك وعائد عليك ، لأنه بتفوقه يؤدي إليك خدمة ، في حين أنه لا يستفيد منك ، فالذي يجيد عملاً لا شكَّ أنه ينفع نفسه وينفع الآخرين ، على خلاف مَنْ لا يجيد شيئاً .

لذلك نقول في الفلاحين (باب النجار مخلع) ، فالنجار تظهر مهارته حينما يصنع لغيره ؛ لأنه يتقاضى أجراً ، إنما لا يجيد الصناعة لنفسه ، إذن : حين ترى المتفوِّق عنك ، لا تحسده ولا تحقد عليه ، بل تمَنَّ له الزيادة ، وتمَنَّ له الخير ، فسوف يُصيبك شيء لا محالة من هذا الخير ، وسيعود عليك هذا التفوق في شكل خدمة يُقدِّمها لك .

لذلك كنا في الفلاحين ، لو مات لأحدنا بقرة أو جاموسة يحزن الجميع ، لدرجة أننا رأينا مرة جماعة يَبْكُون على عجل مات فتعجبنا ، الناس يبكون على الميت منهم ، لكن من الحيوانات ؟! بعدها عرفنا أن هذا العجل هو الذي يدير الساقية ، ويحرث الأرض التي يأكل منها هؤلاء الناس ، وينالهم خير هذه الأرض ، وكنا في الريف لا نشتري الخيار ولا

الملوخية ولا البامية وغيرها كثير ، بل كان يُهْدى ولا يُبَاع.

إذن : الهبة المبذولة عند الخَلْق عائدة على كل الخَلْق ، فحين ترى مَنْ هو أكثر منك خيراً أو موهبة ، فتمَنَّ له الزيادة ، لأن خيره لا محالة سيفيض عليك ، وحين ترى مَنْ يجيد عملاً لا تجيده أنت لا تحقد عليه ، لأنك ستحتاجه ليجيد لك عملك حتى لو كنتَ تكرهه ، أو على خلاف معه تحرص عليه ليعمل لك ، فأنت تعلم مدى إجادته للعمل ، فتذهب إليه حرصاً على مصلحتك أنت ، وبذلك يتم التعادل المطلوب في المجتمع ، وتستقيم أمور الخَلْق استقامةً مبنيةً على الحاجة .

ولو تأملتَ في نفسك كما قال الله تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) ﴾ [الذاريات] لوجدتَ في نفسك هذا التعادل بين الأعضاء ، فعندك مثلاً اليد اليمنى تزاول بها بعض الأعمال التي تناسبها ، واليد اليُسْرى تزاول بها أعمالاً أخرى تناسبها ، اليد اليمنى للأعمال الشريفة المكرَّمة ، أما اليسرى فهي لما دون ذلك ، وغالباً ما تكون اليمين أقوى من الشمال وأكثر حركة منها وأدقّ في التناول .

وتأمل مثلاً حين تريد أنْ تقصَّ أظافرك ، فإنك تقصّ الشمال باليمين فيأتي القَصُّ دقيقاً مُريحاً ، على خلاف قَصّ اليمين بالشمال ، إذن : موهبة اليمين عادتْ على الشمال ، وعدم موهبة الشمال عادت على اليمين ، وهذا يلفتنا إلى أنَّ الكمالات في الكون كمالاتٌ مُسْتطرقة تستطرق فيه ، كاستطراق الماء .

والحق - سبحانه تعالى - حين خلق الإنسان الخليفة أعطى له تكوينات تناسب مهمته ، وأول هذه التكوينات الجوارح التي نسميها الحواس التي نُحسّ بها الأشياء ، ويُسمُّونها الحواس الخمس الظاهرة ، وقولهم الظاهرة احتياط لما سيجدّ من حواس يعرفها

العلم ، وفعلاً اكتشف فى الإنسان حواسَّ أخرى غير هذه الخمس كالحاسة التى أعرف بها الجوع ، وكحاسة البَيْن التى أميز بها البُعْد بين شيئين ، وحاسة العضل التى أعرف بها ثقل الأشياء .

وحين تتأمل هذه الحواس الخمس المعروفة ، تجد أن التكليف الشرعى جاء على مقتضى هذا التكوين فى الحواس ، **فلكُلِّ حاسة فى** الإنسان ، ولكل جارحة عَمل ، فأداء كل جارحة لمهمتها يُسمَّى (عمل) ، فالقلب يعمل بالنية ، واللسان يتكلم ، والأذن تسمع ، والأنف يشمُّ ، واليد تمس الأشياءَ ، والعين ترى ، هذا كله عمل .

ولا بُدَّ هنا أنْ نفرق بين العمل والفعل ، والفعل يقابله القول الذى هو مهمة اللسان ؛ لذلك قال تعالى : ﴿ **يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ** (٢) ﴾ [الصف]

إذن : فالقول ، وهو مهمة اللسان أخذ قسماً وحده ، وبقية الحواس أخذتْ القسم الآخر ، فالقول للسان ، والفعل لبقية الحواس ، لماذا أخذ اللسانُ الشطر ، وبقية الحواس الشطر الآخر ؟ قالوا : لأن القول هو وسيلةُ نقل مطلوب الرسل منا لنفعل ، ونقل مطلوباتنا من الغير ليفعلوها .

إذن : فكل الأفعال فى خدمة القول ، ومنهج الله لا يأتينا إلا بالقول الذى يحمل الأمر للحواسِّ فتعمل ، والعمل ليس بالضرورة عملاً عضلياً ، بل ربما يكون عملاً معنوياً ، كعمل القلب وهو النية كما قلنا ، والشرع هو الذى يحكم هذه الحواس ، ويُحدِّد لها الإطار الذى تعمل فيه فى ضوء الحلال والحرام .

ومهمة الحواس أنْ تلتقط المدْرَكَات ، ثم تعرضها على العقل ، فيُصفِّيها تصفيةً حقيقيةً ، بأنْ يقارن بينها ، ويعرف أن هذه تصلح

لكذا ، وهذه لكذا ، وبعد هذه التصفية يُسلِّمها للقلب لتصير عقيدةً فيه ، وكلمة عقيدة تعنى الشيء المعقود الذى لا يُفَكُّ ، ولا يعرض للنقاش مرة أخرى فى العقل ، فالطفل الصغير مثلاً يُغريه شكل النار الجميل ، فيحاول الإمساك بها ، فتحرقه النار ، ويُحسّ لأول مرة بالحرارة ، فتتكوَّن عنده عقيدة أو قضية عقلية أن النار تحرق ، فلا يقترب منها بعد ذلك ، ويظل طوال حياته يسير على هذه العقيدة أو هذا المبدأ ، ولا يحتاج لأنْ يُجرِّبه مرة أخرى .

هذه العقيدة ساعةَ تستقر فى القلب يضخها القلب مع الدم ، فتسير فى جميع البدن ، وتتخلل كل الأعضاء فتتشرَّبها ، وهذا يفسر لنا الحديث الشريف : « إن فى الجسد مُضْغةً ، إذا صلَحَتْ صلَحَ الجسدُ كله ، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كله ، ألا وهى القلب »[1] .

وبعد أن خلق الحق سبحانه للإنسان الجوارحَ والحواسَّ خلق الغرائز ، وهى أمور لازمة لك ، ثابتة فى تكوينك ، ولا يمكن لك الاستغناء عنها ، لكن هذه الغريزة قد تُلحّ عليك فتُخرجك عن الهدف منها ، وعندها لا بُدَّ أنْ يتدخَّل الشرع ليَكبحَ جماحها ، وليُعيدها إلى توازنها الذى خلقها الله من أجله .

يتدخل الشرع ليُعلى الغريزة ويُهذِّبها ، لا ليكبتها ويقضى عليها ، فالأكل غريزة لاستبقاء الحياة ويكفى فيه ما قال سيدنا رسول الله ﷺ : « بحسْبِ ابْنِ آدم لقيماتٌ يُقِمْنَ صلْبه »[2] .

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١٣٢/٤) ، والترمذى فى سننه (٢٣٨٠) من حديث المقدام بن معد يكرب ، ولفظه : « ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطن ، بحسب ابن آدم لقيمات يُقِمْنَ صلبه ، فإن كان ولابد فاعلاً ، فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » .
قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

ولا ينبغي أنْ تخرجَ عن ذلك ، وتتحوَّل إلى شَرَه وتخمة . حب الاستطلاع غريزة جعلها الله لاستكشاف أسراره في الكون ، والتأمل في مخلوقاته ، فإنْ خرجت عن هذا الإطار وصارتْ تَجسُّساً وتتبُّعاً للعورات ، فقد خرجتْ عن مهمتها ، وهنا يتدخَّل الشرع ليُعْليها ويُعيد إليها توازنها .

وأعنف غرائز الإنسان الغريزة الجنسية ، خاصة في سِنِّ الشباب وهذه الغريزة جعلها الله لحفظ النوع واستبقاء النسل ، هذه هي المهمة التي من أجلها خُلقَتْ غريزة الجنس ، وقد حرص الشرع على استبقاء هذه الغريزة مصحوبةً بمنهج حركتها لمَنْ خلقها لتستقيمَ الأمور ، لأن النسلَ هو الثروة الأولى التي ينبغي الحفاظ عليها ليأتي النسلُ شريفاً طاهراً .

وسبق أنْ فرَّقْنا بين النسل الشرعي المحسوب على الوالدين ، والنسل غير الشرعي ، وكيف أن الأول يُقابَل بالفرحة وبالحنان والعطف والرعاية ، والآخر يُقابل بالكراهية وعدم الرغبة ، وربما فكرتْ أمه في التخلص منه ، ولو بإلقائه في الشارع .

من هنا حرص الدين على بناء الأسرة بناءً سليماً فيه شرف وكبرياء وعِزَّةُ نفس في ظلِّ كلمة الله ومنهجه الذي يُؤمِّن لك سلامة نَسْلك ، فيأتي موثوقاً به تطمئن إليه ، وتعتني به ، وتربيه أحسنَ تربية ، وهذا هو هدف الشرع .

وسبق أنْ تحدَّثنا عن الفرق بين الحلال والحرام في هذه المسألة ، وذكرنا الحديث الشريف : « جَدَعَ الحَلاَلُ أَنْفَ الغَيْرةِ »

إذن : فهذه الغريزة مخلوقة في النفس البشرية لأداء مهمة ، ولكي تبقى في إطار ما خُلقتْ له ، لكن الحاصل أن كثيرين يخرجون

بها عن هدفها ، والعجيب أنْ يظلمَ الإنسانُ الحيوانَ في هذه المسألة ، حين يقول : هذه شهوة بهيمية ويتشدَّق بها .

وهذا القول يدل على عدم فهم لغريزة الحيوان ؛ لأن الحيوان يقف بالغريزة عند حدودها كما خلقها الله ؛ لذلك لم نَرَ بهيمة أنثى حملتْ ثم مكَّنَتْ فحْلاً منها بعد ذلك ، كذلك الفحل يشمُّها ، فيعرف أنها حامل فينصرف عنها .

أهذه شهوة بهيمية على حسب ما نقصد نحن من هذه الكلمة ؟ لا ، بل هي إنسانية .. ولك أنْ تقارن بين هذه الغريزة عند الحيوان وعند الإنسان ، وسوف ترى العجب في خروج الإنسان بهذه الغريزة عن المراد منها .

ومن حكمة الخالق سبحانه أنْ ربطَ الغريزة الجنسية والنسل بالاستمتاع ، ذلك لأن للنسل مطالب وتبعات ومسئوليات ، فلو لم تكنْ هناك متعة تُرغِّب الإنسان لَزَهد في المسألة ، وانصرف عنها .

والحق سبحانه وتعالى يأتي للمؤمنين على منهج واحد بأمور متقابلة مثل : العزة والذِّلَّة ، فالمؤمن غير مطبوع على عزَّة دائمة ولا على ذلة دائمة ، إنما الموقف الذي يعيشه هو الذي يملي عليه أنْ يكونَ عزيزاً ، أو أنْ يكون ذليلاً ، فالذلّة والانكسار لإخوانه المؤمنين والعزَّة والتعالي على الكافرين الجاحدين ، كما قال تعالى في وصف سيدنا رسول الله والمؤمنين : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

إذن : فهُمْ أشداء رحماء في وقت واحد ، وهذا دليل على أن المؤمن لا تكيفه غرائزه إلا بمعدلات خالق الغرائز .

من التكوينات أيضاً في خَلْق الإنسان بعد الحواس والغرائز أن الله

خلق فى الإنسان العاطفةَ ، والعاطفة شعور لا نعرف سببه ؛ لذلك تقابل شخصاً فترتاح إليه وآخر تكرهه هكذا دون سابق تعامل ، لماذا إذن تحب هذا وتكره ذاك ؟ إنها العاطفة ؛ لذلك تحب ولدك ولو كان غبياً ؛ لأنك تحبه بعاطفتك ، وتحب ابن عدوك الذكى تحبه بعقلك .. لذلك لم يجعل الحق سبحانه العاطفةَ مجالاً للتكليف .

ويبيِّن لنا سيدنا رسول الله ﷺ العاطفة فى قوله لصحابته ، وفيهم سيدنا عمر : « لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من أمه وأبيه ونفسه »

وقفتْ هذه الكلمة فى نفس عمر . فقال : يا رسول الله ، أنت أحب إلىَّ من أمى وأبى أو من ولدى ومالى ، لكن نفسى يا رسول الله ؟ فكرَّرها رسول الله مرة أخرى ، حتى علم عمر أنها عزيمة ، ولا بُدَّ أن رسول الله يقصد حباً غير الذى يراه عمر ، إنه يقصد الحبَّ العقلى ، عندها قال عمر : الآن يا رسول الله ، يعنى : الآن أصبحتَ أحب إلىَّ من أبى وأمى ، وأحب إلىَّ من ولدى ومالى ، وأحب إلىَّ من نفسى التى بين جَنْبىَّ[1] .

إذن : المراد فى حب رسول الله الحب العقلى ، فلولاه ﷺ ما اهتدينا ولا بلغنا الهدى ، ولولاه لهلكنا ، فأنت تحب محمداً ﷺ كما تحب الدواء المرَّ ، لا تحبه بعاطفتك إنما بعقلك ؛ لذلك فهم سيدنا عمر أن الحب المطلوب شرعاً حبّ العقل ، وإنْ تحوَّل بعد ذلك إلى

---

(١) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال عمر : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إلىَّ من كل شىء إلا نفسى ، فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال : فأنت الآن والله أحب إلىَّ من نفسى ، فقال رسول الله ﷺ : الآن ياعمر . أخرجه أحمد فى مسنده (٤/٣٣٦) .

عاطفة وعشق للذات ، وهذه درجة أخرى أعلى من الأولى .

والقرآن الكريم يُعلِّمنا هذا في قول الله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ⟨٨⟩ ﴾ [المائدة] يعني : لا يحملنكم البغض لقوم أنْ تظلموهم ، وألاَّ تعدلوا معهم ، إذن : البُغْض غير ممنوع ؛ لأنه مسألة عاطفية ، فأحبب مَنْ شئتَ ، وابغضْ مَنْ شئتَ ، لكن إياك أنْ يحملك الحبُّ أو البُغْض على أنّ تتالد بأنْ تجامل مَنْ تحب ، وتظلم مَنْ تكره .

ولأن العواطف بهذا الشكل ، يعني : ليس لها انضباط في الذات خرجتْ من نطاق التكاليف الشرعية ؛ لأنك لا تعرف لماذا مالتْ بك العاطفة لأنْ تحبَّ أو تكره .

وحين نتأمل الحواسّ والغرائز والعاطفة نجد أن الحواسَّ ظاهرةٌ معروفة ؛ فالعين ترى ، والأذن تسمع .. الخ . وكذلك الغرائز ظاهرة بآثرها وأسبابها ، فحين تجوع تطلب الطعام ، وحين تريد أهلك تحنُّ إليهم ، أما العاطفة فشيء خفي غير ظاهر ، لذلك يضرب لها القرآن مثلاً ليس في الإنسان ولا حتى فيما دونه من الحيوان أو النبات إنما مثلاً في الجماد ، واقرأ قوله تعالى في عاقبة الكافرين قوم فرعون : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ .. ⟨٢٩⟩ ﴾ [الدخان]

ومعلوم أن البكاء مظهرٌ عاطفيٌّ ، فهل تبكي السماء ؟ وهل تبكي الأرض ؟ نعم تبكي وتنفعل ، وكأنها تقول لهؤلاء : اذهبوا غَيْرَ مأسوف عليكم ، وإلا لما نفى الله عنها البكاءَ ، ولمَ نستبعد ذلك ؟ والسماء والأرض خَلْق من خَلْق الله خاضع للتسخير ، ألم يَقُل الحق سبحانه : ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ⟨٤٤⟩ ﴾ [الإسراء]

إذن : لا غرابة أنْ يفرح الجماد حين يجد مَنْ يُسبِّح معه وينسجم

مع الكون المسبِّح ، ولا غرابةَ أنْ يحزن ، وأنْ يبكى عندما يشذّ البشر عن هذه المنظومة المسبِّحة ، وعليه يمكن القول بأن السماء والأرض لم تَبْك على هلاك قوم فرعون ، وفرحتْ لهداية آسية امرأة فرعون . إذن : للسماء والأرض انفعال وعاطفة فهى تحب وتكره ، وتبكى وتفرح .

وهذا المعنى أوضحه لنا الإمام على رضى الله عنه ، حين قال[1] : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان : موضع فى السماء ، وموضع فى الأرض ، أما موضعه فى السماء فمصعد عمله - يبكيه لأنه حُرِم من صعود الكَلِم الطيب والعمل الصالح - أما موضعه فى الأرض فمُصلاَّهُ - يعنى : المكان الذى كان يُصلِّى فيه .

كانت هذه مقدمة ضرورية ندخل بها على قصَّة سيدنا لوط فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

كانت مهمة سيدنا لوط فى دعوة قومه أشقَّ مهمة ؛ لذلك ذُكر فى القرآن سبع عشرة مرة ، بالرفع وبالجر ، وذُكر عشر مرات بالنصب ، ووَجْه المشقة فى مهمته عليه السلام أنه جاء ليُعدِّل أعنفَ الغرائز فى النفس البشرية ، وهى الغريزة الجنسية .

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) أن رجلاً سأل على بن أبى طالب : هل تبكى السماء والأرض على أحد ؟ فقال له : لقد سألتنى عن شيء ما سألنى عنه أحد قبلك ، إنه ليس من عبد إلا له مُصلًّى فى الأرض ومصعد عمله من السماء .